



شرح كتاب الكبائر

لشيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب رحمه الله

من الدرس ٠١ إلى الدرس ٠٢

شرح الشيخ عبد الرزاق بن عبد المحسن البدر حفظهما الله تعالى

١٤٤٠/١١/٢٩ هـ

الدرس الأول

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

إِنَّ الحمد لله ؛ نحمده ونستعينه ونستغفره ونتوب إليه، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا ، مَنْ يهده الله فلا مضلَّ له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدا عبده ورسوله، صلى الله وسلم عليه وعلى آله وأصحابه أجمعين . اللهم لا علم لنا إلا ما علمتنا ، اللهم علِّمنا ما ينفعنا وزدنا علماً وأصلح لنا شأننا كله ولا تكلنا إلى أنفسنا طرفة عين . أما بعد :

فإنَّ الله سبحانه وتعالى خلق هذا الإنسان ليكون عبداً لله جل وعلا ، مؤتمراً بأمره ، منتهياً عما نهى الله تبارك وتعالى عنه ، قال الله تعالى : ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات: ٥٦] ، ولا تكون هذه العبودية إلا بالخضوع لله والذل بين يديه جل في علاه ، وبطاعته سبحانه وتعالى بامتثال أمره والانتفاء عما نهى عنه تبارك وتعالى . والله عز وجل حكيمٌ عليم ؛ لا يأمر عباده إلا بما فيه خيرٌ وفلاحٌ وسعادة لهم في الدنيا والآخرة ، ولا ينهاهم تبارك وتعالى إلا عما فيه شرٌّ وضُرٌّ عليهم في الدنيا والآخرة . والعاقل من يجاهد نفسه في هذه الحياة على طاعة الله تبارك وتعالى وحسن التقرب إليه ، والله يقول : ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ﴾ [النكبات: ٦٩] .

وإنَّ من المتأكد على المسلم الحريص على سعادة نفسه في الدنيا والآخرة ؛ أن يحرص على طاعة الله عز وجل فعلاً للأوامر وتركاً للنواهي ، وكل ذلك طاعةٌ لله ، وكله داخلٌ في الإيمان بالله سبحانه وتعالى ، لأن الإيمان كما أنه يشمل فعل الأوامر فإنه كذلك يشمل ترك النواهي ، وكما أن فعل ما أمر الله سبحانه وتعالى به إيمان فإن ترك ما نهى الله سبحانه وتعالى عنه إيمان ، وكما أنه يُتقرب إلى الله جل وعلا بفعل أوامره فإنه كذلك يُتقرب إلى الله سبحانه وتعالى بالبعد عما نهى عنه . ولهذا فإن العلماء رحمهم الله تعالى كما أنهم قد ألفوا كتباً ومؤلفات نافعة في بيان أعمال الإيمان التي يُطلب من المسلم فعلها والقيام بها والمواظبة عليها فإنهم كذلك في الوقت نفسه كتبوا كتباً في بيان ما نهى الله عنه ، لأن المسلم كما أنه مطالبٌ بالعلم بما أمر الله به ليعمله فهو كذلك مطالبٌ بالعلم بما نهى الله عنه ليجتنبه، وإنَّ من لا يعرف ما نهى الله سبحانه وتعالى عنه كيف يتحقق منه الاجتناب والابتعاد وهو لا يعلم !! و«كيف يتقي مَنْ لا يدري ما يتقي؟!»، كيف يجتنب الذنوب من لا يعرفها ولا يعرف خطرها ولا يعرف سوء مغبتها ومضرتها على صاحبها في الدنيا والآخرة !!

ومن هنا كتب غير واحد من أهل العلم كتباً في الكبائر وبيانها ، ولا شك أن المسلم مطلوبٌ منه أن يعرف الكبائر معرفةً يقصد بها اجتناب الكبائر والبعد عنها ، إذ كيف يجتنبها وهو لا يعرفها ولا يعرف خطرها؟! وهل استمرأ كثير من الناس الكبائر وأوغلوا فيها وارتكبوها واقتروها إلا بسبب عدم العناية بهذا العلم العظيم؟! العلم الشريف المبارك؛ وهو معرفة الكبائر بقصد اجتنابها والحذر منها والبعد عن اقترافها .

ولا شك أن اجتناب الكبائر بوابة عظيمة لصلاح الأمور، واستقامة الأحوال، والفوز برضا الله سبحانه وتعالى والمُدخل الكريم يوم يلقي العبد ربه جل وعلا ، ﴿إِنْ تَجْتَنِبُوا كَبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نَكْفُرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَنُدْخِلْكُمُ مُدْخَلًا كَرِيمًا﴾ [النساء: ٣١] ؛ فانظر هذا الأثر العظيم المبارك المترتب على معرفة الكبائر واجتنابها والبعد عنها طاعةً لله سبحانه وتعالى وتقرباً إليه جلّ في علاه.

وقد دلّت نصوص الشرع -نصوص كتاب الله وسنة نبيه صلوات الله وسلامه عليه- أن الذنوب على قسمين:

❖ قسم كبائر ؛ بهذا وُصفت في كتاب الله وفي سنة نبيه صلوات الله وسلامه عليه.

❖ وذنوب صغائر ؛ وهي دون الكبائر.

والكبيرة جاء ذكرها في كتاب الله في آيات عديدة، في مثل قوله: ﴿إِنْ تَجْتَنِبُوا كَبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ﴾ [النساء: ٣١] ، ﴿وَكُلِّ صَغِيرٍ وَكَبِيرٍ مُسْتَطَرٌّ﴾ [الفر: ٥٣] والآيات في هذا المعنى كثيرة ، وجاء أيضاً ذكرها في سنة النبي صلوات الله وسلامه عليه. وسيُمرُّ علينا جملة من النصوص والأدلة -أدلة الكتاب والسنة- في ذكر ذلك وبيانها ، وسيأتي أيضاً الكلام في بيان الفرق بين الكبيرة والصغيرة ، وكيف يميّز المسلم بين كبائر الذنوب وصغائرها وما يترتب على ذلك ، ولا شك أن هذا بابٌ عظيم للغاية من أبواب العلم يحتاج إليه كل مسلم.

وكما أشرت العلماء رحمهم الله تعالى كتبوا في الكبائر كتباً نافعة، ومن هذه الكتب «كتاب الكبائر» للإمام الذهبي رحمه الله تعالى، وهو كتاب عظيم جداً في بابها ، وسبق أن جلسنا مجالس في مدارس هذا الكتاب؛ كتاب الإمام الذهبي رحمه الله «الكبائر» وهو كتاب عظيم جداً، ويُصح باقتنائه والاستفادة منه، وينصح أيضاً بإهدائه للأولاد والشباب والبنات، وحثهم على قراءته ؛ حتى ينشأ على معرفة بهذه الآثام وخطورها فيكون على حذر منها، أما إذا نشأ الشاب نشأة لا يعرف هذه الذنوب ولا يعرف خطورها، وفي الوقت نفسه دواعي هذه الذنوب في هذا الزمان كثيرة جداً وأبواب الشر كثيرة جداً، فإذا لم ينشأ الشاب نشأة فيها تحصُّن بالعلم الشرعي والمعرفة بهذه الأمور وبهذه الذنوب وخطورتها فإنه ينشأ نشأة فيها خطورة عليه من هذه الذنوب ، لكنه إن نشأ متعلماً متفقهاً متبصراً في دين الله فإن العلم الذي حصَّله بإذن الله تبارك وتعالى يحجزه عن هذه الذنوب ويقيه منها بفضلٍ من الله سبحانه وتعالى ومنّ ؛ وهذا هو معنى قول النبي صلى الله عليه وسلم: ((مَنْ سَلَكَ طَرِيقًا يَلْتَمِسُ فِيهِ عِلْمًا سَهَّلَ اللَّهُ لَهُ بِهِ طَرِيقًا إِلَى الْجَنَّةِ)) ؛ لأن العلم يضيء لصاحبه طريقه، وينير له سبيله، ويميز به بين الحق والباطل، والهدى والضلال، وموجبات رضا الله سبحانه وتعالى وموجبات سخطه سبحانه وتعالى.

كذلك من الكتب العظيمة في هذا الباب : «كتاب الكبائر» لشيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب رحمه الله تعالى، وهو كتابٌ عظيم جداً في بابها، وجمعه رحمه الله جمعاً دقيقاً ورتبه ترتيباً دقيقاً نافعاً جداً لطالب العلم . وطريقة الشيخ رحمه الله في عموم مؤلفاته ومصنفاته معروفة ، وذلك بعظيم عنايته بالأدلة -كلام الله تبارك وتعالى وكلام رسوله صلى الله عليه وسلم- وحسن جمعه لها وترتيبها وتبويبها، وبيان ما يستفاد منها من المعاني العظيمة

والدلائل المباركة. وهذا الكتاب «كتاب الكبائر» لشيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب رحمه الله تعالى هو من جملة الكتب التي ألفت في هذا الباب، ويُنصح بالعناية به والإفادة من مضامينه العظيمة.

ونسأل الله الكريم رب العرش العظيم أن يفقهنا أجمعين في دينه ، وأن يرزقنا العلم النافع والعمل الصالح ، وأن يصلح لنا شأننا كله ، وأن يهدينا إليه صراطاً مستقيماً ، وأن لا يكلنا إلى أنفسنا طرفة عين ، إنه تبارك وتعالى سميع الدعاء وهو أهل الرجاء وهو حسبنا ونعم الوكيل .

قال العلامة الشيخ محمد بن عبد الوهاب رحمه الله تعالى في كتاب الكبائر :

بسم الله الرحمن الرحيم . كتاب الكبائر وقول الله تعالى ﴿ إِن تَجْتَبُوا كِبَائِرَ مَا تُهَوِّنُ عَنْهُ نُكْفِرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ... ﴾ الآية [النساء: ٣١] ، وقوله تعالى: ﴿ الَّذِينَ يَجْتَبُونَ كِبَائِرَ الْإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ إِلَّا اللَّمَمَ ﴾ الآية [النجم: ٣٢] . روى ابن جرير عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: «الكبائر: كل ذنب ختمه الله بنار أو لعنة أو غضب أو عذاب». وله عنه قال: «هي إلى سبعمئة أقرب منها إلى سبع، غير أنه لا كبيرة مع الاستغفار، ولا صغيرة مع الإصرار». ولعبد الرزاق عنه: «هي إلى سبعين أقرب منها إلى السبع».

قال رحمه الله تعالى: وقول الله تعالى: ﴿ إِن تَجْتَبُوا كِبَائِرَ مَا تُهَوِّنُ عَنْهُ نُكْفِرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَتَدْخِلْكُمْ مَدْخَلًا كَرِيمًا ﴾ ؛ بدأ رحمه الله هذا الكتاب المبارك بسوق بعض الآيات من كتاب الله جلّ وعلا في بيان أنّ الذنوب منها ذنوب وُصفت بأنها كبائر في غير ما آية من كتاب الله ، ولا شك أن وصفها بهذه الصفة دليل على خطورتها وعظم مضرتها وسوء عاقبتها على فعلها ، فهي ذنوبٌ وصفها ربّ العالمين بأنها كبائر ، عظام ، شنائع ، كبيرة، مما يدل على خطورة هذه الذنوب، وهذا يتطلّب معرفة بهذه الذنوب معرفةً يُقصد بها تجنب هذه الذنوب والبعد عنها وعدم الوقوع في شيء منها.

والله سبحانه وتعالى في هذه الآية والآيات التي جاءت في هذا الباب وساق المصنف رحمه الله تعالى شيئاً منها أمر عباده باجتنب الكبائر، في هذه الآية قال: ﴿ إِن تَجْتَبُوا كِبَائِرَ مَا تُهَوِّنُ عَنْهُ ﴾ ؛ فأمر باجتنب الكبائر وخصّ الكبائر بذلك، وهذا أيضاً يدل على خطورة الكبائر على العبد ، وعظم مضرتها على فاعلها في دنياه وآخره، وأنّ الواجب على العبد المسلم أن يجتنب الكبائر وأن يحذر منها. وهذا الأمر باجتنب الكبائر جاء في نصوص كثيرة في الكتاب والسنة ؛ النبي عليه الصلاة والسلام صح عنه أنه قال: ((اجتنبوا السبع الموبقات)) ، والاجتناب : يعني بُعد الإنسان عما تُهي عنه، بحيث يكون هذا الذي تُهي العبد عنه في جانب بعيد عن الإنسان، لا يقتربه ولا يحوم حول حماه، ويكون بعيداً كلّ البعد عن الوقوع فيه، «اجتنبوا» : يعني اجعلوا هذه الكبائر في جانب بعيد عنكم ، اجعلوها في جانب بعيد لا تقربوها، إياكم وفعلها واقتربها ، وكونوا على حذر من ذلك.

﴿إِنْ تَجْنِبُوا كِبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ﴾ ؛ تُنْهَوْنَ عَنْهُ : أي ينهاكم عنه رب العالمين سبحانه وتعالى في كتابه، وينهاكم عنه رسوله صلوات الله وسلامه عليه . وهذه الآية جاءت في سورة النساء في أوائلها، وقبل هذه الآية من بدء السورة في سورة النساء نهي الله جلّ وعلا عن جملة كبيرة من الأمور ، ولهذا جاء عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه أنه قال: «كل ما نهي الله عنه من أول هذه السورة -أي سورة النساء- إلى قوله ﴿إِنْ تَجْتَنِبُوا كِبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نَكُفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ﴾ فهو كبيرة» . وهذا ليس حصراً للكبائر في ما ذُكر في هذا الموضع، وإنما بيان أن هذه النواهي التي جاء ذكرها في هذه السورة من أولها إلى هذه الآية ثم حُتم ذلكم السياق بقول الله سبحانه وتعالى: ﴿إِنْ تَجْتَنِبُوا كِبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ﴾ دالٌّ على أن ما ذُكر قبلها من النواهي فهو من الكبائر وداخل في جملة الكبائر. وسيأتي ضابط أهل العلم فيما تُعرف به الكبيرة وتُميّز به الكبيرة عن الصغيرة.

قال: ﴿إِنْ تَجْتَنِبُوا كِبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نَكُفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ﴾ وهذا فيه ذكر ثمرة عظيمة من ثمار اجتناب الكبائر والبُعد عنها ؛ أن من ثمرة ذلك تكفير السيئات أي فيما دون الكبائر، لأن الكبائر اجْتُنِبَتْ وابتعد عنها العبد ، فكانت الثمرة تكفير السيئات أي التي هي دون الكبائر، وهي صغائر الذنوب.

وصغائر الذنوب يكفرها فعل الطاعات، ويكفرها كذلك اجتناب الكبائر، لأن اجتناب الكبائر معدودٌ في الطاعات، من جملة الطاعات التي يتقرب بها العبد إلى الله سبحانه وتعالى اجتناب الكبائر والبعد عنها ، فهذا الاجتناب والبعد عن الكبائر هو معدودٌ في جملة الطاعات وفي جملة القربات التي يتقرب العبد إلى الله سبحانه وتعالى بها ، فتكون مكفرة للسيئات ، مثلما أن الصلاة مكفرة ، مثلما أن الصيام مكفر، مثلما أن الحج أيضا مكفر، ((الصَّلَوَاتُ الْخَمْسُ ، وَالْجُمُعَةُ إِلَى الْجُمُعَةِ ، وَرَمَضَانُ إِلَى رَمَضَانَ مُكَفِّرَاتٌ مَا بَيْنَهُنَّ إِذَا اجْتَنَبَ الْكِبَائِرَ)) ، ((مَنْ حَجَّ لِلَّهِ فَلَمْ يَرْفُثْ وَلَمْ يَفْسُقْ رَجَعَ كَيَوْمٍ وَلَدَتْهُ أُمُّهُ)) ، كما أن هذه الطاعات العظيمة مكفرة فإن طاعة اجتناب الكبائر مكفرة للذنوب، مكفرة للسيئات. وابن آدم خطاء وكثير الأخطاء ، كثير التقصير، ((كُلُّ بَنِي آدَمَ خَطَّاءٌ)) ، فهذه الطاعات الحسنات العظيمة مكفرة لسيئاته ، ولهذا قال الله جلّ وعلا: ﴿إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ﴾ [هود: ١١٤] ، من جملة الحسنات التي تُذهب السيئات حسنة اجتناب الكبيرة ، هذه حسنة عظيمة جداً ، رأيتم شخصا يعرض له باب من أبواب الفتنة، تعرض له مثلاً امرأة ذات حُسن وجمال تدعوه إلى نفسها تغريه، فيترك ذلك خوفاً من الله، يترك ذلك خشيةً لله، يترك ذلك بُعداً عن سخط الله سبحانه وتعالى ، كم هي من حسنة عظيمة دالة على أن قلب هذا الإنسان فيه خشية لله وخوف من الله ومراقبة لله سبحانه وتعالى ، فتجنب الذنب خوفاً من ربه وطلباً لرضاه سبحانه وتعالى ، فلا شك أن هذه حسنة عظيمة قام بها العبد ، ولهذا كانت مثل هذه الحسنات من أعظم الوسائل في التقرب إلى الله سبحانه وتعالى. وقصة الثلاثة الذين أطبقت عليهم الصخرة في الغار ؛ أحدهم توسل إلى الله سبحانه وتعالى باجتنابه لفاحشة الزنا بعد أن كانت نفسه مولعة بذلك وحريصة على ذلك ، لكن المرأة التي كان مولعاً بها وعظته وخوفته بالله وقالت له كلمة عظيمة: «اتق الله، ولا

تفض الخاتم إلا بحقه» فقام بعد أن جلس على شعبها الأربع، قام تقوى الله سبحانه وتعالى . فلا شك أن هذه حسنة عظيمة؛ اجتناب الكبائر خوفاً من الله وطلباً لرضاه سبحانه وتعالى لاشك أنها حسنة عظيمة ، ويترتب عليها ما يترتب على غيرها من الحسنات من تكفير السيئات ﴿إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ﴾ . قال: ﴿إِنْ تَجْتَنِبُوا كَبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَنُدْخِلَكُمْ مُدْخَلًا كَرِيمًا﴾ ؛ والمدخل الكريم يتناول الفوز برضا الله سبحانه وتعالى عن عبده، ويتناول أيضاً الفوز بالدخول بجنته والنجاة من سخطه جلّ وعلا؛ فكل ذلكم يتناوله قوله جلّ في علاه: ﴿وَنُدْخِلَكُمْ مُدْخَلًا كَرِيمًا﴾ ، ولهذا اجتناب الكبائر من ثماره العظيمة وآثاره على العبد في دنياه وأخراه أنه يفوز بالمدخل الكريم . ومما يتناوله أيضاً المعنى هنا ما يقع للعبد باجتنابه للكبائر من انشراح الصدر وراحة البال وهناءة العين والبركة في الرزق والحياة ؛ هذا كله داخل، والله يقول: ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهٗ حَيَاةً طَيِّبَةً﴾ هذا في الدنيا ﴿وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [النحل: ٩٧] أي يوم القيامة، يوم يلقون الله جلّ وعلا. ولهذا ينبغي أن يُعلم أن اجتناب الكبائر طاعةً لله سبحانه وتعالى له آثارٌ مباركة وعوائد حميدة على العبد في الدنيا، إضافةً إلى ما أعدّه الله سبحانه وتعالى له يوم القيامة من الأجر العظيم، والثواب الجزيل، والمدخل الكريم.

قال رحمه الله تعالى: ((وقوله تعالى: ﴿الَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الْإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ إِلَّا اللَّمَمَ إِنَّ رَبَّكَ وَاسِعُ الْمَغْفِرَةِ﴾)) ﴿الَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الْإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ﴾ وهذا أيضاً مقام فيه الحث والحض على اجتناب الكبائر والبعد عنها ؛ ﴿الَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الْإِثْمِ﴾ : أي كبائر الذنوب مما نهى الله سبحانه وتعالى عنه، ونهى عنه رسوله صلوات الله وسلامه وبركاته عليه.

﴿وَالْفَوَاحِشَ﴾ أي ما فُحش من الذنوب سواءً القولية أو الفعلية ، ((لَيْسَ الْمُؤْمِنُ بِالطَّعَّانِ وَلَا اللَّعَّانِ وَلَا الْفَاحِشِ وَلَا الْبَذِيءِ)) ، والفواحش يطلق هذا الوصف على الذنوب التي تناهت في فحشها وقبحها وسوءها. ﴿إِلَّا اللَّمَمَ﴾ واللم : هو صغار الذنوب ، وسيأتي الضابط الذي يُعرف به الفرق بين الذنوب كبيرها وصغيرها.

قال رحمه الله تعالى: ((روى ابن جرير)) أي الطبري رحمه الله تعالى ، في كتابه التفسير . ((عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: «الكبائر : كل ذنب ختمه الله بنارٍ أو لعنةٍ أو غضبٍ أو عذابٍ»)) ؛ وهذا التعريف للكبيرة من أحسن ما عُرفت به، وذكر ضابطاً لمعرفتها ، وهذا الضابط الذي ذكره الصحابي الجليل ابن عباس رضي الله عنهما ضابطٌ بذكر العلامة التي تُعرف به الكبيرة. فإذا عُرفت الكبيرة بعلامتها سواءً ما ترتب عليها من حد أو عقوبة في الدنيا، أو ما ترتب عليها من عقوبة في الآخرة ، إذا عُرفت الكبيرة بعلامتها فإنَّ ما

دون ذلك هو الصغيرة ؛ ولهذا قال غير واحدٍ في ذكر تعريف الصغيرة : «هي ما دون الحدين» ؛ أي ما دون ما جاء فيه عقوبة في الدنيا أو عقوبة في الآخرة، من لعن أو غضب أو سخط أو غير ذلك من العلامات التي تدل على أن الأمر كبير.

قال: «الكبائر كل ذنب ختمه الله بنار» ؛ ذكره للختم هنا على اعتبار أنه الغالب ، لكن لو قُدِّم اللعن على ذكر الذنب فإنه يتناوله كذلك ، ولهذا تأتي نصوص كثيرة في السنة: ((لعن الله من فعل كذا)) لم يُختم النص باللعن، ولكنه من الكبائر، فذكره للختم على اعتبار أن الغالب في نصوص القرآن تذكر العقوبات بعد ذكر الذنوب والآثام، فتذكر ثم يذكر ما يترتب عليها من عقوبة.

قال: «ختمه الله بنارٍ أو لعنةٍ أو غضبٍ أو عذاب» ؛ ختمه الله بنار : أي تهدد فاعله بإدخاله النار ، أو ذكر غضبه سبحانه وتعالى على فاعله ، أو لعن فاعله سبحانه وتعالى تهدده بالعذاب. هذا كله علامات تُعرف بها الكبيرة؛ ﴿وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُتَعَمِّدًا فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِدًا فِيهَا وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ﴾ [النساء: ٩٣] . فالذنب الذي يُختم بمثل ذلك ؛ بذكر العذاب أو ذكر الغضب أو ذكر اللعنة أو ذكر الوعيد فهذا كله من العلامات التي تُعرف بها الكبيرة.

كذلكم ذكر العلماء رحمهم الله تعالى مضافًا إلى ذلك مما يفيد أن ابن عباس رضي الله عنهما ما ذكر هذه الأمور الأربعة حاصرًا لمعرفة الكبيرة بها -التي هي اللعنة والغضب والنار والعذاب- لم يذكر ذلك على سبيل الحصر وإنما هذه علامات تُعرف بها الكبيرة، فما كان من هذه الأمور أو من قبيلها مثلها فإنه علامة ودليل على الكبيرة.

ومما يدخل في الكبائر : ما جاء في السنة من نفي الإيمان عن فاعله ، هذا دليل على أنه كبيرة ، فمثلا قول النبي عليه الصلاة والسلام: ((لَا يَزْنِي الزَّانِي حِينَ يَزْنِي وَهُوَ مُؤْمِنٌ ، وَلَا يَسْرِقُ حِينَ يَسْرِقُ وَهُوَ مُؤْمِنٌ ، وَلَا يَشْرَبُ حِينَ يَشْرَبُ وَهُوَ مُؤْمِنٌ)) ؛ فهذا النفي للإيمان عمن شرب الخمر عمن زنا دليلٌ على أن هذا الذي نُفي عن فاعله الإيمان من كبائر الذنوب وعظائم الآثام ، ولهذا استحق أن يُنفي عنه الإيمان، وهذا له نظائر كثيرة يُنفي الإيمان ونفي الإيمان لا يكون إلا في الأمور الكبيرة، لا يكون في ترك المستحبات أو فعل المكروهات ، وإنما يكون نفي الإيمان إما في ترك واجب أو في فعل محرم من كبائر الذنوب ، وهذه قاعدة معروفة عند أهل العلم «أن نفي الإيمان لا يكون إلا على ترك واجب أو فعل محرم». ولهذا نفي الإيمان في مثل قوله: ((لَا يَزْنِي الزَّانِي حِينَ يَزْنِي وَهُوَ مُؤْمِنٌ)) نفي الإيمان هنا نفيٌ لكمال الإيمان الواجب ، وليس نفيًا لكماله المستحب، لأن الإيمان إيمانان: إيمان واجب ، وإيمان مستحب ؛ فالنفي هنا نفي للإيمان الواجب، نُفي عنه الإيمان الذي أوجبه الله عليه، لأن الله أوجب عليه البعد عن هذه الكبائر، وأوجب عليه فعل تلك الواجبات والطاعات ، فلا يأتي نفي الإيمان في النصوص وأحاديث الرسول الكريم عليه الصلاة والسلام إلا في ترك واجبٍ أوجبه الله على عباده، أو في فعل محرم مما حرمه الله سبحانه وتعالى على عباده.

كذلك مما تُعرف به الكبيرة : ما جاء في النصوص عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: «ليس منا من فعل كذا»، ((مَنْ عَشَّنَا فَلَيْسَ مِنَّا)) ؛ فما يأتي فيه هذا هو من قبيل نفي الإيمان «ليس منا» ، ليس المراد بقوله «ليس منا» أي أنه كافر كما يعتقد الخوارج ، وليس المراد به أيضًا «ليس منا» أي ليس من خيارنا كما هو فهم المرجئة، وإنما الحق قوام بين ذلك ، فالذي يفعل هذا الأمور ارتكب كبيرةً عظيمةً وذنبًا عظيمًا استحق به أن يقال في حق من فعل ذلك «ليس منا» ؛ أي ليس على الهدي المرضي والجادة المستقيمة هدي النبي الكريم صلوات الله وسلامه عليه وهدي صحابته الكرام؛ من فعل ما أوجب الله والبعد عما يسخطه جلّ في علاه.

قال: «وله» أي ابن جرير «عنه» أي ابن عباس «قال: هي -أي الكبائر- إلى سبعمائة أقرب منها إلى السبع».

جاء في الحديث: ((اجتنبوا السبع الموبقات)) وذكر في الحديث ذنوب هي من أكبر الكبائر وأعظمها، لكن لم يكن الحديث حاصرًا للكبائر في هذا العدد . فإذا مراد ابن عباس رضي الله عنهما التنبيه على ذلك ، ليست الذنوب محصورة في السبع التي جاءت في الحديث ((اجتنبوا السبع الموبقات)) بل هي كثيرة، ولهذا اختار الرقم هذا الذي هو سبعمائة، ما قال "أربعمائة" مثلاً، ولا قال "ثلاثمائة" أو ستمائة". قال: «هي إلى سبعمائة أقرب» ؛ لماذا ؟ لأن العرب من عادتهم استعمال هذا العدد للتكثير ، لا يراد به العدد نفسه وإنما يريدون به التكثير، إذا أرادوا أن يكثرُوا في باب العشرات قالوا: "سبعين" ، فيفهم من قولهم "سبعين" أنه كثير ، يعني مثلاً قرابة الثمانين قرابة التسعين قرابة الستين، كثير ، لكنه يعطي هذا اللفظ دلالة على كثرته في العشرات . إن كان كثرة مئات يكون: "سبعمائة" ، لا يريدون بذلك العدد نفسه السبعمائة، وإنما يريدون أن كثرته بهذا الوصف ، إن كان في باب المئات قال: "سبعمائة"، وإن كان في باب العشرات قال: "سبعين" ، فيستعملون هذا العدد للتكثير، ولا يراد به العدد عينه أو العدد نفسه.

فإذاً قوله رضي الله عنه: «هي إلى سبعمائة أقرب» أن الكبائر كثيرة جداً، لا أنها بهذا العدد تحديداً. قال: «غير أنه لا كبيرة مع الاستغفار، ولا صغيرة مع الإصرار» أي أن من يقع في الكبيرة ويندم ويستغفر ربه جلّ وعلا ويتوب إليه لا تبقى كبيرة ، تُحى ، يتوب الله عليه ، والله سبحانه وتعالى غفور رحيم ، يقبل التوبة ويعفو عن السيئات. فقلوه: «لا كبيرة مع الاستغفار» أي أنها بالاستغفار والتوبة وصدق الرجوع إلى الله سبحانه وتعالى تُحى ولا تبقى.

«ولا صغيرة مع الإصرار» ؛ الصغيرة عندما يصّر عليها فاعلها ويدوم عليها ويواظب على فعلها تتحول به إلى كبيرة، لأن الإصرار على الصغائر يجزّ الإنسان إلى ما هو أعظم من ذلك ، لأنه يضعف فيه الخوف والمراقبة لله سبحانه وتعالى فيجره إلى ذلك . ولهذا الإنسان لا يتهاون في الصغائر ويستمرئها لأنها بريء لما بعدها، وتجر إلى ما

وراءها، فلا يتهاون بها ويقول: هذه صغيرة والأمر ليس فيها مشكل ، ويداوم عليها ويواظب عليها ؛ فإنها تجره إلى ما وراءها. ولهذا انظر في الآية الكريمة ، قال الله عز وجل: ﴿قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ﴾ [النور: ٣٠] قدّم غض البصر على حفظ الفرج؛ لأن إطلاق البصر يفضي إلى عدم إحصان الفرج ، يجرّ إلى ما وراءه ، ولما نهي الله سبحانه وتعالى عن الزنا قال: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا الزَّانَا﴾ [الإسراء: ٣٢] ، لم يقل: لا تزنا ، قال: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا الزَّانَا﴾ ؛ لأن النهي عن الزنا نهي عنه وعن كل الأسباب التي تفضي إليه وتؤدي بالإنسان إلى فعله.

قال: «ولعبد الرزاق» أي الصنعاني صاحب المصنف رحمه الله تعالى ، وله أيضًا كتاب في التفسير ، ولعل النقل عن تفسيره «تفسير الصنعاني».

«ولعبد الرزاق عنه» أي عن ابن عباس «هي إلى السبعين أقرب منها إلى السبع» ؛ وأيضًا العدد هنا كما تقدم المراد به التكرير. وعدد من أهل العلم اعتمدوا ذلك ، قول ابن عباس «هي إلى السبعين أقرب» ؛ فجمعوا في الكبائر سبعين كبيرة، ومن هؤلاء الذهبي رحمه الله في كتابه "الكبائر" جمع فيه سبعين كبيرة.

فالشاهد أن العدد هنا ليس عددًا حاصرًا ، ومن جمع السبعين لعله جمعه باعتبار هذا العدد الذي ذكره ابن عباس رضي الله عنهما وإن لم يكن حاصرًا للكبيرة في هذا العدد، أي أنها لا تزيد عن السبعين ولا تنقص ، هذا ليس مرادًا من كلامه رضي الله عنه ، وإنما المراد أنها كثيرة ومتعددة. وإذا قيل: إن هذا القول «سبعين» والأول «سبعمائة» يمكن أن يُجمع بينهما: أن الكبيرة الواحدة قد يتفرع منها كبائر هي من جنسها، هي من جنس هذه الكبيرة، فيكون سبعين باعتبار الأصول، والسبعمائة باعتبار ما يتفرع عنها.

وأحيل إلى مرجعين مهمين جدًا للغاية في باب التفريق بين الكبيرة والصغيرة:

■ الأول : كتاب «مجموع الفتاوى» لشيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله تعالى المجلد الحادي عشر الصفحة ٦٥٠ وما بعدها.

■ والمرجع الثاني : كتاب «مدارج السالكين» للإمام ابن القيم رحمه الله، المجلد الأول ، الصفحة ٣٢١ وما بعدها. فإن هذين الموضعين فيهما من التقرير المتين والبيان البين في الفرق بين الكبيرة والصغير ما لا تجده في موضع آخر. ويمكن أيضًا أن يضاف إلى ذلك مقدمة كتاب «الكبائر» للذهبي رحمه الله تعالى.

قال رحمه الله تعالى :

بابٌ أكبر الكبائر

١ - في الصحيحين عن أبي بكرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ((ألا أنبئكم بأكبر الكبائر؟)) قلنا: بلى يا رسول الله، قال: ((الإشراك بالله، وعقوق الوالدين. وكان متكئاً فجلس فقال: ألا وقول الزور ألا وشهادة الزور)) ، فما زال يكررها حتى قلنا: ليته سكت .

قال رحمه الله تعالى: «باب أكبر الكبائر» ؛ وهذا الباب البدء به وتقديمه في أوائل هذا الكتاب في غاية المناسبة ، لأن من المهم جداً والمفيد أن يُبدأ أول ما يُبدأ بأكبر الكبائر وأعظم الذنوب .

قال: «باب أكبر الكبائر» وهذا يستفاد منه أن الكبائر ليست على مستوى واحد ولا على قدر واحد، بل متفاوتة، كلها توصف بأنها كبائر لكنها بعضها أكبر من بعض، وبعضها أعظم من بعض ، ولهذا جاء في الحديث الذي ساقه المصنف: ((ألا أنبئكم بأكبر الكبائر؟)) ؛ إذاً الكبائر هي نفسها متفاوتة ، بعضها أكبر من بعض ، بل إن الكبيرة الواحدة تعظم ويزداد عظمها بحسب أيضاً ما يقتزن بها ويحتف بها ، على سبيل المثال : كبيرة الزنا، إذا كانت هذه الكبيرة مثلاً في شهرٍ حرام، أو كانت مثلاً في بلدٍ حرام، أو كانت مثلاً في حالٍ فاضلة، أو كانت مثلاً بذوي المحارم أو غير ذلك ؛ فإن الجرم في ذلك يعظم، أو بحليلة الجار ، نص على ذلك في الحديث ولعله سيأتي عند المصنف، فيما يحتف بها أيضاً تعظم ، الكبيرة الواحدة تعظم بحسب أيضاً بما يحتف بها من زمان أو مكان أو حال أو نحو ذلك.

قال: ((في الصحيحين عن أبي بكرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ألا أنبئكم بأكبر الكبائر؟)) ؛ «ألا» : أداة استفتاح وتنبيه، يؤتى بها بين يدي المسائل المهمة العظيمة التي يحتاج إلى أن يتنبه المتلقي والسامع ويتيقظ ، «ألا أنبئكم بأكبر الكبائر؟» ثم هذه الطريقة العظيمة في التعليم هي طريقة فيها تشويق وتنبيه وتهيئة للسامع ليتحقق بحسن الاستفادة والانتفاع مما يُلقى إليه. ((ألا أنبئكم بأكبر الكبائر؟)) ((قلنا بلى يا رسول الله)) أي: نبئنا وأخبرنا بأكبر الكبائر.

هنا فائدة سبق التنبيه عليها، لكن من باب التأكيد ؛ ((ألا أنبئكم بأكبر الكبائر؟)) ألا أخبركم بالكبائر؟ هذا يفيد أن الكبائر موضع من المواضع التي هي للتعليم ، تُعقد مجالس ودروس من أجل أن يتعلم الناس الكبائر ، أليس كذلك؟ من المواطن التي تُعقد لها مجالس ودروس ويُحث الناس وتُهيأ الأذهان من أجل أن يتعلموا الكبائر. ((ألا أنبئكم بأكبر الكبائر؟)) لماذا نتعلم الكبائر؟ لماذا تُعقد دروس لمعرفة الكبائر؟ لأننا بحاجة ماسة إلى أن نعرفها من أجل أن نجنبها ، أن نتقيها ، أن ندرك خطورتها، لأن من لا يعرف الكبيرة ولا يعرف خطورتها كيف يجتنبها!! كما قيل: "كيف يتقي من لا يدري ما يتقي!!" كيف يتقي الذنوب وهو لا يعرف الذنوب ولا يعرف خطورتها.

إِذَا قَوْلُ النَّبِيِّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: ((أَلَا أَنْبِئُكُمْ بِأَكْبَرِ الْكِبَائِرِ؟)) هَذَا يَدُلُّ عَلَى أَنَّ هَذَا الْبَابَ -بَابَ عِلْمِ الْكِبَائِرِ- بَابٌ مِنْ أَبْوَابِ الْعِلْمِ الْعَظِيمَةِ الَّتِي يَنْبَغِي أَنْ تُعْقَدَ لَهَا مَجَالِسٌ، وَأَنْ تُكْتَبَ أَيْضًا فِيهَا مَوْلاَفَاتٌ، وَأَنْ تُلْقَى فِيهَا دُرُوسٌ، وَأَنْ تُبَيَّنَ أَيْضًا مِنْ خِلَالِ الْمَنَابِرِ وَخُطْبِ الْجُمُعَةِ وَغَيْرِ ذَلِكَ؛ لِأَنَّ النَّاسَ يَحْتَاجُونَ حَاجَةً مَاسَةً إِلَى مَعْرِفَتِهَا مِنْ أَجْلِ اتَّقَائِهَا وَاجْتِنَابِهَا وَالتَّوَقُّعِ فِيهَا.

((أَلَا أَنْبِئُكُمْ بِأَكْبَرِ الْكِبَائِرِ؟)) ؛ قَوْلُهُ: «أَكْبَرِ الْكِبَائِرِ» فِيهِ مَا تَقَدَّمَ ؛ أَنَّ الْكِبَائِرَ مُتَفَاوِتَةٌ وَبَعْضُهَا أَكْبَرُ مِنْ بَعْضٍ. ((قُلْنَا: بَلَى يَا رَسُولَ اللَّهِ)) ؛ وَهَذَا أَيْضًا فِيهِ حِرْصُ الصَّحَابَةِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ الشَّدِيدِ عَلَى الْعِلْمِ وَالْخَيْرِ وَإِقْبَالِهِمْ عَلَى الْهُدَى.

((قَالَ: الْإِشْرَاكُ بِاللَّهِ)) ؛ وَهَذَا أَكْبَرُ الْكِبَائِرِ عَلَى الْإِطْلَاقِ وَأَعْظَمُ الذُّنُوبِ ؛ الْإِشْرَاكُ بِاللَّهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى . وَالْإِشْرَاكُ بِاللَّهِ : هُوَ أَنْ يُجْعَلَ مَعَ اللَّهِ نَدٌ ، أَنْ يُجْعَلَ مَعَ اللَّهِ شَرِيكٌ، أَنْ يُجْعَلَ مَعَ اللَّهِ نَدِيدٌ.

((قَالَ: الْإِشْرَاكُ بِاللَّهِ)) ؛ وَالشَّرْكُ : هُوَ التَّسْوِيَةُ ؛ تَسْوِيَةُ غَيْرِ اللَّهِ بِاللَّهِ فِي شَيْءٍ مِنْ حَقُوقِهِ أَوْ شَيْءٍ مِنْ خَصَائِصِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى. حَقُوقُهُ: الْعِبَادَةُ . خَصَائِصُهُ: أَوْصَافُ الْكَمَالِ وَنَعَوَاتُ الْجَلَالِ الْمُخْتَصَّةُ بِهِ جَلٌّ فِي عِلَالِهِ. فَمِنْ سَوَى اللَّهِ غَيْرِ اللَّهِ بِاللَّهِ فِي شَيْءٍ مِنْ ذَلِكَ فَقَدْ أَشْرَكَ بِاللَّهِ وَوَقَعَ فِي أَعْظَمِ ذَنْبٍ وَأَكْبَرِ جُرْمٍ . وَعِنْدَمَا لَا يَدْرِكُ النَّاسُ خَطُورَةَ الشَّرْكِ وَلَا يَعِي أَيْضًا النَّاسُ حَقِيقَةَ الشَّرْكِ رُبَّمَا أَنْكَرَ تَجَدُّدًا فِي بَعْضِ النَّاسِ مِنْ يَتَوَرَّعُ عَنْ بَعْضِ الصَّغَائِرِ وَيَعِيشُ حَيَاتِهِ مُتَجَنِّبًا لَهَا وَهُوَ يَوْمِيًّا يَقَعُ فِي الشَّرْكِ بِاللَّهِ الَّذِي هُوَ أَعْظَمُ الذُّنُوبِ! اسْتِغَاثَةً بِغَيْرِ اللَّهِ، وَالتَّجَاؤَ إِلَى غَيْرِ اللَّهِ، وَطَلْبًا لِلْمَدَدِ مِنْ غَيْرِ اللَّهِ، وَتَجَدُّدًا يَرْفَعُ يَدَيْهِ وَيَمْدُهَا لِغَيْرِ اللَّهِ ، "مَدَدُ يَا فُلَانُ، أَغْنَانِي يَا فُلَانُ، أَدْرِكُنِي يَا فُلَانُ، أَنَا عَائِدُ بِكَ يَا فُلَانُ" إِلَى غَيْرِ ذَلِكَ. وَهَذَا كُلُّهُ مِنَ الْخَلَلِ فِي فَهْمِ الذُّنُوبِ ، تَجَدُّدًا يَتَوَرَّعُ عَنْ أُمُورٍ هِيَ مِنَ الصَّغَائِرِ ، وَالتَّوَرَّعُ عَنْهَا مَحْمُودٌ، وَيَقَعُ فِي أَعْظَمِ الذُّنُوبِ وَأَخْطَرِهَا وَأَشَدَّهَا عَلَى الْإِطْلَاقِ وَهُوَ الْإِشْرَاكُ بِاللَّهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

فَإِذَا عِنْدَمَا يَتَعَلَّمُ الْإِنْسَانُ هَذَا الْعِلْمَ -عِلْمَ الْكِبَائِرِ- يَأْتِي فِي الدَّرَجَةِ الْأُولَى فِي أَهْمِيَةِ تَعَلُّمِهِ وَمَعْرِفَتِهِ وَإِدْرَاكِ خَطُورَتِهِ: كَبِيرَةُ الشَّرْكِ بِاللَّهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى الَّتِي هِيَ أَكْبَرُ الْكِبَائِرِ عَلَى الْإِطْلَاقِ. وَلِهَذَا تَجَدُّدًا فِي الْقُرْآنِ وَكَذَلِكَ فِي السُّنَنِ عِنْدَمَا تَعَدَّدُ الْكِبَائِرُ فِي الْآيَاتِ الْكَرِيمَةِ أَوْ فِي الْأَحَادِيثِ الشَّرِيفَةِ عَنِ الرَّسُولِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ أَوَّلُ مَا يُبْدَأُ بِهِ الشَّرْكُ بِاللَّهِ؛ يَعْنِي انْظُرْ عَلَى سَبِيلِ الْمَثَالِ فِي سُورَةِ الْإِسْرَاءِ ؛ لَمَّا أَخَذَ جَلًّا وَعَلَا يَذْكُرُ وَيَحْذِرُ عِبَادَهُ مِنْ جَمَلَةٍ مِنَ الْأُمُورِ وَالذُّنُوبِ وَالْعِظَائِمِ أَوَّلُ مَا بَدَأَ بِالشَّرْكِ، قَالَ جَلٌّ فِي عِلَالِهِ: ﴿لَا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَتَقْعُدَ مَذْمُومًا مَخْذُولًا﴾ [الْإِسْرَاءُ: ٢٢] ثُمَّ بَعْدَهَا جَاءَ قَوْلُهُ: ﴿وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَاقٍ﴾ [الْإِسْرَاءُ: ٣١] ، قَوْلُهُ: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا الزِّنَا﴾ [الْإِسْرَاءُ: ٣٢] ، قَوْلُهُ: ﴿وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ﴾ [الْإِسْرَاءُ: ٣٣] ، قَوْلُهُ: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ [الْإِسْرَاءُ: ٣٤] ، قَوْلُهُ: ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ﴾ [الْإِسْرَاءُ: ٣٦] ، قَوْلُهُ: ﴿وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا﴾ [الْإِسْرَاءُ: ٣٧]؛ نَوَاهِي كَثِيرَةٌ جَاءَتْ فِي هَذَا السِّيَاقِ لَكِنَّا بَدَأْنَا بِقَوْلِهِ: ﴿لَا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَتَقْعُدَ مَذْمُومًا مَخْذُولًا﴾ . وَأَيْضًا خُتِمَتْ بِالْتَّحْذِيرِ مِنَ الشَّرْكِ: ﴿كُلُّ ذَلِكَ كَانَ سَيِّئُهُ عِنْدَ رَبِّكَ مَكْرُوهًا﴾ (٣٨) ذَلِكَ مِمَّا أَوْحَى إِلَيْكَ رَبُّكَ مِنَ الْحِكْمَةِ وَلَا تَجْعَلْ

مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَتَلْقَى فِي جَهَنَّمَ مَلُومًا مَدْحُورًا ﴿٣٨﴾ [الإسراء: ٣٨ - ٣٩] ؛ فَصُدِّرَتْ بِالنُّهْيِ عَنِ الشَّرْكِ، وَأَيْضًا حُتِمَتْ بِالنُّهْيِ عَنْهُ.

وهكذا تجد أيضًا في أحاديث الرسول عليه الصلاة والسلام ؛ عندما تُذكر النواهي تُبدأ بالشرك، ((ألا أنبئكم بأكبر الكبائر)) بدأ بالشرك ، ((اجتنبوا السبع الموبقات)) بدأ بالشرك. في القرآن الكريم: ﴿وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ﴾ [الفرقان: ٦٨] بدأ بالشرك . لأن الشرك بالله سبحانه وتعالى هو أكبر الكبائر وأعظم الذنوب وأخطرها على الإطلاق؛ ولهذا بدأ به عليه الصلاة والسلام، قال: ((الإشراك بالله)).

((وعقوق الوالدين)) ؛ ذكر عقوق الوالدين بعد كبيرة الشرك التي هي أكبر الكبائر؛ وهذا فيه دلالة على عظم حق الوالدين ، وكما أنه قُرْن عقوق الوالدين في هذا الحديث بالإشراك بالله ، فإنه قد قُرْن حق الوالدين بحق الله في أكثر من آية من القرآن ، مثل قول الله عز وجل : ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾ [الإسراء: ٢٣] ، ﴿قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبِّي عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾ [الأنعام: ١٥١] ، ﴿وَأَعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾ [النساء: ٣٦] ، ﴿أَنْ أَشْكُرَ لِي وَلَوْلَا ذَلِكَ﴾ [لقمان: ١٤] ؛ ففي أكثر من آية قرن الله سبحانه وتعالى بين حق الوالدين مع حقه سبحانه وتعالى ، مما يدل على عظم مقام الوالدين وعظم حق الوالدين، وخطورة عقوق الوالدين . وفي هذا الحديث قرن النبي صلى الله عليه وسلم عقوق الوالدين بالإشراك، قال: ((الإشراك بالله، وعقوق الوالدين)) ؛ الإشراك بالله فيه تضييع لحق الله على عباده وهو إخلاص الدين له وإفراده جلّ وعلا بالعبادة، وعقوق الوالدين تضييع لحق من لهما أكبر الحق عليك بالبرّ والإحسان والطاعة والعمل على القيام بالحقوق والبُعد عن كل ما يؤذيها ويلحق الأذى بهما.

فحق الوالدين حق عظيم ، وهو مقدّم على الآخرين غيرهما من الناس ؛ ولهذا من جميل صنيع الإمام البخاري رحمه الله في كتابه «الأدب المفرد» وهو كتاب ساقه في ذكر الآداب المأثورة عن النبي الكريم صلى الله عليه وسلم، وهو كتاب يقع في مجلد كبير ؛ أول باب تجده في هذا الكتاب «باب بر الوالدين» ، وكأنه يقول رحمه الله تعالى : اقرأ هذه الآداب كاملة واعلم أن أحق الناس بها وأولاهم بها الوالدين ؛ لعظم حق الوالدين وعظم مكانة الوالدين. كثير من الناس تجده يحسن الحديث مع إخوانه أصدقائه زملائه ينتقي لهم أطيب الكلام وأحسنه، لكنه في مثل ذلك لا يكون مع والديه ، ناهيك عن التضييع لحقوق الوالدين العظيمة.

ففي هذا الحديث قرن عقوق الوالدين بالإشراك بالله سبحانه وتعالى ؛ مما يدل على خطورة العقوق. قال: ((وكان متكئًا فجلس)) يستفاد منه جواز بيان العلم مع الاتكاء ، لا حرج في ذلك ؛ أن يبين شيئًا من مسائل العلم وهو متكئ.

((وكان متكئا فجلس فقال: ألا وقول الزور ألا وشهادة الزور. فما زال يكررها حتى قلنا: ليته سكت)) ؛
أشفق الصحابة رضي الله عنهم من تكرار النبي صلى الله عليه وسلم لهذه الكلمة: ((ألا وقول الزور ألا وشهادة
الزور)) يكررها صلوات الله وسلامه عليه تكراراً يُقصد منه التحذير والتنبيه. فكان متكئا فجلس وأخذ يردد
صلوات الله وسلامه عليه ((ألا وقول الزور ألا وشهادة الزور)) فما زال يكررها حتى قلنا ليته سكت .

وقول الزور : هو قول الكذب والبهتان والافتراء ، ولاسيما ما يُقتطع به حقوق الناس وأموالهم ويُعتدى فيه على
حقوقهم . فشهادة الزور من أخطر ما يكون في أبواب التعديات على الناس ؛ لأن شهادة الزور تقلب الأمور
وتضع الأمور في غير مواضعها، وتجد صاحب الحق يُظلم ويُهضم، والمبطل يأخذ ما ليس له بحق ، فيحصل
بشهادة الزور من الظلم والتعدي والبهتان ما هو أمر خطير جداً .

وهذا الحديث قُرئت فيه شهادة الزور أيضاً بالشرك ، لأنها جُمعت معه في الحديث. وجاء في حديث آخر عن نبينا
عليه الصلاة والسلام -وهو في المسند وغيره- أنه قال: ((عُدِلَتْ شَهَادَةُ الزُّورِ بِالْإِشْرَاقِ بِاللَّهِ)) ثم تلا عليه الصلاة
والسلام قول الله تعالى: ﴿فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الْأَوْثَانِ وَاجْتَنِبُوا قَوْلَ الزُّورِ﴾ [الحج: ٣٠] ؛ فقرن قول الزور بالإشراك بالله
سبحانه وتعالى ، مما يدل على خطورة قول الزور وخطورة شهادة الزور ، لما يترتب عليه من المضار العظيمة
والمآلات الوخيمة.

لعلنا نكتفي بهذا القدر، ونسأل الله الكريم أن ينفعنا أجمعين بما علّمنا، وأن يزيدنا علماً، وأن يصلح لنا شأننا كله،
وألا يكلنا إلى أنفسنا طرفة عين، وأن يغفر لنا ولوالدينا ولمشايخنا وللمسلمين والمسلمات والمؤمنين والمؤمنات
الأحياء منهم والأموات إنه تبارك وتعالى غفور رحيم.

سبحانك اللهم وبحمدك، أشهد ألا إله إلا أنت، أستغفرك وأتوب إليك.

اللهم صلِّ وسلِّم على عبدك ورسولك نبينا محمد وآله وصحبه أجمعين.

الدرس الثاني

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله ربّ العالمين، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله، صلى الله وسلم عليه وعلى آله وأصحابه أجمعين . اللهم يا ربنا علّمنا ما ينفعنا وانفعنا بما علّمتنا وزدنا علمًا، وأصلح لنا شأننا كله، اللهم آت نفوسنا تقواها، زكها أنت خير من زكاها، أنت وليها ومولاها، أما بعد :

قال رحمه الله تعالى :

٢- باب كبائر القلب

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ((إن الله لا ينظر إلى صوركم ولا إلى أموالكم، ولكن ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم)) رواه مسلم .

هذه الترجمة «باب كبائر القلب» بدأ بها المصنف رحمه الله تعالى ، وهذا من حسن البدء ؛ لأن القلب كما هو معلوم هو قائد البدن، فبصلاحه يصلح، وبفساده يفسد، ولهذا كان من المناسب في الحديث عن الكبائر البدء بالكبائر التي تتعلق بالقلب ؛ لأن القلب هو الأساس . وهذه الطريقة في البدء هي من توفيق الله سبحانه تعالى لهذا الإمام رحمه الله تعالى وغفر له . وعادةً تُذكر الكبائر في الكتب المصنفة في هذا الباب سرّداً ولا يراعى فيها هذا الأمر، لكن من توفيق الله سبحانه وتعالى لهذا الإمام بدأ بكبائر القلب وعدّها واحدةً تلو الأخرى؛ وذلك لأن القلب هو الأساس.

وأورد رحمه الله تحت هذه الترجمة ما يدلّ على ذلك؛ أن القلب هو الأساس، وأن أمره خطير . القلب مضغة صغيرة جدّاً بين جنبي الإنسان لكنها خطيرة للغاية، فالمرء ليس بجسمه وهيئته ومنظره وصورته، وإنما المرء بما عليه قلبه، فإن كان القلب صالحاً صلح البدن ، وإن كان فاسداً فسد، ولهذا يقال: «المرء بأصغريه» المرء ليس بوجهه ولا يديه ولا برجليه ولا بحركته، المرء بأصغريه ، وأصغراه هما : القلب واللسان ، فإذا استقام القلب استقامت الجوارح، وإذا استقام اللسان استقامت أيضاً الجوارح ، ولهذا يقول عليه الصلاة والسلام: ((لَا يَسْتَقِيمُ إِيْمَانُ عَبْدٍ حَتَّى يَسْتَقِيمَ قَلْبُهُ)) ، ويقول عليه الصلاة والسلام: ((إِذَا أَصْبَحَ ابْنُ آدَمَ فَإِنَّ الْأَعْضَاءَ كُلَّهَا تُكْفِّرُ اللَّسَانَ فَتَقُولُ : أَتَقِ اللَّهَ فِينَا فَإِنَّمَا نَحْنُ بِكَ ، فَإِنْ اسْتَقَمْتَ اسْتَقَمْنَا وَإِنْ اعْوَجَجْتَ اعْوَجَجْنَا)) .

أورد رحمه الله حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ((إن الله لا ينظر إلى صوركم ولا إلى أموالكم)) ؛ النفي هنا للنظر ليس نفياً لنظر الإدراك ، وإنما هو نفى لنظر المحبة والإنعام والإكرام، وهذا الذي يأتي نفية في الأحاديث: ((ثلاثة لا يكلمهم الله ولا يزكيهم ولا ينظر إليهم)) ونحو ذلك ، النفي في مثل هذا نفياً لنظر المحبة والإنعام والإكرام ، وليس نفياً لنظر الإدراك ، الله سبحانه وتعالى مطلع على كل شيء، يرى

كل شيء سبحانه وتعالى، لكن هؤلاء أهل هذا الوصف لا ينظر إليهم نظرة إكرام وإنعام ومحبة، مما يترتب أيضًا عليه المثوبة والأجر عند الله سبحانه وتعالى.

قال : ((لا ينظر إلى صوركم ولا إلى أموالكم)) ؛ الصورة: قامة الإنسان وهيئته وبنيته وقوّته وصحته وجماله. والأموال: معروفة. وأيضًا يُضاف إلى ذلك -لأن هذا ليس حاصرًا- يضاف إلى ذلك : لا ينظر إلى صوركم ولا إلى أموالكم ولا إلى ثيابكم ولا إلى أثاثكم، ولا... كل هذه الأمور ليست محل النظر، نظر الإنعام والإكرام. وفي القرآن الكريم يقول الله سبحانه وتعالى: ﴿وَإِذَا تَلَّى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا أَيِ الْفَرِيقَيْنِ خَيْرٌ مَقَامًا وَأَحْسَنُ نَدِيًّا (٧٣) وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنْ قَرْنٍ هُمْ أَحْسَنُ أَثَاثًا وَرِثِيًّا﴾ [مريم: ٧٣-٧٤] ، الأثاث يتناول الثياب ويتناول أيضًا ما يكون في المنزل من ممتلكات ومقتنيات وحاجات، ﴿أَحْسَنُ أَثَاثًا وَرِثِيًّا﴾ أي صورة، صورتهم وقامتهم وهيئتهم كانوا أحسن من هؤلاء وأهلككم الله، إذاً ليس النظر إلى هذه الأشياء. ﴿وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ وَإِنْ يَقُولُوا تَسْمَعْ لِقَوْلِهِمْ﴾ [الزمر: ٤٠] لكنهم من أبغض الخلق إلى الله سبحانه وتعالى.

قال: ((إن الله لا ينظر إلى صوركم ولا إلى أموالكم)) هذا فيه عبرة ؛ أن كثرة المال عند الإنسان، قوة الصحة عنده، فصاحة اللسان والمنطق عنده، كل هذه ليست محل نظر الرب سبحانه وتعالى، الذي هو نظر الإنعام والإكرام.

((لا ينظر إلى صوركم ولا إلى أموالكم)) ؛ إذا ما هو الذي هو محل نظر الرب نظر الإنعام والإكرام والمحبة؟ قال: ((ولكن ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم)) ؛ وقدم القلوب على الأعمال لأن القلب هو الأساس، وهذا موضع الشاهد من الحديث للترجمة. فالأعمال صلاحها بصلاحه، وفسادها بفساده، لأن القلب للبدن كالقائد للجند، بل لا تتخلف الجوارح عن مرادات القلوب، ما أرادته القلب من الجوارح هو الذي يقع ، فهي تبع له لا تتخلف عن مراداته إطلاقًا، ولهذا قُدِّم القلب، ولهذا أيضًا قُدِّم المصنف رحمه الله تعالى كبائر القلب على الكبائر الأخرى التي تتعلق بسائر البدن.

قال: ((ولكن ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم)) ؛ «ينظر إلى قلوبكم» لأن القلب هو الأساس، فإذا زكى القلب وطاب واستقام على طاعة الله سبحانه وتعالى أحبَّ الله جلَّ وعلا صاحبه، إذا عُمر بالإيمان وطاعة الله جلَّ وعلا واستقام على طاعة الله أحبَّ الله صاحبه؛ لأن القلب موضع النظر، هذه المضغة الصغيرة هي موضع نظر الرب سبحانه وتعالى. وهذا يُستفاد منه فائدة : أنَّ أَوْلَى وأهم ما ينبغي على العبد أن يعمل على إصلاحه هو هذا القلب، به يبدأ، يعمل على تزكيته، يعمل على إصلاحه، يلح على الله سبحانه وتعالى في ذلك، «اللهم آت نفوسنا تقواها، وزكها أنت خير من زكاها، أنت وليها ومولاها».

قال: ((وأعمالكم)) أي ما يقومون به من أعمال، أي طاعات وقربات لله سبحانه وتعالى فهذه هي التي محل النظر، محل النظر الذي هو نظر الإكرام والإنعام والإحسان.

قال رحمه الله تعالى :

٣ - وعن النعمان بن بشير رضي الله عنه مرفوعاً: ((ألا وإن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله، وإذا فسدت فسد الجسد كله، ألا وهي القلب)). .

قال: ((وعن النعمان بن بشير رضي الله عنهما مرفوعاً)) أي: إلى النبي عليه الصلاة والسلام .

((ألا وإن في الجسد مضغة)) ما معنى مضغة؟ أي: قطعة صغيرة جداً، بقدر ما يُمضغ في الفم ، قطعة صغيرة،

((ألا وإن في الجسد مضغة)) ثم مع صغرها نظرًا إلى الجسم التي هي موجودة فيه هي أخطر شيء في الجسم.

قال: ((مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله، وإذا فسدت فسد الجسد كله، ألا وهي القلب)) ؛ وهذا يبين

أن القلب هو الأساس. أبو هريرة رضي الله عنه قال: «القلب ملك، والأعضاء جنوده، فإذا طاب الملك طاب

الجند، وإذا خاب الملك خاب الجند» ؛ قال شيخ الإسلام ابن تيمية كلامًا معناه قرأته قديمًا، قال: وكلام النبي

صلى الله عليه وسلم أتم ؛ لأن الملك قد يطيب ويفسد بعض الجند ، وقد يخيب ويصلح بعض الجند، أما القلب

فالأمر آخر، القلب إذا طاب طابت الجوارح كلها ، وإذا فسد فسدت كلها، يقول ابن تيمية رحمة الله عليه : لا

يُتصور أن تتخلف الجوارح عن مرادات القلوب. عندما يقول الآن بعض الناس يُنهى عن منكر أو يؤمر بطاعة أو

واجب من واجبات الدين- ويقول الكلام على القلب، العبرة بالقلب، وبعضهم ربما يقول: أنا قلبي طيب، وربما

زاد أيضًا في وصف قلبه قال : أبيض مثل القشطة، وأنا كذا. لا ؛ لا تغالط نفسك، انظر إلى هذا الحديث: ((ألا

إن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله، وإذا فسدت فسد الجسد كله)) ؛ فإذا وُجد نوع فساد في

الجسد هذا مؤشر نوع فساد في القلب، وإذا وجد أيضًا الإنسان من نفسه إقبال على الطاعة والعبادة هذا أيضًا

مؤشر على استقامة القلب.

ولهذا كان من أعظم الأمور المتأكد العناية بها إصلاح القلب وتنقيته والعمل على تطهيره من الآفات والأمراض

التي تصيب القلوب فتُعطبها، وفي الدعاء المأثور: «واسل سخيمة صدري» ، وفي الدعاء المأثور: «وأسألك قلبًا

سليمًا» أي: نقيًا مطهرًا زكيًا ؛ فيعمل الإنسان أول ما يعمل على إصلاح هذا القلب.

إذا المصنف رحمه الله قال: «باب كبائر القلب» وأورد حديثين ، قصّد بإيراد هذين الحديثين بيان أهمية البدء بهذه

الترجمة التي هي كبائر القلب، وإلا كبائر القلب ستأتي في التراجم التي بعده، لكنه قصد بذلك أن يبين أهمية البدء

بهذه الترجمة لأن القلب محل نظر الرب سبحانه وتعالى ، والقلب هو الأساس، فإذا طاب طاب البدن، وإذا فسد

فسد البدن.

قال رحمه الله تعالى :

باب ذكر الكبر

وقول الله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَنْ كَانَ مُخْتَالًا فَخُورًا﴾ [النساء: ٣٦] ، وقول الله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ﴾ [لقمان: ١٨] ، وقول الله تعالى: ﴿فَلَيْسَ مَثْوًى الْمُتَكَبِّرِينَ﴾ [النحل: ٢٩] .

قال رحمه الله تعالى: « باب ذكر الكبر » ؛ والكبر -أعاذنا الله عز وجل منه- هذا مرض من أمراض القلوب، إذا أصاب القلب أهلكه وباء صاحبه بنقيض ما قصد، فمن قصد التكبر على عباد الله وضعه الله سبحانه وتعالى، كما أن من تواضع لعباد الله رفعه الله، فيعامل بنقيض قصده وفعله؛ من تواضع رفعه الله، ومن تكبر وضعه الله سبحانه وتعالى. فالكبر مرض من أمراض القلوب؛ وهو أن يرى الإنسان نفسه ويتعالى بنفسه على الآخرين، ويرى أنه أشرف وأفضل إلى غير ذلك من الأوصاف التي يعتقدونها في نفسه.

قال: «وقول الله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَنْ كَانَ مُخْتَالًا فَخُورًا﴾»؛ مختالاً : أي مُعجب بنفسه، تأتي عند المصنف رحمه الله ترجمة خاصة في العجب، مختال : أي مُعجب بنفسه . فخوراً : أي على غيره . وهذا يوضح لك الفرق بين العجب والكبر ؛ الكبر : تعالي على الغير . والعجب : زهو بالنفس ولو على انفراد الإنسان. زهو في النفس، تعظم نفسه عنده، يُعجب بها. لكن الكبر: علو على الآخرين ، الكبر لا يكون إلا مع وجود أطراف أخرى ، أما العجب لا يلزم ، لأن العجب هو زهو الإنسان ورؤيته لنفسه.

قال: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَنْ كَانَ مُخْتَالًا فَخُورًا﴾ أي: لا يحب من كان معجباً في نفسه، ولا من كان متعاليًا على غيره. ومثلها قول الله عز وجل: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ﴾ ؛ وهذا فيه إثبات المحبة صفة لله سبحانه وتعالى، ونفيها عن هؤلاء ثبوت ضدها لهم، أي أن الله يبغض من كانت هذه حاله.

«وقول الله تعالى: ﴿فَلَيْسَ مَثْوًى الْمُتَكَبِّرِينَ﴾» أي أن المتكبر ليس له إلا مَثْوًى الصَّغار والدُّلّ والهوان، ولا سيما يوم يقف بين يدي الله سبحانه وتعالى، يوم يقول سبحانه: ((أين الجبارون؟ أين المتكبرون؟)).

قال رحمه الله تعالى :

٤ - عن ابن مسعود رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ((لا يدخل الجنة من كان في قلبه مثقال ذرة من كبر))، فقال رجل: «يا رسول الله إن الرجل يحب أن يكون ثوبه حسناً ونعله حسنة»، قال: ((إن الله جميل يحب الجمال، الكبر بطر الحق وغمط الناس)) رواه مسلم .

قال: عن ابن مسعود رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ((لا يدخل الجنة من كان في قلبه مثقال ذرة من كبر)) ؛ انظر هذا الوعيد، وانظر أيضاً الذنب ما هو؟ ما قال: "لا يدخل الجنة من امتلأ قلبه

كِبْرًا" ، قال: ((لا يدخل الجنة من كان في قلبه مثقال ذرة من كِبَرٍ)) ؛ وهذا وعيد ، ولا يأتي نفي دخول الجنة إلا في الكبائر ، مثل أيضًا الوعيد بدخول النار، سخط الله، اللعنة، نفي الإيمان، كل هذا لا يأتي إلا في الكبائر. فهذا من أدل الدليل على أن الكِبَر ولو كان مقدار ذرة كبيرة . قال: ((لا يدخل الجنة من كان في قلبه مقدار ذرة من كِبَرٍ)) يعني قدر قليل ، نسأل الله أن يعافينا وإياكم ، ولو كان مثقال ذرة.

ولهذا لاحظ الآن أمر الكبائر الظاهرة تجد كثير من الناس يتورع عنها، مثلاً: الربا، الزنا، السرقة، إلى غير ذلك، يتورع ولا يدخل على بيته وأهله مثلاً رياءً واحداً من ربا أو من سرقة أو إلى غير ذلك، لكن يقوم في قلبه هذا البلاء، هذا الوباء، ولو كان قدراً يسيراً فالأمر جد خطير، ويحتاج من الإنسان إلى مجاهدة لنفسه، وتفكر في حاله، من هو هذا الإنسان حتى يتكبر؟! أوله نطفة وآخره جيفة، وهو بينهما يحمل العذرة في بطنه، من هو هذا الإنسان حتى يتكبر ويتعالى؟!

قال: ((لا يدخل الجنة)) ما المراد بهذا النفي؟ ((لا يدخل الجنة من كان في قلبه مثقال ذرة من كِبَرٍ)) ؛ هذا نفي الدخول المطلق المعروف، الذي هو دخول أهل الإيمان ، ﴿وَسَيَقُ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ إِلَى الْجَنَّةِ زُمَرًا﴾ [الزمر: ٧٣] هذا دخول أولي، لا يُسبق بعذاب، وإنما يدخل دخولاً أولياً دخولاً مباشراً إلى جنات النعيم، من غير سبق عذاب. فمن كان في قلبه مثقال ذرة من كِبَرٍ لا يدخل الجنة هذا الدخول ، ليس نفياً كلياً للدخول ، وإنما نفي لهذا الدخول المعروف الذي هو دخول أهل الإيمان الدخول الأولي الذي لا يسبقه عذاب، فهذا هو الذي نُفي.

انظر على سبيل المثال، قول النبي عليه الصلاة والسلام: ((يُخْرِجُ مِنَ النَّارِ مَنْ كَانَ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ مِنْ إِيْمَانٍ)) الإيمان سبب دخول الجنة، والكِبَر سبب دخول النار، فمن وُجد فيه أحد السببين كان من أهله ، من وُجد فيه سبب دخول الجنة كان من أهل الجنة، ومن وُجد فيه سبب دخول النار كان من أهل النار، من وُجد فيه أحد السببين كان من أهله ، لكن من اجتمع فيه السببان!! ما هما ؟ سبب دخول الجنة وسبب دخول النار، كيف يكون الأمر ؟ الأول عرفنا أن من وُجد فيه أحد السببين كان من أهله ، إن كان الذي وُجد فيه سبب دخول الجنة فهو من أهل الجنة ، وإن كان السبب الذي وجد فيه سبب دخول النار فهو من أهل النار ، لكن إذا اجتمع فيه السببان سبب دخول الجنة وسبب دخول النار !! فيه إيمان وفيه كِبَر ، هذا الذي جاء الحديث عنه هنا ((لا يدخل الجنة من كان في قلبه أدنى مثقال ذرة من كِبَرٍ)) ، فيه سبب دخول الجنة وهو الإيمان ، وفيه سبب دخول النار وهو الكِبَر، فلا يدخل الجنة مع الداخلين الذين لم يسبق عذاب، لأنه عنده شيء في قلبه موجب للعذاب . فإذا أُدخل النار لا يكون دخوله دخول تخليد ، وإنما يكون دخوله دخول تطهير ، وفرق بين الدخولين . الكافر يدخل النار دخول تخليد؛ لأن النار لا تطهر الكفر، لا تطهر الشرك، والكفر بالله سبحانه وتعالى نجس لا تطهره النار ، ولهذا يدخلونها مخلدين فيها أبد الآباد ، لكن ما دون ذلك من الذنوب فإن عصاة الموحدين إذا دخلوا نار جهنم يكون دخولهم لها دخول تطهير وتنقية.

قال: ((لا يدخل الجنة من كان في قلبه مثقال ذرة من كبر)) ، «فقال رجل: يا رسول الله» ؛ الصحابة قلوبهم قلوب فيها خوف، خشية، وما يسمعون من الأحاديث له وقع في القلوب عظيم جدًا ، ولهذا انبعث عندهم هذا السؤال مباشرة، لأنهم خافوا الآن ، وأخذوا ينظرون في الأمور التي يُخشى أن تكون هي من الكبر الذي جاء فيه هذا الوعيد. « ففقال رجل: يا رسول الله إن الرجل يحب أن يكون ثوبه حسنًا ونعله حسنًا » ؛ هل هذه لها علاقة في الكبر؟ يجب أن يكون ثوبًا حسنًا، نعله حسنًا، يختار نعلًا جميل، يختار ثياب جميلة ؛ هل هذه لها علاقة بهذا الأمر؟

((قال: إن الله جميل يحب الجمال)) هذه لا علاقة لها بالكبر . الكبر في القلب، أن يصبح في القلب تعاضم وتعالى وترفع على الآخرين. ((قال: إن الله جميل يحب الجمال)) ثم ذكر ضابطًا عظيمًا يُعرف به الكبر. قال: ((الكبر: بَطَرُ الحق))؛ ومعنى «بطر الحق» أي دفعه وجحده وردّه. ولا يرد الحق إلا من فيه شيء من الكبر، يكون قلبه أصيب بشيء من الكبر، وإلا الحق لا يُرد، الحق أحق أن يُتبع ، فردّ الحق هذا مؤشر أن القلب فيه شيء من الكبر. قال: ((الكبر بَطَرُ الحق)) ؛ فإذا وجد بطر الحق فهذا مؤشر وعلامة على وجود كبر في القلب. ((وغمط الناس)) أي: احتقار الناس وازدراء الناس وانتقاصهم ، فمن كان ينتقص الناس ويحتقرهم ويزدريهم ويتهكّم فيهم فهذا مؤشر أيضًا آخر على أن القلب فيه شيء من الكبر . فذكر عليه الصلاة والسلام هنا علامتين يُعرف بهما حال القلب ، قال: ((الكبر بَطَرُ الحق، وغمط الناس))، فإذا وجد عند الإنسان بطر الحق أي ردّه وجحده وعدم قبوله، أو وُجد فيه غمط الناس الذي هو ازدراء الناس واحتقارهم وانتقاصهم ، فهذان مؤشران أو دليлан على أن القلب مصابٌ بالكبر.

قال رحمه الله تعالى :

٥ - روى البخاري عن حارثة بن وهب رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: ((ألا أخبركم بأهل النار؟ كل عُتْلٍ جَوَاطٍ مستكبر)). العتْل: الغليظ الجافي، والجَوَاط: قيل: المختال الضخم، وقيل: القصير البطين. وبَطَرُ الحق: رده إذا أتاك. وغمط الناس: احتقارهم .

قال: روى البخاري عن حارثة بن وهب رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: ((ألا أخبركم بأهل النار؟)) ؛ «ألا» أداة تنبيه ، حتى يتقيظ ويتنبه السامع ؛ ((ألا أخبركم بأهل النار؟)) ؛ مثل هذه الطريقة في التعليم نافعة جدًا للمتلقي حتى يتنبه، ((ألا أخبركم بأهل النار؟)) تبدأ التساؤلات تتوارد على الذهن: من هم؟ ما صفتهم؟

((ألا أخبركم بأهل النار؟ كل عُتْلٍ جَوَاطٍ مستكبر)) ؛ قال رحمه الله: « العتْل: الغليظ الجافي » ؛ فيه غلظة في تعامله، وفيه جفاء. فهذا عتل .

«والجَوَاطُ: قيل المختال الضخم، وقيل: القصير البطين» ؛ وقيل أيضاً: الجموع المنوع ، نَهْمَتَه في جمع المال والدنيا والإكباب عليها، ومنوع لا يعطي ولا ينفق ولا يبذل . فهو جواظ.

والمستكبر : الذي يتكبر على الآخرين ويتعالى عليهم.

ثم فسّر ما سبق، قال: « وَبَطَرُ الحق: رُدُّه إذا أتاك، وَغَمَطُ الناس: احتقارهم وازدراؤهم » .

قال رحمه الله تعالى :

٦ - ولأحمد وصححه ابن حبان من حديث أبي سعيد رضي الله عنه رفعه: ((من تواضع لله درجةً رفعه الله بها درجة حتى يجعله في أعلى عليين ، ومن تكبر على الله درجة وضعه الله درجة حتى يجعله في أسفل سافلين)).

وفي صحيح مسلم أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: ((وما تواضع أحد لله إلا رفعه الله)) ؛ فهذا الحديث حديث أبي سعيد رضي الله عنه رفعه أي إلى النبي عليه الصلاة والسلام قال: ((من تواضع لله درجة)) ؛ انتبه لقوله «لله» لأن التواضع نوعان:

١ - تواضع لله؛ يفعلها الإنسان قربة لله .

٢ - وتواضع تصنع للمخلوقين؛ من أجل مصالح معينة وأهداف.

فبعض الناس يكون عنده تواضع، لكن ليس تواضعه قربة لله، فلا يدخل في صالح عمله، ولا يقبل منه الله عز وجلّ هذا التواضع الذي تظاهر به؛ لأنه لم يقصد به التقرب إلى الله، فالتواضع عبادة، قربة، وشرط قبول كل قربة الإخلاص، ولهذا قال: ((من تواضع لله)) أي مخلصاً مبتغٍ بتواضعه وجه الله وثوابه يوم لقائه. وقد قال الله في الحديث القدسي: ((أَنَا أَغْنَى الشُّرَكَاءِ عَنِ الشُّرْكِ مَنْ عَمِلَ عَمَلًا أَشْرَكَ فِيهِ مَعِيَ غَيْرِي تَرَكْتُهُ وَشِرْكُهُ)). فإذا كان إنساناً تواضع من أجل مصالح، من أجل مآرب، من أجل سمعة وشهرة، يتواضع حتى يُمدح مثلاً ويثنى عليه ويقال فلان كذا إلخ، فهذا كله لا يقبله الله؛ لأن الله سبحانه وتعالى لا يقبل عملاً أياً كان إلا إذا ابتغى به العامل وجه الله وقصد به التقرب إلى الله عز وجل، ولهذا قيّد في الحديث، قال: ((من تواضع لله)) أي مخلصاً متقرباً بتواضعه لله سبحانه وتعالى.

((من تواضع لله درجة رفعه الله بها درجة حتى يجعله في أعلى عليين ، ومن تكبر على الله درجة وضعه الله بها درجة حتى يجعله في أسفل سافلين))؛ والتكبر على الله: هو ردّ الحق وجحده وعدم قبوله وعدم الرضوخ لطاعة الله سبحانه وتعالى، والتعالي على المخلوقين وازدراؤهم، فمن كان كذلك وضعه الله بها درجة حتى يجعله في أسفل سافلين.

والتكبر على نوعين: تكبرٌ هو كفر ناقل من الملة ، ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ﴾ (٣٥) وَيَقُولُونَ إِنَّا لَنَارْكُوا إِلَهُنَا لِشَاعِرٍ مَجْنُونٍ ﴿[الصفات: ٣٦-٣٥] ، هذا التكبر ما نوعه ؟ هذا كفر، تكبر على الحق والهدى وعلى دين الله وتوحيده، هذا كفر، ولعلهُ هو المراد بقوله: ((ومن تكبر على الله درجة وضعه الله بها درجة حتى يجعله في أسفل سافلين)) أي في النار ، والمتكبرين هم في أسفل الدرجات وأنزلها وأحطها في نار جهنم.

ثم ختم هذه الترجمة بـ

قوله رحمه الله تعالى :

٧ - وللطبراني عن ابن عمر رضي الله عنهما رفعه: ((إياكم والكبر؛ فإن الكبر يكون في الرجل وإن عليه العباءة)). رواه ثقات.

قال: « وللطبراني » أي في معجمه عن ابن عمر رضي الله عنهما رفعه: ((إياكم والكبر)) أي احذروا الكبر. ((فإنَّ الكِبْرَ يكون في الرجل وإنَّ عليه العباءة)) ما معنى هذا؟ يعني رجل فقير ما عنده شيء «يكون في الرجل وإنَّ عليه العباءة» لا يظن ظانٌّ أن الكبر لا يكون إلا عند أهل الثراء والأموال والقصور والمركوبات الفارهة ، بعض الناس يظن أن الكبر ما يكون إلا عند هؤلاء ، عنده أموال عنده قصور فيتكبر على الفقراء ويتكبر على عامة الناس، لا، لا يظن هذا.

يقول: ((فإنَّ الكِبْرَ يكون في الرجل وإنَّ عليه العباءة)) هذا إشارة إلى أنه ما عنده شيء، فقير، ولهذا جاء في الحديث الآخر: ((ثَلَاثَةٌ لَا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ - وذكر منهم - عَائِلٌ مُسْتَكْبِرٌ)) ؛ عائل : فقير. لماذا؟ قالوا: لأن العائل المستكبر استحق هذه العقوبة؛ لأنه ليس هناك الأسباب التي تحرك الكبر؛ فهذا يدل على تأصل الفساد في قلبه، لأن أسباب الكبر التي هي الأموال والثراء وإلى غير ذلك غير موجودة عنده.

ففي هذا الحديث يحذّر عليه الصلاة والسلام من الكبر، وأن الإنسان لا يظن أن الكبر لا يتطرق إلا لأهل الأموال، بل الكبر قد يكون في الإنسان وهو فقير معدم، ما عنده إلا لباس رث وأشياء يسيرة جداً ويكون متكبراً. قال: ((إن الكبر يكون في الرجل وإن عليه العباءة)).

قال رحمه الله تعالى :

بابُ ذِكرِ العُجب

وقول الله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ مِنْ عَذَابِ رَبِّهِمْ مُشْفِقُونَ﴾ [المعارج: ٢٧] . روي عن ابن مسعود أنه قال: «الهلاك في اثنتين: القنوط والعجب»

قال: «بابُ ذِكْرِ الْعُجْبِ» ؛ العجب : هو رؤية النفس والزهو ؛ يرى نفسه إما في صورته أو في هيئته أو في ممتلكاته أو في علمه أو في غير ذلك من أموره ، العجب : هو رؤية النفس . ويقولون: إِنَّ الْعُجْبَ بَوَابُ الْكِبَرِ وسبب من الأسباب التي تفضي بالإنسان إلى الْكِبَرِ ؛ لأنه إذا أُعْجِبَ بنفسه أفضى ذلك العجب إلى التعالي على الآخرين والتكبر عليهم. لكن مرر معنا الفرق بين الكبر والعجب: أن الكبر يستدعي وجود متكبر عليه ، والعجب مقصور على الانفراد. العجب: هو رؤية الإنسان لنفسه لماله إلى غير ذلك.

قال: «وقول الله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ مِنْ عَذَابِ رَبِّهِمْ مُشْفِقُونَ﴾» ؛ وهذا ذكره الله عز وجل في سياق أوصاف المؤمنين الكُمَّلِ ﴿وَالَّذِينَ هُمْ مِنْ عَذَابِ رَبِّهِمْ مُشْفِقُونَ﴾ ؛ هذا وصفٌ للمؤمنين الكُمَّلِ، من الله عليهم بكمال الإيمان، ومع هذا الكمال في الإيمان هو مشفق من عذاب الله، ويرى نفسه مقصرًا في جنب الله ، في حق الله سبحانه وتعالى. على العكس من الشخص المعجب بنفسه؛ يكون مقصرًا في جنب الله مفرطًا لكنه مغتر بهذا العجب الذي أصاب قلبه، فلا يكون من أهل هذا الوصف ﴿وَالَّذِينَ هُمْ مِنْ عَذَابِ رَبِّهِمْ مُشْفِقُونَ﴾ ، ولهذا قال الحسن: «إِنَّ الْمُؤْمِنَ جَمَعَ بَيْنَ إِحْسَانٍ وَمَخَافَةٍ، وَالْمُنَافِقَ جَمَعَ بَيْنَ إِسَاءَةٍ وَأَمْنٍ» .

قال رحمه الله: ((روى عن ابن مسعود أنه قال: «الهلاك في اثنتين: القنوط والعجب»)) ؛ القنوط : أي من رحمة الله ﴿قَالَ وَمَنْ يَقْنَطُ مِنْ رَحْمَةِ رَبِّهِ إِلَّا الضَّالُّونَ﴾ [الحجر: ٥٦] ، فالقنوط من رحمة الله من موجبات الهلاك ، والعجب أي بالنفس أيضًا من موجبات الهلاك .

ومعلوم أن موجبات الهلاك كثيرة، لكن لماذا خصّ هاتين اثنتين؟ قال: «الهلاك في اثنتين: القنوط والعجب» ؛ قال أهل العلم: لأن القانط لا يعمل على طلب السعادة ؛ لماذا؟ لأن القنوط الذي عنده أوقفه عن العمل في طلب السعادة ، فالقانط لا يعمل طلبًا للسعادة بسبب القنوط الذي سيطر عليه، فيكون هذا موجب هلاكه. والمعجب بنفسه من أصيب بالعجب كيف شأنه مع طلب السعادة؟ قالوا: أيضًا من أصابه العجب لا يعمل على طلب السعادة؛ لظنه أنه نالها. فالأول -الذي هو القانط- لا يطلب السعادة لأن القنوط سيطر عليه ويئس من رحمة الله فلا يطلب السعادة، والمعجب مثله لا يطلب السعادة؛ لماذا ؟ لأنه يظن أن أمور السعادة كلها متوفرة فيه، وأنه لا أحسن منه، فلا يعمل على طلب السعادة ؛ فيهلك. يقول الشيخ حافظ:

والعجب فاحذره إن العجب مجترفٌ أعمال صاحبه في سيله العَرِمِ

مثّل العُجب بسيل جارف ؛ ولهذا العجب من أخطر ما يكون على الأعمال ، لأنه يجترف الأعمال ، مثل ما أنّ القنوط يوقف الأعمال عند القانط العجب أيضًا يجترف الأعمال ؛ ولهذا خصّ رضي الله عنه وأرضاه هذين، قال: «الهلاك في اثنتين: القنوط والعجب».

قال رحمه الله تعالى :

٨ - عن أبي بكرة رضي الله عنه أن رجلاً ذكر عند النبي صلى الله عليه وسلم فأتى عليه رجلٌ خيراً ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم: ((ويحك، قطعت عنق صاحبك)) يقوله مراراً . ثم قال: ((إن كان أحدكم مادحاً لا محالة فليقل: أحسبه كذا وكذا -إن كان يرى أنه كذلك- وحسبه الله، ولا يزكي على الله أحداً)) رواه البخاري ومسلم.

قال: ((عن أبي بكرة أن رجلاً ذكر عند النبي صلى الله عليه وسلم فأتى عليه رجلٌ خيراً)) ؛ الثناء يكون بالخير ويكون بالشر ، يقال: أثنى عليه خيراً، ويقال: أثنى عليه شراً.

ودائماً أقول بهذه المناسبة، إن هذا المدلول اللغوي لهذه الكلمة ينبغي أن نستفيد منه في الإصلاح بين الناس، يعني لو سمعت شخصاً يذم آخر وقابلت الآخر لا تقل: "سمعت يذمك"، قل: "كنت عند فلان وسمعت يثني عليك". وأنت صادق عندما قلت: "سمعت يثني عليك" أنت صادق في كلامك، لكنك لم تفتح للشيطان طريق ، لأنك لو قلت: "سمعت يذمك" ولو بحرف واحد نقلته له من ذمّه أوقعت في نفسه شيء ، فإذا قلت: "سمعت يثني عليك" أنت صادق في كلامك ، وهذا من العمل على الإصلاح بين الناس، ﴿لَا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِنْ نَجْوَاهُمْ إِلَّا مِنْ أَمْرٍ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَاحٍ بَيْنَ النَّاسِ﴾ [النساء: ١١٤] .

فقال النبي صلى الله عليه وسلم: ((ويحك، قطعت عنق صاحبك)) ؛ وهذا سبب إيراد الحديث في هذه الترجمة «العجب» ؛ أنّ من أعظم أسباب العجب وموجباته الثناء ، قد يحفظ الإنسان مثلاً قليلاً من النصوص أو يقرأ قليلاً من الكتب ثم يسمع بعض الناس يبالغون في مدحه ؛ فيسيطر عليه العجب ويظن أنه من أعلم الناس وأنه من أفقه الناس. أو مثلاً بعض طلابه، كثير من الطلاب يهلكون مشايخهم، يكون طالب مبتدئ ويرى الشيخ مثلاً يعد إعداداً جيداً ويأتي ويلقي إلقاءً جيداً فيقول: هذا ابن تيمية، وهذا ابن قيم زمانه، ويسمع هذه الكلمات تقال عنه فيغتر، الثناء والمدح هذا مهلكة لطالب العلم، وكثير من المبتدئين يهلكه هذا المدح، ويجعله يصاب بشيء من الغرور.

قال: ((ويحك، قطعت عنق صاحبك)) «ردده مراراً» ؛ ولهذا جاء في الحديث الآخر: ((المدح الذبح)). ((ردده مراراً ثم قال: إن كان أحدكم مادحاً لا محالة فليقل: أحسبه كذا وكذا))؛ ما يأتي بمثل هذا الثناء العريض الواسع المبالغ فيه ، إذا كان ولا بد مادحاً يقول: أحسبه كذا وكذا. «كذا وكذا» يذكر الأوصاف التي يظنها موجودة فيه .

((إن كان يرى أنه كذلك)) ؛ أيضاً بهذا القيد: «إن كان يرى أنه كذلك» ، يعني إن كان يرى يقول: أحسبه من أهل الصدق، أحسبه من أهل الوفاء، أحسبه من أهل العلم، أحسبه من أهل الديانة والنصح .. إن كان يرى أنه كذلك، أما إذا كان لا يرى أنه كذلك أيضاً لا يجوز أن يقول: أحسبه كذلك.

((وحسبى الله، ولا أزي على الله أحدًا)) وهذه كلمة فيه اتزان وتوسط واعتدال. فإذا كان ولا بد من الثناء فليكن بهذه الطريقة.

والمصنف رحمه الله تعالى أورد هذا الحديث في الترجمة؛ لأن الثناء والمبالغة في المدح من أعظم مسببات العجب. قال رحمه الله تعالى :

ولأحمد بسند جيد عن الحارث بن معاوية أنه قال لعمر: إنهم كانوا يراودوني على القصص، فقال: «أخشى أن تقص فترتفع عليهم في نفسك، ثم تقص فترتفع حتى يخيل إليك أنك فوقهم في منزلة الثريا، فيضعك الله عز وجل تحت أقدامهم يوم القيامة بقدر ذلك».

قال: «ولأحمد بسند جيد عن الحارث بن معاوية أنه قال لعمر رضي الله عنه: إنهم كانوا يراودوني على القصص» وفي المسند: «أرادوني على القصص» يعني يلحون عليه أن يقص عليهم، والمراد بـ «يقص عليهم»: أي يعظمهم، يذكّرهم. فكانوا يلحون عليه في ذلك؛ لأنهم كانوا يسمعون منه في قصّه ووعظه ما يؤثر، فكانوا يلحون عليه في ذلك.

فاستشار عمر، وانظر أهمية استشارة أهل العلم؛ عمر رضي الله عنه قال له: «افعل ما شئت»، فكان الرجل أيضًا لا يزال يريد رأي عمر، قال: أريد أن أفعل الذي تأمرني به - هذا معنى الكلام - فقال هذا الكلام العظيم رضي الله عنه وأرضاه.

قال: «أخشى أن تقص فترتفع عليهم في نفسك»؛ وهذا مدخل ينبه عليه عمر رضي الله عنه، وهذا أيضًا سبب إيراد المصنف لهذا الأثر هنا، مدخل من مداخل العجب؛ عندما يتصدر الإنسان للوعظ والتذكير والخطابة ويرى مثلاً الناس يتأثرون يقول: إذا كان أنا أثرت فيهم هذا التأثير إذا أنا أحسن منهم، إذا كان تسببت في بكائهم في هدايتهم إلخ إذا أنا أفضل منهم، فيبدأ يدخل عليه العجب، ثم مع المرة تلو الأخرى حتى يهلك والعياذ بالله.

قال: «أخشى أن تقص فترتفع عليهم في نفسك، ثم تقص فترتفع حتى يخيل إليك أنك فوقهم في منزلة الثريا» يقول: أين هؤلاء وأنا؟ كل الشيء الذي حصل عندهم من إيمان وهداية أنا الذي، وأنا الذي، وأنا الذي، حتى يهلك والعياذ بالله.

قال: «ثم تقص فترتفع حتى يخيل إليك أنك فوقهم في منزلة الثريا، فيضعك الله عز وجل تحت أقدامهم يوم القيامة بقدر ذلك»؛ إذا الخطابة والوعظ أيضًا باب من أبواب العجب، ويحتاج الإنسان إلى معالجة لنفسه في هذا الباب، وإلا يهلك وتكون مصيبته عظيمة، الناس تهتدي على يديه تستفيد وتستقيم وتصلح أحوالهم وهو في هلاك. ومن عظيم الدعاء وأثنى عليه شيخ الإسلام ابن تيمية وهو لأحد التابعين، قال: «اللهم لا تجعلني لغيري عبرة، ولا تجعل غيري أسعد بما علمتني مني»؛ متى يكون غيرك أسعد بما علّمك الله منك؟ إذا كان الإنسان يعلم

الآخرين لكن ليس عنده هو همة في العمل، فيستفيد الناس ويتأثرون وينتفعون وتصلح أحوالهم وتستقيم أمورهم على يديه لكن هو في درب آخر ، الذي أشار إليه عمر.

أورد ابن الجوزي رحمه الله في كتابه «القصص والمذكرين» كلمة عظيمة لميمون بن مهران ، ذكر رحمه الله القصص فقال كلام عجيب ، قال: «المستمع شريك المتكلم، ولا يخطئ المتكلم إحدى ثلاث» ؛ «المستمع شريك المتكلم» المستمع جالس ويستفيد وينتفع ويزداد إيماناً ، تستقيم حاله، ويتعلم من أمور دينه، يتفقه، يتبصر. قال: «ولا يخطئ المتكلم إحدى ثلاث: إما أن يُسمّن قوله بما يهزل دينه» يعتني بصناعة تنميق الكلام وتحسين الكلام وكذا حتى الناس تعجب بطريقته وبأسلوبه إلخ بما يهزل دينه. «وإما عُجبٌ بنفسه» وهذا الذي مرّ معنا في أثر عمر. «وإما أن يأمر بما لا يفعل ، والمستمع أيسر مؤونة» المستمع في حلقة ذكر مجلس علم، يستمع ويستفيد ويزداد إيماناً وتصلح حاله. «المستمع ينتظر الرحمة، والمتكلم ينتظر المقت» إلا من عافاه الله سبحانه وتعالى ونجّاه من ذلك.

فالمصنف رحمه الله تعالى أورد ذلك تنبيهاً على خطورة هذا الأمر، وأن الوعظ والتذكير والقصص إلى غير ذلك ينبغي أن يُلاحظ فيه هذا الملحظ حتى لا يدخل على الإنسان منه إلى باب عجب فيهلك عياداً بالله سبحانه وتعالى من ذلك.

قال رحمه الله تعالى :

٩ - وللبهقي عن أنس رضي الله عنه مرفوعاً: ((لو لم تذبوا لحفت عليكم ما هو أشد من ذلك: العجب)).

في الأصل: ((العجب العجب)) ؛ كرره عليه الصلاة والسلام زيادة في التنفير والتحذير.

قال: ((لو لم تذبوا لحفت عليكم ما هو أشد من ذلك: العجب)) ؛ لاحظ الآن حتى يتضح لك المعنى ، عموم الذنوب والمعاصي التي يرتكبها الإنسان، والعجب ، والنبي صلى الله عليه وسلم خاف على الأمة من العجب أشد من خوفه عليهم من الذنوب ((لحفت عليكم ما هو أشد من ذلك)) ؛ يعني أن وجود الذنوب في الإنسان فيها سلامة له من العجب، متى؟ كلما بدأت تتحدث نفسك أو تتحرك في نفسه الإعجاب يقول: لا، أين ذاهب؟ انظر إلى أعمالك أنت! إذا مثلاً أعجب بشيء من علمه، أو مثلاً أعجب بشيء من عبادته، أو أعجب بشيء من بره وإحسانه، أو أعجب بشيء من صدقاته، وبدأ يصيبه العجب قال: لا، انتبه، انظر الذنوب التي عندك، ويبدأ ينظر في الذنوب فيزول عنه العجب.

قال: ((لو لم تذبوا لحفت عليكم ما هو أشد من ذلك: العجب)) ؛ الذنوب عموماً الإنسان يعترف أنه مقصر فيها فيرجو التوبة، لكن العجب هل هو بهذه الصفة؟ لا، العجب هو أصلاً يرى صلاح نفسه، يرى أنه لا أحسن منه، حتى التوبة يمكن ليس لها مجال عنده، لأنه سيطر عليه العجب فأنساه كل شيء، ففرق بين من هو مذنب ويعرف أنه مذنب ويرجو من الله عز وجل أن يتوب عليه، وبين من هو معجب بعمله فيكون بعيداً عن التوبة.

هذه الترجمة تتعلق بالعجب، ولنختتم بكلام مختصر في مداواة العجب، ربما أن بعضه أيضًا مستفاد مما سبق. العجب تكون مداواته ومعالجة النفس وإبعادها منه بأمور:

❖ أولاً : باللجوء إلى الله، «اللهم آت نفسي تقواها، وزكها أنت خير من زكاها، أنت وليها ومولاها».

❖ الأمر الثاني : ما تقدم معنا وفهمناه من هذا الحديث أن تذكر الذنوب، كلما تحرك في نفس الإنسان شيء من العجب مباشرة يذكرها بالصفحة الأخرى التي فيه، إذا أعجب بشيء من أعماله يقلب الصفحة على الجانب الآخر الذي هو موجود فيه، يذكرها: بأني مقصر في كذا، ومقصر في كذا، ومفرط في كذا، ولا أفعل كذا إلخ، فهذا يطفى هذه الجمرة التي بدأت تتقد في قلبه .

❖ الأمر الثاني مما يُدأى به العجب رؤية التقصير في جنب الله ، حتى في الأمر الذي أعجب به، إن كان أعجب بعبادة معينة يفعلها فلينظر إلى تقصيره في هذه العبادة وأنَّ حق الله سبحانه وتعالى أعظم، قد قال عليه الصلاة والسلام: ((لَنْ يَدْخُلَ أَحَدًا مِنْكُمْ عَمَلُهُ الْجَنَّةَ)) قَالُوا : وَلَا أَنْتَ يَا رَسُولَ اللَّهِ ؟ قال: ((وَلَا أَنَا ، إِلَّا أَنْ يَتَغَمَّدَنِي اللَّهُ بِرَحْمَتِهِ)).

❖ الأمر الثالث: أن يتذكر نعمة الله عليه، إذا أعجب الإنسان بشيء لا ينظر إلى نفسه، بل يقول: هذا فضل الله عليّ، لولا فضل الله عليّ لما حصل لي هذا الأمر. ولهذا قال العلماء: إن دواء العجب أن تقول: «ما شاء الله لا قوة إلا بالله»، ﴿وَلَوْلَا إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَاءَ اللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ﴾ [الكهف: ٣٩] إذا دخلت جنتك بيتك رأيت مثلاً الأثاث الجميل والزروع الجميلة وبدأ تُعجب بهذا الشيء قل: «ما شاء الله لا قوة إلا بالله»، ذكّر نفسك بالنعمة، أن هذه نعمة الله عليك، ولولا أن الله أنعم عليك بما لما كانت عندك، فهذا أيضًا يطرد العجب.

جمع هذه الأشياء الإمام حافظ حكيم رحمه الله تعالى في منظومته في الآداب، قال:

لا تُعجبَنَّ به -أي عملك- يحبط ، ولا تره في جانب الذنب والتقصير والنعمة

هذه الثلاث سبحانه الله هي التي فيها مداواة العجب.

قال : «لا تُعجبَنَّ به يحبط ، ولا تره» يعني لا ترى عملك رؤية إعجابٍ به في جانب الذنب والتقصير والنعمة. مباشرة إذا بدأت نفسك تتحرك عجبًا بعملك ذكرها بهذه الأمور الثلاثة: الذنب والتقصير والنعمة ؛ الذنب: اقلب الصفحة كما قلت لك على الجانب الآخر فيك ، إذا أعجبت بالأعمال ذكرها بالذنوب التي عندك. وذكرها بالتقصير حتى في العمل نفسه الذي أعجبت به. وذكرها بالنعمة، أنَّ هذا فضل الله عليك، ولولا فضل الله عليك لما كنت كذلك.

سبحانك اللهم وبحمدك، أشهد أن لا إله إلا أنت، أستغفرك وأتوب إليك. اللهم صل وسلم على عبدك ورسولك نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.



شرح كتاب الكبائر

لشيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب رحمه الله

من الدرس ٠٣ إلى الدرس ٠٦

شرح الشيخ عبد الرزاق بن عبد المحسن البدر حفظهما الله تعالى

١٤٤٠/١٢/٠٥ هـ

الدرس الثالث

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

بسم الله الرحمن الرحيم ، الحمد لله رب العالمين، وأشهد ألا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله، صلى الله وسلم عليه وعلى آله وأصحابه أجمعين. أما بعد :

يقول شيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب رحمه الله تعالى في « كتاب الكبائر » :

باب ذكر الرياء والسمعة

وقول الله تعالى: ﴿فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا﴾ [الكهف: ١١٠] .

قال رحمه الله تعالى: «باب ذكر الرياء والسمعة»؛ والرياء والسمعة آفتان من آفات القلوب ومرضات من أمراض القلوب

والرياء : أن يقوم بالعمل ويعمل على تحسينه، ويكون مراده بذلك مراعاة الناس وثناءهم ومدحهم له .
والسمعة : هي أن يقوم بالعمل وأن يتحدث به عند الناس .

فكلٌّ من الرياء والسمعة قيامٌ بالعمل من أجل طلب ثناء الناس ومحمدتهم ؛ والرياء يتعلق بالرؤية، والسمعة تتعلق بالسماع. المرئي يُرى الناس عمله ويُظهره لهم طالبًا ثناءهم عليه ، والسمعة أن يسمّع بعمله ، يقوم بأعمال لا يراه الناس فيها لكنه يسمّع بعمله، فعلتُ كذا وفعلتُ كذا إلخ.

وكلٌّ من الرياء والسمعة مبطلٌ للعمل ؛ لأنه فساد في النية ، والله سبحانه وتعالى لا يقبل من العمل إلا ما كان خالصًا لوجهه وابتغاء مرضاته جلّ في علاه، وهو القائل في الحديث القدسي: ((أَنَا أَعْنَى الشُّرَكَاءِ عَنِ الشِّرْكِ مَنْ عَمِلَ عَمَلًا أَشْرَكَ فِيهِ مَعِيَ غَيْرِي تَرَكْتُهُ وَشِرْكُهُ)). والله عزّ وجلّ لا يقبل من العمل إلا ما كان خالصًا، والخالص : هو الصافي النقي، قال الله تعالى: ﴿وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾ [البينة: ٥] ، وقال تعالى: ﴿إِلَّا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ﴾ [الزمر: ٣] ، وقال تعالى: ﴿فَادْعُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾ [غافر: ١٤] ، فهو عزّ وجلّ لا يقبل من العمل إلا ما كان خالصًا لوجهه. والرياء والسمعة يفتقدان الإخلاص ، بل يتنافيان مع الإخلاص.

ومن الرياء: ما هو رياءٌ خالص؛ وهو رياء المنافقين، ﴿يُرَاءُونَ النَّاسَ﴾ [النساء: ١٤٢] ، وهذا كفرٌ أكبر ناقلٌ من الملة محبّطٌ للأعمال كلها، صاحبه في الدرك الأسفل من النار ، وهو الذي يُرى الناس أنه مؤمن وهو في باطن قلبه كافر بالله سبحانه وتعالى ﴿وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا إِلَى شَيَاطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزَؤُونَ﴾ [البقرة: ١٤٤] .

والنوع الثاني من الرياء: وهو يسير الرياء، ليس الرياء الخالص وإنما يسير الرياء، وهذا يقع من الموحّد، ولا يبطل العمل كله، وإنما يبطل العمل الذي خالطه؛ لأن الله سبحانه وتعالى لا يقبل من العمل إلا ما كان صافيًا نقيًا لا يراد به إلا الله سبحانه وتعالى.

أورد رحمه الله قول الله عز وجل: ﴿فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ﴾ ؛ يرجو: أي يطمع في لقاء الله، والفوز برضا الله عز وجل ، ونيل ثوابه ، والنجاة من عقابه .

﴿فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا﴾ ؛ أي أنه لا نجاة ولا فوز برضا الله سبحانه وتعالى إلا بهذين الأمرين: ﴿فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا﴾ ، ﴿وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا﴾ ؛ وعلى هذين الأمرين يقوم الدين كله. والعمل الصالح : هو الموافق للهدى هدي الرسول الكريم عليه الصلاة والسلام ، والعمل الذي لا شرك فيه ﴿وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا﴾ هو الخالص الصافي النقي الذي لم يُرَدَّ به إلا الله. فاجتمع في هذه الآية الكريمة شرطا قبول الأعمال، وهما:

١ - الإخلاص للمعبود ، الذي هو مقتضى شهادة «أن لا إله إلا الله».

٢ - والمتابعة للرسول صلى الله عليه وسلم، الذي هو مقتضى شهادة «أن محمداً رسول الله» صلى الله عليه وسلم. وقوله: ﴿وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا﴾ ؛ «أحدًا» جاءت نكرة في سياق النهي، فتفيد العموم، أي أي أحد كان، لا ملك مقرب، ولا نبي مرسل ، فضلاً عما هو دونهما.

قال رحمه الله تعالى :

١٠ - عن جندب بن عبد الله رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ((من سمع سمع الله به، ومن يراني يراني الله به)) أخرجاه. قيل: معنى «من سمع سمع الله به» أي فضحه يوم القيامة ، ومعنى «من يراني» أي من أظهر العمل الصالح للناس ليعظم عندهم «يراني به الله» قيل معناه: إظهار سريرته للناس.

قال رحمه الله تعالى: عن جندب بن عبد الله رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ((من سمع سمع الله به، ومن يراني يراني الله به)) ؛ «من سمع سمع الله به» أي: بعمله. والتسميع الذي هو السمعة أمرٌ يتعلق بحاسة السمع ، هو نوع من الرياء لكنه يتعلق بحاسة السمع ، يُظهر العمل لدى الناس بإسماعهم عن ذلك العمل ، أنه فعل، وأنه قام بكذا إلخ، ويكون مراده بإسماعهم بهذه الأعمال التي قام بها طلب محمداً الناس وطلب ثنائهم. ((من سمع سمع الله به)) وهذا فيه أن الجزء من جنس العمل ؛ لما كان من شأن هذا العامل أنه يسمع بعمله حتى يطلب ثناء الناس عليه فإن الجزء من جنس العمل وهو أنَّ الله يسمع به، وقيل في معناه: أي أن الله سبحانه وتعالى يفضحه يوم القيامة على رؤوس الأشهاد .

((ومن يراني يراني الله به)) ؛ «ومن يراني» أي بعمله ، والرؤية أو المראה تتعلق بحاسة البصر.

كلُّ من السمعة والرياء إظهارٌ للعمل طلباً لمحمة الناس ، لكن الرياء يتعلق بحاسة البصر، والسمعة تتعلق بحاسة السمع . وغالباً أن المرائي إذا لم يُر عمله احتاج إلى السمعة ، وإذا رُئي عمله اكتفى برؤية الناس له ، لكن إذا لم يُر عمله، كانت أعمالاً لم تُر من أعماله وهو يريد إظهارها للناس ليس له طريق إلا السمعة.

نعم استجد في هذا الزمان طريق آخر لم يكن موجوداً في الأزمنة السابقة، وهو ما يفعله كثير من الناس عند أدائهم للمناسك وأعمال الحج والعمرة يلتقط لنفسه في كل موضع منها صورة أو صوراً ، وهذه والله من المصائب العظيمة، عند الكعبة يلتقط لنفسه، وفي المسعى وعند عرفات وعند رمي الجمار، حتى رأينا بعضهم عندما يريد صاحبه أن يلتقط له الصورة يرفع يديه على هيئة الداعي، ويصلح من نفسه ويتهيأ على صفة الداعي ثم تلتقط له الصورة، وإذا انتهى التصوير نزلت يداه، ثم يحمل معه هذه الصورة ويضعها في ألبوم أو يعلقها في أماكن البيت ويراهها الناس في تلك الصورة. فكان قديماً من لم ير الناس عمله يستمع بعمله، يقول لهم: فعلت وفعلت وفعلت، لكن الصورة الآن أدت مهمة التسميع بشكل أكبر، ما يحتاج أن يكلم الناس ويقول فعلت، يقول: خذ، انظر، والناس يقبلون هذه الصور ويرونه وهو في المطاف وهو في المسعى، وهو في كل أعمال الحج! هل هذا يتوافق مع قول الله: ﴿وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ﴾ [آل عمران: ٩٧] ، وقوله: ﴿وَأَتِمُّوا الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ لِلَّهِ﴾ [البقرة: ١٩٦]، وقوله عليه الصلاة والسلام: ((مَنْ حَجَّ لِلَّهِ فَلَمْ يَرْفُثْ وَلَمْ يَفْسُقْ رَجَعَ كَيَوْمَ وَلَدَتْهُ أُمُّهُ))؟! فهذه من المصائب العظيمة والبلايا الكبيرة التي بُلي بها كثير من الناس ، بل بعضهم أصبح لا همَّ له في كل شعيرة من الشعائر ومنسك من المناسك إلا أن يلتقط الصورة تلو الأخرى لنفسه ولمن معه، حتى في المطاف وفي السعي وفي رمي الجمار وفي كل أعمال المناسك لا همَّ له إلا التقاط هذه الصور .

قال: ((من سمع سمع الله به، ومن يراني يراني الله به)) أخرجاه : أي البخاري ومسلم.

((قيل: معنى «من سمع سمع الله به» أي فضحه يوم القيامة، ومعنى «من يراني» أي من أظهر العمل الصالح للناس ليعظم عندهم «يراني به الله» قيل معناه: إظهار سريره للناس)) أي فضحه سبحانه وتعالى وأخزاه؛ لأن هذه الأعمال ما قام بها الله سبحانه وتعالى . أخذ يعمل الأعمال ويزينها وهو لا يريد إلا ثناء الناس ومدحهم . ولهذا جاء في بعض النصوص أن المرئين يقال لهم يوم القيامة: ((اذهبوا إلى من كنتم تراؤنهم بالأعمال، التمسوا عندهم أجراً)) أو كما جاء في الحديث.

قال رحمه الله تعالى :

١١ - ولهما عن عمر رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ((إنما الأعمال بالنيات وإنما

لكل امرئ ما نوى)).

قال: «ولهما» أي البخاري ومسلم عن عمر رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ((إنما الأعمال بالنيات، وإنما لكل امرئ ما نوى)) ؛ «إنما الأعمال بالنيات» أي معتبرة بنياتها.

((إنما الأعمال بالنيات)) أي بحسب النيات؛ فإذا كانت النية من العمل هو التقرب إلى الله سبحانه وتعالى وطلب رضاه جلّ وعلا فإن العمل يكون متقبلاً ، وأما إذا كان الإنسان له بعمله نية أخرى غير التقرب إلى الله فله ما نوى

((إنما الأعمال بالنيات، وإنما لكل امرئ ما نوى ؛ فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله فهجرته إلى الله ورسوله، ومن كانت هجرته لدنيا يصيبها أو امرأة ينكحها فهجرته إلى ما هاجر إليه)) ؛ وهذا الحديث يُعد أصل عظيم من أصول الإسلام التي يقوم عليها دين الله تبارك وتعالى ، ولهذا اعتنى كثير من الأئمة وأهل العلم بتصدير مؤلفاتهم بهذا الحديث؛ لأن الدين كله يقوم عليه ، كل باب من أبواب الفقه وباب من أبواب العلم يقوم على هذا الحديث العظيم «إنما الأعمال بالنيات» ؛ «الأعمال»: أي ما يقوم به الإنسان من أعمال وقربات ليست معتبرة إلا بنياتها، فإذا كانت النية خالصة تُقبَّل العمل، وإذا كانت ليست خالصة رُدَّ العمل على عامله ، ولم يُقبل منه، كما في الحديث القدسي الذي تقدم: ((أَنَا أَعْنَى الشُّرَكَاءِ عَنِ الشِّرْكِ ، مَنْ عَمِلَ عَمَلًا أَشْرَكَ فِيهِ مَعِيَ غَيْرِي تَرَكْتُهُ وَشِرْكُهُ)).

قال رحمه الله تعالى :

١٢ - ومسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه مرفوعاً: ((إن أول الناس يقضى عليه يوم القيامة ثلاثة : رجلٌ استشهد في سبيل الله فأُتي به فعرفه نعمته فعرفها، قال: فما عملت فيها؟ قال: قاتلتُ في سبيلك حتى قُلت، قال: كذبت، ولكنك قاتلتَ ليقال هو جريء فقد قيل، ثم أمر به فسُحب على وجهه حتى أُلقي في النار. ورجلٌ تعلَّم العلم وعلمه وقرأ القرآن، فأُتي به فعرفه نعمته فعرفها، قال: فما عملت فيها؟ قال: تعلمتُ العلم وعلمته وقرأت فيك القرآن، قال: كذبت ولكنك تعلمت ليقال هو عالم، وقرأت ليقال هو قارئ، فقد قيل، ثم أمر به فسُحب على وجهه حتى أُلقي في النار. ورجلٌ وسَّع الله عليه فأعطاه من أصناف المال فأُتي به فعرفه نعمه فعرفها، قال فما عملت فيها؟ قال: ما تركتُ من سبيل تحب أنه ينفق فيه إلا أنفقتُ فيه لك، قال الله: كذبت، ولكنك فعلت ليقال هو جواد، فقد قيل، ثم أمر به فسُحب على وجهه حتى أُلقي في النار.

وللترمذي فيه أن معاوية رضي الله عنه لما سمعه بكى وتلا قوله: ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا﴾ الآية.

قال رحمه الله تعالى: ولمسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه مرفوعاً: ((إن أول الناس يقضى عليه يوم القيامة ثلاثة)) أي أول الناس يُبدأ بمحاسبتهم ومعاقبتهم ثلاثة ؛ أي ثلاثة أصناف من الناس ، وذكر هذه الأصناف الثلاثة : الذي قاتل رياءً ، والذي حفظ العلم والقرآن وعلم الناس رياءً ، والذي أفق المال وبذل منه بسخاء رياءً ، وأن هؤلاء الثلاثة -مع أن هذه الأعمال أعمال كبيرة وعظيمة- أول من تُسجّر بهم النار ويُلقون فيها، وذلك لفساد النية.

وهذا الحديث يوضح لنا ما سبق في الحديث المتقدم: ((من سمع سمع الله به، ومن يرائي يرائي الله به)) ، فهنا يأتي هؤلاء العاملون رياءً يوم القيامة، وإذا سئلوا قالوا كما في الحديث: عملتُ هذا العمل من أجلك، فالله عزّ وجلّ يقول: «كذبت»، يخزيه يوم القيامة ويفضحه ويظهر سريره ، من تعلم العلم يقول: «تعلمتُ العلم وعلمته وقرأت فيك القرآن»؛ "فيك القرآن" هذه سريرة ، الناس لا يطلعون على هذه السريرة، يُظهر لهم القراءة والصوت وإلخ، أما السريرة لا يعلمونها، فهو يقول: «قرأت فيك القرآن»، فيقول الله عزّ وجلّ: «كذبت»، أي ليس تلك القراءة وذاك التعليم وذاك التعلم من أجلي وإنما ليقال عالم وليقال قارئ، فقد قيل، ثم يؤمر به ويسحب على وجهه حتى يلقي في النار. فإذا هذا مما يوضح لنا ما سبق: ((من سمع سمع الله به، ومن يرائي يرائي الله به)) .

وهذا أيضاً مما يوضح لنا حديث ((إنما الأعمال بالنيات، وإنما لكل امرئ ما نوى)) ، وأن من كانت نيته في عمله خالصة لله عزّ وجلّ وابتغاء مرضاته جلّ في علاه فاز بثواب العمل وأجره ، ومن كانت نيته لغير الله -ولو كان عمله أكثر من الآخر وأقوى وأكبر- فإنه يُردّ عليه ولا يقبله الله سبحانه وتعالى منه.

ومن فوائد هذا الحديث: أن طلب العلم عبادة ، وحفظ القرآن عبادة ، وهو من جملة القُرب التي يتقرب بها العبد إلى الله سبحانه وتعالى، حتى قال بعض السلف: «ما تُقَرَّب إلى الله عزّ وجلّ بمثل طلب العلم» ، فطلب العلم قرينة عظيمة مما يُتقرب به إلى الله ، وكما أن الصلاة لا تُقبل إلا بالنية الصالحة، والحج لا يُقبل إلا بالنية الصالحة، والصيام لا يُقبل إلا بالنية الصالحة ؛ فطلب العلم لا يُقبل إلا بالنية الصالحة، فإذا كان الإنسان في طلبه للعلم أو في تعليمه للعلم يريد بذلك ثناء الناس ومدحهم ومראה الناس ونحو ذلك فإن الله عز وجل لا يقبل منه طلبه للعلم . ولا يكون الأمر أيضاً ليس له ولا عليه ، ليس معنى «لا يقبله» أن يكون الأمر ليس له ولا عليه، بل كما نرى الآن، من أول من يُلقى في النار، وأول من يقضى عليهم يوم القيامة ؛ هذا كله مما يبين خطورة الرياء ، ووجوب إخلاص النية لله سبحانه وتعالى.

وهذا الحديث مما يحرك في القلوب الخوف من الرياء والحذر منه، والخشية من حبوط الأعمال ، ولهذا معاوية لما سمع هذا الحديث بكى ، لأن هذا أمر يخيف الإنسان، ﴿إِنَّمَا يَقْبَلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ﴾ [البقرة: ٢٧] ، يكون الإنسان عمل أعمال وبذل جهود كثيرة ثم يوم القيامة تُرد عليه لفساد نيته وعدم إخلاصه لربه سبحانه وتعالى، ثم أولئك الذين كان يتظاهر لهم بالأعمال ويزين الأعمال لأجلهم لا ينفعونه يوم القيامة ولا بشيء ، كلُّهم نفسه، نفسي نفسي . فهذا كله مما يوجب الحذر من الرياء، والعمل على إصلاح النية. وإصلاح النية يحتاج إلى مجاهدة مستمرة

للنفس، كما قال الأوزاعي رحمه الله : «ما عاجلْتُ شيئاً أشد عليّ من نيتي»، فالنية تحتاج إلى معالجة ومداواة مستمرة واستعانة بالله سبحانه وتعالى.

وهذا الحديث من فوائده - وهي فائدة نبّه عليها شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله تعالى - وهي أنّ خير الناس هم الأنبياء والصديقون والشهداء والصالحون ، وشرّ الناس من يتشبّه بهم من أجل أن يوهم الناس أنه مثلهم وهو ليس منهم، فسبحان الله! يعمل عمل خير الناس ، ويتعرف على أعمال خير الناس ويعملها ، ويكون شرّ الناس! لفساد نيته، لأنه يعمل أعمال خير الناس من أجل أن يوهم الناس أنه مثلهم وهو لم يعمل لأجل الله وإنما عمل من أجل الناس؛ فكان بذلك شرّ الناس . وهذا أيضاً مما يوضح لنا وجه كون هؤلاء من أول من يقضى ويعاقب يوم القيامة ؛ لأن هؤلاء شر الناس ، يظهرون للناس أعمال الأنبياء والصالحين وأنهم على جادتهم وطريقهم ، وهم في الحقيقة إنما أرادوا بذلك مراعاة الناس وكسب ثناء الناس.

قال رحمه الله تعالى :

باب الفرح

وقول الله تعالى: ﴿إِنَّهُ كَانَ فِي أَهْلِهِ مَسْرُورًا﴾ [الانشقاق: ١٣] ، وقوله تعالى: ﴿قَالُوا إِنَّا كُنَّا قَبْلُ فِي أَهْلِنَا مُشْفِقِينَ﴾ [الطور: ٢٦] ، وقوله تعالى: ﴿فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّى إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً فَإِذَا هُمْ مُبْلِسُونَ﴾ [الأنعام: ٤٤] .

قال رحمه الله تعالى: «باب الفرح» ؛ الفرح هذا أيضاً من أعمال القلوب ، فالقلب يفرح ويحزن؛ من أعماله الفرح، ومن أعماله الحزن، فالفرح من أعمال القلوب.

❖ والفرح الذي هو من أعمال القلوب يكون مدموماً ومعاقباً عليه صاحبه : إذا كان هذا الفرح منصرف إلى هذه الدنيا، هي همه وهي مبلغ علمه، إن أُعطي منها رضي وإن لم يُعط منها سخط، فهذا فرح مدموم ويعاقب عليه صاحبه يوم يقف بين يدي الله سبحانه وتعالى .

❖ أما إذا كان الفرح فرحاً بالطاعة، فرحاً بالهداية، فرحاً بالتوفيق للإيمان، فرحاً بتيسير العبادة ؛ فهذا فرح يُحمد ولا يذم، بل جاء الأمر به، ﴿قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا﴾ [يونس: ٥٨] ، هذا جاء الأمر به، أن يفرح الإنسان بما منّ الله عليه به من لزوم السنة، والعناية مثلاً بطلب العلم، والمواظبة على العبادات والطاعات، والبعد عما نهى الله عزّ وجلّ عنه من المحرمات، فهذا فرح يُحمد.

ولهذا قال العلماء في بيان الفرح الذي جاء ذكره في القرآن والسنة : إن الفرح الذي جاء ذكره في القرآن والسنة على نوعين: فرح مطلق ، وفرح مقيد .

١. أما الفرح المطلق فهو مذموم ﴿إِذْ قَالَ لَهُ قَوْمُهُ لَا تَفْرَحْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ﴾ [الفصل: ٧٦] هذا فرح مطلق، فهو مذموم .

٢. والمقيد نوعان:

■ النوع الأول: فرح مقيد بالدنيا، مثل في الآية الثالثة التي ساقها المؤلف، ﴿فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّى إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا﴾ هذا فرح مقيد بالشيء الذي أوتوه ﴿أَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً فَإِذَا هُمْ مُبْلِسُونَ﴾ .

والنوع الثاني من الفرح المقيد: الفرح بفضل الله ورحمته، الفرح بكتابه، والفرح بالإسلام، والفرح بسنة النبي الكريم عليه الصلاة والسلام، الفرح بطاعة الله، ومنه قول الله عز وجل: ﴿قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ﴾ [يونس: ٥٨] .

وقول الله تعالى: ﴿إِنَّهُ كَانَ فِي أَهْلِهِ مَسْرُورًا﴾ [الانشقاق: ١٣] ، وقوله تعالى: ﴿قَالُوا إِنَّا كُنَّا قَبْلُ فِي أَهْلِنَا مُشْفِقِينَ﴾ [الطور: ٢٦] هاتان صورتان متضادتان ، أو حالتان متضادتان تظهر يوم القيامة :

✽ الحالة الأولى: حال من كان في هذه الدنيا فرحاً بها، مقبلاً عليها، هي همه وهي مبلغ علمه، فرحاً بالدنيا واللهاث وراءها والسعي في طلبها ولا ينظر في العواقب، ولا يفكر في المآلات والوقوف بين يدي الله سبحانه وتعالى، يجمع مثلاً المال من الحرام ولا يفكر في العقوبة، يراي ولا يفكر بالعقوبة، يغش ويمكر بالناس ولا يفكر بالعقوبة، وكلما حصل من المال والمكاسب فرح ولا يفكر بالعقوبة، فهذا عقوبته عند الله عظمة، ﴿وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ وَرَاءَ ظَهْرِهِ (١٠) فَسَوْفَ يَدْعُو ثُبُورًا (١١) وَيَصْلَى سَعِيرًا (١٢) إِنَّهُ كَانَ فِي أَهْلِهِ مَسْرُورًا (١٣) إِنَّهُ ظَنَّ أَنْ لَنْ يَحُورَ﴾ [الانشقاق: ١٠-١٤] ظن أنه ما في شيء بعد هذا، ولا فكر في الحساب، ولا أشفق من الحساب، ولا خاف من الوقوف بين يدي الله سبحانه وتعالى، ﴿بَلَى إِنْ رَبُّهُ كَانَ بِهِ بَصِيرًا﴾ [الانشقاق: ١٥] ، ما يفكر ولا ينظر في العواقب، مسرور بالدنيا ولاه بها، ومقبل عليها ومكب ولا يفكر بالآخرة، وليس مشفقاً من الآخرة، وليس هو خائف من العذاب الذي يوم القيامة.

✽ والحالة الثانية: ضد هذه الحالة ﴿إِنَّا كُنَّا قَبْلُ فِي أَهْلِنَا مُشْفِقِينَ﴾ (٢٦) فَمَنْ اللَّهُ عَلَيْنَا وَوَقَانَا عَذَابَ السَّمُومِ﴾ [الطور: ٢٦-٢٧] هذه حالة أخرى عظيمة جداً ؛ ﴿إِنَّا كُنَّا قَبْلُ فِي أَهْلِنَا مُشْفِقِينَ﴾ ، هذا كان في أهله مسروراً، أي فرحاً بما يحصله من أمور الدنيا ومتع الدنيا ولا هم له في الآخرة ولا هم له في العواقب، وهؤلاء كانوا قبل في أهلهم مشفقين، ﴿إِنَّا كُنَّا قَبْلُ فِي أَهْلِنَا مُشْفِقِينَ﴾ أي بين أهلنا ونحن في خوف من البعث والحساب والعقاب، وهذا الخوف هو الذي يولد صلاح في العمل، وصلاح في النية، وصلاح في الاستقامة على طاعة الله سبحانه وتعالى.

وهذا مما يفيد أثر رسوخ الإيمان باليوم الآخر في القلب على الأعمال صلاحاً واستقامة. لأن الإيمان باليوم الآخر على درجتين: إيماناً جازم ، وإيماناً راسخ . والإيمان الراسخ هو الذي تمكن من القلب وأصبح صاحبه مثل هذه

الحالة التي في هذه الآية الكريمة، مشفقاً من ذلك اليوم وخائفاً، كلما أراد أن يُقدم على عمل تذكر اليوم الآخر، وتذكر الحساب والوقوف بين يدي الله سبحانه وتعالى.

قال رحمه الله تعالى :

باب ذكر اليأس من روح الله والأمن من مكر الله

وقول الله تعالى: ﴿إِنَّهُ لَا يُؤْسِرُ مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمَ الْكَافِرُونَ﴾ [يوسف: ٨٧] . وقوله تعالى: ﴿فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ﴾ [الأعراف: ٩٩] .

قال رحمه الله تعالى : «باب ذكر اليأس من روح الله، والأمن من مكر الله» ؛ هاتان كبيرتان من كبائر الذنوب، اليأس من روح الله والأمن من مكر الله، بل سيأتي في أثر ابن مسعود قرْن هاتين الكبيرتين بالإشراك بالله سبحانه وتعالى؛ مما يدل على خطورتهما.

قال: «ذكر اليأس من روح الله والأمن من مكر الله» ؛ اليأس من روح الله: أي أن قلب هذا الرجل اليأس سيطر عليه القنوط وعدم الأمل في نيل رحمة الله سبحانه وتعالى ، وهذا من المهلكات، وقد مرّ معنا أثر ابن مسعود العظيم: «اثنتان مهلكتان: القنوط والعجب». والقنوط مهلك لصاحبه لأنه بسبب القنوط وسبب اليأس لا يعمل، بسبب القنوط وبسبب اليأس لا يتوب، اليأس من رحمة الله لا يتوب لا يُقبل على التوبة، اليأس من رحمة الله لا تتحرك نفسه للأعمال، كلما أراد أن يعمل قالت له نفسه المريضة باليأس: كيف تعمل وأنت وأنت وأنت؟! فلا يعمل، اليأس كلما حدّثته نفسه بالتوبة إلى الله سبحانه وتعالى قالت له نفسه اليائسة القانطة من رحمة الله: كيف تتوب؟! وهل مثلك يصلح أن يتوب؟! وهل تُقبل من مثلك التوبة؟! فيسيطر عليه اليأس ويعطله عن التوبة من الذنوب ويعطله عن الأعمال، ولهذا من أعظم المهلكات للإنسان القنوط من رحمة الله واليأس من روح الله ، ولهذا في الآية الكريمة: ﴿إِنَّهُ لَا يُؤْسِرُ مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمَ الْكَافِرُونَ﴾ [يوسف: ٨٧] ، ﴿قَالَ وَمَنْ يَقْنَطُ مِنْ رَحْمَةِ رَبِّهِ إِلَّا الضَّالُّونَ﴾ [الحجر: ٥٦] ، فلا ييأس ولا يقنط إلا من كان بهذه الصفة، فهذا من المهلكات العظيمة للإنسان.

«والأمن من مكر الله»: أي من عقوبته سبحانه وتعالى، فيكون الإنسان ماضٍ في تقصيره وتفريطه وارتكابه للذنوب وهو آمن من مكر الله أي من عقوبة الله سبحانه وتعالى ، والأمن من مكر الله أيضاً من المهلكات العظيمة.

والواجب على العبد ليسلم من اليأس من روح الله والأمن من مكر الله أن يجمع لنفسه بين الرجاء والخوف، قال الله تعالى: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ﴾ [الإسراء: ٥٧] ، فيجمع لنفسه بين الرجاء والخوف، ويكون الرجاء والخوف عنده متوازنين، لا يغلب أحدهما على الآخر، لأنه إن كان عنده رجاء بلا خوف أمن من مكر الله ، وإذا كان عنده خوف بلا رجاء قنط من رحمة الله ويئس من روح الله.

ولهذا قال أهل العلم: «المطلوب من العبد رجاءٌ بلا إهمال، وخوفٌ بلا قنوط»؛ رجاء بلا إهمال للعمل وتفريط وتضييع، وخوف بلا قنوط من رحمة الله، وإنما يكون الأمر متوازنًا بحيث يكون راجيًا للرحمة، وفي الوقت نفسه خائفًا من عذاب الله سبحانه وتعالى.

قال رحمه الله تعالى :

عن ابن مسعود رضي الله عنه قال: «أكبر الكبائر الإشراك بالله، والأمن من مكر الله، والقنوط من رحمة الله، واليأس من روح الله» رواه عبد الرزاق.

١٣ - وأخرجه ابن أبي حاتم عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما مرفوعًا، ولفظه: سئل ما الكبائر فقال: ((الإشراك بالله، والأمن من مكر الله، واليأس من روح الله)).

قال رحمه الله: عن ابن مسعود رضي الله عنه قال: «أكبر الكبائر الإشراك بالله، والأمن من مكر الله، والقنوط من رحمة الله، واليأس من روح الله»؛ القنوط من الرحمة واليأس من روح الله معناهما متقارب، لكن قال العلماء رحمهم الله تعالى: القنوط أشد اليأس، فأول ما يكون يأسًا ثم يشتد به الأمر فيكون قنوطًا من رحمة الله سبحانه وتعالى. وكما عرفنا أن القنوط واليأس إذا سيطر على القلب أهلك الإنسان، وعطله عن التوبة وعن العمل وعن الإقبال على عبادة الله سبحانه وتعالى، وهو من كبائر الذنوب.

والأمن من مكر الله كذلك مهلكٌ لصاحبه، ولهذا تقدم في الآية: ﴿فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ﴾ [الأعراف: ٩٩]. من موجبات الخسران الأمن من مكر الله، والأمن من مكر الله سبحانه وتعالى يكون مسيئًا في العمل وظانًا أنه أهل للثواب، ولهذا جاء عن الحسن البصري رحمه الله أنه قال: «إن المؤمن جمع بين إحسان ومخافة، والمنافق جمع بين إساءة وأمن»، المنافق جمع بين إساءة "أي في العمل، وأمن أي من مكر الله سبحانه وتعالى. فالأمن من مكر الله من موجبات الخسران والهلاك في الدنيا والآخرة؛ ولهذا هو والقنوط من كبائر الذنوب وعظائم الآثام، وهما من أمراض القلوب.

قال: وأخرجه ابن أبي حاتم -أي في تفسيره- عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما مرفوعًا، ولفظه: ((سئل ما الكبائر فقال: الإشراك بالله، والأمن من مكر الله، واليأس من روح الله)).

ونسأل الله الكريم رب العرش العظيم بأسمائه الحسنى وصفاته العلى أن يوفقنا أجمعين لكل خير، وأن يهدينا إليه صراطًا مستقيمًا، وأن يصلح لنا شأننا كله إنه تبارك وتعالى سميع الدعاء.

وصلّى الله وسلّم على عبده ورسوله نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

الدرس الرابع

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله رب العالمين، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله، صلى الله وسلم عليه وعلى آله وأصحابه أجمعين. أما بعد:

قال شيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب رحمه الله تعالى في كتابه «الكبائر» :

باب ذكر سوء الظن بالله

وقول الله تعالى: ﴿يَظُنُّونَ بِاللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ ظَنَّ الْجَاهِلِيَّةِ﴾ [آل عمران: ١٥٤] ، وقول الله تعالى: ﴿وَذَلِكُمْ ظَنُّكُمُ الَّذِي ظَنَنْتُمْ بِرَبِّكُمْ أَرْدَاكُمْ﴾ [فصلت: ٢٣] ، وقوله تعالى: ﴿الظَّالِمِينَ بِاللَّهِ ظَنُّ السَّوِّ عَلَىهِمْ دَائِرَةُ السَّوِّ﴾ [الآية [الفتح: ٦] .

قال المصنف رحمه الله تعالى : «باب ذكر سوء الظن بالله» ؛ باب أي من الأبواب المتعلقة بكبائر القلوب، كما هو معلوم ، وذلك أن الظنَّ حسنَه وسيئَه موضعه القلب. والظنُّ يأتي بمعنى الاعتقاد، ويأتي بمعنى الشك، ويأتي أيضًا بمعنى ما يؤمِّله المرء ويطمع فيه ويرجوه. ومنه حسن وسيء؛ وحسنه الذي هو حُسن الظنِّ بالله عزَّ وجلَّ هو خير الأعمال وأفضلها، وينبني عليه صلاح عمل العبد وحُسن استقامته على طاعة الله.

وسوء الظنِّ بالله من أسوأ أعمال القلوب وشرِّها، وله أثره السيء على العبد في أعماله. ولهذا قال الحسن البصري رحمه الله تعالى: «إن المؤمن أحسن الظنِّ بالله فأحسن العمل، وإن الفاجر أساء الظنِّ بالله فأساء العمل»، وهذا مما يوضح أثر حُسن الظن على العبد في صلاح أعماله واستقامته على طاعة الله عزَّ وجلَّ، وأثر سوء الظنِّ بالله عزَّ وجلَّ على العبد في أعماله وانحرافه وبُعدِه عن طاعة الله سبحانه وتعالى.

ولهذا كان من أعظم ما ينبغي أن يعتني به المسلم في باب أعمال القلوب أن يحسن الظنَّ بالله سبحانه وتعالى. وقد جاءت أحاديث كثيرة عن النبي الكريم عليه الصلاة والسلام في هذا المعنى ، منها ما سيأتي في آخر هذه الترجمة عند المصنف رحمه الله ، وهو ما رواه البخاري ومسلم في صحيحيهما عن أبي هريرة أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: ((قَالَ اللَّهُ : أَنَا عِنْدَ ظَنِّ عَبْدِي بِي)) ، ورواه الإمام أحمد رحمه الله وزاد: ((إِنْ ظَنَّنِي خَيْرًا فَلَهُ، وَإِنْ ظَنَّنِي شَرًّا فَلَهُ)). وروى الإمام أحمد من حديث واثلة بن الأسقع رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: ((قَالَ اللَّهُ : أَنَا عِنْدَ ظَنِّ عَبْدِي بِي فَلْيُظَنِّ بِي مَا شَاءَ))، ومعنى «فليظنَّ بي ما شاء» أي إن ظنَّ بي خيرًا فله وإن ظنَّ بي شرًّا فله، كما يوضحه الرواية المتقدمة.

وهذا فيه أن الله عزَّ وجلَّ يعامل العبد بحسب ظنه بربه؛ ولهذا ينبغي أن يكون المؤمن حسن الظنِّ بالله عزَّ وجلَّ، يرجو رحمة الله، يطمع في مغفرته، يرجو قبول أعماله، يطمع في عظيم نواله سبحانه وتعالى، لا يكون يائسًا من رحمة الله، ولا قانطًا من روح الله، وليعلم أن الله عزَّ وجلَّ لا يتعاضمه ذنب أن يغفره، مهما عظمت الذنوب فعليه

أن يقبل على الله عز وجل منيباً تائباً خائفاً راجياً في رحمة الله سبحانه وتعالى، محسناً الظن في ربه جل وعلا. وليحذر أشد الحذر من سوء الظن بالله، فإن الله عز وجل ذكر هذه الصفة في جملة بل في شنائع أوصاف المنافقين والمشركين، كما قال الله سبحانه وتعالى: ﴿وَيُعَذِّبُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ الظَّانِينَ بِاللَّهِ ظَنّ السُّوءِ﴾ [الفتح: ٦] ، ولم يذكر سبحانه وتعالى بل لم يجئ في القرآن عقوبة على عمل مثل ما جاء في عقوبة الظان بالله ظنّ السوء، وانظر ذلك في تمام هذا السياق، قال: ﴿عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السُّوءِ وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلَعَنَهُمْ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا﴾ .

أورد رحمه الله تعالى جملة من الآيات بدأها بقول الله عز وجل: ﴿يُظُنُّونَ بِاللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ ظَنَّ الْجَاهِلِيَّةِ﴾ [آل عمران: ١٥٤] ؛ وهذا ذكره الله سبحانه في جملة أوصاف المنافقين؛ حيث ظنوا في الله عز وجل أنه لا ينصر دينه، وأنه يخذل نبيه عليه الصلاة والسلام ومن معه، فظنوا بالله جل وعلا ظنّ السوء، ظنّ الجاهلية. والجاهلية هنا هي جاهلية في أشنع ما تكون في صورها، جاهلية بعظمة الله وكمال قدرته، وعظيم منته ونصره لأوليائه وعباده سبحانه وتعالى ﴿يُظُنُّونَ بِاللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ ظَنَّ الْجَاهِلِيَّةِ﴾ .

ومما نبه عليه أهل العلم أن الظن سيئه وحسنه بحسب المعرفة بالله وأسمائه وصفاته، فإن العبد كلما عظم حظه معرفة بالله سبحانه وتعالى وأسمائه جل وعلا وصفاته عظم حسن ظنه بربه، وأما إذا كان من أهل الجاهلية وأهل عدم المعرفة بالله سبحانه وتعالى فإن هذه الجاهلية وعدم المعرفة بالله سبحانه وتعالى تثمر في صاحبها سوء الظن بالله، أما من عرف الله، وعرف أسمائه، وعرف صفاته، وعرف فضله، وعرف منته وإحسانه وجوده، وآمن به جل في علاه فإن هذه المعرفة وهذا الإيمان يثمر في صاحبه حسن ظن بالله سبحانه وتعالى.

ومما يوضح هذا المعنى أيضاً الآية الثانية التي ساقها رحمه الله، وهي قول الله سبحانه وتعالى: ﴿وَذَلِكُمْ ظَنُّكُمُ الَّذِي ظَنَنْتُمْ بِرَبِّكُمْ أَرَأَيْتُمْ أَنَّى تُعَذِّبُونَ﴾ [الأنعام: ٢٣-٢٤] ؛ وهذا مما يبين أن فساد الاعتقاد وسوء المعرفة بالله عز وجل والجهل به وبأسمائه وصفاته يورث الظن السيئ ظنّ الجاهلية؛ لأن الله عز وجل قال: ﴿وَلَكِنْ ظَنَنْتُمْ أَنَّ اللَّهَ لَا يَعْلَمُ كَثِيرًا مِمَّا تَعْمَلُونَ﴾ هذا فساد في الاعتقاد، فساد في الإيمان بأسماء الله سبحانه وتعالى وصفاته، ﴿وَلَكِنْ ظَنَنْتُمْ أَنَّ اللَّهَ لَا يَعْلَمُ كَثِيرًا مِمَّا تَعْمَلُونَ﴾ ؛ لم ينف هؤلاء صفة العلم أصلاً، وإنما نفوا علم الله بتفاصيل الأشياء؛ فاعتقدوا هذا المعتقد وظنوا هذا الظن أن الله لا يعلم كثيراً مما يعملون، أي أن الله يخفى عليه كثير من أعمالهم ؛ تعالى الله عما يقولون . فهذا الاعتقاد الفاسد ترتب عليه سوء الظن ، الذي ترتب عليه أيضاً العقوبة الشديدة ، قال: ﴿وَذَلِكُمْ ظَنُّكُمُ الَّذِي ظَنَنْتُمْ بِرَبِّكُمْ أَرَأَيْتُمْ أَنَّى تُعَذِّبُونَ﴾ أهلككم، أوصلكم إلى الردى والهلاك، ﴿فَأَصْبَحْتُمْ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ (٢٣) فَإِنْ يَصْبُرُوا فَالنَّارُ مَوْى لَهُمْ وَإِنْ يَسْتَغِيثُوا فَمَا هُمْ مِنَ الْمُعْتَبِينَ﴾ ، فهذا مما يبين خطورة سوء الظن بالله، وأنه أثر من آثار الجهل بالله وعدم المعرفة بأسمائه سبحانه وتعالى وصفاته.

قال: وقوله تعالى: ﴿الظَّالِمِينَ بِاللَّهِ ظَنَّ السَّوْءَ عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوْءِ﴾ الآية [الفتح: ٦] ؛ وهذا ذكره الله سبحانه وتعالى في جملة أو في شنائع أوصاف المنافقين والمشركين، كما قال الله: ﴿وَيُعَذِّبُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ الظَّالِمِينَ بِاللَّهِ ظَنَّ السَّوْءَ عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوْءِ وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلَعَنَهُمْ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا﴾ [الفتح: ٦] .
 حاصل هذه الآيات: أن ظن السَّوْءَ بالله سبحانه وتعالى جاهلية جهلاء، وهو ناشئ عن عدم المعرفة بالله سبحانه وتعالى، وهو من جملة شنائع أوصاف المنافقين والمشركين.

قال رحمه الله تعالى :

رُوي من حديث ابن عمر رضي الله عنهما: «أكبر الكبائر سوء الظن بالله» أخرجه ابن مردويه.

قال رحمه الله تعالى: «روي» وهذه الصيغة صيغة تمريض وتضعيف.

«روي من حديث ابن عمر رضي الله عنهما: أكبر الكبائر سوء الظن بالله» رواه ابن مردويه والديلمي ، قال الحافظ ابن حجر رحمه الله في فتح الباري: «بسند ضعيف» .
 والمعنى الذي ذكر في الحديث دلت عليه الدلائل والشواهد الكثيرة في القرآن والسنة ، منها الآيات المتقدمة التي فيها أن سوء الظن بالله من أشنع أوصاف المنافقين والمشركين ، والعقوبة التي في كتاب الله لأهل سوء الظن بالله عز وجلّ، وأنه لم يجرى في القرآن من العقوبات والوعيد مثل ما جاء في سوء الظن بالله سبحانه وتعالى .

قال رحمه الله تعالى :

١٤- وعن جابر رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول قبل وفاته بثلاث: ((لا يموتن أحدكم إلا وهو يحسن الظن بالله)) أخرجاه، وزاد ابن أبي الدنيا: ((فإن قومًا أرداهم سوء ظنهم بالله، فقال تبارك وتعالى: ﴿وَذَلِكُمْ ظَنُّكُمُ الَّذِي ظَنَنْتُمْ بِرَبِّكُمْ أَرْدَاكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ [فصلت: ٢٣])) .

قال: وعن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول قبل وفاته بثلاث: ((لا يموتن أحدكم إلا وهو يحسن الظن بالله)) ؛ ونبينا عليه الصلاة والسلام هو أحسن وأعظم عباد الله إحسانًا للظن بالله عز وجلّ ، ومات عليه الصلاة والسلام وهو يوصي أمته بهذا، فسمعه جابر رضي الله عنه يقول: ((لا يموتن أحدكم إلا وهو يحسن الظن بالله)) ؛ وهذا فيه أن الذي ينبغي على العبد أن يحرص على أن ينمي حسن ظنه بالله سبحانه وتعالى في قلبه ، فلا يزال يزداد حُسن ظنّ بالله سبحانه وتعالى . وفي حال مرضه واشتداد الأمر عليه ودنو الأجل يزداد أيضًا ؛ عنده طاعات فيحسن الظن بالله والأمل أن يقبلها ، دعوات عنده حسن ظن بالله

ورجاء أن يستجيبها، ذنوب عنده أمل وحسن ظن بالله أن يعفو عنها، فهو يستغفر ويطلب من الله أن يغفر ، فلا يزال يزيد عنده حسن ظنه بربه سبحانه وتعالى. فيقول عليه الصلاة والسلام: ((لا يموتن أحدكم إلا وهو يحسن الظن بالله)) ؛ يحسن الظن بالله أن يغفر له، أن يعفو عنه، أن يدخله الجنة، أن ينجيه من النار، أن يفوز برضا الله ورؤيته جلّ في علاه، يحسن الظن بالله، ويذكر الحديث: ((أَنَا عِنْدَ ظَنِّ عَبْدِي بِي)) فإذا مات العبد وهو حسنُ الظن بالله فالله جلّ وعلا عند ظنّ عبده به.

ولهذا معدودٌ في عظيم النعم والمنن أن يكون العبد على هذه الحال وأن يموت العبد على هذه الحال، هذا من أعظم النعم، ولهذا جاء عن ابن مسعود رضي الله عنه أنه قال: «والذي لا إله إلا هو ما أعطي عبدٌ مؤمناً شيئاً خيراً من حُسن الظنّ بالله» ، قال: «والذي لا إله إلا هو لا يحسن عبدُ الظنّ بالله إلا أعطاه ظنّه؛ ذلك أن الخير بيده». وهذا الأثر العظيم عن ابن مسعود رواه ابن أبي الدنيا في كتابه «حسن الظن بالله» وهو كتاب قيم في بابه ومطبوع.

فمعدودٌ في عظيم النعم وجليلها حُسن ظنّ العبد بالله سبحانه وتعالى، ومن أعظم نعم الله على عبده أن يموت حين يموت وهو يحسن ظنه بربه جلّ وعلا أن يغفر زلته، وأن يقلل عثرته، وأن يتجاوز عنه، وأن يدخله الجنة، وأن ينجيه من النار.

لكن ينبغي أن يُعلم هنا : أن حُسن الظنّ تابعٌ لحسن العمل ؛ فالعبد الذي عنده توبة، عنده عبادة، عنده دعوات ومناجاة وسؤال لله عزّ وجلّ ، عنده اضطرار وافتقار إلى الله والتجاء إليه سبحانه وتعالى، عنده هذه الأعمال الصالحة يترتب عليها حُسن ظنه بالله؛ أن يقبل عمله، يغفر زلته، يقبل توبته، يقلل عثرته، يجيب دعوته.. إلى غير ذلك. أما سيّء العمل الفاجر -والعياذ بالله- فإن وحشة الذنوب وظلمة المعاصي تحول بينه وبين حسن الظنّ بالله ، ويموت حين يموت وهو سيّء الظن بالله ، أوبقته ذنوبه وأهلكته معاصيه . فلهذا الأعمال لها أثر في هذا الباب ، فإذا أحسن العبد العمل حُسن ظنه بالله ، وإذا أساء العمل ساء ظنه بالله سبحانه وتعالى.

قال: ((لا يموتن أحدكم إلا وهو يحسن الظن بالله)) أخرجاه ؛ أي البخاري ومسلم .

((زاد ابن أبي الدنيا)) ؛ أي في كتابه الذي أشرت إليه وهو «حسن الظن بالله» ، وهذه الزيادة أيضاً موجودة عند الإمام أحمد في المسند ، وابن حبان وغيرهما.

قال: وزاد ابن أبي الدنيا: ((فإن قومًا أرداهم)) أي أهلكهم ((سوء ظنهم بالله، فقال تبارك وتعالى: ﴿وَلَكُمْ ظَنُّكُمُ الَّذِي ظَنَنْتُمْ بِرَبِّكُمْ أَرْدَاكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾)) ؛ وهذا يُستفاد منه أن سوء الظن بالله من أعظم أسباب الخسران، ومن أعظم موجبات الهلاك في الدنيا والآخرة.

قال رحمه الله تعالى :

١٥ - ولهما عن أبي هريرة رضي الله عنه مرفوعاً قال الله تعالى: ((أنا عند ظن عبدي بي))، زاد أحمد وابن حبان: ((إن ظنَّ بي خيراً فله، وإن ظنَّ بي شراً فله)).

قال: ولهما أي البخاري ومسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه مرفوعاً ((قال الله تعالى: أنا عند ظن عبدي بي)) ، وفي حديث واثلة وأشرت إليه قال: ((فليظن بي ما شاء)) ، ويفسر ذلك هذه الزيادة التي عند أحمد وابن حبان في حديث أبي هريرة: ((إن ظنَّ بي خيراً فله، وإن ظنَّ بي شراً فله)) ؛ فمن ظنَّ بالله سبحانه وتعالى خيراً فله ما ظنَّ بربه ، ومَرَّ معنا قول ابن مسعود: «والذي لا إله إلا هو لا يحسن عبدٌ بالله الظنَّ إلا أعطاه ظنَّه» أي أعطاه ما يظن بربه ويؤمل في مولاه سبحانه وتعالى .

ولهذا ينبغي أن يكون العبد عظيم الظنَّ الحسَن بالله؛ أن يغفر زلته، يرفع درجاته، أن يسكنه الفردوس الأعلى، يقول عليه الصلاة والسلام: ((إِذَا سَأَلْتُمُ اللَّهَ فَاسْأَلُوهُ الْفِرْدَوْسَ)) ، لا يتعاضمه سبحانه وتعالى ذنب أن يغفره، ولا حاجة يُسألها أن يعطيها جلَّ في علاه . ولهذا كلما قوي حسن الظن قوي الرجاء والطمع والإقبال على الله سبحانه وتعالى.

قال: زاد أحمد وابن حبان: ((إن ظنَّ بي خيراً فله، وإن ظنَّ بي شراً فله)) ؛ أي أنَّ ما يناله العبد هو بحسب ظنَّه بربه، فإن ظن خيراً فله هذا الظن، وإن ظنَّ شراً بالله عزَّ وجلَّ فله هذا الظن.

قال رحمه الله تعالى :

بابُ ذكرُ إرادة العلو والفساد

وقول الله تعالى: ﴿تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [القصاص: ٨٣].

قال رحمه الله: «بابُ ذكرُ إرادة العلو والفساد» والإرادة من جملة أعمال القلوب. وهذا فيه أن من أعمال القلوب السيئة الواجب الحذر منها أن يحذر الإنسان من أن يكون في قلبه إرادة للعلو في الأرض وإرادة للفساد في الأرض، فإن وجود هذه الإرادة من جملة أمراض القلوب وذميم أعمالها. ولهذا عقد رحمه الله تعالى هذه الترجمة.

قال: «بابُ ذكرُ إرادة العلو» ؛ إرادة العلو : أي على عباد الله ؛ بالتكبر عليهم، وبالتكبر على الحق، وبازدراء الخلق وانتقاصهم، كما قال عليه الصلاة والسلام: ((الْكِبْرُ بَطْرُ الْحَقِّ وَعَظْمُ النَّاسِ)) ، بطر الحق: رده وعدم قبوله، وعظم الناس: ازدراؤهم واحتقارهم وانتقاصهم.

وقوله: «والفساد» أي إرادة الفساد ؛ الفساد يشمل جميع المعاصي؛ لأن المعاصي فساد في الأرض، ﴿وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا﴾ [الأعراف: ٥٦] أي بعد أن أصلحها الله ببعثة النبيين ودعوة المرسلين عليهم صلوات الله

وسلامه. فالمعاصي بأنواعها كلها من الفساد في الأرض ، وكلّ من يدعو إلى المعاصي والذنوب فهو من المفسدين في الأرض بحسب ما يدعو إليه من المعاصي والذنوب.

قال: «وقول الله تعالى: ﴿تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾» وهذا ذكره الله سبحانه وتعالى في سياق آياتٍ ذمّ فيها قارون الذي كان من صفته العلو في الأرض والفساد فيها، واستغلال الأموال الطائلة الكثيرة التي آتاه الله سبحانه وتعالى إياها بالفساد في الأرض والعلو فيها على عباد الله سبحانه وتعالى ؛ فعاقبه الله بأشد عقوبة وخسف به وبداره الأرض ، فكان عبرة للمعتبرين وعظة للمتعتبين .

في هذا السياق قال: ﴿تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ﴾ أي بثوابها العظيم ونعيمها المقيم ﴿نَجْعُهَا﴾ أي مخصوصة ﴿لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا﴾ أي ليس في قلوبهم إرادة الشرّ والفساد في الأرض، والإرادة مكانها في القلب، فإذا كانت قلوبهم ليس فيها إرادة إفساد أو إرادة علو في الأرض لزم من ذلك أن تكون إرادتهم إرادةً صالحة، إرادةً طيبة مستقيمة مصروفة إلى الله سبحانه وتعالى وإلى ما فيه رضاه عزّ وجلّ ، مصروفةً إلى ما فيه نفعهم وفائدتهم في الدار الآخرة ؛ فتكون الدار الآخرة لهم دون غيرهم ، لأن إرادتهم ليس فيها إرادة إفساد في الأرض وليس فيها إرادة علو في الأرض ، وإنما إرادتهم مصروفة للصالح والإصلاح في الأرض، وإرادة الثواب من الله سبحانه وتعالى في الدار الآخرة ، فتكون الدار الآخرة لهم دون غيرهم ، ولهذا المفسد في الأرض والذي يريد الفساد في الأرض ويريد العلو في الأرض ليس له في الآخرة من خلاق ، وإنما الدار الآخرة جعلها الله سبحانه وتعالى وخصّها للذين لا يريدون علوًا في الأرض ولا فسادًا.

﴿وَالْعَاقِبَةُ﴾ أي الحميدة والمآل الطيب في الدنيا والآخرة ﴿لِلْمُتَّقِينَ﴾ دون غيرهم.

قال رحمه الله تعالى :

١٦ - عن أنس رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ((لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه)) أخرجاه.

قال: عن أنس رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ((لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه)) أخرجاه ؛ أي البخاري ومسلم.

((لا يؤمن أحدكم)) النفي هنا للإيمان هو نفيّ للإيمان الواجب ، ونفي الإيمان الواجب يستحق عليه من نفي عنه الإيمان العقوبة؛ لأن هذا أمرٌ أوجب الله سبحانه وتعالى؛ فمن لم يفعل استحق العقوبة . فالله عزّ وجلّ أوجب على المؤمن أن يحبّ لأخيه ما يحب لنفسه ، والمحبة مكانها القلب ؛ وهذا فيه أن المؤمن سليم القلب تجاه إخوانه ، ليس فيه غل ولا حقد ولا حسد ولا ضغائن ولا غير ذلك ، بل يحبّ لهم الخير ، بل يحبّ لهم من الخير مثل ما يحب لنفسه؛ لا يحسداهم، لا يحقد عليهم، لا يحمل سخائم في صدره تجاههم، بل سليم الصدر تجاه إخوانه المسلمين،

﴿وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ﴾ [الحشر: ١٠] ، فمن لم يكن كذلك فإن الإيمان الواجب يُنفى عنه كما في الحديث؛ لأنه ترك شيئاً أوجبهُ الله سبحانه وتعالى عليه.

قال: ((لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه)) وكما عرفنا المحبة مكانها القلب، وهذا معناه: أن يكون قلب المسلم قلباً نظيفاً نقيّاً نزيهاً، ليس فيه إضممار شر وإرادة شر وإرادة فساد في الأرض، وإرادة علو على عباد الله سبحانه وتعالى، بل هو مع المؤمنين وفيهم، يحب لهم ما يحب لنفسه من الخير. ولهذا من كان بهذا الوصف يحب لإخوانه المسلمين ما يحب لهم في الخير هذا من علامات ودلائل أنه لا يريد علواً في الأرض ولا فساداً، وهذا وجه إيراد المصنف رحمه الله تعالى لهذا الحديث والذي بعده تحت هذه الترجمة.

قال رحمه الله تعالى :

١٧ - وعن أبي محمد عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما؛ أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: ((لا يؤمن أحدكم حتى يكون هواه تبعاً لما جئت به)).

قال: وعن أبي محمد عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: ((لا يؤمن أحدكم حتى يكون هواه تبعاً لما جئت به)) ؛ «لا يؤمن أحدكم» أي الإيمان الواجب «حتى يكون هواه» أي ميل نفسه «تبعاً لما جئت به» أي أن يكون محباً للسنة، محباً لهدي النبي الكريم عليه الصلاة والسلام ، مؤثراً له على غيره، غير مبغضٍ لهدية صلوات الله وسلامه عليهم . لا يؤمن العبد الإيمان الواجب حتى يكون بهذه الصفة؛ هواه أي ميل نفسه تابع لما جاء به الرسول صلوات الله وسلامه عليه.

قال رحمه الله تعالى :

بابُ العداوة والبغضاء

وقول الله تعالى: ﴿فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ﴾ [النساء: ٥٩] ، وقال الله تعالى: ﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ﴾ [الممتحنة: ٤] .

قال: «بابُ العداوة والبغضاء» العداوة أي للمؤمنين والبغضاء لهم . والعداوة والبغضاء هذه من أعمال القلوب ، والإسلام جاء ليؤلف بين المؤمنين، وليحقق بينهم المحبة والتواد والترايط والتآخي والتعاون، ((المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضاً))، ((مثل المؤمنين في توادهم وتراحيمهم وتعاطفهم مثل الجسد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى)) ، ((لا تباغضوا ولا تحاسدوا ولا تدابروا وكونوا عباد الله إخواناً)) ، ((المسلم أخو المسلم))، فالشريعة جاءت بما يعمق هذه الأخوة ويمتثلها ويقويها، وجاءت بالتحذير من كل أمر

يوهّي هذه الأخوة، ومن ذلكم أن تنطوي القلوب على عداوات ، وأن تنطوي القلوب على بغضاء، فهذا لا ينبغي أن يكون بين المؤمنين، المؤمن يحب لأخيه ما يحب لنفسه، ولا ينطوي قلبه على العداوة وعلى البغضاء لأخيه المسلم ، بل يجعل عداوته وبغضائه لغير المسلمين، ﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ﴾ أي الكفار ﴿إِنَّا بَرَاءٌ مِنْكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَدًا حَتَّى تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحَدُّهُ﴾ [المتحة: ٤]؛ فالعداوة والبغضاء لا يجعلها المسلم لإخوانه المسلمين، وإنما يجعلها للكفار يغيضهم ويعاديهم، وأما إخوانه المسلمين فإنه يحبهم ويواليهم. ولهذا عقد رحمه الله تعالى هذه الترجمة، قال: «بَابُ الْعَدَاوَةِ وَالْبَغْضَاءِ» ؛ عقدها للتحذير من المعاداة للمسلمين، ومن البغض للمسلمين، وأنه لا ينبغي أن يكون ذلك. وأورد رحمه الله تعالى تحت هذه الترجمة آيتين:

١. الأولى: قول الله عز وجل ﴿فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ﴾ [النساء: ٥٩] .
 ٢. الثانية: قول الله عز وجل ﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَاءٌ مِنْكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَدًا حَتَّى تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحَدُّهُ﴾ [المتحة: ٤] .
- ﴿عَلَيْكُمْ﴾ أما الآية الأولى فإن المصنف رحمه الله أوردتها تبيانا أن المسلمين كلما اجتمعوا على الكتاب والسنة والرد إلى الكتاب والسنة زالت عنهم العداوات، إذا كانوا كلهم معظمين للكتاب والسنة محتكمين إلى الكتاب والسنة، إذا قيل لأحدهم: "هذا حكم الله" لزم الحكم ورضي به ؛ فإن العداوات تزول وتبتدئ، بينما إذا وُجد في المسلمين من لا يحكم الكتاب والسنة أو لا يقبل حكم الكتاب والسنة أو يردّ حكم الكتاب والسنة ولو في قضايا معينة فإن هذا مما يوجب البغضة. وهذا وجه إيراد المصنف رحمه الله تعالى لهذه الآية. ومن ذلكم قول النبي عليه الصلاة والسلام: ((ولا تباغضوا)) ، قال النووي رحمه الله في شرحه لصحيح مسلم: «قال بعض العلماء: وفي النهي عن التباغض إشارة إلى النهي عن الأهواء المضلة الموجبة للتباغض» اهـ. هذا يفيدنا أن الأهواء والبدع والضلالات وكون الإنسان يركب هواه ورأيه ماذا يُحدث في المجتمع؟ البدعة توجب الفرقة، والسنة توجب الجماعة، ولهذا يقولون: «أهل السنة والجماعة ، وأهل البدعة والفرقة». فإذا النهي عن العداوة والبغضاء يتطلب من أمة الإسلام أن يجتمعوا على كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم ، فإذا اجتمعوا عليهما ذهبت عنهم العداوة والبغضاء ما داموا معتصمين بحبل الله سبحانه وتعالى المتين.

﴿عَلَيْكُمْ﴾ وأما الآية الثانية وهي قول الله عز وجل : ﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَاءٌ مِنْكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَدًا حَتَّى تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحَدُّهُ﴾ معنى ذلك: إذا آمنوا بالله وحده ماذا يكون؟ انتهت العداوة والبغضاء، لأنه انتهى موجبها . وهذا مما يدل على أنه لا يجوز أن تكون العداوة والبغضاء للمؤمنين، العداوة والبغضاء ليست للمؤمنين، العداوة والبغضاء للكافرين، أما المؤمن ليس له عداوة وبغضاء وإنما له النصيحة، كما قال عليه الصلاة والسلام: ((الَّذِينَ النَّصِيحَةُ)) قلنا «لِمَنْ؟» قَالَ: ((لِلَّهِ، وَلِكِتَابِهِ، وَلِرَسُولِهِ، وَلِأَيِّمَةِ الْمُسْلِمِينَ، وَعَامَّتِهِمْ)). .

قال رحمه الله تعالى :

باب الفحش

وقول الله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَنْ تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ فِي الَّذِينَ آمَنُوا لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [النور: ١٩] ، وقوله تعالى: ﴿إِذَا نَصَحُوا لِلَّهِ وَرَسُولِهِ مَا عَلَى الْمُحْسِنِينَ مِنْ سَبِيلٍ﴾ الآية [التوبة: ٩١] .

قال: «باب الفحش» ؛ والفحش أصله عند العرب في كل شيء خرج عن مقداره وحدّه حتى يستقبح ، كل شيء زاد عن حدّه ومقداره زيادة صار بها قبيحًا ، وكل شيء يزيد عن حدّه ويفحش في الزيادة عن حدّه يقبح ، فهذا أصل إطلاقه . ولهذا إذا خرج الإنسان عن حدّه في المحافظة على لسانه وعلى منطقه وعلى كلامه ، وأصبح يأتي على لسانه الألفاظ النابية والكلمات السيئة ؛ يقال عن هذه الكلمات وهذه الأقوال: «فُحش» ، قال عليه الصلاة والسلام: ((لَيْسَ الْمُؤْمِنُ بِالطَّعَّانِ وَلَا اللَّعَّانِ وَلَا الْفَاحِشِ وَلَا الْبَذِيءِ)) . فالفحش: هو كل ما زاد عن الحد وخرج عن الحد مما يقبح بالمرء ، ويكون في المنطق ، ولهذا يقال: «فاحش المنطق» ، ويكون في الأعمال تكون أعمال الإنسان فاحشة ولهذا قال جل وعلا : ﴿وَلَا تَقْرَبُوا الزَّانَا إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً﴾ [الإسراء: ٣٢] ، ومن الفاحشة أيضا التي تتعلق بالزنا الحديث عنه بما يدعو إلى انتشاره وشيوعه وتهيجته وتحريكه بين الناس ؛ فهذا كله من الأمور التي جاء الإسلام بالتحذير عنها وعدّها واعتبارها في عظام الذنوب .

قال : وقول الله تعالى ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَنْ تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ فِي الَّذِينَ آمَنُوا لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [النور: ١٩] ؛ ﴿يُحِبُّونَ أَنْ تَشِيعَ﴾ : أن تشتهر وأن تنتشر وأن تفشو في الناس ﴿الْفَاحِشَةُ﴾ أي الشنيعة القبيحة المستفظة ﴿فِي الَّذِينَ آمَنُوا﴾ أي في أوساط المؤمنين ﴿لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ أي عقوبتهم عند الله سبحانه وتعالى العذاب الأليم؛ وهذا دليل على أن حب شيوع الفاحشة وانتشارها من كبائر الذنوب ، لأن الله توعّد من فعل ذلك بالعذاب الأليم ، مما يدل على أن ذلك من الذنوب العظيمة .

وقوله تعالى: ﴿إِذَا نَصَحُوا لِلَّهِ وَرَسُولِهِ مَا عَلَى الْمُحْسِنِينَ مِنْ سَبِيلٍ﴾ الآية [التوبة: ٩١] ؛ هذا فيه أن من نصح لله ورسوله؛ نصح لله : أي بالإيمان به وتوحيده وإخلاص الدين له جلّ وعلا والبعد عن الاشرار به والدعوة إلى دينه سبحانه وتعالى ، ونصح لرسوله عليه الصلاة والسلام: بطاعته واتباعه وتصديق أخباره والانتفاء عن نواهيهِ صلوات الله وسلامه عليه ؛ أنّ من كان كذلك فهو محسن ، فهو من المحسنين لأنّ فعّاله وأقواله انطوت على النصيحة .

مفهوم المخالفة : أن من لم يكن ناصحًا لله ورسوله وإنما كان على الضد من ذلك فهؤلاء عليهم السبيل ولهم العقوبة عند الله سبحانه وتعالى .

باب ذكر مودة أعداء الله

وقول الله تعالى: ﴿لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ﴾ [المجادلة: ٢٢] ، وقوله: ﴿قُلْ إِنْ كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾ [التوبة: ٢٤] ، وقوله: ﴿وَلَا تَرْكَبُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا فَتَمَسَّكُمُ النَّارُ﴾ الآية [هود: ١١٣] . وقال أبو العالية: «لا ترضوا بأعمالهم» . وروي عن ابن عباس رضي الله عنهما: «لا تميلوا إليهم كل الميل في المحبة ولين الكلام والمودة» .

قال رحمه الله : «باب ذكر مودة أعداء الله» ، والمودة مكانها القلب ؛ ولهذا أورد رحمه الله تعالى هذه الترجمة في جملة أعمال القلوب السيئة . قال : «باب ذكر مودة أعداء الله» ؛ والمودة: هي المحبة . وأعداء الله سبحانه وتعالى وأعداء دينه ليس لهم في قلوب المؤمنين إلا البغض ﴿وَبَدَأَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ﴾ [الممتحنة: ٤] ، فليس لهم إلا البغض ، فإن المحبة في الله والبغض في الله ، محبة المؤمن في الله وبغضه في الله ، وذلك أوثق عرى الإيمان ، فلا يجوز لمن يؤمن بالله واليوم الآخر أن يواد أعداء دين الله ، لا يجتمعان .

ولهذا أورد رحمه الله قول الله عز وجل: ﴿لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ﴾ [المجادلة: ٢٢] ، وهذا فيه أن من مقتضيات الإيمان العظيمة عدم مودة من حاد الله سبحانه وتعالى ورسوله ولو كان أقرب قريب ؛ أباً أو ابناً أو أخاً أو عمّاً أو خالاً أو غير ذلك ، فمن كان محاداً لله ورسوله ليس له في قلوب المؤمنين إلا البغضاء ، فإذا انعكس الأمر وأصبح في المؤمنين أو في أهل الإيمان من يواد أعداء دين الله فهذا من عظام الذنوب ، لأن الإيمان الصادق بالله واليوم الآخر لا يجتمع معه في قلب واحد مودة أعداء دين الله سبحانه وتعالى .

وأورد قول الله عز وجل : ﴿قُلْ إِنْ كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾ [التوبة: ٢٤] ، هذه محاب ثمانية ذكرت في هذه الآية الكريمة ، محاب ثمانية جُبلت القلوب والنفوس على حبها، كل إنسان يحب أباه وابنه وإخوانه وزوجه وعشيرته وأمواله ومسكنه ؛ ولا شيء في ذلك ، وهذا أمر جبل الله سبحانه وتعالى النفوس عليه، لا شيء في ذلك ، لكن الخطورة إذا كانت هذه الأشياء أو بعضها أو شيء منها محبتها مقدمة على محبة الله ومحبة رسوله ، ولهذا قال: ﴿أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ ، فإذا كانت هذه الأشياء محبتها مقدمة على محبة الله ومحبة رسوله فلمن كان كذلك هذا الوعيد ﴿فَتَرَبَّصُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾ أي الخارجين عن طاعة الله سبحانه وتعالى .

قال : وقوله ﴿وَلَا تَرْكَبُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا فَتَمَسَّكُمُ النَّارُ﴾ الآية [هود: ١١٣] تركنوا: أي تميلوا. ﴿وَلَا تَرْكَبُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ أي لا تميلوا إلى الظالمين . والميل إليهم يكون بموافقتهم على ظلمهم والرضا بباطلهم وضلالهم. ﴿وَلَا تَرْكَبُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا فَتَمَسَّكُمُ النَّارُ﴾ وهذا فيه أن الركوب إلى الظالمين بالميل إليهم وموادتهم ومحبتهم من كبائر الذنوب وعظائم الآثام ولهذا قال: ﴿فَتَمَسَّكُمُ النَّارُ﴾ .

قال أبو العالية -أي في معنى الآية- : «لا ترضوا بأعمالهم» ؛ وهذا من معاني الركوب إلى الذين ظلموا : الرضا بأعمالهم وموافقتهم على باطلهم وظلمهم وضلالهم ، أو تحسين ما هم عليه من ضلال والباطل ، أو مدح أعمالهم الباطلة ؛ كل هذا معدود في الركوب إلى الذين ظلموا وهو من عظام الذنوب.

وروي عن ابن عباس رضي الله عنهما: «لا تميلوا إليهم كل الميل في المحبة ولين الكلام والمودة» بحيث يكون التعامل معهم والمؤالفة لهم لا يوجد فرق بينه وبين المسلم ، وهذا معنى كلامه قال: «لا تميلوا إليهم كل الميل في المحبة ولين الكلام»، لكن إن أحب المسلم أباه الكافر المحبة طبيعية على خدمته ورعايته فلا يلام على هذه المحبة الطبيعية.

أيضا إذا ألان الكلام معه الكافر من أجل تحبيبه للإسلام ودعوته للدين أيضا لا شيء في ذلك كما قال الله عز وجل: ﴿لَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾ [المتحة: ٨] ، لا يمنع أن تلاففه في الكلام ، أن تقدم له هدية ، أن تعامله المعاملة الحسنة من أجل استجلاب قلبه ودعوته لدين الله تبارك وتعالى .

قال رحمه الله تعالى :

١٨ - وعن ابن مسعود رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: ((المرء مع من أحب)) أخرجاه.

قال: عن ابن مسعود رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: ((المرء مع من أحب)) أخرجاه؛ أي البخاري ومسلم

((المرء مع من أحب)) هذا عام ؛ إن كان يحب المؤمنين فهو معهم ويُحشر معهم ، وإن كان يحب الكافرين وأعداء الدين فهو معهم ويُحشر معهم ، فالمرء مع من أحب ؛ فإذا كان يحب أهل الإيمان حُشر معهم ، ولهذا الصحابة رضي الله عنهم فرحوا بهذا الحديث فرحًا عظيمًا ، حتى قال أنس رضي الله عنه : «ما فرحنا بعد فرحنا بالإسلام بشيء مثل فرحنا بقول النبي صلى الله عليه وسلم المرء مع من أحب» ، فرحوا بذلك قال : «وأنا أحب أبو بكر وعمر وأرجو أن يحشرنى الله معهم وإن لم ألحق بهم» أي في الأعمال .

فالشاهد أن قوله ((المرء مع من أحب)) تدل بعمومها أنه لا يجوز أن يكون في القلب مادة لأعداء الدين ، لأنه إن وُجد في قلبه مادة لأعداء الدين فالمرء مع من أحب ، المرء مع من يود ، إذا كانت المودة والمحبة مصروفة لأعداء دين الله عز وجل فإن من كان كذلك حُشر معهم ؛ وهذا وجه إيراد المصنف رحمه الله لهذا الحديث في هذه الترجمة أخذًا من عموم الحديث ((المرء مع من أحب)) .

سبحانك اللهم وبحمدك ، أشهد أن لا إله إلا أنت ، أستغفرك وأتوب إليك .

اللهم صلِّ وسلِّم على عبدك ورسولك نبينا محمد وآله وصحبه أجمعين .

الدرس الخامس

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله رب العالمين، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله، صلى الله وسلم عليه وعلى آله وأصحابه أجمعين . اللهم إنا نسألك علمًا نافعًا ورزقًا طيبًا وعملاً متقبلاً، اللهم علِّمنا ما ينفعنا وانفعنا بما علِّمنا وزدنا علمًا، اللهم أصلح لنا شأننا كله ولا تكلنا إلى أنفسنا طرفة عين. أما بعد :

قال شيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب رحمه الله تعالى في كتاب الكبائر :

باب ذكر قسوة القلب

وقول الله تعالى: ﴿فَبِمَا تَقْضِيهِمْ مِيثَاقَهُمْ لَعَنَّاهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَاسِيَةً يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ﴾ الآية [المائدة: ١٣] ،
وقوله تعالى: ﴿اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُتَشَابِهًا مَثَانِي تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ﴾ [الزمر: ٢٣] ، وقوله: ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ﴾ الآية [الحديد: ١٦] .

قال المصنف الإمام شيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب رحمه الله في كتابه الكبائر: «باب ذكر قسوة القلب» ؛ قسوة القلب آفة عظيمة من آفات القلوب، وذلك أن القلب يمرض، وإذا اشتد به المرض أُصيب بهذه الآفة «قسوة القلب»، وإذا وُجدت هذه الآفة في القلب -حمانا الله أجمعين- فإن القلب يُظلم؛ فلا تنفعه موعظة، ولا يرتدع بوعيد، ولا يحركه وعد، ولا ينفع فيه ترغيب ولا تهيب، بل يكون معرضًا عن كل خير، منصرفًا عن الحق والهدى ، مقبلًا على كل ضلال وباطل . وهذا مما يبين خطورة هذه المضغة الصغيرة التي في الإنسان، وعظم أثرها على سلوكه وأعماله، قد مر معنا قول النبي عليه الصلاة والسلام: ((أَلَا وَإِنَّ فِي الْجَسَدِ مُضْغَةً ؛ إِذَا صَلَحَتْ صَلَحَ الْجَسَدُ كُلُّهُ، وَإِذَا فَسَدَتْ فَسَدَ الْجَسَدُ كُلُّهُ ؛ أَلَا وَهِيَ الْقَلْبُ)).

أورد رحمه الله تعالى تحت هذه الترجمة آياتٍ بدأها بقول الله عزَّ وجلَّ : ﴿ فَبِمَا نَقْضِهِمْ مِيثَاقَهُمْ لَعَنَّاهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَاسِيَةً يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ ﴾ ؛ ﴿ فَبِمَا نَقْضِهِمْ مِيثَاقَهُمْ ﴾ السياق عن اليهود ، قد أخذ الله عليهم الميثاق بإقام الصلاة وإيتاء الزكاة ولزوم طاعة الله واتباع الرسول، أخذ عليهم العهد بذلك فنقضوا عهد الله من بعد أن أوثقوا ذلك العهد والالتزام بما عاهدوا الله تبارك وتعالى عليه؛ فترتب على ذلك هذه العقوبات التي صدرها الله سبحانه وتعالى باللعن لهم ﴿ لَعَنَّاهُمْ ﴾ ؛ واللعن: هو الطرد والإبعاد من رحمة الله عزَّ وجلَّ. والباء في قوله ﴿ فَبِمَا نَقْضِهِمْ مِيثَاقَهُمْ ﴾ باء السببية ، أي بسبب نقضهم للميثاق لعنهم الله سبحانه وتعالى وطردهم من رحمته ، وبسبب نقضهم للميثاق أيضاً جعل الله تبارك وتعالى قلوبهم قاسية.

وتنبه هنا لفائدة مهمة تتعلق بهذه الترجمة ؛ ألا وهي: أن دخول الإنسان في المعاصي معصيةً تلو الأخرى، وتفريطه في الطاعات والواجبات الدينية واجباً تلو الآخر يترتب عليه قسوة القلب ، قال: ﴿ فَبِمَا نَقْضِهِمْ مِيثَاقَهُمْ ﴾ الميثاق الذي كان نقضوه هو نقضٌ للزوم الطاعة من صلاة وزكاة وامتنال لأوامر الله سبحانه وتعالى ، فنقضوا هذا العهد، فبسبب ذلك لعنهم الله وجعل قلوبهم قاسية. إذاً قسوة القلب هو أمرٌ يترتب على ولوج المرء في المعاصي ودخوله فيها، وتركه للواجبات الدينية التي أوجبها الله سبحانه وتعالى على عباده .

قال: ﴿ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَاسِيَةً ﴾ انتبه هنا لقوله ﴿ وَجَعَلْنَا ﴾ ؛ فإن القلوب كلها بيد الله، قلوب العباد كلها بيد الله سبحانه وتعالى، كما قال نبينا عليه الصلاة والسلام: ((مَا خَلَقَ اللَّهُ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ بَشَرٍ إِلَّا وَقَلْبُهُ بَيْنَ أَصْبُعَيْنِ مِنْ أَصَابِعِ اللَّهِ إِنْ شَاءَ أَقَامَهُ وَإِنْ شَاءَ أَرَاغَهُ)). وهنا قال: ﴿ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَاسِيَةً ﴾ فهو الذي بيده سبحانه وتعالى صلاح القلوب وسلامتها وزكاتها، ﴿ بَلِ اللَّهُ يُرْكَي مَنْ يَشَاءُ ﴾ [النساء: ٤٩] ، الأمر كله بيده جلّ وعلا.

قال: ﴿ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَاسِيَةً ﴾ ومعنى «قاسية» : أي مثل الحجارة في قسوتها، وربما كانت أشد قسوة. وإذا وصل القلب إلى هذه المرحلة لم ينتفع بموعظة، ولم ينتفع بزاجر، ولم يُفد فيه ترغيب ولا ترهيب .

قال : ﴿ يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ ﴾ ؛ ﴿ يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ ﴾ أي كلام الله سبحانه وتعالى ووحيه وتنزيله يحرفونه ﴿ عَنْ مَوَاضِعِهِ ﴾ أي يصرفونه عن مواضعه ؛ إما بتغيير في ألفاظه ، أو بتغيير في معانيه ودلالاته ؛ من تغييرهم في الألفاظ: لما قال الله عزَّ وجلَّ لهم: ﴿ وَقُولُوا حِطَّةً ﴾ [البقرة: ٥٩] حَرَّفُوا الْكَلِمَ وزادوا فيه حرفاً، قالوا: حنطة، أي حبة من الحنطة، ﴿ حِطَّةً ﴾ أي حُطَّ عنا الذنوب والخطايا، فزادوا حرفاً وجعلوا ذلك معناه: حبة حنطة ، فبدل أن تكون الكلمة كلمةً فيها طلب الغفران من الله سبحانه وتعالى جعلوها كلمةً فيها طلب للدنيا وما فيها من طعام وغذاء ونحو ذلك.

﴿ يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ ﴾ ؛ والتحريف نوعان: تحريف لفظي ، وتحريف معنوي .

■ والتحريف اللفظي: يكون بتغيير الكلمة وإبدالها بكلمة أخرى ، أو بتغيير حرفٍ في الكلمة، أو بتغيير حركة إعرابية مثلاً في الكلمة أو حركة غير إعرابية ، بحيث يتغير المعنى بتغيير الكلمة.

■ والتحريف المعنوي : يكون مع إبقاء الكلمة كما هي لكن تُعطى الكلمة معنى لفظ آخر.

وهذا كله ذكره الله سبحانه وتعالى في أوصاف اليهود.

ثم أورد رحمه الله قول الله عز وجل: ﴿اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُتَشَابِهًا﴾ ؛ ﴿نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ﴾ القرآن الكريم ، وهذا فيه فضل هذا القرآن وعظم شأنه، وأنه أفضل الكتب المنزلة وأعظمها شأنًا، وهو الكتاب الذي أنزله الله سبحانه وتعالى على خير رسله صلوات الله وسلامه عليه ، فهو أفضل كتاب وقد أنزل على أفضل رسول عليه الصلاة والسلام ، وكان هذا الكتاب خاتمة الكتب السماوية ، فكما أن نبينا الكريم عليه الصلاة والسلام لا نبي بعده فإن كتابه القرآن الكريم لا كتاب بعده، فهو آخر الكتاب المنزلة وخيرها وأعظمها وأفضلها.

﴿اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُتَشَابِهًا﴾ ؛ وهذا الوصف للقرآن بالتشابه هو وصف للقرآن كله، فالقرآن كله متشابه، ومعنى متشابه: أي متجانس ، متوائم ، يؤيد بعضه بعضًا، ولا يعارض بعضه بعضًا، ﴿وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا﴾ [النساء: ٨٢] . فالقرآن الكريم متشابه : أي آياته وسوره ودلالاته متشابهة ليس فيها تعارض وليس فيها تناقض، بل يؤيد بعضه بعضًا، فهذا وصف للقرآن كله، وهذا يسمى التشابه العام.

لأن التشابه الذي وصف به القرآن الكريم نوعان: تشابه عام ، وتشابه خاص .

■ التشابه العام: هو هذا المذكور في هذه الآية الكريمة، والمراد به كما عرفنا : التشابه بمعنى التجانس والتواءم وعدم التعارض والاختلاف ، فهذا وصف للقرآن الكريم كله.

■ وأما التشابه الخاص : فهو الذي ذكره الله سبحانه وتعالى في قوله: ﴿هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ﴾ [آل عمران: ٧] ؛ فوصف بعض القرآن بالتشابه، وفي آيتنا هذه وصف القرآن كله بالتشابه. فإذا فالتشابه الذي وُصف به القرآن : تشابه عام وهو المذكور في هذه الآية، وتشابه خاص وهو المذكور في آية آل عمران. والتشابه الخاص معناه : خفاء المعنى وعدم ظهوره ، فالقرآن منه «آيات محكمات» أي واضحة ظاهرة المعنى بيّنة، و«آيات متشابهات» أي معناها ليس ظاهرًا لكل أحد، فيها خفاء، لا يقف على معناها ولا يعلم مدلولها إلا الراسخون في العلم، ولهذا قال الله سبحانه وتعالى: ﴿وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ﴾ [آل عمران: ٧] قال ابن عباس رضي الله عنهما: «أنا من الراسخين في العلم الذين يعلمون تأويله» أي تأويل المتشابه. فإذا التشابه الخاص المراد به: خفاء المعنى، وهذا الخفاء ليس خفاءً مطلقًا، وهذا التشابه ليس تشابهًا مطلقًا، وإنما هو تشابه نسبي ، بمعنى أنه يخفى على بعض الناس ولا يخفى على آخرين وهم الراسخون في العلم. قال: ﴿مَثَانِي﴾ وهذه صفة أخرى للقرآن، مَثَانِي: أي تُثِي فيهِ وأُبدِي فيهِ وأُعيد من ذكر أسماء الله وصفاته وعظمته وجلاله وكمال تدبيره، وأيضًا تُثِي فيهِ القصص ، والوعد والوعيد، والترغيب والترهيب، وبيان الأحكام، وذكر الجنة وذكر النار، وأخبار النبيين، وغير ذلك.

﴿تَقْشَعْرُ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ﴾ ذكر أمران؛ الأول: اقشعرار الجلود. والثاني: لينها ، ﴿تَقْشَعْرُ﴾ و﴿تَلِينُ﴾ وهذا كله من التأثير بآيات القرآن الكريم.

وإذا تأملت في آيات القرآن تجد أن آيات القرآن فيها آيات وعيد ، فيها تهديد، فيها تحويف، فيها إنذار، فيها تحذير من سخط الله وعقوبته سبحانه وتعالى، فهذه الآيات تأثيرها في القلوب هو هذا: ﴿ تَقشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ﴾ ؛ لأن هذا مقام خوف وخشية واقشعرار الجلود وخوفها، عندما يسمع ويتأمل القارئ أو السامع لكلام الله سبحانه وتعالى آيات الوعيد التي في القرآن تُحَرِّك في قلبه خشية من الله سبحانه وتعالى، وفي بدنه وجلده قشعريرة، خوفاً وخشية من عقاب الله وسخطه وعذابه سبحانه وتعالى.

ثم القرآن الكريم أيضاً فيه آيات أخرى فيها الترغيب والترهيب، وذكر الجنة، وذكر النعيم، وذكر الثواب، وذكر الرحمة، وذكر المغفرة، وذكر التوبة وذكر العفو، إلى غير ذلك، فهذه الآيات آيات الترغيب تلين بتأملها وتدبرها وسماعها جلود هؤلاء المؤمنين. وهذا فيه أن القرآن بتلاوة المسلم له يتحرك فيه الأمان، يتحرك فيه الترغيب والترهيب، الرغبة والرغبة، الرجاء والخوف، لأن القرآن وعد ووعد، ترغيب وترهيب.

قال: ﴿ ثُمَّ تَلَيْنُ جُلُودَهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ ﴾ ؛ وهذا فيه أن القرآن الواجب على المسلم ألا يكون حظه منه مجرد التلاوة دون التأمل في المعاني والتدبر في الدلالات، والله سبحانه وتعالى يقول: ﴿ كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ ﴾ [ص: ٢٩] ، ويقول عز وجل: ﴿ أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا ﴾ [النساء: ٨٢] ، ويقول جل وعلا: ﴿ أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا ﴾ [محمد: ٢٤] ، ويقول جل وعلا: ﴿ أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا الْقَوْلَ ﴾ [المؤمنون: ٦٨] ، فالله عز وجل أنزل هذا القرآن لتدبر آياته، ولتعتقل معانيه، ولتعمل به. فإذا كان القارئ يقرأ القرآن بالتدبر؛ فإن هذه الأوصاف - بإذن الله سبحانه وتعالى - تظهر عليه ويكون من أهلها، ﴿ تَقشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلَيْنُ جُلُودَهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ ﴾ .

قال: وقوله ﴿ أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ وَلَا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ (١٦) اَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ وهذه الآية الكريمة ذكرها الله سبحانه وتعالى بعد أن ذكر المنافقين وحالهم ومآلهم، فبعد ذكره لحالهم قال جل في علاه: ﴿ أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ ﴾ .

﴿ أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا ﴾ أي ألم يأت الوقت الذي يُقبل فيه أهل الإيمان على القرآن، وعلى ذكر الله، وعلى تحقيق الخشية من الله سبحانه وتعالى؟!!

﴿ أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ ﴾ وهذا فيه أن القلوب إذا أقبلت على ذكر الله، وأقبلت على وحيه وتنزيله جل في علاه، فإنه يؤثر فيها خشوعاً، يؤثر في قلوبهم خشية وإقبالاً على طاعة الله سبحانه وتعالى. ﴿ أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ ﴾ .

إذاً هذه الآيات الثلاثة التي ذكر المصنف رحمه الله تعالى جُمع فيها بين الداء والدواء ؛ الداء العضال الذي هو قسوة القلوب، والدواء ذكر الله والإقبال على كتابه والتأمل في وحيه وتنزيله ، فإن شفاء القلوب من هذا الداء العظيم لا يكون إلا بهذا الدواء . ولهذا يؤثر أن رجلاً جاء إلى الحسن البصري رحمه الله تعالى يشكو قسوة قلبه،

فقال له الحسن: «أذبه بذكر الله» ؛ أذب هذه القسوة بذكر الله سبحانه وتعالى. فالمصنف رحمه الله تعالى جمع هنا بين ذكر الداء وذكر الدواء.

والآية الثالثة التي ذكرها رحمه الله تعالى وهي في سورة الحديد كانت سبب هداية عدد من عباد الله سبحانه وتعالى، منهم الفضيل بن عياض رحمه الله في قصة مشهورة ذكرها الذهبي رحمه الله تعالى في ترجمته في كتابه «سير أعلام النبلاء».

قال رحمه الله تعالى :

١٩ - عن ابن عمرو رضي الله عنهما مرفوعاً: «ارحموا تُرحموا، واغفروا يُغفر لكم، ويلٌ لأقمار القول، ويلٌ للمصرّين الذين يصرون على ما فعلوا وهم يعلمون» رواه أحمد.

قال: عن ابن عمرو أي عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما مرفوعاً أي إلى النبي عليه الصلاة والسلام قال: ((ارحموا تُرحموا، واغفروا يُغفر لكم)) وهذا فيه القاعدة المعروفة في الشريعة أنّ الجزاء من جنس العمل، ﴿هَلْ جَزَاءُ الْإِحْسَانِ إِلَّا الْإِحْسَانُ﴾ [الرحمن: ٦٠] ، ﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَى﴾ [يونس: ٢٦] ؛ فالجزاء من جنس العمل.

قال: ((ارحموا تُرحموا)) ؛ «ارحموا»: أي أنتم أيها العباد من في الأرض ، «تُرحموا»: أي يرحمكم من في السماء ، ربّ العالمين جلّ في علاه. وفي الحديث الآخر: ((مَنْ لَا يَرْحَمْ لَا يُرْحَمْ)) ؛ فالجزاء من جنس العمل.

ولهذا يجب أن يكون تعامل الإنسان مع الناس ، مع الدواب ، مع الطير إلى غير ذلك أن يكون تعامله معهم بالرحمة، يتقرب إلى الله سبحانه وتعالى بهذا التعامل ، لأنه إذا كان فيه هذه الرحمة للناس والدواب والطير فإن الله يرحمه . ولهذا جاء في «الأدب المفرد» للإمام البخاري رحمه الله أن رجلاً سأل النبي عليه الصلاة والسلام قال: «يا رسول الله الشاة أذبجها وأرحمها» يذبجها لأن الله أباح له أن يذبجها؛ ليأكل ويطعم ويطعم أهله وأولاده وضيافته من لحمها، لكن وهو يباشر ذبحها قامت فيه رحمه لهذه الدابة ، ولهذا يرفق بها ويحسن الذبحة ويحدّ شفّرتها كما جاء بذلك الحديث، ويتعامل معها برفق ورحمة ليس بغلظة وقسوة وشدة، فقال: «يا رسول الله، الشاة أذبجها وأرحمها»، فقال عليه الصلاة والسلام: ((والشاة إذا رحمتها رحمتها رحمتك الله)) ؛ وهذا فيه أن رحمة الإسلام التي دعا إليها عباد الله المؤمنين رحمة عامة، ليست خاصة بالناس، بل هي تشمل الناس والدواب والطير.

((ارحموا من في الأرض))، و «في» هنا بمعنى «على» ، ((من في الأرض)) أي من على الأرض، ليس المراد ((من في الأرض)) أي من هو في بطنها ، ((ارحموا من في الأرض)) أي من على الأرض، و«في» تأتي بمعنى «على» ، ((يرحمكم من في السماء)) أي من على السماء، وهو الله سبحانه وتعالى، العليّ على عرشه المجيد، كما قال سبحانه وتعالى: ﴿الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى﴾ [طه: ٥] . فيقول عليه الصلاة والسلام: ((ارحموا تُرحموا)) ؛ ارحموا عباد الله، وارحموا الناس، ارحموا الدواب، ارحموا الطير ؛ تُرحموا: يرحمكم من في السماء سبحانه وتعالى .

((واغفروا)): أي قابلوا الناس في أخطائهم، في ظلمهم مثلاً لكم، في تعدياتهم إلى غير ذلك، قابلوا ذلك بالعفو والصفح والتجاوز، ﴿وَالْكَافِرِينَ الْغِظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ [آل عمران: ١٣٤] قابلوا ذلك بالعفو والمسامحة.

((واغفروا)): أي لمن أخطأ عليكم ، لمن أساء في حقكم، اغفروا له ذلك ((يُغْفِرْ لَكُمْ)): أي يغفر الله لكم خطاياكم وذنوبكم. وهذا فيه أن الجزاء - كما تقدم - من جنس العمل.

هذا كلام عظيم جداً مؤثر، ((ارحموا ترحموا)) ، ((اغفروا يغفر لكم)) كلام عظيم، وفيه هدايات عظيمة مباركة، لكن من الذي ينتفع به!! إلا من فتح الله على قلبه، وشرح صدره للإقبال على الخير وقبوله ، ولهذا قال بعده: ((ويلٌ لأقماع القول)) ؛ أقماع القول : هم أولئك الناس الذين يسمعون المواعظ ، الزواجر ، الترغيب، مثل هذا الترغيب العظيم ((ارحموا ترحموا)) ، ((اغفروا يغفر لكم)) ، يسمعون لكن لا ينتفعون، مثل ما يقال: يدخل من أذن ويخرج من الأذن الأخرى.

قال: ((ويلٌ لأقماع القول)) ؛ الأقماع: جمع قَمْع ، وهو الذي يسمى بالعامية أو الدارجة "المِخْقَان" ، المِخْقَان : وعاء أعلاه واسع وأسفله ضيق ، فإذا أردت أن تصُب زيتاً أو ماءً أو عسلاً في وعاء فوّته ضيقة تأتي بهذا المِخْقَان وتضع الجانب الضيق في المكان الذي تريد ثم تصب من الجانب الواسع فينزل . هذا المِخْقَان الذي يقال له القمع، ماذا ينتفع بهذا الذي يُصب فيه؟! يدخل من جهة ويخرج من الجهة الأخرى، ما ينتفع ولا يحتفظ بشيء منه، كل ما تصبه فيه يخرج من الجهة الضيقة، تصب من جهة واسعة ويخرج من الجهة الضيقة، ما يستفيد، طول وقته لا يستفيد، يُصب فيه أشياء جيدة، من غسل وزيت وأشياء مفيدة جداً، كلها لا يستفيد منها، تدخل من الجهة الواسعة وتخرج من الجهة الضيقة. فقال: ((ويلٌ لأقماع القول)) يعني أولئك الذين يسمعون القول العظيم، المواعظ المؤثرة ، الكلام النافع المفيد فلا ينتفعون ، مثلهم تماماً مثل الأقماع التي يدخل فيها الأشياء الجيدة من جهة وتخرج من الجهة أخرى، وهؤلاء يسمعون ويسمعون ويسمعون لكن لا تعي قلوبهم ولا تعقل ولا تنتفع ولا تتعظ ولا تتأثر.

قال: ((ويلٌ للمصّرّين، الذين يصرون على ما فعلوا وهم يعلمون)) ؛ «ويل»: هذه كلمة تهديد ووعيد وإنذار بالعقوبة، عقوبة الله سبحانه وتعالى. «للمصّرّين»: أي المصّرّين على ذنوبهم وما يُسخط ربهم سبحانه وتعالى . «الذين يصرون على ما فعلوا وهم يعلمون»: يعلمون أن هذا فيه سخط الله، فيه عقوبة الله، يعلمون أن هذه ذنوب عظيمة ومخالفات جسيمة لأمر الله سبحانه وتعالى وهم مصّرّون على الذنوب غير مبالين بما يُسخط الله سبحانه وتعالى.

قال رحمه الله تعالى :

٢٠ - وللترمذي عنه مرفوعاً: ((لا تكثروا الكلام بغير ذكر الله؛ فإن كثرة الكلام بغير ذكر الله قسوة للقلب، وإن أبعد القلوب من الله القلب القاسي)). .

وللترمذي عنه أي عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما مرفوعاً أي إلى النبي عليه الصلاة والسلام قال: ((لا تُكثروا الكلام بغير ذكر الله)) يعني لا ينبغي للإنسان أن يكون مكثراً من الكلام ؛ لأن الأمر كما قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه وأرضاه: «من كثر كلامه كثر سقطه، ومن كثر سقطه قلّ حياؤه، ومن قلّ حياؤه، ومن قلّ حياؤه فالنار أولى به». فكثرة الكلام يترتب عليه كثرة الزلل . وسيأتي عند المصنف رحمه الله تعالى أبواب خاصة تتعلق بالكبائر المتعلقة باللسان ، فالذي يكثّر كلامه لا يضبط نفسه فيما يقول، تجده مع كثرة الكلام ربما تخرج منه الكلمة لا يُلقي لها بالاً لكثرة كلامه يهوي بها في النار سبعين خريفاً والعياذ بالله. ولهذا يحتاج العبد إلى عناية بكلامه ومنطقه وضبط ألفاظه والبعد عن الثثرة وكثرة الكلام ، بل يتكلم باعتدال، يتكلم بما فيه منفعة وفائدة دينية أو دنيوية ، يتفكر فيما سيقول ، ولهذا قال عليه الصلاة والسلام في الحديث: ((مَنْ صَمَتَ نَجَا)) ، وقال عليه الصلاة والسلام في الحديث الآخر: ((مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَلْيُكَلِّمْ خَيْرًا أَوْ لِيَصْمُتْ)) ، وسيأتي كما أشرت عند المصنف رحمه الله بابٌ خاص بذلك.

قال: ((لا تكثروا الكلام بغير ذكر الله؛ فإن كثرة الكلام بغير ذكر الله قسوة للقلوب)) هنا ذكرٌ للداء والدواء ؛ الداء: القسوة، والدواء : الذكر. مثل ما قال بعض السلف: «هذا القرآن فيه ذكر دائكم ودوائكم». قال: «دائكم الذنوب، ودوائكم الاستغفار». وهذه السنّة فيها ذكر الداء والدواء، فالداء قسوة في القلوب، والدواء ذكر الله سبحانه وتعالى.

وهذا الدواء -إن صحّت العبارة كما يُعرف في الطب- على نوعين: دواء وقائي ، ودواء علاجي لمرضٍ قائم . وذكر الله عزّ وجلّ فيه هذا وهذا. إذا أكثر الإنسان من ذكر الله كان في ذلك وقاية لقلبه من القسوة، وقاية من هذا الداء، يحتاج الإنسان إلى أن يكثر من ذكر الله سبحانه وتعالى حتى يتقي هذا المرض العضال الذي هو القسوة ، فهو من الطب الوقائي. وإذا كان الإنسان أُصيب بالقسوة لا علاج له إلا ذكر الله سبحانه وتعالى ؛ فالعبد يحتاج إلى الإكثار من ذكر الله سبحانه وتعالى وقايةً لقلبه من القسوة، ويحتاج إلى ذكر الله سبحانه وتعالى لخروج القلب من القسوة إن كان أُصيب بها.

وقسوة القلب هي أشد الأمراض خطورة ، وعندما يُحدث عن بعض الأمراض التي تتعلق بالجسد وعن الطب الوقائي لها وعن العلاج تجد الناس يقبلون عليها ويأخذ التعليمات بدقة ويطبق، وتجد بعضهم يقوم مثلاً بأنواع من الحمية الغذائية وغير ذلك حتى يقي بدنه من تلك الأمراض، كما قال بعض السلف -معنى كلامه-: عجباً لمن يتقي بعض الأطعمة التي أباحها الله سبحانه وتعالى خشية من الأمراض وحمايةً لجسمه ولا يتقي الذنوب خوفاً من النار وسخط الجبار سبحانه وتعالى!! يتقي بعض الأطعمة خوف مضرتها ولا يتقي الذنوب خوف معرّتها.

قال: ((وإن أبعد القلوب من الله القلب القاسي)) ؛ وهذا فيه خطورة هذا المرض، وأن القلب إذا أصيب بهذه القسوة كان من أبعد القلوب عن الله سبحانه وتعالى . ومفهوم المخالفة لذلك : أن أقرب القلوب إلى الله سبحانه وتعالى القلب الذاكر، وفي الحديث: ((فَإِنْ ذَكَرْنِي فِي نَفْسِهِ ذَكَرْتُهُ فِي نَفْسِي ، وَإِنْ ذَكَرْنِي فِي مَالٍ ذَكَرْتُهُ فِي مَالٍ خَيْرٌ مِنْهُم)) .

قال رحمه الله تعالى :

٢١ - ولهما عن جرير رضي الله عنه مرفوعاً: ((مَنْ لَا يَرْحَمُ النَّاسَ لَا يَرْحَمُهُ اللَّهُ)) أخرجه .

قال رحمه الله تعالى: ولهما عن جرير رضي الله عنه مرفوعاً: ((من لا يرحم الناس لا يرحمه الله)) ؛ هذا مقابل ما تقدم ((ارحموا ثرحموا)) ، ((ارحموا من في الأرض يرحمكم من في السماء)) ، في مقابل ذلك : مَنْ لَا يَرْحَمُ لَا يُرْحَمُ، من لا يرحم الناس لا يرحمه الله سبحانه وتعالى. وهذا فيه ما تقدم أن الجزء من جنس العمل؛ إن كان إحساناً فإن الله يقول: ﴿ هَلْ جَزَاءُ الْإِحْسَانِ إِلَّا الْإِحْسَانُ ﴾ [الرحمن: ٦٠] ، وإن كان إساءةً فإن الله يقول: ﴿ ثُمَّ كَانَ عَاقِبَةَ الَّذِينَ أَسَاءُوا السُّوْأَى ﴾ [الروم: ١٠] .

قال رحمه الله تعالى :

باب ذكر ضعف القلب

وقول الله تعالى: ﴿ وَرَبَطْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ ﴾ [الكهف: ١٤] ، وقوله تعالى: ﴿ أَلَمْ أَحْسِبَ النَّاسَ أَنْ يَتَرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ﴾ (٢) وَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ ﴾ [العنكبوت: ١-٣] ، وقوله تعالى: ﴿ قَالُوا يَا مُوسَى إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ ﴾ الآية [المائدة: ٢٢] ، وقوله تعالى: ﴿ وَمَنْ النَّاسُ مَنْ يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ ﴾ الآية

[العنكبوت: ١٠] .

قال رحمه الله: «باب ذكر ضعف القلب» ، وضعف القلب أيضاً آفة ومرض من أمراض القلوب وهو دون الذي قبله وهو قسوة القلب ، فضعف القلب مرضٌ يصيب القلب، فإذا أصيب القلب بالضعف يتبع ذلك الجبن والخور والانهزامية والتواني والفتور وغير ذلك من أمور تترتب على ضعف القلب.

قال: وقول الله تعالى ﴿ وَرَبَطْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ ﴾ والسياق في الحديث عن الفتية أصحاب الكهف ، قال الله عز وجل: ﴿ وَرَبَطْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ ﴾ أي أن الله عز وجل في تلك المقامات والشدائد التي مروا بها، وكانوا في قوم عندهم بطشٌ شديد وظلم وبغي، فالله عز وجل ثبت هؤلاء الفتية على الحق والهدى، وهداهم سبحانه وتعالى سواء السبيل، وزادهم تبارك وتعالى هدى، وربط على قلوبهم. ومعلوم أن القلب في الشدائد العظيمة ووجود الظلم والبغي

والبطش والعدوان من الظلمة من الجبارين من المعتدين يصيبه ما يصيبه، فإذا منّ الله عزّ وجلّ على القلب وربط على القلب ثبت القلب وقوي، ومعه أيضاً في ذلك البدن قوة وثباتاً، تبعه البدن، فالأمر بيد الله سبحانه وتعالى جلّ في علاه. قال: ﴿وَرَبَطْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ﴾ .

قال: وقوله تعالى: ﴿الْم (١) أَحْسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ (٢) وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ﴾ أي أنّ هذه الحياة ميدان امتحان وابتلاء وتمحيص للقلوب ، قوتها من ضعيفها، صالحها من طالحها ، فهذه الحياة دار ابتلاء وامتحان. ﴿أَحْسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ﴾ لا بد من الفتنة لأهل الإيمان التي يحصل بها التمحيص. قال: ﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ﴾ صدقوا في إيمانهم وطاعتهم وتوحيدهم وعبادتهم لله ﴿وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ﴾ .

قال: وقوله ﴿قَالُوا يَا مُوسَى إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ وَإِنَّا لَنُذْخِلُهَا حَتَّىٰ يَخْرُجُوا مِنْهَا﴾ فهؤلاء الذين كانوا مع موسى عليه السلام بسبب ضعف القلوب وأيضاً ضعف الإيمان قالوا هذه المقالة ؛ قالوا ﴿إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ وَإِنَّا لَنُذْخِلُهَا حَتَّىٰ يَخْرُجُوا مِنْهَا﴾ فهؤلاء قالوا هذه المقالة لضعف القلوب وضعف الإيمان بالله سبحانه وتعالى .

وأورد قول الله عز وجل : ﴿وَمَنْ النَّاسُ مَنْ يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ فَإِذَا أُوذِيَ فِي اللَّهِ جَعَلَ فِتْنَةَ النَّاسِ كَعَذَابِ اللَّهِ﴾ [العنكبوت: ١٠٠] وهذا أيضاً كذلك من ضعف القلوب وضعف الإيمان أنه إذا أُوذِيَ في الله أي امتحن في جنب الله امتحن في دين الله سبحانه وتعالى بسبب هذا الابتلاء والامتحان وضعف القلب يسوّي بين فتنة الناس وعذاب الله تبارك وتعالى .

قال رحمه الله تعالى :

٢٢ - ولهما عن ابن عمر رضي الله عنهما مرفوعاً: ((المسلم من سلّم المسلمون من لسانه ويده، والمهاجر من هجر ما نهى الله عنه)).

قال : ((المسلم من سلّم المسلمون من لسانه ويده)) أيضاً في بعض الروايات ((المؤمن من آمنه الناس على دمائهم وأموالهم ، والمسلم من سلّم المسلمون من لسانه ويده، والمهاجر من هجر ما نهى الله عنه)) ؛ والمراد بالمسلم هنا والمهاجر: أي الكامل في إسلامه والكامل في هجرته والكامل في إيمانه هو من كان بهذا الوصف : ((مَن سلّم المسلمون من لسانه ويده)) ؛ «من لسانه»: لا يعتدي على أحد بلسانه ، «ومن يده»: أيضاً لا يعتدي على أحد بيده .

قال : ((والمهاجر من هجر ما نهي الله عنه)) أي ابتعد عن كل ما نهي الله سبحانه وتعالى عنه من الخطايا والذنوب، أيضا في زيادة في بعض الروايات ((والمجاهد من جاهد نفسه في طاعة الله)) فذكرها أربع أمور ، وجاء أيضا في بعض الروايات أنه قال ذلك عليه الصلاة والسلام في خطبة له للناس في حجة الوداع ؛ وهذا مما يدل أن هذه المعاني من المعاني المهمة العظيمة والوصايا الجليلة التي يحتاج أن تُبين للناس في المجامع العامة حتى يُعرف الإيمان ويُعرف الإسلام والفرق بينهما والهجرة والجهاد في سبيل الله تبارك وتعالى . وعلاقة هذا الحديث بالترجمة: أن هذه المعاني المذكورة من قوة القلب ، وانتفاؤها أو انتفاء بعضها من ضعف القلب.

سبحانك اللهم وبحمدك ، أشهد أن لا إله إلا أنت ، أستغفرك وأتوب إليك .
اللهم صلِّ وسلِّم على عبدك ورسولك نبينا محمد وآله وصحبه أجمعين .

الدرس السادس

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله ربِّ العالمين، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله ؛ صلى الله وسلم عليه وعلى آله وأصحابه أجمعين . أمّا بعد:
قال شيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب رحمه الله تعالى في كتابه الكبائر :

أبواب كبائر اللسان

باب التحذير من شر اللسان ؛ وقول الله تعالى: ﴿وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْسُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا﴾ [الفرقان: ٦٣] ، وقوله تعالى: ﴿وَإِذَا سَمِعُوا اللَّغْوَ أَعْرَضُوا عَنْهُ﴾ [القصص: ٥٥]
وقوله تعالى: ﴿مَا يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾ [ق: ١٨] .

قال رحمه الله تعالى: «أبواب كبائر اللسان» ؛ عرفنا أن المصنّف رحمه الله تعالى قسّم أبواب هذا الكتاب إلى أقسام، فبدأ أولاً بأبواب كبائر القلب، ثم انتقل إلى أبواب كبائر اللسان. ومعلوم أن القلب واللسان هما أخطر ما في الإنسان، فإن المرء بأصغريه: قلبه ولسانه ، ليس المرء بيده أو رجله أو جسمه، وإنما المرء بأصغريه: قلبه ولسانه؛ فإذا صلح القلب صلح البدن، وإذا فسد القلب فسد البدن ، وكذلك الأمر في اللسان ؛ إذا استقام اللسان

استقام البدن، وإذا اعوجَّ اللسان اعوجَّ البدن، وفي الحديث -وسياقي عند المصنّف رحمه الله تعالى- ((إِذَا أَصْبَحَ ابْنُ آدَمَ فَإِنَّ الْأَعْضَاءَ كُلَّهَا تُكْفِّرُ اللِّسَانَ فَتَقُولُ : اتَّقِ اللَّهَ فِينَا فَإِنَّمَا نَحْنُ بِكَ ، فَإِنْ اسْتَقَمَّتْ اسْتَقَمَّنا وَإِنْ اعْوَجَجَتْ اعْوَجَجْنَا))؛ وهذا يفيد أنّ الجوارح كلّها تابعة للسان، فإذا حفظ الإنسان لسانه وصانه فإنّ ذلك بإذن الله سبحانه وتعالى يكون صيانةً لجميع البدن، وإذا اعوجَّ اللسان وانحرف اعوجَّ أيضًا البدن؛ لأنّ ما يكون بلسان المرء ينعكس على جوارحه كلّها ، وهذا ممّا يدلّ على خطورة اللسان. واللسان حُلُقٌ للكلام، فإن لم يحفظه صاحبه في الكلام بخيرٍ وذكرٍ وطاعةٍ لله سبحانه وتعالى وأمورٍ مباحة، وإلاّ خاض في الباطل والحرام ، وسياقي قول النبيّ صَلَّى الله عليه وسلّم: ((مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَلْيُكَلِّمْ خَيْرًا أَوْ لِيَصْمُتْ)).

قال رحمه الله: «بَابُ التَّحْذِيرِ مِنْ شَرِّ اللِّسَانِ» ؛ واللسان فيه خيرٌ وشرٌّ ؛ وخيرُ اللسان هو: ذكرُ الله، وتلاوةُ كلامه، والدَّعوةُ إليه، ومذاكرةُ العلم، والتَّناصح، فهذا كلّهُ من خير اللسان . وشرُّ اللسان: كلُّ باطلٍ وفُحشٍ وغيبةٍ ونميمةٍ إلى غير ذلك من آفات اللسان التي يجب على المسلم أن يصون لسانه عنها. فاللسان فيه خيرٌ وشرٌّ، وهذه التَّرجمة معقودةٌ للتَّحذير من شرِّ اللسان.

قال: وقول الله تعالى ﴿وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا﴾ [الفرقان: ٦٣] ؛ «عبادُ الرحمن» العبوديّة نوعان:

١. عبوديّةٌ لربوبيّةِ الله سبحانه وتعالى؛ وهذه تشمل جميع الخلق ﴿إِنَّ كُلَّ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتِي الرَّحْمَنِ عَبْدًا﴾ [مرم: ٩٣] .

٢. وعبوديّةٌ لألوهيّته: وهذه تختصّ بأصفياء الله، ومن وفّقهم الله سبحانه وتعالى لطاعته، ورحمهم جلّ وعلا وأدخلهم في رحمته؛ ولهذا أضافهم إلى اسمه الرحمن قال: ﴿وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ﴾ ؛ وهذا فيه إشارةٌ إلى أنّ الله سبحانه وتعالى رحمهم واصطفاهم وهداهم إلى هذا الدّين العظيم.

﴿وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا﴾ ؛ في هذا السّياق في الآية وما بعدها تعدادٌ لصفاتِ عبادِ الرحمن بُدِئت بقوله: ﴿يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا﴾ أي: أنّ مشيهم على الأرض بهذه الصّفة: هَوْنًا ، ليس بالمشي الذي فيه مثلاً الطّيش والتّهوُّر، وليس أيضًا بالمشي المتهالك المتماوت، وإنّما يمشون بهونٍ وسكونٍ وطمأنينةٍ ووقارٍ، فهذه صفة عباد الرحمن، مشيهم ليس فيه طيش ولا تهوُّر، وأيضًا ليس فيه تماوت، وإنّما مشي وقارٍ وسكينةٍ وطمأنينةٍ.

﴿وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ﴾ أي: خطاب الجاهل، وهو يمشي في الأرض مرّ بجاهل فخاطبه خطاب جهل من فُحشٍ أو سبٍّ أو بداءٍ أو طعنٍ أو غير ذلك؛ ما الذي يصنعون؟ ﴿قَالُوا سَلَامًا﴾ أي: قالوا قولاً سالماً من الإثم، لا يُقابلون جهل الجاهل بجهلٍ مثله، أو سبابه بسبابٍ مثله، أو فُحشه بفُحشٍ مثله، فيكونُ حالهم والجاهل سواء، بل إذا مرّوا بالجاهل قالوا سلاماً، أي: يقولون قولاً فيه السلامة، قولاً لا إثم فيه، لا يخوضون مع الجاهل في جهله أو سبابه أو فُحشه أو غير ذلك، وإنما يقولون قولاً فيه سلام؛ هداك الله، أصلحك الله.. أو نحو ذلك من الكلام النافع المفيد الذي هو سالم لا إثم فيه، ﴿قَالُوا سَلَامًا﴾.

قال: وقوله تعالى ﴿وَإِذَا سَمِعُوا اللَّغْوَ أَعْرَضُوا عَنْهُ﴾ [النقص: ٥٥] ؛ وهذا أيضاً من أوصاف أهل الإيمان، أنهم إذا سمعوا اللَّغو - واللغو: كلُّ باطل وكلِّ كلامٍ يُسخطُ الله سبحانه وتعالى - أعرضوا عنه، أي: لم تنصرف قلوبهم إليه، ولم تُقبل قلوبهم عليه، بل يُعرضون عن كلِّ لغوٍ وباطل، وهذا صيانةٌ لأنفسهم. والشيخ رحمه الله تعالى أورد ذلك في صيانة اللسان وشرِّ اللسان؛ لأنَّ اللَّغو هذا من شرِّ اللسان، والواجب على المسلم أن يُعرض عن اللَّغو ومجالس اللَّغو؛ لأنَّه إن جلس فيها وشارك أهلها خاض في اللَّغو مثلَ خوضهم، وخاض في الباطل مثل خوضهم.

قال: وقوله تعالى ﴿مَا يَلْفُظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾ [ق: ١٨] ؛ وهذا فيه التحذير الشديد من شرِّ اللسان؛ لأنَّ كلَّ كلمة يقولها الإنسان مكتوبة عليه، فثَمَّة مَلَكٌ أحدهما عن يمينه والآخر عن شماله، وما يقوله من شرِّ وباطلٍ وفُحشٍ كُلُّهُ يُكْتَبُ عليه، وكلُّه سيجده في صحيفة عمله يوم يقف بين يدي الله سبحانه وتعالى. فهذه الآية فيها أعظم تحذيرٍ من شرِّ اللسان، وأنَّ الواجب على العبد أن يصوِّن لسانه؛ لأنَّ كلامه من جملة عمله الذي يحاسبه الله سبحانه وتعالى عليه يوم القيامة، ومن عقل أنَّ كلامه من جملة عمله الذي يحاسبه الله عليه فإنَّه سيعمل على صيانة لسانه.

قال رحمه الله تعالى :

٢٣ - عن أبي هريرة رضي الله عنه مرفوعاً: ((من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيراً أو ليصمت)) أخرجاه.

قال: عن أبي هريرة رضي الله عنه مرفوعاً: أي إلى النَّبيِّ عليه الصَّلَاةُ والسَّلَام ((مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَلْيُكَلِّمْ خَيْرًا أَوْ لِيَصْمُتْ)) ؛ «مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ» ذكر الإيمان بالله والإيمان باليوم الآخر ؛ ذكر الإيمان بالله: لأنَّ الله سبحانه وتعالى هو المعبود المقصود الذي يُتَوَجَّه إليه سبحانه وتعالى بالعبادة، ويُتَلَمَّس رضاه

جلّ وعلا. وذكر الإيمان باليوم الآخر: لأنّ اليوم الآخر هو يوم الجزاء والحساب. ﴿لِيَجْزِيَ الَّذِينَ أَسَاءُوا بِمَا عَمِلُوا وَيَجْزِيَ الَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْحُسْنَى﴾ [الشجم: ٣١]؛ فمن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فعليه أن يعمل بما يقتضيه هذا الإيمان، ومن ذلكم قوله: ((فليقل خيراً أو ليصمت)).

وهذا الحديث فيه دعوة إلى وزن الكلام قبل أن يتكلّم الإنسان، أن يزن كلامه قبل أن يتكلّم بكلام، ((فليقل خيراً أو ليصمت)) متى يتحقّق للعبد هذا الوصف؟ إلّا إذا وزن كلامه قبل أن يتكلّم، عندما يريد أن يخرج الكلمة ينظر فيها ويتأمّل هل هي خيرٌ أو شرٌّ؟ نفعٌ أو ضرٌّ؟ لا يتكلّم بأيّ شيء يرد في ذهنه، بل يحصّ ويتأمّل ويتحقّق، فإذا تبين أنّ الكلام مباحاً أو سليماً فإنّه يتكلّم به، وإذا تبين أنّ فيه شرّاً وفيه ضررٌ كفّ نفسه عنه، والكلمة قبل أن يتكلّم بها صاحبها يملكها، وإذا خرجت منه ملكته، ولهذا العاقل الكيس يزن كلامه قبل أن يتكلّم به. قال: ((فليقل خيراً أو ليصمت)) في ضوء هذا الحديث إذا تأمّل الإنسان في كلامه قبل أن يتكلّم سيجد أنّ ما يريد أن يتكلّم به لا يخرج عن ثلاث حالات:

﴿الحالة الأولى﴾: كلامٌ تبين له أنّه صحيح ونافع ومفيد، مثلاً: حدّثته نفسه أن يسبح «سبحان الله، والحمد لله، ولا إله إلّا الله، والله أكبر»، أن يقرأ القرآن، أن يذكر الله، يشرع في هذا مباشرة؛ لأنّ هذا أعظم الخير، بل أحبّ الكلام إلى الله سبحانه وتعالى، فإذا تأمّل في الكلام ورأى سلامته وصحته، فإنّه يشرع في هذا الكلام النافع المفيد الذي هو خيرٌ ونفع.

﴿النوع الثاني من الكلام﴾: يتبين له أنّه شرٌّ، حدّثته نفسه بغيبة بنميمة بفحش بذاء إلى غير ذلك؛ فإنّ الواجب عليه أن يمنع نفسه من هذا الكلام.

﴿النوع الثالث﴾: حدّثته نفسه أن يتكلّم بكلام وتأمّل هل هو خيرٌ أو شرٌّ؟ لم يتبين له، لا يدري، وهذا يحصل لا يدري هل هو من الخير أو من الشرّ؟ متردّد، ما الذي يصنع في مثل هذا؟ هل يتكلّم أو ينتظر؟ قال عليه الصلّاة والسّلام: ((فَمَنْ اتَّقَى الشُّبُهَاتِ اسْتَبْرَأَ لِدِينِهِ وَعِرْضِهِ وَمَنْ وَقَعَ فِي الشُّبُهَاتِ وَقَعَ فِي الْحَرَامِ))، وقال عليه الصلّاة والسّلام: ((دَعْ مَا يَرِيئُكَ إِلَى مَا لَا يَرِيئُكَ)). فالكلام الذي لا يتبين للإنسان هل هو خيرٌ أو شرٌّ يوقفه حتى يتبين، إن تبين له أنّه خيرٌ تكلم، وإن تبين أنّه شرٌّ لا يتكلّم به، وإذا كان متردّد يوقف هذا الكلام، لا يُخرجه حتى يتبين.

قال رحمه الله تعالى :

٢٤ - ولهما عن سهل بن سعد رضي الله عنهما مرفوعاً: ((من يضمن لي ما بين لحييه وما بين رجليه، أضمن له الجنة)).

أوردَ هذا الحديث في الصحيحين عن سهل رضي الله عنه مرفوعاً قال: ((مَنْ يَضْمَنْ لِي مَا بَيْنَ لِحْيَيْهِ وَمَا بَيْنَ رِجْلَيْهِ أَضْمَنْ لَهُ الْجَنَّةَ)) ؛ ((مَنْ يَضْمَنْ لِي مَا بَيْنَ لِحْيَيْهِ)) أي: اللسان ، ((وما بين رجليه)) أي: الفرج. وهذا الحديث فيه دعوة لصيانة اللسان وصيانة الفرج ، وأنَّ مَنْ صَانَهُمَا فَقَدْ ضَمَّنَ لَهُ النَّبِيُّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ الْجَنَّةَ. انظر هذا الضَّمان العظيم ((أضمن له الجنة)) الضَّامن مَنْ هو؟ الرُّسول عليه الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ. والأُمور الَّتِي يُنَالُ بِهَا هَذَا الضَّمان، أمران: حفظ اللسان، وحفظ الفرج . والشَّيء المضمون ما هو؟ دخول الجنة بحفظ هذين العضوين من الإنسان لسانه وفرجه ؛ يحفظ لسانه عن الحرام، ويحفظ فرجه عن الفاحشة.

قال رحمه الله تعالى :

٢٥ - وعن سفيان بن عبد الله رضي الله عنه قال: قلت يا رسول الله ما أخوف ما تخاف عليّ؟ فأخذ بلسان نفسه ثم قال: ((كُفَّ عَلَيْكَ هَذَا)). قال الترمذي: حسن صحيح.

قال: وعن سفيان بن عبد الله رضي الله عنه قال : قلت «يا رسول الله ما أخوف ما تخاف عليّ؟» ما هو أكثر شيء تخاف عليّ منه؟ «ما أخوف ما تخاف عليّ؟» وهذا السؤال من هذا الصَّحابيّ الجليل رضي الله عنه وأرضاه يدلُّ على عِظَمِ حرص الصحابة رضي الله عنهم على السَّلامة والعافية من الشُّرور .
«ما أخوف ما تخاف عليّ؟» ؛ انتبه هنا! الصحابة رضي الله عنهم كانت أسئلتهم، كما أنَّهم يسألون عن الخير وأعمال الخير «أي العمل أفضل؟»، «أي العمل أحبَّ إلى الله؟» ، كما أنَّهم يسألون عن ذلك، أيضًا يسألون في الوقت نفسه على الأشياء الَّتِي تُجْتَنَّبُ وَيُخْشَى مِنْهَا، فهذا الآن الصَّحابي رضي الله عنه يقول: «ما أخوف ما تخاف عليّ؟»، حذيفة رضي الله عنه يقول: «كان أصحاب رسول الله صَلَّى الله عليه وسلَّم يسألونه عن الخير، وكنت أسأله عن الشرِّ». الآن هذا الصَّحابي كان يسأل عن الشرِّ «ما أخوف ما تخاف عليّ؟» ، «وكنْتُ أسأله عن الشرِّ مخافةً أن يدركني» ؛ وهذا يفيدنا أنَّ المسلم كما أنَّه مطلوبٌ منه أن يعرفَ الخيرَ ليعملَ به، فإنَّه مطلوبٌ منه أن يعرفَ الشرَّ ليجتنبه .

وأيضاً هذا الحديث يفيدنا أنَّ عقد هذه التَّرْجُمة الَّتِي عقدها المصنِّف رحمه الله بعنوان «باب التَّحذير من الشرِّ» أمر مطلوب. وكان الصحابة رضي الله عنهم وأرضاهم يسألون النَّبِيَّ صَلَّى الله عليه وسلَّم عنه ، قال: «ما أخوف ما تخاف عليّ؟» ما هو أشدَّ شيء تخاف عليّ منه؟.

قال: ((فأخذ بلسان نفسه ثم قال: كُفَّ عَلَيْكَ هَذَا)) أي: احذر من شرِّ اللِّسان ، وإذا وُقِّقَ العبد لكفِّ اللِّسان عن الشرِّ، لأن قوله: ((كُفَّ عَلَيْكَ هَذَا)) أي: كفَّه عن الشرِّ لا عن الخير ، «كُفَّ عَلَيْكَ هَذَا» أي كُفَّه

عن الشَّرِّ وعن كلِّ ما حرَّمه الله سبحانه وتعالى . فإذا كَفَّ الإنسانُ لسانَه عن الشَّرِّ كُفَّتِ الجوارح عن الشَّرِّ تَبَعًا له ، كما سيأتي معنا في الحديث ((فَإِنَّ الْأَعْضَاءَ كُلَّهَا تُكْفَرُ اللِّسَانَ فَتَقُولُ: اتَّقِ اللَّهَ فِيمَا فَاَتَمَّا نَحْنُ بِكَ ، فَإِنْ اسْتَقَمَّتْ اسْتَقَمْنَا وَإِنْ اعْوَجَجَتْ اعْوَجَجْنَا)) ، فإذا اعوجَّ اللِّسانُ اعوجَّت الجوارح ، وإذا كُفَّ اللِّسانُ كما في هذا الحديث ((كُفَّ عَلَيْكَ هَذَا)) كُفَّتِ الجوارح تبع للسان . ولهذا قال بعض السلف: «ليس هناك شيء -يعني من أعمال الإنسان- إذا فعله العبد تبعته الجوارح إلا اللِّسان»، لا يرى أحدٌ صان لسانه إلا وصلحت أعماله كلها.

قال رحمه الله تعالى :

٢٦ - وله وصححه عن معاذ رضي الله عنه قلت: يا رسول الله، وإنا لمؤاخذون بما نتكلم به؟ قال: ((ثكلتك أمك يا معاذ! وهل يكب الناس على وجوههم - أو قال على مناخرهم - إلا حصائد ألسنتهم)).

قال: وله -أي: الترمذي رحمه الله- وصححه، عن معاذ أي: ابن جبل رضي الله عنه قال: قلت: «يا رسول الله وَإِنَّا لَمُؤَاخِذُونَ بِمَا نَتَكَلَّمُ بِهِ؟» ؛ هذا السؤال من معاذ رضي الله عنه على إثر بيان النبي صلى الله عليه وسلم له بعظم شأن اللِّسان ، بعد جملة من الوصايا قال له عليه الصَّلَاةُ والسَّلَام ((أَلَا أُخْبِرُكَ بِمَا يَكُ ذَلِكَ كَلِمَةً؟)) قلت: بلى، يا رسول الله. قال: ((كُفَّ عَلَيْكَ هَذَا)) ، مثل ما تقدّم معنا في حديث سفيان: ((كُفَّ عَلَيْكَ هَذَا)) وأخذ بلسان نفسه.

«فقلت: يا رسول الله! أَوَإِنَّا لَمُؤَاخِذُونَ بِمَا نَتَكَلَّمُ بِهِ؟» ؛ وهذا يفسر قوله: ((كُفَّ عَلَيْكَ هَذَا)) أي: عن الشيء الذي تُؤاخذ عليه، يعاقبك الله سبحانه وتعالى عليه، الكلام المحرّم، الكلام الباطل ((كُفَّ عَلَيْكَ هَذَا)). قال: «وَإِنَّا لَمُؤَاخِذُونَ بِمَا نَتَكَلَّمُ بِهِ؟» قال: ((ثكلتك أمك يا معاذ)) ؛ معنى «ثكلتك أمك»: أي فقدتك ، فقدتك أي: بالموت. هذا ظاهر الحديث، لكنّ الكلمة ولها نظائر جرى استعمال العرب لها ولا يقصدون الدّعاء على الشخص، والنبي عليه الصَّلَاةُ والسَّلَام لما قال: ((ثكلتك أمك يا معاذ)) لم يقصد الدّعاء عليه. ولما يقول عليه الصَّلَاةُ والسَّلَام: ((تَرَبَّتْ يَدَاكَ)) وهذا معناه الدّعاء بالفقر، ليس مقصودًا بالدّعاء وإنما يجري على اللِّسان في مقام مثلاً التّعجب، وهنا يتعجب النبي صلى الله عليه وسلم من غفلة معاذ رضي الله عنه عن هذا الأمر، وخطورة هذا اللِّسان.

قال: ((ثكلتك أمك يا معاذ! وهل يكبُّ الناس على وجوههم -أو قال- على مناخرهم إلا حصائد ألسنتهم؟!)) وهذا فيه أنّ اللِّسان من أعظم أسباب دخول النار. وسبحان الله! من يتأمل يجد أنّ جلّ المعاصي وأكثرها من ورائها اللِّسان؛ يبدأ اللِّسان يتكلّم ثم تأتي المعصية بعد ذلك من زنا وفواحش ومحرمات إلى غير ذلك،

أَوَّل ما تكون البداية اللِّسان، ثمَّ تتبعه الجوارح ، فإذا صان الإنسان لسانه سلِّم مما وراء ذلك من فواحش وأُمور حرَّمها الله سبحانه وتعالى .

قال رحمه الله تعالى :

٢٧ - وله عن أبي سعيد رضي الله عنه مرفوعاً: ((إذا أصبح ابن آدم فإن الأعضاء كلها تكفر اللسان، تقول: اتق الله فينا، فإنما نحن بك، إن استقمت استقمنا وإن اعوججت اعوججنا)). قوله «تكفر» أي تذلل وتخضع.

قال: وله أي الترمذي عن أبي سعيد رضي الله عنه مرفوعاً: ((إذا أصبح ابن آدم)) هذا يكون في كلِّ صباح .
((فإن الأعضاء كلها)) أي: جوارح الإنسان جميعها؛ اليد، والقدم، والأذن.. وغير ذلك
((فإن الأعضاء كلها تكفر اللسان)) ما معنى تكفر اللسان؟ قال: «تذلل وتخضع» ؛ كلِّ صباح تعلن الجوارح للسان بأنها تابعة له، وأنَّ الشَّيء الذي يكون عليه اللسان يكون على الجوارح ، تكفر اللسان أي: تخضع وتذل له، تقول: نحن تبع لك، الشَّيء الذي تكون عليه، تكون عليه الجوارح .
((تكفر اللسان، تقول: اتق الله فينا، فإنما نحن بك)) يد الإنسان، قدمه، أذنه، فرجه.. إلى غير ذلك من أعضائه وجوارحه كلها ((تكفر اللسان تقول: اتق الله فينا، فإنما نحن بك، فإن استقمت استقمنا، وإن اعوججت اعوججنا)) وهذا فيه أنَّ اللسان أمير للبدن، وأعضاء الإنسان كلها تابعة له، فإن استقام البدن، وإن اعوجَّ اللسان اعوجَّ البدن، وهذا يدلُّ على خطورة اللسان، كما أنَّ الحديث الذي تقدَّم معنا ((ألا وإنَّ في الجسدِ مُضْغَةً إذا صلحت صلح الجسدُ كُلُّهُ وإذا فسدت فسدَ الجسدُ كُلُّهُ ألا وهي القلب)) يدلُّ على خطورة القلب.

والحديثان معاً يدلان على أنَّ المرءَ بأصغريه. وقد جمع النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في الدُّعاء ما يشمل الأمرين في قوله: ((اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ قَلْبًا سَلِيمًا وَلِسَانًا صَادِقًا)) ؛ وهذه دعوة عظيمة جدًّا في إصلاح هذين الأصغرين: القلب واللسان. «اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ قَلْبًا سَلِيمًا وَلِسَانًا صَادِقًا» ؛ فإذا وُفِّقَ العبد لسلامة القلب وصدق اللسان صلحت الجوارح كلها بإذن الله تبارك وتعالى.

قال رحمه الله تعالى :

٢٨ - وعن أبي هريرة رضي الله عنه مرفوعاً: ((إن العبد ليتكلم بالكلمة ما يتبين فيها، يزلُّ بها في النار أبعد مما بين المشرق والمغرب)) أخرجاه.

قال: وعن أبي هريرة رضي الله عنه مرفوعاً: ((إِنَّ الْعَبْدَ لِيَتَكَلَّمَ بِالْكَلِمَةِ مَا يَتَبَيَّنُ فِيهَا)) لا يتأمل يلقيها هكذا جزافاً مستعجلاً مندفعاً ما يتبين ؛ وهذا فيه دعوة لكل مسلم أن يتبين كلامه قبل أن يتكلم به ، أمّا أن يلقي الكلام ولا يتبين هذا الكلام هل هو شرّ هل هو خير؟ هل هو ضلال هل هو هدى؟ لا يجوز، بل ينبغي عليه أن يتبين، لماذا؟ لأنّه سيحاسب عليه، وسيدخل في جملة عمله.

((إِنَّ الْعَبْدَ لِيَتَكَلَّمَ بِالْكَلِمَةِ مَا يَتَبَيَّنُ فِيهَا يَزِلُّ بِهَا فِي النَّارِ أَوْ يَنْجُو بِهَا مِنَ النَّارِ)) أي: يزل بها في النار في مسافةٍ صحيحة . وهذا ممّا أيضاً يدلّ على خطورة الكلمة التي يتكلم بها الإنسان ، كلمة واحدة تخرج من الإنسان قد تُوبق وتُهْلِك دنياه وأخراه والعياذ بالله.

قال رحمه الله تعالى :

٢٩ - وللترمذي وصححه عن بلال بن الحارث رضي الله عنه مرفوعاً: ((إِنَّ الرَّجُلَ لِيَتَكَلَّمَ بِالْكَلِمَةِ مِنْ رِضْوَانِ اللَّهِ مَا كَانَ يَظُنُّ أَنْ تَبْلُغَ مَا بَلَغَتْ، يَكْتُبُ اللَّهُ لَهُ بِهَا رِضْوَانَهُ إِلَى يَوْمٍ يَلْقَاهُ، وَإِنْ الرَّجُلُ لِيَتَكَلَّمَ بِالْكَلِمَةِ مِنْ سَخَطِ اللَّهِ تَعَالَى مَا كَانَ يَظُنُّ أَنْ تَبْلُغَ مَا بَلَغَتْ يَكْتُبُ اللَّهُ لَهُ بِهَا سَخَطَهُ إِلَى يَوْمٍ يَلْقَاهُ)).

قال: وللترمذي وصححه عن بلال ابن الحارث رضي الله عنه مرفوعاً ((إِنَّ الرَّجُلَ لِيَتَكَلَّمَ بِالْكَلِمَةِ مِنْ رِضْوَانِ اللَّهِ)) أي : كلمة فيها رضا الله سبحانه وتعالى، وأعظم ما فيه رضا الله: الكلمات الأربع التي صحّ عن نبينا محمد صلى الله عليه وسلم أنّه قال: ((أَحَبُّ الْكَلَامِ إِلَى اللَّهِ أَرْبَعٌ : سُبْحَانَ اللَّهِ ، وَالْحَمْدُ لِلَّهِ ، وَلَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ ، وَاللَّهُ أَكْبَرُ))، وهذه الكلمات الأربع هي أعظم الكلمات شأناً وأولى الكلمات على الإطلاق أن يُكثّر المرء منها وأن تكون على لسانه يرّدها، «سبحان الله، والحمد لله، ولا إله إلا الله، والله أكبر» فإنّها أحبُّ الكلام إلى الله، ويقول عليه الصّلاة والسّلام: ((لَأَنْ أَقُولَ سُبْحَانَ اللَّهِ وَالْحَمْدُ لِلَّهِ وَلَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَاللَّهُ أَكْبَرُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا طَلَعَتْ عَلَيْهِ الشَّمْسُ)) ، وقال عليه الصّلاة والسّلام: ((بَخٍ بَخٍ، لِحِمْسٍ مَا أَنْقَلَهُنَّ فِي الْمِيزَانِ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَاللَّهُ أَكْبَرُ ، وَسُبْحَانَ اللَّهِ، وَالْحَمْدُ لِلَّهِ، وَالْوَلَدُ الصَّالِحُ يُتَوَقَّى لِلْمُسْلِمِ فَيُحْتَسِبُهُ))، فهذا كلّهُ ممّا يدلّ على فضل هذه الكلمات.

((إِنَّ الرَّجُلَ لِيَتَكَلَّمَ بِالْكَلِمَةِ مِنْ رِضْوَانِ اللَّهِ مَا كَانَ يَظُنُّ أَنْ تَبْلُغَ مَا بَلَغَتْ)) ما يظنّ أنّ الثّواب الذي يلقاه وتثقل به موازينه يبلغ هذا المبلغ، وما عند الله سبحانه وتعالى من الخير أعظم وأعظم ممّا يتصوّره العباد ، وإذا كان قد جاء في الحديث أنّ النّبيّ صلى الله عليه وسلم قال: ((مَنْ تَصَدَّقَ بِعَدْلِ تَمْرَةٍ مِنْ كَسْبٍ طَيِّبٍ ، وَلَا يَقْبَلُ اللَّهُ إِلَّا الطَّيِّبَ، وَإِنَّ اللَّهَ يَتَقَبَّلُهَا يَمِينِهِ ثُمَّ يُرِيهَا لِصَاحِبِهِ كَمَا يُرِي أَحَدُكُمْ فَلُوهُ حَتَّى تَكُونَ مِثْلَ الْجَبَلِ)) ، تمرة ويجدها يوم القيامة مثل الجبل! كلمة واحدة من رضوان الله يتكلم بها ما يظن أنّها تبلغ هذا المبلغ في الثّواب لكن يرى عليها

ثوابًا عظيمًا. وهذا فيه حثٌّ على العباد أن يحرصوا على كلِّ كلام فيه رضا الله سبحانه وتعالى ؛ لأنَّه لا يدري الإنسان ماذا سيكون له من مثوبة وأجر ودرجات ورفعة عند الله بكلمةٍ ربَّما لا يظنُّ أنَّها تبلغ هذا المبلغ في الثواب والأجر من الله سبحانه وتعالى .

((ما كان يظنُّ أن تبلغ ما بلغت يكتب الله له بها رضوانه إلى يوم يلقاه)) ؛ انظر أيضًا «يكتب بها رضوانه إلى يوم يلقاه» هذا يفيد أنَّ المرء قد يقول كلمة طيبة صحيحة مباركة تكون سببًا لثباته على الدِّين ، تثبيت الله سبحانه وتعالى له على الدِّين ؛ لأنَّه قال: ((يكتب له بها رضوانه إلى يوم يلقاه)) هذا يتضمَّن أنَّ الله سبحانه وتعالى يثبتُه على الحقِّ والهدى وعلى الأعمال التي ترضي الرَّبَّ سبحانه وتعالى.

قال: ((وإنَّ الرَّجل ليتكلم بالكلمة من سخط الله ما كان يظنُّ أن تبلغ ما بلغت يكتب الله له بها سخطه إلى يوم يلقاه)) ؛ وهذا مقابل الأوَّل، وفيه خطورة الكلمة التي من سخط الله سبحانه وتعالى ، وقد يقول الرَّجل كلمة من سخط الله تُهلكُ دُنياه وأُخراه ، قد يكون الرَّجل الذي قال هذه الكلمة رجلًا عابدًا محافظًا على الصَّلوات والعبادة والصِّيَام وقيام اللَّيل إلى غير ذلك، ثمَّ يقول كلمة من سخط الله تُهلكُ دُنياه وأُخراه .

قال: ((وإنَّ الرَّجل ليتكلم بالكلمة من سخط الله تعالى ما كان يظنُّ أن تبلغ ما بلغت يكتب الله له بها سخطه إلى يوم يلقاه)) ما هو المثل على ذلك؟ في أن يكون رجل عابد ومصلِّي وصائم وقيام ليل وذكر، ثمَّ يتكلم بكلمة من سخط الله وتكون هذه الكلمة سببًا لهلاكه في دُنياه وأُخراه؟ انظروا ذلك في الحديث التَّالي.

قال رحمه الله تعالى :

٣٠ - ولمسلم عن جندب بن عبد الله رضي الله عنه مرفوعًا: أن رجلا قال: «والله لا يغفر الله لفلان؟» فقال الله عز وجل: ((من ذا الذي يتألَّى عليَّ أن لا أغفر لفلان؟! إني قد غفرت له وأحببت عملك)). وروي أن القائل رجلٌ عابد، قال أبو هريرة : «تكلم بكلمة أوبقت دُنياه وآخرته» .

انظر هنا ؛ رجل عابد مواظب على العبادة وقال كلمة واحدة ، قال: «والله لا يغفر الله لفلان» ، رأى شخصًا متماديًا في الشَّرِّ ، متماديًا في الحرام فحلف هذه اليمين «والله لا يغفر الله لفلان» فغضب الله؛ لأنَّ هذه الكلمة من سخط الله، هذه الكلمة فيها تألَّى على الله، حلف على الله أنَّه لا يغفر، هذا تألَّى وتعدَّى وظلم وقول على الله سبحانه وتعالى بالباطل وبغير علم.

فقال الله عزَّ وجلَّ : ((مَن ذا الَّذي يتألَّى عليَّ ألاَّ أغفر لفلان؟)) من ذا الَّذي يحلف ألاَّ أغفر لفلان؟ ، المغفرة بيد الله عزَّ وجلَّ يغفر لمن يشاء سبحانه وتعالى ، قد يكون الإنسان من أكفر النَّاس ويشرح الله صدره للإسلام

وَيَمُنُّ اللَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَلَيْهِ بِالْإِسْلَامِ ، ﴿ فَإِنَّ اللَّهَ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ ﴾ [فاطر: ٨] ، الأمر بيده سبحانه وتعالى .

قال ((مَنْ ذَا الَّذِي يَتَأَلَّى عَلَيَّ أَلَّا أَغْفِرَ لِفُلَانٍ؟ إِنِّي قَدْ غَفَرْتُ لَهُ وَأَحْبَطْتُ عَمَلَكُمْ)) انظر خطورة هذه الكلمة!! ((أحبطتُ عملك)) كلمة واحدة، وهي قول: «والله لا يغفرُ الله لفلان» كانت سببًا لحبوط عمله. وبعض النَّاس يرى في بعض الأشخاص تجاوز وتعدي وكذا ربما يتجرأ على مثل هذا، "هذا بعيد عن الهداية، وهذا لا ينال الهداية، ومثل هذا لا يمكن أن يهتدي"، أو مثل هذا الكلام، الهداية أمرها بيد الله، ولا يجوز للإنسان أن يتألى، وإذا كان أيضًا يحلف بأنه لا يُغفر له أو أنه لا يهتدي فهذا -والعياذ بالله- من الكلام الذي يُهلك صاحبه في الدنيا والآخرة. قال: ((وأحبطتُ عملك)).

انظر فقه أبي هريرة رضي الله عنه قال: « تَكَلَّمَ بِكَلِمَةٍ أَوْبَقَتْ -أي: أهلكت- دُنْيَاهُ وَآخِرَتَهُ » فهذا شاهد لما سبق في قول النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ((وإنَّ الرَّجُلَ لِيَتَكَلَّمَ بِالْكَلِمَةِ مِنْ سَخَطِ اللَّهِ تَعَالَى مَا كَانَ يَظُنُّ أَنْ تَبْلُغَ مَا بَلَغَتْ يَكْتُبُ اللَّهُ لَهُ بِهَا سَخَطَهُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ)).

نسأل الله الكريم، أن يحفظَ ألسنتنا أجمعين، وأن يصونها عن كلِّ ما يسخطه سبحانه وتعالى ، اللهمَّ إِنَّا نَسْأَلُكَ الثَّبات في الأمر والعزيمة على الرُّشد، ونسألك موجبات رحمتك وعزائم مغفرتك، ونسألك شكر نعمتك وحسن عبادتك ، ونسألك قلبًا سليمًا ولسانًا صادقًا، ونسألك من خير ما تعلم ، ونعوذ بك من شرِّ ما تعلم ، ونستغفرك ممَّا تعلم ، إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ، اللهمَّ اغفر لنا ولوالدينا ولمشايخنا وللمسلمين والمسلمات والمؤمنين والمؤمنات الأحياء منهم والأموات. اللهمَّ اقسم لنا من خشيتك ما يحول بيننا وبين معاصيك، ومن طاعتك ما تبلِّغنا به جنتك، ومن اليقين ما تهوِّن به علينا مصائب الدنيا، اللهمَّ متّعنا بأسماعنا وأبصارنا وقوتنا ما أحييتنا واجعله الوارث منا ، واجعل ثأرنا على مَنْ ظلمنا، وانصرنا على مَنْ عادانا، ولا تجعل مصيبتنا في ديننا، ولا تجعل الدنيا أكبر همِّنا، ولا مبلغ علمنا، ولا تسلِّط علينا مَنْ لا يرحمنا.

سبحانك اللهمَّ وبحمدك ، أشهد أن لا إله إلا أنت ، أستغفرك وأتوب إليك.

اللهمَّ صلِّ وسلِّم على عبدك ورسولك نبيِّنا مُحَمَّدٍ وآله وصحبه أجمعين.



شرح كتاب الكبائر

لشيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب رحمه الله

من الدرس ٥٧ إلى الدرس ١٠

شرح الشيخ عبد الرزاق بن عبد المحسن البدر حفظهما الله تعالى

١٤٤٠/١٢/١٩ هـ

الدرس السابع

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله رب العالمين، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله، صلى الله وسلم عليه وعلى آله وأصحابه أجمعين. أما بعد :

قال شيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب رحمه الله تعالى في كتاب «الكبائر» :

باب ما جاء في كثرة الكلام

وقول الله تعالى: ﴿وَإِنْ عَلَيْكُمْ لِحَافِظِينَ﴾ الآية [الافتطار: ١٠٠-١٠٢] .

قال المصنف رحمه الله تعالى : «باب ما جاء في كثرة الكلام» ؛ كثرة الكلام مذمومٌ إلا ما كان معتنيًا صاحبه بضبطه، بحيث يعتني بما يقول ويتنبه لما يتلفظ به ألا يكون فيه محرم أو مكروه أو مخالفة لشرع الله تبارك وتعالى ؛ وذلك أن المرء إذا كان كثير الكلام لا يأمن من السقوط في كلامه والزلل ، قد قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: «من كثر كلامه كثر سقطه، ومن كثر سقطه قلّ حياؤه، ومن قلّ حياؤه كثر ذنوبه، ومن كثر ذنوبه فالنار أولى به» . فكثرة الكلام تفضي بالإنسان إلى الوقوع في الزلل، ولهذا الأصل في الإنسان أن يحرص على عدم الكلام إلا في خير، كما مرّ معنا في الحديث: ((مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَلْيُكَلِّمْ خَيْرًا أَوْ لِيَصْمُتْ)) ، وجاء في الحديث عن نبينا عليه الصلاة والسلام أنه قال: ((مَنْ صَمَتَ نَجَا)) ، ليس معنى ذلك أن كل من تكلم هلك، بل من تكلم بالخير نجا ومن تكلم بالشر هلك ، لكن إذا كان الإنسان مكثّرًا في الكلام ثرثارًا لا يأمن من الزلل، والكلمة قبل أن يتكلم بها المرء يملكها، أما إذا تكلم بها ملكته وتحمل تبعتها.

أورد رحمه الله قول الله عزّ وجلّ: ﴿وَإِنْ عَلَيْكُمْ لِحَافِظِينَ﴾ (١٠) كِرَامًا كَاتِبِينَ (١١) يَعْلَمُونَ مَا تَعْلُونَ ؛ وهذا فيه أن أقوال الإنسان كلها من جملة عمله المكتوب عليه ، المحصى عليه، الذي يحاسب عليه يوم يقف بين يدي الله جلّ وعلا يوم القيامة ، وإذا استحضر العاقل أن كلامه من جملة عمله غني بصيانة كلامه وحفظ منطقه، وإذا غفل الإنسان عن هذا المعنى لم يبال بما يتكلم به . ولهذا ينبغي على العبد أن يكون هذا المعنى حاضرًا في ذهنه، ﴿وَإِنْ عَلَيْكُمْ لِحَافِظِينَ﴾ (١٠) كِرَامًا كَاتِبِينَ ؛ ومما يُكتب على المرء كلامه، وقد مرّ معنا أيضًا قول الله سبحانه وتعالى: ﴿مَا يَلْفُظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾ [ق: ١٨] .

قال رحمه الله تعالى :

قال : عن المغيرة بن شعبة رضي الله عنه مرفوعاً ((إن الله حرم عليكم عقوق الأمهات)) ؛ العقوق هو القطيعة وعدم البرّ والوفاء مع من هي أكثر الناس إحساناً إليه ورعايةً له، وقيامًا على مصالحه، وتعبًا في تنشئته وتربيته، ﴿حَمَلَتْهُ أُمُّ كُرْهَا وَوَضَعَتْهُ كُرْهَا وَحَمَلَهُ فَصَالُهُ ثَلَاثُونَ شَهْرًا﴾ [الأحقاف: ١٥] ، كم هي المعاناة التي بذلتها الأم والجهد الجهميد الذي قامت به عملاً على تنشئة ابنها ووليدها ، ولهذا خُص في الحديث الأمهات، قال: ((عقوق الأمهات)) مع أن العقوق محرم حتى مع الآباء، لكن خصَّ الأمهات لعظيم حقهن، ولهذا جاء في الحديث: ((قال: مَنْ أَبَرُّ؟ قَالَ : أُمَّكَ قَالَ : ثُمَّ مَنْ ؟ قَالَ: أُمَّكَ قَالَ: ثُمَّ مَنْ ؟ قَالَ: ثُمَّ أَبَاكَ)) ، وقال في الحديث الآخر: ((مَنْ أَحَقُّ النَّاسِ بِحُسْنِ صَحَابَتِي؟ قَالَ أُمُّكَ ، قَالَ ثُمَّ مَنْ؟ قَالَ أُمُّكَ ، قَالَ ثُمَّ مَنْ؟ قَالَ أُمُّكَ ، قَالَ ثُمَّ مَنْ؟ قَالَ ثُمَّ مَنْ؟ قَالَ ثُمَّ مَنْ؟ قَالَ ثُمَّ مَنْ؟ قَالَ ثُمَّ مَنْ؟ قَالَ ثُمَّ مَنْ؟)) ، لأن حق الأم أعظم، العقوق كله محرم لكن عقوق الأم من أشنع العقوق وأشدّه. وكيف يكون العقوق مع من حملته تسعة أشهر، وعانت عند وضعه، وضاعته كرّها، وعانت أيضًا عند رضاعته وسهرت عليه الليالي وتعبت، ثم يقابل هذا الجميل العظيم والإحسان الكبير بالعقوق والإساءة!! والله عزّ وجلّ أمر ببر الوالدين وأوجبه وجعله قريبًا لحقه سبحانه وتعالى في أكثر من آية في القرآن، قال الله عزّ وجلّ: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾ [الإسراء: ٢٣] ، وقال جلّ وعلا: ﴿وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾ [النساء: ٣٦] ، وقال جلّ وعلا: ﴿قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبِّي عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾ [الأنعام: ١٥١] ، وقال جلّ وعلا: ﴿أَنِ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ﴾ [لقمان: ١٤] ، فقرن حقهما سبحانه وتعالى بحقه ، كما أنّ عقوق الوالدين مقرون بالشرك بالله سبحانه وتعالى، قد مرّ معنا في الحديث: ((ألا أُنبِّئُكُمْ بِأكْبَرَ الْكِبَائِرِ؟ قَالُوا بَلَى يَا رَسُولَ اللَّهِ ، قَالَ : الإِشْرَاقُ بِاللَّهِ وَعُقُوقُ الْوَالِدَيْنِ)) ؛ فحق الوالدين قرين حق الله في كتاب الله، وقطيعة الوالدين وعقوق الوالدين قرين الشرك بالله والعياذ بالله، وخُصت الأمهات هنا بالذكر لأن حق الأمهات أعظم.

٢

كتب الأخبار وكتب التاريخ إذا جاء وقت الوضع حفر حفرة عميقة وقت الوضع وقت الولادة يحفر حفرة عميقة ويجلس فإذا وضعت إن قيل ولد أبقاه، وإن قيل أنثى مباشرة في الحفرة، تدفن ويهال عليها التراب، ما تبقى في الدنيا ولا دقيقة واحدة، من شدة الكراهية الشديدة، وبعضهم ربما صبر عليها السنة والستين والثلاث ثم قال لأُمها: جَمَلِيهَا طَبَّيْهَا حَسَنِيهَا ثُمَّ أَخَذَهَا مَعَهُ كَأَنَّهُ يَفْسَحُهَا أَوْ يَمْتَعُهَا وَقَدْ حَفَرَ لَهَا حَفْرَةً، ثُمَّ يَدْفَعُهَا فِيهَا وَيُهَيِّلُ عَلَيْهَا التُّرَابَ، ﴿وَإِذَا الْمَوْءُودَةُ سُئِلَتْ (٨) بِأَيِّ ذَنْبٍ قُتِلَتْ﴾ [التكوير: ٨-٩] .

والبنت هبة إلهية ومنة ربانية، قال الله عز وجل: ﴿لِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ يَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ إِنِاثًا وَيَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ الذُّكُورَ (٤٩) أَوْ يَزْوَجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنِاثًا وَيَجْعَلُ مَنْ يَشَاءُ عَقِيمًا﴾ [الشورى: ٥٠] ، قسمة رباعية:

❖ من الناس من يرزق البنات دون البنين.

❖ ومنهم من يُرزق البنين دون البنات.

❖ ومنهم من يزوجه الله عز وجل ذكرانا وإناثا، يعني يعطيه بنين وبنات ﴿أَوْ يَزْوَجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنِاثًا﴾ أي يمن عليه بالبنين والبنات.

❖ ومنهم من يكون عقيماً لا يولد له.

وهذه الأقسام الأربعة وجدت حتى في الأنبياء عليهم صلوات الله وسلامه؛ لوط عليه السلام كان له بنات ولم يكن له بنين، وإبراهيم عليه السلام كان له بنين ولم يكن له بنات، ومحمد صلى الله عليه وسلم كان له بنين وبنات، وعيسى لم يكن له بنين ولا بنات.

الشاهد أن البنات من منة إلهية، وهبة ربانية، وفيها من الخير والبركة والنفع لأهلها ومن بعد ذلكم إذا من الله عز وجل عليها بالصالح جاءت بالذرية وعملت على تربيتهم وعلى تأديبهم ورعايتهم ، فالبنت شأنها عظيم، إذا نُشِئَتْ نشأةً صالحة ونشأت عفيفةً قانتة غافلة مطيعة لرَّبِّها سبحانه وتعالى فهذه من أعظم النعم . فهذه من أعمال الجاهلية «وَأَدِ الْبَنَاتِ» أي دفنهن وقتلن وهنّ أحياء.

قال: ((وَمَنْعًا وَهَاتِ)) ؛ «مَنْعًا»: أي يمنع الخير من جهته فلا يبذل ولا يعطي، ويدخل في ذلك منع ما افترضه الله سبحانه وتعالى عليه بذله وإعطاءه ، ومنع الخير فلا يقدِّمه للناس ولا يبذله لهم.

«وهات»: أي أن مثل هذه الأمور يريد أن تكون من الناس له، يريد أن يعطوه، يريد أن يعاملوه بالمعاملة الحسنة، يريد أن يلاطفوه إلى غير ذلك وهو لا يعامل بذلك ، فيحب لنفسه ما لا يحب لغيره، ويريد من الناس أن يعاملوه بالحسنى ما لا يعاملهم به ، وفي بيعه وشرائه إذا كان الحق له يستوفيه كاملاً، وإذا كان عليه ماطل، ﴿وَيْلٌ

لِلْمُطَفِّينَ (١) الَّذِينَ إِذَا أَكَالُوا عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ (٢) وَإِذَا كَالُوهُمْ أَوْ وَزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ (٣) أَلَا يَظُنُّ أُولَئِكَ أَنَّهُمْ مَبْعُوثُونَ (٤) لِيَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿المطففين: ١-٥﴾ .

قال: ((وكره لكم قيل وقال))؛ وهذا موضع الشاهد من ذكر الحديث في هذه الترجمة. «قيل وقال»: أي أنّ هذا يكون ديدن الإنسان في مجالسه ولقائه بالناس ، يكون ديدنه قيل وقال ، قيل كذا ويقال كذا، يكون مديعاً، ينشر ما يقال، ولهذا جُلّ أحاديثه قيل كذا ويقال كذا، ينقل الكلام فيكون مديعاً، ولما ذكر علي بن أبي طالب الفتن -وأثره في الأدب المفرد للإمام البخاري- قال: «إن من ورائكم فتناً متطاوله رُدْحًا» عظيمة وشديدة، قال: «فلا تكونوا مذايع بُذُرًا»، مذايع : أي نَقْلَة للكلام، قيل كذا ويقال كذا إلى آخره، وبُذُرًا: أي بذرة للفتنة، بمثل هذا الكلام الذي ينقل فيحدث مع الخلاف والشقاق والفرقة ، ولا سيما إذا كان نقل على سبيل النميمة والإيقاع بين الناس وإحداث الفتنة .

ولهذا ينبغي على المسلم أن يصون نفسه عن مثل ذلك وأن يحفظ لسانه وإلا سيندم، كما قال القائل:

لم نستفد من جمعنا طولَ عمرنا سوى أن جمعنا قيل وقالوا

تصبح بضاعته قيل وقال، ليس عنده علم ولا هدى ولا حق ولا خير ينفع الناس ، وإذا جلس عند الناس لا يحمل هدى ولا يحمل علماً ولا يحمل شيئاً ينفع الناس، وإنما إذا جلس قال: قيل كذا ويقال كذا إلى آخره من أمورٍ لا طائفة من ورائها، بل ربما من ورائها الضرر والشرّ.

((وكثرة السؤال)) كثرة السؤال أمرٌ مذموم، ولا ينبغي للإنسان أن يكون مكثراً من الأسئلة، وأن يحصر أسئلته فيما فيه نفعٌ له، ومن كان مكثراً من الأسئلة في الغالب -والله تعالى أعلم- أن أسئلته ليست تحريراً للخير، لأن من يتحرّر الخير ينشغل بالعلم والفائدة وإذا احتاج إلى السؤال سأل في حدود حاجته للسؤال، أما أن تكون الأسئلة ديدن الإنسان، كثير الأسئلة، ففي الغالب أن كثير الأسئلة لا همّ له في العمل، أما من كان همه العمل فإنه منشغلٌ به، فإذا احتاج إلى السؤال سأل.

قال: ((وإضاعة المال)) أي تبذير المال وعدم العمل على حفظه . وإضاعة المال أمرٌ مذموم ، لأن الله عزّ وجلّ منّ على هذا العبد بهذا المال ليستعمله في طاعة الله ، ليستعمله فيما فيه الخير والنفع ، أما أن يضيّع المال وأن يبدّر وأن يسرف فإن الله سبحانه وتعالى يسأله عن ذلك، ((لا تَزُولُ قَدَمَا عَبْدٍ يَوْمَ الْقِيَامَةِ حَتَّى يُسْأَلَ عَنْ أَرْبَعٍ - وذكر منها- وَعَنْ مَالِهِ فِيمَا أَنْفَقَهُ وَمِنْ أَيْنَ كَسَبَهُ)) .

قال رحمه الله تعالى:

٣٢ - وعن جابر رضي الله عنه مرفوعاً: ((إن من أحبكم إليّ وأقربكم مني مجلساً يوم القيامة أحسنكم أخلاقاً، وإن أبغضكم إليّ وأبعدكم مني مجلساً يوم القيامة الثرثارون المتشدقون المتفيهقون)) حسنه الترمذي.

قال رحمه الله تعالى: وعن جابر رضي الله عنه مرفوعاً: ((إن من أحبكم إليّ وأقربكم مني مجلساً يوم القيامة أحسنكم أخلاقاً)) ؛ وهذا فيه فضل حسن الخلق ورفيع منزلة أهله في الجنة.

قال: ((أقربكم مني مجلساً يوم القيامة)) وهذا فيه أن حُسن الخلق سبب لرفعة الدرجات وعلو المنازل يوم القيامة، حتى يكون صاحب الخلق العظيم الخلق الرفيع أقرب منزلة إلى النبي عليه الصلاة والسلام يوم القيامة. ((أقربكم مني مجلساً يوم القيامة)) وهذا فيه فضل حسن الخلق وأن حسن الخلق سبب لرفعة الدرجات وعلو المنازل؛ ولكن متى حُسن الخلق كذلك؟ أي سبباً لرفعة الدرجات وعلو المنازل؟

لا يكون الخلق سبباً لنيل هذا الثواب وهذه الرفعة وهذا العلو إلا إذا فعله العبد تقرباً إلى الله وطلباً لرضاه ، أما إن كان فعل حُسن الخلق لمصالح دنيوية فله ما فعل حُسن الخلق لأجله، وما له عليه يوم القيامة من نصيب . من فعل حسن الخلق في الدنيا للشهرة مثلاً ؛ ينال شهرةً لكن لا يجد عليه شيئاً يوم القيامة، قد سأل عدي بن حاتم الطائي النبي عليه الصلاة والسلام عن والده حاتم، وحاتم مضرب المثل في الكرم، حتى إنهم إذا أردوا أن يذكروا الكرم قالوا: «كرمٌ حاتمِي» ، مضرب مثل في الكرم ، فسأل النبي عليه الصلاة والسلام عن والده حاتم وذكر كرمه وأنه يفعل كذا ويفعل كذا، قصصه عجيبة للغاية في الكرم، هل ينفعه عند الله ؟ قال النبي عليه الصلاة والسلام: ((إِنَّ أَبَاكَ أَرَادَ شَيْئًا فَأَذْرَكَ)) أي الشهرة، أراد الشهرة ونال الشهرة ، والشهرة نالها واستمرت، لا يزال الناس عبر الأجيال يذكرونه بالكرم اشتُهر به، لكن إذا وقف بين يدي الله يوم القيامة لا يجد عليه شيئاً. قال: ((إِنَّ أَبَاكَ أَرَادَ شَيْئًا فَأَذْرَكَ)) أما عند الله لا ينفعه. فلا يكون حُسن الخلق نافعاً للعبد إلا إذا صدر من الإنسان على وجه التقرب لله. وهذا المعنى قد يغفل عنه بعض الناس، يستحضر التقرب في الصلاة في الصيام في الحج ويغفل عن التقرب في باب الأخلاق، فالأخلاق من جملة القُرب التي يترتب عليها الثواب والأجر العظيم وعلو المنازل عند ربّ العالمين سبحانه وتعالى. وفي صحيح مسلم أن عائشة رضي الله عنها سألت النبي عليه الصلاة والسلام عن ابن جُذعان قالت: يقري الضيف ويفك العاني وذكرت شيئاً من أوصافه أينفعه ذلك؟ قال: ((لَا يَنْفَعُهُ إِنَّهُ لَمْ يَقُلْ يَوْمًا رَبِّ اغْفِرْ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ)) ، ولهذا الأخلاق والآداب وهذ الأعمال تُعمل من أجل غفران الخطايا يوم الدين، ورفعة الدرجات يوم لقاء ربّ العالمين سبحانه وتعالى ، ولما سئل عليه الصلاة والسلام عن أكثر ما يكون به دخول الجنة قال: ((تَقْوَى اللَّهِ وَحُسْنُ الْخُلُقِ)).

قال: ((وإن أبغضكم إليّ وأبعدكم مني مجلساً يوم القيامة الثرثارون المتشدقون المتفيهقون)) وهذا موضع الشاهد من هذا الحديث في هذه الترجمة؛ التحذير من الثرثرة والتشديق بالكلام ولوّكه باللسان، فإن هذا أمرٌ يُذم عليه الإنسان.

قال ((وإن أبغضكم إليّ وأبعدكم مني مجلساً يوم القيامة الثرثارون)) ؛ والثرثار : هو الذي يُكثر الكلام، من الثرثرة وهي كثرة الكلام. ((والمتشدقون)) ؛ المتشدق هذه الكلمة من الشّدق وهي جانب الفم، أي يلوّك لسانه ويتوسع في الحديث، ومثله كذلك قوله: ((المتفيهقون)) يتقعر في الكلام ويتوسع في الكلام عن غير حاجة، وإنما هي ثرثرة، يُكثر من الكلام عن غير حاجة، بل ربما فيما فيه مضرة عليه وعلى الجالسين معه. قال رحمه الله تعالى :

باب التشديق وتكلف الفصاحة

وقول الله تعالى ﴿وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ وَإِنْ يَقُولُوا تَسْمَعُ لِقَوْلِهِمْ﴾ الآية [المنافقون: ٤]

قال رحمه الله تعالى : «باب التشديق وتكلف الفصاحة» ؛ «التشديق» : هو الإكثار من الكلام والتوسع فيه وعدم الاحتراز من آفات اللسان، وإنما يتشديق بالكلام ويحاول أن ينمّق حديثه وألفاظه، ولكن المضمون لا نفع فيه ، أو فيه مضرة عليه وعلى من يستمع إليه، وهُمّهُ هو تزويق الكلام وتنميقه وتجميل الألفاظ بحيث تشد السامع .

«وتكلف الفصاحة»: لا تأتي الفصاحة عنده سجية، وإنما يتكلف؛ يتكلف الفصاحة، يتكلف البيان، جمال المنطق، لكن المضمون ، المعاني ، الحقائق هذه لا نفع فيها أو فيها مضرة عليه وعلى من يستمع إليه.

قال الله عز وجل ﴿وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ﴾ أي المنافقين ﴿تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ﴾ نضارة الأجسام وترتيب الهيئة والهندام والمظهر إلى آخره تعجبك أجسامهم ، ﴿وَإِنْ يَقُولُوا تَسْمَعُ لِقَوْلِهِمْ﴾ لماذا ؟ لأنهم يتفننون في تنميق الكلام وتجميل الكلام والتأثير على السامع ، حتى إن من يستمع يعجبه قوله، ويدخل في كلامه أشياء حسنة ليتوصّل من خلالها إلى أشياء محرمة وباطلة، يلبسون الحق بالباطل.

قال رحمه الله تعالى :

٣٣ - عن ابن عمر رضي الله عنهما مرفوعاً: ((إنّ من البيان لسحراً)) رواه البخاري.

قال رحمه الله تعالى: عن ابن عمر رضي الله عنهما مرفوعاً: ((إِنَّ مِنَ الْبَيَانِ لَسِحْرًا)) ؛ «مِنْ»: للتبعية، فليس كل البيان كذلك، وإنما من البيان لسحرًا. والمراد بالبيان الذي وُصف بهذا الوصف: هو الكلام الذي حرص صاحبه على تزويقه وتنميقة والتفاسح فيه وعرضه بصورة جميلة شبيقة للسامع، ولكن في الحقيقة هو دعوة إلى ضلال، ودعوة إلى باطل، فيحسن البيان يحسن المنطق ليسحر القلوب ويجلبها إلى الأهواء التي عنده والباطل الذي يدعو إليه. قال: ((إِنَّ مِنَ الْبَيَانِ لَسِحْرًا)) أي يسحر القلوب ويؤثر في الناس مثل ما يؤثر السحر صرفًا وعطفًا. فهذا فيه تحذير من البيان الذي على هذه الصفة. أما البيان الكلام البين الواضح الفصيح النافع المفيد فهذا لا يُذم.

قال رحمه الله تعالى :

٣٤ - وعن ابن عمرو رضي الله عنهما مرفوعاً: ((إِنَّ اللَّهَ يَبْغِضُ الْبَلِيغَ مِنَ الرِّجَالِ الَّذِي يَتَخَلَّلُ بِلِسَانِهِ كَمَا تَتَخَلَّلُ الْبَقْرَةُ)) حسنه الترمذي.

قال: وعن ابن عمرو -عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما- مرفوعاً: ((إِنَّ اللَّهَ يَبْغِضُ الْبَلِيغَ مِنَ الرِّجَالِ الَّذِي يَتَخَلَّلُ بِلِسَانِهِ كَمَا تَتَخَلَّلُ الْبَقْرَةُ)) ؛ يتخلل بلسانه: أي يلوك اللسان بلسانه ويُعنى برعاية تزويق الكلام والألفاظ والمنطق ولكن المضمون دعوة إلى ضلال وإلى باطل وإلى أهواء ؛ فمن كان كذلك فإنه يبغيض إلى الله ، ((إِنَّ اللَّهَ يَبْغِضُ الْبَلِيغَ مِنَ الرِّجَالِ الَّذِي يَتَخَلَّلُ بِلِسَانِهِ كَمَا تَتَخَلَّلُ الْبَقْرَةُ)) .

وهذا يستفاد منه : أن مجرد الفصاحة والبيان وسلامة المنطق هو بحد ذاته ليس مدحاً إلا إذا كان ذلك في الحق والهدى ، يعني بعض الناس يعتني بالفصاحة للفصاحة ذاتها ولجمال الألفاظ نفسها ، ليس عنده شيء من الاهتمام بدين الله والعمل على استغلال هذه الآلة التي هي الفصاحة لنفع عباد الله تبارك وتعالى، وإنما همهم الفصاحة للفصاحة نفسها، هي مقصده تزويق الكلام وتنميق الكلام ، ولهذا يعتني بالألفاظ عناية دقيقة أما المضامين والحقائق لا يبالي بها ، بل بعضهم -وهذا يقع كثيراً في الشعر- يبالغ في الأوصاف بل يكذب في الأوصاف لا لشيء إلا لأجل أن يظهر الكلام بشكل أجمل وألفاظ أحسن ، ولهذا قيل: «أعذب الشعر أكذبه»، وقيل أيضاً: «لا يبلغ الرجل ذروة الأدب حتى يصبح قليل الأدب» ، فهذا الكلام الذي يقال هو في حق من كان كذلك؛ يعتني بالفصاحة لذات الفصاحة، يعتني بالبيان لذات البيان، يعتني بالألفاظ ولا يبالي بقضية الحقائق والمعاني هل هي نافعة أو ضارة؟ ولهذا بعضهم بالغ -والعياذ بالله- كما قال ذلك أحد المشاهير الأدباء القدامى قال: "لا دخل للعقائد في الشعر" ، يعني حتى لو كان في الشعر مخالفة للعقيدة يقول: ما يضر! لأن هذا شعر، جمال ألفاظ، ولهذا يأتي في الشعر ألفاظ مخلة بالعقيدة مخلة بالأدب، يقول: هذا شعر، انظر أنت فقط إلى جمال

الألفاظ، لا تنظر إلى ما فيه من مخالفة، إلى هذه الدرجة بلغ الحال ببعض الناس من اهتمامه بالألفاظ وتضييعه للحقائق والمضامين.

قال رحمه الله تعالى :

٣٥ - وعن أبي هريرة رضي الله عنه مرفوعاً: ((من تعلّم صرف الكلام ليصرف به قلوب الرجال أو الناس لم يقبل الله منه يوم القيامة صرفاً ولا عدلاً)) رواه أبو داود.

قال: وعن أبي هريرة رضي الله عنه مرفوعاً: ((من تعلّم صرف الكلام)) أي تعلّم تزويق الكلام وتنميقه وتصريفه، واعتنى عناية دقيقة بالألفاظ ، المنطق.

((ليصرف به قلوب الرجال أو الناس)) أي إليه ، تعلم صرف الكلام من أجل أن يقال فصيح، من أجل أن يقال بليغ ، ما أبلغه ما أفصحه، رجل عالي في بلاغته في فصاحته، فتعلّم صرف الكلام من أجل ذلك.

((لم يقبل الله منه يوم القيامة صرفاً ولا عدلاً)) ؛ قيل في معنى «صرفاً ولا عدلاً» أي لا فريضة ولا نفل . وهذا يدل على خطورة مثل هذه التصرفات ؛ أن يكون الإنسان يهتم بالمنطق والكلام واللغة والنحو والصرف والبلاغة يعتني بها ليس من أجل الدين وإنما من أجل أن يكون رجلاً فصيحاً بليغاً يشار له بالبنان في فصاحته وفي منطقته وفي بلاغته ، أما الدين فلا همة له فيه.

قال رحمه الله تعالى :

٣٦ - ولأحمد عن معاوية رضي الله عنه: «لعن رسول الله صلى الله عليه وسلم الذين يشققون الكلام تشقيق الشعر».

قال: ولأحمد عن معاوية رضي الله عنه: «لعن رسول الله صلى الله عليه وسلم الذين يشققون الكلام تشقيق الشعر» وفي إسناده الحديث كلام ، لكنه من حيث الجملة معناه كما سبق ، تشقيق الكلام: تزويق الكلام وتنميقه وتحسينه، وتكون همة الإنسان متجهة للألفاظ غير مبالٍ بالحقائق والمعاني والمضامين . فهذا فيه خطورة شديدة على من كان ذلك .

والواجب على الإنسان أن يكون هُمة هو دينه وطاعته وتقربه إلى الله سبحانه وتعالى ، وأن يكون تعلمه للنحو والبلاغة والصرف ونحو هذه الأشياء من أجل خدمة دين الله، لا يتعلمها لذاتها، وإنما يتعلمها لأجل خدمة دين الله، ولهذا تسمى هذه العلوم «علوم الآلة»، لأنها علوم خادمة لا تُقصد لذاتها، وإنما تُقصد ليستفاد منها في

خدمة الدين ، فهي ليست مقصودةً لذاتها وإنما هي علوم خادمة تستعمل من أجل خدمة الدين ، فإذا تحول الأمر إلى أن يُهمل الدين وتصبح العلوم الخادمة هي الغاية والمقصد عند الإنسان فهذه المصيبة ، وفي مثل ذلك جاءت نحو هذه النصوص. ونكتفي بهذا القدر.

سبحانك اللهم وبحمدك ، أشهد أن لا إله إلا أنت ، أستغفرك وأتوب إليك .
اللهم صلِّ وسلِّم على عبدك ورسولك نبينا محمد وآله وصحبه أجمعين .

الدرس الثامن

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله ربّ العالمين، وأشهد ألا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله، صلى الله وسلم عليه وعلى آله وأصحابه أجمعين . أما بعد :

قال شيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب رحمه الله تعالى في كتاب الكبائر :

بابُ شدةُ الجِدال

وقول الله تعالى: ﴿وَهُوَ أَلَدُّ الْخِصَامِ﴾ الآية [البقرة: ٢٠٤] .

قال المصنف رحمه الله تعالى : «بابُ شدةُ الجِدال» ؛ الجِدال وشدته يراد به : الخصومة والمنازعة واللَّجَج وكثرة ذلك؛ فإن هذا من أوصاف اللسان الذميمة وآفاته السيئة، عندما يكون الإنسان مجادلاً مَخاصِماً لدوداً فإن هذا الوصف يُعد من أوصاف اللسان السيئة.

وأورد رحمه الله قول الله عزّ وجلّ: ﴿وَهُوَ أَلَدُّ الْخِصَامِ﴾ [البقرة: ٢٠٤] ، و«ألد الخِصام» من اللَّد وهو الشدة، ومعنى «ألد الخِصام»: أي أشدّه، أو شديد الخِصام والمنازعة. وذكر الله سبحانه وتعالى ذلك في سياق الذم والتقبيح لهذا العمل، قال جلّ وعلا: ﴿وَهُوَ أَلَدُّ الْخِصَامِ﴾ .

قال رحمه الله تعالى :

٣٧ - عن عائشة رضي الله عنها مرفوعاً: ((إِنَّ أَبْغَضَ الرِّجَالِ إِلَى اللَّهِ الْأَلَدُّ الْخِصَمَ)).

أورد حديث أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: ((إِنَّ أَبْغَضَ الرِّجَالِ إِلَى اللَّهِ الْأَلَدَّ الْخَصِمَ)) ؛ «أبغض»: أي أشدُّ الناس بغضًا إلى الله سبحانه وتعالى ؛ وهذا يدل على قبح هذا العمل وشناعته، وأن فاعله بغيض إلى الله سبحانه وتعالى كما أنه أيضًا بغيضٌ إلى خلق الله عزَّ وجلَّ.

قال: ((إِنَّ أَبْغَضَ الرِّجَالِ إِلَى اللَّهِ)) ؛ وقوله: «الرجال» لا مفهوم له، ولكن بما أن الخطاب في الغالب للرجال ذكر الرجال، وإلا فإن الحكم يتناول النساء، فأبغض النساء إلى الله من كانت بهذه الصفة.

قال: ((أَبْغَضَ الرِّجَالِ إِلَى اللَّهِ الْأَلَدَّ الْخَصِمَ)) ؛ «الألد» عرفنا معناه . قيل: إن هذه الكلمة أخذت من لذيدي الوادي أي جانباه . وقيل: أخذت من لذيدي الفك أو الفم وهما جانباه. والمراد: أنه يراوغ بكلامه، ويذهب بمن يخاصمه هنا وهناك، بحيث أنه يحاول أن يمرِّر فكره أو رأيه أو مثلاً مطلبه وحاجته بأي طريقة كانت؛ بالمراوغة، بالذهاب بمن يخاصم هنا وهناك ، دون مبالاة بالحق، ودون تحرُّر للهدى والصواب، فهذا من أبغض الناس إلى الله تبارك وتعالى.

قال رحمه الله تعالى :

٣٨ - وللترمذي عن ابن عباس رضي الله عنهما مرفوعاً: ((كفى بك إثماً أن لا تزال مخاصماً)). .

وأورد هذا الحديث حديث ابن عباس عند الترمذي مرفوعاً قال: ((كفى بك إثماً أن لا تزال مخاصماً))؛ وهذا فيه شناعة هذا العمل، عندما يكون الإنسان ديدنه الخصومة واللَّجَج والجدال والمنازعة وأنه لا يزال مستمراً على ذلك، فهذا من شر الإثم وأعظمه.

قال رحمه الله تعالى :

بابٌ من هابه الناس خوفاً من لسانه

وقول الله تعالى: ﴿وَيْلٌ لِّكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ﴾ [الهمزة: ١] .

قال: «بابٌ من هابه الناس خوفاً من لسانه» أي لسلطة لسانه وبذاءته وشدة فُحشه وتجرئه على الناس والنيل من أعراضهم همزاً ولمزاً ووقية ولا يبالي بذلك ، فمن كان بهذا الوصف فإن الناس إذا التقوا به يتقونه ويدارونه

خشية لسانه. فهذه الترجمة فيمن هابه الناس خوف لسانه، هابه الناس ليس لوقاره ولا لفضله ولا لنبله ولا لإحسانه وإنما هابه الناس خوف لسانه، لأن لسانه سليط وبذيء وجريء على الناس.

أورد قول الله عز وجل: ﴿وَيْلٌ لَّكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ﴾؛ «ويل» هذه كلمة تهديد ووعيد ﴿لَّكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ﴾ أي همّاز لمّاز. واجتماع هاتين الكلمتين تعني أن الهمز بالفعل، واللمز باللسان. همّاز لمّاز أو همزة لمزة: أي يطعن في الناس ويسيء إليهم بجوارحه كما أنه أيضاً يسيء إليهم بلسانه، لا يسلمون منه لا من فعالة ولا من مقالة، «همزة لمزة»، ومن كان بهذا الوصف فإن الناس يهابونه ويخشون منه، وإذا التقوا به وجمعهم به مجلس على كراهة فإنهم يدارونه خوف لسانه وسلطة لسانه.

قال رحمه الله تعالى :

٣٩ - عن عائشة رضي الله عنها أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: ((إن شر الناس منزلةً عند الله يوم القيامة من ودّعه الناس - أو تركه الناس - اتقاء فحشه)).

قال: عن عائشة رضي الله عنها أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: ((إن شر الناس منزلة عند الله يوم القيامة من ودّعه الناس - ومعنى «ودع» أي ترك - أو تركه الناس اتقاء فحشه))؛ هذا الحديث له قصة في الصحيح، وهي أن رجلاً جاء إلى بيت النبي عليه الصلاة والسلام واستأذن، فقال: ((اأذنوا له ينس أخو العشيّة))، فدخل الرجل إلى النبي عليه الصلاة والسلام فألان له القول صلوات الله وسلامه عليه، فلما خرج قالت له عائشة: «قلت فيه ما قلت، ولما دخل ألت له القول!!»، متعجبة من ذلك، يعني عندما استأذن قال: ((اأذنوا له ينس أخو العشيّة))، ولما دخل على النبي عليه الصلاة والسلام ألان له القول!!، خاطبه خطاباً لطيفاً، فقالت عائشة رضي الله عنها: قلت فيه ما قلت يعني «ينس أخو العشيّة» ولما دخل ألت له القول، فقال هذه الكلمة عليه الصلاة والسلام: ((إن شر الناس منزلة عند الله يوم القيامة من ودّعه الناس - أو تركه الناس - اتقاء فحشه)).

وهذا أيضاً يستفاد منه أن الواجب على العاقل إذا ابتلي بشخص بهذا الوصف معروف بالفحش، بسلطة اللسان أن يداريه وأن يلين له القول لاتقاء شره والوقاية من أذاه والسلامة منه، كما صنع النبي صلوات الله وسلامه وبركاته عليه.

والشاهد أن من كبائر اللسان أن يكون الإنسان بهذا الوصف، لسانه سليطاً يقع في الأعراض همزاً لمزاً سباً وقية، وإذا التقى به الناس يعرفونه بذلك، ويهابونه خوف لسانه وسلطة لسانه؛ فهذا يبعد عن الأوصاف الذميمة ويعد في جملة كبائر اللسان.

قال رحمه الله تعالى :

باب البذاء والفحش

وقول الله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ لَا يَشْهَدُونَ الزُّورَ وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَامًا﴾ [الفرقان: ٧٢].

قال: «باب البذاء والفحش» ؛ البذاء والفحش هذان اللفطان إذا اجتمعا - كما سيأتي اجتماعهما في حديث ابن مسعود الآتي الذي ساقه المصنف رحمه الله تعالى - فإنّ البذاء يكون في اللسان، والفحش يكون في الفعل. والمعنى: أن البذاء والفحش هو تعدّي وإساءة إلى الآخرين وظلم للأعراض وتعدّي على الأعراض، فما كان من ذلك باللسان فهو بذاء، وما كان من ذلك بالجوارح فهو فحش.

قال: وقول الله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ لَا يَشْهَدُونَ الزُّورَ وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَامًا﴾ ؛ قال أهل العلم: «الزور» هو الباطل ومجالس الباطل. ومعنى ﴿لَا يَشْهَدُونَ﴾ : أي لا يحضرون ، ﴿وَالَّذِينَ لَا يَشْهَدُونَ الزُّورَ﴾ أي لا يحضرون مجالس الباطل، المجالس التي هي مشتملة على ما حرم الله عزّ وجلّ ؛ من غيبة أو نغمة أو سخرية أو همز أو لمز أو وقعة في الأعراض أو غير ذلك، فإن هذه كلها مجالس زور، لأن الزور هو الباطل، وعباد الرحمن -لأن هذه جاءت في سياق أوصاف عباد الرحمن- من أوصافهم أنهم لا يشهدون الزور ، أي لا يحضرون مجالس الباطل، بل يصونون أنفسهم عن حضورها وشهودها والجلوس مع أهلها، لأنه إن جلس مع أهل الباطل في مجالسهم تلطخ بباطلهم وأصابه من باطلهم قدرًا ونصييًا.

قال: ﴿وَالَّذِينَ لَا يَشْهَدُونَ الزُّورَ وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَامًا﴾ ؛ وهذا فيه أنهم لا يقصدون مجالس اللغو والمجالس القائمة على اللغو والكلام المحرّم، لكن لو قدّر أن أحدًا منهم مرّ على شيء من هذه المجالس يمرّ مرور الكرام، منزهاً نفسه عن الجلوس في تلك المجالس أو شهودها أو حضورها.

قال رحمه الله تعالى :

٤ - وعن ابن مسعود رضي الله عنه مرفوعًا: ((ليس المؤمن بطعان ولا لعان ولا فاحش ولا بذّي)) حسنه الترمذي.

قال: عن ابن مسعود رضي الله عنه مرفوعاً: ((ليس المؤمن بالطعان ولا اللعان ولا الفاحش ولا البذيء))؛ هذه أمور أربعة أخبر النبي عليه الصلاة والسلام أنها ليست من أوصاف أهل الإيمان. ومعنى ذلك أن هذه الأوصاف أو شيء منها إذا وجدت في أحدٍ دلّ ذلك على ضعف إيمانه ونقص دينه.

والنفي هنا قال: «ليس المؤمن» نفي للإيمان الواجب، يعني ليس نفيًا لأصل الإيمان ولا أيضًا نفيًا لكمال الإيمان المستحب، وإنما هو نفي لكمال الإيمان الواجب. بمعنى أن من ارتكب هذه الأمور فقد وقع في كبيرة من الكبائر استحق بها أن يُنفي عنه الإيمان الذي أوجبه الله سبحانه وتعالى، ويكون بذلك عرض نفسه لعقوبة الله جلّ وعلا. ((ليس المؤمن)) أي ليست هذه أوصاف لأهل الإيمان، وليست هذه من شعب الإيمان ولا أعمال أهل الإيمان، وإنما هذه من شعب الكفر، لأن المعاصي من شعب الكفر كما أن الطاعات من شعب الإيمان، وإن لم يكن فاعل كل معصية من هذه المعاصي كافرًا، لكنها ليست من شعب الإيمان.

قال: ((ليس المؤمن بالطعان ولا اللعان)) ؛ هذان وصفان ذميّان ذكر عليه الصلاة والسلام أنهما ليس من أوصاف المؤمن: الطعان واللعان .

❖ الطعان: هو الذي يذكر الناس بالسوء.

❖ واللعان: هو الذي يدعو عليهم بالسوء.

((ليس المؤمن بالطعان)) ؛ الطعان: هو الذي يذكر الناس بالسوء، يقع في الأعراض، يغتاب، يسخر، يستهزئ، يهمز، يلمز، يتهمك في الناس؛ الذي يذكر الناس بالسوء هذا يقال عنه: «طعان» يعني يطعن في الناس، يقع فيهم وفي أعراضهم ويتكلم ويقدر، فيقال له: «طعان» .

((ولا اللعان)) ؛ اللعان: هو الذي يدعو على الناس بالسوء، يدعو عليهم بسخط الله، يدعو عليهم بغضب الله، يدعو عليهم بالخزي، يدعو عليهم بالهلاك، يدعو عليهم بالنار. ليس خاصًا بلفظ اللعن فقط ، بل يشمل كل ما كان من هذا القبيل، وكل ما أدى إلى هذا المعنى فإنه يتناوله. ولهذا جاء في الحديث عند الإمام أحمد عن النبي عليه الصلاة والسلام أنه قال: ((لَا تَلَاعَنُوا بِلَعْنَةِ اللَّهِ وَلَا بِغَضَبِ اللَّهِ وَلَا بِالنَّارِ))، فهذا كله لعن ، عندما يقول القائل مثلاً لآخر: أخزاه الله، أو أدخله الله النار ، أو حرّمه الله من الجنة ، أو غضب الله عليه ، أو سخط الله عليه.. كل هذا لعن، ليس اللعن بلفظة اللعن فقط بل يشمل ذلك، لأن النبي عليه الصلاة والسلام قال: ((لَا تَلَاعَنُوا بِلَعْنَةِ اللَّهِ وَلَا بِغَضَبِ اللَّهِ وَلَا بِالنَّارِ)) ؛ هذا كله داخل في الدعاء على الغير بالطرد والإبعاد من رحمة الله سبحانه وتعالى.

فإذاً قوله: ((ليس المؤمن بالطعان ولا اللعان)) يشمل قوله «الطعان» من يخبر عن الناس بالسوء، ويشمل قوله «اللعان» من يدعو على الناس بالسوء. وقد جاء في حديث آخر أن النبي عليه الصلاة والسلام قال: ((إِنَّ اللَّعَّانِينَ لَا يَكُونُونَ شُهَدَاءَ وَلَا شُفَعَاءَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ)) ، واللعان الذي من وصفه لعن الناس بمعنى يدعو عليهم بالشر

، ومن وصفه الطعن في الناس وهو الذكر للناس بالسوء، بهذا الوصف الذي قام به ليس مؤهلاً أن يكون يوم القيامة شهيداً أو شفيعاً للناس، قال: ((إِنَّ اللَّعَّانِينَ لَا يَكُونُونَ شُهَدَاءَ وَلَا شُفَعَاءَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ)) ، لا يكونون شهداء ؛ الشهداء : هم الذين يذكرون الناس بالخير، والشفعاء: هم الذين يدعون لهم بالخير. قال: ((لَا يَكُونُونَ شُهَدَاءَ وَلَا شُفَعَاءَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ)) أي ليسوا أهلاً بذلك، لماذا؟ لأن الناس في الدنيا لم يسلموا من ألسنتهم طعناً ولا لعناً، فكيف يكونون شهداء لهم أو شفعاء لهم يوم القيامة وهم أصلاً في الدنيا ما سلموا منهم؟! وهذا مما يدل على خطورة هذا الوصف، الطعن واللعن، وأن المسلم لا ينبغي أن يكون كذلك، كما جاء في الحديث: ((لَا يَنْبَغِي لِلْمُؤْمِنِ أَنْ يَكُونَ لَعَّانًا)) ينبغي أن يحذر ذلك.

ومناسبة هذا الحديث : ابن عمر رضي الله عنه لما سمع هذا الحديث: ((لَا يَنْبَغِي لِلْمُؤْمِنِ أَنْ يَكُونَ لَعَّانًا)) ما حصل منه اللعن بعد ذلك منذ سمع هذا الحديث. ولهذا قيل عنه رضي الله عنه: «ما لعن ابن عمر أحداً ليس إنساناً إلا إنساناً»، وقيل: إن هذا الاستثناء «ليس إنساناً»: أي إلا إنساناً واحداً، أنه كان عنده خادم أو عبد وفعل أمراً أغضب فيه ابن عمر فلعنه ، وقيل: إنه نطق كلمة اللعن وأمسك نفسه قبل أن يأتي بحرف النون في آخرها، ثم مباشرة أعتقه، مرة واحدة. وهذا مما يبين أن الصحابة رضي الله عنهم كان هذا وصفهم في مسارعتهم للخير ومبادرتهم له رضي الله عنهم وأرضاهم. منذ أن سمع هذا الحديث لم يُسمع منه لعن إلا مرة واحدة في هذا الموقف، ومباشرة كفر عن ذلك بإعتاق ذلك الشخص لوجه الله سبحانه وتعالى.

وهذا يفيد أن المسلم ينبغي عليه أنه إذا سمع هذه الأحاديث في الوعيد والتحذير ألا يكون حظه منها مجرد سماعها ومعرفتها ، بل ينبغي أن يبادر إلى التطبيق العملي ليكون من أهل الحق والهدى ولزوم دين الله تبارك وتعالى وشرعه.

قال: ((ولا الفاحش ولا البذيء)) أي ليس من وصفه الفحش ولا البذاء.

❖ والفحش: يُطلق على كل ما استفحش من العمل وبلغ مبلغاً في قبحه.

❖ والبذاء: يُطلق على قبح لسان المرء في إسفافه بالقول وفساد لسانه في سلاطته في سوءه.

والجمع بين هذين اللفظين كما تقدم «الفحش والبذاء»؛ يكون الفحش في الأفعال، والبذاء في الأقوال، وعند انفراد كلٍ منهما فإنه يتناول معنى الآخر.

قال رحمه الله تعالى :

٤١ - وله وصححه عن أبي الدرداء رضي الله عنه مرفوعاً: ((ما من شيء أثقل في ميزان المؤمن يوم القيامة من حسن الخلق ، وإن الله يبغي الفاحش البذيء الذي يتكلم بالفحش)).

قال: «وله» أي ابن مسعود رضي الله عنهما ، عن أبي الدرداء رضي الله عنه مرفوعاً: ((ما من شيء أثقل في ميزان المؤمن يوم القيامة من حسن الخلق)) ؛ وهذا فيه أن حسن الخلق ثقیل في الميزان، وسبب للرفعة عند الله سبحانه وتعالى يوم القيامة يوم لقاء الله جلّ وعلا. وقد مر معنا عند المصنف رحمه الله تعالى قول النبي عليه الصلاة والسلام: ((إِنَّ مِنْ أَحَبِّكُمْ إِلَيَّ وَأَقْرَبُكُمْ مِنِّي مَجْلِسًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَحْسَنَكُمْ أَخْلَاقًا)) ؛ فحسن الخلق موجب لدخول الجنة. سئل عما يكون به دخول الجنة قال: ((تَقْوَى اللَّهِ وَحُسْنُ الْخُلُقِ)) ، وموجب للرفعة الدرجات، وأيضاً هو ثقیل في الميزان؛ وهذا كله مما يدل على فضل حسن الخلق.

وحسن الخلق في التعامل مع الناس يتلخص في حديثين:

- ١- أن تحب لهم ما تحب لنفسك ؛ ((لَا يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ حَتَّى يُحِبَّ لِأَخِيهِ مَا يُحِبُّ لِنَفْسِهِ)).
 - ٢- وأن تأتي لهم الشيء الذي تحب أن يؤتى إليك، أي تعاملهم بالمعاملة التي تحب أن تعامل بها.
- فحسن الخلق يتلخص في ذلك.

قال: ((وإن الله يبغض الفاحش البذيء الذي يتكلم بالفحش)) ؛ وذكر ذلك يدل على أن الفحش والبذاء ونحو ذلك كل ذلك من سوء الخلق، وأن المرء إذا ساء خلقه كان بهذا الوصف فاحشاً بذيئاً إلى غير ذلك من الأوصاف.

قال رحمه الله تعالى :

٤٢ - ولمسلم عن عائشة رضي الله عنها مرفوعاً: ((إن الرفق لا يكون في شيء إلا زانه، ولا ينزع من شيء شانه)).

قال: ولمسلم عن عائشة رضي الله عنها مرفوعاً: ((إن الرفق لا يكون في شيء إلا زانه، ولا ينزع من شيء شانه))؛ قد أورد رحمه الله تعالى هذا الحديث في هذه الترجمة تنبيهاً إلى أن المرء إن لم يكن رفيقاً في تعامله مع الناس سيخرج به عدم رفقته إلى الفحش والبذاء، بينما الرفق لا يكون في شيء إلا زانه ، يزيّنه بالأخلاق ، بالآداب، بالتعاملات الكريمة الفاضلة، وإذا نزع الرفق من الأمور فإنه يفضي بالإنسان إلى الفحش والبذاء، ((إن الرفق لا يكون في شيء إلا زانه، ولا ينزع من شيء شانه)).

قال رحمه الله تعالى :

٤٣ - وللترمذي وحسنه عن ابن مسعود رضي الله عنه مرفوعاً: ((ألا أخبركم بمن يحرم على النار أو تحرم عليه النار؟ تحرم على كل قريب هينٍ لِينٍ سهل)).

قال: وللترمذي وحسنه عن ابن مسعود رضي الله عنه مرفوعاً أي إلى النبي صلى الله عليه وسلم: ((ألا أخبركم بمن يحرم على النار وتحرم عليه النار؟)) ؛ وهذا من أسلوب التشويق في التعليم، ويكثر في أحاديث النبي عليه الصلاة والسلام ، ثم بيّن ذلك .

قال: ((تحرم على كل قريب هين سهل)) ؛ على كل قريب : أي قريب من الخير . وهذا فيه أن هذا الذي تحرم عليه النار قريب من الخير مبادرٌ إليه، مسارعٌ إليه، معتنٍ به.

((هين)) : هين في تعاملاته، في لطفه، في آدابه وأخلاقه، في ألفاظه ومنطقه.

((سهل)) : أي في أموره وشؤونه كلّها.

فمتصفٌ بالرفق ، بالأناة ، باللين ، بالسهولة ، باللطف بالقرب من الخير .. هذه أوصاف تجمع معاني اللطف والرفق وتحسن التعامل، البعد عن الفحش والشدة والغلظة ونحو ذلك، فمن كان كذلك فإنه كما أخبر نبينا عليه الصلاة والسلام تحرم عليه النار يوم القيامة. وهذا فيه شاهد لما سبق ؛ أن حُسن الخلق من موجبات دخول الجنة والنجاة من النار.

قال رحمه الله تعالى :

٤٤ - ولمسلم عن جرير رضي الله عنه مرفوعاً: ((من يُحرم الرفق يُحرم الخير كله)).

قال: ولمسلم عن جرير رضي الله عنه مرفوعاً إلى النبي صلى الله عليه وسلم ((من يُحرم الرفق)) أي في تعاملاته وما يأتيه من أمور فإنه ((يُحرم الخير كله)) ؛ وهذا يدل على أن الرفق في الأمور هو باب الخير ، وأن الرفق ما دخل في شيء إلا زانه، وأنه إذا نُزع فإنه يشين الأمور ، وإذا حُرّمه العبد حُرّم الخير كله. والله سبحانه وتعالى رفيق يحب الرفق، والواجب على العبد المؤمن أن يكون رفيقاً ؛ رفيقاً في تعاملاته مع الناس، مع أهله، مع ولده، حتى الدواب يتعامل معها بالرفق، فإن الله سبحانه وتعالى رفيق يحب الرفق.

سبحانك اللهم وبحمدك ، أشهد أن لا إله إلا أنت ، أستغفرك وأتوب إليك .

اللهم صلّ وسلم على عبدك ورسولك نبينا محمد وآله وصحبه أجمعين.

الدرس التاسع

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله رب العالمين، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله، صلى الله وسلم عليه وعلى آله وأصحابه أجمعين. أما بعد :

قال شيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب رحمه الله تعالى في كتاب «الكبائر» :

باب ما جاء في الكذب

وقول الله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَقْتَرِي الكَذِبَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَأُولَئِكَ هُمُ الكَاذِبُونَ﴾ [النحل: ١٠٥]، وقوله تعالى: ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ﴾ [البقرة: ١٠]، وقوله تعالى: ﴿وَيْلٌ لِّكُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ﴾ [الجاثية: ٧] .

قال رحمه الله: «باب ما جاء في الكذب» ؛ والكذب من آفات اللسان، وكبائر اللسان، ولهذا ساقه رحمه الله تعالى في أبواب كبائر اللسان.

وكما أن الصدق مطابقة القول لما في القلب ، ومطابقته للمخبر عنه، فإذا انخرم أحد هذين الأمرين صار كذباً، إما كذباً من حيث عدم مطابقته لما في القلب ، أو من حيث عدم مطابقته للمخبر عنه. ومن باب التوضيح: لو أن قائلًا قال: «أشهد أن محمداً رسول الله صلى الله عليه وسلم» ؛ قالها بلسانه دون اعتقاد لهذا الأمر في قلبه ، فمن حيث المخبر عنه ؛ محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ومن حيث مطابقة القول لما في القلب كذباً، ولهذا قال الله سبحانه: ﴿إِذَا جَاءَكَ الْمُنَافِقُونَ قَالُوا نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ﴾ [المنافقون: ١] ؛ كاذبون: أي في عدم مطابقة ما قالوه بألسنتهم لما في قلوبهم ، فحقيقة الصدق: مطابقة القول لما في القلب بحيث يتواطأ اللسان والقلب، ومطابقته للمخبر عنه، فإذا انخرم أحد هذين الأمرين لم يكن صدقاً.

والكذب من أوصاف المنافقين ، وهو من علامات النفاق، ومن فروع النفاق، وإذا كان هذا الكذب متعلقاً بالاعتقاد بحيث يُظهر الإيمان ويُبطن الكفر فهذا الكفر الأكبر الناقل من الملة، وإذا كان يُظهر الصدق ويُظهر الوفاء ويظهر الأمانة ويُبطن خلاف ذلك فهذا النفاق العملي ، وهذه الفعال من صفات المنافقين، ومن صفات النفاق وعلاماته. وسيأتي فيما ساقه المؤلف رحمه الله تعالى من أدلة ما يبين هذا المعنى.

أورد أولاً قول سبحانه وتعالى: ﴿إِنَّمَا يَقْتَرِي الكَذِبَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَأُولَئِكَ هُمُ الكَاذِبُونَ﴾ [النحل: ١٠٥] وهذه الآية أوردها رحمه الله تعالى لبيان أن الكذب صفة الكفار، وأن الكذب من فروع

الكفر، كما أن الصدق من فروع الإيمان فإن ضده الكذب من فروع الكفر ومن فروع النفاق. ولا يلزم من قيام شعبة من شعب النفاق في شخص أن يكون منافقًا خالصًا، أو منافقًا النفاق الأكبر، كما أنه أيضًا لا يلزم من قيام شعبة من شعب الإيمان في شخص أن يكون بذلك مؤمنًا. فهذه الآية فيها أن الكذب من فروع الكفر وأعمال الكافرين، قال عز وجل: ﴿إِنَّمَا يَقْتَرِي الكَذِبَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَأُولَئِكَ هُمُ الكَاذِبُونَ﴾ ، وهذا ذكره الله سبحانه وتعالى ردًا على الكفار المشركين عندما افتروا الكذب على الرسول عليه الصلاة والسلام ، وقالوا: إن هذا الوحي وهذا القرآن الذي جاء به ليس من عند الله وإنما بشر علمه إياه، ﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ لِّسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ وَهَذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُبِينٌ﴾ [النحل: ١٠٣] فردّ الله سبحانه تعالى عليهم بقوله: ﴿إِنَّمَا يَقْتَرِي الكَذِبَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَأُولَئِكَ هُمُ الكَاذِبُونَ﴾. فإذا الكذب من صفات النفاق، ومن صفات الكفر، ومن صفات الكافرين.

وأورد أيضًا قول الله عز وجل: ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ﴾ [البقرة: ١٠٠] ؛ وهذه الآية فيها بيان أن الكذب من صفات النفاق وعلامات المنافقين، كما أن الآية التي قبلها في بيان أن الكذب من صفات الكفر وعلامات الكافرين، فهذه الآية فيها أن الكذب من علامات النفاق، قال الله عز وجل: ﴿فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ﴾ ؛ ذكر الله عز وجل ذلك في سياق ذكر أوصاف أهل النفاق. وسيأتي أن الكذب من علامات النفاق وآياته كما في الحديث الذي ساقه المصنف رحمه الله تعالى.

ثم ختم هذه الآيات الكريمات بقول الله عز وجل: ﴿وَيْلٌ لِّكُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ﴾ [الجاثية: ٧] ؛ «ويل» : هذه كلمة تهديد ووعيد، وقيل: إن «ويل» وادي في جهنم.

«لِكُلِّ أَفَّاكٍ»: أي في مقاله ، «أثيم»: أي في فعالة.

﴿وَيْلٌ لِّكُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ﴾ أي في مقاله أفاك ، وفي فعالة أثيم ؛ يفعل الإثم الذي يوجب العقوبة وسخط الله سبحانه وتعالى.

والشاهد هو قوله: ﴿أَفَّاكٍ﴾ ، والأفأك: هو الكذاب المفترى. وأن له العذاب وله الويل والتهديد بالعقوبة من الله سبحانه وتعالى ؛ مما يدل على عظم شناعة الكذب وخطورته على صاحبه.

قال رحمه الله تعالى :

٤٥ - عن ابن مسعود مرفوعاً: ((إِنَّ الصَّدَقَ يَهْدِي إِلَى الْبِرِّ، وَإِنَّ الْبِرَّ يَهْدِي إِلَى الْجَنَّةِ، وَإِنَّ الرَّجُلَ لِيَصْدُقَ وَيَتَحَرَّى الصَّدَقَ حَتَّى يَكْتُبَ عِنْدَ اللَّهِ صَدِيقًا. وَإِنَّ الْكَذِبَ يَهْدِي إِلَى الْفُجُورِ، وَإِنَّ الْفُجُورَ يَهْدِي إِلَى النَّارِ، وَإِنَّ الرَّجُلَ لِيَكْذِبَ وَيَتَحَرَّى الْكَذِبَ حَتَّى يُكْتُبَ عِنْدَ اللَّهِ كَذَابًا)) أخرجه.

هذا الحديث حديث ابن مسعود رضي الله عنه فيه حثٌّ على الصدق وترغيب فيه، وتحذيرٌ من الكذب وبيان لخطورته.

قال عليه صلوات الله وسلامه: ((إِنَّ الصَّدَقَ يَهْدِي إِلَى الْبِرِّ)) ؛ و«البرّ» : هذه الكلمة اسم جامع شامل لأفعال وأمور الخير كلها. وقرأ في ذلك آية البرّ في سورة البقرة: ﴿لَيْسَ الْبِرَّ أَنْ تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قَبْلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَآتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينَ﴾ إلى آخر الآية [البقرة: ١٧٧] ؛ فالبر يشمل الدين عقيدةً وشريعةً. فهي كلمة جامعة، اسم جامع شامل لأُمور الخير كلها.

وهنا يخبر عليه الصلاة والسلام أن ((الصدق يهدي إلى البر)) ، ما معنى ذلك ؟ أي أن الصدق يهدي أي يدل ويرشد صاحبه إلى أعمال الخير كلها وأبواب الخير كلها، فإذا وُفّق العبد إلى الصدق وأوتي قلبًا صادقًا ولسانًا صادقًا فإن هذا يهديه إلى أعمال الخير كلها، وأبواب الخير بأنواعها واختلاف مجالاتها.

قوله: ((إِنَّ الصَّدَقَ يَهْدِي إِلَى الْبِرِّ)) هذا شاهده في آية البرّ المتقدمة: ﴿لَيْسَ الْبِرَّ أَنْ تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قَبْلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَآتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينَ وَأَنْفَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا﴾ ؛ فهذا شاهد لذلك، وأن صدق العبد مع الله، صدقه في لسانه وصدقته في منطقته يهدي إلى كل أبواب الخير عقيدةً وشريعةً.

وقوله: ((وإن البرّ يهدي إلى الجنة)) أيضًا شاهده في القرآن ، في قوله سبحانه وتعالى: ﴿إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ﴾ [الأنفطار: ١٣] . وهذا فيه أن البرّ يهدي إلى النعيم في الدور الثلاثة؛ في الدنيا ، والبرزخ ، ويوم القيامة.

قال: ((وإن الرجل ليصدق ويتحرى الصدق حتى يكتب عند الله صديقًا)) والصدّيق : اسم مبالغة من الصدق، أي كثير الصدق. ولا يصل العبد إلى هذه المنزلة العلية والرتبة الرفيعة إلا بتحرّيه للصدق، ومواظبته عليه،

وعنايته به، ومباعدته عن ضده الكذب ، فإن العبد لا يزال يصدق ويتحرى الصدق؛ أي ويواظب على ذلك ويعتني بذلك ويداوم على ذلك حتى يكتب عند الله تبارك وتعالى صديقًا.

قال: ((وإن الكذب يهدي إلى الفجور)) ؛ هذا فيه التحذير من الكذب وبيان خطورته.

((يهدي إلى الفجور)) أي يدل ويرشد ويفضي بصاحبه إلى الفجور. و«الفجور» هنا كلمة جامعة للشر كله، كما أن «البر» - كما تقدم - كلمة جامعة للخير كله فالفجور كلمة جامعة للشر كله، فمعنى ذلك: أن الكذب يهدي صاحبه بمعنى يفضي به ويدلّه إلى كل شر.

((وإن الفجور يهدي إلى النار)) وهذا أيضًا شاهده في القرآن: ﴿وَإِنَّ الْفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٍ﴾ [الانفطار: ١٤] ،

ومعنى ﴿لَفِي جَحِيمٍ﴾ أي في دورهم الثلاثة؛ في الدنيا ، والبرزخ ، ويوم القيامة.

((وإنّ الرجل ليكذب ويتحرى الكذب حتى يُكتب عند الله كذابًا)) ؛ وساءت حالاً -والعياذ بالله- أن يُكتب هذا العبد عند ربّه ومولاه كذابًا، نسأل الله العافية، يكذب ويكذب ويتحرى الكذب ويتعامل مع الناس بالكذب ولا يزال ... ثم النتيجة والعياذ بالله يُكتب عند ربّ العالمين كذابًا، ألا ساءت منزلة والعياذ بالله! ولهذا ينبغي على العبد أن يتقي الله عزّ وجلّ ويتجنب الكذب ويحذر من الكذب ويتعد عن الكذب حتى يسلم من أولاً هداية الكذب له إلى الفجور ، ثم إلى النار والعياذ بالله، ثم أن يُكتب بسبب تحريه للكذب ومداومته عليه يكتب عند الله سبحانه وتعالى كذابًا، حتى قال بعض العلماء: إن قوله: «يُكتب عند الله كذابًا» أن هذا يعني عدم توفيقه للتوبة، بمعنى أنه تأصل فيه الشرّ وأصبح هذا الكذب المتراكم عنده لا يهديه إلا إلى الفجور، أغلقت عليه أبواب الخير بسبب هذه التراكمات من الكذب التي أصبح يواظب عليها ويتحراها إلى أن بلغ هذا المبلغ، كُتب عند الله -والعياذ بالله- كذابًا.

قال النووي رحمه الله تعالى في شرحه لهذا الحديث: «قال العلماء: في هذا الحديث حثٌ على تحري الصدق، وهو قصده والاعتناء به، وعلى التحذير من الكذب والتساهل فيه، فإنه إذا تساهل فيه كثر منه فيُعرف به».

قال رحمه الله تعالى :

٤٦ - وفي الموطأ عنه رضي الله عنه : ((لا يزال الرجل يكذب ويتحرى الكذب، فيُنكت في قلبه نكتة سوداء حتى يسودَّ قلبه فيُكتب عند الله من الكاذبين)).

قال: «وفي الموطأ عنه» أي ابن مسعود رضي الله عنه «موقوفًا» وليس مرفوعًا إلى النبي عليه الصلاة والسلام وإنما موقوفًا على ابن مسعود رضي الله عنه.

قال: ((لا يزال الرجل يكذب ويتحرى الكذب)) يتحرى الكذب: أي يقصده ، يعتني به، يواظب عليه، صار الكذب ديدناً له.

((فإنك في قلبه نكتة سوداء)) ؛ النكتة: الأثر الصغير من أي لون . عندما مثلاً يكون عندنا ورقة بيضاء، فيوضع عليها لون أزرق أو أسود أو أخضر يقال عن هذه القطعة الصغيرة من اللون: هذه نكتة، مثلاً يقال: هذه نكتة حمراء، وهذه نكتة سوداء، وهذه نكتة خضراء، وهكذا، فالنكتة : الأثر الصغير من أي لون.

قال هنا: ((نكتة سوداء)) ، والله عز وجل ذكر هذا اللون وصفاً للكفار يوم القيامة: ﴿يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ﴾ [آل عمران: ١٠٦] تبيض وجوه أهل الإيمان. فالنكتة ليست من أي لون، وإنما من اللون الأسود.

قال: ((حتى يسود قلبه)) أي أن هذه النكتة مع تكرر الكذب تستوعب القلب، كلما كذب نُكت نكتة أخرى ونكتة ثالثة وأخرى حتى يستوعب هذا اللون القلب كله، والله سبحانه وتعالى يقول: ﴿كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ [الطافين: ١٤] ، «ران»: أي غطى على قلوبهم واستوعب قلوبهم ما كانوا يكسبون. قال: ((حتى يسود قلبه فيكتب عند الله من الكاذبين)) .

قال رحمه الله تعالى :

٤٧ - وفيه عن صفوان بن سليم؛ قيل لرسول الله : «أَيُّكُونُ الْمُؤْمِنُ جَبَانًا؟» قال: ((نعم)). قيل : «أَيُّكُونُ الْمُؤْمِنُ بَخِيلًا؟» قال: ((نعم)). قيل : «أَيُّكُونُ الْمُؤْمِنُ كَذَّابًا؟» قال: ((لا)).

«وفيه» أي الموطأ «عن صفوان بن سليم» وصفوان بن سليم تابعي؛ فالحديث مرسل، وأيضاً في سنده مقال. قال: ((قيل لرسول الله صلى الله عليه وسلم: أَيُّكُونُ الْمُؤْمِنُ جَبَانًا؟)) يعني هل هذه الصفة ممكن أن تكون موجودة في المؤمن؟ ((قال: نعم)) ، والجبن ناشئ عن شيء من الضعف في القلب ، وفي الدعاء المأثور: «اللهم إني أعوذ بك من الجبن ومن البخل».

((قيل: أَيُّكُونُ الْمُؤْمِنُ بَخِيلًا؟ قال: نعم)) والنبي صلى الله عليه وسلم في الدعوة المتقدمة تعوذ من هذين الأمرين «اللهم إني أعوذ بك من الجبن ومن البخل».

((قيل أَيُّكُونُ الْمُؤْمِنُ كَذَّابًا؟ قال: لا)) و«كذاباً»: صيغة مبالغة، ومعنى «كذاباً»: أي كثير الكذب؛ قد تقع منه الكذبة والكذبتين. أما أن يكون مواظب على الكذب كثير الكذب، كما يدل عليه هذا الوصف «كذاباً» ((قال: لا)) . والمراد بالنفي للإيمان هنا نفي لكمال الإيمان الواجب، لأن الكذب والمواظبة عليه وتحريه وألا يزال

العبد يكذب ويكذب وديدنه الكذب هذا من الكبائر التي تُحلّ بكمال الإيمان الواجب، مما يعرّض صاحبه للعقوبة.

قال رحمه الله تعالى :

٤٨ - وللترمذي وحسنه عن ابن عمر رضي الله عنهما : «إذا كذب العبد تباعد عنه الملك ميلاً».

قال: «وللترمذي وحسنه عن ابن عمر» مرفوعاً : «إذا كذب العبد تباعد عنه الملك ميلاً من نُتْن ما جاء به» كما في الأصل في سنن الترمذي أو جامع الترمذي ((من نُتْن ما جاء به)) ؛ وهذا فيه أن الكذب نُتْن، والنُتْن: هو الرائحة الكريهة الخبيثة.

قال: ((تباعد عنه الملك ميلاً)) أي مسافة، لأن الكذب له رائحة منتنة، فيبتعد الملك عنه لقبح رائحته. وإسناده فيه كلام ، فيه رجل ضعيف يقال له: عبد الرحيم بن هارون.

قال رحمه الله تعالى :

باب ما جاء في إخلاف الوعد

وقول الله تعالى: ﴿فَاعْتَبِهِمْ نَفَاقًا فِي قُلُوبِهِمْ إِلَى يَوْمِ يَلْقَوْنَهُ بِمَا أَخْلَفُوا اللَّهَ مَا وَعَدُوهُ﴾ الآية [التوبة: ٧٧] .

قال: «باب ما جاء في إخلاف الوعد» ؛ الوعد : هو أمر يتعلق بالمستقبل، يقول الإنسان: سأفعل كذا، وسأقوم بكذا، وسأؤدي كذا في أمور مستقبلية، فهذا عهدٌ يجب الوفاء به، والوفاء به من صفات أهل الإيمان، وعدم الوفاء من صفات أهل النفاق.

قال الله عز وجل: ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ عَاهَدَ اللَّهَ لَئِنْ آتَانَا مِنْ فَضْلِهِ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونُ مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ [التوبة: ٧٥] ؛ فهذا ذكره الله سبحانه وتعالى في أوصاف المنافقين، وأن هؤلاء عندما آتاهم الله ومنّ عليهم من فضله لم يفوا بهذا الوعد، فماذا قال؟ ﴿فَاعْتَبِهِمْ نَفَاقًا فِي قُلُوبِهِمْ﴾ ؛ أعقبهم : أي أخلفهم بسبب إخلافهم للوعد وعدم وفائهم به، أخلفهم ﴿نَفَاقًا فِي قُلُوبِهِمْ إِلَى يَوْمِ يَلْقَوْنَهُ بِمَا أَخْلَفُوا اللَّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ﴾ .

وهنا لاحظ ملاحظة مهمة جداً : أن إخلاف العبد ما وعدَ ربه سبحانه وتعالى على فعله خطيئاً جداً؛ لأنه قد يُخلف نفاقاً، عندما يعاهد ربّه "لأفعلن كذا، لأقومن بكذا"، ثم إذا تفضل الله عليه ومنّ أخلف ! هذا خطير على الإنسان قد يخلف نفاقاً، لأن هؤلاء أعقبهم عدم وفائهم للعهد الذي عاهدوا الله سبحانه وتعالى عليه عاقبهم الله عز وجل بنفاق مستمر دائم إلى يوم القيامة، ﴿إِلَى يَوْمٍ يَلْقَوْنَهُ﴾ ؛ فهذا يدل على خطورة ذلك . ولهذا يجب على المسلم أن يحذر أشدّ الحذر من هذا الوصف الشنيع ؛ أن يعاهد ربّه سبحانه وتعالى على أنه إن منّ الله عليه بكذا وأعطاه كذا ليفعلن كذا وليفعلن كذا ، ليحذر من إخلاف هذا الوعد وعدم الوفاء بهذا العهد ؛ فإنه ربما عاقبه سبحانه تعالى بالنفاق كما عاقب سبحانه وتعالى هؤلاء بالنفاق الدائم إلى يوم القيامة.

الشاهد : أن هذه الآية فيها تحذيرٌ شديد من إخلاف الوعد، وأن إخلاف الوعد من صفات المنافقين وعلاماتهم، وذكره الله سبحانه وتعالى في جملة أوصاف المنافقين في السورة التي تُعرف بـ «الفاضة»، لأن الله فضح فيها المنافقين، وذكر من جملة أوصاف أهل النفاق أنهم إذا وعدوا أو عاهدوا الله على أمر أخلفوه ولم يفوا بما عاهدوا الله سبحانه وتعالى عليه، وأنّ الله عاقبهم على ذلك بنفاق دائم مستمر إلى يوم يلقونه.

قال رحمه الله تعالى :

٤٩ - عن أبي هريرة رضي الله عنه أنّ رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: ((آية المنافق ثلاث: إذا حدّث كذب، وإذا وعد أخلف، وإذا أؤتمن خان)) أخرجاه.

قال: عن أبي هريرة رضي الله عنه أنّ رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: ((آية المنافق ثلاث)) و«الآية»: هي العلامة، «آية المنافق»: أي علامة المنافق. وهذا فيه أن هذه الثلاث المذكورات من صفات المنافقين وعلامات أهل النفاق. وفي هذا أيضاً دلالة أن هذه الخصال من شعب النفاق، وأضدادها من شعب الإيمان.

قال: ((إذا حدّث كذب)) أي أن من ديدنه الكذب، كلما حدّث يكذب، مثل ما تقدم يكذب ويتحرى الكذب. فمن علامات النفاق الكذب والتحري للكذب والمواظبة عليه.

((وإذا وعد أخلف)) ومّر معنا ذكر الله سبحانه وتعالى إخلاف الوعد صفةً من صفات أهل النفاق.

((وإذا أؤتمن خان)) أي إذا ائتمنه أحدٌ على مال أو على متاع أو على شيء من هذه الأمور خان الأمانة، بجحدها وعدم ردّها مثلاً إلى صاحبها.

فهذه الأمور الثلاثة تُعد أوصافاً للمنافقين وعلاماتٍ على النفاق. والنفاق نوعان: نفاقٌ اعتقادي ، ونفاقٌ عملي.

وأما تعريف النفاق من حيث هو: هو عدم توافق الباطن مع الظاهر . اختلاف بين الظاهر والباطن، هذا هو النفاق، يعني أن يظهر من الإنسان شيء ويكون في الباطن شيء آخر . هذا هو النفاق : يُظهر شيئاً ويبطن آخر. فإذا كان يُظهر الإيمان ويُبطن الكفر.

﴿فَالنِّفَاقُ هُنَا اعتقادي وهو ناقل من الملة، قال الله عز وجل: ﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرَكِ الْأَسْفَلِ مِنَ

النَّارِ﴾ [النساء: ١٤٥] .

﴿لكن إذا كان يُظهر الصدق في الحديث ويُبطن الكذب، يُظهر الوفاء بالأمانة ويُبطن عدم الوفاء، يُظهر الوفاء بالوعد ويُبطن خلاف ذلك، هذه الآن الإظهار والإبطان متعلق بأمور عملية.

فالنفاق نفاقان:

١. نفاق أكبر ناقل من الملة .

٢. ونفاق أصغر ؛ وهو النفاق العملي، وليس ناقلاً من الملة لكنه من الكبائر والذنوب العظيمة.

قال رحمه الله تعالى :

٥٠ - ولهما عن ابن عمر مرفوعاً: ((أربع من كن فيه كان منافقاً خالصاً، ومن كان فيه خصلة منهن كان فيه خصلة من النفاق حتى يدعها: إذا أؤتمن خان، وإذا حدث كذب، وإذا عاهد غدر، وإذا خاصم فجر)) .

قال رحمه الله : «ولهما» أي البخاري ومسلم عن ابن عمر مرفوعاً: ((أربع من كن فيه كان منافقاً خالصاً، ومن كان فيه خصلة منهن كان فيه خصلة من النفاق حتى يدعها)) هذا يدل على خطورة هذه الشعب، وأنها من شعب النفاق، وأنها لا تكاد تجتمع في العبد كاملة مواظباً عليها إلا عن فسادٍ في قلبه.

قال : ((من كن فيه كان منافقاً خالصاً، ومن كان فيه خصلة منهن كان فيه خصلة من النفاق)) لماذا ؟ لأن هذه الأعمال من شعب النفاق، وهذه الأعمال نفاقٌ عملي، والنفاق العملي إذا واطب عليه الإنسان خطر، قد يفضي به إلى النفاق الأكبر والعياذ بالله. وإذا كان العلماء قالوا في المعاصي: إنها بريد الكفر، فإن أيضاً هذه الشعب من شعب النفاق العملي بريد للنفاق الأكبر ، بمعنى أنه تفضي بالإنسان إليه.

قال: ((إذا أؤتمن خان، وإذا حدث كذب، وإذا عاهد غدر، وإذا خاصم فجر)) وإذا ضمنت إليها ما جاء في الحديث الذي قبله: ((وإذا وعد أخلف)) فيكون مجموع الحديثين تحصيل منهن خمس علامات من علامات المنافقين، أربعة في هذا الحديث، ويضم إليها خامسة من الحديث الذي قبله وهي إخلاف الوعد.

ومعنى قوله في هذا الحديث: ((وإذا خاصم فجر)) أي إذا كان بينه وبين شخص خصومة ومنازعة فجر في الخصومة، أي مال عن الحق وأظهر خلاف الحق، يدّعي مثلاً المال أنه له، وهو في قرارة باطنه يعرف أنه ليس له، هذا نفاق ، من أوصاف المنافقين: «إذا خاصم فجر».

قال رحمه الله تعالى :

باب ما جاء في «زعموا»

وقول الله تعالى: ﴿إِذْ تَلَقَّوْنَهُ بِأَلْسِنَتِكُمْ وَقُولُونَ بَأْفَوَاهِكُمْ﴾ الآية [النور: ١٥] ، وقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَأٍ فَسَبِّتُوا﴾ الآية [الحجرات: ٦] .

قال رحمه الله تعالى: «باب ما جاء في زعموا» ؛ «زعموا» هذه مطية الكذب، وإذا أدخل هذه الكلمة الإنسان في لسانه ربما أفضت به إلى الكذب. و«زعموا»: يراد بها أن الإنسان صار من ديدنه نقل الكلام دون تحري ودون تثبت، ما يسمعه بأذنه ينقله إلى الآخرين بفمه دون أن يتحرى دون أن يمحّص، مع أن الأصل أن العبد لا يتكلم إلا بما تحقق منه، أما مجرد أن يكون فقط سمعه ويكون ديدنه دائماً "قليل وزعموا ويقال" فهذا لا يجوز ، وقد مر معنا: ((وكره لكم: قيل وقال، وكثرة السؤال، وإضاعة المال)) ؛ فهذا مما ينبغي أن يحذر منه العبد، ولا يجوز له مجرد أن يسمع كلاماً ينقله للآخرين . تجد بعض الناس هذا همه، إذا لقيك قال: والله سمعت كذا، ويقال كذا، وسمعت كذا، وسمعت كذا، وينقل وينقل، بعض الناس يصبح مثل المذيع، ينقل ولا يتحرى ولا يمحّص، علي بن أبي طالب لما ذكر أوصاف أهل الحق قال: «لا تكونوا مذاييع بُذراً» لما حذر من الفتن قال: «لا تكونوا مذاييع» لأنه وخاصة في الفتن يكثر عند الناس إذاعة الأخبار ونشر الأخبار، وسمعا وقيل وقالوا إلى آخره دون أن يتحرى ، ثم بعد تمحص الأمور يتبين له أن عنده قائمة من النقول التي نقلها كلها غير صحيحة، لكنه نقلها، انتهت، نقلها وسمعا الآخرون منه، والآخرون نقلوها، ودخلت في جملة عمله الذي سيحاسبه الله سبحانه وتعالى عليه يوم القيامة ، ولهذا ينبغي على الإنسان أن يكون على حذر. وكثيراً ما يكون في الفتن إذاعة الأخبار ونقلها دون تمحيص، والله سمعا اليوم إنه حصل كذا، وسمعا أن فلاناً فعل كذا، كذا وسمعا أن الشعب الفلاني فعلوا كذا، وسمعا وسمعا.. ثم يأتي بعد أسبوع أو بعد أسبوعين ويتأمل فيما نقله للناس، "سمعا وقيل وزعموا" ، يجد أن عنده قائمة من الأخبار الكاذبة ساهم في نقلها ونشرها في الناس. وإذا كان من أهل الأجهزة الحديثة ويرسل للآخرين فإن الأمر أخطر، لأن هذه الأجهزة أحياناً توصل إلى ملايين البشر. فيجب على الإنسان أن يحذر من ذلك وأن يكون عنده تمحيص للأخبار وتحقق من صحتها وتثبت قبل نقلها، لا أن ينقل مباشرة دون تمحيص.

أورد رحمه الله آيتين عظيمتين في هذا الباب:

الأولى: قول الله عز وجل: ﴿إِذْ تَلَقَّوْنَهُ بِأَلْسِنَتِكُمْ وَقُولُونَ بَأْفَوَاهِكُمْ﴾ [النور: ١٥] ؛ ﴿تَلَقَّوْنَهُ﴾ أي خبر الإفك، وما رُميت به أم المؤمنين عائشة إفكًا وافتراءً وظلمًا. ﴿إِذْ تَلَقَّوْنَهُ﴾ أي تتلقفونه وتستمعون إليه ثم تذيعونه وتنشرونه وتشيعونه دون أن تتحرّوا وتتأكدوا من صحة ذلك وثبوته.

قال : ﴿إِذْ تَلَقَّوْنَهُ بِأَلْسِنَتِكُمْ وَقُولُونَ بَأْفَوَاهِكُمْ مَا لَيْسَ لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ﴾ ؛ لاحظ الآن وقعوا في أمرين، وقعوا في خطأين:

■ الأول: ما ذكره الله عنهم بقوله: ﴿إِذْ تَلَقَّوْنَهُ بِأَلْسِنَتِكُمْ﴾ تتلقفونه بألسنتكم وتنقلوه، وهذا فيه التكلم بالباطل.

■ ﴿وَقُولُونَ بَأْفَوَاهِكُمْ مَا لَيْسَ لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ﴾ هذا فيه القول بلا علم.

فجمعوا بين تكلمٍ بباطل وقولٍ بلا علم ؛ فالشيء الذي تكلموا به باطل، وكلامهم كان بدون علم، ولو كان الإنسان يتحرى ويمحص ويتأكد ثم بعد ذلك إذا تحقق نقل لسلم من ذلك.

﴿إِذْ تَلَقَّوْنَهُ بِأَلْسِنَتِكُمْ وَقُولُونَ بَأْفَوَاهِكُمْ مَا لَيْسَ لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ وَتَحْسَبُونَهُ هَيئًا﴾ لا والله ليس هيئًا، هذه الأمور ليست هيئة، هذه ذمم وأعراض وكلام في الناس واستطالة على أعراضهم، أمر ليس بهين، وعرض الإنسان وشرفه ومكانته أعلى عنده من ماله، وإنَّ كما جاء في الحديث: ((أرْبَى الرِّبَا اسْتَطَالَةَ الْمَرْءِ فِي عَرْضِ أَخِيهِ الْمُسْلِمِ)) ، لأن عرض الإنسان أعلى عنده من ماله، بل بعض الناس يمكن يضحى بماله في سبيل حفظ سمعته وعرضه أن يلاك أو يقال فيه ما هو بريء منه.

فإذاً هذه الأمور خطيرة جدًا، ولا يجوز للإنسان مجرد أن يسمع، "والله سمعنا فلان يقولون عنه ويقال عنه أنه يفعل كذا ويمارس كذا" ، ما يجوز نقل هذه الأخبار، إذا لم يتأكد الإنسان ويتحقق لا يجوز له أن ينقل الأخبار، ويساهم في إشاعة الأخبار الكاذبة الآثمة التي فيها الطعن في الناس والوقعة في أعراضهم بدون أن يكون تحقق من هذه الأخبار فيبوء بإثم الكاذبين، قال: ﴿وَهُوَ عِنْدَ اللَّهِ عَظِيمٌ﴾.

قال: وقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنِ جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَأٍ فَسَبِّحُوا﴾ أي تثبتوا. لماذا؟ ﴿أَنْ تُصِيبُوا قَوْمًا بِجَهَالَةٍ فَتُصْبِحُوا عَلَىٰ مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ﴾ ؛ كم تتكرر هذه في حياة كثير من الناس! يصيب بعض إخوانه بجهالة، مجرد أنه سمع أو نقل له ولم يتحقق، ثم يساهم في الكلام في أخيه المسلم وهو لم يتثبت ولم يتحقق، ثم بعد ذلك ربما أحيانًا بشهور أو بسنوات يتبين أن الأمر غير صحيح، ويندم، يقول: والله إني ظلمته وأسأت إليه وقلت

عنه كذا وكذا، وأنا لم أتأكد ولم أتحرّر، ﴿فَتُصَبِّحُوا عَلَى مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ﴾. فالواجب على العبد أن يكون حذرًا من هذه المطية، مطية الكذب «زعموا، سمعنا، يقال، بلغنا» ويكون لم يتحرّر ولم يمحص ولم يتأكد.

قال رحمه الله تعالى :

٥١ - عن أبي مسعود وحذيفة رضي الله عنهما مرفوعًا: ((بئس مطية الرجل زعموا)) رواه أبو داود بسند صحيح.

قال: عن أبي مسعود أو حذيفة رضي الله عنهما مرفوعًا أي إلى النبي عليه الصلاة والسلام ((بئس مطية الرجل زعموا)) ؛ المطية : هي التي يُركب، المركوب الذي يُتوصل من خلاله إلى الغاية والمقصد الذي يريده الإنسان. قال : ((بئس مطية الرجل زعموا)) أي ألا ساء عادةً وطريقةً للإنسان أن يجعل «زعموا» مركوبًا له، يمتطي هذا المركوب ويصبح في مجتمعه نقلاً للأخبار لا يمحص ولا يتأكد، لكنه في قراءة نفسه يريد أن يكسب شيئاً في المجتمع، أتدرون ما هو ؟ يقولون: فلان سريع في نقل الأخبار، أخباره سريعة. هذا الذي أخباره سريعة يدل على أنه ما يمحص، مجرد ما يسمع بالخبر ينقله مباشرة ويذيعه مباشرة، فالسرعة في نقل الأخبار ليست محمودة، المحمودة والحق هو التحري ، يطمئن ، أما إنسان سريع في نقل الأخبار معنى هذا أنه لا يتحرى، مجرد ما يسمع طارفة الخبر ينقله للناس بدون تحري وبدون تمحيص. فبعض الناس يتوهم ويظن أن هذه محمودة، وهذه منقصة للإنسان وخطيرة جدًا.

قال: ((بئس مطية الرجل زعموا)) أي ساء عادةً وقُبِحت صفة في الإنسان أن تكون عاداته اتخاذ «زعموا» مطية له. ليس لازماً أن تكون هذه اللفظة بذاتها «زعموا كذا» لا، يقول: "سمعنا، بلغنا" ، وبعضهم ربما يضيف لها كلمة نوع من الورع لكنها تسقط مع الناقلين الآخرين، يقول: "والله سمعنا وما تحققنا"، والآخرين يأخذونها منه ويحذفون "ما تحققنا" وتصبح شائعة كاذبة في المجتمع، ويكون هذا الأول هو الذي... ، إذا لم تتحقق لا تنقل أصلاً، أنت قد تجعل فيها "ما تحققنا" والآخر ينقلها بحذف "ما تحققنا" ، سيقول الآخر: "سمعت فلاناً يقول كذا"، يحذف قولك أنت: "ما تحققنا"، والشائعات هكذا تنتشر، وفي الغالب يزيد الناس في الشائعة حتى تصل في نهاية الأمر إلى خبر لا علاقة له بالواقعة إطلاقاً لا من قريب ولا .. ، لكن بيوء بالإثم هؤلاء النقلة الذين لا يمحصون ولا يتحرّون.

قال رحمه الله تعالى :

٥٢ - ولمسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه مرفوعاً: ((كفى بالمرء كذباً أن يحدث بكل ما سمع)).

قال عليه الصلاة والسلام: ((كفى بالمرء كذباً أن يحدث بكل ما سمع)) أي : أنّ الإنسان لو لم يكن فيه إلا أنه كل ما سمعه ينقله، يحدث بكل ما سمع، ما معنى ذلك ؟ معنى ذلك أن أذنه ما يدخل فيها من أخبار يخرج من فمه مباشرة ، كل الأخبار التي تدخل مع الأذن تخرج من الفم مباشرة، ما عنده عقل ولا عنده تمحيص ولا عنده أي شيء من هذا، مجرد أنه دخلت الكلمة مع الأذن لابد أن تخرج مع الفم، ولا بد أن ينقلها، معنى ذلك أن ما عنده عقل، ولا عنده تمحيص، ولا عنده تحري ولا عنده أبداً شيء من هذا، فالواجب على الإنسان أن يمتحّن الأمور وأن يتحقق، وكما أنه لا يرضى هو فيما يتعلق بشخصه أن تُنقل عنه أخبار دون أن يُتأكد منها فليعامل الناس بالمعاملة التي يجب أن يُعامل بها، وليأت إلى الناس الشيء الذي يجب أن يؤتى إليه.

قال رحمه الله تعالى :

باب ما جاء في الكذب والمزح ونحوه

وقول الله تعالى: ﴿قَالُوا اتَّخَذْنَا مُزَاحًا﴾ الآية [البقرة: ٩٧] .

قال: «باب ما جاء في الكذب والمزح ونحوه» ؛ المراد بهذه الترجمة أن يكون الإنسان اتخذ من الكذب وسيلة للمزح وإضحاك الناس وبسطهم، فيكذب من أجل أن يُضحك الناس، وقد جاء في الحديث الصحيح في المسند للإمام أحمد وغيره عن النبي عليه الصلاة والسلام أنه قال: ((وَيْلٌ لِلَّذِي يُحَدِّثُ الْقَوْمَ ثُمَّ يَكْذِبُ لِيُضْحِكَهُمْ ؛ وَيْلٌ لَهُ وَوَيْلٌ لَهُ)) ، فيكون يجب المزاح ويجب اللعب ويجب إضحاك الناس فيدخل في حديثه أشياء من الكذب لا لشيء إلا ليضحك الناس، فيقول عليه الصلاة والسلام: ((ويل له ثم ويل له)) أي لمن كان ذلك.

والمؤمن من شأنه الترفع عن هذه الأوصاف والبعد عن هذه الخصال الذميمة، فهو لا يتكلم بالكلام إلا الذي فيه فائدة ومنفعة وفيه خير، أما الكلام الذي هو عبارة عن استهزاء أو سخرية أو كذب على الناس فلا يدخل في شيء منه، مع أن كثير من الناس يدخل في هذه الأشياء من أجل الضحك وإضحاك الآخرين ، يستهزئ بشخص أو يسخر بآخر أو يكذب على شخص أو نحو ذلك من أجل أن الحاضرين عنده يضحكون، وإذا ضحكوا انتهى المقصود الذي أراده، وباء بالإثم والعياذ بالله.

أورد أولاً قول الله عز وجل: ﴿قَالُوا اتَّخَذْنَا هُزُؤًا﴾ ؛ وهذا جاء في سياق، لما كان من بني إسرائيل شخص قتل وأردوا أن يُعرف من هو، ونزل: ﴿اضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا﴾ سألوا موسى عليه السلام: ماذا يذبحون؟ فقال لهم : ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَذْبَحُوا بَقَرَةً﴾ جاءه وحي من الله بذلك، فقالوا: ﴿اتَّخَذْنَا هُزُؤًا﴾ ، هو أخبرهم بوحي الله عز وجل وما أنزل الله عليه وهو أمرٌ من خلاله بإذن الله يظهر هذا الأمر ، ﴿قَالُوا اتَّخَذْنَا هُزُؤًا قَالَ أَعُوذُ بِاللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾ . الشاهد من ذلك للترجمة : أن من أوصاف الجاهلين وخصالهم الذميمة أن يكون الإنسان ديدنه الهزء واللعب ويتكلم بالكلام الذي لا فائدة فيه ولا خير ، اللهم إلا أنه يريد أن يُضحك الناس إلى غير ذلك، فهذا من الأوصاف الذميمة وهو من أوصاف الجاهلين، أما أهل الحق وأهل الهدى وأهل العلم لا يتكلمون بالكلام الذي لا فائدة من ورائه، ولا يخوضون في أمور الاستهزاء وأمور السخرية وغير ذلك من الأمور.

قال رحمه الله تعالى :

٥٣ - عن أم كلثوم بنت عقبة رضي الله عنها مرفوعاً: ((ليس الكذاب الذي يصلح بين الناس فيقول خيراً أو ينمي خيراً)) أخرجاه.

قال عليه الصلاة والسلام: ((ليس الكذاب)) أي الذي يستحق العقوبة ويؤثم الكذب ((الذي يصلح بين الناس)) ؛ فما كان من هذا القبيل لا يكون كذاباً يستحق الإنسان عليه العقوبة.

قيل: إن المراد بالكذب هنا الكذب الصريح، وأنه لا شيء على الإنسان فيه إذا كان في باب الإصلاح. وقيل: إنه هو التورية ؛ وما من شك أن التورية هي التي تنبغي وفيها مندوحة للعبد عن الكذب حتى في باب الإصلاح. لكن مثلاً شخص يريد أن يصلح بين متخاصمين، وقال لأحدهما: أنا كنت عند فلان وسمعتة يثني عليك، وهو لما كان عند فلان لم يسمعه يمدحه ويذكره بالأوصاف الجميلة، وإنما سمع ذمًا له، يقول: فعل كذا وفعل كذا يذمه، فقال: سمعتة يثني عليك، كلمة «يثني عليك» في لغة العرب تشمل الثناء على الشخص بالخير والثناء بالشر، وهو قال: «يثني عليك» أوهمه أنه يثني عليه أي يمدحه، من باب الإصلاح، و"يدعو لك" لأن الشخص الذي ينقل عنه يصلي ويقول في صلاته: «السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين» وهذا يشمل هذه الدعوة، فقال: "ويدعو لك" يقصد أنه في جملة دعائه للمسلمين يشملك دعاءه، يقصد بذلك الإصلاح وتخفيف وطأة الخلاف وشدة الخصومة التي بينهم. فيقول عليه الصلاة والسلام: ((ليس الكذاب الذي يصلح بين الناس

فيقول خيراً أو ينمي)) أي ينقل ويبلغ ((خيراً)) من أجل أن تحف وطأة وحدة الخصومة والشحناء بين المتخاصمين، فهذا من المصلحين، والله يقول: ﴿لَا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِنْ نَجْوَاهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَاحٍ بَيْنَ النَّاسِ﴾ [النساء: ١١٤] .

قال رحمه الله تعالى :

٥٤ - ولمسلم قالت: «ولم أسمع يرخص في شيء مما يقول الناس إنه كذب إلا في ثلاث: في الحرب، والإصلاح بين الناس، وحديث الرجل امرأته، وحديث المرأة زوجها».

قال: ولمسلم «قالت» يعني أم كلثوم رضي الله عنها «ولم أسمع» أي رسول الله صلى الله عليه وسلم «يرخص في شيء مما يقول الناس» أي من أمور الكذب ما يقال إنه كذب «إلا في ثلاث: في الحرب، والإصلاح بين الناس، وحديث الرجل امرأته، وحديث المرأة زوجها» ؛ فهذه الأمور رُخص فيها، ولا شك أن التورية هي الأولى في مثل هذه المقامات، ويحرص الإنسان تجنب الكذب حتى في ذلك ويوري، وفي التورية مندوحة عن الكذب، لكن إذا اضطر في أمر فيه صلح وفي مصلحة وفيه درء شرور وظلم ونحو ذلك فإن ذلك يدخل في قوله: ((إلا في ثلاث: في الحرب، والإصلاح بين الناس، وحديث الرجل امرأته، وحديث المرأة زوجها)).

«وحديث الرجل امرأته» أي مما ينمي العشرة ودوام الألفة والمحبة والتعاون، يعني لو قُدِّر أن رجلاً ليس في قلبه ميل لزوجته، ليس في قلبه محبة قوية لزوجته، لكنه يحلف لها أنه يحبها من أجل أن ينمي بينهم الحياة وتنشئة الأولاد ؛ هذا خير له من أن يصارحها بما في قلبه، إذا صارحها بما في قلبه أفسد كل شيء، وتعطلت جميع الأمور، ولا مصلحة في ذلك، لكن إذا قال لها: والله إني أحبك مثلاً، وهو يقصد بذلك محبة المسلمين، وأنها امرأة مسلمة، لكن ليس في قلبه ميل لها، استبقاءً للحياة وتحريكاً للعواطف والمشاعر وتحقيق المصالح لا شك أن هذا هو خير للإنسان وأدعى لدوام العشرة واستمرار الألفة بين الزوجين، هذه المعاني التي تنمي المحبة جاء في الشرع ما يقرّ ذلك.

قال رحمه الله تعالى :

٥٥ - وعن عبد الله بن عامر رضي الله عنه قال: دعيتني أُمي يوماً ورسول الله صلى الله عليه وسلم جالس في بيتنا فقالت: «ها تعال أعطك». فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ((أما إنك لو لم تعطيه لكتبت عليك كذبة)) رواه أحمد وأبو داود.

قال: عن عبد الله بن عامر رضي الله عنه قال: «دعني أُمي يومًا ورسول الله صلى الله عليه وسلم جالس في بيتنا. فقالت: ها تعال أعطك» ؛ «ها»: كلمة استدعاء وتنبيه. تقول له وهو صغير : «ها تعال أعطيك» ، وهذه كثيرًا ما تقال للصغار، وبعضهم إذا أراد أن يداعب صغيرًا أغلق يده هكذا يوهمه أن يده فيها حلوى أو هدية أو شيء، وقال: "تعال خذ"، خذ الذي في يدي، ويأتي الصغير يركض يظن فيها حلوى، فيمسكه وتكون اليد خالية. هذه تُكتب كذبة من جهة، ومن جهة أخرى خطيرة جدًّا، لأن هذه هي التي تغيّر فطرة الطفل، لأن الطفل ينشأ عن فطرة، ومن الفطرة الصدق، هذه الفطرة مما يغيرها مثل هذه الأعمال ، فيكون أراد فقط أن يداعب الطفل ويمسك به، ولكن في حقيقة الأمر غرس فيه مثلاً الكذب، ونشأه على الكذب.

فماذا قال النبي صلى الله عليه وسلم ؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم الناصح الأمين صلوات الله وسلامه عليه ((وما أردت أن تعطيه؟)) ما الشيء الذي كنتِ أردت أن تعطيه ؟ قالت: «أعطيه قرًا»، أردت أن أعطيه تمرا ، ما قلت له تعال إلا وأردت أن أعطيه شيئًا . فقال لها رسول الله صلى الله عليه وسلم: ((أما إنك لو لم تعطيه لُكُتبت عليك كذبة)) تكتب عليها كذبة! مع أنها ما أرادت إلا مداعبة الطفل ، ومثل هذه الأمور تكتب كذبة.

ولهذا يجب على الإنسان أن يحذر من ذلك حتى مع بهيمة الأنعام، يعني بعضهم يمسك مثلاً في ثوبه ويوهم البهيمة أن فيه طعام، أو يأتي بعلبة فاضية ويريدها أن تقترب ويوهم أن فيها طعامًا. ومما يُنقل عن أحد طلاب العلم في القديم في دراسة الحديث وتتبع رواية الحديث، لما وصل إلى مكان العالم الذي أراده فرآه ينادي دابة وليس في الوعاء الذي معه شيء، فتركه. فالشاهد أن مثل هذه الأمور يجب على الإنسان أن يتعد عنها لأنها تُكتب عليه. قال: ((أما إنك لو لم تعطيه لُكُتبت عليك كذبة)).

قال رحمه الله تعالى :

٥٦ - ولأحمد عن أبي هريرة رضي الله عنه مرفوعًا: ((من قال لصبي ها تعال أعطك، ثم لم يُعْطِه فهي كذبة)).

وهذا مثل الذي قبله ((من قال لصبي ها تعال أعطك، ثم لم يُعْطِه فهي كذبة)).

قال رحمه الله تعالى :

٥٧ - وله عن أسماء بنت يزيد رضي الله عنها قلت: يا رسول الله إن قالت إحدانا لشيء تشتهييه لا أشتهيه، أيعد ذلك كذباً؟ قال: ((نعم، إن الكذب يُكتب كذباً حتى تكتب الكذبة كذبة)).

الكذبة: تصغير. يعني حتى الشيء القليل يُكتب؛ لأن هذا من جملة قول الإنسان، وقول الإنسان من جملة عمله الذي يُكتب إما له أو عليه، وقد مر معنا قول الله سبحانه وتعالى: ﴿مَا يَلْفُظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾ [١٨: ١٨] فإذا قُدِّمَ للإنسان طعامٌ وهو يشتهييه وقال: "لا أشتهيه" وهو في الحقيقة يشتهييه، «أُعد ذلك كذباً؟» قال: ((نعم)).

قال رحمه الله تعالى :

٥٨ - وللترمذي وحسنه مرفوعاً: ((ويل للذي يحدث بالحديث ليضحك به القوم فيكذب، ويل له ويل له)).

وختم رحمه الله بهذا الحديث الذي فيه التهديد والوعيد للذي يحدث بالحديث ليضحك الناس، ليضحك به الآخرين فيكذب، أي يُدخل في كلامه أشياء هي من الكذب لا لشيء إلا ليضحك الآخرين، فالنبي صلى الله عليه وسلم قال: ((ويل له)) أي من كان كذلك، ثلاث مرات يكررها صلوات الله وسلامه عليه ؛ بياناً لخطورة هذا الأمر.

وهذا النوع من الكذب وهو الكذب من أجل إضحاك الناس كثر جداً في هذا الزمان، وهو أمر خطير وفيه تهديد ووعيد صحّ عن نبينا الكريم صلوات الله وسلامه وبركاته عليه.

سبحانك اللهم وبحمدك ، أشهد أن لا إله إلا أنت ، أستغفرك وأتوب إليك .
اللهم صلّ وسلم على عبدك ورسولك نبينا محمد وآله وصحبه أجمعين.

الدرس العاشر

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله ربّ العالمين، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله، صلى الله وسلم عليه وعلى آله وأصحابه أجمعين. أما بعد :

قال شيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب رحمه الله تعالى في كتاب الكبائر :

باب ما جاء في التملق ومدح الإنسان بما ليس فيه

وقول الله تعالى: ﴿وَاجْتَنِبُوا قَوْلَ الزُّورِ﴾ [الحج: ٣٠] . وروى الإمام أحمد عن أبي داود عن شعبة عن قيس بن مسلم أنه سمع طارق بن شهاب يحدث عن عبد الله يقول: «إن الرجل ليخرج من بيته ومعه دينه فيلقى الرجل وله إليه حاجة فيقول له: أنت كيت وكيت، يثني عليه لعله أن يقضي من حاجته شيئاً، فيسخط الله عليه، فيرجع وما معه من دينه شيء».

قال رحمه الله تعالى : «باب ما جاء في التملق ومدح الإنسان بما ليس فيه» ؛ التملق : هو أن يُذِل الإنسان نفسه لإنسان آخر لحاجةٍ عنده لدى ذلك الإنسان ؛ فيتملق إلى ذلك الإنسان بمدحه وإطرائه والثناء عليه لا لشيء إلا ليحصل من طريقه تلك الحاجة، مع أن هذا الإنسان الآخر لا يملك لنفسه نفعا ولا ضرا فضلا عن أن يملك ذلك لغيره، والذي يملك النفع والضر والعطاء والمنع والخفض والرفع هو ربّ العالمين سبحانه وتعالى ، ﴿مَا يَفْتَحُ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِنْ رَحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا وَمَا يُمْسِكُ فَلَا مُرْسِلَ لَهُ مِنْ بَعْدِهِ﴾ [فاطر: ٢] ، فهذا الشخص الذي يتملق إليه ويُذِل نفسه عنده ويمدحه ويطريه إن لم يكن الله عز وجل قسم له عطاء لا يمكن أن ينال من خلال هذا الشخص، فالعطاء بيده الله سبحانه وتعالى وحده . ولهذا لا ينبغي أن يكون الذلّ والخضوع والتذلل والانكسار إلا للربّ العظيم سبحانه وتعالى، فالعبد يثني على ربه ويحمده ويمجده ويتذلل بين يديه ويسأله ويبذل الأسباب التي شرعها الله سبحانه وتعالى لنيل المصالح وحاجات العبد ، أما أن يذل نفسه للمخلوقين من رؤساء أو أثرياء أو غير ذلك ويتذلل ويتملق فهذا كله مما لا يليق بالمسلم ولا يليق بمكانته ولا يليق بشرفه وفضله ومنزلته.

قال: «باب ما جاء في التملق ومدح الإنسان بما ليس فيه» ؛ مدح الإنسان بما ليس فيه هو من التملق، لأن التملق نوع من الاستعطاف للإنسان والاستجداء مما عنده، فيطريه ويمدحه ويثني عليه، كأن يكون مثلاً يعرفه بخيلاً وأنه لا ينفق، فيأتي إليه يقول: "أنا لا أعرف أكرم منك، وأنت الكريم، أنا تفكرت في الناس كلهم ما رأيت مثلك في الكرم" ويعطيه من هذا المدح حتى يحاول أن يستخرج منه شيئاً، "وأنا أعرف في فضلك وأخلاقك الكريمة

وتعاملاتك الطيبة، أنا عاشرت الناس كلهم ما رأيت مثلك في كرمك وفي حُلقك"، وهو يعرف في قرارة نفسه أنه ليس كذلك، لكنه يتذلل بهذه الطريقة ويتملق ويمدح الإنسان بما ليس فيه يريد أن يستخرج منه شيئاً، ثم ربما أن كل هذا التملق إذا انتهى يقول له: "ما عندي شيء، أوضاعي المادية الآن ما تسمح"، أو أشياء من هذا القبيل. فهذه من الصفات الذميمة؛ التملق ومدح الإنسان بما ليس فيه.

قال: **وقول الله تعالى ﴿وَاجْتَنِبُوا قَوْلَ الزُّورِ﴾** [الحج: ٣٠] ؛ والزور: الباطل ، وهذا أمرٌ من الله سبحانه وتعالى باجتناب كل باطل ، ومن الباطل الذي يدخل في عموم قوله ﴿وَاجْتَنِبُوا قَوْلَ الزُّورِ﴾ : مدح الإنسان بما ليس فيه، وإذا كان مدح الإنسان بما فيه يُذم إذا كان لغير مصلحة شرعية فكيف بمدح الإنسان بما ليس فيه لمصلحة دنيوية؟!

قال: **وروى الإمام أحمد عن أبي داود عن شعبة عن قيس بن مسلم أنه سمع طارق بن شهاب يحدث عن عبد الله أي ابن مسعود يقول: «إن الرجل ليخرج من بيته ومعه دينه، فيلقى الرجل وله إليه حاجة فيقول له: أنت كيت وكيت» ؛ أي يمدحه ويثني عليه بما ليس فيه، أنت الكريم وأنت الكذا، إلى آخره «يثني عليه لعله أن يقضي من حاجته شيئاً، فيسخط الله عليه، فيرجع وما معه من دينه شيء» ، وربما أيضاً وما معه من دنياه شيء ، فلا يحصل دنيا ولا يسلم له دين، ربما أنه بعد ما يمدحه ويثني عليه إلى آخره يقول: ما عندي شيء، تمدح أو لا تمدح ما عندي ، فيرجع وليس معه من دنياه شيء، وأيضاً سخط الله ويرجع وليس معه من دينه شيء.** جاء في بعض الروايات: «فيلقى الرجل لا يملك له ولا لنفسه ضرراً ولا نفعاً، فيقسم له بالله: إنك لذيت وذيت» أنت فلان أنت كذا أنت كذا، يقسم له بالله ؛ «فيرجع ما خلّى من حاجته بشيء» يعني ما حصل من حاجته شيء «وليس معه من دينه شيء» ؛ هذه مصيبة ، وكما قدمت ينبغي للمسلم أن يكون عزيز النفس بدينه، وأن يكون افتقاره لله وحده سبحانه وتعالى، ويبدل الأسباب المشروعة ، ﴿وَمَنْ يُتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجاً (٢) وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾ [الطلاق: ٢-٣] ، ﴿وَمَنْ يُتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مِنْ أَمْرِهِ يُسْراً﴾ [الطلاق: ٤] .

قال رحمه الله تعالى :

باب ما جاء في النهي عن كون الإنسان مدّاحاً

وقول الله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْكُونَ أَنْفُسَهُمْ بِاللَّهِ يَزْكِي مِنْ شَيْءٍ﴾ الآية [النساء: ٤٩] .

قال: «باب ما جاء في النهي عن كون الإنسان مدّاحاً» أي: مدّاحاً لمن يلقاه من الناس . والغالب أن كثير المدح لمن يلقى من الناس لا يسلم من الكذب، فإذا كان يُكثر من المدح سيمدح في بعض مدحه بما هو وصف للممدوح، ثم مع كثرة المدح واستمرائه للإكثار من المدح سيمدح الممدوح بما ليس فيه ، فكثرة المدح مذموم ؛ مذموم لما يفضي إليه من الكذب ومدح الإنسان بما ليس فيه، ومذموم من جهة أنه لا يؤمن على الممدوح أن يكون كثرة المدح له تفضي به إلى العجب والغرور ؛ ولهذا جاءت الشريعة بالنهي عن ذلك ، كما سيأتي في الأحاديث التي ساقها المصنف رحمه الله تعالى .

ومدح النفس أو مدح الآخرين نوع من التزكية، والله تعالى يقول: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْكُونَ أَنْفُسَهُمْ بِاللَّهِ يُزَكِّي مَنْ يَشَاءُ﴾ [النساء: ٤٩] ، وهذا توبيخ من ربّ العالمين جلّ في علاه للذين يزكون أنفسهم من اليهود والنصارى، وسياق الآية في هؤلاء، وهي تناول بعمومها كلّ من يزكي نفسه ويمدح نفسه بما ليس فيه، وكذلك من يزكي الآخرين ويمدح الآخرين بما ليس فيهم، لأن قوله: ﴿يَزْكُونَ أَنْفُسَهُمْ﴾ يشمل تزكية الإنسان لنفسه، وأيضاً تزكيته لغيره، مثل: ﴿وَلَا تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ﴾ [النساء: ٢٩] ، فهذه الآية فيها الذمّ لمن كان مدّاحاً، يزكي نفسه بمدحها وإطرائها والثناء على نفسه، أو يزكي بعض الناس بمدحه وإطرائه والثناء عليه. وفي هذه الآية أن هذا كان من أوصاف اليهود، وهذا السياق نزل في ذمّ هؤلاء، وهو بعمومه يتناول كلّ من نحى نحوهم وسار في مسلكهم .

قال: ﴿بَلِ اللَّهُ يَزَكِّي مَنْ يَشَاءُ﴾ أي يزكي من يشاء بالإيمان والعمل الصالح والأخلاق الفاضلة والآداب الرفيعة، الله عزّ وجلّ يزكي من يشاء . وهذا فيه أن زكاء القلب وصلاح العمل منّة من الله سبحانه وتعالى، قال الله عزّ وجلّ: ﴿وَلَوْ لَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ مَا زَكَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ أَبَدًا وَلَكِنَّ اللَّهَ يُزَكِّي مَنْ يَشَاءُ﴾ [النور: ٢١]

فالأمر بيده سبحانه، ﴿يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا قُلْ لَا تَمُنُّوا عَلَيَّ إِسْلَامَكُمْ بَلِ اللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَاكُمْ لِلْإِيمَانِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ [الحجرات: ١٧] ، قال جلّ وعلا: ﴿وَلَكِنَّ اللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الْإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ أُولَئِكَ هُمُ الرَّاشِدُونَ﴾ (٧) فضلاً من الله ونعمةً والله عليمٌ حكيمٌ ﴿[الحجرات: ٧-٨] .

قال رحمه الله تعالى :

٥٩ - ولمسلم عن المقداد رضي الله عنه أن رجلاً جعل يمدح عثمان ، فجثى المقداد على ركبتيه فجعل يحثو في وجهه التراب، فقال له عثمان رضي الله عنه : ما شأنك؟ قال: إن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: ((إذا رأيتم المدّاحين فاحثوا في وجههم التراب)).

ثم أورد رحمه الله تعالى هذا الحديث وهو في صحيح مسلم أن النبي عليه الصلاة والسلام قال: ((إذا رأيتم المدّاحين فاحثوا في وجههم التراب)) ؛ وذلك لأن المدّاحين في الغالب يكثر فيهم الكذب في إطرانهم وثنائهم على من يمدحونه، فيترتب على ذلك إصابة الممدوح بالغرور والعجب، عندما يسمع هذا وذاك يمدحونه، "أنت وأنت، والله إنك لذيت وذيت" مثل ما تقدم ، يطريه ويمدحه ويثني عليه، هذا يجعله يصاب بالغرور والعجب بالنفس، وهذه مهلكة للإنسان، ولهذا جاءت الشريعة بالنهي عن ذلك.

قال رحمه الله تعالى :

٦٠ - وفي المسند عن معاوية رضي الله عنه مرفوعاً: ((إياكم والمدح، فإنه الذبح)).

قال: وفي المسند عن معاوية رضي الله عنه مرفوعاً -أي إلى النبي صلى الله عليه وسلم، ورضي الله عن معاوية وعن الصحابة أجمعين- قال : ((إياكم والمدح)) أي احذروا المدح، احذروا التمدح وأن يمدح بعضكم بعضاً، وأن يكون هذا ديدن الناس في لقاءاتهم، لأن هذا مثل ما تقدم مفضٍ إلى هلكة الإنسان، مفضٍ لهلكة المادح من جهة أن يبالغ ويكذب؛ وهذا هلاك له، ومن جهة الممدوح أنه قد يصاب بالكبر والعجب والغرور ونحو ذلك. وقوله: ((فإنه الذبح)) أي فإنه الذبح للممدوح، وهو ذبحٌ بغير سكين، ((فإنه الذبح)) لأن الممدوح يهلكه المدح، عندما يثني عليه ويطري يعجب بنفسه ويغتر وهذا هلاك له وذبحٌ له.

والإنسان العاقل لا يفرح بمدح الناس له بما ليس فيه، بل كان بعض السلف إذا مُدح وقع في نفسه حياء من ربه أن يُذكر عند الناس بما يعلم ربه سبحانه وتعالى منه أنه ليس فيه ، فيستحي من ربه سبحانه وتعالى، ولهذا قيل: «الجاهل من ترك يقيناً ما عنده لظنٍّ ما عند الناس»، مدح الناس له في الغالب بالظنّ، يرون بعض الظاهر الطيب ويبالغون، حتى إن بعضهم يبالغ في أوصاف تتعلق بالقلوب، ولا يجعل حتى "نحسبه من أهل الإخلاص، ونحسبه من أهل الصدق" ، لا ، بعضهم يقول: "والله إن هذا رجل مخلص، وهذا رجل والله صادق، وهذا رجل والله قلبه مليء بالإيمان ، وهذا وهذا" فإذا سمع هذه المدائح هذه كلها مدحٌ له بالظنّ، وفي الغالب ظنٌّ خاطئ، وهو يعلم من نفسه يقيناً أن هذه أوصافاً ليست فيه، ومع ذلك الجاهل يفرح بهذا المدح ؛ مدح الناس له بما هو متيقن أن

هذه الأوصاف ليست فيه، ويفرح! على ماذا يفرح؟! بينما الواجب أن يحزن، يقول: هكذا يُظن بي من الخير وأنا لست كذلك! فبدأً يجاهد نفسه على إصلاح حاله وإصلاح نفسه.

فالشاهد أن المدح فيه هلاك للإنسان؛ هلاك للمادح، وهلاك للمدوح، ولا يستثنى من ذلك إلا إذا كان المدح فيه مصلحة شرعية، ويؤمن على المدوح المضرة. مثلاً: في قضية ما الناس يستفتون فيقال: هذا الرجل -ويشير إليه- رجل من أهل العلم ومن أهل الفقه وهو عريق في العلم، ويذكر ما يعلم من أوصافه حتى يطمئن الحاضر الذي لا يعرفه إليه فيستفتيه، أو مثلاً رجل عنده أمانة ويريد أحداً، فيقول له: اذهب إلى فلان، هذا رجل مجرب ومعروف بأمانته، فمثل هذا المدح الذي له مصلحة شرعية، ليس فقط هكذا لا مصلحة من وراءه، ويؤمن على المدوح أيضاً من المضرة من هذا المدح فإنه يكون لا بأس به، يكون جائزاً.

قال رحمه الله تعالى :

باب ما يحق الكذب من البركة

٦١ - عن حكيم بن حزام رضي الله تعالى عنه مرفوعاً: ((البَّيعَان بالخيار ما لم يتفرقا. فإن صدقا وبينا بورك لهما في بيعهما، وإن كذبا وكتما مُحقت بركة بيعهما)).

قال: «باب ما يحق الكذب من البركة» ؛ يحق البركة: أي يُذهبها ولا يُيقِيها. والكذب محقة للبركة، والبركة: هي النماء، نماء المال وزيادته وبقاؤه وحسن انتفاع صاحبه منه. فالكذب في البيع والشراء وتحصيل الأموال هذا محقة لبركة المال، نعم قد يكذب وبدل أن يربح مثلاً في السلعة التي معه مائة ريال، بالكذب مثلاً يأخذ مائتين ريال، لكن لا بركة فيها، محققة البركة، فالكذب محقة للبركة، يعني المال الذي أخذ وحُصِّل بالكذب لا بركة فيه، والبركة: هي النماء والزيادة .

قال: عن حكيم بن حزام رضي الله تعالى عنه مرفوعاً: ((البَّيعَان بالخيار ما لم يتفرقا)) أي ما لم يتفرقا بأجسادهما من المجلس، أما إذا حصل التفرق فلا خيار ، وهذا خيار المجلس.

((إن صدقا وبينا)) الصدق مطلوب من الطرفين البائع والمشتري، والبيان أيضاً مطلوب من الطرفين البائع والمشتري. فإذا اشتركا في الصدق، هذا الصدق في وصفه للسلعة، والآخر الصدق في وفائه بالثمن وعدم المغالطة فيه.

((صدقا وبينا)) أيضاً يبين البائع ما في السلعة مثلاً من عيب أو شيء من هذا القبيل ولا يكتف، وأيضاً المشتري يبين قضية النقود هل هي حاضرة معه الآن أو ليست حاضرة أو نحو ذلك.

((فإن صدقا وبينا بورك لهما في بيعهما)) وهذا يفيد أن الصدق إذا انتفى انتفت البركة، أن البركة وجودها مرتبط بوجود الصدق والبيان ؛ قال : ((فإن صدقا وبينا بورك لهما في بيعهما ، وإن كذبا وكتما مُحقت بركة بيعهما))

قال رحمه الله تعالى :

باب مَنْ تَحَلَّمَ وَلَمْ يَرَ شَيْئًا

٦٢ - روى البخاري عن ابن عباس رضي الله عنهما مرفوعاً: ((مَنْ تَحَلَّمَ بِحُلْمٍ لَمْ يَرَ كُفْلَ أَنْ يَعْقِدَ بَيْنَ شَعِيرَتَيْنِ وَلَنْ يَفْعَلَ)).

قال: «بابٌ مَنْ تَحَلَّمَ وَلَمْ يَرَ شَيْئًا» ؛ تَحَلَّمَ: أي ادَّعى أنه رأى رؤيا ورأى حُلماً، ادَّعى ذلك وهو لم ير شيئاً، لكنه يدَّعي عند الناس أنه في منامه البارحة رأى كذا ورأى كذا إلى آخره.

والرؤيا سبحانه الله - هذا الحديث الآتي عند المصنف فيه وعيد شديد - الرؤى أصبحت مداخل لتمرير كل باطل، حتى العقائد الفاسدة والبدع والخرافات كثير منها دَخَلوها على العوام بالرؤى المزعومة .

مرة رأيت كتاباً من كتب الخرافة، ولما رأيته ما ظننت أن مسلماً يقبل هذا الكتاب؛ كله خرافة، وأذكار محدثة، وطلاسم، وأشياء مبتدعة، وألفاظ أيضاً ركيكة، ما ظننت أن مسلم يرى هذا الكتاب يقبله، ولما وصلت إلى آخر الكتاب وإذا بالمؤلف يقول: "بعد أن فرغت من تأليف هذا الكتاب ترددت في نشره، وبقيت وقتاً طويلاً متردداً في نشره، فجاءني النبي صلى الله عليه وسلم في المنام وقال: لماذا هذا التردد؟ الناس بحاجة إلى هذا الكتاب، وحثني على نشره، وجاءني أبو بكر وجاءني عمر وجاءني فلان فيقول: ما وجدت إلا أنني مضطر إلى نشره". العوام مساكين إذا رأوا هذه الرؤيا المزعومة ؛ النبي صلى الله عليه وسلم في المنام جاءه وأبو بكر وعمر وفلان إلى آخره كلهم يقولون له: لا بد أن تنشر هذا الكتاب، يصبح مثل المتفق عليه، رواه البخاري ومسلم عند العوام!

فالرؤى المزعومة المكذوبة مرَّر أصحابها كثيراً من الباطل، والشيطان يأتي إلى هؤلاء في المنام حتى يُضِلَّ بهم الناس عن دين الله وعن سواء السبيل، فمسألة الرؤى هذه باب خطير جداً، ولهذا جاء فيها وعيد شديد، وأن الإنسان إذا يتحلم يدَّعي أنه رأى في المنام وهو لم ير شيئاً، وفي الحديث: ((لم يبق من النبوات إلا المبشرات)) ، الرؤيا هذه ليست هينة، أمرها ليس بالهين، أمرها عظيم ، فلما يدَّعيها الإنسان كذباً، وأنني رأيت في المنام كذا وكذا إلى آخره، إما مثلاً بأشياء يريد أن يثني على نفسه ويمدح نفسه بها ويكون له شأن عند الناس، أو يغرر بعض الناس بشيء، أو بعضهم يأتي برؤيا مكذوبة يستجدي بها من أحد الأشخاص، وتكون داخلة في التملق، من الأشياء التي يتملق بها عند الآخرين فيدَّعي أنه رأى في المنام، فالرؤى هذه مدخل لكثير من الباطل.

أورد رحمه الله هذا الحديث عند البخاري عن ابن عباس رضي الله عنهما مرفوعاً: ((مَنْ تَحَلَّمَ بِحِلْمٍ لَمْ يَرَهُ)) ؛ تَحَلَّمَ: أي تكلف وادّعى أنه رأى في المنام كيت وكيت وهو لم ير شيئاً ، كذباً.

((كُلِّفَ)) أي يوم القيامة ((أَنْ يَعْقِدَ بَيْنَ شَعِيرَتَيْنِ وَلَنْ يَفْعَلَ)) هل يمكن للإنسان أَنْ يَعْقِدَ بَيْنَ شَعِيرَتَيْنِ؟! معروف حبّ الشعير، لو يعطى الإنسان حبتين من الشعير ويقال له: اعقدهما هل يستطيع؟ اعمل منهما عقدة حبتين من الشعير !! ف ((كلف أَنْ يَعْقِدَ بَيْنَ شَعِيرَتَيْنِ وَلَنْ يَفْعَلَ)) بمعنى أَنْ عذابه مستمر، لأنه ما يستطيع أَنْ يَعْقِدَ بَيْنَ شَعِيرَتَيْنِ، فيعذب ويستمر عذابه، لأنّ الشعيرتين لو استمر إلى ما شاء من الزمان لا يستطيع أَنْ يَعْقِدَ بينهما، فهذا فيه وعيد شديد، ويدل على أن هذا من الكبائر، لأنّ العقوبات هذه لا تكون إلا في الكبائر وعظائم الذنوب.

قال : ((مَنْ تَحَلَّمَ بِحِلْمٍ لَمْ يَرَهُ كُلِّفَ أَنْ يَعْقِدَ بَيْنَ شَعِيرَتَيْنِ وَلَنْ يَفْعَلَ)) ؛ وهذا كما قدمْتُ لمكانة الرؤيا ومنزلتها، وأنّ الرؤيا جزء من النبوة كما جاء في الحديث ((لم يبق من النبوة إلا المبشرات)) ، ثم بيّنتُ أنّ المبشرات هي الرؤيا الصالحة يراها المسلم أو تُرى له ، فإذا دخل هذه الكذب فأمرٌ جدُّ خطير، ولهذا جاء الوعيد الشديد لمن فعل ذلك أو ادّعى ذلك.

سبحانك اللهم وبحمدك ، أشهد أن لا إله إلا أنت ، أستغفرك وأتوب إليك .

اللهم صلّ وسلم على عبدك ورسولك نبينا محمد وآله وصحبه أجمعين.



شرح كتاب الكبائر

لشيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب رحمه الله

من الدرس ١١ إلى الدرس ١٤

شرح الشيخ عبد الرزاق بن عبد المحسن البدر حفظهما الله تعالى

١٤٤٠/١٢/٢٦ هـ

الدرس الحادي عشر

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله ربّ العالمين، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله ، صلى الله وسلم عليه وعلى آله وأصحابه أجمعين. أمّا بعد:

قال شيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب رحمه الله في كتابه الكبائر :

باب ذكر مرض القلب وموته

وقول الله تعالى : ﴿ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ ﴾ [البقرة: ١٠] ، وقوله: ﴿ لَئِنْ لَمْ يَنْتَهِ الْمُتَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ وَالْمُرْجِفُونَ فِي الْمَدِينَةِ لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ ثُمَّ لَا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَا إِلَّا قَلِيلًا (٦٠) مُلْعُونِينَ أَيْنَمَا تُقِفُوا أَخَذُوا وَقَتَلُوا قَتِيلًا ﴾ [الأحزاب: ٦٠ - ٦١] .

قال رحمه الله تعالى : «باب ذكر مرض القلب وموته» مرض القلب ؛ القلب - عافانا الله وإياكم - يُصاب بنوعين من المرض: مرض يُقال له «مرض الشُّبهات» ، والآخر يُقال له «مرض الشَّهوات» .

- «مرض الشُّبهات» يتعلّق بالنّواحي العلميّة ، و«مرض الشَّهوات» يتعلّق بالنّواحي العمليّة.
- «مرض الشُّبهات» فسادٌ في العلم ، و«مرض الشَّهوات» فسادٌ في العمل.
- ومن أمثلة «مرض الشُّبهات»: مرض النِّفاق ، وفيه هاتان الآيتان اللتان ساقهما المصنّف رحمه الله. و«مرض الشَّهوات»: منه قول الله عزّ وجلّ: ﴿ فَيَطْمَعُ الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ ﴾ [الأحزاب: ٣٢] أي: مرض الشَّهوة.

وكلٌّ منهما له محرّكات، والشَّيطان طمعه في الإنسان أن يُمرض قلبه بأيّ النوعين من هذين المرضين: مرض الشُّبهات أو الشَّهوات. وإذا وجد عند الإنسان تساهلاً في الدِّين أدخله في مرضِ الشَّهوات، وإن كان عنده تشدُّدٌ في الدِّين أدخله في مرضِ الشُّبهات، ولا يبالي عدوُّ الله بأيّ النوعين من المرض ظفّر.

والواجب على العبد أن يحذر أشدَّ الحذر من مرضِ القلب، والقلب يمرض ثمَّ يسوء به الحال ويشتدّ به الأمر فيموت، كما قال رحمه الله «باب ذكر مرض القلب وموته» ، فيموت القلب بسبب ما تراكم عليه من الشُّبهات، أو ما تراكم عليه من الشَّهوات . ولا ينجو عند الله سبحانه وتعالى إلا القلب السَّليم ؛ أي: السَّليم من مرضِ الشَّهوات، والسَّليم من مرضِ الشُّبهات.

قال : وقول الله عز وجل : ﴿ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ ﴾ ؛ السِّيَاق في المنافقين ﴿ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ ﴾ أي: مرض التَّفَاق ﴿ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ ﴾ [البقرة: ١٠] .

﴿ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ ﴾ انظر هذه الآية مع قوله: ﴿ وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى ﴾ [محمد: ١٧] ؛ وهذا فيه: أَنَّ العبد إذا أخذ بنفسه في سبيل الهداية أعانه الله وسدّده ، وإذا أخذ في سبيل المرض والزَّيغ زاده الله زَيْغًا ومرضًا ، ﴿ فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ ﴾ [الصَّافَّ: ٥] ، ﴿ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ ﴾ .

قال: وقوله: ﴿ لَنْ لَمْ يَنْتَهِ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ ﴾ أي: مرض التَّفَاق، وهو مرض الشُّبُهَات ﴿ وَالْمُرْجِفُونَ فِي الْمَدِينَةِ لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ ثُمَّ لَا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَا إِلَّا قَلِيلًا ﴾ (٦٠) مَلْعُونِينَ أَيْنَمَا ثُقِفُوا أُخِذُوا وَقُتِلُوا نَفْيًا ﴿ [الأحراب: ٦٠ - ٦١] .

فالشاهد من الآيتين: أَنَّ القلب يمرض، والمرض الذي فيه قد يزداد إلى أن يصل إلى مرحلة الموت.

قال رحمه الله :

(٦٣) وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ((إِنَّ الْمُؤْمِنَ إِذَا أَذْنَبَ ذَنْبًا كَانَتْ نَكْتَةٌ سَوْدَاءَ فِي قَلْبِهِ، فَإِنْ تَابَ وَنَزَعَ وَاسْتَعْتَبَ صُقِلَ قَلْبُهُ، وَإِنْ زَادَ زَادَتْ حَتَّى تَعْلُو قَلْبَهُ، فَذَلِكَ الرَّانَ الَّذِي قَالَ اللَّهُ تَعَالَى فِيهِ: ﴿ كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴾ [المطففين: ١٤] . رواه الترمذي وقال حسن صحيح.

وقال الأعمش رحمه الله: «أرانا مجاهد بيده قال: كانوا يرون أن القلب في مثل هذا -يعني الكف- فإذا أذنب العبد ذنبًا ضم منه، وقال بأصبعه الخنصر هكذا، فإذا أذنب ضم وقال بأصبعه الأخرى هكذا، فإذا أذنب ضم وقال بإصبعه الأخرى هكذا، حتى ضم أصابعه كلها، قال: ثم يُطَبَّعُ عليه بطابع، وكانوا يرون أن ذلك هو الران». رواه ابن جرير عن أبي كُرَيْب عن وكيع عنه بنحوه. وعن مجاهد رحمه الله أيضًا أنه قال: «الران أيسر من الطبع ، والطبع أيسر من الإقفال».

قال: وعن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ((إِنَّ الْمُؤْمِنَ إِذَا أَذْنَبَ ذَنْبًا نَكَّتْ نَكْتَةً سَوْدَاءَ فِي قَلْبِهِ)) ؛ والنَّكْتَةُ : هي الجزء اليسير من نقطةٍ أو نحوها، يكون على الثَّوبِ أو على الورق

أو على أي شيء، فيظهر متميِّزًا بـ-مثلاً- سواده، أو خضاره، أو زرقاه. يُقال له «نكتة». النكتة هي: الشيء اليسير من أي لون كان، الشيء اليسير من أي لون كان يسمى نكتة، يُقال: هذه نكتة على هذه الورقة، أو نكتة على الثوب. أي: قطعة من اللون صغيرة يسيرة جدًا.

ف((إذا أذنب العبد ذنبًا نُكِتَ في قلبه نكتة سوداء)) أي: قطعة صغيرة من السواد تنطبع على قلبه. ((فإن تاب ونزع واستعتب)) إن تاب إلى الله ونزع واستعتب؛ طلب من الله عز وجل العفو والصَّفح، وندم على ذنبه ((صُقِلَ قلبه)) أي: تزول تلك النكتة، ويكون قلبه صافيًا سليمًا.

((وإن زاد زادت)) إن زاد من الذُّنوب زادت هذه النُكُت السوداء ((حتى تعلو القلب)) أي: تغطّي القلب. ((فذلك الرّان الذي قال الله فيه: ﴿كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾)) أي: غطّي على قلوبهم ما يكسبونه من ذنوب وآثام.

قال الأعمش: «أرانا مجاهد بيده. قال: كانوا يرون أن القلب في مثل هذا -يعني الكفّ- فإذا أذنب العبد ذنبًا ضمّ منه وقال بإصبعه الخنصر هكذا» فيلاحظ الآن أن جزءًا غطّي الكفّ، بدون الذُّنوب يكون هكذا أي: صافيًا لا شيء يغطّيه، فإذا أذنب ذنبًا قال بإصبعه هكذا. «فإذا أذنب ذنبًا ضمّ وقال بإصبعه الآخر هكذا، فإذا أذنب ذنبًا ضمّ وقال بإصبعه الآخر هكذا، حتى ضمّ بأصابعه الأخرى هكذا» فيصبح القلب -الذي هو مثل الكفّ- مُغطّي بهذه الأشياء وهذه التراكُمات من الذُّنوب التي تأتي واحدة تلو الأخرى.

«وكانوا يرون أن ذلك هو الرّان» في الآية الكريمة ﴿كَلَّا بَلْ رَانَ﴾ [الطّٰفٰن: ١٤] أي: غطّي على قلوبهم. والتَّغطية على القلب التي هي الرّان لا تأتي دفعةً واحدة، وإنما تأتي تدريجيًا، نكتة ثم نكتة ثم نكتة.. إلى أن تغطّي القلب، فيكون حاله كما وصف الله سبحانه وتعالى ﴿كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ [الطّٰفٰن: ١٤].

قال: وعن مجاهد أيضًا قال: «الرّان أيسر من الطّبع، والطّبع أيسر من الإقفال» ؛ وهذه مراحل يُصاب بها القلب على حسب هذا التّرتيب الذي ذكره، يكون أولًا: الرّان، ثم يُطّبع على القلب، ثم يُصاب بالإقفال بحيث لا يصل إليه ولا منفذ فيه لدخول الحق والهدى.

قال رحمه الله :

٦٤ - وعن أبي سعيد رضي الله عنه أنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ((القلوب أربعة: قلب أجرد فيه مثل السراج يزهر، وقلب أغلف مربوط بغلافه، وقلب منكوس، وقلب مُصَفَّح، فأما القلب الأجرد فقلب المؤمن فسراجُه فيه نور، وأما القلب الأغلف فقلب الكافر، وأما القلب المنكوس فقلب المنافق الخالص عرف الحق ثم أنكر. وأما القلب المصَفَّح فقلبٌ فيه إيمان ونفاق، ومثل الإيمان فيه كمثل البقلة يمدّها

الماء الطيّب، ومثل النفاق فيه كمثّل القرحة يمدّها القيح والدم، فأَيّ المادتين غلبت على الأخرى غلبت عليه)).

قال: وعن أبي سعيد رضي الله عنه مرفوعاً قال: قال رسول الله صَلَّى الله عليه وسلّم: ((القلوب أربعة)) القلوب أي في أحوالها ؛ من حيث الطّاعة وعدمها، من حيث سلامة القلب ومرضه، من حيث حياة القلب وموته((القلوب أربعة)).

((قلبٌ أجرد)) ومعنى أجرد أي: متجرّد لله سبحانه وتعالى ليس فيه إلّا طلبُ رضا الله والعمل بما يُرضيه سبحانه وتعالى، متجرّدٌ ممّا سوى الله تبارك وتعالى، ليس فيه إلّا طلب رضا الله والعمل على نيل رضاه عزّ وجلّ. ((قلبٌ أجرد فيه مثل السّراج يُزهر)) أي يضيء، فهو قلبٌ متجرّد؛ أي: مخلص دينه لله صادق مع الله سبحانه وتعالى، مُقبِل على الله عزّ وجلّ ، مُجرّداً التّوحيد لله، ومجرّداً المتابعة للرّسول الكريم عليه الصّلاة والسّلام، وفي مصنّفات أهل العلم في الاعتقاد: كتاب «تجريد التّوحيد» ، فمن جرّد التّوحيد لله عزّ وجلّ ينطبق عليه هذا المعنى «قلبٌ أجرد» أي: متجرّدٌ صاحبه لله سبحانه وتعالى.

((وقلبٌ أغلف مربوطٌ بغلافه)) أغلف: أي عليه غشاوة، عليه غطاء يغطّيه من كلّ جانب، ويحيط به من كلّ جانب.

((وقلبٌ منكوس)) أي: منقلب ليس سويّاً ، قلبٌ مُنكّس.

((وقلبٌ مُصَفّح))؛ مُصَفّح: أي له صفحتان جانب خير وجانب شرّ. له وجهان: وجهٌ فيه شيء من الخير، ووجهٌ فيه شر. ثمّ بيّن ذلك.

قال: ((فأمّا القلب الأجرد فقلب المؤمن، فسراجُه فيه نور)) ؛ فقلب المؤمن قلبٌ أجرد أي: متجرّد لله عزّ وجلّ، مخلص صادق مع الله، ومضيء بنور الإيمان؛ لأنّ الإيمان نور، والوحي نور يضيء لصاحبه، ﴿أَوْ مِنْ كَان مَيِّتًا فَأَحْيَيْنَاهُ﴾ [الأنعام: ١٢٢] . فالقلب يحيى بالإيمان ويستضيء أيضاً بنور الإيمان ونور الوحي، والوحي نور كما قال الله سبحانه: ﴿وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِنْ أَمْرِنَا مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ وَلَكِنْ جَعَلْنَاهُ نُورًا﴾ [الشورى: ٥٢] ، فالوحي نور يضيء لصاحبه.

قال: ((وأمّا القلب الأغلف: فقلب الكافر)) ؛ الأغلف هو: الذي غطّت عليه الظُّلمات ؛ ظلمات الشّرك وظلمات الباطل وظلمات الدُّنوب، فغطّت عليه فأصبحت على القلب مثل الغلاف المحيط به من كلّ جانب.

((وَأَمَّا الْقَلْبُ الْمُنْكَوسُ فَقَلْبُ الْمُنَافِقِ الْخَالِصِ؛ عَرَفَ الْحَقَّ ثُمَّ أَنْكَرَ)) عَرَفَ الْحَقَّ وَاسْتَبَانَ لَهُ الْهُدَى وَظَهَرَ، وَأَنْكَرَ ذَلِكَ، وَأَصْبَحَ يُظْهِرُ إِيمَانًا وَيُخْفِي كُفْرًا مُحْضًا.

((وَأَمَّا الْقَلْبُ الْمُصْفَحُ)) أَيُّ: الَّذِي لَهُ صَفْحَتَانِ، لَهُ وَجْهَانِ، وَجْهٌ خَيْرٌ وَوَجْهٌ شَرٌّ.

((فَقَلْبٌ فِيهِ إِيمَانٌ وَنِفَاقٌ، وَمِثْلُ الْإِيمَانِ فِيهِ كَمِثْلِ الْبَقْلَةِ يَمِدُّهَا الْمَاءُ الطَّيِّبُ)) فَتَنْمُو، يُنْتَفِعُ بِهَا.

((وَمِثْلُ النَّفَاقِ فِيهِ كَمِثْلِ الْقَرْحَةِ يَمِدُّهَا الْقَيْحُ وَالْدَّمُ)) وَهَذَا مِثْلٌ عَجِيبٌ فِي وَصْفِ أَحْوَالِ الْقُلُوبِ الْأَرْبَعَةِ .

((فَأَيُّ الْمَادَتَيْنِ غَلَبَتْ عَلَى الْأُخْرَى غَلَبَتْ عَلَيْهِ)) هَذَا الَّذِي يَتَنَازَعُهُ أَمْرَانِ: خَيْرٌ وَشَرٌّ ؛ الْخَيْرُ لَهُ أَشْيَاءٌ تَمُدُّهُ، وَالشَّرُّ لَهُ أَيْضًا أَشْيَاءٌ تَمُدُّهُ، وَمِثْلُ الْخَيْرِ كَمِثْلِ الْبَقْلَةِ يَمِدُّهَا الْمَاءُ الطَّيِّبُ ، وَمِثْلُ النَّفَاقِ كَمِثْلِ الْقَرْحَةِ يَمِدُّهَا الْقَيْحُ وَالْدَّمُ. فَإِذَا وُفِّقَ بِالْمَاءِ الطَّيِّبِ الَّذِي هُوَ غَيْثُ الْوَحْيِ وَالْهُدَى فَإِنَّ هَذَا يَصْقِلُ قَلْبَهُ بِإِذْنِ اللَّهِ تَعَالَى وَيَصْفُو وَيَكُونُ قَلْبًا سَلِيمًا. وَإِذَا كَانَتْ غَلَبَتْ عَلَيْهِ الْمَادَّةُ الْأُخْرَى مَادَّةُ النَّفَاقِ الَّتِي هِيَ كَالْقَرْحَةِ تُغَذِّي بِالْقَيْحِ وَالْدَّمِ فَهُوَ لِمَا غَلَبَ عَلَيْهِ مِنْهُمَا.

قال رحمه الله تعالى :

بَابُ ذِكْرِ الرِّضَاءِ بِالْمَعْصِيَةِ

روى عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه أنه قال: «هَلَكْتَ إِنْ لَمْ يَعْرِفْ قَلْبُكَ الْمَعْرُوفَ وَيُنْكِرِ الْمُنْكَرَ».

قال: «بَابُ ذِكْرِ الرِّضَاءِ بِالْمَعْصِيَةِ» ؛ الرِّضَاءُ بِالْمَعْصِيَةِ يَعْنِي : حَتَّى وَإِنْ لَمْ يَفْعَلْهَا يَكُونُ رَاضِيًا بِهَا، هَذَا هَلَاكُ وَالْعِيَاذُ بِاللَّهِ ، وَلِهَذَا أَقَلَّ مَرَاتِبَ إِنكَارِ الْمُنْكَرِ الَّتِي لَيْسَ وَرَاءَهَا مِنَ الْإِيمَانِ حَبَّةٌ خَرْدَلٍ : كَرَاهِيَّةُ الْمُنْكَرِ فِي الْقَلْبِ، أَمَّا أَنْ يَكُونَ الْإِنْسَانُ رَاضِيًا بِالْمُنْكَرِ فَهَذَا هَلَاكٌ وَالْعِيَاذُ بِاللَّهِ حَتَّى وَإِنْ لَمْ يَفْعَلْ . قَدْ قَالَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ : ((مَنْ رَأَى مِنْكُمْ مُنْكَرًا فَلْيُغَيِّرْهُ بِيَدِهِ ، فَإِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَبِلِسَانِهِ ، فَإِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَبِقَلْبِهِ ؛ وَذَلِكَ أَضْعَفُ الْإِيمَانِ)) ، إِذَا كَانَ الْقَلْبُ لَا يُنْكِرُ الْمُنْكَرَ، وَإِنَّمَا يَرْضَاهُ وَيُحِبُّهُ وَيُثَبِّتُهُ هَذَا هَلَاكٌ وَالْعِيَاذُ بِاللَّهِ. مِثْلُ مَا قَالَ ابْنُ مَسْعُودٍ: «هَلَكْتَ إِنْ لَمْ يَعْرِفْ قَلْبُكَ الْمَعْرُوفَ، وَيُنْكِرِ الْمُنْكَرَ». الشَّاهِدُ مِنْ كَلَامِهِ: قَوْلُهُ «وَيُنْكِرِ الْمُنْكَرَ»؛ إِذَا كَانَ الْقَلْبُ لَا يُنْكِرُ الْمُنْكَرَ بَلْ يَرْضَاهُ وَيُثَبِّتُهُ فَهَذَا هَلَاكٌ لِصَاحِبِهِ. قَالَ: «هَلَكْتَ»: أَيُّ أَنَّ هَذَا هَلَاكٌ لِصَاحِبِهِ ، وَفِي الْحَدِيثِ الْآخَرِ قَالَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: ((فَمَنْ جَاهَدَهُمْ بِيَدِهِ فَهُوَ مُؤْمِنٌ، وَمَنْ جَاهَدَهُمْ بِلِسَانِهِ فَهُوَ مُؤْمِنٌ، وَمَنْ جَاهَدَهُمْ بِقَلْبِهِ فَهُوَ مُؤْمِنٌ، وَلَيْسَ وَرَاءَ ذَلِكَ مِنَ الْإِيمَانِ حَبَّةٌ خَرْدَلٍ)).

قال رحمه الله:

٦٥ - ولمسلم عنه أنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ((ما من نبي بعثه الله في أمة قبلي إلا كان له من أمته حواريون وأصحاب يأخذون بسنته ويقتدون بأمره، ثم إنها تخلف من بعدهم خلوف يقولون ما لا يفعلون، ويفعلون ما لا يؤمرون. فمن جاهدكم بيده فهو مؤمن، ومن جاهدكم بلسانه فهو مؤمن، ومن جاهدكم بقلبه فهو مؤمن، وليس وراء ذلك من الإيمان حبة خردل)).

قال: ولمسلم عنه -أي ابن مسعود رضي الله عنه- قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ((ما من نبي بعثه الله في أمة قبلي إلا كان له من أمته حواريون وأصحاب)) ؛ له من أمته صفوة وخلاصة يلزمونه، يتبعون نهجه ، يسيرون وفق سنته، وهم صفوة الناس ؛ وصفهم بصفتين تأملهما جيداً:
قال: ((يأخذون بسنته، ويقتدون بأمره)) ؛ وهذا فيه تنبيه على صلاحهم في الجانبين: جانب العلم، وجانب العمل، ((يأخذون بسنته، ويقتدون بأمره)) ، وعرفنا أن مرض القلب مرضان: مرض علمي وهو مرض الشبهات ، ومرض عملي وهو مرض الشهوات ؛ وهذا فيه سلامتهم من هذا كله وصلاحهم في العلم والعمل.
أمّا صلاحهم في العلم ففي قوله: ((يأخذون بسنته)) ؛ علومهم ما هو مصدرها؟ من أين يتلقونها؟ هل من مصادر علومهم الآراء؟ هل من مصادر علومهم مثلاً القصص والحكايات؟ هل من مصادر علومهم الذوق؟ ... إلخ؟ لا، لهم مصدر ؛ السنة. كل شيء يقوله من أمر الدين يُسند إلى الرسول ويتلقاه عن الرسول عليه الصلاة والسلام ، ((يأخذون بسنته)) فعلمهم متلقاة من السنة من الرسول . هذا صلاح العلم، فالعلم كله متلقى من الرسول.

وصلاح العمل في قوله: ((ويقتدون بأمره)) أي: أفعالهم كلها اقتداء بأمره ، لا يفعلون شيئاً إلا وهم به مُقتدون وعلى نهجه سائرون.

يقول: ((يأخذون بسنته، ويقتدون بأمره))؛ «يأخذون بسنته» هذا صلاح العلم. «ويقتدون بأمره» هذا صلاح العمل.

((ثم إنها تخلف من بعدهم)) أي: من بعد هؤلاء الصفوة ((خُلوف، يقولون ما لا يفعلون، ويفعلون ما لا يؤمرون)) وهؤلاء فيهم الفساد من الجهتين: جهة العلم، وجهة العمل. «يقولون ما لا يفعلون ، ويفعلون ما لا يؤمرون» فعندهم فساد في العلم، وعندهم فساد في العمل.

قال: ((فمن جاهدكم)) لأنّ هذا منكر عظيم ((فمن جاهدكم بيده فهو مؤمن، ومن جاهدكم بلسانه فهو مؤمن، ومن جاهدكم بقلبه فهو مؤمن، وليس وراء ذلك من الإيمان حبة خردل)) ؛ هذا موضع الشاهد للترجمة قوله: ((وليس وراء ذلك من الإيمان حبة خردل)) ؛ أي: الذي لا ينكر المنكر بقلبه بل يرضى المعصية فهذا ليس

عنده أدنى الدرجات من درجات الإيمان في إنكار المنكر وهي الإنكار بالقلب ، إذا كان قد رضي بالمعصية وأقرّ بها.

قال رحمه الله :

٦٦ - وله عن أم سلمة رضي الله عنها مرفوعاً: ((إنه يُستعمل عليكم أمراء فتعرفون وتنكرون، فمن كره فقد برئ، ومن أنكر فقد سلم، ولكن من رضي وتابع)) أي من كره بقلبه وأنكر بقلبه. وفي رواية غير الصحيح بعد «وتابع» : ((فأولئك هم الهالكون)).

قال: وله -أي: مسلم رحمه الله- عن أم سلمة رضي الله عنها مرفوعاً: ((إنه يُستعملُ عليكم أمراء، فتعرفون وتُكرون)) أي: من الأمور التي يباشرونها ويعملونها أشياء تعرفونها ؛ أي: تعرفونها من هدي الإسلام ومن دين الله تبارك وتعالى، «وتنكرون» أي: تنكرون أشياء من الأمور التي يفعلونها، أشياء منكراً ليست من دين الله سبحانه وتعالى ، فعندهم أشياء من دين الله، وعندهم أشياء منكراً ليست من دين الله عز وجل.

قال: ((فمَنْ كره فقد برئ)) برئت ذمته بالكراهة ؛ لأنه أتى بالقدر الأدنى أو القدر الأقل الذي تبرأ به الذمة ويسلم به من العقوبة، «كره» أي: كره هذه المنكرات التي عندهم بقلبه. فهذه الكراهية تحصل بها براءة الذمة، ((فقد برئ)) أي: برئت ذمته. لكن إن لم يكره بقلبه ورضي أعمالهم تلك فقد هلك. وهذا موضع الشاهد: ((فمَنْ كره فقد برئ))

((ومَنْ أنكر فقد سلم)) إذا كان من أهل القدرة على الإنكار والمناصحة والوصول إلى الؤلاة ومخاطبتهم بتلك المنكرات، وتحذيرهم من خطورتها وسوء مغبتها.

((ولكن)) أي: الخطورة والعقوبة والذنب ((ولكن مَنْ رضي وتابع)) يعني: رضي بالمنكر وتابع أولئك عليه. «رضي» بالمنكر أي: في قلبه، «وتابع» أي: تابعهم بفعل ذلك المنكر .

((أي: مَنْ كره بقلبه وأنكر بقلبه))؛ هذا تفسير لقوله: ((فمَنْ كره فقد برئ، ومَنْ أنكر فقد سلم))؛ مَنْ كره بقلبه وأنكر بقلبه، قال: ((فمَنْ كره فقد برئ)) أي كره بقلبه، ((ومَنْ أنكر بقلبه فقد سلم))، ومن وفقه الله عز وجل وعنده قدرة على المناصحة فهذه درجة أعلى من هاتين الدرجتين ، أما هاتان الدرجتان الكراهة يحصل بها براءة الذمة، والإنكار بالقلب يحصل به السلامة من ذلك المنكر، ((ولكن من رضي وتابع)).

وقوله: «مَنْ كره»؛ الكراهة بالقلب يتحقق بها عدم الرضا، والإنكار يتحقق به عدم المتابعة. وبهذين تكون براءة الذمة والسلامة.

قال: «وفي رواية غير الصحيح بعد "وتابع" : فأولئك هم الهالكون» أي: مَنْ رضي وتابع فإنه هالك.

قال رحمه الله تعالى :

باب ذكر تمني المعصية والحرص عليها

٦٧ - في الصحيحين عن أبي بكرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: ((إذا التقى المسلمان بسيفيهما فالقاتل والمقتول في النار)) ، قالوا: «يا رسول الله هذا القاتل فما بال المقتول؟» قال: ((إنه كان حريصاً على قتل صاحبه)).

قال: «باب ذكر تمني المعصية والحرص عليها» أي: انعقد في قلبه حرص جازم وعزم مؤكّد على فعل المعصية، لكنّه لم يمنعه من فعلها إلّا العجز وعدم القدرة ، وإلّا هو عازم تماماً على أن يفعل وقلبه حريص تماماً على أن يفعل، لكن الذي حال بينه وبين الفعل عدم القدرة والعجز عن الفعل؛ فهذا تكون عقوبته عقوبة الفاعل ، لأنّ الحريص على السيئات الجازم بإرادته على فعلها إذا لم يمنعه إلّا مجرّد العجز فهذا يُعاقب على ذلك عقوبة الفاعل. ومن القواعد التي قرّرها أهل العلم في هذا الباب وذكرها الإمام ابن القيم رحمه الله تعالى: «أنّ العزم إذا اقترن به ما يمكن من الفعل أو مقدّمات الفعل نُزِلَ صاحبه في الثواب والعقاب منزلة الفاعل التّام». هذه قاعدة مفيدة جدّاً ؛ «أنّ العزم إذا اقترن به ما يمكن من الفعل» ما معنى «اقترن به ما يمكن من الفعل»؟ يعني ما حصل له الفعل كاملاً، لكن أمكنه شيء قليل من الفعل، «اقترن به ما يمكن من الفعل أو مقدّمات الفعل» لم يفعل لكن جاء ببعض المقدّمات ولم يتمكّن «نُزِلَ صاحبه في الثواب» إن كان هذا العمل طاعة، «والعقاب» إن كان ذلك العمل معصية «منزلة الفاعل التّام» يُنزل منزلة الفاعل التّام بذلك الحرص الشديد الذي قام في قلبه أنّه يفعل هذا الأمر، ولم يمنعه من فعله إلّا العجز وعدم القدرة.

وذكر رحمه الله على ذلك دليلين من السُّنّة ؛ الأول : في الصحيحين عن أبي بكرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: ((إذا التقى المسلمان بسيفيهما فالقاتل والمقتول في النار)) ؛ إذا التقى القاتل والمقتول بسيفيهما ، هذا الالتقاء بالسيفين يعني أنّ كلّ واحدٍ منهما يريد أن يقتل الآخر، لكن أحدهما سبق فقتل الآخر . إذاً الآخر الذي هو المقتول لولا أنّ هذا سبقه إلى القتل كان يريد أن يسبق هو إلى القتل لكن سبق فلم يتمكّن من القتل ، فيقول: ((إذا التقى المسلمان بسيفيهما فالقاتل والمقتول في النار)).

«قالوا: يا رسول الله هذا القاتل، فما بال المقتول؟» ؛ هذا القاتل واضح قتل، فما بال المقتول أيضاً يكون في النار؟ قال: ((إنّه كان حريصاً على قتل صاحبه)) ؛ فهذا يُؤخّذ منه : أنّ الحرص التّام والعزم الذي لا يردّ عنه إلّا عدم القدرة على فعل الذّنب يُنزل منزلة الفاعل التّام . ولهذا قال عنهما: كلاهما في النار القاتل والمقتول؛ القاتل لأنّه قتل، والمقتول لأنّه كان حريصاً على القتل وعزم على ذلك عزمًا أكيدًا لم يمنعه أو يحلّ بينه إلّا أنّه بادر صاحبه إلى قتله.

ورد في حديث عن النبي عليه الصلاة والسلام أنه قال: ((وَمَنْ هَمَّ بِسَيِّئَةٍ فَلَمْ يَعْمَلْهَا كُتِبَتْ لَهُ حَسَنَةٌ))؛ هل يُقال في ذاك الأول القاتل - قال: لم يعمل السيئة - هل هذا الحديث ينطبق عليه؟ وهل هذا الحديث يُعارض ذاك الحديث؟ يُقال: إنه في حديث آخر للنبي صلى الله عليه وسلم ((مَنْ هَمَّ بِسَيِّئَةٍ فَلَمْ يَعْمَلْهَا كُتِبَتْ لَهُ حَسَنَةٌ)) فهل ينطبق عليه؟ هذا شيء وهذا شيء آخر ؛ هذا هَمَّ بِسَيِّئَةٍ ومنعه منها خوف الله، خشية الله، الخوف من عقوبة الله، تقوى الله عز وجل ؛ هذا تُكْتَبُ له حسنة ، يُكْتَبُ له تركه للسيئة حسنة ويدخل في جملة طاعاته وعباداته. فرق بين مَنْ يترك السيئة خوفاً من الله، وبين مَنْ يترك السيئة لعجزه وعدم قدرته عليها، ولو تَمَكَّنَ لفعلها لحرصه التَّام وعزمه الأكيد على فعلها. فرق بين مَنْ تركها لعجزه، وبين مَنْ تركها لخوفه من ربه سبحانه وتعالى.

قال رحمه الله :

٦٨ - وعن أبي كبشة الأنماري رضي الله عنه مرفوعاً أنه قال: ((مثل هذه الأمة مثل أربعة رجال: رجل آتاه الله مالاً وعِلماً فهو يعمل في ماله بعلمه، ورجل آتاه الله علماً ولم يؤته مالا فقال: لو كان لي مال مثل مال فلان لعمِلْتُ فيه مثل عمله، فهما في الأجر سواء ، ورجل آتاه الله مالاً ولم يؤته علماً فهو يتخبط في ماله لا يدرى ما له مما عليه ، ورجل لم يؤته الله مالاً ولا علماً فقال: لو كان لي مثل مال فلان لعمِلْتُ فيه مثل ما عمل فلان فهما في الوزر سواء)) صححه الترمذي .

قال: وعن أبي كبشة الأنماري رضي الله عنه مرفوعاً : ((مثل هذه الأمة كمثال أربعة رجال: رجل آتاه الله مالاً وعِلماً، فهو يعمل في ماله بعلمه)) ؛ لأنَّ العلم يضيء له الطريق ، وإذا دخل الإنسان في المال بدون علم دخل في أمور محرمة وأشياء تسخط الله عز وجل ، ولهذا كان نبينا عليه الصلاة والسلام كلَّ يوم إذا أصبح يقول في دعائه: «اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ عِلْماً نَافِعاً، وَرِزْقاً طَيِّباً» ، بدأ بالعلم النَّافع قبل الرِّزْق الطَّيِّب؛ لماذا؟ لأنه لا يمكن أن يميِّز الإنسان بين رزقٍ طَيِّبٍ وخبيثٍ إلاَّ بالعلم ؛ فإذا كان عند المرء علمٌ نافع فإنه يميز به بين الخبيث والطَّيِّب. وهذا الرَّجل آتاه الله مالاً وعِلماً فهو يعمل في ماله بعلمه، «بِعَمَلِهِ» أي: الَّذي آتاه الله إِيَّاه.

((ورجل آتاه الله علماً ولم يؤته مالاً، فقال: لو كان لي مالٌ مثل مال فلان لعمِلْتُ فيه مثل عمله)) هذا عزم وحرص شديد قام في قلب هذا الرَّجل ، والعزم والحرص على الخير إذا قام في القلب ولم يمنع منه إلاَّ عدم القدرة - مثل هذا الآن لم يمنع من أن يفعل مثل ذاك الرَّجل إلاَّ عدم وجود المال، وإلاَّ لو وُجِدَ المال لفعل مثله - يُنَزَّلُ منزلة الفاعل ، ولهذا قال: ((فهما في الأجر سواء)) ؛ سبحان الله! انظر إلى سعة فضل الله عز وجل ، رجل ثري عنده أموال كثيرة جداً وعنده علم، ويعمل بماله بعلمه، يزكِّي ، ويتصدَّق، ويبني المساجد، ويطبع المصاحف، ويبني دور الأيتام، ويحفر الآبار، ويعمل أعمال كثيرة من أعمال الخير . ورجل آخر فقير ليس عنده شيء، لكن عنده علم، وقال وصدق مع ربه في عزمه أنَّه لو كان عنده من المال مثل ما عند ذلك الرَّجل لفعل مثله، فهما في الأجر

سواء، يجد يوم القيامة أجر مثل تلك الأجور، حفر آبار، طباعة مصاحف، بناء مساجد.. إلى غير ذلك، يجد هذه الأجور، وأيضًا لا يأتي بمال يوم القيامة يُحاسب عليه . الفقراء يسبقون الأغنياء، لكنّه يحصل هذه الأجور أجور الأموال بهذا الحرص الذي قام في قلبه، والله عزّ وجلّ فضله عظيم، فضله واسع، ومع ذلك أكثر الفقراء يخل على نفسه بهذا الحرص الذي يحصل فيه هذه الأجور العظيمة الجزيلة الواسعة في أمورٍ لم يعملها ، لكن قام في قلبه حرصٌ شديدٌ عليها فأعطاه الله عزّ وجلّ على هذا الحرص مثل أجر الفاعل.

((ورجلٌ آتاه الله مالاً ولم يؤتّه علماً)) ؛ عنده أموال كثيرة وليس عنده علم ، وهذا خطر جدًّا على الإنسان، إذا كان عنده أموال كثيرة وليس عنده علم هذا من أخطر ما يكون ، ((فهو يتخبّط في ماله لا يدري ما له ممّا عليه))؛ ولهذا يمشي في المال خبط عشواء ؛ تضييع حقوق، ويعتدي على أشخاص، وينتهب أموال، ويُرابي في المال... وإلى غير ذلك من الوجوه المحرّمة ، يتخبّط في ماله لا يدري ما له ممّا عليه.

((ورجلٌ لم يؤتّه الله مالاً ولا علماً - وهذا موضع الشاهد للترجمة - فقال: لو كان لي مثل مال فلان، لعملتُ فيه مثل عمله)) - نسأل الله العافية - يرى ذلك الذي معه الأموال يستخدم الأموال في الخمر وفي الفواحش في الرذائل في المحرّمات في كذا ويخبط في المال هذا الخبط، فيقول هذا الفقير: لو كان لي مال مثله لفعلت مثله ؛ لأنّه لا مال عنده ولا علم عنده . قال: ((فهما في الوزر سواء)) لماذا في الوزر سواء؟ لأنّ الحريص الذي عنده العزم الأكيد الذي لم يمنعه من الفعل إلا العجز وعدم القدرة يُنزّل منزلة الفاعل التّام ؛ لأنّه أتى بالنية وبمقدوره التّام فنزّل منزلة الفاعل التّام.

إذاً هذا الحديث الذي هو حديث أبي كبشة يمكن أن تُستخلص منه القاعدة التي أشار إليها أهل العلم وهي : «أنّ العزم إذا اقترن به ما يمكن من الفعل أو مقدّمات الفعل نُزّل صاحبه في الثّواب والعقاب منزلة الفاعل التّام». سبحانه اللهم وبحمدك ، أشهد أن لا إله إلا أنت ، أستغفرك وأتوب إليك . اللهم صلّ وسلم على عبدك ورسولك نبينا محمد وآله وصحبه أجمعين.

الدرس الثاني عشر

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله رب العالمين، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله صلى الله وسلم عليه وعلى آله وأصحابه أجمعين. أمّا بعد:

قال الشيخ محمد بن عبد الوهاب رحمه الله في كتاب الكبائر :

باب ذكر الريب

وقول الله تعالى: ﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا ﴾ [الحجرات: ١٥] ، وقوله تعالى: ﴿ وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ وَبِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ﴾ (٤) أُولَئِكَ عَلَى هُدًى مِنْ رَبِّهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ [البقرة: ٤-٥] ، وقوله تعالى: ﴿ وَإِذَا قِيلَ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَالسَّاعَةُ لَا رَيْبَ فِيهَا ﴾ إلى قوله: ﴿ وَمَا نَحْنُ بِمُشْتَقِّينَ ﴾ [الحجرات: ٣٢] .

قال رحمه الله تعالى : «باب ذكر الريب» ؛ الرِّيب آفة خطيرة جداً من آفات القلوب، وهو الشكُّ، ضدُّ اليقين. والله عزّ وجلّ لا يقبل في إيمان العبد إلا اليقين ، أمّا إذا كان شاكاً متردداً غير جازم غير مستيقن فإنّ ذلك لا يُقبل منه؛ لأنّ الإيمان يقين لا ريب فيه ولا شكّ ، فإذا وُجد الشكّ انتفى اليقين، وانتفى بانتفائه الإيمان، فمن كان شاكاً مُرتاباً لا إيمان له؛ لأنّ الإيمان هو اليقين الجازم الذي لا شكّ فيه ولا ريب.

قال الله سبحانه وتعالى: ﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا ﴾ [الحجرات: ١٥] ؛ ومعنى قوله: ﴿ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا ﴾ أي: أيقنوا ولم يشكوا، فمن لم يكن إيمانه كذلك لا إيمان له. قال: ﴿ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا ﴾ أي لم يقم في قلوبهم ريبٌ أو شكّ، بل إيمانهم جازم لا تردّد فيه ولا ارتياب، وإذا كان في الإيمان ارتياب؛ فيه شكّ، فيه تردّد، فيه عدم جزم، فإنّه لا يُعدّ إيماناً بل يُعدّ كُفراً، ومن أنواع الكفر: كفر الشكّ ، كفر الرّيب؛ لأنّ من لم يكن جازماً وكان مُرتاباً ، يعني مثلاً: يُسأل عن اليوم الآخر، يقول: احتمال أن يكون هناك يوم آخر، احتمال ما يكون - مثلاً - ، أو يقول مثلاً: احتمال أنه يوجد ملائكة، وممكن ما يكون هناك ملائكة، أنا ما عندي جزم أنه يوجد ملائكة. إذا لم يكن عنده يقين فهذا كفر؛ لأنّ الإيمان الذي يقوم عليه دينُ الله سبحانه وتعالى يقينٌ كلّهُ، فإذا لم يوجد هذا اليقين لا يُعدّ مؤمناً، قد قال الله عزّ وجلّ : ﴿ وَمَنْ يَكْفُرْ بِالْإِيمَانِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ

الْخَاسِرِينَ ﴿المائدة: ٥﴾ ، ومن ذلك المرتاب، المرتاب في أصول الإيمان وقواعد الدين وثوابت الشريعة، مَنْ عنده رَيْبٌ في ذلك فَإِنَّ رَيْبَهُ يُخْبِطُ عمله كُلَّهُ. فالإيمانُ يَقِينٌ لا رَيْبَ فيه .

﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ﴾ و«إِنَّمَا» أداة حصر ﴿الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا﴾ ومعنى ﴿لَمْ يَرْتَابُوا﴾: أي أيقنوا ولم يشكوا. قد قال عليه الصَّلَاةُ والسَّلَام: ((أشهد أن لا إله إلا الله وأني رسول الله، لا يلقي الله بهما عبدٌ غيرُ شاكٍّ فيهما إلاّ أدخله الله الجنة)) ؛ اشترط عليه الصَّلَاةُ والسَّلَامُ اليقين، قال: ((غيرُ شاكٍّ فيهما أدخله الله الجنة)) ، بمعنى أنه إن وُجِدَ الشَّكُّ، أو وُجِدَ الرَّيْبُ لم يكن من أهل الجنة؛ لأنَّه ليس عنده إيمان، فالإيمانُ: اليقين.

قال رحمه الله تعالى: وقوله ﴿وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ وَبِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ﴾ (٤) أُولَئِكَ عَلَى هُدًى مِنْ رَبِّهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿البقرة: ٤-٥﴾ ؛ الشاهد من هذه الآية الكريمة قوله : ﴿وَبِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ﴾ واليقين: هو كمال العلم وانتفاء الرَيْبِ، ولا يكونُ مؤمناً بالآخرة إلاّ مَنْ كان إيمانه بها عن يقين ، فإذا كان في إيمانه تردُّد أو ارتياب أو عدم جزمٍ أو نحو ذلك فهذا يُعَدُّ كُفْراً أكبرَ ناقل من المِلَّةِ؛ لأنَّ الإيمان هو اليقين، ﴿وَبِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ﴾ ، واليقين: هو كمال العلم وتماحه وانتفاء الرَيْبِ والشَّكِّ ، فإذا وُجِدَ شكٌّ أو رَيْبٌ أو عدم جزم بهذه الأصول أو بشيءٍ منها فَإِنَّ ذلك يُعَدُّ كُفْراً.

كذلك قول الله سبحانه وتعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَالسَّاعَةُ لَا رَيْبَ فِيهَا قُلْتُمْ مَا نَدْرِي مَا السَّاعَةُ إِنَّهُ نَظُنُّ الْإِثْلَاقَ وَمَا نَحْنُ بِمُسْتَيقِينَ﴾ [الحاقة: ٣٢]؛ انظر إلى هذه الكلمات: ﴿مَا نَدْرِي مَا السَّاعَةُ﴾، ﴿إِنَّهُ نَظُنُّ الْإِثْلَاقَ﴾، ﴿وَمَا نَحْنُ بِمُسْتَيقِينَ﴾ هذه كُلُّها تدلُّ على أَنَّ هؤلاء لا يقينَ عندهم. والإيمانُ بالسَّاعةِ لا يكونُ إيماناً إلاّ بانتفاء الرَيْبِ، مثل ما قال الله سبحانه وتعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَالسَّاعَةُ لَا رَيْبَ فِيهَا﴾ لا شكَّ في وقوعها، فإذا لم يكن الإيمان بهذا الوصف «إيمانٌ لا رَيْبَ فيه» فَإِنَّ صاحبه يكون كافرًا؛ لأنَّ الإيمان هو اليقين، الإيمان هو انتفاء الرَيْبِ، فإذا وُجِدَ الرَيْبُ لا يوجد الإيمان، لا يمكن أن يجتمع إيمانٌ ورَيْبٌ؛ لأنَّ الإيمان هو انتفاء الرَيْبِ، فإذا وُجِدَ الرَيْبُ انتفى الإيمان، وإذا وُجِدَ الإيمان الصحيح انتفى الرَيْبُ، أمّا أن يجتمع إيمانٌ ورَيْبٌ! لا يجتمعان، فمَنْ كان عنده رَيْبٌ ليس بمؤمن. فهؤلاء الذين يقولون: ﴿مَا نَدْرِي مَا السَّاعَةُ إِنَّهُ نَظُنُّ الْإِثْلَاقَ وَمَا نَحْنُ بِمُسْتَيقِينَ﴾ هؤلاء كفار ليسوا بمؤمنين ، لماذا؟ لأنَّ ليس عندهم يقين، ليس عندهم إلاّ الرَيْبُ والشَّكُّ، وهذا كفرٌ بالله سبحانه وتعالى.

والإيمان بالسَّاعة أصلٌ من أصول الإيمان وركنٌ من أركان الدِّين، قال الله سبحانه وتعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا آمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِي نَزَّلَ عَلَى رَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِي أَنْزَلَ مِنْ قَبْلُ وَمَنْ يَكْفُرْ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا﴾ [النساء: ١٣٦] ، فَمَنْ كَانَ مُرْتَابًا فِي الْيَوْمِ الْآخِرِ لَيْسَ عِنْدَهُ يَقِينٌ فِيهِ أَوْ فِي أَيِّ أَصْلٍ مِنْ أَصُولِ الْإِيمَانِ يُعَدُّ كَافِرًا ، حتى لو كان يُصَلِّي أو يصوم أو يتصدق فَإِنَّ أَعْمَالَهُ كُلَّهَا لَا تَكُونُ مَقْبُولَةً؛ لِأَنَّ الْأَصْلَ الَّذِي يَقُومُ عَلَيْهِ دِينُ اللَّهِ سَبْحَانَهُ وَتَعَالَى لَيْسَ مَوْجُودًا عِنْدَهُ.

قال رحمه الله :

وكان معاذ رضي الله عنه يقول في مجلسه كل يوم قلّ ما يخطئه: «الله حَكَمٌ قِسْطٌ، هلك المرتابون» .

قال رحمه الله تعالى: «وَكَانَ مُعَاذُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يَقُولُ فِي مَجْلِسِهِ كُلَّ يَوْمٍ قَلَّ مَا يَخْطِئُهُ» ؛ معنى «قَلَّ مَا يَخْطِئُهُ» أي: لا يفوته ، لا يكاد يجلس مجلسًا في يومٍ إلّا ويقول هذه الكلمة: «الله حَكَمٌ قِسْطٌ ، هلك المرتابون». وهذا الأثر عن معاذ رواه أبو داود في سننه بإسنادٍ صحيح إلى معاذ موقوفًا عليه رضي الله عنه، ولفظُ أبو داود قال: «كَانَ مُعَاذٌ لَا يَجْلِسُ مَجْلِسَ ذَكَرٍ حِينَ يَجْلِسُ إِلَّا قَالَ : اللهُ حَكَمٌ قِسْطٌ هَلَكَ الْمُرتَابُونَ» ؛ "لا يجلس مجلس ذكر" المراد بمجلس الذِّكر: مجلس الوعظ والتعليم والتذكير بالله سبحانه وتعالى ، فيكون من جملة وعظه وتذكيره رضي الله عنه وأرضاه هذه الكلمة: «الله حَكَمٌ قِسْطٌ هلك المرتابون» .

«حَكَمٌ» أي: حاكم ، له الحُكْمُ جَلَّ فِي عِلَاهُ ﴿إِنَّ الْحُكْمَ إِلَّا لِلَّهِ﴾ [الأنعام: ٥٧] ، ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ مِنْ اللَّهِ حُكْمًا﴾ [المائدة: ٥٠] . و«الحُكْمُ» اسم من أسمائه تبارك وتعالى، والله عَزَّ وَجَلَّ لَهُ الْحُكْمُ الْكُونِي الْقَدْرِي، وله الحكم الشرعي الدِّيني، وله الحكم الجزائي، هذا كُلُّهُ لِلَّهِ عَزَّ وَجَلَّ .

■ **الحكم الكوني القدري:** كل ما حكم به كَوْنًا وَقَدَرًا وقع طبقًا لِمَا حكم به، وطبقًا لما قضاه سبحانه وتعالى، لا رادَّ لقضائه ولا مُعَقَّبَ لحكمه، ((ماضٍ فِي حُكْمِكَ)) أي: حكمك القضائي الكوني نافذ ، «ما شئتَ كان وإن لم أشأ»، ما حكم الله به وقضاه وقدره لا بدَّ أن يقع طبقًا لما قدره وقضاه سبحانه: ﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْءًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ .

■ **وله الحكم الشرعي :** ﴿أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ شَرَعُوا لَهُمْ مِنَ الدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنْ بِهِ اللَّهُ﴾ [الشورى : ٢١] ، ﴿إِنَّ الْحُكْمَ إِلَّا لِلَّهِ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ﴾ [يوسف : ٤٠] ، الحكم الشرعي لله عَزَّ وَجَلَّ ليس لأحدٍ أن يشرع، الشارع هو ربُّ العالمين، الحكم الشرعي لله ربِّ العالمين وحده سبحانه وتعالى.

■ والحكم الجزائي الذي هو الثواب والعقاب ﴿لِيَجْزِيَ الَّذِينَ أَسَاءُوا بِمَا عَمِلُوا وَيَجْزِيَ الَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْحُسْنَى﴾ [النجم: ٣١] أيضاً الحكم الجزائي لله سبحانه وتعالى رب العالمين لا شريك له، فهو عز وجلّ حكم. «قِسْطٌ» والقسط: العدل . وقوله «حَكَمٌ قِسْطٌ» أي حاكمٌ عادل ، والله سبحانه وتعالى عدلٌ لا يظلم جلّ في علاه ﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَالِمٍ لِّلْعَبِيدِ﴾ [فصلت: ٤٢] ، ﴿فَلَا يَخَافُ ظُلْمًا وَلَا هَضْمًا﴾ [طه: ١١٢] ، فالله عز وجلّ لا يظلم، ﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ﴾ (٧) وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ﴾ [الزلزلة: ٧ - ٨] .

قال: «هَلَكَ الْمُرتَابُونَ» وهذا موضع الشاهد من كلامه رضي الله عنه للترجمة «هلك المرتابون» ؛ أي أنّ الرّيب في الله أو في أسمائه أو في صفاته ، أو في اليوم الآخر، أو في الملائكة، أو في النّبيين، أو في القضاء والقدر، أو في الكتب المنزلة .. الرّيب في أصول الإيمان وقواعد الدّين كفرٌ مهلكٌ لصاحبه.

قال: «هلك المرتابون» ؛ ومعنى المرتابون: الشّاكّون الذين ليس عندهم إيمان، وإمّا عندهم شكٌّ ورّيب؛ فمن كان كذلك فقد هلك ، والهلاك هنا هلاك الكفر والعياذ بالله الناقل من الملة.

قال رحمه الله:

وقال ابن مسعود رضي الله عنه: «إنّ من اليقين أن لا تُرضي أحداً بسخط الله ، ولا تحمد أحداً على ما آتاك الله، ولا تلوم أحداً على ما لم يؤتكَ الله، وإن الله بعلمه وقسطه جعل الروح والفرح في اليقين، وجعل الهم والحزن في الشك والسخط، وإن رزق الله لا يحره حرص حريص ولا يرّده كراهية كاره».

قال رحمه الله تعالى : وعن ابن مسعود، وهذا الأثر رواه البيهقي في كتابه «شُعَبُ الإِيْمَان» قال: «إنّ من اليقين ألا تُرضي أحداً بسخط الله» ؛ إنّ من اليقين: أي إنّ من يقينك بالله وعده سبحانه وتعالى لعباده بالإنعام والحفظ والتّسديد والمعونة. إنّ من يقينك بالله وثقتك به وحسن اعتمادك عليه وتوكلّك عليه سبحانه وتعالى ألا تُرضي أحداً بسخط الله ؛ وهذا فيه أنّ المرء إذا كان يُرضي النَّاسَ ويستجلب عواطفهم ويستدّر ما عندهم بشيء يُسخطُ الله سبحانه وتعالى فهذا من أمارات ضعف يقينه بالله ؛ لأنّه قال هنا: «إنّ من اليقين ألا تُرضي أحداً بسخط الله» فمفهوم ذلك: أنّ من ضعف اليقين أن تُرضي أحداً بسخط الله ، فكلّ ما يتكلّم به الإنسان مع النَّاسِ يستدّر مثلاً به عواطفهم في أمور تُسخط الله ويعلم أنّها تُغضب الله، لكن يريد أن يستميل النَّاسَ هذا من ضعف يقينه بالله سبحانه وتعالى، ضعف ثقته بالله أنّ الرّزق منه وأنّ الفضل بيده سبحانه وتعالى جلّ في علاه،

وَأَنَّ الْأَمْرَ كَمَا قَالَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿مَا يَفْتَحُ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِنْ رَحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا وَمَا يُمْسِكُ فَلَا مُرْسِلَ لَهُ مِنْ بَعْدِهِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [فاطر: ٢٠].

«وَلَا تَحْمَدُ أَحَدًا عَلَى مَا آتَاكَ اللَّهُ» ؛ لِأَنَّ الْفَضْلَ أَوَّلًا وَآخِرًا لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ، فَهُوَ مُوَلِي النِّعْمَةِ وَمُسَدِّدُهَا ، وَالْمَنْعِ بِهَا وَالْمُتَفَضِّلِ ، كَمَا قَالَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَمَا بِكُمْ مِنْ نِعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ﴾ [النحل: ٥٣] ، كَمَا قَالَ جَلَّ وَعَلَا: ﴿وَإِنْ تَعَدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا﴾ [إبراهيم: ٣٤] ، فَالنِّعْمَةُ نِعْمَةُ اللَّهِ وَالْفَضْلُ فَضْلُ اللَّهِ ، فَلَا تَحْمَدُ أَحَدًا عَلَى مَا آتَاكَ اللَّهُ ؛ لِأَنَّ الْفَضْلَ فَضْلُ اللَّهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى ، وَالْمَنْ مَنَّهُ جَلَّ فِي عُلَاهُ.

«وَلَا تَلُومَ أَحَدًا عَلَى مَا لَمْ يُؤْتِكَ اللَّهُ» ؛ وَهَذَا كُلُّهُ مِنْ قُوَّةِ الْيَقِينِ عِنْدَمَا يَكُونُ فِي الْعَبْدِ ، لَا تَلُومَ أَحَدًا عَلَى مَا لَمْ يُؤْتِكَ اللَّهُ ، وَلَيْسَ مَعْنَى ذَلِكَ: أَنَّ الْإِنْسَانَ إِذَا ظَلِمَ مَثَلًا لَا يُطَالَبُ بِحَقِّهِ ، بَلْ لَهُ أَنْ يُطَالَبَ بِحَقِّهِ ، وَلَهُ أَنْ يَبْذُلَ الْأَسْبَابَ الْمَشْرُوعَةَ بِتَحْصِيلِ حَقِّهِ ، لَكِنْ اعْتِمَادَهُ وَثِقَتَهُ وَتَوَكُّلَهُ وَالتَّجَاوُءَ فِي كُلِّ ذَلِكَ لِلَّهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى رَبِّ الْعَالَمِينَ.

«وَإِنَّ اللَّهَ بَعَلْمَهُ وَقِسْطُهُ» أَي: عَدْلُهُ الَّذِي لَا ظُلْمَ فِيهِ «جَعَلَ الرِّوْحَ وَالْفَرْحَ فِي الرِّضَى وَالْيَقِينِ» بِمَعْنَى: أَنَّ الرِّضَى بِاللَّهِ وَعَنِ اللَّهِ وَالْيَقِينِ بِهِ جَلَّ فِي عُلَاهُ هُوَ الَّذِي يَجْلِبُ لِلْقَلْبِ الْفَرْحَ وَالرَّاحَةَ وَالسُّرُورَ وَالطُّمَأْنِينَةَ ، كَمَا قَالَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أَنْتَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهٗ حَيَاةً طَيِّبَةً﴾ [النحل: ٩٧] ، قَالَ جَلَّ وَعَلَا: ﴿أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ﴾ [الرعد: ٢٨] ، فَالرِّضَا بِاللَّهِ وَعِنَهُ وَالْيَقِينُ بِهِ سُبْحَانَهُ هُوَ الَّذِي يَجْلِبُ لِلْقَلْبِ الرَّاحَةَ وَالْفَرْحَ وَاللَّذَّةَ وَالسَّعَادَةَ وَالطُّمَأْنِينَةَ.

«وَجَعَلَ الْهَمَّ وَالْحُزْنَ فِي الشَّكِّ وَالسَّخَطِ» وَهَذَا مَوْضِعُ الشَّهَادَةِ «فِي الشَّكِّ وَالسَّخَطِ» ؛ إِذَا وُجِدَ الشَّكُّ الَّذِي هُوَ عَدَمُ الْإِيمَانِ وَعَدَمُ الْجُزْمِ وَعَدَمُ الْيَقِينِ ، وَوُجِدَ السَّخَطُ الَّذِي هُوَ عَدَمُ الرِّضَى عَنِ اللَّهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى وَعَنِ قَضَائِهِ جَلَّ فِي عُلَاهُ ، فَإِذَا وُجِدَ هَذَانِ الشَّكُّ وَالسَّخَطُ وَجِدَ الْهَمُّ وَالْحُزْنَ ، كَمَا أَنَّ الْيَقِينَ وَالرِّضَا مَجْلِبَةٌ لِلْفَرْحِ وَالرَّوْحِ فَإِنَّ الشَّكَّ وَالسَّخَطَ مَجْلِبَةٌ لِلْهَمِّ وَالْحُزَنِ.

«وَإِنَّ رِزْقَ اللَّهِ لَا يَجْرُهُ حَرَصٌ حَرِصٌ وَلَا يَرُدُّهُ كَرَاهِيَةٌ كَارِهَةٌ» أَي أَنَّ اللَّهَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى مَا كَتَبَهُ لَكَ مِنْ رِزْقٍ حَاصِلٌ لَا رَادَّ لَهُ ، وَمَا لَمْ يَكْتُبَهُ لَكَ مِنْ رِزْقٍ غَيْرُ حَاصِلٍ ، قَالَ جَلَّ وَعَلَا: ﴿مَا يَفْتَحُ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِنْ رَحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا وَمَا يُمْسِكُ فَلَا مُرْسِلَ لَهُ مِنْ بَعْدِهِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [فاطر: ٢٠].

قال رحمه الله :

وقال عمر رضي الله عنه يوم الحديبية: «فَعَمِلْتُ لَذَلِكَ أَعْمَالًا».

هذه الكلمة تُؤثر عن الخليفة الراشد عمر بن الخطاب رضي الله عنه ، قالها على إثر موقفه عند الصُّلح - صلح الحديبية- لما كان يراجع الرسول عليه الصَّلَاة والسَّلَام في ذلك الصُّلح، ثم ذهب إلى أبي بكر رضي الله عنه وكان يراجع في ذلك الصُّلح ، فوجدَ عنده شيء من التَّردُّد فيما صالح عليه النَّبيَّ المشركين ، وكان يقول: «لماذا نعطي الدِّنيَّة في ديننا، أليس الحقُّ معنا؟» كان يريد أن يمضوا في القتال، ووقع في نفسه شيء من التَّردُّد في الصُّلح والموافقة على البنود التي كانت ، حتى قال للنَّبيِّ صَلَّى الله عليه وسلَّم: «ألم تقلْ لنا أنَّنا سنعتَمِر؟» قال: بلى: قال له النَّبيُّ عليه الصَّلَاة والسَّلَام : ((أقلت لك في هذا العام؟!)) ، ولما ذهب إلى أبي بكر سأله السُّؤال نفسه، وأجاب أبو بكر بالجواب نفسه، قال: «ألم يقلْ لنا إنَّا سنعتَمِر؟» قال: بلى. قال: أقال لك: في هذا العام؟ قال: لا، فوجدَ عنده شيء من التَّردُّد، ثمَّ لما تبَيَّن له الأمر قال كلمته هذه رضي الله عنه «فَعَمِلْتُ لَدَلك أَعْمالاً» ؛ ماذا يقصد؟ فَعَمِلْتُ لَدَلك أَعْمالاً : أي أعمال صالحة يريد أن تكفِّر تلك الوقفة الَّتِي كانت منه. قال: «فَعَمِلْتُ لَدَلك أَعْمالاً» أي: من صدقات وصيام وعتق للرِّقاب وأشياء من هذا القبيل يريد أن تكون كِفارةً لما مضى من التَّوقُّف في الامتثال ابتداءً ، لأن حصل في ابتداء الأمر شيء من التَّوقُّف والمراجعة للنَّبيِّ عليه الصَّلَاة والسَّلَام والمراجعة لأبي بكر رضي الله عنه. وقوله: «فَعَمِلْتُ لَدَلك أَعْمالاً» جاء في بعض الروايات ما يوضِّح ذلك حيث قال: «ما زلتُ أَتصدَّقُ وأصوم وأصلي وأعتق من الذي صنعتُ يومئذٍ؛ مخافةً كلامي الذي تكلمتُ به» رضي الله عنه وأرضاه وعن الصَّحابة أجمعين.

قال رحمه الله :

٦٩ - وفيه معنى قوله صلى الله عليه وسلم : ((ذاق طعم الإيمان من رضي بالله رباً، وبالإسلام ديناً، وبمحمد رسولاً)) أخرجه مسلم. وعن العباس رضي الله عنه مثله.

قال: وفيه معنى قوله صَلَّى الله عليه وسلَّم: ((ذاق طَعْمَ الإِيْمَانِ مَنْ رَضِيَ بِاللّهِ رَبًّا، وبالإِسْلَامِ دِينًا، وبمُحَمَّدٍ صَلَّى الله عليه وسلَّم رَسولًا)) ؛ وهذه الثَّلاث هي أصول الدِّين الذي عليها يقوم ؛ الرِّضا بالله، والرِّضا بدينه، والرِّضا برسوله عليه الصَّلَاة والسَّلَام ، هذه الأصول الثَّلاثة الَّتِي يقوم عليها الدِّين، وفيها أَلْف شيخ الإسلام مُحَمَّد بن عبد الوهَّاب رحمه الله رسالته العظيمة «الأصول الثَّلاثة» بناها على هذه الأصول العظيمة، وعن هذه الأصول يُسأل كلُّ إنسان إذا أُدرِجَ في قبره «مَنْ رَبُّكَ؟ وما دينك؟ وَمَنْ نَبِيُّكَ؟»، ومطلوبٌ من المسلم أن يستذكر هذه الأصول استذكارةً مستمِرَّةً يومياً استذكارةً متكرِّرةً، ومن ذلكم : عند سماع الأذان بعد أن يقول المؤدِّن: «أشهد أن

لا إله إلا الله، أشهد أن محمداً رسول الله» يُشَرِّعُ لك أن تقول: رضيْتُ بالله ربّاً، وبالإسلام ديناً، وبمحمّدٍ صلّى الله عليه وسلّم رسولاً.

والرّضى بالله ربّاً: هو رضا به سبحانه ، وبأسمائه الحسنى وبصفاته، وبحكمه، وعدله، وبقضائه سبحانه وتعالى وقدره، والإيمان بأنّه عزّ وجلّ رحيمٌ غفورٌ كريمٌ حكّم قسطنّ جلّ في علاه .

«الرّضا بالله» والرّضا بالله تعلّقهُ بالأسماء والصفّات، والرّضا عن الله تعلّقهُ بالجزاء، ﴿رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ﴾ [البينة: ٨] هذا متعلق بالتّواب والجزاء، وهو ثمرة الرّضا بالله الرّضا عنه سبحانه.

والرّضى بالإسلام ديناً: وقد قال الله تعالى: ﴿وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا﴾ [المائدة: ٣] ، بأن يُقبَل العبدُ على هذا الدّين ولا يبغي ديناً سواه ﴿وَمَنْ يُبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ [آل عمران: ٨٥] .
والرّضى بمحمّدٍ صلّى الله عليه وسلّم رسولاً: بالإيمان بأنّه مُرْسَل من ربّ العالمين وأنّه بلّغ الرّسالة وأدّى الأمانة ونصح الأُمّة، وأن يُطيعه فيما أمر، وأن يصدّقَه فيما أخبر، وأن ينتهي عمّا نهى عنه وزجر، صلوات الله وسلامه وبركاته عليه.

قال رحمه الله تعالى :

باب السُّخْط

وقول الله تعالى: ﴿وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ يَهْدِ اللَّهُ قَلْبَهُ﴾ [البقرة: ١٧٧] . قال علقمة رحمه الله: «هو الرجل تصيبه المصيبة فيعلم أنّها من عند الله فيرضى بها ويسلم».

قال: «باب السُّخْط»؛ والسُّخْط: يتعلّق بالمصيبة والابتلاء ، والسُّخْط هو ضدّ الرّضا، وينشأ السُّخْط من عدم الإيمان بقدر الله وقضائه سبحانه وتعالى ، فمن لا يؤمن بالقدر إذا حلّ البلاء ونزلت المصيبة ووقعت الشّدّة ووجدَ عنده السُّخْطُ وعدم الرّضا.

أورد قول الله عز وجل : ﴿مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ يَهْدِ اللَّهُ قَلْبَهُ﴾ ؛ ﴿مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ أي: لا يقع شيء من المصائب من فقر أو موت أو مرض أو غير ذلك من أنواع المصائب ﴿إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ أي: بقضائه وقدره، وقد قال الله سبحانه وتعالى: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنْفُسِ وَالثَّمَرَاتِ﴾ [البقرة: ١٥٥] ، هذه كلّها أمور بقضاء الله سبحانه وتعالى وقدره.

﴿وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ يَهْدِ اللَّهُ قَلْبَهُ﴾ يَهْدِي قَلْبَهُ عِنْدَ الْمَصَابِ فَيَنْشُرُ الصَّدْرَ ، وَتَرْتَاحُ النَّفْسُ ، وَيَتَحَقَّقُ الْإِيمَانُ بِقَضَاءِ اللَّهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى وَقَدْرُهُ ، ﴿وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ يَهْدِ اللَّهُ قَلْبَهُ﴾ ؛ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ: أَنَّ الْأُمُورَ بِقَضَائِهِ وَقَدْرِهِ، وَأَنَّ مَا أَصَابَهُ لَمْ يَكُنْ لِيُخْطِئَهُ، وَمَا أَخْطَأَهُ لَمْ يَكُنْ لِيُصِيبَهُ.

قال علقمة بن قيس النخعي رحمه الله في بيان معنى هذه الآية: «هو الرجل تصيبه المصيبة، فيعلم أنها من عند الله، فيرضى ويسلم» هذا معنى قوله: ﴿وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ يَهْدِ اللَّهُ قَلْبَهُ﴾ أي: أَنَّ الرَّجُلَ الْمُسْلِمَ الصَّادِقَ فِي إِسْلَامِهِ وَإِيمَانِهِ تَصِيبُهُ الْمَصِيبَةُ مِنْ مَوْتٍ قَرِيبٍ أَوْ مَثَلًا فَقَدْ مَحْبُوبٍ أَوْ مَثَلًا حَصُولَ فَقْرٍ أَوْ حَصُولَ مَرَضٍ، أَوْ غَيْرَ ذَلِكَ مِنْ أَنْوَاعِ الْمَصِيبَاتِ، فَيَعْلَمُ أَنَّهَا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ أَي: أَنَّ اللَّهَ هُوَ الَّذِي كَتَبَ ذَلِكَ وَقَضَاهُ وَقَدَرَهُ، وَأَنَّ هَذَا الَّذِي حَصَلَ لَمْ يَكُنْ لِيُخْطِئَهُ؛ لِأَنَّهُ شَيْءٌ مُقَدَّرٌ ، شَيْءٌ مَكْتُوبٌ كَتَبَهُ اللَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى. قال: «فَيَعْلَمُ أَنَّهَا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ فَيَرْضَى» أَي: يَرْضَى بِقَضَاءِ اللَّهِ وَبِمَا قَدَرَهُ وَقَضَاهُ «وَيَسْلِمُ» لِلْقَضَاءِ وَالْقَدَرِ، لَا يَتَسَخَّطُ وَلَا يَعْتَرِضُ وَلَا يَجْزَعُ، وَقَدْ قَالَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: ((لَيْسَ مَنَا مَنْ لَطَمَ الْخُدُودَ، وَشَقَّ الْجُيُوبَ، وَدَعَا بِدَوَى الْجَاهِلِيَّةِ)).

قال رحمه الله :

٧٠ - وعن أنس رضي الله عنه أنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ((إِنَّ اللَّهَ إِذَا أَحَبَّ قَوْمًا ابْتَلَاهُمْ، فَمَنْ رَضِيَ فَلَهُ الرِّضَا، وَمَنْ سَخَطَ فَعَلَيْهِ السَّخَطُ)) رواه الترمذي وحسنه.

قال: وعن أنس رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ((إِنَّ اللَّهَ إِذَا أَحَبَّ قَوْمًا ابْتَلَاهُمْ)) ؛ وهذا فيه: أَنَّ الْإِبْتِلَاءَ فِي حَقِّ الرَّجُلِ الصَّالِحِ الْمُسْتَقِيمِ عَلَى طَاعَةِ اللَّهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى بَابٌ عَظِيمٌ جَدًّا مِنْ أَبْوَابِ رَفْعَةِ الدَّرَجَاتِ عِنْدَ رَبِّ الْعَالَمِينَ؛ لِأَنَّ مِنْ أَبْوَابِ الرَّفْعَةِ وَعُلُوِّ الْمَنَازِلِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ: الصَّبْرُ عَلَى الْقَضَاءِ؛ لِأَنَّ الصَّبْرَ عَلَى الْقَضَاءِ وَأَعْلَى مِنْهَا الرِّضَا بِالْقَضَاءِ عِبَادَةٌ عَظِيمَةٌ جَدًّا تَأْتِي فِي مُحِيطٍ عَظِيمٍ وَهُوَ حَصُولُ الْمَصِيبَةِ وَحَصُولُ الْإِبْتِلَاءِ، فَإِذَا تَلَقَّاهَا الْمُسْلِمُ -وَالصَّبْرُ عِنْدَ الصَّدَمَةِ الْأُولَى- إِذَا تَلَقَّى الْمُسْلِمُ الْمَصِيبَةَ بِالصَّبْرِ وَالرِّضَا وَعَدَمُ الْجَزَعِ وَعَدَمُ التَّسَخُّطِ رَاضِيًا بِمَا قَضَاهُ اللَّهُ وَقَدَرَهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى ، فَهَذَا بَابٌ مِنْ أَعْظَمِ أَبْوَابِ الرَّفْعَةِ وَعُلُوِّ الدَّرَجَاتِ، بَلْ إِنَّ فِي الْجَنَّةِ مَنَازِلَ لَا يَبْلُغُهَا أَهْلُهَا إِلَّا بِصَبْرِهِمْ عَلَى قَضَاءِ اللَّهِ وَرِضَاهُمْ بِمَا قَدَرَهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى ، فَهَذَا بَابٌ مِنْ أَبْوَابِ الْعُلُوِّ وَالرَّفْعَةِ، وَلِهَذَا قَالَ هُنَا فِي هَذَا الْحَدِيثِ: ((إِنَّ اللَّهَ إِذَا أَحَبَّ قَوْمًا ابْتَلَاهُمْ)) ، وَابْتِلَاؤُهُ لَهُمْ يَقَابِلُهُ مِنْهُمْ بِتَوْفِيقٍ مِنَ اللَّهِ وَمَنْ صَبْرَهُمْ عَلَى هَذَا الْقَضَاءِ وَرِضَاهُمْ بِهَذَا الْمُقَدَّرِ فَتَعَلُّو دَرَجَاتِهِمْ عِنْدَ اللَّهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، بَلْ إِنَّهُمْ يَجِدُونَ مِنْ لَذَّةِ الصَّبْرِ وَالرِّضَا نَعِيمًا مُعْجَلًا فِي هَذِهِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ؛ مِنْ رَاحَةِ الْقَلْبِ، وَهَنَاءَةِ الْبَالِ، وَسَعَادَةِ النَّفْسِ،

وتجده جسمه مثلاً فيه آلام وأتعب وأمور كثيرة لكنّه في غاية السّعادة، ويجد في نفسه سعادةً لا يجدها الأصحاء الأغنياء الأسوياء الذين ليس فيهم أيُّ عاهةٍ أو شيء من هذا القَبيل.

((إِنَّ اللَّهَ إِذَا أَحَبَّ قَوْمًا ابْتَلَاهُمْ، فَمَنْ رَضِيَ فَلَهُ الرِّضَا، وَمَنْ سَخِطَ فَعَلَيْهِ السُّخْطُ)) ؛ «فَمَنْ رَضِيَ» أي: بما ابتلاه «فله الرِّضا» هنا جعل جواب الشرط إعادةً للشرط نفسه، مثل قوله عليه الصَّلَاةُ والسَّلَامُ : ((فَمَنْ كَانَتْ هَجْرته إِلَى اللَّهِ ورسوله، فهجرتَه إِلَى اللَّهِ ورسوله)) ، والإعادة ليس تكراراً للمعنى ؛ ((فَمَنْ كَانَتْ هَجْرته لِلَّهِ ورسوله)) عملاً وقصدًا ((فهجرتَه إِلَى اللَّهِ ورسوله)) ثواباً وأجرًا. فهنا قوله: ((فَمَنْ رَضِيَ فَلَهُ الرِّضَا)) أي له الرِّضا مثوبةً عند الله وأجرًا عظيمًا عنده سبحانه وتعالى على رضاه بقضاء الله سبحانه وتعالى وقدره.

أيضًا، العكس ((وَمَنْ سَخِطَ فَلَهُ السُّخْطُ)) أو ((فعليه السُّخْطُ)) وأكثر الروايات: ((فله السُّخْطُ)) أي: سخطه له وزر وعقوبة عند الله سبحانه وتعالى ولا يفيد شيء في معالجة المصاب الذي حصل له ، إلا أنّه يحصل منه العقوبة والوزر ويؤىء بإثم التَّسَخُّط وعدم الرِّضا بقضاء الله سبحانه وتعالى وقدره.

قال رحمه الله تعالى :

باب القلق والاضطراب

وقول الله تعالى: ﴿فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ﴾ الآية [الفتح: ٢٦] ، وقوله تعالى: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ﴾ الآية [النساء: ٦٥] ، وقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ (٢٧) ارْجِعِي إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَرْضِيَّةً﴾ الآية [الفجر: ٢٧-٢٨] .

قال: «بابُ القلق والاضطراب» ؛ القلق والاضطراب هو ضدُّ الطمأنينة والسُّكون، ومن إيمان القلب ومن أعمال القلوب المباركة طمأنينة القلب وسكونه ، قد قال الله عزَّ وجلَّ: ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا سَاءَ مَا يُحْكُمُ اللَّهُ فِي قُلُوبِهِمْ﴾ الآية [الرعد: ٢٨] ، ﴿فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ﴾ [الفتح: ٢٦] ، فالسَّكِينَةُ والطمأنينة التي تكون في القلب هي ثمرة من ثمار الإيمان بالله وملازمة ذكره سبحانه وتعالى ، فإذا قويت صلَةُ العبد بالله وأكثر من ذكر الله سبحانه وتعالى أثمر ذلك سَكِينَةً وطمأنينة . ضدُّ ذلك القلق والاضطراب، وإذا كان السُّكُونُ والطمأنينة ثمرة من ثمار الإيمان وقوّته، فإنَّ القلق والاضطراب ثمرة من ثمار ضعف الإيمان ونقصه. إذاً من الأمور المؤثِّرة على دين المرء أن يكون بهذا الوصف؛ القلق والاضطراب الذي هو ضدُّ السَّكِينَةِ والطمأنينة.

قال: وقول الله تعالى ﴿فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الفتح: ٢٦] ؛ والسَّكِينَةُ هذه منزلة عظيمة من منازل السَّائِرِينَ، ويُنْظَرُ كَلَامًا جَمِيلًا لِلْغَايَةِ عَنْ هَذِهِ الْمَنْزِلَةِ فِي كِتَاب «مَدَارِجِ السَّالِكِينَ» لِلْإِمَامِ ابْنِ الْقَيِّمِ رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى، ﴿فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ﴾، هَذِهِ السَّكِينَةُ الَّتِي يُنْزِلُهَا اللَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَلَى مَنْ شَاءَ مِنْ عِبَادِهِ هِيَ ثَمَرَةٌ مِنْ ثَمَرَاتِ صَدَقِ الْعَبْدُ مَعَ اللَّهِ، وَحُسْنُ إِقْبَالِهِ عَلَى اللَّهِ، وَقُوَّةُ تَوَكُّلِهِ عَلَى اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ؛ فَهَذَا يُثْمَرُ فِي الْعَبْدِ أَنَّ اللَّهَ يَمُنُّ عَلَيْهِ بِنَزُولِ السَّكِينَةِ عَلَى قَلْبِهِ، وَالسَّكِينَةُ هِيَ طَمَآنِينَةُ الْقَلْبِ وَرَاحَتُهُ، وَانْتِفَاءُ الْقَلْقِ وَالْاضْطِرَابِ عَنْهُ.

قال: وقوله تعالى ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَ شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾ [النساء: ٦٥] ؛ وَهَذَا الْإِيمَانُ الَّذِي بِهَذَا الْوَصْفِ، وَتَحْكِيمُ النَّبِيِّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ فِيمَا يَكُونُ فِيهِ مِنَ الْخُصُومَاتِ دُونَ أَنْ يَوْجِدَ حَرَجًا -أَي: تَرَدُّدًا وَاضْطِرَابًا وَقَلْقًا فِي الصَّدْرِ- وَيُسَلِّمُ تَسْلِيمًا هَذَا مِنْ أَمَارَاتِ إِيمَانِ الْعَبْدِ وَثَمَرَةٍ مِنْ ثَمَرَاتِ قُوَّةِ إِيْمَانِهِ . أَمَّا إِذَا كَانَ الْإِنْسَانُ إِذَا جَاءَتْهُ الْأَقْضِيَّةُ وَالْأَحْكَامُ عَنِ الرَّسُولِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ يَصِيبُ قَلْبَهُ شَيْءٌ مِنَ الْقَلْقِ وَالْاضْطِرَابِ وَعَدَمِ ارْتِيَاكِ فَهَذَا مِنْ ضَعْفِ إِيْمَانِهِ. فَإِذَا هَذَا يُعَدُّ آفَةً مِنْ آفَاتِ الْقُلُوبِ وَمَرَضٍ مِنْ أَمْرَاضِهَا.

قال: وقول الله عز وجل: ﴿يَا أَيُّهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ﴾ النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ: هِيَ النَّفْسُ الَّتِي زَالَ عَنْهَا الْقَلْقُ وَالْاضْطِرَابُ، فَأَصْبَحَتْ مَنْشُرَةً وَمُطْمَئِنَّةً، وَرَاضِيَةً عَنِ اللَّهِ وَبِاللَّهِ، وَمُقْبِلَةً عَلَى طَاعَةِ اللَّهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى ﴿يَا أَيُّهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ﴾ (٢٧) ارْجِعِي إِلَى رَبِّكِ رَاضِيَةً مَرْضِيَّةً (٢٨) فَادْخُلِي فِي عِبَادِي (٢٩) وَادْخُلِي جَنَّتِي ﴿[الفجر: ٢٧-٣٠] .

قال رحمه الله :

٧١ - ولهما عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ((ليس الشديد بالصُّرْعَةِ إِنَّمَا الشَّدِيدُ الَّذِي يَمْلِكُ نَفْسَهُ عِنْدَ الْغَضَبِ)).

قال: ولهما -أي البخاري ومسلم- عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ((ليس الشَّدِيدُ بِالصُّرْعَةِ، إِنَّمَا الشَّدِيدُ الَّذِي يَمْلِكُ نَفْسَهُ عِنْدَ الْغَضَبِ)) ؛ ليس الشَّدِيدُ بِالصُّرْعَةِ: الَّذِي يَصْرَعُ النَّاسَ وَيَغْلِبُهُمْ وَيَبَادِرُ إِلَى الْمَشَادَّةِ وَالْخُصُومَةِ وَالتَّقَاتِلِ، ليس هذا هو الشَّدِيدُ ، وإن كان السَّائِدُ فِي أَفْهَامِ كَثِيرٍ مِنَ النَّاسِ أَنَّ الْقَوِيَّ الشَّدِيدُ هُوَ الَّذِي يَهْجُمُ وَيَقَاتِلُ، يَعْتَبِرُونَ مَنْ كَانَ كَذَلِكَ هُوَ الْقَوِي ، فيقول عليه الصَّلَاةُ

والسَّلام: ((ليس الشَّدِيد بالصُّرْعَة)) هذه تعتبر شِدَّة الَّتِي هِيَ الْقِتَالُ، لكن ليس هذا هو الشَّدِيد في مفهوم الشَّرْع، أمَّا في مفهوم النَّاسِ هذا يُعَدُّ شِدَّةً ، ويعتبرون مَنْ كان كذلك هو الشَّدِيد.

قال: ((وإنَّما الشَّدِيد الَّذِي يَمْلِكُ نَفْسَهُ عِنْدَ الْغَضَبِ)) وهذه هِيَ الشِدَّة الَّتِي تُحَمَّدُ ، وَكُونَ الْإِنْسَانُ يَمْلِكُ نَفْسَهُ عِنْدَ الْغَضَبِ هَذَا فَرَعٌ مِنْ عَدَمِ قَلْقِهِ وَاضْطِرَابِهِ، هَذَا نَاشِئٌ مِنْ طَمَآنِينَةِ نَفْسِهِ وَسُكُونِ قَلْبِهِ ، بَيْنَمَا الْقَلْبُ الْمُضْطَرَبُ هُوَ الَّذِي يَنْدَفِعُ عِنْدَ أَدْنَى شَيْءٍ إِلَى الْخُصُومَةِ وَالْمَقَاتِلَةِ وَغَيْرِ ذَلِكَ مِنَ الْأُمُورِ، وَلِهَذَا مِثْلُ هَذِهِ الْقَلْقُ وَالْاضْطِرَابُ وَالسُّرْعَةُ فِي الْقِتَالِ الْمَقَاتِلَةِ وَالتَّقَاتِلِ مَعَ إِخْوَانِهِ الْمُسْلِمِينَ وَرَفْعِ الصَّوْتِ بِاللَّجَجِ وَالْخُصُومَةِ وَالشَّتْمِ وَاللَّعْنِ وَغَيْرِ ذَلِكَ، هَذَا كُلُّهُ مِنْ ثَمَارِ الْقَلْقِ وَالْاضْطِرَابِ وَعَدَمِ السُّكُونِ وَالطَّمَآنِينَةِ، لَكِنْ الْإِنْسَانُ الْمَطْمَئِنَّةُ نَفْسَهُ لَا يَبَادِرُ إِلَى هَذِهِ الْأُمُورِ إِطْلَاقًا، بَلْ سَكُونَةُ نَفْسِهِ وَطَمَآنِينَتُهَا تَمْنَعُهُ مِنْ مِثْلِ ذَلِكَ ، قَالَ: ((إنَّما الشَّدِيدُ الَّذِي يَمْلِكُ نَفْسَهُ عِنْدَ الْغَضَبِ)).

قال رحمه الله:

٧٢ - وللبخاري أنَّ رجلاً قال للنبي صلى الله عليه وسلم أوصني قال: ((لا تغضب)) فردد مراراً قال: ((لا تغضب)).

وهذا الحديث وهو في صحيح البخاري أنَّ رجلاً قال للنبي عليه الصَّلَاةُ والسَّلامُ أوصني قال: ((لا تغضب)) فردد مراراً قال: ((لا تغضب)) وجاء في بعض الروايات في غير الصحيح أنَّ الرجل قال: «فتفكرت في الغضب، فإذا هو جماع الشر» ؛ وهذا يُستفاد منه: أنَّ هذه الوصية تُعَدُّ في جماع الوصايا ، أي: الوصايا الجامعة.

من الوصايا الجامعة: الحثُّ على ترك الغضب، والتَّيَّيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ جَاءَهُ هَذَا الرَّجُلُ قَالَ: «أوصني» قال: ((لا تغضب)) ، قال: «أوصني» قال: ((لا تغضب)) ، قال: «أوصني» قال: ((لا تغضب)) ، يردد عليه تحذيره من الغضب ؛ فهذا يدلُّ على أنَّ الوصية بترك الغضب من جماع الوصايا ، وأنَّ العبد إذا وُفِّقَ إِلَى ذَلِكَ فَقَدْ وَفَّقَ لخيرٍ عظيم ؛ لأنَّ الغضب هلاك للإنسان ؛ بالغضب أريقَت دماء محرَّمة ، بالغضب تفكَّكت أَسْرُ، بالغضب اعتُدي على أرواح ، بالغضب حصلت فُرقة وخصومات واستمرت ، يترتب على الغضب من الشرور والآفات والأضرار شيءٌ لا حدَّ له ولا حصر.

فهذه وصية من جماع الوصايا، وهذا دليل على أنَّ العبد إذا وُفِّقَ لترك الغضب فإنَّ هذا من كمال أدبه وحسن خُلُقِهِ؛ ولهذا عُدَّ هَذَا الْحَدِيثُ مِنَ الْأَحَادِيثِ الْجَامِعَةِ فِي بَابِ الْأَدَابِ ، بَلْ قَالَ بَعْضُ أَهْلِ الْعِلْمِ ، وَهُوَ ابْنُ أَبِي زَيْدٍ الْقَيَّرَوَانِي وَنَقَلَهُ عَنْهُ الْحَافِظُ ابْنُ رَجَبٍ رَحِمَهُ اللهُ فِي جَامِعِ الْعُلُومِ وَالْحُكْمِ: «أَنَّ جَمَاعَ الْأَحَادِيثِ الْوَارِدَةِ فِي الْأَدَابِ تَرْجِعُ إِلَى أَرْبَعَةِ أَحَادِيثَ» بِمَعْنَى : أَنَّ الْأَدَبَ كُلَّهُ يَجْتَمِعُ فِي أَرْبَعَةِ أَحَادِيثَ، إِذَا وَفِّقَتْ لَتَحْقِيقِ هَذِهِ

الأحاديث الأربعة فقد جُمِعَتْ لك الأدب كلّهُ ؛ هذا الحديث ((لا تغضب)) ، وحديث: ((مِنْ حُسْنِ إِسْلَامِ الْمَرْءِ تَرْكُهُ مَا لَا يَغْنِيهِ))، وحديث: ((مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَلْيُكَلِّمْ خَيْرًا أَوْ لِيَصْمُتْ))، والحديث الرابع : ((لَا يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ حَتَّى يُحِبَّ لِأَخِيهِ مَا يُحِبُّ لِنَفْسِهِ)) ، وسبق أن أَلْقَيْت محاضرة أو كلمة حول هذه الأحاديث الأربعة وبيان وجه كون هذه الأحاديث جمعت الأدب كلّهُ.

وقوله: ((لا تغضب)) هذا يتضمّن أمرين:

● الأول: أن تحاول ألا يوجد الغضب ؛ بالتَّحَلِّي بالأخلاق والآداب والفضائل التي إن وُجِدَ ما يستثير الغضب تكون رَدءًا لك في عدم حصول الغضب.

● ويتضمّن أيضًا: دفع ما يحركه الغضب في الإنسان عند وجود الغضب ؛ من مثلاً كلام لا يُحْمَد ، أو مثلاً اعتداء، أو غير ذلك ، يدخل تحت قوله: ((لا تغضب)) أيضًا تجنّب ذلك. ولهذا صحّ في الحديث أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: ((إِذَا غَضِبَ أَحَدُكُمْ فَلْيَسْكُتْ)) ، وفي الحديث الآخر: ((إِذَا غَضِبَ أَحَدُكُمْ وَهُوَ قَائِمٌ فَلْيَجْلِسْ، فَإِنْ سَكَنَ غَضَبُهُ وَإِلَّا فَلْيَضْطَجِعْ)) ؛ وهذا فيه فائدة عظيمة في تحقيق قوله: ((لا تغضب)) إن وُجِدَ الغضب عند الإنسان فليدفعه بأمرين:

١ - يمنع الكلام وقت الغضب ، إطلاقًا لا يتكلّم بأي كلمة.

٢ - وأيضًا: يمنع الحركة، لا يباشر بيده أيّ شيء، وإذا وجد جسمه يندفع لفعل شيء يجلس، وإذا حصل سكون في الغضب وإلا يضطجع، مع أَنَّ الشَّيْطَانَ يَأْتِيهِ ويقول له: هذا الآن يفعل ويفعل، وأنت تنام عنده! أين الرُّجولة؟ الآن هو يُغْضِبُكَ وكذا وأنت تنام! أين وأين؟ ما يتركه الشيطان.

٣ - ولهذا يحتاج إلى أمر ثالث: وهو التَّعَوُّذ عند الغضب من الشَّيْطَان؛ لأنَّ الشَّيْطَانَ يحضر للإنسان عند غضبه، قد قال عليه الصَّلَاةُ والسَّلَام: ((إِنِّي لَا أَعْلَمُ كَلِمَةً لَوْ قَالَهَا لَذَهَبَ عَنْهُ مَا يَجِدُ: أَعُوذُ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ)) . فهذه الأمور إذا وُجِدَتْ من العبد زال عنه بإذن الله تبارك وتعالى غضبه.

سؤال : هل يستحب الوضوء عند الغضب؟

ما ورد، الوضوء عند الغضب جاء فيه حديث لم يثبت، لكن كَوْن الإنسان مثلاً اشتدّ عنده الغضب وراح توضّأ ومثلاً صلّى وفرغ إلى الصَّلَاة؛ ليطمئنّ ولجأ إلى الله لا بأس به.

قال رحمه الله تعالى :

٧٣ - وعن أبي ذرّ رضي الله عنه مرفوعًا: ((قد أفلح من أخلص الله قلبه للإيمان وجعل قلبه سليمًا، ولسانه صادقًا، ونفسه مطمئنة، وخليقته مستقيمة، وجعل أذنه مستمعة، وعينه ناظرة، فأما الأذن فقمع، وأما العين فمغبرة لما يوعي القلب، وقد أفلح من جعل الله قلبه واعيًا)) رواه أحمد.

قال رحمه الله تعالى: عن أبي ذر رضي الله عنه مرفوعاً: ((قَدْ أَفْلَحَ مَنْ أَخْلَصَ اللَّهُ قَلْبَهُ لِلْإِيمَانِ)) ؛ قد أفلح: أي تحقق فلاحه، مثل ما قال الله عز وجل: ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ﴾ [المؤمنون : ١] ، قد أفلح: أي تحقق فلاحه، والفلاح هو: حيازة الخير في الدنيا والآخرة، وقد قيل: إِنَّ أَجْمَعَ كَلِمَةٍ فِي حَيَاةِ الْخَيْرِ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ هِيَ كَلِمَةُ الْفَلَاحِ. ((قد أفلح)) أي: تحقق فلاحه ((مَنْ أَخْلَصَ اللَّهُ قَلْبَهُ لِلْإِيمَانِ)) أي: وفقه الله ومنَّ عليه بأن جعل قلبه خالص للإيمان صافي نقي للإيمان، امتلاً إيماناً.

((وجعل قلبه سليماً)) أي: سليماً من أمراض القلوب، وهي على نوعين: شهوات، وشبهات. ((ولسانه صادقاً)) أي: لا يتكلم إلا بالحق والخير ، وفي الدعاء المأثور وقد صحَّ عن النبي عليه الصلاة والسلام: «اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ قَلْبًا سَلِيمًا، وَلِسَانًا صَادِقًا» ، وهذان - أعني القلب واللسان - هما أميرا البدن ، فَإِنَّ ((المرء بأصغريه: قلبه ولسانه)) ، المرء ليس بهيكله وجسمه ويده ، ((المرء بأصغريه: قلبه ولسانه)) ، بمعنى: أَنَّ القلب إذا صلح صلحت الأعضاء كلها تبعاً له، كما قال عليه الصلاة والسلام: ((أَلَا وَإِنَّ فِي الْجَسَدِ مُضْغَةً إِذَا صَلَحَتْ صَلَحَ الْجَسَدُ كُلُّهُ ، وَإِذَا فَسَدَتْ فَسَدَ الْجَسَدُ كُلُّهُ؛ أَلَا وَهِيَ الْقَلْبُ)). . واللسان إذا صلح أيضاً صلح البدن كله ، كما جاء في الحديث وقد مرَّ معنا: ((إِذَا أَصْبَحَ ابْنُ آدَمَ فَإِنَّ الْأَعْضَاءَ كُلَّهَا تُكْفِّرُ اللِّسَانَ ؛ فَتَقُولُ : اتَّقِ اللَّهَ فِينَا فَإِنَّمَا نَحْنُ بِكَ ، فَإِنْ اسْتَقَمَّتْ اسْتَقَمَّتْنَا وَإِنْ اعْوَجَجَتْ اعْوَجَجْنَا)). .

((ونفسه مطمئنة)) وهذا هو موضع الشاهد ، «ونفسه مطمئنة»: أي جعل نفسه مطمئنة، ووجود الطمأنينة في النفس يعني انتفاء القلق وزوال الريب والاضطراب، «وجعل نفسه مطمئنة» وقد تقدّم معنا قول الله عز وجل: ﴿يَا أَيُّهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ﴾ [الفجر: ٢٧] .

((وخليقته مستقيمة)) أي: مستقيمة على طاعة الله سبحانه وتعالى والبعد عن أبواب الانحراف. ((وجعل أذنه مستمعة)) أي: مستمعة للحق، وإذا سمعت الحق أقبلت عليه ، ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرًا لِمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ﴾ [ق: ٣٧] .

((وعينه ناظرة)) أي: نظر تفكر واعتبار في آيات الله سبحانه وتعالى ومخلوقاته العظام. ((فأما الأذن فقمع، وأما العين فمعبرة لما يُوعى القلب)) أي لما يجمع القلب ولما يحفظ القلب . «الأذن قمع» أي: منفذ ومعبر لما يدخل إلى القلب ، وسبق أن مرَّ معنا ((وَيْلٌ لِلْأَقْمَاعِ)) ، فالأذن قمع أي: منفذ ، والقمع: هو الذي أعلاه واسع وأسفله ضيق ويصَّبُ فيه ما يُصَبُّ من زيت حتى يُدْخَلَ في القربة أو في الوعاء أو نحوه ، فالأذن قمع: أي منفذ لما يدخل في القلب.

«والعين معبرة» معبرة: بمعنى قِمع . القِمع هو معبر، القِمع معروف أو ليس معروف؟ الذي يُقال في الدّارجة «مُخَقَّن» يعني: إذا أراد الإنسان أن يَصُبَّ مثلاً زيتاً أو سمنًا أو عسلًا في قربة أو مثلاً في وعاء فمه ضيق يأتي بالقِمع ويجعل فتحته الصّغيرة في الوعاء، وفتحته الواسعة يصبّ فيها ما شاء أن يصبّه . فالقِمع معبرة يعبر منها إلى الوعاء.

فإذا ((الأذن قِمع، والعين معبرة)) ؛ والأذن قِمع أيضاً شبيهة بالقِمع في شكلها؛ لأنّ الأذن فتحته واسعة، والمنفذ الذي يدخل منه الصوت ضيق.

((الأذن قِمع والعين معبرة لما يوعي القلب)) ؛ إذاً ماذا نستفيد من هذا؛ إذا عرفنا أنّ الأذن والعين كلاهما معبران للقلب؟ معنى ذلك: أنّ مَنْ أراد صيانة قلبه من الأمراض والشبهات والأهواء وغير ذلك عليه أن يسدّ المنفذين: الأذن والعين، لا يُدخل منهما ؛ لأنّ النّظر المحرّم يدخل للقلب ماذا؟ ما يمرضه ، والسماع المحرّم يدخل للقلب ما يمرضه ، رأيتم لو أنّ شخصاً أتاح لعينه النّظر المحرّم ، وأتاح لسمعه السماع المحرّم ، ويريد أن يبقى قلبه سليماً من الشبهات وسليماً من الأهواء أمممكن؟! هذا يكون كما قال القائل:

ألقاه في اليمّ مكتوفاً وقال له إياك إياك أنت تبتلّ بالماء

يسمع المحرّمات ويشاهد المحرّمات ويقول: أنا أريد أن يبقى قلبي سليماً!! فإذاً هذه فائدة مهمّة: ((الأذن قِمع، والعين معبرة لما يوعي القلب)) أي: لما يجمعه القلب . وسبق أن مرّ معنا في الحديث: ((ويلٌ للأقمار)) يعني: الذي أذنه مفتوحة وتسمع ، لكن ما يدخل فيها ينفذ، لا يصل إلى القلب لعدم إقبال القلب على الخير . قال: ((وقد أفلح مَنْ جعل الله قلبه واعياً)) أي: واعياً للخير والإيمان والحقّ والهدى، فالأذن مُقبلة على ذلك، والذي يصل إلى القلب هو ذلك ، ويعي ما يصل إليه من الحقّ والخير يعيه ويحتفظ به ويتنفع به ، وفي الحديث: ((نَضَرَ اللهُ امْرَأً سَمِعَ مَقَالَتِي فَوَعَاها، فَأَذَاهَا كَمَا سَمِعَهَا))، فوعاها: أي أنّ القلب يعي ما يصل إليه من الخير ويعمل على حفظه والمحافظة عليه والثبات عليه.

وهذا رواه الإمام أحمد رحمه الله في مسنده عن أبي ذرّ، وفي إسناده انقطاع بين أبي ذرّ والزّراوي عنه رضي الله عنه وعن الصّحابة أجمعين.

سبحانك اللهم وبحمدك ، أشهد أن لا إله إلا أنت ، أستغفرك وأتوب إليك .

اللهم صلّ وسلم على عبدك ورسولك نبينا محمد وآله وصحبه أجمعين.

الدرس الثالث عشر

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله ربّ العالمين، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله؛ صلى الله وسلم عليه وعلى آله وأصحابه أجمعين. أمّا بعد:

قال شيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب رحمه الله في كتاب الكبائر :

باب الجهالة

وقول الله تعالى ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِنَ الْجِنَّ وَالْإِنْسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا﴾ الآية [الأعراف: ١٧٩]

قال رحمه الله تعالى: «بابُ الجهالة» ؛ الجهالة : تعني عدم العلم وعدم الفقه في دين الله عزّ وجلّ ، والانصراف عن العلم والتعلّم إلى الاستغراق في أمور الدنيا وتوافهها ، وأن يمضي الإنسان على هذه الجهالة؛ الجهالة بدين الله عزّ وجلّ الذي خلقه الله جلّ وعلا لأجله وأوجده لتحقيقه. وهذا من أعظم المصائب أن يعيش الإنسان حياته إلى أن يموت وهو على جهالة بالدين الذي حُلق لأجله؛ فإنّ العبد لم يُخلَق للدنيا التي هو مُكبٌّ عليها، وإنّما حُلق للدين، وحُلق لطاعة ربّ العالمين، كما قال الله عزّ وجلّ : ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِعِبَادُونَ﴾ [الذاريات: ٥٦]

ومن أعظم المصائب التي يُبلى بها العبد: أن يعيش حياته على جهالة بالدين الذي خلقه الله سبحانه وتعالى لأجله وأوجده لتحقيقه، ولهذا يقول الله سبحانه: ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِنَ الْجِنَّ وَالْإِنْسِ﴾ ؛ لماذا؟ ﴿لَهُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا﴾ ؛ أي أنّهم أهل جهالة بالدين الذي خلقهم الله سبحانه وتعالى لأجله وأوجدهم لتحقيقه ، ففُهِوا في أمور الدنيا، ﴿يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الْآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ﴾ [الروم: ٧] ؛ فلهم عناية بالدنيا وهم مُكبُّون عليها وهي أكبر همّهم ومبلغ علمهم، أمّا دينهم الذي خلقهم الله سبحانه وتعالى لأجله وأوجدهم لتحقيقه فهم أهل جهالة فيه.

قال رحمه الله :

٧٥ - وعن ابن عباس ومعاوية رضي الله عنهما وغيرهما أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: ((من يُردِ الله به خيراً يفقهه في الدين)).

ثمَّ أوردَ هذا الحديث عن النَّبِيِّ عليه الصَّلَاةُ والسَّلَامُ أَنَّهُ قال: ((مَنْ يُرِدِ اللَّهَ بِهِ خَيْرًا يُفَقِّهْهُ فِي الدِّينِ)) ؛ أي: أَنَّ مَنْ اشتغل بالفقه في الدِّين تعلُّمًا وتفقُّهًا وتبصُّرًا في دين الله فهذا من علاماتِ أَنَّ الله سبحانه وتعالى أراد به خيرًا. ومفهومُ المخالفة لهذا الحديث: أَنَّ مَنْ كان من أهل الجَهالة وعدم التَّفَقُّه في دين الله سبحانه وتعالى فَإِنَّ هذا من علامات عدم إرادة الخير به، وذلك أَنَّ الخيرَ لا يُنال إِلَّا بتعلُّمه والتَّبَصُّر فيه ، وأمَّا مَنْ لم يتعلَّم الخير فكيف يفعله وهو لم يتعلَّمه؟! وفاقد الشيء لا يعطيه، ولهذا كان العلم والتعلُّم بابًا لا يوصل إلى الخير إِلَّا من خلاله، وَمَنْ أراد الله سبحانه وتعالى به خيرًا فَقَّهه في دينه تفقُّهًا مثمرًا للعمل والطَّاعة والتَّقَرُّبُ لله سبحانه وتعالى. ومن علامات عدم إرادة الخير بالعبد : أن يكون منصرفًا عن التعلُّم مستغرقًا في الجَهالة، ويترتَّب على استغراق الإنسان في الجَهالة: تضييعه للعمل والعبادة الَّتِي خلقه الله سبحانه وتعالى لأجلها وأوجده لتحقيقها.

قال رحمه الله :

٧٦ - وفي حديث البراء بن عازب رضي الله عنه : «أن المرتاب هو الذي يقول إذا سأله الملكان: هاه هاه، لا أدري سمعت الناس يقولون شيئاً فقلته».

قال: وفي حديث البراء ابن عازب رضي الله عنه: «أَنَّ الْمُرْتَابَ» أي: عند سؤال الملكين في القبر «هو الذي يقول إذا سأله الْمَلَكَانِ: هاه هاه لا أدري، سمعتُ النَّاسَ يَقُولُونَ شَيْءً فَقُلْتُهُ» ؛ وهذا أيضًا مِمَّا يبيِّن لنا خطورة الجَهالة في دين الله سبحانه وتعالى، وَأَنَّ مَنْ كان كذلك فَإِنَّهُ لا يوفق عند سؤال الملكين ، فإذا سأله الملكان يقول هذه الكلمة: «هاه هاه لا أدري»، قول المرتاب «لا أدري» هذه هي الجَهالة بدين الله سبحانه وتعالى، يسألانه: «مَنْ رَبُّكَ؟ ما دينك؟ مَنْ نبيُّكَ؟» فيكون جوابه على ذلك: «لا أدري».

ولهذا العلماء يوصون كثيرًا وينصحون العوام ويؤكِّدون عليهم أن يُعْنُوا بالأصول الثلاثة الَّتِي هي: مَنْ رَبُّكَ؟ مَنْ نبيُّكَ؟ ما دينك؟ هذه أوَّل ما يموت الإنسان -ولا يدري متى يموت- إذا أُدْخِلَ في القبر أتاها ملكان وسألاه ثلاثة أسئلة: مَنْ رَبُّكَ؟ ما دينك؟ مَنْ نبيُّكَ؟. ولهذا العلماء رحمهم الله يؤكِّدون تأكيدًا عظيمًا على العناية بهذه الأصول الثلاثة، تعلُّمًا لها وتبصُّرًا فيها وتحقيقًا لها ؛ حتى يكون الإنسان بإذن الله سبحانه وتعالى من أهل الثَّبات عند سؤال الملكين، قال الله جلَّ وعلا: ﴿يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ وَيُضِلُّ اللَّهُ الظَّالِمِينَ وَيَفْعَلُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ﴾ [إبراهيم: ٢٧] . وقد كتب الإمام شيخ الإسلام محمد بن عبد الوهَّاب رحمه الله رسالة جميلة جدًا ومختصرة بعنوان: «الأصول الثلاثة» ، فمن المهمَّ جدًّا أن تُقرأ هذه الرِّسالة، وأن يُستفادَ منها، فإنَّها مشتملة على خيرٍ عظيمٍ ونفعٍ كبيرٍ.

قال رحمه الله تعالى :

بابُ القِحةِ

وقول الله تعالى: ﴿يَسْتَخْفُونَ مِنَ النَّاسِ وَلَا يَسْتَخْفُونَ مِنَ اللَّهِ وَهُمْ مَعَهُمْ﴾ الآية [النساء: ١٠٨] .

قال رحمه الله تعالى: «بابُ القِحةِ» ؛ القِحة: من الوقاحة، وهي قلَّةُ الحياءِ وقلَّةُ الأدب، فهذه يُقال لها «قِحة» من الوقاحة التي هي قلَّةُ الأدب. والإنسان -والعياذ بالله- إذا كان قليل الأدب قليل الحياء، فإنَّه يفعل من الشرور ما يفعل ولا يُبالي ؛ لأنَّه لا حياءَ عنده، لا من الله ولا من العباد، ولهذا إذا وُجدَ في الإنسان قلَّةُ الحياءِ وقلَّةُ الأدب وُجدت القِحة في الإنسان وُجد الشر؛ لأنَّ الحياءَ يُعدُّ رادعًا للإنسان، يمنعه حياؤه من الأعمال المشينة، من التصرفات القبيحة، من الأمور المنكرة، يستحي، فإذا نُزِعَ منه الحياء -عياذًا بالله- فإنَّه يقع في كلِّ شرٍّ، ولهذا كما جاء في الحديث: ((الحياءُ كُلُّهُ خَيْرٌ)) ، ((الحياءُ لَا يَأْتِي إِلَّا بِخَيْرٍ))، وإذا نُزِعَ الحياءُ أتت الشرور بأنواعها. ومن نعمة الله سبحانه وتعالى على عبده أن يوفِّقه لوجود الحياء في قلبه، والحياء عمل من أعمال القلوب يعين العبد على التخلِّي بالفضائل والتخلِّي عن الرذائل . وهذا معنى أنَّ ((الحياء خَيْرٌ كُلُّهُ)).

أورد قول الله عزَّ وجلَّ: ﴿يَسْتَخْفُونَ مِنَ النَّاسِ وَلَا يَسْتَخْفُونَ مِنَ اللَّهِ وَهُمْ مَعَهُمْ إِذْ يُبَيِّنُونَ مَا لَا يَرْضَى مِنَ الْقَوْلِ﴾ [النساء: ١٠٨] ؛ ﴿يَسْتَخْفُونَ مِنَ النَّاسِ﴾ أي: بأعمالهم المشينة وأموالهم المنكرة ؛ يستخفون منهم إمَّا هيبة، أو خوفًا، أو خشية مثلاً خزي وفضيحة بين النَّاسِ، أو غير ذلك، يستخفون من النَّاسِ بالأعمال المنكرة.

﴿وَلَا يَسْتَخْفُونَ مِنَ اللَّهِ﴾ ربِّ العالمين سبحانه وتعالى ، مع أنَّ الحياء من الله جلَّ وعلا هو أوجبُّ الحياءِ وأفرضه ، قد قال عليه الصَّلَاةُ والسَّلَام: ((استحيوا من الله حقَّ الحياءِ)) ، فالحياء من الله عزَّ وجلَّ هو أوجبُّ الحياء، وكلُّ حياءٍ يُقدَّر في الإنسان من مخلوقين فالله سبحانه وتعالى أحقُّ بما هو أعظم من ذلك، فهو الخالق جلَّ وعلا ، وهو مع العباد ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ﴾ [الحديد: ٤] ؛ معهم بعلمه وإطلاعه وإحاطته، وأنَّه لا يعزُبُ عنه مثقال ذرَّة في السَّمَاوَاتِ ولا في الأرض ، يسمع ويرى جلَّ وعلا ، وأحاط بكلِّ شيءٍ علمًا، وأحصى كلَّ شيءٍ عددًا. فالحياء من الله جلَّ وعلا هو أوجبُّ الحياءِ وأفرضه.

وعندما يكون الإنسان بهذه الصِّفة يستخفي بذنبه من الناس ويستخفي بأمواله من النَّاسِ، ولا يستخفي من الله، والله معه مطلق عليه لا تخفى عليه منه خافية ؛ فمن كان كذلك هذه من أعظم المصائب ، إذ الواجب على العبد أن يكون حياؤه من الله عزَّ وجلَّ أشدَّ الحياء.

قال رحمه الله :

٧٧ - وفي البخاري عن أبي مسعود عقبة بن عمرو رضي الله عنه أنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ((إنَّ مما أدرك الناس من كلام النبوة الأولى: إذا لم تستح فاصنع ما شئت)).

ثمَّ أورد هذا الحديث عن النَّبِيِّ عليه الصَّلَاةُ والسَّلَامُ أَنَّهُ قال: ((إنَّ مما أدرك النَّاسُ من كلام النَّبِوةِ الأولى: إذا لم تستحِ فاصنع ما شئت)) ؛ وهذا فيه دلالة أنَّ شرائع الأنبياء جميعهم من أوَّلهم إلى آخرهم متَّفقة على أمر النَّاس بالحياء ، ودعوتهم إلى الحياء . جميع الأنبياء دَعَوْا أمَّهم إلى الحياء؛ الحياء من الله سبحانه وتعالى ، والحياء من عباده، ويَتَّبِعُوا لهم أنَّ منزوع الحياء لا يُبالي ما فعل من الشَّرِّ.

((إنَّ مما أدرك النَّاس من كلام النَّبِوةِ الأولى إذا لم تستحِ فاصنع ما شئت)) ؛ لأنَّ منزوع الحياء لا يبالي ، الحياء هو الَّذي يردع، هو الَّذي يمنع، هو الَّذي يحجز، فإذا نُزِعَ الحياء من العبد ولج في المنكرات ودخل في المحرَّمات ولم يبالي. وهذا معنى قوله: ((فاصنع ما شئت)) ؛ لأنَّه يصبح لا يبالي فيما يفعله من منكر، وفيما يغشاه من حرام.

قال رحمه الله تعالى :

باب الحرص على المال والشرف

٧٨ - عن كعب رضي الله عنه مرفوعاً: ((ما ذئبان جائعان أرسلا في زريبة غنم، بأفسد لها من حرص المرء على المال والشرف لدينه)) صححه الترمذي.

قال رحمه الله: «بابُ الحرص على المال والشرف»؛ أي أنَّ الإنسان يستغرق وقته لشدَّة حرصه في تحصيل المال، أمَّا إذا كان هذا الحرص على تحصيل المال بغير مبالاة من حلالٍ أو حرام، طريقٍ مشروعٍ أو ممنوع، فهذه مصيبة عظيمة جدًّا، وأمَّا إذا كان يستغرق وقته في تحصيل المال من وجوهٍ مشروعة غير محرَّمة فما لهذا خُلِقَ الإنسان، ما خُلِقَ لتكون حياته مستغرقة في تحصيل الأموال وجمع الأموال، لأنَّ هذه الأموال التي سيجمعها قلَّت أو كثُرَت نهاية الأمر أن تخرج روحه من جسده وتصبح الأموال تلك للورثة، ولهذا جامع الأموال يسمَّى «الخازن والحافظ» ، وماله ليس له وإنَّما هو لورثته، ومهمته القيام على جمعه واكتسابه وتحصيله.

ومن يجمعون المال هم على وجهين:

١ - قسمٌ يجمع المال لأموالٍ يريدونها من المال؛ من شهوات وملذَّات ، وكثير منهم ربَّما لا يبالي أن تكون هذه الشَّهوات أو الملذَّات محرَّمات، فيستكثر من الأموال لتحصيل شهواته.

٢- وبعضهم يحصل المال للمال ذاته؛ مفتون بالمال، يجمع ولا ينفق، حتى على نفسه لا ينفق! يجمع المال تلو المال وهمّة جمع الأموال، ولهذا لا يُخرج حتى حقّ الله الذي أوجبه الله سبحانه وتعالى عليه فيه لا يُخرج منه شيئاً، يجمع ويجمع ويكبر سنّه وهو يجمع الأموال، ثمّ التّهاية تخرج روحه من جسده وتكون هذه الأموال بأيدي الورثة، وبعض الورثة إذا طُلبوا بالتّفقه والصّدقة عن والدهم وبناء مثلاً بعض المساجد أو بعض الأعمال الخيريّة من أجل والدهم، بعضهم يقول: هو ما فعل في حياته، نحن الآن نفعل له بعد وفاته؟! فما ينفقون.

ومال الإنسان ليس هذا الذي يجمعه، هذا مال الورثة، ماله هو الذي يقدّمه ويبدله، ((مَالُكَ مَا أَكَلْتَ فَأَفْنَيْتَ أَوْ لَبِستَ فَأَبْلَيْتَ أَوْ تَصَدَّقْتَ فَأَمْضَيْتَ)) ؛ هذا هو مال الإنسان، وأمّا بقيّة المال كلّ مال الورثة وليس للإنسان منه شيء. والورثة يفوزون بغنم المال وليس عليهم غرمه، والمورث يبوء بغرم المال وليس له غنمه، غنم المال للورثة، لكن غرم المال عليه هو؛ لأنّه يحاسب عليه لأنّه هو من جمع هذا المال، أمّا الورثة يصلهم المال فيستفيدون منه غنماً وليس عليهم غرم في هذا المال؛ لأنّ الذي حصّله مورّثهم وليس هم.

والحرص على الشّرف: أيضاً أمرٌ مُهلِك، حرص الإنسان على رئاسة أو على زعامة أو على سلطة أو على إمرة أو غير ذلك من الأمور ، وفي الغالب أنّ هذا الحرص على الشّرف وعلى الرّئاسة لابدّ أن يضيع معه أشياء من أمور الدّين ، فيدخل في أمور من المداينة، ويدخل في أمور من الرّياء، ويدخل في أمور من مدح نفسه مثلاً بالكذب، وأشياء كثيرة من هذا القبيل من الأمور التي من ضياع الدّين في سبيل تحصيل الشّرف.

وأورد رحمه الله تعالى هذا الحديث عن كعب رضي الله عنه مرفوعاً؛ أنّ النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم قال: ((ما ذئبان جائعان أُرسلَا في زريبة غنم)) ؛ ذئبان جائعان وأطلقا ليلة من الليالي في زريبة غنم، ومن المعروف أنّ الذّئب من ألثم الحيوانات المفترسة، الأسد مثلاً إذا ظفر بقطيع من الغزلان يأخذ منها غزلاً يأكله ويمضي ، الذّئب من ألثم الحيوانات يأخذ ويُهْلِك الباقي، كلّ ما استطاع أن يُهلِكه منها أهلكه، فلو تُرك ذئبان جائعان في زريبة غنم لا يقتصران على شاةٍ واحدة أو شاتين أو ثلاث يأكلانها حتى يشبعان، بل يفسدان في الغنم، يضرب هذه ويقتل هذه، ويُدْمِي هذه، يفسد إفساداً، ولهذا يعتبر ألثم الحيوانات المفترسة وأشدّها شراسةً وأدّى وعدواناً. فانظر هذا المثل، وتصور أيضاً هذا المثل حتى تدرك حقيقة الأمر ؛ أنّ ذئبين جائعين أُرسلَا في زريبة غنم، وهما معروفان باللُّوم وشدة الإفساد ماذا سيكون شأن زريبة الغنم؟ تجد أنّ أكثر ما فيها مات أو أُدْمِي أو أُضِرَّ به إضراراً عظيماً.

قال: ((ما ذئبان جائعان أُرسلَا في زريبة غنم بأفسد لها من حرص المرء على المال والشّرف لدينه)) ؛ معنى ذلك أنّ حرص المرء على المال والشّرف مفسدٌ لدينه أكثر من إفساد الذّئبين الجائعين إن أُرسلَا وأطلقا في زريبة غنم، ولهذا تصوّر هذا الأمر يكون بتصور حال هذين الذّئبين في دخولهما لزريبة غنم وإفسادهما فيها، فهذا الإفساد ليس بأشدّ من إفساد الحرص على المال والحرص على الشّرف لدين المرء.

وهذا الحديث العظيم -وهو في سنن الترمذي- أفرد فيه الحافظ ابن رجب رحمه الله تعالى رسالة جميلة سماها «شرح حديث ما ذئبان جائعان» ، يقول رحمه الله: «فهذا مثلٌ عظيمٌ جدًّا ضربه النبي صلى الله عليه وسلم لفساد دين المسلم بالحرص على المال والشرف في الدنيا، وأنَّ فساد الدين بذلك ليس بدون فساد الغنم بذئبين جائعين ضاريين باتا في الغنم قد غاب عنها رعاؤها ليلاً ؛ فهما يأكلان في الغنم ويفترسان فيها، ومعلومٌ أنَّه لا ينجو من الغنم من إفساد الذئبين المذكورين والحالة هذه إلاَّ القليل، فأخبر النبي صلى الله عليه وسلم أنَّ حرص المرء على المال والشرف إفسادٌ لدينه ليس بأقلَّ من إفساد الذئبين لهذه الغنم، بل إمَّا أن يكون مساوياً وإمَّا أكثر ؛ يشير إلى أنَّه لا يسلم من دين المسلم مع حرصه على المال والشرف في الدنيا إلاَّ القليل، كما أنَّه لا يسلم من الغنم مع إفساد الذئبين المذكورين فيها إلاَّ القليل . فهذا المثل العظيم يتضمَّن غاية التحذير من شرِّ الحرص على المال والشرف في الدنيا» اهـ.

الشاهد أنَّ هذا الحديث حديث عظيم الشأن، وفيه نصحٌ بالغ من النبي الكريم عليه الصلاة والسلام، ومن نصحه صلوات الله وسلامه عليه لأُمَّته ضرب هذه الأمثال الواضحة البينة التي من شأنها أن يدرك المسلم هذه الحقائق الإيمانية.

بمناسبة ذكر الذئبين لا بأس أن أروي طرفةً في هذا الباب؛ من المعروف أنَّ الذئب من أَلثم الحيوان وأكثره إفساداً وعدواناً، وقد جاء في القرآن أنَّ إخوة يوسف لما ألقوا أخاهم في الجُبِّ وأتوا على قميصه بدمٍ كذب قالوا: «أكله الذئب»، خصُّوا هذا الحيوان بالذكر ، قالوا أكله الذئب ووضعوا على قميصه شيء من الدَّمِ وادَّعوا أنَّ الذي أكله الذئب، فمن الطُّرف التي تُروى أنَّ رجلاً من المتكلمين قال: إنَّ الذئب الذي أكل يوسف اسمه (رَعْمون) فقال له الحاضرين: الذئب لم يأكل يوسف، فقال لهم: هذا الاسم اسم الذئب الذي لم يأكل يوسف، قالوا: إذا ينبغي أن يكون هذا الاسم لكلِّ الذئاب؛ لأنَّها كلُّها لم تأكل يوسف.

قال رحمه الله :

بَابُ الْهَلَعِ وَالْجَبَنِ وَقَوْلُ اللَّهِ تَعَالَى ﴿إِنَّ الْإِنْسَانَ خُلِقَ هَلُوعًا﴾ إِلَى قَوْلِهِ ﴿إِلَّا الْمُصَلِّينَ﴾ [الماع: ١٩ - ٢٢] .

قال رحمه الله تعالى: «بَابُ الْهَلَعِ وَالْجَبَنِ» ؛ هلع الإنسان: هو أمرٌ يقوم في الإنسان فيجمع فيه صنفين من البلاء والشَّرَّ وهما: الجزع والجشع. وهذا المعنى واضح في الآية الآتي ذكرها عند المصنِّف رحمه الله تعالى .
والجبين: هو خور الإنسان وضعف قلبه عن القيام بما أوجبه الله سبحانه وتعالى عليه.

قال: وقول الله تعالى ﴿إِنَّ الْإِنْسَانَ خُلِقَ هَلُوعًا﴾ (١٩) إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعًا (٢٠) وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعًا (٢١) إِلَّا الْمُصَلِّينَ ﴿[المعارج: ١٩-٢٢] ؛ فقوله ﴿هَلُوعًا﴾ تفسيره ما بعده ، كما قال أهل العلم في كتب التفسير. هلوعًا ما معناه؟ ﴿إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعًا﴾ (٢٠) وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعًا (٢١) إِلَّا الْمُصَلِّينَ ﴿ ؛ فالهلع: هو أن يكون الإنسان بهذا الوصف؛ إن مَسَّهُ الشَّرُّ فهو في غاية الجزع، وإن مَسَّهُ الخير فهو منوع شحيح. فالهلع: وصفٌ يجمع أمرين وهما: الجزعُ والشُّحُّ.

قال: ﴿إِنَّ الْإِنْسَانَ خُلِقَ هَلُوعًا﴾ (١٩) إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعًا (٢٠) وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعًا ﴿ أي: لا يعطي ما افترض الله عليه ﴿إِلَّا الْمُصَلِّينَ﴾ وهذا فيه عظم شأن الصلاة، وأنَّ الصلاة معينة للعبد على كلِّ خير.

قال رحمه الله :

٧٩ - وعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: ((شر ما في الرجل شُحُّ هالِعٍ؛ وجُبْن خالِع)) رواه أبو داود بسند جيد.

قال: وعن أبي هريرة رضي الله عنه أنَّ رسولَ الله صَلَّى الله عليه وسلَّم قال: ((شُرُّ ما في الرَّجُلِ شُحُّ هالِعٍ، وجُبْنُ خالِع)) ؛ «شُحُّ هالِعٍ» من الهلع ، ومَرَّ معنا في الآية ﴿خُلِقَ هَلُوعًا﴾ .

ف((شُرُّ ما في الرَّجُلِ شُحُّ)) ؛ والشُّحُّ: هو أشدُّ البخل ، والبخل: هو منع الإنسان ما أوجب الله عليه في ماله ، وأشدُّ ذلك يُسمَّى شُحًّا ، فالشُّحُّ هو: الحرص الشديد الذي يحمل صاحبه على أن يأخذ الأشياء من غير حِلِّها، ولا يُؤدِّي أيضًا حقَّ الله سبحانه وتعالى في المال، فهذا يُسمَّى «شُحًّا». وإذا كان هذا الشُّحُّ هالِعًا فإنَّ صاحبه سيكون منوعًا للخير وأيضًا مستغرقًا في تحصيل هذا المال من أيِّ وجهٍ كان، سواءً من حِلِّه أو من غير حِلِّه. و«الجبن الخالِع» أي: الجبن الشديد الذي من شدَّته يخلع قلب صاحبه ويخلع فؤاده. فمعنى قوله «خالِع»: أي من شدَّته يخلع فؤاد صاحبه .

فهذا كُلُّه مذمومٌ في العبد، وهو شُرُّ ما في الرَّجُلِ أن يكون فيه شُحُّ هالِعٍ، وأن يكون فيه جِبْنٌ خالِع. وقد صحَّ عن النَّبيِّ عليه الصَّلَاةُ والسَّلَامُ التَّعَوُّذُ بِاللَّهِ جَلَّ وعلا من البخلِ والجبن . والتَّعَوُّذُ بِاللَّهِ من الجبن والبخل فيه تَعَوُّذٌ بِاللَّهِ من هذين الوصفين المجتمعين في هذا الحديث : الشُّحُّ الهالِع، والجبن الخالِع ؛ فتعوَّذُ منهما بقوله: «اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنَ الْبُخْلِ وَالْجُبْنِ».

قال رحمه الله :

٨٠ - ولمسلم عن جابر رضي الله عنه مرفوعاً: ((اتقوا الشح؛ فإن الشح أهلك من كان قبلكم، حملهم على أن سفكوا دماءهم، واستحلوا محارمهم)).

قال: ولمسلم عن جابر رضي الله عنه مرفوعاً: ((اتَّقُوا الشُّحَّ)) أي: اجتنبوه واحذروا منه أشدَّ الحذر؛ لعظم خطره وضرره على صاحبه.

((اتَّقُوا الشُّحَّ)) والشُّحُّ: هو أشدُّ البخل، وإذا وُجِدَ في الإنسان الشُّحُّ فإنه يسعى في تحصيل المال من غير حِلِّه لا يبالى، وأيضاً لا ينفق المال في حِلِّه ولا يؤدِّي حقَّ الله سبحانه وتعالى فيه.

((اتَّقُوا الشُّحَّ، فَإِنَّ الشُّحَّ أَهْلَكَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ)) ؛ وهذا الهلاك لمن كان قبلنا بالشُّحِّ هلاكٌ دنيوي وهلاكٌ أخروي. أمَّا الهلاك الدنيوي فمن مثاله: ما جاء في الحديث ((حملهم على أن سفكوا دماءهم)) ؛ هذا هلاك، عندما يقتتلون حتى تُسْفَكَ الدِّماء وتُراق هذا هلاكٌ في الدُّنيا بسبب الشُّحِّ ، تتكالب نفوسهم على الأموال ويشحُّ الواحد منهم بما يجب عليه في هذا المال ويأخذ حقوق الآخرين من شدَّة شحِّه ولا يعيد لهم حقوقهم من شدَّة شحِّه؛ فتقوم المقاتل وتُراق الدِّماء وهذا هلاكٌ دنيوي. أمَّا الهلاك الأخروي بما أعدَّ الله سبحانه وتعالى لهؤلاء يوم القيامة من عقوبة.

قال رحمه الله تعالى :

بابُ البخل

وقول الله تعالى: ﴿الَّذِينَ يَخُلُونِ وَيَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبُخْلِ﴾ الآية [النساء: ٣٧] ، وقوله تعالى: ﴿وَفِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ لِّلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ﴾ [الذاريات: ١٩] .

قال: «بابُ البخل» ؛ البخل : أي في المال بعدم إخراجهِ وإنفاقٍ ما أوجب الله سبحانه وتعالى على العبد أن ينفقه وأن يبذله من ماله، فالبخل: هو منع الحقوق الواجبة التي أوجبها الله سبحانه وتعالى على العباد. ولهذا أورد رحمه الله في هذه الترجمة قول الله: ﴿وَفِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ لِّلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ﴾ فمنع هذا الحق يسمى «بخلاً» ، وقد قال الله عزَّ وجلَّ: ﴿الَّذِينَ يَخُلُونِ وَيَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبُخْلِ﴾ ؛ ذكرهم بوصفَيْن ذميمَيْن: أُنْهَم في أنفسهم بخلاء، يمنعون الحقوق التي أوجب الله سبحانه وتعالى عليهم، ولم يكتفوا بذلك بل صاروا أيضاً دُعَاءً إلى البخل

﴿وَيَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبُخْلِ﴾ ؛ فلم يكتفوا أنهم في أنفسهم بخلاء بل زادوا على ذلك أن صاروا أيضًا دُعاةً إلى البخل.

ولماذا من يكون متَّصِفًا بالبخل يدعو إليه؟ هذا مبني على قاعدة معروفة: أنَّ صاحبَ الشرِّ لا يريد أن يكون فريدًا فيه وحيدًا فيه لا يُشار إلّا إليه عند ذكر هذا الشرِّ ، ولهذا يسعى دائمًا أهل الشرِّ إلى الدَّعوة إلى الشرِّ حتى لا يكون وحيدًا. ولهذا جاء في الأثر عن عثمان رضي الله عنه أنَّه قال: «وَدَّتِ الزَّانِيَةُ لو زنى النِّسَاء جميعًا»، لا تريد أن تكون وحيدة في حيِّها يُشار إليها بأنَّها الفاعلة التَّاركة، فتدعو غيرها من النِّسَاء حتى يكون من يُشار إليه بهذا الوصف ليس هي وحدها، فهكذا دُعاة الشرِّ في كلِّ باب يُجَبُّون أن يستكثروا في مجتمعاتهم من أمثالهم، فالبخيل يودُّ أن يكثر البخلاء من أمثاله وشاكلته. قال: ﴿الَّذِينَ يَخُلُون﴾ أي هم في أنفسهم بخلاء ﴿وَيَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبُخْلِ﴾.

قال رحمه الله تعالى :

٨١ - عن جابر رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ((من سيِّدكم يا بني سَلَمَة؟)) قلنا: الجد بن قيس على أنا نُبَخِّلُهُ ، قال: ((وأي داءٍ أدوا من البخل! بل سيِّدكم عمرو بن الجموح)). رواه البخاري في الأدب المفرد.

قال: عن جابر رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ((من سيِّدكم يا بني سَلَمَة؟)) وهذا فيه تفقُّد النَّبيِّ عليه الصَّلَاة والسَّلَام للعشائر والقبائل، ومعرفة من على الإمرة فيهم وله السِّيادة، فكان يتفقدهم ويسأل صلوات الله وسلامه عليه فقال: ((من سيِّدكم يا بني سَلَمَة؟)).

((قلنا: الجدُّ ابن قيس؛ على أنا نُبَخِّلُهُ)) ؛ قولهم: «على أنا نُبَخِّلُهُ» هذا لا يُعَدُّ من الغيبة المحرَّمة؛ لأنَّ هذا من المقامات التي تسوغ فيه الغيبة، لأنَّ هذا مقام استنصاح لدى ولي الأمر ، وأراد أن يعرف من عليهم؟ وما صفته؟ فأخبروه بهذا الوصف الذي يلاحظونه عليه، قالوا: «غير أنا نُبَخِّلُهُ» أي: نعرف فيه شيء من البخل.

فقال النَّبيُّ: ((وأيُّ داءٍ أدوى من البخل)) وهذا موضع الشاهد للترجمة ؛ ((وأيُّ داءٍ أدوى من البخل؟)) أيُّ مرضٍ أشدَّ من مرض البخل! فالبخل مرض شديد إذا أصيب به الإنسان ، قال ((وأيُّ داءٍ أدوى من البخل؟)) أي: أيُّ مرضٍ أشدَّ من مرض البخل ، وهذا فيه أن البخل مرض وأنه أشدَّ المرض، والمراد هنا: أمراض القلوب. قال: ((وأيُّ داءٍ أدوى من البخل؟ بل سيِّدكم عمرو بن الجموح)).

قال رحمه الله :

باب عقوبة البخل

وقول الله تعالى: ﴿سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخِلُوا بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ [آل عمران: ١٨٠] .

قال: «باب عقوبة البخل» ؛ البخل عقوبته عظيمة ، لأنَّ البخل إذا وُجد في الإنسان منعه من أداء الحقوق التي افترض الله عليه، ومن ذلك: زكاة المال المفروضة التي افترضها الله عليه بمنعه بخله من أداء حقِّ الله سبحانه وتعالى، مع أنَّ حقَّ الله في المال لا يزيد المال إلاَّ نماءً وخيرًا وبركة، ولهذا سُمِّيَ ذلك «زكاة»؛ لأنَّه زكاةٌ للمال ونماءٌ له، فالبخل هو الذي يمنع الحقوق التي أوجبها الله سبحانه وتعالى عليه؛ ولهذا له يوم القيامة العقوبة الشديدة. ومن ذلك قوله: ﴿سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخِلُوا بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ أي: جميع ما بخلوا به يأتون يوم القيامة يحملونه طَوَّقًا على أعناقهم وخزيًا لهم بين الخلائق، وكلَّ هؤلاء كل واحد منهم يحمل ما بخل به، وأيضا الظلمة يحملون المظالم على أعناقهم خزيًا لهم وفضيحةً يوم القيامة بين الخلائق.

قال رحمه الله :

٨٢ - وفيه: ((لا توعي فيوعي الله عليك)) كما في الحديث الآخر : ((ارضخي يُرضخ لك)) أي وسعي يوسّع لك.

قوله: «فيه» أي: في هذا المعنى ((لا توعي فيوعي الله عليك)) ؛ معنى قوله: «لا توعي فيوعي الله عليك» أي: لا تحصي المال عند النَّفَقَةِ ، والإنسان إذا أراد أن ينفق يبدأ بحسب، إذا الآن أنفقت هذا وكم يبقى وكم كذا الخ، ((لا توعي فيوعي الله عليك)) ، وهذا جاء في حديث أسماء بنت أبي بكر رضي الله عنها قالت: قلت يا رسول الله: «مالي مالٌ إلاَّ ما أدخل الرُّبَيْرُ فَأَتَصَدَّقُ» ، قال صَلَّى الله عليه وسلَّم: ((تصدَّقِي ولا تُوعي فيوعي الله عليك))، وفي رواية: ((فيوعي الله عليك)) ؛ ومعنى «لا توعي» : لا تحصي ، ﴿وَمَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُ﴾ [سبا: ٣٩] . لكن إذا كان الإنسان إذا رأى المحتاج الذي اشتدَّت به الحاجة لا يُخرج وإنما يقول: "أنا الآن معي كذا ، ولو أعطيته كذا لا يبقى لي كذا ، وأنا أحتاج"، ويبدأ يعمل عمليات حسابية يفكر هل يُخرج شيئًا من ماله لهذا؟ وربما يذهب الفقير المحتاج ولا يراه، وما زال يحسب هل يعطيه أو لا يعطيه؟ «لا توعي»: أي لا تحسب ، أنفق والله سبحانه وتعالى تكفل لك بالخلف ، وسيأتي هذا الدعاء العظيم: «اللَّهُمَّ أعطِ مُسْكًا تَلَفًا، وأعطِ منفقًا خلفًا».

قال: كما في الحديث الآخر: ((ارضخي يُرْضَخْ لك)) ؛ «ارضخي» هذا ضد «توعي»، ومعنى «ارضخي»: أنفقي، ابذلي، تصدّقي، أعطي. ((ارضخي يُرْضَخْ لك)): أي يوسع الله عليك؛ لأنّ من ينفق ويبدل في سبيل الله يأتيه الله سبحانه وتعالى بالخلف ﴿وَمَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُ وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ﴾ [سبا: ٣٩].

قال رحمه الله :

٨٤ - وقوله عليه السلام: ((اللهم أعط ممسكاً تلقاً، وأعط منفقاً خلفاً)).

هذا الحديث جاء في الصّحيحين عن أبي هريرة أنّ النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم قال: ((ما من يومٍ يصبح العباد فيه إلا ملكان ينزلان، فيقول أحدهما: اللهم أعط منفقاً خلفاً ، ويقول الآخر: اللهم أعط ممسكاً تلقاً)) ، وهذه هي دعوة يوميّة من ملكين ينزلان كلّ يوم؛ فيدعو أحدهما بـ «اللهم أعط منفقاً خلفاً»، والآخر يدعو: «اللهم أعط ممسكاً تلقاً» ، وهي دعواتٌ مستجابات.

ولهذا ينبغي على الإنسان أن يحرص أن يكون له نفقة يوميّة ولو شيئاً قليلاً؛ حتى يفوز بهذه الدّعوة، ولو شيئاً قليلاً فإنّ الله عزّ وجلّ يُخلفُ له هذا الذي أنفقَه: ﴿وَمَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُ﴾ ، ويفوز بهذه الدّعوة العظيمة المباركة «اللهم أعط منفقاً خلفاً». وأمّا الشُّحّ والبخل وعدم الإنفاق فإنّ الإنسان ينالُ به هذه الدّعوة من الملك: «اللهم أعط ممسكاً تلقاً» أي: لماله.

سبحانك اللهم وبحمدك ، أشهد أن لا إله إلا أنت ، أستغفرك وأتوب إليك .

اللهم صلّ وسلم على عبدك ورسولك نبينا محمد وآله وصحبه أجمعين.

الدرس الرابع عشر

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله ربّ العالمين، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله صلى الله وسلم عليه وعلى آله وأصحابه أجمعين. أمّا بعد:

قال شيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب رحمه الله تعالى في كتاب الكبائر :

باب ازدراء النعمة والاستخفاف بحرمات الله

هذه الترجمة «باب ازدراء النعمة، والاستخفاف بحرمات الله» موجودة في بعض نسخ هذا الكتاب وليست موجودة في البعض الآخر، والنسخ التي أثبتت فيها هذه الترجمة ترك ما بعدها بياضاً، فإذا كان هذا من صنيع المصنّف رحمه الله تعالى فيكون ترك البياض ليلحق فيما بعد ما يتعلق بهذه الترجمة من أدلة.

قوله: «باب ازدراء النعمة» ؛ ازدراؤها: أي احتقار النعمة وانتقاص النعمة والاستهانة بها ؛ وهذا ممّا لا يليق بالمسلم، بل هو من كفران النعم. والنعمة لا تُزدرى أيّاً كانت، بل يُشكر المنعم سبحانه وتعالى عليها، وشكره جلّ وعلا على القليل مؤذنٌ بالزيادة، كما قال الله سبحانه وتعالى: ﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِنْ كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ﴾ [إبراهيم: ٧] . وأمّا ازدراء النعم -الذي هو انتقاصها واحتقارها- مؤذنٌ بالعقوبة والهلاك ؛ لأن هذا من كفران نعمة الله سبحانه وتعالى على عبده . وقد جاء في الحديث عن نبيّنا صلوات الله وسلامه عليه أنّه قال: ((انظروا إلى من هو دونكم، ولا تنظروا إلى من هو فوقكم- أي في النعمة- فإنّه أجدر ألاّ تزدروا نعمة الله عليكم))؛ لأنّ نظر الإنسان إلى من هو أعلى منه في النعمة: في التجارة، في المال، في المسكن، في المركب.. نظره إلى هؤلاء يورثه ازدراء للنعمة، أمّا إذا نظر إلى من هو أقلّ منه في النعمة، فإنّ هذا يورث شكر المنعم سبحانه وتعالى .

ولما نبّه نبيّنا صلوات الله وسلامه عليه هذا التنبيه أفاد ذلك أنّ ازدراء النعمة من الأمور المحرّمة والأمور الخطيرة التي ينبغي على المرء أن يتعد عنها، وأن يتعد أيضاً عن الأسباب المفضية إليها. وعرفنا أنّ من الأسباب المفضية إلى ازدراء النعم النظر إلى من هو أعلى منك في النعمة . فإذا كان الإنسان مثلاً يمتلك سيّارة قديمة وأخذ ينظر إلى من يمتلك السيّارات الجديدة؛ لا يرى نعمة السيّارة التي عنده شيئاً، فيزدري هذه النعمة، لكن إذا نظر إلى من لا يملك سيّارة أصلاً، ويجد صعوبة في التنقل من مكان إلى مكان يحسّ بأنّ هذه السيّارة نعمة، فيشكر الله سبحانه وتعالى أن يسرها له. ومثل ذلك قل في سائر النعم. فالشاهد أنّ ازدراء النعم من المحرّمات، بل الواجب أن يشكر العبد ربّه سبحانه وتعالى على نعمه، ويسأله سبحانه وتعالى المزيد من منّه وفضله.

قال: «والاستخفاف بحرمات الله» ؛ و«حرمات الله» : يُطْلَق هذا اللَّفْظ تارةً ويُراد به ما حَرَّمَ على عباده، وتارةً يُراد به ما شرع سبحانه وتعالى لعباده . قال الله تعالى: ﴿ذَلِكَ وَمَنْ يُعِظْ حُرُمَاتِ اللَّهِ﴾ [الحج: ٣٠] ، فحرمات الله معظمة؛ الأوامر منها تُفْعَل، والنَّوَاهِي تُجْتَنَّب، ولا يُسْتَحْفَ بشيءٍ منها ، لا يُسْتَحْفَ بشيءٍ من أوامر الله ولا يُسْتَحْفَ بشيءٍ من نواهيه سبحانه وتعالى، بل الواجب على العبد أن يعظّم حرمات الله سبحانه وتعالى. وتعظيم حرمات الله خيرٌ للعبد، وعلامةٌ على تقوى قلبه لله سبحانه، وخوفه من الله جلَّ وعلا.

قال رحمه الله تعالى :

باب بغض الصالحين

وقول الله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ﴾ الآية [الحشر: ١٠]

٨٥ - عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه مرفوعا: ((يقول الله تعالى: من عادى لي وليا فقد بارزني بالحرب)).
معناه : إذا خرج رجلان من الصنفين للقتال وهاهنا من عادى ولي الله فهو مبارز الله بالحرب.

قال: ((باب بغض الصالحين)) ؛ بغض الصالحين : أي أن يُضْمِرَ الإنسان في قلبه بُغْضَةً أو بُغْضَةً لِلصَّالِحِينَ. والبغض: ضدَّ المحبة، وفي الحديث: ((أَوْثَقُ عُرَى الْإِيمَانِ: الْحُبُّ فِي اللَّهِ، وَالْبُغْضُ فِي اللَّهِ)) ، وفي الحديث الآخر: ((مَنْ أَحَبَّ لِلَّهِ وَأَبْغَضَ لِلَّهِ، وَأَعْطَى لِلَّهِ، وَمَنَعَ لِلَّهِ فَقَدْ اسْتَكْمَلَ الْإِيمَانَ)). فالأصل في المسلم أن يحبَّ الصالحين، يحبَّهم لصلاحتهم وإيمانهم وتقواهم لله عزَّ وجلَّ وفعلهم لأوامر الله سبحانه وتعالى وبُعدِهِمْ عَمَّا نَهَى الله جلَّ وعلا عنه. وهذا الحبُّ للصالحين هو من علائم الإيمان ودلائله؛ لأنَّ النَّبِيَّ صَلَّى الله عليه وسلَّم أخبر أنَّ أَوْثَقَ عُرَى الْإِيمَانِ: الْحُبُّ فِي اللَّهِ وَالْبُغْضُ فِي اللَّهِ. فحبُّ الصالحين أن يكون في قلب الإنسان محبةً للصالحين هذا من علامات الخير، فإذا انعكس الأمر وأصبح -والعياذ بالله- يبغض الصالحين، فهذا من علامات النِّفاق ومن علامات مرض القلب والعياذ بالله. ولهذا أورد رحمه الله هذه التَّرْجُمَةَ في كتاب الكبائر «باب بغض الصالحين» مُبَيِّنًا رحمه الله تعالى أنَّ بغضهم هذا من علامات مرض القلب.

والبُغْضُ عملٌ قلبي لا يفتقر إلى إظهار ليتربَّ عليه الحكم ، إن أظهر الإنسان ما يترتب على البغض من عداوات ومن أذى ونحو ذلك، فهذا شرٌّ على شرٍّ وإثمٌ على إثم . فالبغض بحِدِّ ذاته إثمٌ، وهو عمل من أعمال القلوب، هل ينطبق على هذا الذي في قلبه بغض للصالحين ولم يترتب عليه فعل -أذى أو عدوان أو نحو ذلك- هل يترتب عليه ما جاء في الحديث أنَّ النَّبِيَّ صَلَّى الله عليه وسلَّم قال: ((مَنْ هَمَّ بِسَيِّئَةٍ فَلَمْ يَعْمَلْهَا)) هل يترتب وينطبق عليه هذا الحديث؟

فرق بين الهم الذي لا يعزم عليه العبد، فهذا لا يُكتب عليه سيئة، بل إن ترك هذا الهم من أجل الله كُتِبَ له حسنة، وبين أعمال القلوب التي هي بحد ذاتها إثمٌ، مثل: البغض، مثل الحسد كما سيأتي، والغِل، وغير ذلك؛ هذه أمراض قلوب وأعمال قلبية يُحاسب الإنسان عليها مثل ما يُحاسب على عمله الظاهر، ومثل ما أن المرء مُطالب بإصلاح ظاهره فإنه كذلك مُطالب بإصلاح باطنه، فلو لم يوجد في المرء إلا البغض بدون أن يترتب عليه الأعمال التي تنشأ عن البغض فهو آثمٌ بذلك ومتعرضٌ لعقوبة الله سبحانه وتعالى.

قال: وقول الله تعالى ﴿وَالَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ﴾؛ ﴿وَالَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ﴾ أي: من بعد الصحابة؛ لأنَّ الآيتين اللتين قبل هذه الآية في الصحابة؛ الأولى في المهاجرين، والثانية في الأنصار. قال: ﴿لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أَخْرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ يَتَغَوْنَ فِضَاءَ مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا وَيَنْصُرُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ﴾ (٨) وَالَّذِينَ تَبَوَّأُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِنْ قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُورِهِمْ حَاجَةً مِمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَنْ يُوقِ شَحْنَنَ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (٩) وَالَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ﴾ أي: من بعد المهاجرين الذين ذُكروا في الآية الأولى، والأنصار الذين ذُكروا في الآية الثانية. ما صفتهم؟ قال: ﴿يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَؤُوفٌ رَحِيمٌ﴾.

الشاهد من الآية: قوله ﴿وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا﴾ أي: سخيمةً وبُغضًا وكرهاً للذين سبقونا بالإيمان، ويأتي في مقدِّمة مَنْ سبقونا بالإيمان الصحابة الكرام رضي الله عنهم وأرضاهم، خير أمةٍ حمَّد صلوات الله وسلامه عليه. ولهذا من علامات النِّفاق ومرض القلب: بُغض الصحابة. وإذا زاد على هذا البغض أعمالٌ أخرى من سبٍّ وشتمٍ وأذى أو غير ذلك.. فهذا سوءٌ على سوءٍ وشرٌّ على شرٍّ، ولو لم يوجد إلا البغض وحده في قلب الإنسان فهذا من علامات النِّفاق وعلامات مرض القلب؛ لأنَّ حبَّ الصحابة إيمان، وبغضهم نفاق. وإذا كان الإنسان محبًّا للصحابة فهذا من علامات الإيمان، وبغض الصحابة نفاق، إذا كان المرء مبغضًا لهم فهذا من علامات نفاق القلب ومرضه.

قال: ﴿وَالَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ﴾ أي: من بعد الصحابة ﴿يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِلَّذِينَ آمَنُوا﴾ فوصفهم بوصفين عظيمين:

■ الأول: في قوله ﴿يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا﴾ وهذا فيه سلامة ألسنتهم، ألسنتهم تجاه الصحابة سليمة، ليس فيها شتم ولا سب ولا وقعة، بل ليس فيها إلا الاستغفار والدُّعاء.

■ والوصف الثاني: في قوله ﴿وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِلَّذِينَ آمَنُوا﴾ وهذا فيه سلامة القلوب من الغِلِّ والحقْد والبغض ونحو ذلك.

فوصفهم بنوعين من السَّلامة: سلامة الألسن، وسلامة القلوب ؛ سلامة الألسن ليس فيها سب ولا شتم ولا وقية. وسلامة القلوب ليس فيها بغض ولا حقْد ولا سخائم ولا غير ذلك. فهذا من علامات الإيمان ووصف أهل الإيمان، قال: ﴿وَالَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ﴾. إذاً إن لم يكن القلب بهذا الوصف مُحِبًّا لِلصَّحَابَةِ وصار مُبْغِضًا لَهُمْ هذا من علامات النَّفاق والعياذ بالله.

قال رحمه الله : عن أبي هريرة رضي الله عنه مرفوعاً ((يقول الله تعالى)) هذا حديثٌ قُدسي ((يقول الله تعالى : مَنْ عَادَى لِي وَلِيًّا فَقَدْ بَارَزَنِي بِالْحَرْبِ ، وَمَا تَقَرَّبَ إِلَيَّ عَبْدِي بِشَيْءٍ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا افْتَرَضْتَهُ عَلَيْهِ ، وَلَا يَزَالُ عَبْدِي يَتَقَرَّبُ إِلَيَّ بِالتَّوَافُلِ حَتَّى أُحِبَّهُ ، فَإِذَا أَحْبَبْتَهُ كُنْتُ سَمْعَهُ الَّذِي يَسْمَعُ بِهِ ، وَبَصَرَهُ الَّذِي يَبْصُرُ بِهِ ، وَيَدَهُ الَّتِي يَبْطِشُ بِهَا ، وَرِجْلَهُ الَّتِي يَمْشِي عَلَيْهَا ، وَلَنْ سَأْلَنِي لِأَعْطِيَتْهُ ، وَلَنْ اسْتَعَاذَ بِي لِأُعِذَنْهُ)) نسأل الله الكريم من فضله.

فهنا هذا الحديث يُعْرَفُ عند أهل العلم بـ «حديث الولي» ، وإذا أردت أن تعرف وليَّ الله مَنْ هو؟ اقرأ هذا الحديث، وإذا أردت أن تعرف مكانة أولياء الله سبحانه وتعالى ومنزلتهم العلية اقرأ هذا الحديث. فالحديث فيه بيان منزلة أولياء الله ومكانتهم العلية، وفيه بيانٌ أيضاً مَنْ هم أولياء الله؟

أمّا مكانتهم فإقرأها في قوله: ((مَنْ عَادَى لِي وَلِيًّا فَقَدْ بَارَزَنِي بِالْحَرْبِ)) ؛ ما معنى «فقد بارزني بالحرب»؟ انظر هذا الكلام الجميل : «معناه: إذا خرج رجلان من الصَّفِّينَ للقتال»، هذا يسمَّى مبارزة؛ إذا التقى الجيشان عادةً يتقدَّم رجل، رجلين، ثلاثة للمبارزة، ويتقدَّم أيضاً لهم من العدو . فهنا يقول معناه: «إذا خرج رجلان من الصَّفِّينَ للقتال»، وهنا ((مَنْ عَادَى وَلِيَّ اللَّهِ فَهُوَ مَبَارِزُ اللَّهِ بِالْحَرْبِ))، كأنَّه متقدِّمٌ لهذا الشَّرِّ وهذه العداوة الَّتِي ليس فيها إلا هلكة نفسه -والعياذ بالله- في الدُّنيا والآخرة ((فقد بارزني بالحرب)). إذا كان يُدَمَّ مَنْ يتقدَّم في الصُّفُوفِ لمبارزة ومقاتلة المسلمين ، يُقال: هذا من شدَّة عدوانه وعِظَم شرِّه يتقدَّم للمبارزة، فكيف بمن بارز الله سبحانه وتعالى بالحرب!!.

فإذاً مُعاداةُ أولياء الله من أعظم ما يكون في العدوان والشرِّ ، وأيضاً من أعظم ما يكون فيما يؤذَن بالعقوبة، عقوبة الله سبحانه وتعالى لمن كان كذلك. والواجب على المسلم ألاَّ يكون في قلبه تجاه أولياء الله إلاَّ الخير والنُّصح والمحبة، وليحذر الإنسان أشدَّ الحذر أن يكون في قلبه عداوة لطلاب العلم وأهل العلم وحملة العلم ومَن حفظوا أوقاتهم في العلم وحفظه والعناية به ونشره والتفهُُّ في دين الله، أو العداوة للعباد الذين انصرفوا لعبادة الله والإقبال

على طاعة الله سبحانه وتعالى، والإنسان ليس له إلا ظاهر النَّاس، فإذا وجد هذا الظاهر في الإنسان إقبالاً على العلم وحرصاً عليه وتحريماً له واجتهاداً في طلبه أو إقبالاً على عبادة الله سبحانه وتعالى أحبه على هذا الخير، ولا يكون في قلبه بغض، يوفّر بغضه لأعداء دين الله وأهل البدع والضلالات، أمّا مَنْ اشتغل بالعلم واشتغل بالعبادة واشتغل بطاعة الله وعمل الخير لا يكون في قلبه إلا المحبة له.

وأولياء الله سبحانه وتعالى - كما أفاد هذا الحديث - على درجتين:

■ الدّرجة الأولى: فعل الواجبات وترك المحرّمات ؛ وهذه الدّرجة يدلّ عليها قوله: ((ما تقرب إليّ عبدي بشيء أحبّ إليّ ممّا افترضته عليه)).

■ الدّرجة الثانية: التّنافس بعد فعل الواجبات وترك المحرّمات في الرّغائب والسُّنن والمستحبات ؛ ويدلّ على هذه الدّرجة قوله: ((ولا يزال عبدي يتقرب إليّ بالنّوافل حتى أحبه...)) إلى تمام الحديث.

قال رحمه الله تعالى :

٨٦ - عن أبي هريرة رضي الله عنه مرفوعاً: ((لا يبغض الأنصار رجل يؤمن بالله واليوم الآخر)).

قال: عن أبي هريرة مرفوعاً: ((لا يُبغِضُ الأنصارَ رجلٌ يؤمن بالله واليوم الآخر)) ؛ وهذا فيه أنّ الإيمان بالله واليوم الآخر يقتضي حبّ الأنصار ، وحبّ أصحاب النّبيّ الكريم صلوات الله وسلامه عليه . وهذا المعنى المقرّر في الحديث دلّت عليه الآية المتقدّمة: ﴿وَالَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَؤُوفٌ رَحِيمٌ﴾ [الحشر: ١٠] ، فيقول عليه الصّلاة والسّلام: ((لا يبغضُ الأنصارَ رجلٌ يؤمن بالله واليوم الآخر)) ؛ سبحان الله! كيف يبغضهم وهم الأنصار؛ الذين آوؤا ونصروا وآزروا النّبيّ الكريم صلوات الله وسلامه عليه ، وتلقّوا المهاجرين بالقلوب المنشّحة والصّدور الرّحبة والتّحيّة والترّحيب، قاسموهم أموالهم بالنّصف، وأعانوهم وآزروهم، ونصروا دين الله تبارك وتعالى؛ فلا يبغض الأنصار إلا منافق، إلا مريض القلب بالتّفاق، فأية الإيمان حبّ الأنصار، وآية التّفاق بغض الأنصار، لا يبغضهم إلا منافق ، كيف يبغضهم وهم أنصار دين الله سبحانه وتعالى، وأنصار الرّسول الكريم صلوات الله وسلامه وبركاته عليه؟! وذكر الإيمان بالله واليوم الآخر: لأنّ الإيمان بالله باعتبار أنّ الله هو المقصود بالعبادة، ومن ذلك أنّه هو جلّ وعلا المقصود بحبّ الصّالحين، فأنت تحبّ الصّالحين من أجل الله ، تقرباً بذلك إلى الله سبحانه وتعالى ، فهو المقصود بهذا العمل، المقصود بكلّ عبادة.

وذكر اليوم الآخر : لأنَّ اليوم الآخر هو دار الجزاء والحساب، فإذا أحبَّ الصَّالحين أثابه الله عزَّ وجلَّ في ذلك اليوم، وإذا أبغضهم عاقبه الله سبحانه وتعالى في ذلك اليوم. وفي الدُّعاء المأثور: «اللهمَّ إِنَّا نَسْأَلُكَ حُبَّكَ ، وَحُبَّ مَنْ يَحُبُّكَ، والعمل الَّذي يقرِّبنا إلى حُبِّكَ».

قال رحمه الله تعالى :

بَابُ الْحَسَدِ

وقول الله تعالى: ﴿أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلَى مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ﴾ الآية [النساء: ٥٤] .

قال: «بَابُ الْحَسَدِ» ؛ الحسد أيضًا مرض من أمراض القلوب، والحسد: هو كراهية النِّعمة ، ولهذا يُوصَف الحاسد بأنه عدُوُّ نعمةِ الله على عباده ، وكلَّما زادت النِّعمة زاد في قلب الحاسد حسده ؛ لأنَّ في قلبه عداوة لنعمة الله سبحانه وتعالى على عباده ، ولهذا يوصَف بأنه عدُوُّ نعمةِ الله على عباده . وهو بحسده لم يَرْضَ النِّعمة ، ولم يَرْضَ التَّديير، ولم يَرْضَ القضاء والقَدْر، ولم يَرْضَ عِلْمَ الله سبحانه وتعالى ومُنَّته على عباده وفضله سبحانه وتعالى.

فالحسد صفة ذميمة ، وليست من أوصاف أهل الإيمان، وإِنَّمَا من أوصافِ أهل الكفر والضَّلال ، وليست من أوصاف الإيمان؛ لأنَّ الإيمان ينافي الحسد ويطرد الحسد من القلب؛ لأنَّ القلب المخلص لله عزَّ وجلَّ الَّذي فيه الرِّضا بقضاء الله ومنَّه جلَّ وعلا لا يحسد الآخرين على نعمة الله الَّتِي أنعم الله سبحانه وتعالى بها على عباده.

وإمام الحاسدين وأوَّل مَنْ عُرِفَ بالحسد : إبليس ، وحسده كان لأبينا آدم ، اختصَّ الله آدم بخصائص ؛ خلقه بيده، وأسجد له ملائكته، وأسكنه جنَّته، وتفضَّل عليه بنعم ومنن متنوِّعة فحسده إبليس على نعمة الله سبحانه وتعالى عليه وقال: ﴿أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ﴾ [الأعراف: ١٢] ، حسد أبانا آدم على ما خصَّه الله سبحانه وتعالى به وعلى ما منَّ عليه به من النِّعم المتنوِّعات، فإبليس هو إمام الحسدة وقودتهم ، وكلُّ حاسدٍ فيه شبهة من إبليس في هذه الخصلة.

والحسد صفة اليهود، والله سبحانه وتعالى وصف اليهود بذلك في غير ما آية ، منها هذه الآية الكريمة : ﴿أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلَى مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ﴾ [النساء: ٥٤] ، فاليهود حسدة ؛ يحسدون أهل الإيمان على ما آتاهم الله سبحانه وتعالى من فضله، وكما أنَّهم يحسدون أهل الإيمان على الإيمان فإنَّهم يحسدونهم أيضًا على تفاصيله ، مثل حسدهم لنا على التَّأمين، وغير ذلك من الأعمال الَّتِي جاءت، وجاء بها النَّبيُّ صلوات الله وسلامه وبركاته عليه.

قال رحمه الله تعالى :

٨٧ - عن أنس رضي الله تعالى عنه مرفوعاً: ((لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه)).

قال عليه الصَّلَاةُ والسَّلَام: ((لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه)) ؛ «لا يؤمن» : أي الإيمان الواجب الذي أوجبه الله سبحانه وتعالى «حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه» ؛ وهذا فيه أنَّ الإيمان من مقتضياته أن تحب لأخيك ما تحب لنفسك . وإذا وقع الحسد في القلب فهذا يتنافى مع هذه المحبة المطلوبة ؛ أن تحب لأخيك ما تحب لنفسك، لماذا؟ لأنَّ الحسد هو كُره للنِّعمة التي أنعم الله بها على الغير وبغض لها. وذكر العلماء أنَّ الحسد ثلاث مراتب:

• أدنى هذه المراتب : كراهية النِّعمة .

• ثمَّ يليها مع الكراهية: تمِّي الزَّوال .

• ثمَّ يلي ذلك مع الكراهية وتمِّي الزَّوال: العمل على إزالة النِّعمة.

فهو ثلاث مراتب، وكلُّها حسد، إذا فالحسد مبدأ شرارته كُره النِّعمة وبُغضها، وهذا يتنافى مع ما جاء في هذا الحديث ((لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه)) ، والإيمان هنا الإيمان الواجب ، بمعنى أنَّه إذا لم يحقِّقه العبد عرَّض نفسه لعقوبة الله؛ لأنَّ الله أوجب عليك أن تحب لأخيك ما تحب لنفسك.

قال رحمه الله تعالى :

٨٨ - وعن أبي هريرة رضي الله عنه مرفوعاً: ((إياكم والحسد؛ فإنه يأكل الحسنات كما تأكل النار الحطب، أو قال: العشب)) رواه أبو داود.

قال: وعن أبي هريرة رضي الله عنه مرفوعاً: ((إياكم والحسد)) أي : احذروه ، وتجنَّبوه، وابتعدوا عنه.

((فإنَّه يأكل الحسنات)) أي: حسنات صاحبه.

((فإنَّه يأكل الحسنات كما تأكل النَّار الحطب، أو قال: العشب)) ؛ والنَّار إذا اشتعلت في العشب الهشَّ اليابس، فإنَّها تأكله أَكْلاً سريعاً، والحسد شأنه مع الحسنات كذلك يأكل الحسنات كما تأكل النَّار الحطب، أو كما تأكل النَّار العشب.

والحديث في إسناده كلام ، لكن ما جاء فيه من التَّحذير من الحسد وبيان خطورته وأكله للحسنات هذا معنى صحيح دلَّت عليه الشَّواهد الكثيرة والدَّلائل المتنَّوعة في الكتاب والسُّنة.

قال رحمه الله تعالى :

باب سوء الظن بالمسلمين

وقول الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِّنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ﴾ [الحجرات: ١٢].

قال رحمه الله: «باب سوء الظن بالمسلمين» ؛ سوء الظن تارة يكون شيئاً عارضاً لا يسترسل معه صاحبه، وإنما شيء يعرض للقلب وسرعان ما يطرده صاحبه ولا يستمر معه؛ فهذا لا يُدَمَّ عليه ، لأن هذه أشياء تهجم على القلب من غير اختيار، أشبه ما تكون بالخواطر التي تهجم على القلب، ثم سرعان ما تذهب ويعمل على دفعها المرء المسلم الناصح.

والنوع الثاني : هو ما يستمر عليه صاحبه ، ويستقر في قلب الإنسان ؛ وهذا الذي يُدَمَّ عليه الإنسان . أما الخواطر التي تأتي عَرَضاً وتذهب ويطردها الإنسان بإيراد الاحتمالات الحسنة، عندما يرد مثلاً خاطر السيئ الذي فيه سوء ظن بالآخرين يبدأ الإنسان يدفعه يقول: "لعله كذا، ولعله كذا، ولعل..". حتى ينطرد، هذا لا يُدَمَّ عليه؛ لأنه هجم على قلبك وعملت على طرده من القلب، فهذا لا يضر. أما الذي يضر هو سوء الظن الذي يستقر في القلب ويستمر عليه الإنسان وينمي في قلبه، يؤكده ويثبتته، هذا يُدَمَّ عليه الإنسان.

قال الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِّنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ﴾ [الحجرات: ١٢] ؛ لأنك إذا ظننت في أخيك سوءاً أو شراً ثم تبين أنه على خلاف ذلك ، فهذا الظن تكون آثماً، هذا الظن الذي استقر في قلبك ولم تعمل على طرده بل تثبته واستقر في قلبك وبقيت تحمل في قلبك لأخيك هذا الظن السيئ، ثم تبين أنه بخلاف ذلك؛ فهذا يأثم الإنسان عليه، وهو من أمراض القلوب التي ينبغي على المسلم أن يتجنبها.

قال رحمه الله تعالى :

٨٩ - عن أبي هريرة رضي الله عنه مرفوعاً: ((إياكم والظن فإن الظن أكذب الحديث)) رواه مسلم.

قال صلوات الله وسلامه عليه: ((إياكم والظن)) أي: احذروه، لا يجوز للإنسان أن يبنى أموره على الظنون والأوهام.

((إياكم والظن فإن الظن أكذب الحديث)) ؛ إذا كان الإنسان يبنى أحاديثه على مجرد الظنون دون أن يكون عنده يقين أو جزم بذلك، فما يُبنى على الظن في الغالب كله كذب، ((فإن الظن أكذب الحديث)). ولهذا الواجب على الإنسان إذا عرض الظن السيئ تجاه إخوانه المسلمين في قلبه فليحرص على دفعه وطرده بإيراد المحامل الحسنة، مثل ما نُقل عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أنه قال: «لا تظنن بكلمة قالها أخوك سوءاً وأنت

تجد لها على الخير مَحْمَلًا» ، حاول أنت تجد محامل من محامل الخير تحمل عليها كلمته التي قالها أو فعله الذي قام به ، لعلّه أراد كذا، لعلّه قصد كذا، لعلّه لم ينتبه، لعلّه .. إلى غير ذلك من المحامل التي تدفع عن قلبك سوء الظنّ بأخيك.

سبحانك اللهم وبحمدك ، أشهد أن لا إله إلا أنت ، أستغفرك وأتوب إليك .
اللهم صلّ وسلم على عبدك ورسولك نبينا محمد وآله وصحبه أجمعين.



شرح كتاب الكبائر

لشيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب رحمه الله

من الدرس ١٥ إلى الدرس ١٨

شرح الشيخ عبد الرزاق بن عبد المحسن البدر حفظهما الله تعالى

١٤٤١/٠١/٠٥ هـ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله رب العالمين، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله صلى الله وسلم عليه وعلى آله وأصحابه أجمعين. أمّا بعد:

قال شيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب رحمه الله تعالى في كتابه الكبائر :

باب ما جاء في الكذب على الله أو على رسوله

وقول الله تعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا﴾ الآية [العنكبوت: ٦٨] ، وقوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ تَرَى الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى اللَّهِ وُجُوهُهُم مُّسْوَدَّةٌ﴾ الآية [الزمر: ٦٠].

قال المصنف رحمه الله تعالى: «باب ما جاء في الكذب على الله أو على رسوله صلى الله عليه وسلم» ؛ أي أن من جملة الكبائر العظيمة والآثام الخطيرة: الكذب على رب العالمين سبحانه، أو الكذب على رسوله عليه الصلاة والسلام الذي مهمته إبلاغ كلام المرسل جلّ وعلا . فالكذب على الله جلّ وعلا ليس كالكذب على أي أحد، وكذلك الكذب على رسوله عليه الصلاة والسلام ليس كالكذب على أي أحد ؛ وذلك أن كلام الله عز وجلّ وحىّ تبين من خلاله الأحكام والشرائع والأوامر والنواهي والحلال والحرام، ولهذا قال الله عز وجلّ: ﴿وَلَا تَقُولُوا لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ الْكُذِبَ هَذَا حَلَالٌ وَهَذَا حَرَامٌ لِّتَقْتَرُوا عَلَى اللَّهِ الْكُذِبَ﴾ [النحل: ١١٦] . فالذي يكذب على الله سبحانه وتعالى يتضمن كذبه على الله إما أن يُحْلَلْ شيئاً أو يَحْرَمَ، أو يُبَيِّحَ شيئاً أو يمنع، وهذا كله ليس إلاّ لله رب العالمين . فمن كذب على الله عز وجلّ فقد باء بإثم عظيم وذنب كبير؛ ولهذا جاء التهديد والوعيد في آيات كثيرة لمن يفترى الكذب على الله سبحانه وتعالى ومن ذلك:

قوله : ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا﴾ [العنكبوت: ٦٨] والاستفهام هنا بمعنى التّفي؛ أي: لا أحد أشدّ ظلماً من ظلم من يفترى على الله تبارك وتعالى الكذب.

وفي الآية التي تليها يقول الله عز وجلّ: ﴿وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ تَرَى الَّذِينَ يَقْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكُذِبَ وَجُوهُهُمْ مُّسْوَدَّةٌ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَوَئِدٌ لِّلْمُكْبِرِينَ﴾ [الزمر: ٦٠] ؛ وهذا فيه: أن الكاذب على الله سبحانه وتعالى مثواه جهنم، ويأتي يوم القيامة مسودّ الوجه؛ لكذبه على الله تبارك وتعالى رب العالمين.

قال رحمه الله تعالى :

٩٠- وفي الصحيح عن أنس رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: ((إِنَّ كَذِبًا عَلَيَّ لَيْسَ ككَذِبٍ عَلَى غَيْرِي ، من كذب علي متعمدًا فليتبوأ مقعده من النار)). .

قال: وفي الصحيح عن أنس رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: ((إِنَّ كَذِبًا عَلَيَّ لَيْسَ ككَذِبٍ عَلَى غَيْرِي)) ؛ الكذب على رسول الله صلى الله عليه وسلم الذي لا ينطق عن الهوى ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى﴾ [التحيم: ٤] صلوات الله وسلامه وبركاته عليه ليس كالكذب على أحاد الناس وعموم الناس؛ لأنَّ الرَّسول عليه الصَّلَاةُ والسَّلَامُ مُبَلِّغٌ عن الله ﴿وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ﴾ [المائدة: ٩٩] . فالكذب على رسول الله صلى الله عليه وسلم ليس كالكذب على أيِّ أحد؛ لأنَّ أقوال النَّبيِّ عليه الصَّلَاةُ والسَّلَامُ وما تتضمنه من أوامر ونواهي وأخبار ونحو ذلك إنما هي وحْيٌ من الله تبارك وتعالى ربِّ العالمين، فمَنْ كذب على رسول الله صلى الله عليه وسلم فإنَّ كذبه هذا على رسول الله قولٌ على دين الله تبارك وتعالى وفي شرع الله تبارك وتعالى بالكذب والافتراء على الله جلَّ وعلا وعلى رسوله صلوات الله وسلامه عليه.

قال: ((مَنْ كَذَبَ عَلَيَّ مُتَعَمِّدًا فَلْيَتَبَوَّأْ مَقْعَدَهُ مِنَ النَّارِ)) ؛ «مَنْ كَذَبَ عَلَيَّ مُتَعَمِّدًا» أي: أنَّ مَنْ يَتَعَمَّد الكذب والافتراء على الرَّسول عليه الصَّلَاةُ والسَّلَامُ، بأن يقول: "قال رسول الله صلى الله عليه وسلم كذا" كاذبًا في ذلك مُفْتَرِيًّا على رسول الله صلى الله عليه وسلم «فَلْيَتَبَوَّأْ مَقْعَدَهُ مِنَ النَّارِ» أي: فليَتَّخِذْ لنفسه بهذا الكذب على الرَّسول صلى الله عليه وسلم مقعدًا من النَّارِ.

قال رحمه الله تعالى :

٩١ - ولمسلم عن سمرة بن جندب رضي الله عنه مرفوعًا: ((مَنْ حَدَّثَ عَنِي بِحَدِيثٍ يَرَى أَنَّهُ كَذِبٌ فَهُوَ أَحَدُ الْكَذَّابِينَ)). .

قال: وعن سمرة رضي الله عنه مرفوعًا: ((مَنْ حَدَّثَ عَنِي)) أي: عن الرَّسول الكريم صلى الله عليه وسلم ((بِحَدِيثٍ يَرَى أَنَّهُ كَذِبٌ)) أي: لم يَتَبَيَّنْ صحَّته وثبوته عن الرَّسول الكريم صلى الله عليه وسلم وإنما يجازف مجازفة في نسبته إلى الرَّسول الكريم صلى الله عليه وسلم ((فهُوَ أَحَدُ الْكَذَّابِينَ)) أي: المفترين على الرَّسول الكريم صلوات الله

وسلامه عليه. وفي الحديث الذي قبله تقدّم ذكر الوعيد، وعيد الكذّابين على الرّسول الكريم صلّى الله عليه وسلّم وبيان أنّ الكذب عليه ليس كالكذب على أيّ أحد، أو على غيره صلوات الله وسلامه عليه.
قال رحمه الله تعالى :

باب ما جاء في القول على الله بلا علم

وقول الله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالْإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ﴾ إلى قوله: ﴿وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف: ٣٣] .

قال أبو موسى: «مَن علّمه الله علماً فليعلمه الناس، وإياه أن يقول ما لا علم له به فيكون من المتكلفين، ويمرق من الدين».

قال: «باب ما جاء في القول على الله بلا علم» ؛ القول على الله جلّ وعلا بلا علم من أكبر الكبائر وأعظم الموبقات، وهو البوّابة التي يدخل منها كلّ باطل وضلال ، فإنّ مبنى كلّ باطل وضلال القول على الله سبحانه وتعالى بغير علم، وهل وُجد الشّرك بأنواعه والبدع بأصنافها والضّلالات في أشكالها المتنوّعة إلّا بالقول على الله سبحانه وتعالى بلا علم. فالقول على الله تبارك وتعالى بلا علم هو أعظم المحرّمات ؛ لأنّ جميع المحرّمات -الشّرك فما دونه- كلّها مبنية على القول على الله تبارك وتعالى بلا علم ، فالشّرك من القول على الله بلا علم، والبدع بأنواعها من القول على الله بلا علم ، والتّرويج لعموم المعاصي والآثام كلّ ذلك داخل في القول على الله تبارك وتعالى بلا علم.

وقد أورد رحمه الله تعالى هذه الآية الكريمة: ﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالْإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَنْ تُشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف: ٣٣] ؛ هذه الآية تضمّنت المحرّمات الخمس التي اتّفقت جميع الشّرائع -شرائع الأنبياء عليهم صلوات الله وسلامه- على تحريمها. ودُكر ترتيبها في هذه الآية من الأخفّ إلى الأشدّ، ولهذا حُتّمت بأشدّها وهو القول على الله تبارك وتعالى بلا علم، فالقول على الله بلا علم هو أشدّ المحرّمات . ووجه ذلك: أنّ جميع المحرّمات -الشّرك وما دونه- كلّها مترتبة ومبنية على القول على الله سبحانه وتعالى بلا علم، وهذا إثمٌ وخيم وذنبٌ عظيم. ولهذا ينبغي على الإنسان أن يكون في غاية الحيطة والاحتراز ألاّ يقول على الله وألّا يقول في دين الله تبارك وتعالى إلّا بالعلم اليقين، العلم البين المستمدّ من كلام الله تبارك وتعالى وكلام رسوله صلوات الله وسلامه وبركاته عليه.

قال : قال أبو موسى الأشعري رضي الله عنه : «مَنْ علَّمه الله علماً فليعلِّمه الناس» ؛ أي أن زكاة العلم تعليمه وبثه ونشره، وأن يعدّي هذا الخير الذي أكرمه الله سبحانه وتعالى به إلى الآخرين، وأن يوصل هذا الخير إلى الآخرين.

«مَنْ علَّمه الله علماً فليعلِّمه النَّاس، وإيَّاه أن يقول: ما لا علم له به» ؛ وهذا موضع الشاهد من سياق هذا الأثر في هذه الترجمة قال: «وإيَّاه» أي: فليحذر «أن يقول ما لا علم له به فيكون من المتكلفين ويمرق من الدِّين»؛ لأنَّه إذا قال ما لا علم له به دخل في القائلين على الله بلا علم، والقائلين في شرع الله تبارك وتعالى بلا علم، وهذه أعظم المحرّمات؛ ولهذا قال رحمه الله تعالى: «فيكون من المتكلفين، ويمرق من الدِّين».

قال رحمه الله تعالى :

٩٢ - وفي الصحيح عن ابن عمرو رضي الله تعالى عنه مرفوعاً: ((إن الله لا يقبض العلم انتزاعاً ينتزعه من قلوب الرجال ، ولكن يقبض العلم بموت العلماء ، حتى إذا لم يبقَ عالم اتخذ الناس رؤوساً جهالاً ، فسلّوا؛ فأفتوا بغير علم؛ فضلّوا وأضلّوا)). .

قال: وفي الصَّحيح عن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما مرفوعاً: ((إنَّ الله لا يقبض العلم انتزاعاً ينتزعه من قلوب الرِّجال)) أي: من قلوب العلماء ، لأنَّ العلم في صدور أهل العلم ، فلا يُنتزَع العلم الَّذي في صدور العلماء انتزاعاً ، العالم الَّذي مكَّن الله سبحانه وتعالى له في العلم وحصل منه قدراً ونصيبيّاً لا يُنتزَع هذا العلم من صدره أو من قلبه انتزاعاً. فقبض العلم لا يكون بانتزاعه من صدور أهله وحملته ورجالاته ، وإنَّما يُقبَض العلم بقبض العلماء ، فانتهاه العلم يكون بقبض العلماء وتوقُّف طلاب العلم عن التَّلقي عن العلماء، ثمَّ البقيّة الباقية من أهل العلم تُقبَض أرواحهم فلا يبقى علم . فالعلم لا يُنتزَع انتزاعاً من صدور الرِّجال، أي: من صدور حملته ، ((ولكن يقبض العلم بموت العلماء)). .

((حتى إذا لم يبقَ عالم)) لأنَّه إذا قبُض العلماء فلم يبقَ عالم لا يبقى علم؛ لأنَّ العلم يكون بالتَّلقي والتَّحصيل، وإذا قبُضَ العلماء انتهى العلم، هذا هو قبض العلم؛ لأنَّ العلم بعد ذلك لا يبقى ولا يكون له وجود . قال: ((ولكن يقبض العلم بموت العلماء حتى إذا لم يبقَ عالم اتَّخذ النَّاسُ رؤوساً جهالاً؛ فأفتوا بغير علم؛ فضلّوا وأضلّوا)) وهنا مصيبة عظيمة جدّاً عندما يُصدَّر للعلم مَنْ ليس من أهله، ومَنْ ليس من حملته، ثمَّ النَّاس يتقاطرون عليه يسألونه ويستفتونه ويستشيرونه، وهو ليس من أهل العلم، يتَّخذونه النَّاسَ رأساً وهو ليس من أهل العلم ولا من حملة العلم، فيقول على الله بلا علم ، وهذا أيضاً فيه مصيبة أخرى؛ وهي أنَّ التَّروُّس بلا علم باب شرٍّ على الإنسان نفسه وعلى الآخرين ، لأنَّ الأسئلة ستكثر عليه، والنَّاس يأخذون ويتلقَّون منه، فإذا كان ذلك

على غير علم وعلى غير بصيرة بدين الله تبارك وتعالى فإنَّ هذا يكون من أعظم أبواب الشرِّ ونشر الضلالة والباطل.

وقوله في هذا الحديث: ((لا يقبض العلم انتزاعاً ينتزعه من قلوب الرجال)) فيه التنبية إلى مكانة القلب ومنزلته العلية في حفظ العلم، وأنَّ العلم هو ما كان في الصدور، صدور الرجال حملة العلم ، ف«العلم ما حواه الصدر، ما العلم ما حوى القمطر» ؛ العلم ما حواه صدر الرجال ضبطاً له وتحصيلاً وإتقاناً. وعلى كلِّ ؛ الشاهد من هذا الحديث لهذه الترجمة «باب ما جاء في القول على الله بلا علم» : أنَّ العلم عندما يُقبَض بقبض حملته ؛ يتخذ النَّاس رؤوساً جُهالاً ، فيكون من شأن هؤلاء الرؤوس القول على الله تبارك وتعالى بلا علم، إفتاءً وتعليماً ودعوة بلا علم، فيكون على أيدي هؤلاء الضلال؛ يضلُّون في أنفسهم ويضلُّون الآخرين.

قال رحمه الله تعالى :

باب ما جاء في شهادة الزور

وقول الله سبحانه وتعالى : ﴿وَجْتَنِبُوا قَوْلَ الزُّورِ﴾ الآية [الحج: ٣٠] .

قال: «باب ما جاء في شهادة الزور» ؛ الزور: يُطلق على كلِّ باطل.

وقول الله سبحانه وتعالى : ﴿وَجْتَنِبُوا قَوْلَ الزُّورِ﴾ أي: اجتنبوا كلَّ قولٍ باطل. فكلُّ قولٍ باطل يُعدُّ زوراً يجب على المسلم أن يجتنبه غاية الاجتناب. وشهادة الزور: هي تلك الشهادة التي تكون من الإنسان على أمرٍ ما بغير حقٍّ وبغير علمٍ وتثبت ويقينٍ من ذلك، فيشهد مثلاً أنَّ الأرض لفلان وهو يعلم أنَّها ليست له، أو هذه الدار لفلان وهو يعلم أنَّها ليست له ، حتى يقتطع بهذه الشهادة ما ليس له. فهذه شهادة آثمة يترتب عليها أكل أموال النَّاس بالباطل والتعدي على حقوق النَّاس وظلم الآخرين، وهي من أعظم التعاون على الإثم والعدوان. أورد رحمه الله تحت هذه الترجمة هذه الآية الكريمة ﴿وَجْتَنِبُوا قَوْلَ الزُّورِ﴾ ؛ وفيها: الأمر باجتناب كلِّ باطل، ومن ذلكم شهادة الزور.

قال رحمه الله تعالى :

٩٣ - عن ابن عمر رضي الله عنهما مرفوعاً: ((إن الطير لتخفق بأجنحتها وترمي ما في حواصلها من هول يوم القيامة، وإن شاهد الزور لا تزول قدماه حتى يتبوا مقعده من النار)). .

قال: عن ابن عمر مرفوعاً: ((إِنَّ الطَّيْرَ لَتَخْفِقُ بِأَجْنَحَتِهَا وَتَرْمِي مَا فِي حَوَاصِلِهَا مِنْ هَوْلٍ يَوْمَ الْقِيَامَةِ)) أي: من شدة هول ذلك اليوم وعِظَمِ شدة ذلك اليوم ، يوم القيامة ﴿وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا﴾ [الحج: ٢] ، فهذا يكون للطَّيْر في ذلك اليوم نظيره قول الله سبحانه وتعالى: ﴿وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا﴾ ، فالمرأة من هؤل ذلك اليوم تُسْقِط ما في بطنها من هؤل ذلك اليوم، والطَّيْر من هذا الجنس أيضاً؛ من هؤل ذلك اليوم تُسْقِط ما في حواصلها؛ من شدة ذلك اليوم وهؤله.

((وإنَّ شاهد الزُّور لا تزول قدماه حتى يتبوأ مقعده من النَّار)) وهذا فيه الوعيد لشاهد الزُّور بأنَّ شهادة الزُّور مُفضية بشاهد الزُّور إلى نار جهنم ، عياداً بالله من ذلك! وهذا الحديث من حيث الإسناد غير ثابت.

قال رحمه الله تعالى :

٩٤ - ولهما من حديث أبي بكر رضي الله عنه: ((ألا وقول الزور، ألا وشهادة الزور)) ، فما زال يكررها حتى قلنا ليته سكت.

قال: ولهما من حديث أبي بكر رضي الله عنه: ((ألا وقول الزُّور، ألا وشهادة الزُّور، فما زال يكررها حتى قلنا: ليته سكت)) ؛ أول هذا الحديث أنَّ النَّبِيَّ عليه الصَّلَاةُ والسَّلَام قال: ((ألا أُتَبِّئُكُمْ بِأكبر الكبائر؟)) قلنا: بلى يا رسول الله. قال: ((الإشراك بالله، وعقوق الوالدين، وشهادة الزُّور. ألا وقول الزُّور، ألا وشهادة الزُّور، فما زال يكررها حتى قلنا: ليته سكت)).

وهذا الحديث مثل الآية التي صدر بها المصنّف رحمه الله تعالى هذه التَّرْجُمة قُرِنَ بين شهادة الزُّور والشِّرك بالله ؛ فشهادة الزُّور وقول الزُّور قُرِنَ مع الشِّرك في القرآن والسُّنَّة ؛ في القرآن في هذه الآية: ﴿فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الْأَوْثَانِ وَاجْتَنِبُوا قَوْلَ الزُّورِ (٣٠) حُنَفَاءَ لِلَّهِ غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِ﴾ [الحج: ٣٠-٣١] ، وفي هذه الآية الكريمة قُرِنَت شهادة الزُّور بالإشراك بالله ، قال: ((ألا أُتَبِّئُكُمْ بِأكبر الكبائر: الإشراك بالله، وعقوق الوالدين، وقول الزُّور)) ، فقُرِنَت شهادة الزُّور مع الشِّرك في القرآن وفي سُنَّة النَّبِيِّ عليه الصَّلَاةُ والسَّلَام؛ ممَّا يدلُّ على خطورة شهادة الزُّور.

وتكرار النَّبِيِّ عليه الصَّلَاةُ والسَّلَام: ((ألا وقول الزُّور، ألا وشهادة الزُّور)) هذا التكرار تأكيد للتَّحريم ، وبيان لغلظ هذا الجرم وعِظَم هذه الكبيرة.

قال رحمه الله تعالى :

بابُ ما جاء في اليمين الغموس

٩٥ - عن ابن مسعود رضي الله عنه مرفوعاً: ((من حلف على مال امرئ مسلم بغير حقه لقي الله وهو عليه غضبان)). ثم قرأ علينا رسول الله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَأَيْمَانِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلًا﴾ [آل عمران: ٧٧] .

قال: «باب ما جاء في اليمين الغموس» ؛ اليمين الغموس : هي اليمين الفاجرة، اليمين الكاذبة التي يُقْتَطَعُ بها حق الآخرين ظلماً وبغيًا. وسميت «غموسًا» لأنها تغمس صاحبها في النار، تكون سبباً لغمس صاحبها في نار جهنم. قال: «باب ما جاء في اليمين الغموس» أي: من الوعيد الشديد وعظم العقوبة لمن كان كذلك.

قال: عن ابن مسعود رضي الله عنه مرفوعاً: ((من حلف على مال امرئ مسلم بغير حقه)) أي حلف ليقطع مال امرئ مسلم ، وتلك اليمين يريد أن يأخذ بها ما ليس له ، فيحلف أن هذا المال له، أو هذه الأرض له، أو هذا البيت له، أو نحو ذلك كاذباً؛ ليأخذ حق غيره بتلك اليمين.

قال: ((لقي الله وهو عليه غضبان)) ؛ وهذا يدل على أن هذا العمل من الكبائر ، لأن كل ما كان من موجبات غضب الله سبحانه وتعالى وسخطه جلّ وعلا فهو من كبائر الذنوب.

((ثم قرأ علينا رسول الله صلى الله عليه وسلم: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَأَيْمَانِهِمْ﴾ وهذا موضع الشاهد

﴿ثَمَنًا قَلِيلًا﴾ أي: يخلفون الأيمان الكاذبة ليقطعوا بها من المال ما ليس لهم به حق.

قال رحمه الله تعالى :

٩٦ - ولمسلم عن أبي أمامة رضي الله عنه مرفوعاً: ((من اقتطع حق امرئ مسلم بغير حق لقي الله وهو عليه غضبان)). وفي رواية: ((فقد أوجب الله له النار وحرّم عليه الجنة)) ، فقال رجل: وإن كان شيئاً يسيراً يا رسول الله؟ قال: ((وإن كان قضيباً من أراك)) .

قال: ولمسلم، عن أبي أمامة رضي الله عنه مرفوعاً: ((من اقتطع حق امرئ مسلم بغير حق لقي الله وهو عليه غضبان)) ؛ اقتطع : أي أخذ حق امرئ مسلم بغير حق ، وإنما أخذه ظلماً واعتداءً على حقوق الآخرين ((لقي الله وهو عليه غضبان)) قال: وفي رواية ((فقد أوجب الله له النار وحرّم عليه الجنة)) .

قال: «فقال رجل: وإن كان شيئاً يسيراً» أي: وإن كان هذا الذي اقتطع شيء قليل وشيء يسير ؟

قال: ((وإن كان قضييًّا من أراك)) أي: ولو كان عود مسواك أو شيء قليل جدًّا ، وهذا فيه: أنَّ اقتطاع حقوق الآخرين واستلابها وأخذها بغير حقٍّ، لا فرق بين قليلٍ أو كثيرٍ ، هي تبقى حقوق للآخرين ، قليلها وكثيرها سواء، لا يحلّ للإنسان أن يقتطع من حقوق الآخرين لا قليل ولا كثير، كلُّ ذلكم حرام.

وإذا كان أيضًا يحلف اليمين الكاذبة الفاجرة ليقطع بها فهذا أعظم جُرمًا ، ويمينه تلك تغمسه في نار جهنم ، وظلم الآخرين ظلمات يوم القيامة ؛ وهذا فيه التحذير والإنذار الشديد من الظلم للآخرين واقتطاع أموال النَّاس بغير حقٍّ، وأنَّ الحقوق كلّها تؤدَّى يوم القيامة لأصحابها ، ويوم القيامة ليس هناك دراهم ولا دنانير ، وإنَّما ردّ الحقوق يكون بالحسنات والسيِّئات ، كما جاء في حديث عبد الله بن أنيس أنَّ النَّبيَّ صَلَّى الله عليه وسلَّم قال: ((قال الله تعالى: يحشر الله العباد يوم القيامة خُفَاءً عُرَاءً بُهْمًا، قالوا: وما بُهْمًا يا رسول الله؟! قال: أي ليس معهم من الدُّنيا شيء، ثمَّ يقول الله تعالى: أنا الملك أنا الدِّيَّان، لا ينبغي لأحدٍ من أهل الجنة أن يدخل الجنة ولأحدٍ من أهل النَّار عليه مظلمة حتى أقتصَّها منه، ولا ينبغي لأحدٍ من أهل النَّار أن يدخل النَّار ولأحدٍ من أهل الجنة عليه مظلمة حتى أقتصَّها منه، قال: حتى اللَّطْمَة)). قال الصحابة رضي الله عنهم: «وكيف ذاك يا رسول الله وهم إنَّما جاءوا بُهْمًا؟!» كيف يكون القصاص؟ الأموال التي أخذوها أو استلبوها أو غير ذلك كلّها لا تكون موجودة في ذلك اليوم!! «كيف ذلك يا رسول الله وهم إنَّما جاءوا بُهْمًا؟!» قال: ((بالحسنات والسيِّئات)).

ما معنى قوله: ((بالحسنات والسيِّئات))؟ يوضِّح ذلك حديث أبي هريرة في صحيح مسلم المشهور بحديث المفلس، قال عليه الصَّلَاة والسَّلَام: ((أَتَذَرُونَ مَا الْمُفْلِسُ؟)) قَالُوا «الْمُفْلِسُ فِينَا مَنْ لَا دِرْهَمَ لَهُ وَلَا مَتَاعَ». قال عليه الصَّلَاة والسَّلَام: ((إِنَّ الْمُفْلِسَ مِنْ أُمَّتِي يَأْتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ بِصَلَاةٍ وَصِيَامٍ وَزَكَاةٍ وَيَأْتِي قَدْ شَتَمَ هَذَا وَقَذَفَ هَذَا وَأَكَلَ مَالَ هَذَا وَسَفَكَ دَمَ هَذَا وَضَرَبَ هَذَا فَيُعْطَى هَذَا مِنْ حَسَنَاتِهِ وَهَذَا مِنْ حَسَنَاتِهِ فَإِنْ فَنِيَتْ حَسَنَاتُهُ قَبْلَ أَنْ يُقْضَى مَا عَلَيْهِ أُخِذَ مِنْ خَطَايَاهُمْ فَطُرِحَتْ عَلَيْهِ ثُمَّ طُرِحَ فِي النَّارِ)).

فالقصاص في ذلك اليوم إنَّما يكون بالحسنات والسيِّئات، يُقْتَصَّرُ للمظلوم من ظالمه بأن يأخذ من حسنات الظَّالم، فإن فَنِيَتْ حسنات الظَّالم قبل أن يُقْضَى ما عليه أُخِذَ من سيِّئات المظلوم فطُرِحَتْ على الظَّالم فطُرِحَ في النَّار. قوله: ((وإن كان قضييًّا من أراك)) كما تقدَّم يفيد أنَّ أخذ أموال النَّاس واقتطاع حقوق الآخرين بغير حقٍّ لا فرق فيه بين قليلٍ ولا كثير، حتى ولو كان هذا الذي أُخِذَ بغير حقٍّ عودًا من أراك.

سبحانك اللهم وبحمدك ، أشهد أن لا إله إلا أنت ، أستغفرك وأتوب إليك .

اللهم صلّ وسلم على عبدك ورسولك نبينا محمد وآله وصحبه أجمعين.

الدرس السادس عشر

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله ربّ العالمين، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله، صلى الله وسلم عليه وعلى آله وأصحابه أجمعين. أمّا بعد:

قال شيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب رحمه الله تعالى في كتاب الكبائر :

باب ما جاء في قذف المحصنات

وقول الله تعالى ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ الْغَافِلَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ﴾ الآية [النور: ٢٣]

قال رحمه الله تعالى: «باب ما جاء في قذف المحصنات» أي: أن هذا من كبائر الذنوب وعظائم الآثام التي هي من كبائر اللسان ، " قذف المحصنات " أي: رميها بما هنّ بريئات منه. والمراد بالمحصنات: أي الحرائر العفيفات. وهذا من الكبائر ؛ أن تُرمى امرأة بريئة عفيفة محصنة بالفاحشة، فاحشة الزنا، فهذا من عظائم الذنوب وكبائر الآثام ، وقد جاء في القرآن والسنة الوعيد الشديد على فاعل ذلك.

أورد رحمه الله تعالى قول الله عز وجل: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ الْغَافِلَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ لَعُنُوا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [النور: ٢٣]. واللّعن وذكر العذاب لا يكون إلا في الكبائر وعظائم الذنوب ؛ ممّا يدلّ أنّ هذا من كبائر الذنوب العظيمة.

قال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ﴾ ؛ يرمون: أي يقذفون. والمحصنات: أي اللاتي أحصنّ بالعفاف والبعد عن الحرام والرذيلة. ولا يختصّ بالمتزوجة؛ لأنّ الإحصان تارة يُطلق على المتزوجة يقال «مُحصنة»، وتارة يُطلق على العفيفة الحافظة لفرجها، سواء كانت بكرًا أو متزوجة أو مُحصنة. فالمحصنات: أي: العفيفات البريات من الفاحشة والرذيلة.

﴿الغافلات﴾ أي: عمّا رُميَ به من فاحشةٍ ورذيلة.

﴿المؤمنات﴾ أي: اللاتي من الله سبحانه وتعالى عليهنّ بالعفة والإيمان وطاعة الرحمن سبحانه وتعالى.

وهذا الحكم لا يختصّ بالنساء، بل قذف المحصنين أيضًا كذلك، لا فرق بين الرجال والنساء في ذلك بإجماع أهل العلم، فرمي المحصن كرمي المحصنة سواء، والعقوبة واحدة، لأنّ ذلك كلّهُ من عظيم التعدي والظلم والبغي.

قال رحمه الله تعالى :

٩٧ - ولهما عن أبي هريرة رضي الله عنه مرفوعاً: ((اجتنبوا السبع الموبقات)) ، قالوا: وما هن يا رسول الله؟ قال: ((الشرك بالله، والسحر، وقتل النفس التي حرم الله إلا بالحق، وأكل الربا، وأكل مال اليتيم، والتولي يوم الزحف، وقذف المحصنات الغافلات المؤمنات)) .

قال رحمه الله تعالى: «ولهما» أي: للبخاري ومسلم «عن أبي هريرة مرفوعاً» أي: إلى النبي الكريم صلوات الله وسلامه عليه ((اجتنبوا السبع الموبقات)) أي: ابتعدوا عنهنّ وكونوا في جانبٍ بعيدٍ عنهنّ.

وقوله: «اجتنبوا» أبلغ من قول: "اتركوا السبع الموبقات"، أو "لا تفعلوا السبع الموبقات" ؛ فإنّ فيه نهيًا عن فعلها وأمرًا بالبُعد عنها، بحيث يكون الإنسان في جانب بعيد عن هذه الموبقات، فلا يفعلها ولا يقترب منها. فكلّمة «اجتنبوا» أبلغ في النهي والزجر عن هذه الموبقات المذكورات في هذا الحديث.

وقوله: «السبع» ذكر الرّقم قبل ذكر المعداد أمكن في ضبط الفائدة؛ لأنّها لو ذُكرت دون ذكر هذا الرّقم في أوّلها ربّما فات على الإنسان شيئًا منها ولم يشعر ، لكن إذا حفظ الحديث ((اجتنبوا السبع الموبقات...)) ثمّ عدّ ستًّا! سيُعرف أنّه بقي عليه واحدًا من هذه الموبقات ، وهذا من كمال بيانه وتعليمه صلوات الله وسلامه وبركاته عليه ، وكثيرًا ما تُصدّر أحاديث برقم بما ذُكر، مثل قوله عليه الصّلاة والسّلام: ((اضْمَنُوا لِي سِتًّا مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَضْمَنْ لَكُمْ الْجَنَّةَ)) فذكر الرّقم ، وقال: ((أَرْبَعٌ مَنْ كُنَّ فِيهِ كَانَ مُنَافِقًا خَالِصًا ، وَمَنْ كَانَتْ فِيهِ حَصْلَةٌ مِنْهُنَّ كَانَتْ فِيهِ حَصْلَةٌ مِنَ النَّفَاقِ)) تقدّم معنا، ومثل قوله: ((ثَلَاثٌ مَنْ كُنَّ فِيهِ وَجَدَ حَلَاوَةَ الْإِيمَانِ)) ، والأحاديث في هذا المعنى كثيرة.

وقوله: «الموبقات» أي: المهلكات؛ المهلكة لصاحبها في الدّنيا بالعقوبة، وفي الآخرة بالعذاب الأليم، فهي موبقة: أي مهلكة لصاحبها.

((قالوا: وما هنّ يا رسول الله؟!)) وهذا فيه حرص الصّحابة رضي الله عنهم على الخير، وحرص الصّحابة أيضًا على معرفة الموبقات المهلكات من أجل اجتنابها والبُعد عنها. وهذا يُستفاد منه فائدة مهمّة جدًّا، ألا وهي : أنّ المسلم كما أنّه مُطالبٌ بمعرفة الخير ليفعله فإنّه كذلك في الوقت نفسه مُطالبٌ بمعرفة الشرّ ليُجتنبه. وهاهم الصّحابة رضي الله عنهم يقولون للنبي عليه الصّلاة والسّلام: ((وما هنّ يا رسول الله؟!)) هذا طلب لمعرفة هذه الموبقات ؛ لأنّه لا يمكن أن يجتنب الإنسان هذه الموبقات إلّا إذا عرفها وعرف خطورتها، وإلّا كما قيل قديمًا: «كيف يتّقي من لا يدري ما يتّقي» ، كيف يتّقي الذّنوب وهو لا يدري ما هي الذّنوب ولا يدري ما هي خطورتها!! فمن الأسس التي لا بُدّ منها في اتّقاء الذّنوب أن تُعرّف ، ومن أجل ذلك ألّف العلماء رحمهم الله تعالى مثل هذه الكتب في الكبائر، من أجل أن يعرف النّاس الكبائر ليُجتنبوها.

تَعْلَمُ الشَّرَّ لَا لِلشَّرِّ، وَلَكِنْ لِتَوْقِيهِ فَإِنَّ مَنْ لَمْ يَعْرِفِ الشَّرَّ مِنَ النَّاسِ يَقَعُ فِيهِ

فَلَا بُدَّ مِنْ مَعْرِفَةِ هَذِهِ الْكِبَائِرِ مِنْ أَجْلِ أَنْ يُجْتَنَّبَ وَتُحَذَّرَ وَيَتَعَدَّ عَنْهَا الْإِنْسَانُ تَمَامَ الْبُعْدِ. وَهَذَا الْأَمْرُ يَتَأَكَّدُ فِي زَمَانِنَا هَذَا ؛ لِأَنَّ الدَّعْوَةَ إِلَى الْكِبَائِرِ وَالْآثَامِ دَخَلَتْ عَلَى النَّاسِ مِنْ كُلِّ جَانِبٍ مِنْ خِلَالِ الْقَنَوَاتِ الْفَضَائِيَّةِ ، وَمِنْ خِلَالِ الْإِنْتَرْنِتِ، وَمِنْ خِلَالِ الْمَجَلَّاتِ ، وَمِنْ خِلَالِ قِرَاءِ السُّوءِ، انْفَتَحَتْ عَلَى النَّاسِ انْفِتَاحًا كَثِيرًا الدَّعْوَةُ إِلَى كِبَائِرِ الذُّنُوبِ وَعِظَائِمِ الْآثَامِ. وَلِهَذَا مَا أَحْجَى النَّاسَ فِعَالًا إِلَى مَعْرِفَةِ الْكِبَائِرِ.

وَلِهَذَا أَنْصَحُ الْإِخْوَةَ الْحَاجَّاجَ أَنْ يَأْخُذُوا مَعَهُمْ فِي جُمْلَةٍ مَا يَأْخُذُونَهُ مِنَ الْهُدَايَا «كِتَابُ الْكِبَائِرِ لِلذَّهَبِيِّ»، هَدِيَّةً لِلْأَوْلَادِ، هَدِيَّةً لِإِمَامِ الْمَسْجِدِ، هَذِهِ هَدِيَّةٌ ثَمِينَةٌ جَدًّا «كِتَابُ الْكِبَائِرِ لِلذَّهَبِيِّ» ؛ يَقْرَأُ الْأَوْلَادُ، يَقْرَأُ الْإِمَامُ عَلَى جَمَاعَةِ الْمَسْجِدِ هَذِهِ الْكِبَائِرَ حَتَّى يَعْرِفَهَا النَّاسُ، يَعْرِفُوا الْعُقُوبَاتِ الَّتِي أَعَدَّهَا اللَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى لِأَهْلِهَا، فَإِنَّ النَّاسَ إِذَا عَرَفُوا هَذِهِ الْكِبَائِرَ وَعَرَفُوا عُقُوبَاتَهَا دَفَعَهُمْ ذَلِكَ إِلَى تَرْكِهَا وَالبُعْدِ عَنْهَا ، وَهَذِهِ وَسِيلَةٌ لِمُقَاوَمَةِ هَذِهِ الْآثَامِ، وَسِيلَةٌ لِلْبُعْدِ عَنْ هَذِهِ الْكِبَائِرِ وَعِظَائِمِ الذُّنُوبِ . يَأْخُذُ هَذَا الْكِتَابُ وَيَأْخُذُ أَيْضًا كِتَابُ أُخْرَى مِثْلُ: «رِيَاضُ الصَّالِحِينَ» لِلنَّوَوِيِّ، «الرَّابِعِينَ» لِلنَّوَوِيِّ، «فَتْحُ الْمَجِيدِ» لِلشَّيْخِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ حَسَنٍ، كِتَابُ ثَمِينَةٌ جَدًّا وَنَافِعَةٌ، فِيهَا عِلْمٌ وَفِيهَا هُدًى وَفِيهَا خَيْرٌ، وَالنَّاسُ بِحَاجَةٍ إِلَى مَعْرِفَةِ الْحَقِّ وَالْهُدَى، وَالْكِتَابُ وَسِيلَةٌ عَظِيمَةٌ وَنَافِعَةٌ لِإِيصَالِ الْخَيْرِ وَنَفْعِ النَّاسِ.

قَالَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: ((الشِّرْكُ بِاللَّهِ)) ؛ وَبَدَأَ بِهِ لِأَنَّهُ أَعْظَمُ الْمَوْبِقَاتِ وَأَشَدَّ الْمُهْلِكَاتِ، وَهُوَ الذَّنْبُ الَّذِي لَا يَغْفِرُهُ اللَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى لِمَنْ مَاتَ عَلَيْهِ . وَقَدْ قَالَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى فِي سُورَةِ التَّيْنَةِ: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ﴾ [التين: ٤٨] ، ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ﴾ فَهُوَ ذَنْبٌ لَا يُغْفَرُ، مَنْ مَاتَ عَلَيْهِ لَا يَغْفِرُهُ اللَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى لَهُ، لَا مَطْمَعَ لِمَنْ مَاتَ عَلَى الشِّرْكِ فِي مَغْفَرَةِ اللَّهِ، بَلْ لَيْسَ لَهُ إِلَّا النَّارُ مُخْلَدًا فِيهَا أَبَدَ الْآبَادِ، كَمَا قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ لَا يُقْضَى عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ مِنْ عَذَابِهَا كَذَلِكَ نَجْزِي كُلَّ كَافِرٍ (٣٦) وَهُمْ يَصْطَرَّخُونَ فِيهَا رَبَّنَا أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَنْ تَذَكَّرَ وَجَاءَكُمُ النَّذِيرُ فَذُوقُوا فَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ نَصِيرٍ﴾ [فاطر: ٣٦-٣٧] والمراد بالظَّالِمِينَ هُنَا: أَيُّ الْمُشْرِكِينَ الَّذِينَ ظَلَمَهُمْ ظَلَمَ الشِّرْكِ . وَالْآيَاتُ فِي هَذَا الْمَعْنَى كَثِيرَةٌ جَدًّا. فَالشِّرْكُ هُوَ أَعْظَمُ الْمَوْبِقَاتِ وَأَكْبَرُ الذُّنُوبِ.

وَالشِّرْكُ: هُوَ تَسْوِئَةٌ غَيْرُ اللَّهِ بِاللَّهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى فِي شَيْءٍ مِنْ حَقُوقِهِ سُبْحَانَهُ ، كَأَنْ يُدْعَى غَيْرُ اللَّهِ، أَوْ أَنْ يُسْتَعَاثَ بِغَيْرِ اللَّهِ، أَوْ أَنْ يُطْلَبَ الْمَدَدُ وَالْعَوْنُ مِنْ غَيْرِ اللَّهِ، أَوْ أَنْ يُنْذَرُ لِغَيْرِ اللَّهِ، أَوْ أَنْ يُصْرَفَ شَيْءٌ مِنَ الْعِبَادَةِ لِغَيْرِ اللَّهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى ، وَاللَّهُ تَعَالَى يَقُولُ: ﴿قُلْ إِنْ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٦٢) لَا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ﴾ [الأنعام: ١٦٢-١٦٣] .

قال: ((والسحر)) ؛ وهذا أيضاً من الموبقات العظيمة ومن المهلكات الكبيرة. والسحر: هو عزائم ووقى ونفت تؤثر في المسحور ، فربما أمرضت، وربما أسقمت، وربما فرقت بين الزوجين ، وربما وربما.. من الأمور التي يترتب وجودها بتعاطي هذا السحر، والعياذ بالله!

والسحر استعانة بالشياطين والتجاء إليهم، ولا يكون الساحر ساحراً إلا بالكفر بالله واتباع الشياطين، ﴿بَذَرَ فِرْقٌ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ كِتَابَ اللَّهِ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ كَأَنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ (١٠١) وَاتَّبَعُوا مَا تَتْلُو الشَّيَاطِينُ عَلَىٰ مُلْكٍ سُلَيْمَانَ ﴿البقرة: ١٠١-١٠٢﴾ ، فلا يكون السحر إلا بنبد القرآن واتباع الشيطان، ولا يكون الساحر ساحراً إلا بذلك، ولهذا فإنَّ السحر كفرٌ ناقل من الملَّة. وإتيان الساحر والتعامل معه والتعاطي بما يدعو إليه، أيضاً من الأمور المكروهة؛ لأنَّ في إتيان الساحر تصديقٌ له فيما يقول، وطاعةٌ له فيما يدعو إليه من أمورٍ تنافي الإيمان وتنافي التوحيد، من ذبح لغير الله، أو نذر لغير الله، أو تعلُّق بالشياطين، أو دعاء لهم، أو تعليق لأسمائهم على الإنسان، أو غير ذلك من الأمور المنافية للتوحيد. ولهذا فإنَّ من يتعاطى السحر قد باع دينه، وضيع إيمانه، وخسر خسراً عظيماً.

قال: ((وقتل النفس التي حرم الله إلا بالحق)) النفس: أي المعصومة التي حرَّمها الله سبحانه وتعالى. وفي الحديث: ((إِنَّ دِمَاءَكُمْ وَأَمْوَالَكُمْ وَأَعْرَاضَكُمْ بَيْنَكُمْ حَرَامٌ كَحُرْمَةِ يَوْمِكُمْ هَذَا فِي شَهْرِكُمْ هَذَا فِي بَلَدِكُمْ هَذَا)) ، فقتل النفس عمداً التي حرم الله سبحانه وتعالى إلا بالحق هذا من كبائر الذنوب، ﴿وَمَنْ يُقْتَلْ مُؤْمِناً مُّتَعَمِّداً فَجَزَاءُهُ جَهَنَّمُ﴾ [النساء: ٩٣] .

((وأكل الربا)) وهذا أيضاً من الموبقات العظيمة والمهلكات الجسيمة ؛ أكل الربا، ولا يختص هذا بالأكل، وإنما خصَّ الأكل بالذكر لأنَّه أعمَّ وجوه الانتفاع ، وإلا لو أنَّه تعاطى بالربا ولم يأكل، وليس أو بنى بيتاً بالربا أو اشترى سيارةً أو غير ذلك هذا كله داخل في قوله: «وأكل الربا»، لكن خصَّ الأكل بالذكر لأنَّه أعمَّ وجوه الانتفاع. مثل ذلك: أكل مال اليتيم، قال: ((وأكل مال اليتيم)) خصَّ الأكل بالذكر لأنَّ الأكل هو أعمَّ وجوه الانتفاع. وأكل مال اليتيم من الكبائر، والأصل في مال اليتيم أن يُصان ويُحفظ، وألا يأكل ولي اليتيم منه إلا بالمعروف إذا كان محتاجاً لذلك.

((والتولي يوم الزحف)) أي: الفرار يوم التقاء الصَّقيين، لا يُستثنى من ذلك إلا مُتَحَيِّراً إلى فئة أو منتقلاً من مكان إلى مكان، أمَّا مَنْ يولِّهم دُبْرَهُ فارّاً فهذا من كبائر الذنوب.

((وقذف المحصنات الغافلات المؤمنات)) وهذا موضع الشاهد للترجمة. قذفهنَّ : أي رميهنَّ بما هنَّ بريئات منه. والمراد بالمحصنات: الحرائر العفيفات ، ولا يختص هذا بالمرأة المتزوجة بل يشمل البكر ؛ لأنَّ الإحصان هنا يُراد به: عَقَّةُ الفرج وعدم الوقوع في المحرَّم.

والغافلات: أي عمّا زُمِينَ به من فاحشةٍ ورذيلة.

قال رحمه الله تعالى :

بَابُ مَا جَاءَ فِي ذِي الْوَجْهَيْنِ

وقول الله تعالى: ﴿وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا﴾ [البقرة: ١٤٤] ، وقوله: ﴿مُذَبِّذِينَ بَيْنَ ذَلِكَ لَا إِلَى هَؤُلَاءِ وَلَا إِلَى هَؤُلَاءِ﴾ [النساء: ١٤٣] .

قال: «بَابُ مَا جَاءَ فِي ذِي الْوَجْهَيْنِ»؛ ذو الوجهين: هو مَنْ يَأْتِي النَّاسَ بوجه ويأتي الآخرين بوجهٍ آخر. يَأْتِي بوجه لأناس ويَأْتِي بوجه آخر لأناس . مثلاً: إذا جالس الصّالحين يتظاهر بالصّلاح والدِّيانة وأَنَّهُ من أهل التّدئين وأهل الاستقامة وأهل الطّاعة، ويُظهِر لهم ما ليس هو عليه في حقيقة الأمر وواقع الحال ، وإذا جالس أهل الفساد أيضاً أظهر لهم ما هو عليه من فساد ؛ فهو ذو الوجهين يُظهِر لقوم وجهًا، ويُظهِر للآخرين وجهًا آخر. يُظهِر أمرًا ويُيَظِنُ آخر، وهذا الوجه الذي يبطنه يظهر به عند آخرين ، فهذا أيضاً من كبائر الذنوب، وهو من أوصاف أهل التّفاق.

قد ذكر المصنّف رحمه الله تعالى آيتين فيهما أنّ كَوْن الإنسان ذا وجهين من أوصاف المنافقين :

الأولى : قوله عزّ وجلّ ﴿وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا إِلَىٰ شَيَاطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ﴾ [البقرة: ١٤٤] ؛ فيلقون أهل الإيمان بوجه وأهل النفاق بوجه، يلقون أهل الإيمان بإظهار الإيمان وإبطان الكفر، ويلقون أهل التّفاق بإظهار الكفر، ولهذا ليس إيمانهم عند أهل الإيمان إلّا إيمان ظاهر فقط، يتظاهرون به، فهم يظهرون بوجه أهل الإيمان عند أهل الإيمان، ويظهرون بوجه أهل الكفر عند أهل الكفر ، فهم أهل وجهين في الإيمان والكفر. قد يكون إنسان آخر له وجهان ليس في الإيمان والكفر وإِنَّمَا في الطّاعة والمعصية، وهذه مصيبة، وله حظٌّ من وصف المنافقين في إظهار شيء وإبطان شيءٍ آخر. ولهذا الأحاديث الّتي مرّت معنا: ((آيَةُ الْمُنَافِقِ ثَلَاثٌ: إِذَا حَدَّثَ كَذَبَ ، وَإِذَا وَعَدَ أَخْلَفَ ، وَإِذَا أُؤْتِمِنَ خَانَ)) هذا من التّفاق العملي، وفيه إظهار ما لا يُبطنه الإنسان، يعني: يُظهِر للنّاس الصّدق وهو يُيَظِنُ الكذب ، يُظهِر الوفاء وهو يُيَظِنُ عدم الوفاء.

قال: وقوله ﴿مُذَبِّذِينَ بَيْنَ ذَلِكَ لَا إِلَى هَؤُلَاءِ وَلَا إِلَى هَؤُلَاءِ﴾ [النساء: ١٤٣] أي: أُنْهَم أعطوا باطنهم للكافرين وظاهرهم للمؤمنين؛ فلا كان ظاهرهم لأهل الإيمان مع الباطن ، ولا كان أيضاً باطنهم مع الظّاهر لأهل التّفاق.

أَعْطُوا أَهْلَ الْكُفْرِ الْبَاطِنَ، وَأَعْطُوا أَهْلَ الْإِيمَانِ الظَّاهِرَ، ﴿مُذَبِّذِينَ بَيْنَ ذَلِكَ لَا إِلَى هَؤُلَاءِ وَلَا إِلَى هَؤُلَاءِ﴾ .

ولهذا جاء في الحديث أَنَّ نَبِيَّنَا عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ قَالَ: ((إِنَّمَا مَثَلُ الْمُنَافِقِ مَثَلُ الشَّاةِ الْعَائِرَةِ بَيْنَ الْغَنَمَيْنِ ؛ تَعْبُرُ إِلَى هَذِهِ مَرَّةً، وَإِلَى هَذِهِ مَرَّةً، لَا تَدْرِي أَيُّهُمَا تَتَّبَعُ)) ، وَيُرْوَى فِي حَدِيثٍ فِيهِ مَثَلٌ ضُرِبَ لِلْمُنَافِقِ : أَنَّ مَثَلُ الْمُشْرِكِ وَالْمُؤْمِنِ وَالْمُنَافِقِ مَثَلُ ثَلَاثَةِ جَاءُوا إِلَى نَهْرٍ ، فَعَبَرَ الْمُؤْمِنُ حَتَّى سَلِمَ وَوَصَلَ إِلَى الشَّطِّ الْآخَرِ، فَتَبِعَهُ الْمُنَافِقُ وَلَمَّا وَصَلَ فِي وَسْطِهِ تَوَقَّفَ، فَأَخَذَ يَدْعُوهُ الْكَافِرُ الَّذِي فِي الشَّطِّ الْآخَرِ إِلَى مَا هُوَ عَلَيْهِ مِنْ ضَلَالٍ، وَالْمُؤْمِنُ يَدْعُوهُ إِلَى حَيْثُ النِّجَاةُ وَالسَّلَامَةُ، وَهُوَ فِي وَسْطِ هَذَا النَّهْرِ لَا يَدْرِي يَرْجِعُ إِلَى الْوَرَاءِ أَوْ يَتَقَدَّمُ إِلَى الْأَمَامِ، قَالَ: ((إِنَّمَا مَثَلُ الْمُنَافِقِ مَثَلُ الشَّاةِ الْعَائِرَةِ بَيْنَ الْغَنَمَيْنِ تَعْبُرُ إِلَى هَذِهِ مَرَّةً، وَإِلَى هَذِهِ مَرَّةً، لَا تَدْرِي أَيُّهُمَا تَتَّبَعُ)) .

قال رحمه الله تعالى :

٩٨ - ولهما عن أبي هريرة رضي الله عنه مرفوعاً: ((تجدون شر الناس يوم القيامة ذا الوجهين الذي يأتي هؤلاء بوجه وهؤلاء بوجه)).

قال: «ولهما» أي: البخاري ومسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه مرفوعاً: ((تجدون شرَّ النَّاسِ)) وهذا يدلُّ على أَنَّ هَذَا الْأَمْرَ مِنَ الْكِبَائِرِ ؛ وَصَفُ صَاحِبِهِ بِأَنَّهُ شَرُّ النَّاسِ. ((تجدون شرَّ النَّاسِ يوم القيامة ذا الوجهين)) ثمَّ عَرَّفَ بِهِ

قال: ((الَّذِي يَأْتِي هَؤُلَاءَ بَوَجْهِ، وَهَؤُلَاءَ بَوَجْهِ)) أي: أَنَّهُ يَأْتِي كُلَّ طَائِفَةٍ بِمَا يُرْضِيهَا ، إِذَا جَاءَ إِلَى أَهْلِ الْإِيمَانِ تَظَاهَرَ بِأَعْمَالِ الْإِيمَانِ وَأَعْمَالِ الطَّاعَةِ وَأَعْمَالِ الْبِرِّ وَمَا إِلَى ذَلِكَ، وَإِذَا جَلَسَ مَعَ أَهْلِ الْفُسْقِ وَأَهْلِ الْفُجُورِ أَيْضًا تَحَدَّثَ مَعَهُمْ بِمَا يُرْضِيهِمْ، فَلَا يَتَحَدَّثُ بِحَدِيثِهِ مَعَ أَهْلِ الْفُسْقِ عِنْدَ أَهْلِ الْإِيمَانِ، وَلَا يَتَحَدَّثُ بِحَدِيثِهِ مَعَ أَهْلِ الْإِيمَانِ عِنْدَ أَهْلِ الْفُسْقِ، وَإِنَّمَا يَتَحَدَّثُ مَعَ كُلِّ طَائِفَةٍ بِمَا يُرْضِيهَا. إِذَا هُوَ لَا يَنْظُرُ فِيمَا يَتَحَدَّثُ بِهِ إِلَى مَا يُرْضِي اللَّهَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، وَإِنَّمَا يَتَحَدَّثُ مَعَ كُلِّ طَائِفَةٍ بِمَا يُرْضِيهَا، فَهُوَ ذُو وَجْهَيْنِ، يَلْقَى هَؤُلَاءَ بِوَجْهِهِ وَيَلْقَى هَؤُلَاءَ بِوَجْهِهِ، وَصَنِيْعُهُ هَذَا مِنَ الْبِفَاقِ وَالْكَذْبِ وَمِنَ الْمَدَاهِنَةِ.

قال رحمه الله تعالى :

٩٩ - وعن أنس رضي الله عنه مرفوعاً: ((من كان ذا لسانين جعل الله له يوم القيامة لسانين من النار)).

قال: وعن أنس رضي الله عنه مرفوعاً: ((مَنْ كَانَ ذَا لِسَانَيْنِ)) ؛ المراد بقوله «ذا لسانين» : أي ذا وجهين يتحدث مع هؤلاء بلسان، ويتحدث مع أولئك بلسانٍ غير الذي تحدّث به مع أولئك. فمن كان ذا لسانين، أي: ذا وجهين يتحدث مع كلّ طائفة بما يُرضيها غير مبالٍ بما يُرضي الله أو يُسخط الله سبحانه وتعالى ((جعل الله له يوم القيامة لسانين من نار)) وهذا موافق مع العقوبات الشرعيّة، وأنّ الجزاء من جنس العمل.

قال رحمه الله تعالى :

باب ما جاء في النّميّة وقول الله تعالى: ﴿هَمَّازٍ مَشَاءٍ بَنَمِيمٍ﴾ [القلم: ١١].

قال: «باب ما جاء في النّميّة» ؛ النّميّة : هي نقل الكلام من شخصٍ إلى آخر أو من أشخاص إلى آخرين على وجه الإفساد بينه أو بينهم ، فهذه هي النّميّة. والنّمام من المفسدين في الأرض ، وكم من الشُّرور تقع بين النّاس بسبب النّمام؛ حيث تقع العداوات والفرقة والتّباعد وربما ينشب القتال، فالنّمام شرٌّ عظيم وخطره جسيم ، ويُفسد النّمام في ساعة ما لا يُفسده السّاحر في شهر . فالنّميّة خطيرة جدّاً على المجتمعات، والنّمام مرتكبٌ لموبقة عظيمة، وكبيرة من كبائر الإثم.

قال الله سبحانه وتعالى: ﴿هَمَّازٍ مَشَاءٍ بَنَمِيمٍ﴾ ؛ ﴿هَمَّازٍ﴾ : أي يقع في النّاس همّزاً ولمزاً وطعناً.

﴿مَشَاءٍ بَنَمِيمٍ﴾ : أي يمشي بالنّميّة بين النّاس مُوقِعاً العداوات، ومُتَسَبِّباً في نشوب الخلاف ووجود البغضاء.

قال رحمه الله تعالى :

١٠٠ - عن حذيفة رضي الله عنه مرفوعاً: ((لا يدخل الجنة نمام)).

قال: عن حذيفة رضي الله عنه مرفوعاً ((لا يدخل الجنة نمام)) وهذا دليل على أنّ النّميّة من الكبائر ؛ لأنّ نفي دخول الجنّة لا يكون إلّا في كبائر الذّنوب وعظائم الآثام.

قال رحمه الله تعالى :

١٠١ - ولهما في حديث القبرين: ((إنهما ليعذبان ، وما يعذبان في كبير، بلى إنه كبير، أما أحدهما فكان لا يستبرئ من البول، وأما الآخر فكان يمشي بالنميمة)) الحديث.

قال: «ولهما في حديث القبرين» أي: القبرين الذين مرَّ عليهما النبي صَلَّى الله عليه وسلَّم ثمَّ قال لأصحابه: ((إنَّهما)) أي صاحبا القبرين ((لِيعَذَّبَانِ)) ((وما يُعَذَّبَانِ في كبير، بل إنَّه كبير)) أثبت أنَّه كبير ونفى أنَّه كبير، قال: ((ما يُعَذَّبَانِ في كبير)) هذا نفي أنَّه كبير، ثمَّ قال: ((بل إنَّه كبير)) إثبات أنَّه كبير. فهل الكبير الأولى هي الكبير الثانية؟ هل الكبير الذي أُثبت هو الكبير الذي نُفي؟

القاعدة في هذا الباب: «أنَّ اللَّفْظَ إذا أُثْبِتَ ونُفِيَ؛ فالْمُثَبِّتُ غير المنفي» ، ﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَى﴾ [الأنفال: ١٧] أثبت الرَّمْيَ ونفاه ، فالرَّمْيُ المَثْبُتُ غير الرَّمْيِ المنفي، ﴿وَمَا رَمَيْتَ﴾ هذا نفي ﴿إِذْ رَمَيْتَ﴾ إثبات للرَّمْيِ ، فالرَّمْيُ المنفي غير الرَّمْيِ المَثْبُت. وهنا أثبت الكبير وصفاً لهؤلاء ونفاه أيضاً فالمَثْبُتُ غير المنفي، فقولُه: ((وما يُعَذَّبَانِ في كبير)) أي: في أعين النَّاسِ، ما يعدُّه النَّاسُ شيء كبير، ما يعدُّونه أمراً عظيماً ربَّما يستهين به كثير من النَّاسِ ((ما يُعَذَّبَانِ في كبير))، ((بل إنَّه كبير)) هذا تقرير أنَّه من كبائر الذُّنُوب.

قال: ((أما أحدهما فكان لا يستبرئ من البول)) أي: لا يستنزه من البول، لا يُبالي برشاش البول أن يلمس جسده، أو يطير على ثيابه ويلق بها، فكان لا يستبرئ من البول.

((وأما الآخر فكان يمشي بالنميمة)) وهذا موضع الشاهد من هذا الحديث للترجمة.

قال رحمه الله تعالى :

١٠٢ - ولمسلم عن ابن مسعود رضي الله عنه مرفوعاً: ((ألا هل أنبئكم ما العضه؟ هي النميمة ؛ القالة بين الناس)).

قال: ولمسلم عن ابن مسعود رضي الله عنه مرفوعاً ((ألا هل أنبئكم ما العضه؟)) ؛ كانوا في الجاهليَّة يسْمُون السِّحْر «العضه»، مثل جاء عن ابن مسعود قال: «كُنَّا نَعُدُّ السِّحْرَ العضه، والآن هو القالة» ، وانظر هذا التَّرابُط بين السِّحْر والقالة بين النَّاسِ أي: نقل الكلام على وجه الإفساد ؛ فكلُّ من الأمرين السِّحْر والقالة بين النَّاسِ إفساد في المجتمعات ، وربَّما أنَّ إفساد القالة بين النَّاسِ أشدُّ من إفساد السِّحْر ؛ لأنَّ القالة بين النَّاسِ الذي هو نقل الكلام على وجه الإفساد يعمل عمله في النَّفُوس ، ويثير العداوات، ويوجد البُغْضة بين النَّاسِ.

((أَلَا أُنبِّئُكُمْ مَا الْعِضَةُ؟ هِيَ: النَّمِيمَةُ الْقَالَةُ بَيْنَ النَّاسِ)) ؛ «هي النَّمِيمَةُ» ثُمَّ فَسَّرَهَا «الْقَالَةُ بَيْنَ النَّاسِ» أَي: نقل الكلام والقول بين النَّاسِ على وجه الإفساد، فهذا من كبائر الذُّنُوب؛ لِمَا يَتَرْتَّبُ عَلَيْهِ من نشْرِ للعداوات، وإِيجَادٍ لِلْبَغْضَاءِ بَيْنَ النَّاسِ.

قال رحمه الله تعالى :

بَابُ مَا جَاءَ فِي الْبَهْتَانِ

وقول الله تعالى ﴿وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ بَغَيْرِ مَا اكْتَسَبُوا فَقَدْ احْتَمَلُوا بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُبِينًا﴾ [الأحزاب: ٥٨] .

قال: «بَابُ مَا جَاءَ فِي الْبَهْتَانِ» والبهتان: الباطل من القول ، والكذب والافتراء على النَّاسِ بأن ينسب إليهم ما هم بُرَاءٌ منه ، وأن يصفهم بأُمُورٍ ليسوا مُتَّصِفِينَ بِهَا بُهْتَانًا لَهُمْ وَكَذِبًا عَلَيْهِمْ وَافْتِرَاءً.

قال: وقول الله تعالى ﴿وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ بَغَيْرِ مَا اكْتَسَبُوا﴾ [الأحزاب: ٥٨] ؛ ﴿بَغَيْرِ مَا اكْتَسَبُوا﴾ أي بغير جناية حصلت منهم أُوْجِبَتْ أَنْ يَقُولَ فِيهِمْ مَا قَالَ ، أَوْ أَنْ يَحْصَلَ مِنْهُ تَجَاهُهُمْ ذَلِكَ الْأَذَى.

﴿فَقَدْ احْتَمَلُوا﴾ أي على ظهورهم إِثْمًا وَوِزْرًا.

﴿فَقَدْ احْتَمَلُوا﴾ أي على ظهورهم ﴿بُهْتَانًا﴾ : أي هذا القول الباطل الذي رَمَوْا بِهِ الْمُؤْمِنِينَ وَآذَوْا بِهِ الْمُؤْمِنِينَ ﴿وَإِثْمًا﴾ : أي وقعوا فِي إِثْمٍ يَسْتَحِقُّونَ عَلَيْهِ الْعُقُوبَةَ يَوْمَ يَلْقَوْنَ اللَّهَ.

قال رحمه الله تعالى :

١٠٣- عن ابن عمر رضي الله عنهما مرفوعاً: ((مَنْ قَالَ فِي مُؤْمِنٍ مَا لَيْسَ فِيهِ أَسْكَنَهُ اللَّهُ رَدْعَةَ الْخَبَالِ حَتَّى يَخْرُجَ مِمَّا قَالَ)) رواه أبو داود بسند صحيح.

قال: عن ابن عمر مرفوعاً: ((مَنْ قَالَ فِي مُؤْمِنٍ مَا لَيْسَ فِيهِ)) هذا هو البهتان ، هذا تعريف البهتان . لو قيل ما البهتان؟ أن يقول في مؤمنٍ ما ليس فيه. ف((مَنْ قَالَ فِي مُؤْمِنٍ مَا لَيْسَ فِيهِ أَسْكَنَهُ اللَّهُ رَدْعَةَ الْخَبَالِ)) ، وجاء في روايةٍ للحديث عند ابن ماجه: «قالوا: يا رسول الله! وما رَدْعَةُ الْخَبَالِ؟» قال: ((عُصَاةُ أَهْلِ النَّارِ)) أي: قَيْحُ أَهْلِ النَّارِ وَصَدِيدُ أَهْلِ النَّارِ الَّذِي يَحْصُلُ بِشِدَّةِ اصْطِلَاءِ أَجْسَادِهِمُ بِالنَّارِ ، فَيُسْكَنُ رَدْعَةُ الْخَبَالِ ؛ وَهَذَا يَدُلُّ عَلَى أَنَّ هَذَا الْأَمْرَ مِنَ الْكِبَائِرِ؛ لِأَنَّهُ لَا يَكُونُ مِثْلَ هَذَا الْوَعِيدِ إِلَّا فِي كِبَائِرِ الْإِثْمِ.

((مَنْ قَالَ فِي مُؤْمِنٍ مَا لَيْسَ فِيهِ أَسْكَنَهُ اللَّهُ رَدْعَةَ الْخَبَالِ حَتَّى يَخْرُجَ مِمَّا قَالَ)) أي: إِلَّا أَنْ يَخْرُجَ مِمَّا قَالَ بْتَبَرَّةِ الْمُؤْمِنِ مِمَّا نَسَبَهُ إِلَيْهِ، وَالتَّخْلُصُ مِنْ هَذَا الْإِثْمِ، وَإِلَّا فَإِنَّهُ مَعْرُضٌ لِهَذِهِ الْعُقُوبَةِ.

خروجه مما قال : يكون بئدمه على هذا الفعل، وأسفه على وقوعه فيه، وتوبته منه، وطلبه ممن رماه بالبُهت وقوله ما لم يقل، أو نسب إليه ما لم يفعل يطلب منه العفو والصَّفح والمسامحة ؛ هذا معنى قوله: «يخرج مما قال» وإلاَّ فَإِنَّهُ عُرْضَةٌ لِهَذِهِ الْعُقُوبَةِ أَنْ يُسْكَنَهُ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ رَدْعَةَ الْخَبَالِ.

قال رحمه الله تعالى :

١٠٤ - ولمسلم عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه مرفوعاً: ((أْتَدْرُونَ مَا الْغَيْبَةُ؟)) قالوا: الله ورسوله أعلم ، قال: ((ذَكَرَكَ أَخَاكَ بِمَا يَكْرَهُ)). قيل: أفرأيت إن كان في أخي ما أقول؟ قال: ((إِنْ كَانَ فِيهِ مَا تَقُولُ فَقَدْ اغْتَبْتَهُ، وَإِنْ لَمْ يَكُنْ فِيهِ مَا تَقُولُ فَقَدْ بَهْتَهُ)).

قال: ولمسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه مرفوعاً: ((أْتَدْرُونَ مَا الْغَيْبَةُ؟)) هذا سؤال قصد به النَّبِيُّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ التَّعْلِيمَ، وهذه طريقة جداً نافعة في التَّعْلِيمِ، تعليم النَّاسِ الْخَيْرَ، أَنْ يَكُونَ الْعِلْمُ يُطْرَحُ عَلَى صِيغَةِ سَوَالٍ؛ أَتَدْرُونَ مَا كَذَا؟ ثُمَّ يُبَيِّنُ لَهُمْ.

قال: ((أْتَدْرُونَ مَا الْغَيْبَةُ؟)) قالوا : الله ورسوله أعلم. قال: ((ذَكَرَكَ أَخَاكَ بِمَا يَكْرَهُ)) ما معنى ما يكره؟ أي: ما يكره أن تذكره به ، حتى لو كان وصفاً له أو عملاً من أعماله ، إذا كنت تعلم أنه يكره أن تتحدَّثَ عنه بذلك فَإِنَّ ذَكَرَكَ لَهُ بِمَا يَكْرَهُ يُعَدُّ غَيْبَةً لَهُ. قال: ((ذَكَرَكَ أَخَاكَ بِمَا يَكْرَهُ)).

((قِيلَ: أفرأيتَ إن كان في أخي ما أقول؟)) وانظر جمال هذا البيان في قول النَّبِيِّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ ((ذَكَرَكَ أَخَاكَ)) ؛ لأن هذا في تنبيه على الأخوة وتنبيه على ما تقتضيه هذه الأخوة من حفظ الأخ بالغيب وعدم التَّعَرُّضِ لَهُ بِإِسَاءَةٍ. ((قِيلَ: أفرأيتَ إن كان في أخي)) وهذا يدلُّ على أَنَّ الْكَلِمَةَ كَانَ لَهَا وَقَعُهَا فِي نَفْسِهِمْ. قال: ((أَرَأَيْتَ إِنْ كَانَ فِي أَخِي مَا أَقُولُ؟))

قال: ((إِنْ كَانَ فِيهِ مَا تَقُولُ، فَقَدْ اغْتَبْتَهُ، وَإِنْ لَمْ يَكُنْ فِيهِ مَا تَقُولُ فَقَدْ بَهْتَهُ)) أي: إِنْ كَانَ لَيْسَ فِيهِ مَا تَقُولُ فِيهِ فَقَدْ بَهْتَهُ لِأَنَّكَ قُلْتَ فِيهِ مَا لَيْسَ فِيهِ، مِثْلَ مَا تَقَدَّمَ مَعْنَى فِي الْحَدِيثِ السَّابِقِ ((مَنْ قَالَ فِي مُؤْمِنٍ مَا لَيْسَ فِيهِ)) ؛ فبهذا هو الْبُهْتُ، الْبُهْتُ: أَنْ يَقُولَ فِي الْمُؤْمِنِ مَا لَيْسَ فِيهِ، أي: مَا لَيْسَ مِنْ أَوْصَافِهِ ، فإذا قال فيه ما ليس فيه فهذا بُهْتٌ، وَإِنْ قَالَ فِيهِ مَا هُوَ فِيهِ مِمَّا يَكْرَهُ أَنْ يُقَالَ عَنْهُ فَهَذِهِ غَيْبَةٌ، وَاللَّهُ سَبْحَانَهُ وَتَعَالَى يَقُولُ: ﴿وَلَا يَغْتَبُ بَعْضُكُمُ

بَعْضًا أَحَبُّ أَحَدُكُمْ أَنْ يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَحِيمٌ﴾ [الحجرات: ١٢].

سبحانك اللهم وبحمدك ، أشهد أن لا إله إلا أنت ، أستغفرك وأتوب إليك .
اللهم صلّ وسلم على عبدك ورسولك نبينا محمد وآله وصحبه أجمعين.

الدرس السابع عشر

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله ربّ العالمين، وأشهد أنّ لا إله إلاّ الله وحده لا شريك له، وأشهد أنّ محمّداً عبده ورسوله ؛ صلّى الله وسلّم عليه وعلى آله وأصحابه أجمعين ، أمّا بعد:

قال شيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب رحمه الله تعالى في كتاب الكبائر :

باب ما جاء في اللعن

١٠٥ - عن أبي الدرداء رضي الله تعالى عنه مرفوعاً: ((إن العبد إذا لعن شيئاً سعدت اللعنة إلى السماء فتغلق أبواب السماء دونها ، ثم تهبط إلى الأرض فتغلق أبوابها دونها ، ثم تأخذ يميناً وشمالاً ، فإذا لم تجد مساعاً رجعت إلى الذي لعن، فإن كان أهلاً وإلا رجعت إلى قائلها)) رواه أبو داود بسند جيد.

١٠٦ - وله شاهدٌ عند أحمد بسند من حديث ابن مسعود.

١٠٧ - وأخرجه أبو داود وغيره من حديث ابن عباس رضي الله عنهما ورواته ثقات لكن أعلّ بالإرسال.

قال رحمه الله تعالى: «باب ما جاء في اللّعن» أي: ما جاء من النهي عن ذلك والتّحذير منه ؛ وذلك أنّ دين الإسلام دينُ الرّحمةِ والتّراحم، وليس دين اللّعةِ والتّلاعن ، ولهذا جاء في الحديث عن نبينا عليه الصّلاة والسّلام أنّه قال: ((لَيْسَ الْمُؤْمِنُ بِالطَّعَانِ وَلَا اللَّعَانِ وَلَا الْفَاحِشِ وَلَا الْبَذِيءِ))، ولما قيل للنبيّ عليه الصّلاة والسّلام «يَا رَسُولَ اللَّهِ ادْعُ عَلَى الْمُشْرِكِينَ» قَالَ: ((إِنِّي لَمْ أُبْعَثْ لِعَانًا وَإِنَّمَا بُعِثْتُ رَحْمَةً)). الإسلام دينٌ جاء بالتّراحم بين أهله، ليس شأنُ أهل الإسلام كأُمة الكفر أهل النّار ﴿كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَعَنَتْ أُخْتَهَا﴾ [الأعراف: ٣٨] ، بل أهل الإسلام أهلُ تراحمٍ بينهم، ﴿وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ وَتَوَاصَوْا بِالرَّحْمَةِ﴾ [البقرة: ١٧٠] ، والإسلام دينُ الرّحمة، ونبينا عليه الصّلاة والسّلام نبيّ الرّحمة صلوات الله وسلامه وبركاته عليه .

وَاللَّعْنَةُ ضِدُّ الرَّحْمَةِ؛ لِأَنَّ اللَّعْنَ: دَعَاءٌ بِالطَّرْدِ وَالْإِبْعَادِ مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى. وَالْأَصْلُ بَيْنَ أَهْلِ الْإِسْلَامِ التَّرَاحُمُ، أَنْ يَرْحَمَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا، وَأَنْ يَدْعُوَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ بِالرَّحْمَةِ ((مَثَلُ الْمُؤْمِنِينَ فِي تَوَادُّهِمْ وَتَرَاحُمِهِمْ وَتَعَاطُفِهِمْ مَثَلُ الْجَسَدِ إِذَا اشْتَكَى مِنْهُ عُضْوٌ تَدَاعَى لَهُ سَائِرُ الْجَسَدِ بِالسَّهَرِ وَالْحُمَّى))؛ فَهَذَا شَأْنُ أَهْلِ الْإِيمَانِ.

ولهذا، فَإِنَّ مِنَ الْآفَاتِ الْعَظِيمَةِ، أَنْ يُوجَدَ التَّلَاعُنُ بَيْنَ الْمُسْلِمِينَ، وَبَعْضُ النَّاسِ دَرَجَ عَلَى لِسَانِهِ اللَّعْنَ فِي كَثِيرٍ مِنْ حَدِيثِهِ، وَكَلَّمَا أَخْطَأَ شَخْصٌ عِنْدَهُ بَادِرٌ إِلَى لَعْنِهِ، حَتَّى إِنَّ بَعْضَهُمْ مِنْ اسْتِمْرَائِهِ لِلْعَنْ -وَالْعِيَاذُ بِاللَّهِ- إِذَا أَغْضَبَهُ ابْنُهُ لَعَنَ مَنْ أَنْجَبَ ابْنَهُ، أَيْ يَلْعَنُ نَفْسَهُ -عِيَاذًا بِاللَّهِ-، وَهَذَا مِنَ الْحَقِّ وَالسَّفْهِ، وَقِلَّةِ الْبَصِيرَةِ وَالْقَهْمِ، وَرَدَاءَةِ الْعَقْلِ، وَعَدَمِ إِدْرَاكِ خَطُورَةِ هَذَا الْأَمْرِ. فَالْإِسْلَامُ جَاءَ بِالنَّهْيِ عَنْ ذَلِكَ وَالتَّحْذِيرِ مِنْهُ، وَأَنَّ الْمُسْلِمَ لَا يَنْبَغِي أَنْ يَكُونَ كَذَلِكَ، بَلْ يَكُونُ دِيدَنَهُ الدُّعَاءُ بِالرَّحْمَةِ، وَهَذَا شَرْعٌ لَنَا عِنْدَ التَّلَاقِي فِي كُلِّ مَرَّةٍ أَنْ يَقُولَ الْمُسْلِمُ لِأَخِيهِ حِينَ يَلْقَاهُ: "السَّلَامُ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَةُ اللَّهِ وَبَرَكَاتُهُ" دَعَاءُ بِالرَّحْمَةِ وَدَعَاءُ بِالْبَرَكَةِ وَدَعَاءُ بِالسَّلَامَةِ، وَهَذَا هُوَ الْأَصْلُ. وَبَعْضُ النَّاسِ أَصْبَحَ -وَالْعِيَاذُ بِاللَّهِ- عَلَى لِسَانِهِ اللَّعْنَ أَكْثَرَ مِنَ السَّلَامِ وَالرَّحْمَةِ وَالْبَرَكَةِ.

قال: «بَابُ مَا جَاءَ بِاللَّعَنِ» عَنْ أَبِي الدَّرْدَاءِ رَضِيَ اللَّهُ تَعَالَى عَنْهُ مَرْفُوعًا: ((إِنَّ الْعَبْدَ إِذَا لَعَنَ شَيْئًا)) لَمْ يَثُلْ إِنْسَانًا. لَعَنَ شَيْئًا: سَوَاءً حَيًّا مِنْ الْكَائِنَاتِ الْحَيَّةِ أَوْ جَمَادًا؛ لِأَنَّ بَعْضَ النَّاسِ إِذَا اسْتَعْصَى عَلَيْهِ شَيْءٌ مِنَ الْجَمَادَاتِ لَعَنَهُ، رَبَّمَا يَلْعَنُ بَعْضَهُمْ دَابَّتَهُ، رَبَّمَا يَلْعَنُ سَيَّارَتَهُ، رَبَّمَا يَلْعَنُ بَعْضُ الْأَدَوَاتِ الَّتِي يَسْتَخْدِمُهَا، إِذَا اسْتَعْصَتْ عَلَيْهِ بَعْضُهُمْ لَعْنَهَا. فَفِي هَذَا الْحَدِيثِ يَقُولُ: ((إِنَّ الْعَبْدَ إِذَا لَعَنَ شَيْئًا)) أَيْ: أَيْ شَيْءٍ كَانَ. ((صَعِدَتِ اللَّعْنَةُ إِلَى السَّمَاءِ)) لِأَنَّ هَذَا دَعَاءُ، اللَّعْنَةُ دَعَاءٌ عَلَى هَذَا الَّذِي لُعِنَ بِأَنْ يُبْعَدَ وَيُطْرَدَ مِنَ الرَّحْمَةِ، دَعَاءٌ عَلَيْهِ، فَإِذَا لَعَنَ صَعِدَتِ اللَّعْنَةُ إِلَى السَّمَاءِ.

((فَتُغْلَقُ أَبْوَابُ السَّمَاءِ دُونَهَا، ثُمَّ تَقْبُطُ إِلَى الْأَرْضِ فَتُغْلَقُ أَبْوَابُهَا دُونَهَا، ثُمَّ تَأْخُذُ يَمِينًا وَشِمَالًا، فَإِذَا لَمْ تَجِدْ مَسَاعًا رَجَعَتْ إِلَى الَّذِي لُعِنَ)) أَيْ إِلَى ذَلِكَ الشَّيْءِ الَّذِي لُعِنَ؛ مِنْ دَابَّةٍ أَوْ إِنْسَانٍ أَوْ حَجَرٍ أَوْ بَهِيمَةٍ أَوْ غَيْرِ ذَلِكَ.

((فَإِنْ كَانَ أَهْلًا، وَإِلَّا رَجَعَتْ إِلَى قَائِلِهَا)) وَكَمْ يَلْعَنُ السُّفَهَاءُ وَالْجُهَّالُ مَنْ لَيْسَ أَهْلًا لِلْعَنْ، وَعَلَيْهِ فِكْرٌ مِنَ اللَّعْنَاتِ الَّتِي يَسْتَجْلِبُهَا لِنَفْسِهِ وَيَسْتَجِرُّهَا لِنَفْسِهِ كُلِّ يَوْمٍ!

قال: ((رواه أبو داود بسندٍ جيّدٍ، وله شاهد عند أحمد بسند من حديث ابن مسعود. وأخرجه أبو داود وغيره من حديث ابن عباس رواه ثقات لكنه أعل بالإرسال))؛ وَحَدِيثُ أَبِي الدَّرْدَاءِ حَدِيثٌ صَحِيحٌ، إِسْنَادُهُ كَمَا قَالَ الْمُصَنِّفُ جَيِّدٌ، وَلَهُ شَوَاهِدٌ، أَشَارَ إِلَى بَعْضِهَا.

قال رحمه الله تعالى :

١٠٨ - ولمسلم عن أبي برزة رضي الله عنه مرفوعاً: أن امرأة لعنت ناقة لها ، فقال رسول الله: ((لا تصحبنا ناقة عليها لعنة)). وله عن عمران نحوه.

قال: ولمسلم عن أبي برزة رضي الله عنه مرفوعاً: ((أن امرأة لعنت ناقة لها)) ؛ مرَّ معنا في الحديث الذي قبله: ((إنَّ العبد إذا لعن شيئاً)) وهذا يتناول الدوابَّ والنَّاسَ والجمادات ، أيَّ شيءٍ كان، فهذه لعنت دابةً، ناقةً لها، فقال رسول الله صَلَّى الله عليه وسلَّم: ((لا تصحبنا ناقةً عليها لعنة)) وهذا يُبيِّن خطورة اللعن، والنَّبِيُّ صَلَّى الله عليه وسلَّم نهي أن تصحبهم ناقة عليها لعنة، مُبيِّنًا صلوات الله وسلامه عليه خطورة اللعن.

قال رحمه الله تعالى :

باب ما جاء في إفشاء السرِّ

١٠٩ - عن أبي سعيد مرفوعاً: ((إن من أشر الناس منزلة عند الله يوم القيامة الرجل يفضي إلى امرأته وتفضي إليه ثم ينشر سرها)) وفي رواية: ((إن من أعظم الأمانة)) رواه مسلم.

قال: «باب ما جاء في إفشاء السرِّ» أي: من الوعيد، وإخبار النَّبِيِّ صَلَّى الله عليه وسلَّم أنَّ مَنْ كان كذلك فهو من شرِّ النَّاسِ ؛ لأنَّ السرَّ أمانة، وإفشاءه خيانة. والواجب على الإنسان إذا أفضي إليه بسرٍّ ألا يكشفه، وألا يُفشيهِ، وأن يحفظه، وهذا من الأمانة التي هي صفة أهل الإيمان، وإفشاؤه خيانة، والخيانة من صفة أهل النِّفاق. ولهذا يجب على المسلم أن يتحلَّى بأوصاف أهل الإيمان، ومن ذلكم حفظ السرِّ وعدم إفشاءه، وإذا أفضي إليه أخاه كلاماً واستكتمه إيَّاه، كأن يقول له مُصرِّحاً أو تصريحاً: لا تُفشي هذا السرِّ، أو هذا بيني وبينك، ما أُحبَّ أن تُطلع عليه أحداً، أو نحو ذلك، أو حتى استشعر من كلامه معه وأسلوبه في الحديث معه أنه يُريد أن لا يفشي هذا الكلام، مثل - كما سيأتي معنا في الحديث - لو أنه لما أراد أن يحدثه به التفت يميناً ويساراً يتأكَّد هل أحد قريب منه يسمعه أو لا ثمَّ تحدَّث معه، فمثل هذه تُشعر أنَّ الخبر خاصٌّ به لا يحبُّ أن ينشره، وإلاَّ ما كان أنَّ هناك حاجة إلى أن يلتفت يميناً ويساراً . أو إذا علِمَ من الكلام نفسه أنَّ مثل هذا الكلام له خصوصية لا يصلح أن يُنشر، فالأصل في المسلم أن يحفظ سرَّ أخيه وألا يُفشيهِ، وأنَّ إفشاء السرِّ هذا يُعدُّ خيانةً، وأنَّ مَنْ يُفشي السرَّ من شرِّ النَّاسِ كما في الحديث الذي ساقه المصنِّف.

حديث أبي سعيد الخدري مرفوعاً قال: ((إنَّ من أشرِّ النَّاسِ منزلة عند الله يوم القيامة الرَّجل يُفضي إلى امرأته وتُفضي إليه ثمَّ ينشر سرَّها)) ؛ «الرَّجل يُفضي إلى امرأته وتُفضي إليه» يفضي إليها بأموره الخاصة وأسراره، وهي

كذلك لما بينهما من مودة ومحبة وعشرة، ثم بعد ذلك ينشر سرّها ؛ فهذا من أقبح ما يكون في باب العشرة والوفاء؛ لأنّ هذه خيانة بإفشاء سرّ الإنسان لأهل بيته. قال: ((إنّ من أشرّ النَّاسِ منزلةً عند الله يوم القيامة الرَّجُلُ يُفضي إلى امرأته وتفضي إليه ثمّ ينشر سرّها)).

قال: وفي رواية: ((إنّ من أعظم الأمانة)) أي: من أعظم الأمانة أن لا يُفشي الرَّجُل سرّ أهل بيته ، وأيضاً أهل بيته لا يفشون شيئاً من سرّه.

قال رحمه الله تعالى :

١١٠ - وعن جابر رضي الله عنه مرفوعاً: ((إذا حدّث الرجل بالحديث ثم التفت فهي أمانة)) حسنّه الترمذي.

قال: وعن جابر رضي الله عنه مرفوعاً: ((إذا حدّث الرَّجُل بالحديث ثمّ التفت فهي أمانة)) حسنّه الترمذي. وهذا فيه أنّ ائتمان الشّخص على الحديث لا يلزم أن يكون بالتّصريح اللفظي منه بعدم الرّغبة بإفشاء حديثه أو كلامه، بل لو فهم من أسلوبه وطريقته في التحدّث أنّه ائتمنه على هذا الكلام فإنّه لا يجوز أن يُفشيّه، ومن المعلوم أنّ الشّخص إذا حدّث أخاه بشيءٍ وكان قبل أن يحدّثه التفت يميناً ويساراً يريد أن يطمئن أن أحداً لا يسمع الكلام، فهذا يُشعر أنّ حديثه سرّ، وأنّ الشّيء الذي قاله خصّه به ولا يريد أن يسمعه الآخرون. قال: ((إذا حدّث الرَّجُل بالحديث ثمّ التفت فهي أمانة)) أي: فمن أفشى ذلك فقد خان أخاه في سرّه.

قال رحمه الله تعالى :

١١١ - ولأحمد عن أبي الدرداء رضي الله عنه مرفوعاً: ((من سمع من رجل حديثاً لا يحب أن يذكر عنه فهو أمانة وإن لم يستكتمه)).

قال: ولأحمد عن أبي الدرداء رضي الله عنه مرفوعاً: ((من سمع من رجل حديثاً لا يحب أن يُذكر عنه)) أي: لا يحب أن يُنقل وأن يُنشر وأن يُفشي ((فهو أمانة وإن لم يستكتمه)) ، والحديث إسناده ضعيف، لكن المعنى الذي دلّ عليه دلّ عليه ما قبله، وأنّه لا يلزم في الحديث الذي يُؤمّن عليه الرَّجُل أن يُصرّح بالائتمان لفظاً، وأنّه وإن جاء منه ما يُشعر ويدلّ على أنّه ائتمنه على هذا الحديث، أو كان الحديث ممّا يُعلم أنّه شيءٌ لا يحبّ أو لا يُرغب في إفشائه ونشره، فإنّ الواجب عليه في مثل ذلك ألا يُفشي سرّ أخيه.

((وإن لم يستكتمه)) أي: لفظاً، وإن لم يقل له: اكنتم عني هذا، أو لا تخبر أحداً بهذا، أو لا تحدّث أحداً بهذا، أي وإن لم يستكتمه لفظاً، بأن يكون التفت مثلاً - كما تقدّم في الحديث الذي قبله - يمينا ويساراً، أو يُشعر من صفة حديثه، أو طريقة حديثه، أو الحديث الذي تحدّث به أنّه من الأمور التي لا يُرغب في نشرها ونقلها، فإنّ هذا يُعدّ أمانةً.

قال رحمه الله تعالى :

باب ما جاء في لعن المسلم

١١٢ - عن ثابت بن الضحاك رضي الله عنه مرفوعاً: ((لعن المؤمن كقتله)) أخرجاه.

قال: «باب ما جاء في لعن المسلم» أي: لعن المسلم أخاه المسلم ؛ وهذا من أخطر ما يكون في اللعن؛ لأنّ الأصل بين المسلمين هو التّراحم وليس التّلاعن ، ﴿وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ وَتَوَاصَوْا بِالْمَرْحَمَةِ﴾ [البقرة: ١٧٧] فهذا هو الذي بين أهل الإسلام، إذا لقي المسلم أخاه سلّم عليه ودعا له بالرحمة "السّلام عليكم ورحمة الله وبركاته"، فهذا هو الذي بين المسلمين وبين أمّة الإسلام ، فلعن المسلم أمرٌ جدّ خطير .

وأورد رحمه الله تعالى من الأحاديث، حديث ثابت بن الضّحاك رضي الله عنه مرفوعاً: ((لعن المؤمن كقتله)) ؛ وهذا فيه خطورة اللعن، وهذا دليل على أنّ لعن المسلم أخاه المسلم كبيرة من الكبائر؛ لأنّ النّبيّ عليه الصّلاة والسّلام شبّه اللعن للمسلم بالقتل له.

قال رحمه الله تعالى :

١١٣ - وللبخاري عن أبي هريرة رضي الله عنه: أنّهم ضربوا رجلاً قد شرب الخمر فلما انصرف قال بعض القوم: «أخزأك الله». قال النبي صلى الله عليه وسلم: ((لا تقولوا هذا، لا تعينوا عليه الشيطان)).

قال رحمه الله تعالى: ((وللبخاري عن أبي هريرة رضي الله عنه أنّهم ضربوا رجلاً قد شرب الخمر، فلما انصرف قال بعض القوم: أخزاه الله)) ؛ وهذا دعاء له بالخزي، وهو من التّلاعن ؛ لأنّ التّلاعن لا يلزم أن يكون بلفظ اللعنة. ولهذا سيأتي عند المصنّف رحمه الله تعالى قول النّبيّ عليه الصّلاة والسّلام: ((لا تلعنوا بلعنة الله، ولا بغضبه، ولا بالنّار)) ، فليس اللعن بهذه اللفظة فقط؛ أن يقول القائل للآخر: "لعنك الله" أو نحو ذلك، بل بالدعاء له بالخزي، أو أن يقول: أدخلك الله النّار، أو أسأل الله أن لا يدخلك الجنّة، أو غضب الله عليك، أو

سَخِطَ اللهُ عَلَيْكَ.. أو نحو هذا، كلُّ هذا من التَّلَاعن، لأنَّ مؤدَّاه واحدًا، وهو الطُّرد والإبعاد من رحمة الله وحلول العقوبة.

فالدُّعاء عليه بالخزي من ذلك، ولما دعا بعضهم على هذا الشَّخص الَّذي يشرب الخمر ، لما قال بعض القوم: "أخزأك الله" قال النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ((لا تقولوا هذا، لا تعينوا عليه الشَّيْطَان)) ؛ العاصي لا يُعان عليه الشَّيْطَان بمثل هذا الدُّعاء، بل يُدعى له بالهداية، يُدعى له بالصَّلَاح، يُدعى له بالاستقامة على طاعة الله يُقال: هداه الله، يُقال: أصلحه الله، رَدَّه الله إلى الحقِّ، يُدعى له، ودعوة المسلم لأخيه في ظهر الغيب مستجابة، فيُدعى له ولا يُدعى عليه باللَّعنة والخزي والنَّار وعدم دخول الجنَّة، ونحو ذلك، قال: ((لا تقولوا هذا لا تعينوا عليه الشَّيْطَان)).

قد يقول قائل: أليس النَّبِيُّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَام لعن في الخمر عشرة ومنهم شاربها؟! وإذا كان لعن في الخمر عشرة ومنهم شاربها، فما المانع إذا رأى الإنسان شخصًا قد شرب الخمر أن يلعنه بعينه؟!

يُقال: هذا الحديث نفسه دَلٌّ على التَّفريق بين اللَّعْن بالتَّعميم واللَّعْن بالتَّعيين ؛ اللَّعْن بالتَّعميم جاءت به الأحاديث الكثيرة، مثل: ((لعن الله النَّامِصَةَ)) ، ((لعن الله الواثمة والمستوشمة))، ((لعن الله المتشبهين من الرِّجال بالنِّساء والمتشبهات من النِّساء بالرِّجال)) ، ((لعن الله الرَّاشِيَّ والمرتشي))، ((لعن الله شارب الخمر))، ﴿أَلَا لَعْنَةُ اللَّهِ

عَلَى الظَّالِمِينَ﴾ [هود: ١٨] ، جاءت النُّصوص الكثيرة باللَّعْن بالتَّعميم . وهنا لما لُعِنَ هذا الشخص بالتَّعيين على شرب الخمر قال: ((لا تلعنوه)) في بعض الروايات قال: ((لا تلعنوه؛ فَإِنَّهُ يَحِبُّ اللهُ وَرَسُولَهُ))، فنهى عن اللَّعْن بالتَّعيين؛ ولهذا فرق بينهما، يُلَعْن بالتَّعميم بما جاءت النُّصوص به، مثل أن يقول القائل: لعنة الله على الظَّالِمِينَ، لعنة الله على الواثمة، لعنة الله على المستوشمة، لعنة الله على النَّامِصَةِ، ونحو ذلك ممَّا جاءت به الأحاديث. لكن لو رأى إنسانًا مثلاً ارتكب هذا الَّذي فيه اللَّعْن لا يلعنه بعينه؛ لأنَّه فرق بين اللَّعْن بالتَّعميم واللَّعْن بالتَّعيين ؛ أمَّا اللَّعْن بالتَّعميم جاءت به النُّصوص، وأمَّا اللَّعْن بالتَّعيين فهذا لا يكون إلَّا وفق شروط وضوابط ؛ ليس كلِّ مَنْ ارتكب ما يوجب اللَّعْن يُلَعْن مباشرة، قد يكون هناك موانع من لعنه، ولهذا قال النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ((لا تلعنوه، فَإِنَّهُ يَحِبُّ اللهُ وَرَسُولَهُ))، فالَّذي يَحِبُّ اللهُ وَرَسُولَهُ، يَحِبُّ الْخَيْرَ، يَحِبُّ الدِّينَ، لكنَّه وقع في المعصية لا يُلَعْن ، يُقال: هداه الله، يُقال: أصلحه الله، يُقال: رَدَّه الله إلى الحقِّ ردًّا جميلاً.

وعندما يُلَعْن أو يُقال: أخزاه الله، فإنَّ في ذلك إعانة للشَّيْطَان عليه؛ لماذا؟ لأنَّ الشَّيْطَان يريد من هذا الإنسان أن يكون من أهل الخزي، أليس كذلك؟ الشَّيْطَان يريد من هذا الإنسان أن يكون من أهل الخزي، من أهل الدُّلِّ والهوان والعقوبة وسخط الله، الشَّيْطَان يريد ذلك، فإذا دعا المسلم عليه بذلك: أخزاه الله، كانت هذه الدعوة معونة للشَّيْطَان فيما يريد من هذا الإنسان.

قال رحمه الله تعالى :

باب ذكر تأكده في الأموات

١١٤ - عن عائشة رضي الله عنها مرفوعاً: ((لا تسبوا الأموات فإنهم قد أفضوا إلى ما قدموا)) رواه البخاري.

قال: «باب ذكر تأكده في الأموات» إذا كان يُنهي عن لعن المسلم عموماً فإن هذا يتأكد يكون أكثر تأكيداً في حق الأموات لماذا؟ لأن الميّت أفضى إلى ما قدم، والسيئات التي قد ارتكبها ربّما أن عنده حسنات مكفّرة لها: ﴿إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ﴾ [هود: ١١] ، ربّما أنه تاب إلى الله توبة نصوحاً منها، ربّما تعرّض إلى مصائب عظيمة كفر الله عنه بها من سيئاته ، والمصائب كفّارات. فلميّت أفضى إلى ما قدم ولقي الله سبحانه وتعالى بأعماله، فإذا كان لعن المسلم يُنهي عنه عموماً فإنه يكون أكثر تأكيداً في حق من مات؛ لأنّه أفضى إلى ما قدم من أعمال.

أورد حديث أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها مرفوعاً: ((لا تسبوا الأموات، فإنهم قد أفضوا إلى ما قدموا)) ومعنى قوله «فإنهم قد أفضوا إلى ما قدموا»: أي إلى ما قدموه من أعمال، إن كانت صالحة فقد أفضوا إلى تلك الأعمال الصالحة، وإن كانت سيئة فقد أفضوا إلى تلك الأعمال السيئة، والله يجزي كلّ عاملٍ بعمله، ﴿لِيَجْزِيَ الَّذِينَ أَسَاءُوا بِمَا عَمِلُوا وَيَجْزِيَ الَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْحُسْنَى﴾ [التجم: ٣١] .

قال رحمه الله تعالى :

باب ذكر قول: يا عدو الله أو يا فاسق أو يا كافر ونحوه

١١٥ - عن أبي ذر رضي الله عنه مرفوعاً: ((لا يرمي رجل رجلاً بالفسوق، ولا يرميه بالكفر، إلا ارتدت عليه إن لم يكن صاحبه كذلك)) رواه البخاري.

قال: «باب ذكر قول: يا عدو الله أو يا فاسق أو يا كافر أو نحوه» ؛ هذه الكلمات لا ينبغي للمسلم أن يطلقها على أخيه المسلم ، لا ينبغي للمسلم أن يطلق على أخيه المسلم بأنّه عدو الله، أو بأنّه فاجر، أو فاسق، أو كافر، أو نحو ذلك من الألفاظ ، ولا تُطلق هذه الكلمة إلا إذا كان عند من أطلقها يقين تام لا ريب فيه ولا شك أن من أطلقها عليه كذلك، وإلا رجع الأمر عليه . وهذا ممّا يدلّ على خطورة إطلاق هذه الكلمات. مع أن

بعض النَّاس يستهين بهذه الكلمة ؛ عندما يُغضبه شخص يقول: يا عدوَّ الله تفعل كذا؟! عندما يُغضبه عند أمرٍ من توافه أمور الدُّنيا يعتبره بذلك عدوًّا لله! فهذه الكلمات لا يجوز أن يطلقها المسلم على أخيه المسلم، وإنَّما تُطلَق عندما يحصل يقين تام عند شخص لا ريب فيه أنَّ هذا الشَّخص عدوٌّ لله، أو أنَّه فاسق، أو أنَّه فاجر، أو أنَّه كافر، ويكون في الإطلاق أيضًا مصلحة شرعيَّة تقتضي ذلك.

قال: عن أبي ذرٍّ رضي الله عنه مرفوعًا: ((لا يرمي رجلٌ رجلًا بالفسوق، ولا يرميه بالكفر إلَّا ارتدَّت عليه، إن لم يكن صاحبه كذلك)) فقلوله: «إن لم يكن صاحبه كذلك» تقتضي أن من أراد أن يطلق هذه الكلمات أن يكون على يقين تام بأن صاحبه كذلك ، أمَّا إذا لم يكن على يقين فربَّما ارتدَّت عليه كلمته ورجعت عليه وباء بإثمها.

قال رحمه الله تعالى :

١١٦ - وعن سمرة رضي الله عنه مرفوعًا: ((لا تلاعنوا بلعنة الله ولا بغضبه ولا بالنار)) صححه الترمذي.

وهذا الحديث حديث سَمَرَة يفيد أنَّ التَّلَاعُن ليس فقط بلفظ اللَّعْنَة، بل كلَّ ما أفضى إلى هذا المعنى فهو من التَّلَاعِن، فَمَنْ قال في حقِّ أخيه: أخزاه الله، أو أدخله الله النَّار، أو حرَّمه الله من الجنَّة، أو سخط الله عليه، أو غضب الله عليه، أو أسأل الله أن يغضب عليه، أسأل الله أن يسخط عليه، أو نحو ذلك، كلَّ هذه الكلمات إذا قالها فإنَّها من التَّلَاعِن . قال عليه الصَّلَاة والسَّلَام: ((لا تلاعنوا بلعنة الله، ولا بغضبه، ولا بالنَّار)) . وأيضًا هذا الَّذي ذُكِرَ في الحديث على سبيل التَّمثِيل، وليس على سبيل الحصر، لا تلاعنوا بلعنة الله ولا بغضبه ولا بالنَّار ولا بسخطه ولا بالحرمان من دخول الجنَّة.. كلَّ هذا من التَّلَاعِن.

قال رحمه الله تعالى :

١١٧ - ولهما عن أبي ذر رضي الله عنه مرفوعًا: ((من دعا رجلًا بالكفر أو قال: عدو الله وليس كذلك إلَّا حار عليه)).

قال: «ولهما» أي البخاري ومسلم ؛ عن أبي ذرٍّ رضي الله عنه مرفوعًا: ((مَنْ دعا رجلًا بالكفر)) دعاه بالكفر: أي نعتة ووصفه بالكفر، قال: كافر، أو قال: عدوَّ الله ((وليس كذلك إلَّا حار عليه)) أي: إلَّا رجع عليه ما قال.

قال رحمه الله تعالى :

باب ما جاء في لعن الرجل والديه

١١٨ - عن ابن عمر رضي الله عنهما مرفوعاً: ((من أكبر الكبائر أن يلعن الرجل والديه)) ، قيل يا رسول الله! وكيف يلعن الرجل والديه؟ قال: ((يسبُّ الرجل أبا الرجل فيسبُّ أباه ويسبُّ أمه فيسبُّ أمه)) أخرجاه.

قال: «باب ما جاء في لعن الرجل والديه» وهذا يشمل لعنهما بالتسبب، أو لعنهما مباشرة، سواء لعنهما تسبباً كأن يلعن الرجل أبا الرجل فيسبُّ أباه ويسبُّ أمه؛ أي: يتسبب في لقائه بالناس بسبِّ والديه، أو يسبهما مباشرة؛ وكلُّ من الأمرين من كبائر الإثم، وهو من أعظم العقوق للوالدين ومن أشنعه . وحق الوالدين من أعظم الحقوق، ولهذا قرن الله سبحانه وتعالى حقهما بحقه في غير ما آية من القرآن الكريم ، منها قول الله سبحانه: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾ [الإسراء: ٢٣] ، وقول الله تعالى: ﴿وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾ [النساء: ٣٦] ، وقول الله تعالى: ﴿قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾ [الأنعام: ١٥١] ، قال الله تعالى: ﴿أَنْبِ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ﴾ [لقمان: ١٤] ، فقرن تبارك وتعالى حقهما بحقه، وفي الحديث قرن النبي صلى الله عليه وسلم عقوقهما بالشرك ، قال: ((ألا أُنبئكم بأ أكبر الكبائر؟)) قلنا: بلى يا رسول الله. قال: ((الإشراك بالله، وعقوق الوالدين)) ، فجعل عليه الصلاة والسلام عقوق الوالدين قرين الشرك بالله سبحانه وتعالى؛ ممَّا يدلُّ على خطورة العقوق. ومن أشدَّ العقوق وأفظعه وأخطره لعن الوالدين ؛ سواء لعنهما لعناً مباشراً ، أو لعنهما لعناً بالتسبب. وفي الحديث، حديث علي أن النبي صلى الله عليه وسلم لعن أربعة ((لعن من ذبح لغير الله، ولعن من لعن والديه))، وهذا فيه قرن لعن الوالدين بالشرك الذي هو الذبح لغير الله، وهذا أيضاً من الأدلة على أن لعن الوالدين من أعظم العقوق وأشدّه.

قال رحمه الله : عن ابن عمر رضي الله عنهما مرفوعاً: ((من أكبر الكبائر أن يلعن الرجل والديه)) قيل: «يا رسول الله! كيف يلعن الرجل والديه؟» يستغرب الصحابة ويتعجبون، كيف يلعن الرجل والديه؟! وهل يبلغ الإنسان هذا المبلغ أن يلعن والديه؟ «كيف يلعن الرجل والديه؟!»

قال: ((يسبُّ أبا الرجل فيسبُّ أباه، ويسبُّ أمه فيسبُّ أمه)) ما معنى ذلك؟ أي أن يتسبب، لا يسبُّ والده مباشرة، إنما يسبُّ أبا الرجل فذاك أيضاً يسبُّ أباه ، ويسبُّ أمَّ الرجل فذاك أيضاً يسبُّ أمه ؛ فهذا لعن بالتسبب، وهناك لعن بالمباشرة، وهذا يحصل من بعض الناس -عياداً بالله- بأن يسبُّ أباه مباشرة أو يسبُّ أمه

والمصنّف رحمه الله تدرّج في ذكر التحذير من اللّعن وراعى أيضًا الحقوق، فذكر اللّعن عمومًا، لعن أيّ شيء كان، ثمّ لعن المسلم، ثمّ لعن من مات من المسلمين وأنّ هذا يتأكّد، ثمّ لعن الوالدين اللذين هم من أعظم النّاس أحقيّةً بالبرّ والإحسان والوفاء، قال: «مَنْ أَحَقُّ النَّاسِ بِحُسْنِ صَحَابَتِي؟» قال: ((أُمُّكَ)). قال: ثمّ مَنْ؟ قال: ((أُمُّكَ)). قال ثمّ مَنْ؟ قال: ((أُمُّكَ)). قال: «مَنْ أَحَقُّ النَّاسِ بِحُسْنِ صَحَابَةِ، فَكَيْفَ يَصِلُ الْإِنْسَانُ إِلَى دَرَجَةِ اللَّعْنِ لِلْوَالِدَيْنِ؟! وَالْعِيَاذُ بِاللَّهِ.

الدرس الثامن عشر

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

29

١١٩ - ولما قال المهاجري: «يا للمهاجرين» وقال الأنصاري: «يا للأنصار» قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ((أبدعوى الجاهلية وأنا بين أظهركم؟!)) وغضب لذلك غضبا شديداً .

قال رحمه الله تعالى: «باب النهي عن دعوى الجاهلية» ؛ الإسلام جاء بإبطال أمور الجاهلية كلها وضلالاتها وسفورها، وفي حجة الوداع - كما في حديث جابر في صحيح مسلم - لما خطب النبي صلى الله عليه وسلم الناس قال: ((أَلَا كُلُّ شَيْءٍ مِنْ أَمْرِ الْجَاهِلِيَّةِ تَحْتَ قَدَمِي مَوْضُوعٌ)). فجاء الإسلام بإبطال كل ضلالات الجاهلية وعصبياتها وغيها وسفورها وعدوانها. وكان الناس قبل مبعثه عليه الصلاة والسلام في جاهلية جهلاء، وضلالة عمياء، وعصبيات باطلة ما أنزل الله تبارك وتعالى بها من سلطان، فأبطل ذلك كله صلوات الله وسلامه وبركاته عليه ، وجاء بنور الإيمان وضيء الحق والهدى وصراط الله المستقيم ؛ صلوات الله وسلامه وبركاته عليه.

وهذه الترجمة عقدها الإمام شيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب رحمه الله تعالى للتحذير من دعوى الجاهلية، ومن ذلكم التعصبات العرقية، والتعاضد والتناصر بالقبائل، بقطع النظر عن المحق من المبطّل، وإنما كل قبيلة تنتصر لأفراد قبيلتها أيّا كان شأنه وأمره مُحَقّاً أو مُبْطِلاً ، وهذا من ضلالات أهل الجاهلية ، فجاء الإسلام بإبطال ذلك ، فليست القضية قضية تعصبات وتكتلات وحميات ما أنزل الله تبارك وتعالى بها من سلطان، وإنما الأمر عائد إلى النظر إلى المحق من المبطّل ، وفي الحديث: ((انْصُرْ أَخَاكَ ظَالِمًا أَوْ مَظْلُومًا)) ، ونصر الظالم بكفه عن الظلم ، أمّا الذي كان عليه أهل الجاهلية فإنهم ينصرون الظالم بإعانتة على الظلم، لا لشيء إلا لكونه منهم أو من قبيلتهم ، فهذا كله ما أنزل الله تبارك وتعالى به من سلطان، وهي دعوى باطلة جاء الإسلام بإبطالها.

قال: ((ولما قال المهاجري يا للمهاجرين، وقال الأنصاري: يا للأنصار)) ؛ هذه المقولة لها قصّة جاءت في صحيح مسلم؛ أنّ غلامين ، غلاماً من الأنصار وغلاماً من المهاجرين اقتتلا، ومعنى اقتتلا: أي تضاربا، نشبت بينهم مضاربة، خصومة، فقال المهاجري: «يا للمهاجرين»، وقال الأنصاري: «يا للأنصار» .

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ((أبدعوى الجاهلية وأنا بين أظهركم؟)) وغضب لذلك غضبا شديداً صلوات الله وسلامه عليه ؛ ((أبدعوى الجاهلية وأنا بين أظهركم)) ، «يا للمهاجرين» «يا للأنصار» هذه دعوى جاهلية، كل يدعو أهله وعشيرته وجماعته وقبيلته؛ لينتصروا له أيّا كان ؛ هذا باطل. والواجب الإنصاف والعدل، وإحقاق الحق، وإبطال الباطل، ولو كان الحق عليه وعلى قريبه فإنّ الواجب المصير إليه، ولو كان بخلاف ذلك فالواجب البعد عن الباطل والحذر منه.

فقله عليه الصلاة والسلام : ((أبدعوى الجاهلية؟)) الاستفهام هنا للإنكار والتشنيع والتحذير من ذلك. ((وأنا بين أظهركم)) أي: وأنا حي بينكم ؛ وهذا فيه التحذير من هذا الأمر، والتحذير من دعاوى الجاهلية، والتي منها التعصبات الباطلة التي ما أنزل الله تبارك وتعالى بها من سلطان.

قال رحمه الله تعالى :

باب النهي عن الشفاعة في الحدود

وقول الله تعالى: ﴿وَلَا تَأْخُذْكُمْ بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ [النور: ٢٠] .

١٢٠ - ولهما في حديث المخزومية: ((أتشفع في حد من حدود الله؟!)).

١٢١ - وفي الموطأ عن الزبير رضي الله عنه: ((إذا بلغت الحدود السلطان فلعن الله الشافع والمشفع)).

١٢٢ - وعن ابن عمر رضي الله عنهما فمرفوعاً: ((من حالت شفاعته دون حد من حدود الله فقد ضاد الله في أمره)).

قال: «باب النهي عن الشفاعة في الحدود» ؛ والمراد بالنهي عن الشفاعة في الحدود: أي إذا بلغ الأمر السلطان والحاكم، فإنه لا يجوز الشفاعة في ذلك، بل إن هذه الشفاعة تُعد من كبائر الذنوب ومن عظام الآثام. وسيأتي فيما ساقه رحمه الله تعالى من النصوص ما يدل على ذلك. فالشفاعة في الحدود إذا بلغت السلطان لا تجوز، بل لا بُدَّ أن تُنقذ وأن يُقام الحد، ولا يجوز أن يتوسَّط أحد أو يتدخل أحد بأن يطلب من السلطان ألا يقيم عليه الحد؛ لأن هذا سعي للحيلولة بين إقامة حد من حدود الله التي بها صلاح المجتمعات وذهاب الشرور والفساد عن الناس.

قال: وقول الله تعالى ﴿وَلَا تَأْخُذْكُمْ بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ [النور: ٢٠] ؛ وهذا فيه أن الحدود إذا بلغت الحاكم وبلغت السلطان تُنقذ، ولا تدخل الأمور العاطفية بحيث يُسقط بموجبها الحد ولا يُقام، فإن هذا لا يجوز، بل إن من مقتضيات الإيمان بالله واليوم الآخر أن تُقام الحدود، وألا تأخذ المسلم الرأفة بمن حصل منه ما يوجب إقامة الحد عليه.

قال: ولهما في حديث المخزومية ((أتشفع في حد من حدود الله؟)) ، والمخزومية: كانت تستعير الأشياء من الناس ثم تحدها، فأمر النبي صلى الله عليه وسلم أن تُقطع يدها، فاستعظمت قريش ذلك، وعملوا على السعي في ألا يُقام هذا الحد على هذه المرأة المخزومية؛ مراعاةً لمكانتها من حيث القبيلة وأنها من قريش، فعملوا على ألا يُقام هذا الحد وقالوا: من يكلم النبي صلى الله عليه وسلم؟ فاتفقوا أن يكلمه أسامة بن زيد، حب النبي صلى الله عليه وسلم وابن حبه، ففعل أسامة وكلم النبي عليه الصلاة والسلام فقال صلى الله عليه وسلم: ((أتشفع في حد من حدود الله؟)) ثم قام صلوات الله وسلامه عليه واختطب وقال: ((إِنَّمَا أَهْلَكَ الَّذِينَ قَبْلَكُمْ أَنَّهُمْ كَانُوا إِذَا سَرَقَ فِيهِمُ الشَّرِيفُ تَرَكُوهُ، وَإِذَا سَرَقَ فِيهِمُ الضَّعِيفُ أَقَامُوا عَلَيْهِ الْحَدَّ، وَإِيمُ اللَّهِ لَوْ أَنَّ فَاطِمَةَ بِنْتَ مُحَمَّدٍ سَرَقَتْ لَقَطَعْتُ

يَدَهَا)) ، وفاطمة في الشرف والمكانة والمنزلة أعظم من هذه المرأة المخزومية ، ويقول عليه الصلاة والسلام: ((لَوْ أَنَّ فَاطِمَةَ بِنْتَ مُحَمَّدٍ سَرَقَتْ لَقَطَعْتُ يَدَهَا))، فالحدود إذا بلغت السلطان وجب إقامتها وتنفيذها أيًا كان الفاعل، لا يُنظر فيها إلى شريفٍ أو وضيع ، أو شخص له مكانة أو ليس له مكانة، بل الواجب أن تُقام على الشخص أيًا كان.

قال رحمه الله تعالى: وفي الموطأ عن الزبير رضي الله عنه ((إذا بلغت الحدود السلطان فلعن الله الشافع والمشفّع))

الشافع : هو من يتوسّط لدى السلطان في ألا يُقيم الحدّ.
والمشفّع : هو من يقبل الشفاعة في عدم إقامة الحدود إذا بلغت السلطان.
واللّعن هنا يدلّ على أنّ هذه الشفاعة من الكبائر ، وكذلك قبول هذه الشفاعة يُعدّ من الكبائر . فالشفاعة لا يجوز أن تُفعل، وقبولها أيضًا لا يجوز، ولعن الشافع والمشفّع دليلٌ على أنّ هذا الأمر من كبائر الذنوب؛ لأنّ اللّعن: طردٌ وإبعادٌ من رحمة الله تبارك وتعالى، ولا يكون إلّا فيما هو كبير.

قال: ((إذا بلغت الحدود السلطان)) ؛ أمّا قبل بلوغها للسلطان كأن يُستتاب المرء ويُعمل على مناصحته وزجره وتخفيفه ويُعفى عنه هذا يمكن، لكن إذا بلغ الحدّ السلطان وجب إقامته ولا يجوز لأحدٍ أن يتدخّل في إسقاط هذا الحدّ .

ومّا جاء في السُّنة في سنن أبي داود وإسناده صحيح في قصّة صفوان بن أميّة لما كان في المسجد نائمًا وجاء رجل وسرق رداءه، كان متوسّدًا رداءه فجاء رجل وسرق رداءه، فعرف صفوان من هو ذلك الرّجل فأخذه إلى النّبيّ عليه الصلاة والسلام ، فقرّره فأقرّ قال: ((أسرقت رداءه؟ قال: نعم ، فأمر النّبيّ صلى الله عليه وسلّم أن تُقطع يده)).
سرق رداءً من صفوان وكان نائمًا متوسّدًا لهذا الرّداء، فأقرّه فأقرّ بذلك قال: ((أسرقت؟)) قال: نعم، فأمر النّبيّ صلى الله عليه وسلّم أن تُقطع يده. لما أمر بذلك تدخّل صفوان صاحب الحقّ وقال: «هو هبة له، تصدّقتُ به عليه». قال له صلوات الله وسلامه عليه: ((فهل كان هذا قبل أن تأتيّني به؟))، بمعنى أنّ مثل هذه الأمور إذا بلغت السلطان يُقام الحدّ ولا تجوز الشفاعة ، قال: ((فهل هذا كان قبل أن تأتيّني به؟)).

قال: وعن ابن عمر رضي الله عنهما مرفوعًا : ((مَن حالت شفاعته دون حدٍّ من حدود الله، فقد ضادّ الله في أمره)) ؛ لماذا؟ لأنّ هذه الشفاعة التي حصلت منه حالت بين إقامة حدٍّ من حدود الله، وهذه مُضادّة لله تبارك وتعالى في أمره، لأنّ أمر الله سبحانه وتعالى يجب أن يُنفذ، ويجب أن يُقام بين النّاس، وإقامته إقامة للعدل، وإنصافٌ للمظلومين، وزجر للنّاس وردع لهم؛ لأنّ الحدود زواجر وجوابر ، فيها تكفير، وفيها زجر، وفيها ردع، وفيها إصلاح للمجتمعات، والتدخّل فيها والشفاعة هذا ممّا يزيد الشرّ، ويجرّي الظّلمة والمبطلين.

قال: ((مَنْ حَالَتْ شَفَاعَتُهُ دُونَ حَدٍّ مِنْ حُدُودِ اللَّهِ فَقَدْ ضَادَّ اللَّهَ فِي أَمْرِهِ)) ؛ والمراد بقوله «في أمره»: أي في شرعه سبحانه وتعالى.

قال رحمه الله تعالى :

بابٌ من أعان على خصومة في الباطل

وقول الله تعالى: ﴿وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ﴾ [المائدة: ٢] .

وقوله ﴿مَنْ يَشْفَعْ شَفَاعَةً حَسَنَةً يَكُنْ لَهُ نَصِيبٌ مِنْهَا وَمَنْ يَشْفَعْ شَفَاعَةً سَيِّئَةً يَكُنْ لَهُ كِھْلٌ مِنْهَا﴾ الآية

[النساء: ٨٥]

قال: «بابٌ من أعان على خصومة في الباطل» ؛ «الخصومة»: الجدل والمنازعة. «في الباطل»: أي بحيث يعلم أنه على باطل وأنه ليس صاحب حق، وأنَّ خصمه هو المحقّ، ثم يُخاصِم. فهذه خصومة في الباطل، يعني يعرف أنه على غير حقٍّ وأنَّ خصمه هو المحقّ ويخاصمه. فهذه تسمّى خصومة في الباطل. وسواءً كانت خصومته هذه في الباطل عن نفسه أو متوكِّلاً عن أحدٍ أو مُحامياً عن أحدٍ فإنَّ هذا من الذُّنوب العظيمة.

وأوردَ المصنّف قول الله عزَّ وجلَّ: ﴿وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ﴾ لأنَّ هذه الآية بعمومها فيها نهيٌّ عن الإعانة على الخصومة في الباطل؛ لأنَّها من التَّعاون على الإثم والعدوان، والله سبحانه وتعالى نهي عن ذلك.

وفي الآية الَّتِي تليها قال جلَّ وعلا: ﴿مَنْ يَشْفَعْ شَفَاعَةً حَسَنَةً يَكُنْ لَهُ نَصِيبٌ مِنْهَا﴾ [النساء: ٨٥]؛ يشفع في أمور الخير، في معاونة المحتاجين، في قضاء حوائج النَّاس، في نفعهم، في مصالحهم، في تحصيل حقوقهم، فمن كانت كذلك شفاعته فإنَّ له نصيباً منها، أي: له أجر وثواب، وفي الحديث: ((اشفعوا تُؤجروا))، فله أجر على هذه الشَّفاعَةِ الحسنة الَّتِي فيها عمل على معاونة النَّاس، وفيها تعاون على البرِّ والتَّقوى، وتحقيق مصالح النَّاس، فإنَّه يُؤجَر على ذلك.

قال: ﴿وَمَنْ يَشْفَعْ شَفَاعَةً سَيِّئَةً يَكُنْ لَهُ كِھْلٌ مِنْهَا﴾ [النساء: ٨٥]، أي: نصيبٌ وحظٌّ من الإثم والعقوبة. والشَّفاعَةُ السَّيِّئَةُ هي: الشَّفاعَةُ في أمرٍ محرَّم، الوساطة في أمرٍ محرَّم؛ ولها أمثلة كثيرة ، مثل: لو يشفع الإنسان عند آخر في معاونته على حرام، معاونته على إثم، أو يبيعه أمراً محرَّم ، لو أنَّ شخصاً يطلب شفاعَةً عند آخر في أن يُنكِحَه ابنته، وهو يعلم أنَّها مخطوبة، ويطلب من آخر أن يشفع له عند والدها أن يُلغِي مثلاً تلك الخطوبة ويزوجها إياها. هذا له صور كثيرة. الشَّفاعَةُ السَّيِّئَةُ هي: الشَّفاعَةُ الَّتِي تكون في أمرٍ محرَّم، أو تكون هي بنفسها شفاعَةُ محرَّمة.

قال رحمه الله تعالى :

١٢٣ - عن ابن عمر رضي الله عنهما مرفوعاً: ((من حالت شفاعته دون حدٍّ من حدود الله فقد ضاد الله في أمره ، ومن خاصم في باطل وهو يعلم أنه باطل لم يزل في سخط الله حتى ينزع ، ومن قال في مؤمن ما ليس فيه أسكنه الله ردغة الخبال حتى يخرج مما قال)). وفي رواية: ((ومن أعان على خصومة بظلم، فقد باء بغضب من الله)) رواه أبو داود بسند صحيح.

قال: عن ابن عمر رضي الله عنهما مرفوعاً: ((مَن حالت شفاعته دون حدٍّ من حدود الله فقد ضادَّ الله في أمره)) وهذا الجزء من الحديث تقدَّم في التَّرجمة السَّابقة.

قال: ((وَمَن خاصم في باطل وهو يعلم أنه باطل لم يزل في سخط الله حتَّى ينزع عنه)) وهذا هو موضع الشَّاهد من هذا الحديث للتَّرجمة. والمراد بالمخاصمة في الباطل: أي أن يدخل في خصومة وجدل ونزاع وهو يعلم أنه على باطل وأنَّ خصمه هو المحقُّ. فَمَن خاصم في باطل وهو يعلم أنه باطل لم يزل في سخط الله حتَّى ينزع عنه. أي: حتى يترك هذه الخصومة ويترك الحقَّ لأهله، وإلَّا فإنَّه لم يزل في سخط الله. وقوله: ((لم يزل في سخط الله)) دليلٌ على أنَّ هذا الأمر من الكبائر؛ لأنَّ ذكر السَّخط أو ذكر الغضب - كما في الرِّواية الأخرى الَّتِي أشار إليها المصنِّف - قال: ((وَمَن أعان على خصومةٍ بظلمٍ فقد باء بغضبٍ من الله))، فالسَّخط والغضب ونحو ذلك إمَّا يُذكر فيما هو كبيرٌ.

قال: ((وَمَن قال في مؤمنٍ ما ليس فيه حُبسٍ في رَدْغَةِ الخبال)) ؛ وهذا القدر من الحديث تقدَّم معنا في ترجمةٍ سابقة، وعرفنا أن «ردغة الخبال» هي عُصارة أهل النَّار، كما جاء تبيان ذلك عن النَّبيِّ الكريم صلوات الله وسلامه عليه.

أين تقدَّم هذا القدر من الحديث ((مَن قال في مؤمنٍ ما ليس فيه حُبسٍ في رَدْغَةِ الخبال)) في أيِّ باب؟ تقدَّم في «باب ما جاء في البهتان».

قال رحمه الله تعالى :

بابٌ من شهد أمراً فليتكلم بخير أو ليسكت

١٢٤ - عن أبي هريرة رضي الله عنه مرفوعاً: ((من كان يؤمن بالله واليوم الآخر، فإذا شهد أمراً فليتكلم بخير أو ليسكت)) رواه مسلم.

قال: «بَابُ مَنْ شَهِدَ أَمْرًا فَلْيَتَكَلَّمْ بِخَيْرٍ أَوْ لَيْسَكَتْ» ؛ مَنْ شَهِدَ أَمْرًا: أي حضره ، وأمرًا: أي أمرٍ من الأمور في مجلسٍ من المجالس ؛ فالواجب عليه أن يصون لسانه وأن يحفظ منطقه، فلا يتكلم إلا بخير، قال: ((فليتكلم بخير أو ليسكت)).

قال: عن أبي هريرة رضي الله عنه مرفوعًا: ((مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ، فَإِذَا شَهِدَ أَمْرًا فَلْيَتَكَلَّمْ بِخَيْرٍ أَوْ لَيْسَكَتْ)) ؛ وهذا فيه أنَّ من مقتضيات وموجبات الإيمان بالله ربًّا خالقًا معبودًا لا معبود بحقٍ سواه، واليوم الآخر دارًا للجزاء والعقوبة، والوقوف بين يدي الله ﴿لِيَجْزِيَ الَّذِينَ أَسَاءُوا بِمَا عَمِلُوا وَيَجْزِيَ الَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْحُسْنَى﴾ [النجم: ٣١] ، من موجبات هذا الإيمان أن يصون الإنسان لسانه وأن يحفظ منطقه، فإذا تكلم لا يتكلم إلا بخير.

قال : ((فليتكلم بخير أو ليسكت)) وهذا فيه دعوة إلى التفقه في الكلام كيف هو قبل أن يتكلم به، وأنَّ الواجب على المسلم أن يتفقه وأن يتأمل في كلامه قبل أن يتكلم، ومن يتأمل في كلامه قبل أن يتكلم يجد أنَّ الكلام على ثلاثة أقسام:

١. قسمٌ يتبين للمرء بالتأمل أنَّه حرام وأنه لا يجوز ؛ فهذا الواجب السكوت وعدم التكلُّم به.
٢. وقسمٌ يتبين أنَّه حلال ومباح وأنه خير ؛ فهذا له أن يتكلم به.
٣. وقسمٌ يشتهه عليه، يريد أن يتكلم لكن لا يدري هل هو خير أو شرّ، هل هو ضررٌ أو نفع ؛ وهذا يُطَبَّق عليه قول النَّبِيِّ عليه الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: ((فَمَنْ اتَّقَى الشُّبُهَاتِ فَقَدْ اسْتَبْرَأَ لِدِينِهِ وَعِرْضِهِ)) ؛ فالواجب أنَّه يتوقَّف حتى يستبين له، وإلاَّ لا يتكلم بأمرٍ محتمل أنَّه فيه شرٌّ أو فيه ضررٌ أو فيه فساد، قال: ((مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَإِذَا شَهِدَ أَمْرًا فَلْيَتَكَلَّمْ بِخَيْرٍ أَوْ لَيْسَكَتْ)).

قال رحمه الله تعالى :

بَابُ مَا يُخَذَّرُ مِنَ الْكَلَامِ فِي الْفِتَنِ

١٢٥ - عن ابن عمرو رضي الله عنهما مرفوعًا: ((ستكون فتنةٌ تستنظف العرب قتلاها في النار، اللسان فيها أشد من وقع السيف)) رواه أبو داود.

١٢٦ - وله عن أبي هريرة رضي الله عنه مرفوعًا: ((ستكون فتنةٌ بكماء عمية، من أشرف لها استشرفت له، وإشراف اللسان فيها كوقوع السيف)).

١٢٧ - ولابن ماجه عن ابن عمر رضي الله عنهما مرفوعًا: ((إياكم والفتن فإن اللسان فيها كوقع السيف)).

قال: «بَابُ مَا يُحَذَّرُ مِنَ الْكَلَامِ فِي الْفِتَنِ» ؛ والفتن جاء وصفها في بعض الأحاديث، ومنها ما ساقه رحمه الله أنَّها «عمياء بكماء صمَّاء» ، ومعنى ذلك : أنَّ أمور الخير من الشرِّ فيها لا تستبين للإنسان، وإذا كان المرء يتكلَّم ويخوض في الفتن بلسانه وكلَّ ما ورد على ذهنه تكلَّم به ولا يُبالي فإنَّ هذا غاية في الخطورة، ولا يستهين المرء بأمر اللِّسان في الفتن؛ لأنَّ وقع اللِّسان أشدَّ من وقع السِّيف، وقع اللِّسان أشدَّ من وقع السِّنان، لأنَّه يترتَّب عليه أمور وأمر خطيرة جدًّا، وكم من المهالك ترتبت على كلمة باللسان! من دماء أُريقَت، وشُرور حصلت، وعداوات، ولهذا يجب على الإنسان أن يحذر من الكلام في الفتن، وألَّا يستشرف للفتن بأن يبرز لها ويتصدَّر ويخوض في غمارها، بل يتعوَّذ بالله تبارك وتعالى من الفتن ما ظهر منها وما بطن، ولا يتكلَّم إلَّا بالكلام القليل المحدود الذي يتيقَّن من فائدته وسلامته من الشرِّ ، أمَّا أن يكون هكذا مهذارًا يتكلَّم كلَّ ما يرد ولا يبالي فهذا من أخطر ما يكون.

والمصيبة العظيمة أنَّ كثير من النَّاس إذا جاءت الفتن انشغلوا بالهَرَج والمَرَج والقليل والقال حتى عن الفرائض، يعني: بعضهم ينشغل بالهَرَج ويترك الصَّلَاة المكتوبة، يُنادى للصَّلَاة وهو منشغل في الفتنة وغمرة الفتنة بالقليل والقال والخوض في الكلام بالباطل، وهذا من المصائب ، والفتن أخطرة ومُهْلِكَة، وإذا استشرف لها الإنسان أهلكته. وأوَّل ما تقع الفتنة هذا وصفها صمَّاء عمياء بكماء، وإذا ولَّت وأدبرت عرفها النَّاس، لكن أوَّل وقوع الفتنة لا يميِّزها إلَّا العلماء الذين قد أنار الله بصائرهم بالحقِّ والهدى ، وأمَّا أكثر النَّاس لا يستبين لهم الأمر، فإذا خاض المرء في هذه الأمور وهي غير مستبينة ولا متضحة «عمياء بكماء صمَّاء» ماذا ستكون نتيجة هذا الخوض؟! ولهذا يجب على الإنسان أن يصون لسانه.

علي بن أبي طالب -وخبره وأثره في الأدب المفرد للبخاري- قال رضي الله عنه: «إنَّ من ورائكم فتنًا» وصفها بأنَّها فتن عظيمة وشديدة، قال: «فلا تكونوا مذاييع بُذُرًا»، مذاييع: أي نقلة للكلام وتخوضون في الكلام، وينقل الإنسان كلَّ ما يسمع وكلَّ ما يأتيه من أخبار ينقلها دون تمحيص ودون تحقُّق ودون تأكُّد، «لا تكونوا مذاييع بُذُرًا»: أي بذرة للفتن والشُّرور؛ لأنَّ الكلام هو الذي يبذر الفتن، هو الذي يُذكي الفتن. فالواجب على الإنسان أن يحذر من الكلام في الفتن، بل يتعوَّذ بالله من الفتن ما ظهر منها وما بطن، ويحذر من الكلام في الفتن؛ لأنَّ وقع الكلام أشدَّ من وقع السِّيف. لا يقول هذا مجرَّد كلام أقوله، لا! الكلمة خطيرة جدًّا، وكم من كلمة ترتَّب عليها من الشُّرور ما لا حدَّ له ولا عدَّ.

قال رحمه الله تعالى: عن ابن عمرو -عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما- مرفوعاً: ((ستكون فتنة تستنظف العرب قتلاها في النار)) ؛ تستنظف العرب: أي تشملهم وتستوعبهم من شدتها وسعة انتشارها بين الناس.

((قتلاها في النار)) قوله «قتلاها في النار» لأن خوض هؤلاء في القتال وإراقة الدماء خوض بالباطل، يقتل الشخص ولا يدري فيما قتله، في غمرة الفتنة، والشخص يُقتل ولا يدري فيم قُتل، فتن، يعني: يقتل بسيفه، وأما الآن يوجد قاذفات تُطلق وتُرمى في الفتنة وتقتل المئات، بما فيهم الأطفال والشيوخ والرُضع! والنبي صلى الله عليه وسلم في قتال الكفار والمشركين نهي عن قتل النساء ونهي عن قتل الولدان الصغار نهي عن قتل الشيوخ، وهذه القذائف تقتل المئات وفيهم الشيوخ وفيهم الأطفال وفيهم الرُضع!

يقول: ((قتلاها في النار)) ؛ لأن القاتل يقتل من هو معصوم الدم حرام الدم، يقتل بغير حق لا شيء إلا للفتنة التي دهمته ودخل في غمارها. ولهذا كان بعض السلف في قتال الفتنة يدعونه للقتال يقول: «لا أقاتل معكم حتى تأتوني بسيف له عينان ولسان، ويميز بين الكافر والمسلم، وإذا رفعته قال: لا، هذا مسلم لا تقتله، وهذا كافر اقتله»، أعطوني سيفاً بهذه الصفة، أما أن أرفع السيف وأقتل، وربما أقتل مسلمين، أقتل دماء معصومة، ((إن دماءكم وأموالكم حرام عليكم)) ، يقول: أعطوني السيف بهذه الصفة.

قال: ((اللسان فيها أشد من وقع السيف)) أحياناً كلمة من بعض المتفنيين في إثارة الفتنة يُثير أمة من العامة والغوغاء والجُهاال، وتنشأ فتنة من كلمة من شخص واحد أو شخصين أو ثلاثة، الكلمة وقّعها أشد من وقع السيف.

قال: وله -أي أبو داود- عن أبي هريرة رضي الله عنه مرفوعاً: ((ستكون فتنة صماء بكماء عمياء)) انظر هذه الصفات للفتنة: صماء، بكماء، عمياء. فمثل هذه التي هذا وصفها لا تُميز، ولا يُعرف المحق من المبطّل، الهدى من الضلال إلا من أنار الله بصيرته، أما من يدخل غمار الفتنة ويستشرف لها لا يتميز عنده شيء؛ لأنها صماء بكماء عمياء، فمن يخوضها يكون هذا حاله لا يمكن أن يتميز.

((من أشرف لها استشرفت له، وإشراف اللسان فيها كوقع السيف)) ؛ أشرف لها: برز ، تصدّر للفتنة.

أشرفت له: أي أتنه الفتنة وغمرته وأصبح من أهلها فهلك؛ هلك في نفسه، وأهلك أيضاً غيره.

والشاهد منه كالذي قبله قوله: ((وإشراف اللسان فيها كوقع السيف)).

قال: ولا بن ماجه عن ابن عمر رضي الله عنهما مرفوعاً: ((إياكم والفتن)) أي: احذروها، واحذروا من الاستشراف لها، وتعوذوا بالله تبارك وتعالى منها، وفي الحديث: ((تعوذوا بالله من الفتنة ما ظهر منها وما بطن)).

قال: ((فإنَّ اللِّسانَ فيها كوفِعَ السِّيفُ)) ؛ وكنت قديمًا كتبت كلامًا في خطورة الاستشراف للفتن نستمع إلى قدر يسير من ذلك الكلام.

«ثبت في الصَّحيحين من حديث أبي هريرة رضي الله عنه أنَّ النَّبيَّ صَلَّى الله عليه وسلَّم قال: ((ستكون فتنة القاعدُ فيها خيرٌ من القائم، والقائم فيها خيرٌ من الماشي، والماشي فيها خيرٌ من السَّاعي، ومَن يُشْرِف لها تستشرفه -أي: تُهلكه- ومَن وجد ملجأً أو معاذًا فليعذ به))، وقوله عليه الصَّلَاة والسَّلَام: ((مَن وجد ملجأً أو معاذًا فليعذ به)) يوضِّحه زيادةً ثبتت في الحديث نفسه في صحيح مسلم أنَّ النَّبيَّ صَلَّى الله عليه وسلَّم قال: ((ألا فإذا نزلت أو وقعت الفتنة، فمَن كان له إبلٌ فليلحق بإبله، ومَن كانت له غنمٌ فليلحق بغنمه، ومَن كانت له أرضٌ فليلحق بأرضه)). قال رجلٌ: «يا رسول الله، أرايت مَن لم يكن له إبلٌ ولا غنمٌ ولا أرضٌ؟! قال: ((يَعْمِدُ إلى سيفه فيدقُّ على حدِّه بحجر، ثمَّ لينجُ إن استطاع النِّجاة. اللهم هل بلغت؟ اللهم هل بلغت؟ اللهم هل بلغت؟)) كَرَّرَهَا ثلاثًا صلوات الله وسلامه عليه. وقد ثبت عنه صلى الله عليه وسلم في التَّحذير من الخَوْضِ في الفتن والدُّخُولِ في غمارها أحاديثٌ عديدة، يوصي فيها عليه الصَّلَاة والسَّلَام أن يكون العبادُ أخلَّاس البيوت، وأن يكون عبد الله المقتول وليس القاتل، وأن يكون خير ابني آدم في أحاديث عديدة عن رسول الله صَلَّى الله عليه وسلَّم يحذِّر فيها أُمَّته من الاستشراف للفتن والبروز لها، والخَوْضِ في غمارها؛ لأنَّها هَلَكَةٌ وضرر على العبد في دنياه وأُخراه، ولا يَحْمَدُ صاحبها العاقبة، بل يجني على نفسه وعلى غيره. والأحاديث الواردة في هذا الباب لا يوفِّق للعمل بها، والاعتصام بما دلَّت عليه إلَّا مَن شرح الله صدره للحقِّ والهدى، وبسَّر الله سبيله للزوم هدي النَّبيِّ الكريم عليه الصَّلَاة والسَّلَام. أمَّا مَن أُشْرِبَ قلبه الفتنة فإنَّه -يا عباد الله- لا يُقيم لهذه الأحاديث وزنًا، ولا يرفع لها رأسًا، ولا يرى لها قيمة». مَن يستشرف للفتن، تُقرأ عليه الأحاديث الصَّريحة الواضحة البينة فلا يُبالى ولا يقيم لها وزنًا. واستمعوا لهذه القصَّة العجيبة:

«روى الإمام أحمد في مسنده بإسنادٍ صحيح إلى حُمَيْدِ ابن هلالٍ رحمه الله أنَّه روى عن رجلٍ كان من الخوارج، ثمَّ تاب، وترك طريقتهم، قال ذلك الرَّجل: دخلوا -أي: الخوارج- قرية» هذا خارجي يروي عن جماعته ورفقته من الخوارج وقد تاب وترك طريقتهم يروي خبرًا من أخبار هؤلاء.

«دخلوا -أي: الخوارج- قرية، فخرج عبد الله بن خَبَّابٍ دَعِرٌ يَجُرُّ رداءه، فقالوا: لم تُرْعَ» عبد الله بن خَبَّابٍ والده خَبَّاب الصَّحَابي الجليل رضي الله عنه.

«قالوا: لم تُرْعَ، أي: ليس هناك ما يُخيف، أو يبعث إلى الخوف والقلق، قال: "والله لقد رُعْتُموني". قالوا: "أنت عبد الله بن خَبَّابٍ صاحبُ رسول الله صَلَّى الله عليه وسلَّم؟" قال: "نعم". قالوا: "فهل سمعتَ من أبيك حديثًا يحدِّثه عن رسول الله صَلَّى الله عليه وسلَّم تحدِّثناه؟" قال: نعم، سمعته يحدِّث عن رسول الله صَلَّى

الله عليه وسلم أنه ذكر فتنة القاعد فيها خير من القائم، والقائم فيها خير من الماشي، والماشي فيها خير من الساعي. قال: فإن أدركت ذاك فكن عبد الله المقتول ولا تكن عبد الله القاتل. قالوا: أنت سمعت هذا من أبيك يحدثه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم؟ قال: نعم». سمعوا الآن الحديث وتأكدوا، قالوا: أنت بنفسك سمعت من أبيك يحدث عن رسول الله؟ وفهموا الحديث. انظر ماذا صنعوا بعد ذلك؟

«قال: فقدّموه على ضفة النهر فضربوا عنقه، فسال دمه». قتلوه، ولم يكتفوا بذلك، ماذا فعلوا بعده؟ «ابن صحابيٍّ ويحدثهم عن رسول الله صلى الله عليه وسلم فلم يقيموا وزناً لحديث رسول الله عليه الصلاة والسلام!! بل لم يكتفوا بذلك، فذهبوا إلى بيته وبقروا بطن أمّ ولده». قتلوه، وذهبوا إلى بيته وبقروا بطن أمّ ولده. فالذي يدخل في الفتنة وغمرة الفتنة يصبح أعمى أبكم أصمّ، وتُقرأ عليه الآيات والأحاديث والنصوص، كل ذلك لا يبالي ولا يلتفت إليه؛ لأنّ الفتنة غمرت قلبه، ولا يبالي بما يريه من دماء ولا ما يزهقه من أرواح ولا ما يتعدّى عليه من ممتلكات، كلّ ذلك لا يبالي بأيّ شيء من ذلك، حتى والآيات والأحاديث تُقرأ عليه في نفس الوقت بياشر هذا العدوان والإجرام، والعياذ بالله.

«وهكذا عندما يُشرب القلب بالفتنة ويستشرف لها، تُتلى على الإنسان آيات الله ووحيه وتنزيله وتُتلى عليه أحاديث رسول الله صلى الله عليه وسلم فلا يبالي، ولا يرفع بحديث الرسول عليه الصلاة والسلام رأساً. ولهذا صحّ في الحديث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال: ((تعوّذوا بالله من الفتن ما ظهر منها وما بطن))، وجاء في أحاديث ما يدلّ على أنّ الفتن إذا برزت وظهرت يلتبس أمرها على كثير من الناس، ولهذا يُقال: «فتنة عمياء»، ويُقال: «فتنة صمّاء»؛ لأنّ أكثر الناس يعمى عليهم أمرها، ولا يستبين لهم شأنها، فيخوضون في غمار الفتن، ثم لا يحمدون العاقبة ويندمون فيما بعد أشدّ الندم. ولهذا كان الأئمة رحمهم الله من سلف الأمة يحذرون العباد من الفتن ويدعون الناس إلى التأمّل في عواقب الأمور، انظروا في عاقبة أمركم، اصبروا، لا تريقوا دماءكم ولا دماء المسلمين، إلى غير ذلك من الوصايا الماثورة، والحكم المشهورة، والكلمات العظيمة الماثورة عن السلف الصالح رحمهم الله».

قال رحمه الله تعالى :

باب قول: هلك الناس

١٢٨ - عن أبي هريرة رضي الله عنه مرفوعاً: ((إذا قال الرجل هلك الناس، فهو أهلكهم)) رواه مسلم.

قال: «باب قول: هلك الناس» أي: ما بقي في الناس خير، وفسد الزمان، وفسد أهل الزمان، ولم يبق للخير أهل، فهذا الكلام جاء النّهي عنه، وفي الغالب أنّ مثل هذا الكلام ينشأ عن عجب من القائل بنفسه وحاله،

وتزكية لنفسه وذمّ للآخرين، لكن الخير الباقي في الأمة ، وفي الحديث: ((لا تزال طائفة من أمّتي على الحقّ منصورّة، لا يضُرُّهم مَنْ خذَلهم))، ولا يزال يغرس الله عزّ وجلّ لهذا الدّين غرسًا يستعملهم سبحانه وتعالى في طاعته، كما جاء بذلك الحديث عن الرّسول الكريم صلوات الله وسلامه وبركاته عليه.

أورد المصنّف رحمه الله تعالى حديث أبي هريرة رضي الله عنه مرفوعًا ((إذا قال الرّجل: هلك النّاس، فهو أهلكهم))

«إذا قال هلك النّاس» ليس المراد تحديدًا هذه العبارة، بل أيضًا العبارات والألفاظ التي تؤدّي إلى معناها تأخذ حكمها، ولهذا يقول ابن القيم رحمه الله : «وفي معنى هذا: فسد النّاس، وفسد الزّمان، ونحو ذلك»، فالألفاظ التي تؤدّي إلى هذا المعنى يتناولها هذا الحديث.

قال: ((إذا قال الرّجل: هلك النّاس فهو أهلكهم)) رواه مسلم ؛ قوله: ((فهو أهلكهم)) رُوي على وجهين: برفع الكاف وبفتحها «أهلكهم» و«أهلكهم» ، والرفع أشهر، ومعناه بالرفع «أهلكهم»: أي أشدّهم هلاكًا. ومعناها بالفتح «فهو أهلكهم»: أي جعلهم هالكين وهم ليسوا كذلك، الخير لا يزال . «فهو أهلكهم» أي: جعلهم هالكين، والأمر ليس كذلك، بل لا يزال في النّاس خير، وفي حملة الحقّ وأهله بقايا لا يزال، فقوله: «فهو أهلكهم» أي: جعل النّاس هالكين ، والحقّ والواقع على خلاف ذلك.

والواجب على الإنسان أن يعمل على إصلاح المجتمعات لا أن يقنط النّاس ويؤيِّس النّاس، وأنه انتهى الخير، وما بقي خير، والنّاس هلكت، هذا ممّا يترتّب عليه من الضّرر أنّه يقنط النّاس ويؤيِّسهم من الرّحمة والخير، وأنه ما بقي أحد في الخير ، فيبقى أهل الشّرّ على شرورهم ، لكن الواجب على الإنسان أن يعمل على استصلاح النّاس والنّهوض بهم ودعوتهم إلى الحقّ والهدى، وإذا وجد أناسًا عندهم من الخير شجّعهم على المزيد منه، ومن عنده شرّ ينهاه ويحذّره منه، وتقدّم معنا قول الله سبحانه وتعالى: ﴿وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ﴾ [المائدة: ٢] .

سبحانك اللهم وبحمدك ، أشهد أن لا إله إلا أنت ، أستغفرك وأتوب إليك .

اللهم صلّ وسلّم على عبدك ورسولك نبينا محمد وآله وصحبه أجمعين.



شرح كتاب الكبائر

لشيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب رحمه الله

من الدرس ١٩ إلى الدرس ٢٢

شرح الشيخ عبد الرزاق بن عبد المحسن البدر حفظهما الله تعالى

١٤٤١/٠١/١١ هـ

الدرس التاسع عشر

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله ربّ العالمين، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله صلى الله وسلم عليه وعلى آله وأصحابه أجمعين . أمّا بعد:

قال شيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب رحمه الله تعالى في كتاب الكبائر :

بابُ الفخر

وقول الله تعالى: ﴿قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ﴾ الآية [الأعراف: ١٢] .

قال المصنّف الإمام شيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب رحمه الله تعالى في كتابه الكبائر: «بابُ الفخر» ؛ هذه الترجمة عقدها رحمه الله تعالى لبيان ذمّ الفخر ، والفخر : هو تعالي الإنسان على الآخرين واستطالته بنفسه عليهم زهواً وإعجاباً وغروراً ، بأن يرى نفسه أَمَيَزَ من الآخرين وأفضل منهم وأنه خيرٌ منهم، ويتعالى عليهم بذلك، وكلُّ مَنْ كان من أهل هذا الوصف ففيه شبهة من إبليس؛ ولهذا صدر رحمه الله تعالى هذه الترجمة بقول الله تعالى: ﴿قَالَ﴾ أي: إبليس ﴿أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ﴾ أي: آدم ؛ وهذا نوعٌ من الفخر اتّصف به إبليس عدوّ الله وعدو المؤمنين، ولهذا كلُّ مَنْ كان من أهل هذا الوصف ففيه شبهة من عدوّ الله.

قال رحمه الله تعالى :

١٢٩ - وعن عياض بن حمار رضي الله عنه مرفوعاً: ((إن الله تعالى أوحى إليّ أن تواضعوا حتى لا يفخر أحد على أحد ولا يبغى أحد على أحد)) رواه مسلم.

قال: عن عياض بن حمار رضي الله عنه مرفوعاً: ((إنَّ الله تعالى أوحى إليّ أن تواضعوا)) أي: أن تحلّوا بهذه الصِّفة، صفة التَّواضع، وهي من أوصاف أهل الإيمان، ((وَمَا تَوَاضَعَ أَحَدٌ لِلَّهِ إِلَّا رَفَعَهُ اللَّهُ)) كما صحَّ بذلك الحديث عن رسول الله صلوات الله وسلامه عليه. والتَّواضع رفعةٌ للمرء وعلوٌ ، وضدّه -وهو التَّكَبُّر والفخر والحِيَلَاء- نقصٌ وضعة.

وهذا الحديث فيه أنَّ الله سبحانه وتعالى أوحى إلى نبيِّه عليه الصَّلَاةُ والسَّلَامُ أن تواضعوا، وكان صلوات الله وسلامه عليه إمام المتواضعين وقدوتهم في كمال خُلُقهِ وجمال معاملته، وطيب آدابه صلوات الله وسلامه عليه وحُسن معاشرته.

وقوله: ((حتى لا يفخر أحدٌ على أحد، ولا يبغي أحدٌ على أحد)) هذان وصفان مُضادَّان للتَّواضع، مُبَيِّنَان للتَّواضع، لا يجتمعان معه ؛ الفخر والخِيلاء. قال: ((حتى لا يفخر أحدٌ على أحد، ولا يبغي أحدٌ على أحد)) فهما وصفان مُضادَّان للتَّواضع مُبَيِّنَان له.

وهذا فيه تحذير من نوعي الاستطالة على عباد الله ؛ لأنَّ التَّواضع تركٌ للاستطالة على عباد الله، المتواضع متطامن، لا يرفع نفسه أو يتعالى على الآخرين بل هو متطامن متواضع، ليس فيه استطالة على الآخرين. ولما أُمِرَ عليه الصَّلَاةُ والسَّلَامُ بالتَّواضع نُهي عن هاتين الحصلتين المضادَّتين له، وجماعهما الاستطالة على عباد الله.

وهذا يفيد أنَّ الاستطالة على عباد الله نوعان: استطالةٌ بالفخر ، واستطالةٌ بالبغي ؛ ولهذا قال: ((تواضعوا حتى لا يفخر أحدٌ على أحد، ولا يبغي أحدٌ على أحد)). فإذا الفخر استطالة، والبغي استطالة، وهما متنافيان مع التَّواضع، والمسلم مطلوب منه أن يكون متواضعًا مُجَانِبًا للفخر ومُجَانِبًا للبغي ، وكلٌّ من الفخر والبغي استطالة؛ وذلك لأنَّ المستطيل على الآخرين إن كانت استطالته بحقّ - أي: بأوصافٍ موجودةٍ فيه - كأن يقول مثلاً لغيره: أنا أكثر أولادًا منك، أنا أكثر تجارةً منك، أنا عندي الحقائق والبساتين والسيَّارات و... إلخ وهي عنده فعلاً وهو أكثر، فهذا يسمَّى فخر . الاستطالة إذا كانت بحقّ - أي بأوصافٍ هي موجودة في الشَّخص - فهذا يسمَّى فخر ، وإن كانت استطالة بغير حقّ - يمدح نفسه عند الآخرين بأوصافٍ ليست فيه، أنا أفضل منكم بكذا، وهو ليس مُتَّصِفٌ بتلك الصِّفات - فهذا يُسمَّى بغيًا . ولهذا فالفخر والبغي كلُّ منهما استطالةٌ على الآخرين ، وهما ينافيان التَّواضع ؛ فإن كان استطال على الآخرين بحقّ فهذا فخر، وإن كان استطال عليهم بغير حقّ فهذا بغي.

فجمع هذا الحديث العظيم الحثَّ على التَّواضع، والنَّهي عمَّا يضادُّه من نوعي الاستطالة على الآخرين، وذلك أنَّ المستطيل على الآخرين إن استطال بحقّ فهذا فخر، وإن استطال بغير حقّ فهذا بغي، والشرع جاء بالنَّهي عن هذا وعن هذا.

قال رحمه الله تعالى :

١٣٠ - وله عن أبي مالك الأشعري رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ((أربعٌ في أمي من أمر الجاهلية لا يتركونهن: الفخر بالأحساب، والطعن في الأنساب، والاستسقاء بالنجوم، والنياحة على الميت)). وقال: ((النائحة إذا لم تتب قبل موتها تقام يوم القيامة وعليها سربال من قطران ودرع من جرب)).

قال رحمه الله تعالى: وله أي مسلم رحمه الله عن أبي مالك الأشعري رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ((أربع في أمتي من أمر الجاهلية لا يتركوهن)) ؛ هذا إخبار منه صلوات الله وسلامه عليه بأمرٍ قدّر الله سبحانه وتعالى وقوعه وقدّر جلّ وعلا وجوده، وأنّ هذه الخصال الأربع من أمر الجاهلية لا يتركها كثير من الناس، ولا تزال باقية في كثير منهم. أخبر بهذا الأمر الكوني القَدري مُحَدِّراً عليه الصَّلَاةُ والسَّلَام ، وأن يدفع المرء عن نفسه أقدار الله بأقدار الله، فيسأل الله أن يعيده من هذه الأوصاف، ويجاهد نفسه على البُعد عنها، وعدم الوقوع فيها، فهي من خصال الجاهلية وأوصاف أهل الجاهلية يحذّر منها صلوات الله وسلامه عليه ويخبر أنّها لا يزال وسيبقى لها وجود بين الناس ، يقول ذلك مُحَدِّراً، مثل قوله في الحديث: ((لَتَتَّبِعَنَّ سَنَنْ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ شَبْرًا بِشَبْرٍ وَذِرَاعًا بِذِرَاعٍ، حَتَّى لَوْ دَخَلُوا جُحْرَ ضَبٍّ لَدَخَلْتُمُوهُ))، يخبر عن حال واقعة على وجه التحذير ، وأنّ الواجب على المرء أن يحذر أشدّ الحذر من هذه الخصال التي أخبر النبي صلى الله عليه وسلم أنّها باقية في الأمة وبقية في الناس.

قال: ((أربع في أمتي)) ؛ والمراد بالأمة هنا: أمة الإجابة.

● لأن الأمة تُطْلَق ويراد بها: أمة الدعوة؛ وهم مَنْ بُعِثَ فيهم صلوات الله وسلامه عليه .

● وأمة الإجابة؛ وهم مَنْ استجابوا له عليه الصَّلَاةُ والسَّلَام.

فقوله هنا: ((في أمتي)) أي أمة الإجابة.

((من أمر الجاهلية))؛ الجاهلية: ما قبل الإسلام وقبل مبعث النبي عليه الصَّلَاةُ والسَّلَام حيث كان الناس في جاهلية جهلاء وضلالة عمياء، اجتمعت فيهم أنواع الجهالات والضلالات.

((لا يتركوهن)) هذا فيه بقاء هذه الأوصاف في الأمة ، وأخبر بذلك عليه الصَّلَاةُ والسَّلَام تحذيراً وإنذاراً.

بدأ هذه الأوصاف بقوله: ((الفخر بالأحساب)) وهي الصِّفة التي لها تعلق بهذه التَّرجمة. والفخر بالأحساب: هو الاستطالة على الناس والتَّعَاضُم عليهم بذكر الآباء ومآثر الآباء، ويمتدح نفسه "أنا والدي الذي كذا، وأنا والدي الذي فعل، وأنا أجدادي الذين فعلوا.. وأنا كذا" إلخ من الكلمات التي هي استطالة على الناس وتعاضم عليهم وترفع عليهم، وأنا أرفع منكم، وأعظم منكم، وأعلى منكم؛ لأنّ أبي، ولأنّ جدّي.. إلخ، فهذا يُقال له: الفخر بالأحساب، وهو من الجاهلية ومن أعمال أهل الجاهلية ومن خصالهم.

((والطعن في الأنساب)) أي الوقوع في أنساب الآخرين انتقاصاً وازدراءً وتحقيراً.

((والاستسقاء بالنجوم)) أي: نسبة السُّقيا والمطر ونزول الغيث إلى الأنواء والنجوم، كما كانوا يقولون: "مُطِرْنَا بنوء كذا وكذا"، وأهل الإيمان يقولون: "مُطِرْنَا بفضل الله ورحمته"، فالاستسقاء بالنجوم: أي نسبة الغيث ونزوله إلى النجوم وإلى الأنواء هذا أيضاً من أعمال أهل الجاهلية. والمؤمن إذا نزل الغيث حمد الله سبحانه وتعالى وشكره على منّه وفضله وقال: "مُطِرْنَا بفضل الله ورحمته" ؛ اعترافاً لله عزّ وجلّ بالمرنّ والفضل . وليست الأنواء هي سبب

نزول الغيث، وإنما سبب نزول الغيث فضل الله ورحمة الله ولجوء أهل الإيمان إلى الله استغاثَةً وطلبًا وإلحاحًا على الله سبحانه وتعالى.

وقد شُرعت صلاة الاستسقاء لطلب الغيث والإلحاح على الله سبحانه وتعالى بالدُّعاء ، وشُرِع الاستغفار والإكثار فيها من الاستغفار لذلك، وقد قال الله تعالى: ﴿فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا (١٠) يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا﴾ [نوح: ١٠-١١] ، ولهذا يُؤثر عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أَنَّهُ صَلَّى بِالنَّاسِ الاستسقاء ولم يزد في خطبته على الاستغفار، ف قيل له في ذلك، فقال: «لقد سألتُ الله بمجاديع السَّماء الَّتِي يُسْتَنْزَلُ بِهَا الْمَطَرُ» ، وهذه الكلمة قالها ردًّا على أهل الجاهليَّة في استسقائهم بالأَنْواء، لأنَّ المجاديع: جمع مَجْدَح، وهو نوع من الأنواء أو النُّجوم، فقال: «سألتُ الله بمجاديع السَّماء»، هم كانوا يقولون: "مُطِرُنَا بِمَجْدَح كَذَا" أي: نوء كذا ونجم كذا، فقال: «سألتُ الله بمجاديع السَّماء» أي الاستغفار. مثل ذلك: صنع أبي هريرة رضي الله عنه كان إذا أصبح صبيحة ليلة ممطرة قال: «مُطِرُنَا بنوء الفتح»؛ ردًّا على أهل الجاهليَّة، إشارةً إلى قول الله: ﴿مَا يَفْتَحُ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِنْ رَحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا﴾ [فاطر: ٢] أي: أَنَّ هذه رحمة الله. فأهل الجاهليَّة كانوا يستسقون بالأَنْواء فينسبون إليها نزول الغيث ونزول الأمطار، وهذا كفر بنعمة الله سبحانه وتعالى.

قال: ((وَالنِّيَاحَةُ عَلَى الْمَيِّتِ)) ؛ وَالنِّيَاحَةُ: هي النَّدْب؛ ندب المَيِّت بذكر مآثره وخصاله، وهي نوع من التَّسْحُط والاعتراض على قدر الله وعدم الرِّضا بما قَدَّر سبحانه وتعالى ، وهي أيضًا من الجاهليَّة؛ لأنَّ هذا المَيِّت مات بأجله الذي قضاه الله وقَدَّره، لا يستأخر عنه ساعة ولا يستقدم، فكان من طريقة أهل الجاهليَّة إذا مات مَيِّتُهم أخذوا في النِّيَاحَةِ عليه.

قال: ((وَالنَّائِحَةُ)) ؛ خَصَّ النَّائِحَةُ فِي الذِّكْرِ لَا لَكُونَ الْحَكْم مُخْتَصًّا بِهَا، وَإِنَّمَا لَكُونَ هَذَا الْأَمْرُ يَكْثُرُ فِي النِّسَاءِ؛ لَكَثْرَةِ جَزَعِ النِّسَاءِ وَقَلَّةِ صَبْرِهِنَّ، وَلِهَذَا خَصَّهِنَّ بِالذِّكْرِ، وَإِلَّا فَإِنَّ الْحَكْمَ يَتَنَاوَلُ الرِّجَالُ.

قال: ((وَالنَّائِحَةُ إِذَا لَمْ تَتُبْ قَبْلَ مَوْتِهَا)) وهذا فيه أَنَّ التَّوْبَةَ تَجِبُ مَا قَبْلَهَا، وَأَنَّ مَنْ تَابَ تَابَ اللَّهُ عَلَيْهِ، ﴿قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾

[التَّوْبَةُ: ٥٣] .

قال: ((وَالنَّائِحَةُ إِذَا لَمْ تَتُبْ قَبْلَ مَوْتِهَا تُقَامُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَعَلَيْهَا سَرِبَالٌ مِنْ قَطْرَانٍ)) ؛ السَّرِبَالُ: هو اللَّبَاسُ، عَلَيْهَا سَرِبَالٌ : أي لباس قميص أو نحوه من قطران ، والقَطْرَانُ: هو النَّحَاسُ المَذَابُ.

((وَدِرْعٌ مِنْ جَرَبٍ)) أَيْضًا لِبَاسٍ يَغْطِي الْبَدَنَ مِنْ جَرَبٍ، وَالْجَرَبُ آفَةٌ وَمَرَضٌ يَضُرُّ الْبَدَنَ وَيُؤْذِيهِ أَذًى عَظِيمًا، فَتُقَامُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَى هَذِهِ الصِّفَةِ؛ عَقُوبَةً لَهَا. وَلَمَّا حَلَّتْ بِهَا الْمَصِيبَةُ لَمْ تَغْطِ هَذِهِ الْمَصِيبَةُ بِالتَّحَلِّيِّ بِالصَّبْرِ الَّذِي أَوْجَبَهُ اللَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى فُغْطِيَتْ بِهَذَا اللَّبَاسِ ؛ سَرِبَالٍ مِنْ قَطْرَانٍ، وَدِرْعٌ مِنْ جَرَبٍ.

قال رحمه الله تعالى :

١٣١ - وروى الترمذي وحسنه: ((لِيَنْتَهِيَنَّ أَقْوَامٌ يَفْتَخِرُونَ بِآبَائِهِمُ الَّذِينَ مَاتُوا، وَإِنَّمَا هُمْ فَحْمُ جَهَنَّمَ ، أَوْ لِيَكُونَنَّ أَهْوَنُ عَلَى اللَّهِ مِنَ الْجِعْلَانِ، إِنَّ اللَّهَ أَذْهَبَ عَنْكُمْ عُيْبَةَ الْجَاهِلِيَّةِ وَفَخَرَهَا بِالْآبَاءِ ، إِنَّمَا هُوَ مُؤْمِنٌ تَقِيٌّ أَوْ فَاجِرٌ شَقِيٌّ، النَّاسُ مِنْ آدَمَ وَآدَمُ خُلِقَ مِنْ تَرَابٍ)). عُيْبَةٌ بِتَشْدِيدِ الْبَاءِ وَكُسْرُهَا: الْفَخْرُ وَالْكِبَرُ.

قال رحمه الله تعالى: وروى الترمذي وحسنه: ((لِيَنْتَهِيَنَّ أَقْوَامٌ يَفْتَخِرُونَ بِآبَائِهِمُ الَّذِينَ مَاتُوا)) أي ماتوا على الكفر، بدلالة قوله: ((إِنَّمَا هُمْ فَحْمُ جَهَنَّمَ)) أي: آباء هؤلاء إنما هم فَحْمُ جَهَنَّمَ.

قال: ((لِيَنْتَهِيَنَّ أَقْوَامٌ يَفْتَخِرُونَ بِآبَائِهِمُ الَّذِينَ مَاتُوا)) ؛ «لِيَنْتَهِيَنَّ» هذا تحذير منه عليه الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ مِنْ ذَلِكَ، وَأَمْرٌ بِالْكَفِّ عَنْهُ وَتَحْذِيرٌ مِنْهُ ((لِيَنْتَهِيَنَّ أَقْوَامٌ يَفْتَخِرُونَ بِآبَائِهِمُ الَّذِينَ مَاتُوا، إِنَّمَا هُمْ فَحْمُ جَهَنَّمَ)).

((أَوْ)) معطوف على قوله «لِيَنْتَهِيَنَّ» ((لِيَكُونَنَّ أَهْوَنُ عَلَى اللَّهِ مِنَ الْجِعْلَانِ)) ؛ وَالْجِعْلَانُ يُقَالُ لَهُ: «الْجُعْلُ» دُويَّةٌ صَغِيرَةٌ سَوْدَاءُ اللَّوْنِ تُشَبِّهُ الْخَنَفْسَاءَ وَلَيْسَتْ هِيَ الْخَنَفْسَاءُ، وَهَذِهِ الدَّابَّةُ مِنْ حَقَارَتِهَا وَخِسَّتِهَا أَنَّهَا تُدْهِدُهُ الْخِرَّةُ بِأَنْفِهَا ، تَأْتِي إِلَى الْخِرَّةِ - أَكْرَمَ اللَّهُ الْجَمِيعَ - وَتَجْمَعُهُ وَتَجْعَلُهُ عَلَى شَكْلِ كُرَةٍ ثُمَّ تَدْحِرْجُهُ أَمَامَهَا، وَرَائِحَةُ الْخِرَّةِ تَسْتَطِيبُهَا، وَيُذَكَّرُ عَنْ هَذِهِ الدُّويَّةِ أَنَّهَا إِذَا شَمَّتْ رَائِحَةَ الْعَطْرِ مَاتَتْ، وَإِذَا شَمَّتْ الْخِرَّةَ انْتَعَشَتْ، هَذَا مِنْ حَقَارَةِ هَذِهِ الدَّابَّةِ، وَلِهَذَا يُضْرَبُ بِهَا الْمَثَلُ بِالْحَقَارَةِ وَالْهَوَانِ وَالْخِسَّةِ، "كَالَّذِي يَدْهَدُهُ الْخِرَّةُ بِأَنْفِهِ" أي: الْجِعْلَانُ أَوْ الْجُعْلُ.

وَالْجِعْلَانُ هَذَا يَوْجَدُ فِي الْبَرَارِيِّ، وَمِنْ شِدَّةِ تَعَلُّقِهِ بِرَائِحَةِ الْخِرَّةِ يُذَكَّرُ عَنْهُ أَيْضًا فِي كِتَابِ الْحَيَوَانِ : أَنَّهُ إِذَا رَأَى إِنْسَانًا تَبِعَهُ، فَإِذَا بَاتَ أَخَذَ يَرْصُدُهُ يَنْتَظِرُ مَتَى يَقُومُ لِيَقْضِيَ حَاجَتَهُ، فَإِذَا قَضَى حَاجَتَهُ وَمَضَى أَتَى إِلَى الْخِرَّةِ الَّذِي هُوَ بَغِيَّتُهُ، وَلِهَذَا يُضْرَبُ بِهِ الْمَثَلُ فِي الْخِسَّةِ وَالْحَقَارَةِ وَالْهَوَانِ؛ قَالَ: ((لِيَكُونَنَّ أَهْوَنُ عَلَى اللَّهِ مِنَ الْجِعْلَانِ)) أي هذه الدَّابَّةُ الْحَقِيرَةُ الَّتِي بِهَذِهِ الْحَقَارَةِ يَكُونُ هَؤُلَاءِ أَهْوَنَ عَلَى اللَّهِ مِنَ الْجِعْلَانِ، هَذَا مِمَّا يَبَيِّنُ شَنَاعَةَ هَذَا الْأَمْرِ.

((إِنَّ اللَّهَ أَذْهَبَ عَنْكُمْ)) أي أُمَّةُ الْإِسْلَامِ ((عُيْبَةَ الْجَاهِلِيَّةِ)) ؛ وَالْعُيْبَةُ هِيَ: الْفَخْرُ، افْتِخَارُ أَهْلِ الْجَاهِلِيَّةِ بِآبَائِهِمْ وَمَآثِرِ الْآبَاءِ وَمَا إِلَى ذَلِكَ، ((أَذْهَبَ اللَّهُ عَنْكُمْ عُيْبَةَ الْجَاهِلِيَّةِ وَفَخَرَهَا بِالْآبَاءِ)) ؛ هَذَا كُلُّهُ أَذْهَبَهُ اللَّهُ بِالْإِسْلَامِ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتَقَاكُمْ

إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَيْرٌ ﴿الحجرات: ١٣﴾ . فالإسلام أذهب عن النَّاسِ عُيْبَةً أَهْلِ الْجَاهِلِيَّةِ؛ فخرهم بآبائهم وأحسابهم، أذهب الله ذلك، وجاء الإسلام بأنَّ الأكرم هو الأتقى، أيًّا كان نسبه. فالأكرم عند الله هو الأتقى لله سبحانه وتعالى.

قال: ((أذهب عنكم عُيْبَةَ الْجَاهِلِيَّةِ وفخرها بالآباء، إِنَّمَا هو مُؤْمِنٌ تَقِيٌّ أو فَاجِرٌ شَقِيٌّ ، النَّاسُ مِنْ آدَمَ، وَآدَمَ خُلِقَ مِنْ تَرَابٍ)) ؛ وهؤلاء إمَّا مؤمن تقي أيًّا كان نسبه، وفاجر شقي أيًّا كان نسبه، حتى لو لم يكن نسبه من الأنساب الشريفة من الأنساب العالية، فالناس مؤمن تقي، أو فاجر شقي، وفي الحديث: ((مَنْ بَطَّأَ بِهِ عَمَلُهُ لَمْ يُسْرِعْ بِهِ نَسَبُهُ))، والله يقول: ﴿فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ فَلَا أَنْسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَسَاءَلُونَ﴾ (١٠١) فَمَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (١٠٢) وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ فِي جَهَنَّمَ خَالِدُونَ ﴿[المؤمنون: ١٠١-١٠٢]

قال رحمه الله تعالى :

باب الطعن في الأنساب

١٣٢ - عن أبي هريرة رضي الله عنه مرفوعاً: ((اثنتان في الناس هما بهم كفر: الطعن في الأنساب، والنياحة على الميت)).

قال رحمه الله تعالى: «بابُ الطَّعْنِ فِي الْأَنْسَابِ» أي: الوقعة في أنساب النَّاسِ ازدراءً وانتقاصاً واحتقاراً ؛ ولا يأتي هذا الطَّعْنُ إلَّا من إصابة هذا الطَّاعِنِ بنوع من الفخر والاستطالة على الآخرين ؛ ولهذا أتبع هذا الباب بالذي قبله، الأوَّلُ الفخر، وهذا الطَّعْنُ. فالطَّعْنُ إِنَّمَا يكون بوجود شيء من الفخر في هذا الطَّاعِنِ في الآخرين استطالةً عليهم وتعاضُّماً.

قال: عن أبي هريرة رضي الله عنه مرفوعاً: ((اثنتان في النَّاسِ هما بهم كفر)) ؛ «اثنتان»: أي وصفان وخصلتان وختلتان. «في النَّاسِ» أي: موجودة في النَّاسِ. وقوله هنا «في النَّاسِ» هو نظير قوله في الحديث المتقدِّم ((لا يتركوهن)) فهذا فيه إشارة إلى بقاء هاتين الخصلتين في النَّاسِ ، وهذه الإشارة إلى البقاء تتضمن التحذير من هاتين الخصلتين.

((هما بهم كفر)) وهذا كفر دون الكفر الأكبر النَّاقِلُ مِنَ الْمِلَّةِ. أي أنَّ هاتين الخصلتين من خصال الكفر، ومن أعمال أهل الجاهليَّةِ، وليست من أعمال أهل الإيمان.

((الطَّعْنُ فِي الْأَنْسَابِ)) ؛ وهذا موضع الشاهد للترجمة ، أي: الوقعة فيها انتقاصاً واحتقاراً وازدراءً.

((وَالنِّبَاحَةُ عَلَى الْمَيِّتِ)) بِاللَّدْبِ وَالْبِكَاءِ وَالْعَدِّ لِمَا ثَرِ الْمَيِّتِ تَسْحُطًا وَجَزَعًا وَعَدَمَ رَضًا بِمَا قَضَاهُ اللَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى وَقَدَّرَهُ.

قال رحمه الله تعالى :

بَابٌ مِنْ ادَّعَى نَسَبًا لَيْسَ لَهُ

١٣٣ - ولهما عن سعد رضي الله عنه مرفوعًا: ((مَنْ ادَّعَى إِلَى غَيْرِ أَبِيهِ وَهُوَ يَعْلَمُ أَنَّهُ غَيْرُ أَبِيهِ فَالْجَنَّةُ عَلَيْهِ حَرَامٌ)).

١٣٤ - ولهما عن أبي هريرة رضي الله عنه مرفوعًا: ((لَا تَرْغَبُوا عَنْ آبَائِكُمْ، فَمَنْ رَغِبَ عَنْ أَبِيهِ فَهُوَ كَافِرٌ)).

١٣٥ - ولهما عن علي رضي الله عنه مرفوعًا: ((مَنْ ادَّعَى إِلَى غَيْرِ أَبِيهِ أَوْ انْتَمَى إِلَى غَيْرِ مَوَالِيهِ فَعَلَيْهِ لَعْنَةُ اللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ لَا يَقْبَلُ اللَّهُ مِنْهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ صَرْفًا وَلَا عَدْلًا)).

قال رحمه الله تعالى: «بَابٌ مَنْ ادَّعَى نَسَبًا لَيْسَ لَهُ» أي: انتسب إلى غير أبيه ، وكان هذا الانتساب منه إلى غير أبيه عن علمٍ منه بذلك، متعمدًا نقل انتسابه من أبيه إلى غير أبيه ؛ فهذا فيه وعيدٌ شديدٌ جاءت به النصوص دالةً على أن هذا الأمر من عظام الذنوب وكبائر الآثام ؛ لما يترتب عليه من شرور عظيمة وفسادٍ عريض. قال: عن سعد رضي الله عنه مرفوعًا ((مَنْ ادَّعَى إِلَى غَيْرِ أَبِيهِ وَهُوَ يَعْلَمُ أَنَّهُ غَيْرُ أَبِيهِ فَالْجَنَّةُ عَلَيْهِ حَرَامٌ)) ؛ ادَّعَى إِلَى غَيْرِ أَبِيهِ: انتسب إلى غير أبيه بقوله "أنا فلان ابن فلان" ويكون فلانٌ هذا ليس والده، وهو يعلم أنه ليس والده.

قال: ((فَالْجَنَّةُ عَلَيْهِ حَرَامٌ))؛ لكذبه، وتنصُّله من نسبه، ولما يترتب على ذلك من مفسادٍ عظيمة، ومن ذلك ما يكون من اختلاط في الأنساب، ومحاذير تتعلق بالمحرمية، ونحو ذلك.

قال: ((مَنْ ادَّعَى إِلَى غَيْرِ أَبِيهِ وَهُوَ يَعْلَمُ أَنَّهُ غَيْرُ أَبِيهِ فَالْجَنَّةُ عَلَيْهِ حَرَامٌ)) ؛ وهذا وعيد، وحكمه حكم نصوص الوعيد الواردة في هذا الباب، وهذه عقوبته عند الله سبحانه وتعالى ((فَالْجَنَّةُ عَلَيْهِ حَرَامٌ)) ، وهذا التهديد بذلك دالٌّ على أن هذا الأمر من الكبائر، لا يُقال: الجنة عليه حرام، أو هو من أهل النار، أو يُذكر سخط الله سبحانه وتعالى أو نحو ذلك إلا فيما هو من الكبائر.

قال: وعن أبي هريرة رضي الله عنه مرفوعًا: ((لَا تَرْغَبُوا عَنْ آبَائِكُمْ)) أي: لا تتركوا الانتساب إلى آبائكم بالانتساب إلى غيرهم.

((لا ترغبوا عن آبائكم، فَمَنْ رَغِبَ عَنْ أَبِيهِ فَهُوَ كَفَرٌ)) أي: أَنَّ هذه الرَّغْبَةَ عن غير الأبِّ إلى نسبةٍ أخرى هذا من خصال الكفر وأعمال أهل الكفر ، وهذا أيضًا كسابقه من نصوص الوعيد والتَّهْدِيدِ، وبيان أَنَّ هذا الأمر من عَظَائِمِ الذُّنُوبِ وكَبَائِرِ الآثَامِ.

ثمَّ أورد حديث علي - وجميع أحاديث هذا الباب في الصَّحِيحَيْنِ - مرفوعًا: ((مَنْ ادَّعَى إِلَى غَيْرِ أَبِيهِ، أَوْ انْتَمَى إِلَى غَيْرِ مَوَالِيهِ فَعَلِيهِ لَعْنَةُ اللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ، لَا يَقْبَلُ اللَّهُ مِنْهُ صَرْفًا وَلَا عَدْلًا)) ؛ وهذا أيضًا دالٌّ على أَنَّ هذا العمل من كبائر الذُّنُوبِ ؛ لِأَنَّ اللَّعْنََةَ لَا تَكُونُ إِلَّا فِي ذَلِكَ، قال: ((عليه لعنة الله والملائكة والنَّاسِ أَجْمَعِينَ، لَا يَقْبَلُ اللَّهُ مِنْهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ صَرْفًا وَلَا عَدْلًا)).

وقوله: ((مَنْ ادَّعَى إِلَى غَيْرِ أَبِيهِ)) أي: بالانتساب، بأن ينتسب إلى غير والده.

((أَوْ انْتَمَى إِلَى غَيْرِ مَوَالِيهِ)) والمراد بالولاء هنا: ولاء العتق. وقد جاء في الحديث عن النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ((الْوَلَاءُ لِحُمَةِ كُلِّ حِمَّةٍ النَّسَبِ لَا تَبَاعُ وَلَا تُوهَبُ))، مثل ما أَنَّ نسب الإنسان لا يجوز له أن يغيِّره أو أن يهبه أو أن ينقل نسبه إلى الآخرين، فالولاء أيضًا -الذي هو ولاء العتق- حُمَةٌ مثل حُمَةِ النَّسَبِ . ولهذا مَنْ انْتَمَى إِلَى غَيْرِ مَوَالِيهِ قال: "أنا مولى بني فلان" وهو كاذبٌ في هذه النِّسْبَةِ فله هذا الوعيد؛ لِأَنَّ الْوَلَاءَ لِحُمَةِ كُلِّ حِمَّةٍ النَّسَبِ.

نسأل الله الكريم أن ينفعنا أجمعين بما علَّمنا وأن يزيدنا علمًا، وأن يُصْلِحَ لنا شأننا كُلَّهُ، وأن يغفر لنا ولوالدينا وللمسلمين والمسلمات والمؤمنين والمؤمنات الأحياء منهم والأموات. اللهمَّ أصلِحْ لنا ديننا الَّذِي هو عِصْمَةُ أَمْرِنَا، وأصلِحْ لنا دنيانا الَّتِي فِيهَا مَعَاشِنَا، وأصلِحْ لنا آخِرَتَنَا الَّتِي فِيهَا مَعَادُنَا ، واجعل الحياةَ زِيَادَةً لَنَا فِي كُلِّ خَيْرٍ، والموتَ رَاحَةً لَنَا مِنْ كُلِّ شَرٍّ. اللهمَّ اغفر لنا وللمسلمين والمسلمات والمؤمنين والمؤمنات الأحياء منهم والأموات. اللهمَّ اقسِمْ لنا مِنْ خَشْيَتِكَ مَا يَحُولُ بَيْنَنَا وَبَيْنَ مَعَاصِيكَ، وَمِنْ طَاعَتِكَ مَا تُبَلِّغُنَا بِهِ جَنَّتِكَ، وَمِنْ الْيَقِينِ مَا تَهْوُونَ بِهِ عَلَيْنَا مِصَابَ الدُّنْيَا، اللَّهُمَّ مَتِّعْنَا بِأَسْمَاعِنَا وَأَبْصَارِنَا وَقُوَّتِنَا مَا أَحْيَيْتَنَا، واجعله الوارثَ مِنَّا، واجعل ثَأْرَنَا عَلَى مَنْ ظَلَمْنَا، وانصرنا على مَنْ عَادَانَا، وَلَا تَجْعَلْ مَصِيبَتَنَا فِي دِينِنَا، وَلَا تَجْعَلِ الدُّنْيَا أَكْبَرَ هَمِّنَا وَلَا مَبْلَغَ عِلْمِنَا، وَلَا تَسْلِطْ عَلَيْنَا مَنْ لَا يَرْحَمُنَا.

سبحانك اللهم وبحمدك ، أشهد أن لا إله إلا أنت ، أستغفرك وأتوب إليك .

اللهم صلِّ وسلِّم على عبدك ورسولك نبينا محمد وآله وصحبه أجمعين.

الدرس العشرون

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله ربّ العالمين، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله ؛ صلى الله وسلم عليه وعلى آله وأصحابه أجمعين. أمّا بعد:

قال شيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب رحمه الله تعالى في كتاب الكبائر :

بابٌ من تبرأ من نسبه

١٣٦ - عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده مرفوعاً: ((كَفَر مَنْ تَبَرَأَ مِنْ نَسَبِهِ وَإِنْ دَقَّ، أَوْ ادَّعَى نَسَبًا لَا يُعْرَفُ)).

١٣٧ - وللطبراني معناه من حديث أبي بكر الصديق رضي الله عنه.

١٣٨ - ولأبي داود وابن حبان عن أبي هريرة رضي الله عنه مرفوعاً: ((أَيُّمَا امْرَأَةٍ أَدْخَلْتَ عَلَى قَوْمٍ مِنْ لَيْسَ مِنْهُمْ فَلَيْسَتْ مِنَ اللَّهِ فِي شَيْءٍ وَلَنْ يُدْخِلَهَا جَنَّتَهُ، وَأَيُّمَا وَالِدٍ جَحَدَ وَلَدَهُ وَهُوَ يَنْظُرُ إِلَيْهِ احْتَجَبَ اللَّهُ عَنْهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَفَضَحَهُ عَلَى رُؤُوسِ الْخَلَائِقِ مِنَ الْأُولَى وَالْآخِرِينَ)).

قال رحمه الله تعالى: «بابٌ مَنْ تَبَرَأَ مِنْ نَسَبِهِ» ؛ أي أنّ هذا من الكبائر ، من كبائر الذُّنُوبِ وعظائم الآثام التَّبرُّؤُ من النَّسَبِ. والتَّبرُّؤُ من النَّسَبِ: أن يخرج الإنسان من نسبه -آبائه وأجداده- وينسب نفسه إمّا إلى أسماءٍ معروفة، أو لشيءٍ لا يُعرَفُ، مثل ما جاء قال: ((أَوْ ادَّعَى نَسَبًا لَا يُعْرَفُ)) ، فهذا من كبائر الذُّنُوبِ وعظائم الآثام. أورد حديث عمرو بن شُعَيْبٍ عن أبيه عن جدّه مرفوعاً: ((كَفَر مَنْ تَبَرَأَ مِنْ نَسَبِهِ وَإِنْ دَقَّ، أَوْ ادَّعَى)) أي لنفسه ((نَسَبًا لَا يُعْرَفُ)) ؛ كأن يُرَكِّبَ لنفسه نسبًا هكذا ينشئه، وغرضه من ذلك أن يتبرأ من نسبه، وهذا من عظائم الآثام

■ أَوَّلًا: من جهة أنّه كَذِبٌ على الله سبحانه وتعالى ؛ لأنّه خلقه الله عزَّ وجلَّ وأوجدّه فلان ابن فلان، فتبرأ من ذلك، وكذب على الله سبحانه وتعالى بأن نسب نفسه إلى غير نسبه الذي خلقه الله عليه وأوجدّه عليه سبحانه وتعالى.

■ إضافةً إلى ما يترتّب على ذلك من اختلاطٍ في الأنساب ووقوع في محاذير عظيمة تتعلّق بالمحارم، وما يترتّب على ذلك من أحكامٍ معروفة.

فالشاهد أنّ هذا من عظائم الذُّنُوبِ وكبائر الآثام.

وأورد رحمه الله تعالى حديث أبي هريرة رضي الله عنه مرفوعاً: ((أَيُّمَا امْرَأَةٍ أَدْخَلْتَ عَلَى قَوْمٍ مِّن لَّيْسَ مِنْهُمْ فَلَيْسَتْ مِنَ اللَّهِ فِي شَيْءٍ وَلَنْ يُدْخِلَهَا الْجَنَّةَ)) وهذا أيضاً من عظام الذُّنُوب وكبائر الآثام.

ومعنى ((أَدْخَلْتَ عَلَى قَوْمٍ مِّن لَّيْسَ مِنْهُمْ)) أي: بأن تكون وقعت في فاحشة الزِّنا وحملت بهذا الوقوع في الفاحشة بماءٍ غير ماء زوجها وبعلمها فتُدْخِل على زوجها وأهله وقومه مِّن لَّيْسَ مِنْهُمْ. وفي هذا من الوعيد ما رأينا .

قال: ((فَلَيْسَتْ مِنَ اللَّهِ فِي شَيْءٍ، وَلَنْ يُدْخِلَهَا الْجَنَّةَ)) ولا يُقال في مثل ذلك إلا ما هو في عظام الذُّنُوب وكبائر الآثام.

((وَأَيُّمَا وَالِدٌ جَحَدَ وَلَدَهُ وَهُوَ يَنْظُرُ إِلَيْهِ احْتَجَبَ اللَّهُ عَنْهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَفَضَحَهُ عَلَى رُؤُوسِ الْخَلَائِقِ مِنَ الْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ)) ؛ قوله «وهو ينظر إليه» قيل: أي الوالد ينظر إلى ولده ويعرف أنه ولده ومتحقِّق أنه ولده ثم يتبرأ منه. وقيل: «ينظر إليه» أي الولد ينظر إلى والده نظرة احتياجٍ وحاجةٍ لرحمةِ الوالد وحنوِّه وإبقائه لهذا الولد فلا يبالي بذلك والده ويتبرأ منه ؛ فهذا من عظام الذُّنُوب.

قال رحمه الله تعالى :

بابٌ من ادَّعى ما ليس له ، ومن إذا خاصم فجر

١٣٩ - فيه حديث ابن عمر رضي الله عنهما في الصحيحين وروى عن ابن مسعود وعمر رضي الله عنهما: ((من قال أنا مؤمن فهو كافر، ومن قال هو في الجنة فهو في النار، ومن قال هو عالم فهو جاهل)). .
١٤٠ - ولهما عن أبي ذر رضي الله عنه مرفوعاً: ((ليس من رجل ادَّعى إلى غير أبيه وهو يعلمه إلا كفر، ومن ادَّعى ما ليس له فليس منا وليتَّبوا مقعده من النار، ومن رمى مسلماً بالكفر أو قال يا عدو الله وليس كذلك إلا حار عليه)).

قال رحمه الله تعالى: «بابٌ من ادَّعى ما ليس له ومن إذا خاصم فجر» ؛ من ادَّعى ما ليس له: أي ما ليس من وصفه، كأن يدَّعي لنفسه علماً وهو ليس بعالم، أو يدَّعي لنفسه إيماناً وهو ليس بمؤمن، أو يدَّعي لنفسه فضلاً وشرفاً وحُلُقاً وكرماً وهو ليس كذلك، متشبعاً بما لم يُعطَ، مُحبِّباً لأن يُحمَد بما ليس فيه، وأن يُثنى عليه بما ليس من أوصافه. وهذا من عظام الآثام؛ أن يتشبع الإنسان بما لم يُعطَ، وأن يحبَّ أن يُحمَد بما لم يفعل، ويدَّعي لنفسه من الأوصاف ما ليست فيه. قال: «بابٌ من ادَّعى ما ليس له» : ما ليس له من أوصافٍ أو أعمالٍ أو أخلاقٍ أو نحو ذلك.

«ومن إذا خاصم فجر» وهذا يظهر والله أعلم مترتب على ما قبله من ادِّعاء ما ليس له.

قال: فيه حديث ابن عمر رضي الله عنهما ورؤي عن ابن مسعود وعمر رضي الله عنهما ((مَنْ قَالَ أَنَا مُؤْمِنٌ فَهُوَ كَافِرٌ، وَمَنْ قَالَ هُوَ فِي الْجَنَّةِ فَهُوَ فِي النَّارِ، وَمَنْ قَالَ هُوَ عَالِمٌ فَهُوَ جَاهِلٌ)) وجميع هذه الأوصاف الثلاثة قال: «أنا مؤمن»، أو قال: «هو في الجنة»، أو قال: «هو عالم» كلها محمولة على ادعاء المرء لنفسه ذلك، تزكية لنفسه وطلباً لمحمد الناس وثنائهم دون عناية منه واهتمام بالعمل وتحقيق الإخلاص لله عز وجل والمتابعة للرسل الكريم صلوات الله وسلامه عليه، يدعي ذلك ادعاءً.

ومن المعلوم: أنَّ كلمة «مؤمن»، أو «أنا مؤمن» من أعظم ما يكون تزكيةً للنفس. ولهذا من لطائف ما ذكره العلماء رحمهم الله تعالى في كتب العقائد وأصول الإيمان، عن رجل من الأعراب قيل له: أَمُؤْمِنٌ أَنْتَ؟ قال: «أُزَكِّي نفسي؟!»، أدرك وهو أعرابي أنَّ هذه الكلمة من أعظم ما يكون تزكيةً للنفس؛ لأنَّ الإيمان يشمل الدين كله، ومن ذا الذي يزعم لنفسه أنه كَمَّلَ الدين وثَمَّه!! والإيمان النَّافع عند الله سبحانه وتعالى هو الإيمان المُتَقَبَّل الذي تقبله الله من العامل، ومن الذي يجزم أنَّ عمله مُتَقَبَّل؟! والله يقول عن المؤمنين الكُمل: ﴿وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوْا

وَقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَى رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ﴾ [المؤمنون: ٦٠] ، أي: قلوبهم خائفة من أن تُردَّ عليهم أعمالهم ولا تُقبل منهم طاعتهم، فلا يُزَكِّي المرء نفسه، قد قال الله سبحانه وتعالى: ﴿فَلَا تُزَكُّوا أَنْفُسَكُمْ هُوَ أَعْلَمُ بِمَا تَتَّقُونَ﴾ [الشجم: ٣٢] ، لكنَّ المؤمن يُجاهد نفسه على تحقيق التقوى وتكميل نفسه، ثم هو مع هذه المجاهدة والاجتهاد في تكميل نفسه لا يزال يحسُّ أنه مُقَصِّرٌ ومُقَرِّطٌ ، مثل ما قال الحسن البصري رحمه الله تعالى: «إِنَّ الْمُؤْمِنَ جَمْعٌ بَيْنَ إِحْسَانٍ وَمُخَافَةٍ، وَالْمُنَافِقَ جَمْعٌ بَيْنَ إِسَاءَةٍ وَأَمْنٍ»؛ المؤمن جمع بين إحسان ومخافة؛ إحسان في العمل ومخافة ألا يُقبلَ العمل أو أن يُردَّ على العامل، والمنافق يسيء في العمل، ويرى أنه محسن وأنَّ عمله من أحسن الأعمال.

ولهذا الواجب على المؤمن أن يتجنَّب تزكيته لنفسه، بل ينبغي أن يرى نفسه دائماً أنه لا يزال مقصِّراً ، إن كان الأمر في باب الإيمان يرى نفسه لا يزال مقصِّراً ، إن كان في باب العلم يرى نفسه لا يزال مقصِّراً وبحاجةٍ إلى مزيدٍ ومزيدٍ من التَّحْصِيل والتَّعْلُم، لا يزكي نفسه، لا يمدح نفسه. أمَّا أن يدعي لنفسه هذه الدَّعاوى فهذه ليست من علامات الخير، كأن يقول عن نفسه: "أنا من أولياء الله، وأنا من المتقين"، أو يقول: "أنا من أهل الجنة" أو نحو ذلك. هذه من العظائم ومن أخطر ما يكون؛ لأنَّ هذه تزكية للنفس وإعلاء من شأنها، وهو ناشئ عن غرور الإنسان وعُجْبه بنفسه واغتراره بقليلٍ من عمله، وفي النَّاس مَنْ هو أحسن منه عملاً ويكي من خشية الله سبحانه وتعالى، ولا يزال خائفاً أن تُردَّ عليه أعماله. ابن عمر رضي الله عنه الصَّحَابِيُّ الجليل يقول: «لو أعلم أنَّها تُقبِلَت مِنِّي سجدة واحدة لكان خيراً لي من الدنيا وما فيها»، وهكذا كان شأن أولياء الله الصَّادقين وحزب الله سبحانه وتعالى المُقَرَّبِينَ، بخلاف أهل الدَّعاوى.

وتعظمُ المصيبة عندما تكون الدَّعوى مقصودًا بها توريط النَّاسِ وأكل أموالهم بالباطل، كما هو حاصل عند أئمة الطُّرق الباطلة مَنْ يدَّعي أشياخهم وكبرائهم أنَّهم من الأولياء وأنَّهم كذا وأنَّهم كذا من الأوصاف، والمراد من ذلك أكل أموال هؤلاء الأتباع بالباطل، والتَّعالي على هؤلاء الأتباع، وتعظيم النَّفس بين هؤلاء الأتباع مع تضييع العمل، حتى إنَّ بعضهم لا يُعرَف بمحافظَةٍ على الصَّلَاة في الجماعة، ويُعرَف عنه تعاطي بعض الأمور المنكَرة المحرَّمة، ولا يزال بين أتباعه يدَّعي أنَّه من الأولياء ويدَّعي ويدَّعي من الدَّعاوى الفجَّة الباطلة، وهذا من أخطر ما يكون جنابةً على النَّفس وعلى الآخرين.

قال: ولهما عن أبي ذرٍّ مرفوعًا: ((ليس من رجلٍ ادَّعى إلى غير أبيه، وهو يعلمه إلا كُفْرًا)) ؛ وهذا مرَّ معنا. ((ومن ادَّعى ما ليس له فليس منّا ، وليتَّبوا مقعده من النَّار)) وأيضًا مرَّ معنا. ((ومن رمى مسلمًا بالكفر، أو قال: يا عدوَّ الله، وليس كذلك إلا حار عليه)) أي: إلا رجع عليه ما ادَّعاه في غيره إن لم يكن ذلك أهلاً لما قال.

قال رحمه الله تعالى :

بابُ الدَّعوى في العلم افتخارًا

١٤١ - عن عمر رضي الله عنه مرفوعًا: ((يظهر الإسلام حتى تختلف التجار في البحر، وحتى تخوض الخيل في سبيل الله. ثم يظهر أقوام يقرءون القرآن، يقولون: من أقرأ منّا؟ من أعلم منّا؟ من أفقه منّا؟ ثم قال: هل في أولئك من خير؟ قالوا: الله ورسوله أعلم، قال: أولئك منكم من هذه الأمة، وأولئك وقود النار)). رواه البزار بسند لا بأس به.

١٤٢ - وللطبراني معناه عن ابن عباس رضي الله عنهما. قال المنذري: إسناده حسن.

قال رحمه الله تعالى: «بابُ الدَّعوى في العلم افتخارًا» ؛ الدَّعوى في العلم: أي يدَّعي العلم لنفسه على وجه الافتخار والتَّعالي على النَّاسِ وأنَّه لا أفقه منه وأنَّه لا أعلم منه؛ افتخارًا وتعالى على عباد الله تبارك وتعالى. أمّا إذا ادَّعى العلم في موقفٍ ما؛ نصحًا للعباد وطلبًا لتعليمهم، كأن يعرض أمرًا من الأمور التي يحتاج فيها النَّاسُ إلى مَنْ يبيِّن لهم فيقول: أنا عندي علم في هذه المسألة، قرأت كذا، قرأت كذا، يريد أن يطمئنَّ النَّاسُ إلى ما سيبيِّنه لهم من علم فهذا لا بأس به، ومن ذلك قول يوسف عليه السَّلام: ﴿إِنِّي حَفِيزٌ عَلِيمٌ﴾ [يوسف: ٥٥]. لكن مَنْ يدَّعي العلم لنفسه على سبيل الافتخار، سواءً كان عنده علم أو ليس عنده علم ، يدَّعي ذلك لنفسه على سبيل الافتخار والتَّعالي على النَّاسِ فهذا من العظائم ، وفيه هذا الحديث.

حديث عمر رضي الله عنه مرفوعاً: ((يظهر الإسلام حتى تختلف التُّجَار في البحر، وحتى تخوض الخيل في سبيل الله)) يظهر الإسلام: أي ينتشر في الأرض وتمتد مساحته، ويكثر دخول الناس فيه، ويزداد عدد المناطق والبِقاع التي تدخل في الإسلام، ويكثر خروج المجاهدين والغزاة لإعلاء كلمة الله تبارك وتعالى ولتكون كلمة الله هي العليا. ((ثم يظهر أقوامٌ يقرؤون القرآن)) ؛ يقرؤون القرآن: أي يجيدون قراءته، يتقنون قراءته، يتقنون ضبط حروفه.

((يقولون: مَنْ أقرأ منّا؟)) على وجه الافتخار ((يقولون: مَنْ أقرأ منّا؟ مَنْ أعلم منّا؟ مَنْ أفقه منّا؟))، فيكون حظُّهم ونصيبهم من هذه القراءة ليس التَّقَرُّب إلى الله سبحانه وتعالى، لأنَّ حفظ القرآن والعناية به هذه من أعظم القُرب، فإذا كان الغرض من هذه القربة عند مَنْ قرأ القرآن الافتخار والتَّعالي لم تدخل في القُرب، ولم يكن فيها الإخلاص، فلم تكن من عمل الإنسان ، حتى لو حفظ القرآن كلَّه. وفي صحيح مسلم: أنَّ من الثلاثة الذين هم أوَّل مَنْ تُسَعَّر بهم النَّار يوم القيامة: ((رجلٌ حفظ القرآن لِيُقَالَ حافظ، وتعلَّم العلم لِيُقَالَ عالم، فَيُؤْخَذ به ويُلقَى في النار)) ، حفظ وتعلَّم. فهؤلاء يقرؤون القرآن، والمراد بـ «يقرؤون» أي يتقنون قراءته، ولكن غرضهم إظهار النَّفس، وإبراز النَّفس، والتَّعالي على الآخرين، والافتخار على عباد الله.

((يقولون: مَنْ أقرأ منّا؟ مَنْ أعلم منّا؟ مَنْ أفقه منّا؟)) والاستفهام هنا إنكاري، أي: لا أحد أفقه منّا، ولا أحد أعلم منّا، ولا أحد أفقه منّا، نحن الأفقه والأقرأ والأعلم، يقولون ذلك؛ افتخاراً وتعالىً على عباد الله.

ثمَّ قال عليه الصَّلَاة والسَّلَام: ((هل في أولئك من خير؟))، قالوا: «الله ورسوله أعلم» قال: ((أولئك منكم من هذه الأمة، وأولئك هم وقود النَّار)) ؛ لأنَّ القرآن لا يُحفظ من أجل التفاخر على الناس والتَّعالي، والعلم لا يُتعلَّم من أجل التفاخر على الناس والتَّعالي عليهم، وأن يقول القارئ: أنا الأقرأ وأنا الأعلم وأنا الأفقه ، وإنما يقرأ القرآن ليخضع لله وليذل بين يدي الله، وليحسن التقرب بتلاوة هذا القرآن والعمل به لله سبحانه وتعالى، فيكون من أهل هذا القرآن حقاً وصدقاً ، أما أن يقرأ القرآن ويجيد قراءته ليقال قارئ، أو ليقال عالم، أو ليقال حافظ، أو نحو ذلك، فهذا فيه هذا الوعيد.

قال: ((وأولئك هم وقود النَّار)) ؛ وهذا معناه أن بعض الناس يأتي يوم القيامة حافظاً للقرآن، متقناً في حفظه ويكون وقوداً للنَّار ويكون من أوَّل مَنْ تُسَعَّر به النَّار؛ لأنَّ هذا العمل العظيم لم يجعله الله، وإنما جعله للتَّفاخر على عباد الله والتَّعالي على النَّاس، ولأن يقول: أنا الكذا وأنا الكذا.. إلخ، فهذا من أخطر ما يكون على مَنْ فعل ذلك ، وأيضاً فيه بيان أهميَّة الإخلاص وأنَّه الأساس في قبول الأعمال، وأنَّ الله جلَّ في علاه لا يقبل من العمل مهما عَظُم ومهما علا شأنه إلَّا إذا أُخْلِصَ لله. انظر هنا: كم يحتاج حفظ القرآن وإتقان ضبطه من وقت؟! هذا عمل كبير جدًّا ويحتاج من صاحبه إلى وقت حتى يضبطه، ثمَّ يكون هذا الجهد الكبير لا يُقبَل منه، بل يكون من وقود النَّار، لا لشيء إلَّا لأنَّه لم يقصد بهذا العمل التَّقَرُّب إلى الله سبحانه وتعالى، وإنما قصد به المראה أو الشُّهرة أو

إبراز النَّفس، أو محمّدة النَّاس؛ لأن يقول: أنا قارئ، أنا حافظ، أنا متقن، إلى غير ذلك من الألقاب التي يطلبها لنفسه ويقصدها بحفظه.

وأيضًا تكون حال أمثال هؤلاء بعيدة عن العمل الذي هو مقصود القرآن، يقول الحسن البصري رحمه الله: «أُنزِلَ القرآن لِيُعْمَلَ به، فاتَّخَذَ النَّاسُ قراءته عملاً»، فيكون بعيد عن العمل، منشغل بغيره بنفسه وعُجِبَ بها عن العمل بالقرآن والتَّفَقُّه لأحكام القرآن والعمل بها، وهذا من أخطر ما يكون أيضًا على الإنسان. وقد جاء عن الحسن البصري رحمه الله تعالى يتحدث عن بعض القُرَّاء في زمانه، زمان التابعين ذلك الزمان الفاضل يتحدث عن بعض القُرَّاء في زمانه قال: «يقول أحدهم: قرأت القرآن كلّهُ، فلم أُسقط منه حرفًا»، يقول بعضهم على سبيل الافتخار وإظهار النَّفس: "قرأت القرآن كلّهُ ولم أُسقط منه حرفًا"، معنى «لم أُسقط منه حرفًا» أي: لم أقع في خطأ من إتقانه للحفظ، قال الحسن البصري: «وقد أُسقطه والله كلّهُ، لا يُرى عليه القرآن لا في حُلُق ولا في عمل»، إن نظر الإنسان في أخلاق القرآن وإذا بها ليست موجودةً فيه، وإذا نظر إلى أعمال القرآن وإذا بها ليست موجودةً فيه. قال رحمه الله تعالى: «فما هؤلاء بالقُرَّاء ولا العلماء ولا الورعة، إذا كانت القُرَّاء مثل هؤلاء لا كثر الله في النَّاس مثل هؤلاء».

فالشَّاهد أنَّ الأمر غاية في الخطورة؛ أن يكون حظ الإنسان من القرآن وحفظه وضبطه مجرد الدعوى والافتخار والعُجب بالنَّفس، وإظهار النَّفس على الآخرين والتَّعالي عليهم، وأنَّ هذا من عظام الذُّنوب.

قال رحمه الله تعالى :

باب ذكر جحود النعمة

١٤٣ - في الصحيح عن ابن عباس رضي الله عنهما مرفوعاً أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: ((دخلتُ النار فرأيت أكثر أهلها النساء، يكفرن))، قيل: «يكفرن بالله؟» قال: ((لا، يكفرن العشير، ويكفرن الإحسان، لو أحسنت إلى إحداهن الدهر ثم رأيت منك شيئاً قالت، ما رأيت منك خيراً قط)).

قال: «باب ذكر جحود النعمة» ؛ جحودها: أي إنكارها، وعدم الاعتراف بها، وعدم شكر المنعم. قال: في الصحيح عن ابن عباس مرفوعاً أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: ((دخلتُ النار فرأيت أكثر أهلها النساء))؛ لفظ البخاري: ((أريت النار))، ولفظ مسلم: ((أريت النار))، ولعلَّ هذا وقع تصحيحاً. ((أريت النار، فرأيت أكثر أهلها النساء؛ يكفرن)) هكذا قال عليه الصَّلَاة والسَّلَام: ((يكفرن))، قيل: يكفرن بالله؟

قال ((أريت أكثر أهلها النساء)) يعني أكثر أهل النار النساء، فالنِّساء في النار أكثر من الرِّجال.

قال: ((يَكْفُرُنَ)) يعني: هذا السَّبَب في هذه الكثرة في الدُّخول، سبب هذه الكلمة أَهْنُ يَكْفُرُنَ.

((قيل: بالله؟)) يكفرون بالله؟ والكفر بالله سبحانه وتعالى كفر ناقل من المِلَّة مُوجِب للخلود في نار جهنم.

قال: ((لا، يَكْفُرُنَ العَشِير، ويَكْفُرُنَ الإحسان)) أي: يَكْفُرُنَ المنعمين، يكفرون إحسان مَنْ ينعم عليهن، مَنْ يعمل على إكرامهنّ والإحسان إليهن، كأن يكون الزوج مع زوجه محسنًا، وقَر مسكنًا تكلف في توفيره، وقَر أيضًا أثاثًا وفرشًا ولباسًا وطعامًا وغذاءً وشرابًا وأجهد نفسه في ذلك، وقَر هذه الأشياء، وهذا كله إحسان يُشكر ولا يُكفر، ويُذكر للمحسن المنعم ولا يُجحد.

قال: ((يَكْفُرُنَ، قيل: يكفرون بالله؟ قال: لا، يَكْفُرُنَ العَشِير، ويَكْفُرُنَ الإحسان)) ؛ العَشِير: الزوج، يحسن إليها ويكرمها ويوقّر لها من الأمور والحاجيّات.

يقول: ((لو أحسنتَ إلى إحداهنَّ الدَّهر)) معنى قوله «الدَّهر» أي: مدّة حياتك واتّصالك بها.

((لو أحسنتَ إلى إحداهنَّ الدَّهر ثم رأت منك شيئًا قالت: ما رأيت منك خيرًا قط)) يقدّم لها منذ الاتّصال بينه وبينها، منذ أن كانت زوجًا له وهو يحسن إليها ويكرمها، هذا المسكن، وهذا البيت، وهذا الفراش، وهذا الطّعام يوميًا يستجلبه للبيت ويوفّره في البيت، وهذا وهذا من الأمور الكثيرة التي يقدّمها، فإذا احتاجت أمرًا معيّنًا تعلّقت نفسها به ورغبت في تحصيله وامتنع الزوج إمّا لعدم قدرته عليه، أو لعدم رؤيته لأهمّيّته أو لضرورة إتيانها به، ولا يلزمه أن يوقّر لها كلّ ما تطلب، لا يلزمه ذلك ما دام وقّر لها الضّروريّات والحاجيّات المهمّة، فإذا طلبت شيئًا معيّنًا تعلّقت نفسها به وامتنع جحدت معروفه السّابق كلّه وقالت عنه -سواءً في وجهه أو عند الآخرين- قالت: هذا بخيل، وهذا فيه كذا، هذا الرّيال ما يخرج، والدّرهم ما ينفقه، ويقترّ على أهله، وهو كلّ يوم يأتي لأهله بالطّعام، ويأتي لهم بالشراب، ويأتي لهم بالغذاء، والملابس متوفرة، والأشياء متوفّرة، لكن إذا قصّر في شيء معيّن وألحّت عليه وامتنع، جحدت إحسانه كلّ!! والنّبيّ صَلَّى الله عليه وسلّم رآهنّ في النّار بسبب هذا الأمر .

ولهذا يجب على المرأة أن تخاف الله وأن تخشاه، هذا وعيد، ورؤيتهنّ في النّار هذا دليل على أنّ هذا الصّنيع منهنّ كبيرة ؛ لأنّه لا يأتي وعيدٌ بالنّار إلّا في الكبائر، فجحد المرأة لإحسان الزوج، إحسان المنعمين .. هذا من العظائم، الواجب على الإنسان أن يشكر إحسان مَنْ أحسن إليه، لا أن يكون لئيماً، يحسن إليها الدَّهر كلّهُ بأنواعٍ من الإحسان ثمّ عند أمرٍ ما تريده فلا يتحقّق تجحد ذلك الإحسان كلّهُ! هذا من العظائم. ولهذا قال عليه الصّلاة والسّلام لما ذكر أنّه رأى النّار ورأى أكثر أهلها النّساء، أخبر عليه الصّلاة والسّلام أنهنّ يَكْفُرُنَ، أي: يَكْفُرُنَ العَشِير.

ورؤيته عليه الصّلاة والسّلام للنّار كانت رؤية عجيبة ، كما تعلمون حصلت هذه الرّؤية وهو يصليّ بالنّاس صلاة الكسوف، رأى الجنّة ورأى النّار، وهو عليه الصّلاة والسّلام في حياته صلى الكسوف مرّة واحدة، حصل الكسوف في حياته مرّة واحدة، ونوديّ بالنّاس: «الصّلاة جامعة»، اجتمع النّاس وتقدّم عليه الصّلاة والسّلام

وصلّى بهم وأطال في صلاته، وراه الصحابة رضي الله عنهم فعل شيئاً في تلك الصلّاة ما كان يفعله ؛ رأوه يتقدّم وقد مدّ يده كأنّه يريد أن يأخذ شيئاً ، ما قد فعل هذا في صلاته، ثمّ رأوه بعدها بقليل رجع كأنّه خائف من شيء صلوات الله وسلامه عليه ، فسألوه عن ذلك قال: ((رأيت الجنة ورأيت النار))، الصحابة رضي الله عنهم صفوف خلفه ما رأوا شيئاً، وهذا من الدلائل والدلائل على أنّ الله على كلّ شيء قدير سبحانه وتعالى، النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم أمامهم ويرى الجنة والنّار، ورأى في النّار أصنافاً ممّن يُعَذَّبون : رأى عمرو بن لُحَيّ الذي جلب الشّرك، ورأى في النّار المرأة الّتي حبست الهرة لا أطعمتها ولا هي تركتها تأكل من خَشاش الأرض ، رآها النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم في تلك الوقفة وهي تُعَذَّب في النّار، ورأى أيضاً في تلك الوقفة الرّجل الذي كان يسرق الحجيح، رآه في النّار عليه الصّلاة والسّلام ، رجل كان يسرق الحجيح، معه مُحجَن، والمحجن: العصا الّتي في أعلاها عَكْفَة، فكان يمشي ومعه المحجّن وإذا مرّ حاجّ معه بعير وعليه بعض المتاع، إذا تجاوزَه أخذ بعض المتاع بالمحجّن وسحبه، فإن انتبه له الحاجّ قال: المَعْدَرَة، تعلّق بمحجني ما انتبهت، وإذا لم ينتبه له أخذه، رآه النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم وهو في النّار يُعَذَّب، ورأى عليه الصّلاة والسّلام النّساء، وأنّ أكثر أهل النّار النّساء، وأخبر أنهنّ يكفّرُن، أي: يكفّرُن العشير .

وأيضاً في وقفته تلك حذر عليه الصّلاة والسّلام من الزّنا ؛ فجمع في تلك الوقفة وما أخبر عليه الصّلاة والسّلام أنّه رأى المعدّبين في النّار، جمع في تلك الوقفة بين الذّنوب الأربعة الّتي هي أكبر الذّنوب، والّتي جمعها في خطبة من خطبه في حجّة الوداع بقوله: ((أَلَا إِنَّمَا هُنَّ أَرْبَعُ: أَنْ لَا تُشْرِكُوا بِاللّهِ شَيْئاً، وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ، وَلَا تَزْنُوا، وَلَا تَسْرِقُوا)) ، هذه الذّنوب الأربعة هي أعظم الذّنوب ، وفي وقفته تلك في صلاة الكسوف جمع التّحذير والإنذار من هذه الذّنوب بطريقة مختلفة عن كلّ مرّة كان ينذر فيها من هذه الذّنوب؛ لأنّه كان يُخبر عن رؤيته بعينه لمن يُعَذَّبون بسبب هذه الموبقات وسبب هذه العظائم ، وهذا أيضاً من أقوى ما يكون في خوف الإنسان؛ لأنّ النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم رآه في النّار يُعَذَّب من يعمل هذه الأمور ويرتكب هذه الآثام.

فهذا الحديث من أعظم ما يكون تحويلاً للنّساء وزجراً لهم عن كفران المنعمين ووجد إنعام الأزواج وإحسان الأزواج، وأنّ هذا أمرٌ موجب لدخول النّار، وأنّ النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم رأى أكثر أهل النّار النّساء، وأخبر أنّ ذلك بسبب كفران العشير وجحود النّعمة.

قال رحمه الله تعالى :

١٤٤ - وعن أبي هريرة رضي الله عنه مرفوعاً: ((من لا يشكر الناس لا يشكر الله)) صححه الترمذي وقال

حسن غريب .

قال: عن أبي هريرة مرفوعاً: ((مَنْ لَا يَشْكُرُ النَّاسَ لَا يَشْكُرُ اللَّهَ)) صحَّحه الترمذي، وقال حسنٌ غريبٌ ؛ «حسنٌ غريب» يظهر والله تعالى أعلم أنَّها تتعلَّق بالحديث الذي بعده، والأمر مثل ما قال هنا: «صحَّحه الترمذي»، وأما «حسنٌ غريب» لا تتعلَّق بهذا الحديث، ولعلَّها متعلِّقة بالحديث الذي قبله. وقد يكون هذا وقع من بعض النُّسَاح فقدَّم ما حقُّه أن يُؤخَّر في الحديث الذي بعده، وإلاَّ فهذا الحديث مثل ما قال رحمه الله تعالى: «صحَّحه الترمذي»، لأنَّ «صحَّحه الترمذي» لا يجتمع معها قوله «وقال: حسنٌ غريب»، فهذه «وقال: حسنٌ غريب» لا تتعلَّق بهذا الحديث، وإنما تعلقها والله تعالى أعلم بالحديث الذي بعده، حديث جابر.

قال: ((مَنْ لَا يَشْكُرُ النَّاسَ لَا يَشْكُرُ اللَّهَ)) لأنَّ الله عزَّ وجلَّ أمر بشكر النَّاسِ ، وجاء في ذلك الأحاديث عن رسول الله صلوات الله وسلامه عليه ، وأنَّ مَنْ أَحْسَنَ إِلَيْهِ ينبغي أن يشكر المحسن، يشكره على إحسانه. وشكر هذا المحسن على إحسانه من شكر الله؛ لأنَّه لا يشكر الله مَنْ لَا يَشْكُرُ النَّاسَ ، لماذا؟ لأنَّ الله سبحانه وتعالى جعله سبباً لوصول هذه النِّعمة إلى هذا الإنسان أو إلى هذا الشَّخص، فهذا الذي جعله الله سبباً شُكْرُه على ما بذل وما قدَّم من أجل وصول هذه النِّعمة إلى هذا الشَّخص يُشكَّر عليه، وشكره من شكر الله سبحانه وتعالى، والأمر كما في الحديث ((مَنْ لَا يَشْكُرُ النَّاسَ لَا يَشْكُرُ اللَّهَ)).

قال رحمه الله تعالى :

١٤٥ - وعن جابر رضي الله عنه مرفوعاً: ((مَنْ أُعْطِيَ عَطَاءً فَوَجَدَ فليَجْزِ به ، ومن لم يجد فليش به، فإنَّ الشَّاء شكر، فإنَّ أثني فقد شكره، ومن كتبه فقد كفره)).

قال: وعن جابر رضي الله عنه مرفوعاً ((مَنْ أُعْطِيَ عَطَاءً فليَجْزِ به إن وجد)) يعني: إن أعطاه أحد عطاءً فليَجْزِ به: أي ليكافئه على ما أعطاه، بمثله أو يزيد بأحسن منه ، «إن وجد» إن كان عنده قدرة على ذلك ويجد ما يكافئه به بالمثل أو بالأحسن.

((وَمَنْ لَمْ يَجِدْ فليُشْن به، فإنَّ الشَّاء شكر، فإنَّ أثني فقد شكره، وَمَنْ كَتَبَهُ فَقَدْ كَفَرَهُ)) ؛ فليُشْن به: أي يذكره بالخير، يدعو له بالخير . وَمِنْ أبلغ ما يكون دعاءً في هذا الباب: ما جاء في الحديث أن يقول: «جزاه الله خيراً» أو «جزاك الله خيراً»، يدعو له، ويثني عليه خيراً، أمَّا إذا جحد النِّعمة وأنكرها فهذا كما قال عليه الصَّلَاةُ والسَّلَام ((وَمَنْ كَتَبَهُ فَقَدْ كَفَرَهُ)).

سبحانك اللهم وبحمدك ، أشهد أن لا إله إلا أنت ، أستغفرك وأتوب إليك .

اللهم صلِّ وسلِّم على عبدك ورسولك نبينا محمد وآله وصحبه أجمعين.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله ربِّ العالمين، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله؛ صلى الله وسلم عليه وعلى آله وأصحابه أجمعين. أمّا بعد:

قال شيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب رحمه الله تعالى في كتاب الكبائر :

باب ما جاء في لمز أهل طاعة الله والاستهزاء بضعتهم

١٤٦ - عن أبي مسعود رضي الله عنه قال: لما نزلت آية الصدقة كنا نحامل على ظهورنا، فجاء رجل فتصدق بشيء كثير، فقالوا: مرأى، وجاء رجل فتصدق بصاع فقالوا: إن الله لغني عن صاع هذا ؛ فنزلت:

﴿الَّذِينَ يَلْمِزُونَ الْمُطَّوِّعِينَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فِي الصَّدَقَاتِ﴾ [التوبة: ٧٩] .

قال رحمه الله تعالى: «باب ما جاء في لمز أهل الطاعة والاستهزاء بضعتهم» ؛ هذا الذي ذكره رحمه الله تعالى في هذه الترجمة هو وصف من أوصاف أهل التّفاق الذين يُضمرون في بطونهم كفرًا وصدودًا وإعراضًا عن دين الله، ويتظاهرون بالإيمان، فإنّ من أوصاف هؤلاء المنافقين المشهورة عنهم: همزهم ولمزهم وسخريتهم واستهزاؤهم بأهل الإيمان والطّاعة، حتى إنهم لم يسلم من همزهم ولمزهم أهل الصّدقات. ومعلوم أنّ أهل الصّدقات في أيّ مجتمع لهم محبةٌ ولهم مكانة؛ لأنّ نفوسهم سخت بهذا المال الذي تميل النفس إليه ولا تحبّ التّفريط فيه، فلم يسلم من همز المنافقين ولمزهم حتى هؤلاء الذين هم أهل الصّدقات وأهل النّفقة والبذل في سبيل الله تبارك وتعالى.

والأصل: أن يُحسنَ الظنّ في كلّ مَنْ يعمل الخير، وأن يُحمّل عمله على أحسن محمّل. أمّا أن تتّجه همة الإنسان إلى الوقعة في أهل الخير وأهل البذل وأهل السّخاء والعطاء، وأن يتّجه إلى الطّعن فيهم والانتقاص منهم والازدراء لهم، واتّهامهم حتى في نيّاتهم، أنّه لم يفعل ذلك إلاّ رياءً، أو لم يفعل ذلك إلاّ شهرةً، أو لم يفعل ذلك إلاّ لكذا ولكذا من أمورٍ هي تتعلّق بالقلوب ولا يطلّع عليها إلاّ علائم الغيوب سبحانه وتعالى؛ فهذا كلّهُ من الأوصاف التي هي من شُعَب التّفاق وليست من شعب الإيمان، من خصال أهل التّفاق وليست من خصال أهل الإيمان . ولهذا عقد رحمه الله تعالى هذه الترجمة؛ تحذيرًا من ذلك قال: «باب ما جاء في لمز أهل طاعة الله والاستهزاء بضعتهم» .

قال: عن أبي مسعود وهو البصري رضي الله عنه الأنصاري قال: «لما نزلت آية الصدقة كنّا نحامل على ظهورنا»؛ انظر هذا العلوّ في الهمة لدى أصحاب النّبّي الكريم صلوات الله وسلامه عليه، وفرق بين هؤلاء وبين من

بيده المال ويُحْتَجَّ على الصَّدقة فلا يُخْرَج منه لا قليل ولا كثير. فالصَّحابة رضي الله عنهم لما نزلت آية الصَّدقة كان بعضهم لا يملك شيئاً، فمن أجل أن يعمل بهذه الآية ذهب إلى السُّوق ويحامل على ظهره، أي يشتغل حملاً يحمل المتاع للناس من أجل أن يحصل على قليل من المال أو قليل من الطَّعام من أجل أن يتصدَّق به فيكون من أهل هذه الآية آية الصَّدقة. فانظر الفرق بين هؤلاء الكرام رضي الله عنهم وأرضاهم، ومن بيده الأموال الطائلة وتذكر له آيات الصَّدقة وأحاديث الصَّدقة ولا يستطيع أن يُخْرَج قليلاً من هذا الكثير الذي أعطاه الله سبحانه وتعالى إيَّاه.

قال: «كُنَّا نُحَامِل على ظهورنا فجاء رجلٌ فتصدَّق بشيءٍ كثير» ؛ جاء رجل: أي مَنْ آتاه الله سبحانه وتعالى مالاً ؛ فتصدَّق بشيءٍ كثير: أي أموال كثيرة.

«فقالوا: مُراءٍ»؛ هذا ما أخرج هذا المال الكثير إلَّا للرياء ؛ حتى يُقال كذا، وحتى يُقال كذا. ومعلوم أنَّ كلمة «مُرائي» هذا دخول في النِّيَّة، ونِيَّة العبد بينه وبين الله، وليس للناس إلَّا الظَّاهر، والله تبارك وتعالى يتولَّى السُّرائر ويتولَّى القلوب، ولا يجوز للإنسان أن يحكم على نِيَّة أحد، النِّيَّة بينه وبين الله، لكن الحكم إمَّا هو على الظَّاهر، أمَّا سرائر النَّاس وبواطنهم فبينهم وبين الله سبحانه وتعالى. ((مَنْ شَهِدَ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَاسْتَقْبَلَ قِبَلَتَنَا وَصَلَّى صَلَاتَنَا وَأَكَلَ ذَيْحَتَنَا فَهُوَ الْمُسْلِمُ لَهُ مَا لِلْمُسْلِمِ ، وَعَلَيْهِ مَا عَلَى الْمُسْلِمِ)). لنا ظاهر النَّاس، أمَّا سرائرهم بينهم وبين الله سبحانه وتعالى. «فقالوا: مُراءٍ» هذا المكثِّر المنفق لمزوه بالرياء.

«وجاء رجلٌ فتصدَّق بصاع» ما عنده شيء، وربما يكون هذا الصَّاع حصَّله من أين؟ من قولهم — كما تقدَّم — «كُنَّا نُحَامِل على ظهورنا»، ربَّما ذهب إلى السُّوق وحمل على ظهره متاعاً لأحد وأعطاه صاعاً من طعام، وجاء وتصدَّق به.

«فجاء رجلٌ فتصدَّق بصاع. فقالوا: إِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ عَنْ هَذَا» أي: غني عن صدقة هذا. الله غني عن صدقة هذا، وصدقة الأوَّل، وصدقة النَّاس أجمعين ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ﴾ [فاطر: ١٥] ، في الحديث القدسي يقول الله عزَّ وجلَّ: ((يَا عِبَادِي إِنَّكُمْ لَنْ تَبْلُغُوا ضُرِّي فَتَضُرُّوَنِي، وَلَنْ تَبْلُغُوا نَفْعِي فَتَنْفَعُونِي)) ، وهو جلَّ وعلا النَّافع الضَّارَّ المعطي المانع، الغني عن العباد وعن طاعتهم وعن صدقاتهم وعن نفقاتهم. مَنْ اهتدى وأنفق وتصدَّق وبذل فإنَّما يكون ذلك لنفسه ﴿مَنْ اهْتَدَى فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا﴾ [الإسراء: ١٥]

«فقالوا: إِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ عَنْ هَذَا» إذا لم يسلم منهم لا مُكثِّر في الصَّدقات ولا مُقِل ؛ المكثِّر قالوا: مُرائي، والمُقِل قالوا: الله غني عن صدقته، ماذا يكون هذا الصَّاع الذي جاء به؟ فيلمزون المطوِّعين بالصدقات، أي إنَّه حتى أهل

الصَّدَقَاتِ لَمْ يَسْلَمُوا مِنْهُمْ. فَزَلَتْ: ﴿الَّذِينَ يَلْمِزُونَ الْمُطَّوِّعِينَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فِي الصَّدَقَاتِ وَالَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهْدَهُمْ فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ سَخِرَ اللَّهُ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [التوبة: ٧٩].

﴿يَلْمِزُونَ الْمُطَّوِّعِينَ﴾ أي أَنَّهُمْ مِنْ كَثْرَةِ هَمْزِهِمْ وَلَمْزِهِمْ حَتَّى الْمُطَّوِّعِينَ فِي الصَّدَقَاتِ لَمْ يَسْلَمُوا مِنْهُمْ. وَلِهَذَا قَالَ الْإِمَامُ ابْنُ كَثِيرٍ رَحِمَهُ اللَّهُ: «وَهَذَا أَيْضًا مِنْ صِفَاتِ الْمُنَافِقِينَ، لَا يَسْلَمُ أَحَدٌ مِنْ غَيْبِهِمْ وَلَمْزِهِمْ عَلَى جَمِيعِ الْأَحْوَالِ، حَتَّى وَلَا الْمُتَصَدِّقُونَ يَسْلَمُونَ مِنْهُمْ»، وَقَوْلُهُ: "حَتَّى وَلَا الْمُتَصَدِّقُونَ يَسْلَمُونَ مِنْهُمْ" لِأَنَّهُ عَادَةُ الْمُتَصَدِّقِ الَّذِي يَبْذُلُ لَهُ مَكَانَةً فِي مَجْتَمَعِهِ؛ لِأَنَّ الْمَالَ الَّذِي تَمِيلُ إِلَيْهِ الْقُلُوبُ - وَلِهَذَا سُمِّيَ مَالًا - وَلَا تُفَرِّطُ فِيهِ، وَتَشُحُّ بِهِ أَخْرَجَهُ وَبَذَلَهُ، فَحَتَّى هَؤُلَاءِ لَمْ يَسْلَمُوا مِنْ هَمْزِهِمْ وَلَمْزِهِمْ. مَنْ كَانَ مُكْثِرًا لَمْزَوْهُ بِالرِّبَاءِ، وَمَنْ كَانَ مُقِلًّا قَالُوا مَاذَا تَفِيدُ؟ أَوْ مَاذَا تَكُونُ هَذِهِ الصَّدَقَةُ؟ وَاللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ غَيَّيَ عَنْ صَدَقَةِ هَذَا. فَالشَّاهِدُ أَنَّ هَذَا مِنْ صِفَاتِ أَهْلِ التَّفَاقُ.

هَذَا - أَيُّهَا الْإِخْوَةُ الْكَرَامَ - نَأْخُذُ مِنْهُ فَائِدَةً مَهْمَةً، فَائِدَةٌ عَمَلِيَّةٌ: أَنَّ الْوَاجِبَ عَلَى الْعَبْدِ أَنْ يَتَّقِيَ اللَّهَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى فِي كُلِّ مَنْ يَقْدِمُ خَيْرًا لِلْأُمَّةِ، يَقْدِمُ نَفْعًا لِلْأُمَّةِ، مِنْ مِثَالِ صَدَقَاتٍ أَوْ بَذْلِ أَوْ أَعْمَالٍ خَيْرِيَّةٍ أَوْ أَوْقَافٍ أَوْ إِلَى غَيْرِ ذَلِكَ مِنْ مَجَالَاتِ الْخَيْرِ الْكَثِيرَةِ. فَمَنْ يَبْذُلُ خَيْرًا الْأَصْلَ أَنْ يُحْسِنَ بِهِ الظَّنَّ، لَيْسَ الْأَصْلُ أَنْ يُسَاءَ بِهِ الظَّنَّ، لَيْسَ الْأَصْلُ أَنْ تُكَالَ لَهُ التُّهْمُ، أَوْ أَنْ يُفْتَشَّشَ، أَوْ أَنْ يُدْخَلَ فِي نَيْتِهِ. بَعْضُ النَّاسِ مَا أَنْ يَرَى أَعْمَالًا خَيْرِيَّةً يَقْدِمُهَا شَخْصًا مَا إِلَّا قَالَ: نَعَمْ هَذَا يَرِيدُ الرِّبَاءَ وَيَرِيدُ الشُّهْرَةَ وَيَرِيدُ كَذَا وَيَرِيدُ ... وَيَبْدَأُ يَكِيلُ مِنَ التُّهْمِ الشَّيْءَ الْكَثِيرِ. الْأَصْلُ: أَنْ يُحْسِنَ الْإِنْسَانُ الظَّنَّ فَيَمُنَّ يُقَدِّمُ أَعْمَالًا خَيْرِيَّةً لِلْأُمَّةِ مِنْ مِثَالِ أَوْقَافٍ، أَوْ صَدَقَاتٍ، أَوْ دُورٍ لِلْإِيْتَامِ، أَوْ مِثَالًا طَبَاعَةَ لِكُتُبِ الْعِلْمِ، أَوْ غَيْرِ ذَلِكَ مِنْ مَجَالَاتِ الْخَيْرِ الْكَثِيرَةِ وَالْكَثِيرَةِ، فَالْأَصْلُ أَنْ مَنْ يُقَدِّمُ لَأُمَّةٍ الْإِسْلَامَ نَفْعًا وَخَيْرًا مِنَ الْأَعْمَالِ الصَّالِحَةِ الَّتِي هِيَ عَلَى الْهَدْيِ وَعَلَى السُّنَّةِ الْأَصْلَ أَنْ يُحْسِنَ بِهِ الظَّنَّ. أَمَّا إِذَا كَانَ الظَّاهِرُ عَلَى خِلَافِ الْهَدْيِ وَعَلَى خِلَافِ السُّنَّةِ، فَإِنَّ أَخْطَاءَهُ وَمُخَالَفَاتِهِ لِلْسُّنَّةِ تُنْتَقَدُ وَتُصَحَّحُ وَتُقَوِّمُ وَيُرْشَدُ إِلَى الْحَقِّ وَالْهَدْيِ. أَمَّا مَنْ يَعْمَلُ الْخَيْرَ وَيَقْدِمُ الْخَيْرَ وَيَبْذُلُ الْخَيْرَ الْأَصْلُ: أَنْ يُحْسِنَ بِهِ الظَّنَّ، وَأَلَّا يَتَكَلَّفَ الْإِنْسَانُ أَوْ يَتَجَرَّأَ عَلَى كَيْلِ التُّهْمِ جُزْأً بِدُونِ أَيِّ مُسْتَنْدٍ أَوْ أَيِّ بَرَهَانٍ، حَتَّى أَيْضًا دُخُولًا فِي الْقُلُوبِ وَالنِّيَّاتِ.

وَعَرَفْنَا أَنَّ هَذَا اللَّمَزَ لِلْمُطَّوِّعِينَ بِالصَّدَقَاتِ عَدَّهُ اللَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى فِي أَوْصَافِ الْمُنَافِقِينَ؛ لِأَنَّ هَذِهِ الْآيَةَ الْكَرِيمَةَ جَاءَتْ فِي سُورَةِ التَّوْبَةِ، وَسُورَةِ التَّوْبَةِ تُعَرَّفُ بـ«الْفَاضِحَةِ» وَ«الْمُبْعِثَةِ»؛ لِأَنَّهَا فَضَحَتْ الْمُنَافِقِينَ، وَهَتَكَتْ سِتْرَهُمْ، وَكَشَفَتْ مَخَازِيَهُمْ، وَعَرَّتْ مَسَاوِيَهُمْ، فَضَحَتْهُمْ فَضْحًا. وَلِهَذَا تَجَدُّ فِي السُّورَةِ كَثِيرًا مَا يَأْتِي: ﴿وَمِنْهُمْ﴾ وَ﴿وَمِنْهُمْ﴾ وَ﴿الَّذِينَ﴾ وَ﴿الَّذِينَ﴾ أَوْصَافٌ لِلْمُنَافِقِينَ كَشَفَتْهُمْ وَعَرَّتْهُمْ وَأَظْهَرَتْ مَخَازِيَهُمْ بِحَيْثُ أَصْبَحَتْ بَادِيَةً. وَاللَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى ذَكَرَ هَذِهِ الْأَوْصَافَ لِأَهْلِ التَّفَاقُ مِنْ أَجْلِ أَنْ يَحْذَرُ مِنْهَا أَهْلُ الْإِيمَانِ وَأَلَّا يَتَّصِفُوا بِشَيْءٍ مِنْهَا لَا فِي قَلِيلٍ وَلَا فِي كَثِيرٍ.

قال رحمه الله تعالى :

باب الاستهزاء

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ أَجْرَمُوا كَانُوا مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا يَضْحَكُونَ﴾ (٢٩) وَإِذَا مَرُّوا بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ ﴿٣٠﴾ وقوله: ﴿فَاتَّخَذْتُمُوهُمْ سِخْرِيًا حَتَّىٰ أُنسَوُكُمْ ذِكْرِي وَكُنتُمْ مِنْهُمْ تَضْحَكُونَ﴾ [المؤمنون: ١١٠] ، وقوله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِنْ قَوْمٍ عَسَىٰ أَنْ يَكُونُوا خَيْرًا مِنْهُمْ وَلَا نِسَاءٌ مِنْ نِسَاءٍ عَسَىٰ أَنْ يَكُنَّ خَيْرًا مِنْهُنَّ﴾ الآية [الحجرات: ١١] .

قال: «باب الاستهزاء» ؛ والاستهزاء : هو السُّخْرِيَّة بالآخرين والانتقاص لهم والتَّهْكُم بهم. ولا يكون هذا الاستهزاء إلا عن مرض في قلب المستهزئ، وعُجب بنفسه، وتعالى على الآخرين، ولهذا يهزأ بالآخرين ويسخر ويستهزئ، ويتهكَّم.

قال: «باب الاستهزاء» وذكر رحمه الله هذا الباب بابًا عامًا؛ ليكون متناولًا الاستهزاء بالأشخاص سواء في هيئاتهم ومشيههم وحركاتهم وصفاتهم، أو الاستهزاء بهم أيضًا في أخلاقهم ودينهم وعبادتهم.

قال: وقول الله سبحانه وتعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ أَجْرَمُوا كَانُوا مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا يَضْحَكُونَ﴾ [الطائفين: ٢٩] ؛ وهذا استهزاء بأهل الدِّين، وهو وصفٌ لأهل الإِجْرَام. انتبه لقوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ أَجْرَمُوا﴾ مفهوم الجريمة متأخرًا لدى كثير من النَّاس انحصر في أبواب معيَّنة من الجرائم، وعندما يُقال المجرم لا ينصرف الدِّهْن إلا لأشياء معيَّنة من الجرائم كالقتل مثلاً أو السَّرْقَة أو أشياء من هذا القبيل، لكن الاستهزاء بأهل الإيمان هذه جريمة من الجرائم العظيمة.

قال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ أَجْرَمُوا كَانُوا مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا يَضْحَكُونَ﴾ (٢٩) وَإِذَا مَرُّوا بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ ﴿٣٠﴾ وَإِذَا انْقَلَبُوا إِلَىٰ أَهْلِهِمْ انْقَلَبُوا فَكِهِينَ ﴿٣١﴾ [الطائفين: ٢٩-٣١] سخرية واستهزاء وتهكُّم بأهل الإيمان ، يتهكَّمون بهم ويسخرون لإيمانهم، لدينهم، لمحافظةهم على طاعة ربِّهم ؛ لتحليلهم بأخلاق الإيمان وآداب الدِّين. فمن صفات أهل الإِجْرَام السُّخْرِيَّة والاستهزاء بأهل الإيمان.

قال: وقول الله تعالى: ﴿فَاتَّخَذْتُمُوهُمْ سِخْرِيًا حَتَّىٰ أُنسَوُكُمْ ذِكْرِي وَكُنتُمْ مِنْهُمْ تَضْحَكُونَ﴾ [المؤمنون: ١١٠] ؛ ﴿اتَّخَذْتُمُوهُمْ سِخْرِيًا﴾: أي أهل الإيمان؛ منهم تسخرون، وبهم تستهزؤون وتضحكون وتهكَّمون، فكانت عقوبة

وهؤلاء أن أصبح أهل الإيمان في ذلك اليوم لقاء الله سبحانه وتعالى هم الفائزون، وهؤلاء ليس لهم إلا النار؛ لسخريتهم بأهل الإيمان، وصدودهم عن دين الله تبارك وتعالى، ﴿فَاتَّخَذَتْهُمْ سَخِرِيًّا حَتَّى أَنْسَوْكُمْ ذِكْرِي وَكُنتُمْ مِنْهُمْ تَضْحَكُونَ﴾ (١١٠) إِنِّي جَزَيْتُهُمُ الْيَوْمَ بِمَا صَبَرُوا أَنَّهُمْ هُمُ الْفَائِزُونَ ﴿[المؤمنون: ١١٠-١١١] يعني جزاء أهل الإيمان على صبرهم هو الفوز، وهؤلاء عقوبتهم النكال والخسران.

قال: وقوله تعالى ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِنْ قَوْمٍ عَسَى أَنْ يَكُونُوا خَيْرًا مِنْهُمْ وَلَا نِسَاءٌ مِنْ نِسَاءٍ عَسَى أَنْ يَكُنَّ خَيْرًا مِنْهُنَّ وَلَا تَلْمِزُوا أَنْفُسَكُمْ وَلَا تَنَابَرُوا بِالْأَلْقَابِ بِئْسَ الْأَسْمُ الْفُسُوقُ بَعْدَ الْإِيمَانِ وَمَنْ لَمْ يَتُبْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ [الحجرات: ١١] ؛ وهذه الآية في سورة الحجرات، وسورة الحجرات اشتملت على جملة عظيمة من الآداب، آداب الشريعة وأخلاقها العظيمة، وفيها قال الله سبحانه وتعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾ [الحجرات: ١٠]، ثم ذكر بعد ذلك مقتضيات هذه الأخوة، ومنها قوله: ﴿لَا يَسْخَرُ قَوْمٌ مِنْ قَوْمٍ﴾ ؛ لأن من مقتضى الأخوة الإيمانية ألا يسخر مؤمن من مؤمن، ولا يستهزئ مؤمن بمؤمن، هذا من مقتضيات هذه الأخوة، ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا يَسْخَرُ قَوْمٌ مِنْ قَوْمٍ عَسَى أَنْ يَكُونُوا خَيْرًا مِنْهُمْ وَلَا نِسَاءٌ مِنْ نِسَاءٍ عَسَى أَنْ يَكُنَّ خَيْرًا مِنْهُنَّ وَلَا تَلْمِزُوا أَنْفُسَكُمْ وَلَا تَنَابَرُوا بِالْأَلْقَابِ بِئْسَ الْأَسْمُ الْفُسُوقُ بَعْدَ الْإِيمَانِ وَمَنْ لَمْ يَتُبْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ .

قال رحمه الله تعالى :

١٤٧ - عن الحسن قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ((إن المستهزئين بالناس يفتح لأحدهم في الآخرة باب من الجنة فيقال له: هلم هلم! فيجيء بكربه وغمه فإذا جاءه أغلق دونه، ثم يفتح له باب آخر فيقال له: هلم هلم! فيجيء بكربه وغمه فإذا جاءه أغلق دونه، فما يزال كذلك، حتى إن أحدهم ليفتح له الباب من أبواب الجنة فيقال له: هلم! فما يأتيه من اليأس)) أخرجه البيهقي.

وأورد رحمه الله تعالى في ذم الاستهزاء هذا الحديث عن الحسن قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ، والحسن رحمه الله تابعي فإذا قال التابعي: «قال رسول الله صلى الله عليه وسلم» فيكون الحديث مُرْسَل، والحديث المُرْسَل - كما هو معلوم - من أقسام الضعيف.

قال: عن الحسن قال: قال رسول الله صَلَّى الله عليه وسلّم: ((إِنَّ الْمُسْتَهِزِّينَ بِالنَّاسِ يُفْتَحُ لِأَحَدِهِمْ فِي الْآخِرَةِ بَابٌ مِنَ الْجَنَّةِ، فَيُقَالُ لَهُ: هَلَمْ هَلَمْ)) أي: تعال وأقبل .

((فيجيء بكره وغمه)) لأنه يومٌ يشتد فيه الكرب، ويعظم فيه الغم .

((فإذا جاءه أُغْلِقَ دونه، ثُمَّ يُفْتَحُ لَهُ بَابٌ آخَرُ فَيُقَالُ لَهُ: هَلَمْ هَلَمْ! فيجيء بكره وغمه، فإذا جاءه أُغْلِقَ دونه، فما يزال كذلك حتى إِنَّ أَحَدَهُمْ لَيُفْتَحُ لَهُ الْبَابُ مِنْ أَبْوَابِ الْجَنَّةِ فَيُقَالُ: لَهُ هَلَمْ فما يأتيه من اليأس)) يعني من كثرة ما يحصل له هذا الأمر . وهذه عقوبة على استهزائه وسخريته، فهذه الأبواب فيها هؤلاء الذين كان بهم يستهزئ ومنهم يسخر، فيقال له: هَلَمْ، يفتح الباب، وإذا جاء أُغْلِقَ دونه، ويُفْتَحُ لَهُ آخَرُ وَيُغْلَقُ لَهُ دونه، وهكذا.

قال رحمه الله تعالى :

١٤٨ - ولابن أبي حاتم وغيره عن ابن عمرو رضي الله عنهما مرفوعاً: ((من مات هماً لمازاً ملقباً للناس كان علامته أن يسمه الله على الخرطوم من كلا الشدقين)).

قال: «ولابن أبي حاتم» أي: في تفسيره. «وغيره عن ابن عمرو» أي: عبد الله بن عمرو بن العاص «مرفوعاً» أي: إلى النبي عليه الصلاة والسلام. وسند هذا الحديث فيه مقال.

قال: ((مَنْ مَاتَ هَمًّا لِمَا زَا مُلَقَّبًا لِلنَّاسِ)) ؛ قوله «مَنْ مَاتَ» فيه أَنَّ مَنْ تَابَ مِنْ ذَلِكَ قَبْلَ أَنْ يَمُوتَ تَابَ اللَّهُ عَلَيْهِ؛ لقوله تعالى: ﴿قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ﴾ [الزمر: ٥٣] أي: توبوا إلى الله، ﴿إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا﴾ أَيَّا كَانَ الذَّنْبُ فَإِنَّ اللَّهَ سَبْحَانَهُ وَتَعَالَى يَغْفِرُهُ لِمَنْ تَابَ.

قال: ((مَنْ مَاتَ هَمًّا لِمَا زَا)) أي: يقع في الناس همًّا ولمزًا، طعنًا ووقية، سبًّا وشتمًا، استهزاءً وسخرية . ((مُلَقَّبًا لِلنَّاسِ)) أي: بالألقاب السيئة، ألقاب الشؤء.

((كَانَ عَلَامَتُهُ أَنْ يَسْمَهُ اللَّهُ عَلَى الْخُرْطُومِ مِنْ كِلَا الشَّدَقَيْنِ)) ؛ قيل «على الخرطوم» : أي على أنفه من كلا الجهتين، سمةً له علامة؛ أي ليكون ذلك خزيًا له وفضيحة بين الأشهاد وعلى رؤوس الخلائق يوم القيامة.

قال رحمه الله تعالى :

بابُ ترويع المسلم

١٤٩ - عن عبد الرحمن بن أبي ليلى قال: حدثنا أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم أنهم كانوا يسرون مع النبي صلى الله عليه وسلم فنام رجل منهم فانطلق بعضهم إلى جبل معه فأخذه ففزع، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ((لا يحل لمسلم أن يروّع أخاه)) رواه أبو داود.

قال: «بابُ ترويع المسلم» ؛ ترويع المسلم: أي إخافته وإدخال الخوف على قلبه بأيّ طريقةٍ كانت، هذا لا يحلّ ولا يجوز، بل الواجب أن تكون المعاملة مع المسلم المعاملة الرّفيقة الّتي ليس فيها إرعاب له ولا إخافة، حتى لو كان ذلك من باب الدُّعابة والمزح. يعني بعض النَّاس مزحه مع رُفقاءه - كما يُعبّر عنه - ثَقِيل جدًّا، ولا ييالي بما يحصل لأخيه من ضرر، حتى إنّ بعض النَّاس بسبب مزحه - أقول ذلك بدون مبالغة عن أشياء بلغتني - بعض النَّاس من سوءه في المزح وشدّته في المزح تسبّب في أمراض نفسيّة مستمّرة في قلب بعض إخوانه، وألحق ببعض إخوانه ضررًا نفسيًّا مستمرًّا بسبب المزح الذي هو فيه شيء من الإخافة أو شيء من الإفزع والإرعاب، وهذا لا يحلّ للمسلم أن يُرعب أخاه، أو أن يَخوّف أخاه.

قال: عن عبد الرّحمن بن أبي ليلى قال: ((حدثنا أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم: أنهم كانوا يسرون مع النَّبيّ صلى الله عليه وسلم فنام رجلٌ منهم، فقام بعضهم إلى جبلٍ معه)) ؛ انتبه إلى «نام»، كثير من حوادث الإرعاب والإخافة يُستغلّ فيها نوم الشّخص أو أوّل ما يستيقظ من النّوم، وبعضهم يقول: نداعبه ونمزح معه، فيفزعوه وهو نائم، أو يفزعوه لحظة قومته من النّوم، وكثيرًا ما يحصل مثل ذلك في مثل نوم الإنسان أو يقظته من النّوم.

قال: ((فنام رجلٌ منهم فقام بعضهم إلى جبلٍ معه فأخذه ففزع)) ؛ جبلٍ معه: أي جرّه ، فقام الرّجل فزعًا. قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ((إنّه لا يحلّ لمسلم أن يروّع أخاه)) إذا كان جبل جرّه فقام فزعًا، وقال النَّبيّ صلى الله عليه وسلم ما قال، فكيف مثلاً بمن يُصدّر أصوات عالية عند النَّائم، أو أصواتًا مخيفة ومرعبة عند النَّائم!! فكيف إذا بمن يحمل سلاحًا ويُرعب به أخاه!! ثمّ إذا دخله الرُّعب والخوف وانهارت نفسه قال: أنا أمزح معه، ربّما أنّ نفسه تُصاب بشيء من الأمراض النَّفسيّة تبقى مزمنة مستمّرة بسبب هذا المزح. فالإسلام جاء بضبط أخلاق المسلم، وألّا يجني على إخوانه بأيّ جناية، ولا يحلّ لمسلم أن يروّع أخاه المسلم بأيّ طريقة كانت.

بابُ المتشَبِّع بما لم يعط

١٥٠ - ولهما عن أسماء رضي الله عنها: أن امرأة قالت: «يا رسول الله إن لي ضرة فهل علي جناح إن تشبعت من زوجي بما لم يعطني؟» فقال: ((المتشبع بما لم يعط كلابس ثوبي زور)).

قال: «بابُ المتشَبِّع بما لم يُعْطَ»؛ أي: يُظهِر لنفسه ويدَّعي لنفسه من الصِّفات والأخلاق والأوصاف والأمور ما ليس فيه؛ تزييناً لنفسه وإظهاراً لنفسه أو تمييزاً لنفسه عن الآخرين؛ فيدَّعي لنفسه أموراً ليست فيه، وأنه فعل، وأنه متَّصف بكذا، وأنَّ عنده كذا من أمورٍ ليست فيه؛ ليُظهِرَ نفسه على الآخرين، يُقال: «مُتَشَبِّعٌ بما لم يُعْطَ»؛ متشَبِّع أي: من الأوصاف والخصال والخلال، بما لم يُعْطَ أي: بما ليس من صفاته ولا من خلاله.

قال: ولهما أي: البخاري ومسلم عن أسماء أي: بنت أبي بكر رضي الله عنهما زوجة الزُّبَيْر بن العَوَّام رضي الله عنه

((أَنَّ امْرَأَةً قَالَتْ: يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنَّ لِي ضَرَّةً)) والضَّرَّة: هي الزَّوْجَةُ عَلَى الزَّوْجَةِ. ويُقال لها أيضاً «عَلَّة»، ((الْأَنْبِيَاءُ إِخْوَةٌ لِعَلَّاتٍ))، يُقال لها عَلَّةٌ لِأَنَّ الْعُلَّ: هو الشُّرْب والتَّهَلُّ. فإذا أخذ زوجةً على زوجته فيقال لها: عَلَّةٌ، وإن كان بعض الزوجات يكسرن العين يقولون: عَلَّة. فالزَّوْجَةُ عَلَى الزَّوْجَةِ يُقال لها: ضَرَّةٌ، ويُقال لها ذلك: لِأَنَّهَا زاحمت الزَّوْجَةَ الْأُولَى فِي شَيْءٍ مِنْ حَظِّهَا مِنَ الزَّوْجِ، مع أَنَّ هذه المزاحمة لو فَكَّرَتِ الْمَرْأَةُ فِيهَا مصلحة لها ومصلحة للزَّوْجَةِ الثَّانِيَةِ ومصلحة للمجتمع المسلم، ولا سِيَّما إذا كان عدد النِّسَاء أكثر من الرِّجَال، إن بقي أكثر نساء المجتمع بدون أزواج حصل فساد وشرٌّ عظيم، ففيه صلاح لها. وعدَّد أهل العلم جملة من المنافع الَّتِي تُحْصِلُهَا الزَّوْجَةُ الْأُولَى بوجود الثَّانِيَةِ، وفيه منفعة للزَّوْجَةِ الثَّانِيَةِ، وفيه منفعة للمجتمع.

فتقول: «إِنَّ لِي ضَرَّةً فَهَلْ عَلَيَّ جَنَاحٌ إِنْ تَشَبَّعْتُ مِنْ زَوْجِي بِمَا لَمْ يُعْطِنِي؟» من باب المنافسة بسبب الغيرة بين الزوجات تقول: «هل عليَّ جناح» هل عليَّ إثم أو خطأ إِنْ تَشَبَّعْتُ مِنْ زَوْجِي بِمَا لَمْ يُعْطِنِي؟ يعني: إذا جلست مع ضَرَّتِي -الزَّوْجَةِ الْأُخْرَى- وقلت لها: إِنَّ لِي فِي قَلْبِهِ مَحَبَّةٌ عَظِيمَةٌ، ويعطيني كذا، ودائماً يمدحني بكذا ويصفني بكذا، بأشياء ليست موجودة، من باب المنافسة والغيرة الَّتِي بَيْنَ الزَّوْجَاتِ. تقول: «إِنَّ لِي ضَرَّةً، فَهَلْ عَلَيَّ جَنَاحٌ إِنْ تَشَبَّعْتُ مِنْ زَوْجِي بِمَا لَمْ يُعْطِنِي؟»

فقال عليه الصَّلَاة والسَّلَام: ((المتشَبِّع بما لم يُعْطَ كلابس ثوبي زور)) ؛ وثوب الزُّور على ظاهره ؛ يلبس إنساناً ثوباً ليس له، يتظاهر به أَنَّهُ مثلاً من الأثرياء أو من الأغنياء أو من ذوي الأموال وهو ليس له، وإنما يلبسه زوراً للتَّظاهر به أمام النَّاسِ، ثُمَّ عَنْ قَرِيبٍ يُسْحَبُ مِنْهُ وَيَأْخُذُهُ أَهْلُهُ، فهذا يُسَمَّى ثوب زور، يتظاهر به صاحبه وليس

من أهله وليس من زينته ولا من لباسه، ولكنّه يأخذه وقتًا محدّدًا ليتظاهر به .((كلايس ثوبي زور)) أي: متظاهرًا به، فكَذَلِكَ مَنْ يَتَظَاهَرُ بِأُمُورٍ لَيْسَتْ مِنْ أَوْصَافِهِ هُوَ شَبِيهُ مَنْ كَانَ لَا بَسًا ثَوْبِي زور.

قال رحمه الله تعالى :

بَابُ التَّحَدُّثِ بِالْمَعْصِيَةِ

١٥١ - ولهما عن أبي هريرة رضي الله عنه مرفوعًا: ((كُلُّ أُمَّتِي مُعَافٍ إِلَّا الْمُجَاهِرِينَ، وَإِنْ مِنْ الْمُجَاهِرَةِ أَنْ يَعْمَلَ الرَّجُلُ عَمَلًا بِاللَّيْلِ، ثُمَّ يَصْبِحُ وَقَدْ سَتَرَهُ اللَّهُ عَلَيْهِ فَيَقُولُ: يَا فُلَانُ عَمِلْتُ الْبَارِحَةَ كَذَا وَكَذَا وَقَدْ بَاتَ يَسْتَرُهُ رَبُّهُ، وَأَصْبَحَ يَكْشِفُ سِتْرَ اللَّهِ عَلَيْهِ)).

قال: «بَابُ التَّحَدُّثِ بِالْمَعْصِيَةِ» ؛ التَّحَدُّثُ بِالْمَعْصِيَةِ: هُوَ الْمُجَاهَرَةُ بِالْإِثْمِ وَالْخَطِيئَةِ ؛ أَنْ يَبَيِّتَ الْإِنْسَانُ وَقَدْ سَتَرَهُ اللَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى بِذَنْبِهِ ثُمَّ يَهْتِكُ سِتْرَ اللَّهِ إِذَا أَصْبَحَ، فَإِذَا لَقِيَ النَّاسَ يَقُولُ لَهُمْ: الْبَارِحَةَ فَعَلْتُ كَيْتَ وَفَعَلْتُ كَيْتَ وَفَعَلْتُ كَيْتَ مِنَ الْآثَامِ وَالْمَعَاصِي الَّتِي ارْتَكَبَهَا ، سَوَاءً أَعْلَنَ ذَلِكَ فِي مَحِيطِ رَفَقَائِهِ، أَوْ إِعْلَانًا عَامًّا غَيْرَ مُبَالٍ، فَهَذَا يُسَمَّى مُجَاهِرًا. وَالْمُجَاهِرُ مَنْ أَبْعَدَ النَّاسَ عَنِ التَّوْبَةِ، وَأَقْرَبَ النَّاسَ إِلَى عَقُوبَةِ اللَّهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، وَاللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ يَقُولُ: ﴿لَا يُحِبُّ اللَّهُ الْجَهْرَ بِالسُّوءِ﴾ [النِّسَاءُ: ١٤٨]، فَالْمُجَاهَرَةُ خَطِيئَةٌ عَظِيمَةٌ وَجُرْمٌ فَوْقَ الْجُرْمِ الْأَوَّلِ الَّذِي هُوَ الذَّنْبُ. الذَّنْبُ: قَدْ يَكُونُ الْإِنْسَانُ غَلَبَتْهُ نَفْسُهُ فَارْتَكَبَ ذَنْبًا، أَمَّا الْمُجَاهِرُ لَيْسَ الْأَمْرُ مَجْرَدَ ارْتِكَابِ ذَنْبٍ وَوُقُوعٍ فِي خَطِيئَةٍ، وَإِنَّمَا افْتِخَارٌ بِالذَّنْبِ وَإِبْرَازٌ لِلذَّنْبِ وَإِظْهَارٌ لَهُ بَيْنَ النَّاسِ، وَهَذَا إِنَّمَا يَكُونُ عَنْ مُرَافَعَةٍ وَمُعَانَدَةٍ لَشَرَعِ اللَّهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى وَافْتِيَاتٍ عَلَى شَرَعِ اللَّهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، لَا يَكُونُ ذَلِكَ إِلَّا مِنْ مُعَانَدَةٍ فِيهِ مُرَافَعَةٌ لِلشَّرَعِ وَمُعَانَدَةٌ لَشَرَعِ اللَّهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

قال: «ولهما» أي: البخاري ومسلم. عن أبي هريرة رضي الله عنه مرفوعًا ((كُلُّ أُمَّتِي مُعَافٍ إِلَّا الْمُجَاهِرِينَ)) ؛ كُلُّ أُمَّتِي مُعَافٍ: أَي قَرِيبٌ مِنَ الْعَافِيَةِ وَالتَّوْبَةِ وَالْمَغْفَرَةِ وَالتَّدَمُّمِ وَالرُّجُوعِ إِلَى اللَّهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، إِلَّا الْمُجَاهِرِينَ؛ الْمُجَاهِرُ بَعِيدٌ عَنِ التَّوْبَةِ، بَعِيدٌ عَنْ رَحْمَةِ اللَّهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى؛ لِأَنَّ الْمُجَاهِرَةَ اسْتِعْلَانُ بِالذَّنْبِ ، وَالْاسْتِعْلَانُ بِالذَّنْبِ إِنَّمَا يَكُونُ عَنْ تَمَرُّدٍ عَلَى الشَّرَعِ، وَمُعَانَدَةٍ لِدِينِ اللَّهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى ، وَمَنْ كَانَ كَذَلِكَ يَكُونُ مِنْ أَبْعَدِ مَا يَكُونُ عَنِ التَّوْبَةِ. بِخِلَافِ الْمَذْنُوبِ الَّذِي ارْتَكَبَ ذَنْبًا وَقَلْبُهُ مُتَأَلِّمٌ مِنَ الذَّنْبِ، غَلَبَتْهُ نَفْسُهُ الْأَمَّارَةُ بِالسُّوءِ وَوَقَعَ فِي الذَّنْبِ، وَمُسْتَخْفِي مَا يَرِيدُ أَنْ يَطَّلَعَ عَلَيْهِ أَحَدٌ مُسْتَحْيٍ وَفِي قَلْبِهِ أَلَمٌ مِنْ هَذَا الذَّنْبِ، هَذَا قَرِيبٌ مِنَ التَّوْبَةِ. لَكِنْ الشَّخْصُ الَّذِي يَقَعُ فِي الذَّنْبِ وَيَسْتَعْلَنُ بِهِ وَيَشْهَرُهُ وَيَذْكُرُهُ وَيَتَحَدَّثُ بِهِ لِلنَّاسِ هَذَا بَعِيدٌ ؛ لِأَنَّهُ لَمْ يَقْتَصِرِ الْأَمْرُ عَلَى الذَّنْبِ، وَإِنَّمَا هُوَ ذَنْبٌ وَمُعَانَدَةٌ وَاسْتِعْلَانٌ بِالذَّنْبِ وَالْخَطِيئَةِ. وَيَجْتَمِعُ فِيمَنْ كَانَ كَذَلِكَ:

أَوَّلًا: أَنَّهُ هَتَكَ سِتْرَ اللَّهِ عَلَيْهِ؛ وَقَعَ فِي الذَّنْبِ وَسَتَرَهُ اللَّهُ فَقَامَ عِنْدَمَا أَصْبَحَ وَهَتَكَ سِتْرَ اللَّهِ عَلَيْهِ.

الأمر الثاني: أنه بهذا اهتك لستر الله يُهَيِّج المعصية ويحركها في النَّاس ويشيعها في المجتمع، فإذا حَدَّث مَنْ هم ضِعاف الإيمان أو في إيمانهم ضعف بأنه صنع وصنع وفعل ؛ تكون هذه دعاية للباطل وتحريك للباطل وتهيج النفوس الضَّعيفة لفعل الباطل، إضافةً إلى الجرم الذي ارتكبه أو الذَّنْب الذي وقع فيه.

قال: ((وإنَّ من المجاهرة)) «مَنْ» للتَّبَعِيز أي أنَّ المجاهرة لها صور، من صورها:

((أَنْ يَعْمَلَ الرَّجُلُ عَمَلًا بِاللَّيْلِ عَمَلًا)) أي: ذنبًا خاطئًا ((ثُمَّ يَصْبِحُ، وَقَدْ سَتَرَهُ اللَّهُ)) أي: لم يَطَّلِعْ أَحَدٌ مِنَ النَّاسِ عَلَى ذَنْبِهِ ((فَيَقُولُ: يَا فَلَانُ عَمَلْتُ الْبَارِحَةَ كَذَا وَكَذَا، وَقَدْ بَاتَ يَسْتَرُهُ رَبُّهُ، وَأَصْبَحَ يَكْشِفُ سِتْرَ اللَّهِ عَلَيْهِ)) فهذا من المجاهرة بالمعصية. والأصل في العبد أن يُجَاهِدَ نَفْسَهُ أَلَّا تَقَعَ فِي الذَّنْبِ، إِنْ غَلَبَتْهُ نَفْسُهُ وَوَقَعَ فِي الذَّنْبِ يَسْتَتِرُ بِسِتْرِ اللَّهِ، وَيَسْأَلُ اللَّهَ أَنْ يَغْفِرَ لَهُ وَأَنْ يَتُوبَ عَلَيْهِ، أَمَّا أَنْ يَصِلَ إِلَى هَذَا الْحَدِّ وَهُوَ الْاسْتِعْلَانُ بِالذَّنْبِ وَالْمِجَاهَرَةُ بِهِ فَهَذَا جُرْمٌ خَطِيرٌ وَذَنْبٌ وَخِيمٌ، وَأَهْلُهُ مِنْ أَعْدَاءِ النَّاسِ عَنِ الْمَعَاذَةِ كَمَا قَالَ نَبِيُّنَا عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: ((كُلُّ أُمَّتِي مُعَافَى إِلَّا الْمِجَاهِرِينَ)).

قال رحمه الله تعالى :

بَابُ مَا جَاءَ فِي الشَّتْمِ بِالزَّنا

١٥٢ - عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ مَرْفُوعًا: ((مَنْ قَذَفَ مَمْلُوكَهُ بِالزَّنا يُقَامُ عَلَيْهِ الْحَدُّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ، إِلَّا أَنْ يَكُونَ كَمَا قَالَ)).

قال رحمه الله تعالى: «بَابُ مَا جَاءَ فِي الشَّتْمِ بِالزَّنا» ؛ الشَّتْمُ بِالزَّنا أي: الاتِّهَامُ بِهِ وَالْوَصْفُ بِهِ.

«مَا جَاءَ فِي الشَّتْمِ بِالزَّنا» ؛ وَالشَّتْمُ بِالزَّنا نَوْعٌ مِنَ الشَّتْمِ، يَعْنِي بَعْضُ النَّاسِ عِنْدَمَا يَغْضَبُ مِنْ آخَرٍ يَشْتَمُهُ بِهَذَا، إِذَا يَقُولُ لَهُ: يَا الْفَاعِلُ لَكَذَا، أَوْ يَا ابْنَ الْفَاعِلِ لَكَذَا، أَوْ نَحْوَ ذَلِكَ.. فَهَذَا يُسَمَّى شَتْمًا بِالزَّنا.

قال: عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ مَرْفُوعًا: ((مَنْ قَذَفَ مَمْلُوكَهُ بِالزَّنا يُقَامُ عَلَيْهِ الْحَدُّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، إِلَّا أَنْ يَكُونَ كَمَا قَالَ)) أي إِلَّا أَنْ يَكُونَ الْمَمْلُوكُ كَمَا قَالَ سَيِّدُهُ فَإِنَّهُ لَا يُقَامُ عَلَيْهِ الْحَدُّ لِأَنَّهُ رَمَاهُ بِمَا هُوَ وَصْفٌ لَهُ وَبِمَا يَعْلَمُ أَنَّهُ وَصْفٌ لَهُ وَهُوَ وَصْفٌ لَهُ فَلَا يُقَامُ عَلَيْهِ، لَكِنْ فِي الدُّنْيَا لَا يُقَامُ الْحَدُّ عَلَى الْحَرِّ بِالْعَبْدِ بِرَمِيهِ، وَإِنَّمَا يُقَامُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كَمَا فِي هَذَا الْحَدِيثِ ؛ قَالَ: ((يُقَامُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَيْهِ الْحَدُّ)) لِمَاذَا؟ لِأَنَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ لَيْسَ هُنَاكَ أَحْرَارٌ وَعَبِيدٌ، يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَسْتَوِي النَّاسُ فِي ذَلِكَ، فَيُقَامُ عَلَيْهِ الْحَدُّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَهَذَا مِمَّا يَقْوَى قَوْلُ أَهْلِ الْعِلْمِ فِي أَنَّ الْحَرَّ لَا يُقَامُ عَلَيْهِ الْحَدُّ بِالْعَبْدِ، فَإِنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ هُنَا: ((مَنْ قَذَفَ مَمْلُوكَهُ بِالزَّنا يُقَامُ عَلَيْهِ الْحَدُّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، إِلَّا أَنْ يَكُونَ كَمَا قَالَ)) أي: إِلَّا أَنْ يَكُونَ فَعَلًا قَدْ وَقَعَ فِي الْأَمْرِ الَّذِي رَمَاهُ بِهِ.

قال رحمه الله تعالى :

باب النهي عن تسمية الفاسق سيِّداً

١٥٣ - عن بريدة رضي الله عنه مرفوعاً قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ((لا تقولوا للمنافق سيِّد، فإنه إن يك سيِّداً فقد أسخطتم ربكم)) رواه أبو داود بسند صحيح.

قال: «بابُ النهي عن تسمية الفاسق سيِّداً»؛ أي مَنْ عُرِفَ بالفسق وعُرِفَ بالفجور، عُرِفَ بالإجرام، عُرِفَ بالسُّوء لا يُقال له سيِّد؛ لأنَّ هذا اللَّقب يعني التَّقدِّم؛ لأنَّ السيِّد: هو المَقْدَّم الَّذي له التَّقدِّمة وله المكانة على غيره، فيُقال له سيِّد. والسِّيَّادة الَّتِي تُطْلَق على الإنسان سيَّادة نسبيَّة، لكن هذه السِّيَّادة النَّسبيَّة لا يجوز أن تُطْلَق على فاجر أو على فاسق.

قال: عن بُريدة مرفوعاً قال: قال رسول الله صَلَّى الله عليه وسلَّم: ((لا تقولوا للمنافق سيِّد)) أي أنَّ هذه السِّيَّادة النَّسبيَّة لا تُطْلَق على المنافق ، لا تُطْلَق على الفاجر إذا عُرِفَ بفجور، حتى وإن كان مقصود الإنسان معنى معيَّن بالسِّيَّادة، ولو كان معنىً محدود يقصده ؛ لا يُطْلَق هذا اللَّقب على المنافق.

قال: ((لا تقولوا للمنافق سيِّد، فإنه إن يك سيِّداً فقد أسخطتم ربكم)) ؛ إن يك سيِّداً يجعلكم إيَّاه سيِّداً واعتباركم إيَّاه سيِّداً مع وصفه الَّذي هو التَّفَاق والفجور والآثام فإنَّكم تكونون بذلك أسخطتم أي: أغضبتم ربكم سبحانه وتعالى.

سبحانك اللهم وبحمدك ، أشهد أن لا إله إلا أنت ، أستغفرك وأتوب إليك .

اللهم صلِّ وسلِّم على عبدك ورسولك نبينا محمد وآله وصحبه أجمعين.

الدرس الثاني والعشرون

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله ربّ العالمين، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله، صلى الله وسلم عليه وعلى آله وأصحابه أجمعين. أمّا بعد:

قال شيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب رحمه الله تعالى في كتاب الكبائر :

باب النهي عن الحلف بالأمانة

١٥٤ - عن بريدة رضي الله عنه مرفوعاً: ((من حلف بالأمانة فليس منا)) رواه أبو داود بسند صحيح.

قال المصنّف الإمام شيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب رحمه الله تعالى: «بابُ النَّهْيِ عَنِ الْحَلْفِ بِالْأَمَانَةِ» ؛ الأمانة، هي: شرعُ الله عزّ وجلّ ودينه، ﴿إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ﴾ [الأحزاب: ٧٢] ، والأمانة بمفهومها العام تتناول الدّين كلّهُ. وبمفهومها الخاص فهي رعاية الحقوق والعناية بها والوفاء، فإنّ من علامة أهل الإيمان الوفاء بالأمانة، ومن علامة المنافق أنّه إذا أُؤْمِنَ خان. فالأمانة شرعُ الله جلّ وعلا وأمره سبحانه وتعالى، ولا يُحْلَفُ إِلَّا بِأَسْمَاءِ اللَّهِ تبارك وتعالى وصفاته؛ كما قال نبيُّنا صلوات الله وسلامه عليه: ((مَنْ كَانَ حَالِفًا فَلْيَحْلِفْ بِاللَّهِ)) ، وقال عليه الصَّلَاةُ والسَّلَام: ((مَنْ حَلَفَ بِغَيْرِ اللَّهِ فَقَدْ كَفَرَ أَوْ أَشْرَكَ)) ؛ فالحلف بغير الله سبحانه وتعالى لا يجوز، ومن ذلكم الحلف بالأمانة. ولهذا جاء في هذا الحديث الذي رواه أبو داود من حديث بُرَيْدَةَ رضي الله عنه أنّ النَّبِيَّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: ((مَنْ حَلَفَ بِالْأَمَانَةِ فَلَيْسَ مِنَّا)) ، ولا يُقَالُ «ليس منّا» إلّا فيما هو كبير، وهذا يدلّ على خطورة الحلف بالأمانة. وهكذا كُلُّ حَلْفٍ بغيرِ الله سبحانه وتعالى فإنّه لا يجوز، بل شأنه كما قال النَّبِيُّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ والسَّلَام: ((فقد كفر أو أشرك))، ((لا تحلفوا بآبائكم ولا أمّهاتكم ، فَمَنْ كَانَ حَالِفًا فَلْيَحْلِفْ بِاللَّهِ)) . فالحلف بغير الله تبارك وتعالى من الشُّرْكِ، كَمَنْ يَحْلِفُ بِالْكَعْبَةِ، أَوْ بِالنَّبِيِّ، أَوْ بِالْوَلِيِّ، أَوْ بِالْأَوْلِيَاءِ، أَوْ بِالشَّرَفِ، أَوْ بِالْأَمَانَةِ، أَوْ بِالْآبَاءِ، أَوْ بِالْأُمّهات، أَوْ غير ذلك، فهذا كلّهُ حرام، ليس للإنسان أن يحلف إلّا بالله، ((مَنْ كَانَ حَالِفًا فَلْيَحْلِفْ بِاللَّهِ)) سبحانه وتعالى. قال رحمه الله تعالى :

بابُ النهي عن الحلف بجملة غير الإسلام

١٥٥ - عن أبي زيد رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ((من حلف بجملة غير الإسلام كاذباً متعمداً فهو كما قال)) أخرجاه.

قال رحمه الله تعالى: «بابُ النَّهْيِ عَنِ الْحَلْفِ بِمِلَّةٍ غَيْرِ الْإِسْلَامِ»؛ المراد بذلك: التَّحْذِيرُ مِمَّا يَقَعُ مِنْ بَعْضِ النَّاسِ عِنْدَ التَّأَكُّيدِ عَلَى أَمْرٍ يَبْتِغِيهِ أَوْ أَمْرٍ يَنْفِي وَقُوعَهُ يَحْلِفُ عَلَى مِلَّةٍ غَيْرِ الْإِسْلَامِ، كَأَن يَقُولُ -وَالْعِيَاذُ بِاللَّهِ-: هُوَ يَهُودِيٌّ إِنْ لَمْ يَكُنْ هَذَا الْأَمْرُ كَذًّا، أَوْ هُوَ نَصْرَانِيٌّ إِنْ لَمْ يَكُنْ هَذَا الْأَمْرُ كَذًّا، أَوْ هُوَ مَجُوسِيٌّ إِنْ لَمْ يَكُنْ هَذَا الْأَمْرُ كَذًّا. وَهَذَا خَطِيئَةٌ جَدًّا، وَهُوَ إِنَّمَا يَنْشَأُ مِنْ رِقَّةِ الدِّينِ وَضَعْفِ الدِّرَايَةِ وَالْمَعْرِفَةِ بِمَقَامِ الْإِسْلَامِ الْعَلِيِّ الرَّفِيعِ الْعَظِيمِ.

فِي مِثْلِ هَذَا الْحَلْفِ اسْتِهَانَةٌ، وَلِهَذَا سَيَأْتِي أَنَّهُ إِذَا رَجَعَ عَنْ ذَلِكَ فَلَنْ يَرْجَعَ إِلَى الْإِسْلَامِ سَالِمًا؛ لِأَنَّ هَذَا لَا يَنْشَأُ إِلَّا عَنْ اسْتِهَانَةٍ وَرِقَّةٍ بِمَقَامِ دِينِ اللَّهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى الَّذِي خَلَقَهُ اللَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى لِأَجَلِهِ وَأَوْجَدَهُ لِتَحْقِيقِهِ وَلَا يَرْضَى دِينًا سِوَاهُ، كَمَا قَالَ جَلَّ وَعَلَا: ﴿وَمَنْ يُبْتَغِيْ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ [آل عمران: ٨٥]، وَكَمَا قَالَ جَلَّ وَعَلَا: ﴿إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ﴾ [آل عمران: ١٩]. فَمَنْ يَقُولُ عِنْدَ حَلْفِهِ: هُوَ يَهُودِيٌّ إِنْ لَمْ يَكُنْ الْأَمْرُ كَذًّا، أَوْ هُوَ نَصْرَانِيٌّ إِنْ لَمْ يَكُنْ الْأَمْرُ كَذًّا، هَذَا لَا يَكُونُ إِلَّا مِنْ ضَعْفِ مَقَامِ هَذَا الدِّينِ عِنْدَهُ وَضَعْفِ مَنْزِلَةِ الْإِسْلَامِ عِنْدَهُ، وَإِلَّا لَمْ يَقُلْ مِثْلَ هَذَا الْكَلَامِ، وَإِذَا كَانَ كَاذِبًا فِيمَا قَالَ فَهَذَا أَشَدُّ وَأَشَدُّ، وَأَعْظَمُ وَأَنْكَى، إِذَا كَانَ كَاذِبًا فِيمَا يَقُولُ وَيَعْلَمُ أَنَّهُ كَاذِبٌ ثُمَّ يَقُولُ هُوَ عَلَى الْيَهُودِيَّةِ أَوْ هُوَ عَلَى النَّصْرَانِيَّةِ أَوْ غَيْرِ ذَلِكَ، وَهُوَ كَاذِبٌ، فَهَذَا مِنْ أَعْظَمِ مَا يَكُونُ، وَلَا يَكُونُ إِلَّا مِنْ شَخْصٍ ضَعُفَ مَقَامِ الدِّينِ عِنْدَهُ. وَجَاءَ فِي هَذَا وَعِيدٌ فِي بَعْضِ الْأَحَادِيثِ، سَاقَ شَيْئًا مِنْهَا الْمُصَنِّفُ رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى.

مِنْهَا: حَدِيثُ أَبِي زَيْدٍ الْأَنْصَارِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ((مَنْ حَلَفَ بِمِلَّةٍ غَيْرِ الْإِسْلَامِ)) هَذَا يَتَنَاوَلُ كُلَّ مِلَّةٍ؛ لِأَنَّ هَذَا مِنْ صَيَغِ الْعُمُومِ «بِمِلَّةٍ»، «مِلَّةً» جَاءَتْ نَكْرَةً فِي سِيَاقِ الشَّرْطِ فَتُفِيدُ الْعُمُومَ، أَيُ: أَيُّ مِلَّةٍ كَانَتْ غَيْرَ مِلَّةِ الْإِسْلَامِ.

((مَنْ حَلَفَ بِمِلَّةٍ غَيْرِ الْإِسْلَامِ كَاذِبًا مُتَعَمِّدًا)) كَاذِبًا فِيمَا قَالَ، مُتَعَمِّدًا فِي هَذَا الْحَلْفِ بِمِلَّةٍ غَيْرِ مِلَّةِ الْإِسْلَامِ. ((فَهُوَ كَمَا قَالَ)) أَيُ: الْأَمْرُ يَكُونُ فِي حَقِّهِ كَمَا قَالَ، وَهَذَا مِنْ نَصُوصِ الْوَعِيدِ، يَعْنِي إِنْ قَالَ -وَالْعِيَاذُ بِاللَّهِ-: هُوَ يَهُودِيٌّ إِنْ لَمْ يَكُنْ الْأَمْرُ كَذًّا وَكَذَا، وَيَقُولُ ذَلِكَ كَاذِبًا، فَالْأَمْرُ كَمَا قَالَ؛ أَيُ: هُوَ يَهُودِيٌّ. وَهَذَا فِيهِ الْوَعِيدُ الشَّدِيدُ وَالتَّحْذِيرُ مِنْ مِثْلِ هَذِهِ الْمَقَالَةِ الَّتِي يُخَشَى عَلَى دِينِ الْمَرْءِ مِنْ أَنْ يَذْهَبَ وَأَنْ يَزُولَ بِمِثْلِ هَذِهِ الاسْتِهَانَةِ وَالِاسْتِخْفَافِ بِمَقَامِ الدِّينِ؛ أَنْ يَحْلِفَ بِمِثْلِ هَذَا الْحَلْفِ.

قال رحمه الله تعالى :

١٥٦ - وعن بريدة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ((من حلف فقال: أنا بريء من الإسلام. فإن كان كاذبًا فهو كما قال، وإن كان صادقًا فلن يرجع إلى الإسلام سالمًا)) رواه أبو داود.

قال: وعن بُرَيْدَةَ رضي الله عنه قال: قال رسول الله صَلَّى الله عليه وسلَّم: ((مَنْ حَلَفَ فَقَالَ: أَنَا بَرِيءٌ مِنَ الْإِسْلَامِ)) ثُمَّ يَذْكُرُ أَمْرًا، إِنْ لَمْ يَكُنْ كَذَا، كَذَا وَكَذَا مِثْلًا .

((فَإِنْ كَانَ كَاذِبًا فَهُوَ كَمَا قَالَ)) أَي: كَمَا قَالَ فِي بَرَاءَتِهِ مِنَ الْإِسْلَامِ.

((وَإِنْ كَانَ صَادِقًا فَلَنْ يَرْجِعَ إِلَى الْإِسْلَامِ سَالِمًا)) لِمَاذَا؟ حَتَّى الْآنَ وَإِنْ كَانَ صَادِقًا فِيمَا قَالَ لَنْ يَرْجِعَ سَالِمًا، لِمَاذَا؟ لِأَنَّ هَذِهِ الْكَلِمَةَ إِنَّمَا نَشَأَتْ عَنْ اسْتِخْفَافٍ بِأَمْرِ الْإِسْلَامِ وَبِمَقَامِهِ الْعَظِيمِ وَمَنْزِلَتِهِ الْعَلِيَّةِ.

وَمَنْ حَلَفَ هَذَا النَّوعَ مِنَ الْحَلْفِ الْآثِمِ الْبَاطِلِ عَلَى أَنْ يَفْعَلَ شَيْئًا وَتَرَكَهُ أَوْ أَنْ يَتْرَكَ شَيْئًا فَفَعَلَهُ هَلْ عَلَيْهِ فِيهِ كَفَّارَةٌ أَوْ لَيْسَ عَلَيْهِ كَفَّارَةٌ؟ هَذَا فِيهِ خِلَافٌ عِنْدَ أَهْلِ الْعِلْمِ ، وَقَدْ جَاءَ فِي فِتَاوَى اللَّجْنَةِ الدَّائِمَةِ لِلْإِفْتَاءِ قَوْلُهُمْ: «وَإِذَا فَعَلَ مَا حَلَفَ عَلَى تَرْكِهِ، أَوْ تَرَكَ مَا حَلَفَ عَلَى فَعْلِهِ فَعَلِيهِ كَفَّارَةٌ يَمِينٌ، مَعَ التَّوْبَةِ إِلَى اللَّهِ، وَعَدَمَ الْعُودِ إِلَى مِثْلِ هَذِهِ الْيَمِينِ، وَلَا يَكْفُرُ بِذَلِكَ، وَتَكْفِيهِ التَّوْبَةُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ؛ لِقَوْلِ اللَّهِ سُبْحَانَهُ: ﴿وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِمَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا ثُمَّ اهْتَدَى﴾ [طه: ٨٣] وَلَا تُحْبِطُ أَعْمَالُهُ؛ لِأَنَّهُ لَمْ يُرِدِ الْكُفْرَ، وَإِنَّمَا أَرَادَ التَّأَكِيدَ عَلَى نَفْسِهِ بِعَمَلِ شَيْءٍ أَوْ تَرْكِهِ» انْتَهَى كَلَامُهُمْ.

«وَإِنَّمَا أَرَادَ التَّأَكِيدَ عَلَى نَفْسِهِ بِعَمَلِ شَيْءٍ أَوْ تَرْكِهِ» يَعْنِي: عِنْدَمَا قَالَ هُوَ كَذَا، هُوَ لَمْ يَقْصِدْ حَقِيقَةَ الْكُفْرِ وَأَنَّهُ مِنْ أَهْلِ تِلْكَ الدِّيَانَةِ، وَإِنَّمَا أَرَادَ بِهَذَا الْمَقَامِ الضَّيِّقِ الَّذِي احْتِاجَ فِيهِ إِلَى الْيَمِينِ أَنْ يُؤَكِّدَ هَذَا الْأَمْرَ وَأَنْ يَبَالِغَ فِي تَأَكِيدِهِ فَقَالَ مَا قَالَ، لَا أَنَّهُ يَقْصِدُ أَصَالَةً أَنَّهُ مِنْ أَهْلِ تِلْكَ الدِّيَانَةِ، وَلِهَذَا قَالُوا: إِنَّهُ لَا يَكْفُرُ وَلَا تُحْبِطُ أَعْمَالُهُ؛ لِأَنَّهُ لَمْ يَرِدِ الْكُفْرَ، وَإِنَّمَا أَرَادَ التَّأَكِيدَ عَلَى نَفْسِهِ بِعَمَلِ شَيْءٍ أَوْ تَرْكِهِ.

قال رحمه الله تعالى :

بَابُ مَا جَاءَ فِي الْغِيْبَةِ

وقول الله تعالى: ﴿وَلَا يَغْتَبُ بَعْضُكُمُ بَعْضًا﴾ الآية [الحجرات: ١٢] .

قال رحمه الله تعالى: «بَابُ مَا جَاءَ فِي الْغِيْبَةِ» أَي: مِنَ الْوَعِيدِ. وَالْغِيْبَةُ مِنْ كِبَائِرِ الذُّنُوبِ، وَهِيَ: ذِكْرُكَ أَخَاكَ بِمَا يَكْرَهُ؛ أَي: بِمَا يَكْرَهُ أَنْ تَذْكُرَهُ بِهِ، فَكُلُّ مَا يَعْلَمُ الْمَرْءُ أَنَّ أَخَاهُ يَكْرَهُ أَنْ يَذْكُرَهُ بِهِ، فَلَا يَحِلُّ لَهُ أَنْ يَتَحَدَّثَ بِهِ فِي غَيْبَتِهِ، فَإِذَا تَحَدَّثَ بِهِ فِي غَيْبَتِهِ فَهِيَ غِيْبَةٌ. وَالْغِيْبَةُ مِنْ كِبَائِرِ الْإِثْمِ. وَقَدْ جَاءَ النَّهْيُ عَنْهَا فِي كِتَابِ اللَّهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، فِي سُورَةِ الْحَجَرَاتِ قَالَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِّنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ

الظَّنِّ إِنَّهُمْ وَلَا تَجَسَّسُوا وَلَا يَغْتَبَ بَعْضُكُمْ بَعْضًا أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَنْ يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَحِيمٌ ﴿١٢﴾ [الحجرات: ١٢] .

وقوله سبحانه وتعالى: ﴿أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَنْ يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا﴾ هذا مثلٌ ضربه الله سبحانه وتعالى للمغتتاب أنه بمثابة مَنْ يأكل لحم أخيه ميتًا، ومعلومٌ أنَّ أكل لحم الأخ ميتًا حرام ولا يحل ولا يجوز، ولا تقبله أصلاً نفسٌ مستقيمة، فالله سبحانه وتعالى جعل الغيبة مثلها مثل مَنْ يأكل لحم أخيه ميتًا، وأمر سبحانه وتعالى باجتناب ذلك وحذّر منه، فهذا ممّا يدلّ على أنَّ الغيبة من الكبائر.

قال رحمه الله تعالى :

١٥٧ - عن أبي بكرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال في خطبته يوم النحر: ((أي شهر هذا؟)) فسكتنا حتى ظننا أنه سيسمّيه بغير اسمه. فقال: ((أليس ذا الحجة؟)) قلنا: بلى. قال: ((فأي بلد هذا؟)) فسكتنا حتى ظننا أنه سيسمّيه بغير اسمه ، فقال: ((أليس بلد الله الحرام؟)) قلنا: بلى. قال: ((فأي يوم هذا؟)) فسكتنا حتى ظننا أنه سيسمّيه بغير اسمه. فقال: ((أليس يوم النحر؟)) قلنا: بلى. قال: ((فإن دماءكم وأموالكم وأعراضكم عليكم حرام، كحرمة يومكم هذا، في شهركم هذا، في بلدكم هذا. وستلقون ربكم فيسألکم عن أعمالکم. ألا فلا ترجعوا بعدي كفارًا يضرب بعضكم رقاب بعض. ألا فليبلغ الشاهد منكم الغائب، فلعلّ بعض من يبلغه أن يكون أوعى ممن سمعه)). ثم قال: ((ألا هل بلغت؟)) قلنا: نعم قال: ((اللهم اشهد)) قالها ثلاثاً. أخرجاه.

قال رحمه الله تعالى: عن أبي بكرة رضي الله عنه «أنَّ رسولَ الله صَلَّى الله عليه وسلَّم قال في خطبته يوم النحر» هذا فيه أنَّ النَّبِيَّ عليه الصَّلَاةُ والسَّلَامُ خطب النَّاسَ يوم النحر ، وجاء في حديث جابر، أنَّه خطبهم أيضًا قبل ذلك في يوم عرفة، وجاء أيضًا أنَّه خطب في أوسط أيَّام التشريق، وجاء أيضًا أنَّه خطب ووعظ النَّاسَ في مسجد الخيف، وقال في خطبته تلك: ((نضّر الله امرأً سمع مقالتي فوعاها...)) إلى آخر الحديث. الشاهد: أنَّه جاء عن النَّبِيِّ صَلَّى الله عليه وسلَّم عدد من الخطب العظيمة، ومَنْ يتأمل تلك الخطب يجد أنَّها أتت على مجامع الدِّين وأصول الإيمان، وقواعد الإسلام، والنَّهي عن الكبائر والمحرمات والآثام، والتَّحذير من الجاهليَّة، وإبطالها بكلِّ أصنافها، وجعلها تحت القدمين، والدَّعوة إلى التَّحليِّ بأداب الشَّريعة، وأخلاقها العظيمة الفاضلة، هذا كُلُّه اشتملت عليه خطب النَّبِيِّ عليه الصَّلَاة والسَّلَام ، ولا غرْو أن تكون مشتملةً على ذلك كُلِّه؛ لأنَّها خطبة مودَّع ووصيَّة مودَّع، وكان عليه الصَّلَاة والسَّلَام قد قال للنَّاس في أثناء كلامه في حجة الوداع: ((لعلِّي لا ألقاكم بعد

عامي هذا)) ، فوصية المودع فيها من الاستقصاء ما ليس في غيرها، وفيها من جمع معاني البيان والوعظ والنصح والتحذير، فوصية المودع لها شأن عظيم، فوصايا النبي عليه الصلاة والسلام وخطبه التي كانت في حجة الوداع جمعت هذا كله، جمعت:

✓ الوصية بالإيمان الذي هو أساس الدين.

✓ والوصية بالكتاب والسنة والعناية بهما.

✓ والوصية بأصول الإيمان وقواعد الدين.

✓ الوصية بفرائض الإسلام من صلاة وصيام، ((اعبدوا ربكم، وصلوا خمسكم، وصوموا شهركم، وأدوا زكاة مالكم، وأطيعوا ذا أمركم، تدخلوا جنة ربكم)) قال هذا في حجة الوداع.

✓ التحذير من الكبائر، ولا سيما أكبر الكبائر ، مما قاله في حجة الوداع: ((ألا إن ما هن أربع: لا تشركوا بالله شيئاً، ولا تقتلوا النفس التي حرم الله إلا بالحق، ولا تزنوا، ولا تسرقوا)).

فتنوعت خطب النبي عليه الصلاة والسلام في حجة الوداع، ولهذا من الأمور التي ينبغي أن يعتني بها الحاج، ويعتني بها أيضاً المسلم؛ الإطلاع على خطب النبي عليه الصلاة والسلام والوقوف على مضامينها العظيمة؛ لأنها حوت خيراً عظيماً وفوائد جمّة نافعة تمس حاجة المسلم إليها.

وهذه واحدة من خطبه عليه الصلاة والسلام في حجة الوداع، يرويها أبو بكره رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال في خطبة يوم النحر: ((أي شهر هذا؟ فسكتنا، حتى ظننا أنه سيسميه بغير اسمه. فقال: أليس ذا الحجة؟ قلنا: بلى. قال: فأبي بلد هذا؟ فسكتنا، حتى ظننا أنه سيسميه بغير اسمه. قال: أليس بلد الله الحرام؟ قلنا: بلى. قال: فأبي يوم هذا؟ فسكتنا، حتى ظننا أنه سيسميه بغير اسمه. قال: أليس يوم النحر؟ قلنا: بلى)) ؛ هذه كلها توطئة بين يدي أمر عظيم يذكرهم به عليه الصلاة والسلام ، فبدأ ذلك أولاً بجعلهم يستحضرون حرمة البلد الحرام، وحرمة الشهر الحرام، وحرمة يومهم هذا الذي هو يوم النحر، وهم يدركون حرمة الشهر وحرمة البلد وحرمة اليوم الذي هو يوم النحر، يدركون حرمة هذه الأيام، ومستقر في نفوسهم حرمة هذه الأيام، فأراد أن يستحضروا ذلك ليبيّن لهم عليه الصلاة والسلام حرمة الدماء والأموال والأعراض .

فقال: ((فإن دماءكم وأموالكم وأعراضكم عليكم حرام، كحرمة يومكم هذا، في شهركم هذا، في بلدكم هذا)) فهذه الثلاث: الدماء، والأموال، والأعراض؛ كلها حرام، لا يحلّ لمسلم أن يتعرض لدم مسلم ولو قطرة دم ، ولا يحلّ له أن يتعرض لماله ولا درهم واحد بغير حق، ولا يحلّ له أن يتعرض لعرضه. هذه كلها حرام لا يجوز أن تمسّ ولا يجوز أن تُنال ولا يجوز أن يُعتدى عليها.

قال ذلك عليه الصلاة والسلام في هذا اليوم يوم النحر، وأيضاً اليوم الذي قبله يوم عرفة في حديث جابر أيضاً قال لهم هذا الكلام صلوات الله وسلامه عليه ، قال: ((إن دماءكم وأموالكم حرام عليكم ، كحرمة يومكم هذا

في بلدكم هذا في شهركم هذا)) ، وهذا مما يدل على اهتمام النبي عليه الصلاة والسلام بالتأكيد على حرمة الدماء والأموال والأعراض كثر ذلك في يوم عرفة ثم في يوم النحر، وأيضاً كثره بصيغ أخرى ، مثل قوله: ((ألا إنما هن أربع: لا تشركوا بالله شيئاً، ولا تقتلوا النفس التي حرم الله إلا بالحق، ولا تزنوا، ولا تسرقوا)) ؛ قوله: ((لا تقتلوا النفس التي حرم الله إلا بالحق)) هذا الدماء. وقوله: ((لا تزنوا)) هذه الأعراض. وقوله ((لا تسرقوا)) هذه الأموال. ((إن دماءكم وأموالكم وأعراضكم عليكم حرام)) فكرر ذلك ونوع أيضاً في طريقة البيان والتحذير مما يدل دلالة واضحة على خطورة هذه الأمور الخطورة البالغة؛ الدماء، والأموال، والأعراض، وأنه لا يجوز أن يعتدي على شيء منها، بأي شيء لا بقليل ولا كثير، الأموال حرام، والدماء حرام، والأعراض حرام. وسيُسأل كل من اعتدى على شيء من هذه الأمور الثلاث سيُسأل عن ذلك يوم القيامة، ويحاسبه الله تبارك وتعالى على قليل ذلك وكثيره، هذه أمور حرمها الله سبحانه وتعالى . وقد جاء في بعض الآثار: أن رجلاً كتب لابن عمر رضي الله عنه قال: "اكتب لي بالعلم كله"؛ هذه كيف تُكتب؟! طلب منه وصية قال: اكتب لي بالعلم كله، جواب هذا السؤال كيف يُكتب؟! فقال رضي الله عنه: «إن العلم كثير، لكن إن استطعت أن تلقى الله خفيف الظاهر من دماء المسلمين، خميص البطن من أموالهم، كاف اللسان عن أعراضهم، لازماً جماعتهم، فافعل». العلم كثير لكن هذه الأشياء إن استطعت أن تخرج من الدنيا وأنت سالم منها، فأنت سالم وأنت غانم وأنت رابح، أكد رضي الله عنه على هذه الثلاث: "الدماء، والأموال، والأعراض" ، لا يجوز للإنسان أن يستهين بهذه الأشياء، والنبي عليه الصلاة والسلام في وداعه الأمة في خطب الوداع يؤكد على هذه الأمور التأكيد البالغ صلوات الله وسلامه عليه مُحذراً ومنذراً، قال: ((فإن دماءكم وأموالكم وأعراضكم حرام عليكم كحرمة يومكم هذا في شهركم هذا في بلدكم هذا)).

((وستلقون ربكم)) أي: يا معاشر المؤمنين يا معاشر الناس ستقفون بين يدي الله، وفي الوقوف بين يدي الله سؤال وحساب ومجازاة، والنبي عليه الصلاة والسلام بلغ وأنذر ، "وقد أعذر من أنذر"، وحذر صلوات الله وسلامه عليه حذر الأمة بلغ البلاغ المبين صلى الله عليه وسلم. ((وستلقون ربكم، فيسألكم عن أعمالكم)) انتبهوا، هذه الأمور كونوا منها على أشد الحذر، وتذكروا دائماً أنكم ستلقون الله.

سبحان الله! هذه الكلمة جداً نافعة عندما تكون حاضرة في قلب الإنسان، كل ما أراد أن يُقدم على شيء يذكر نفسه بأنه سيلقى الله وأن الله سيحاسبه على أعماله، هذا الذي -مثلاً- يُطلق لسانه في الأعراض، أو ذاك الذي يمد يده على الأموال، أو ذاك الذي يرفع سيفه على الرقاب ويعتدي على الأرواح، لو وقف مع نفسه قبل أن يُقدم على شيء من هذه الأعمال وقال: كل ما سأفعله سألقى الله به وسيحاسبني عليه، وهذه كلها حرام، حرمها الله، الدماء حرام، الأموال حرام، الأعراض حرام، كلها حرمها الله، وإذا أقدمت على شيء من ذلك الأمر لا ينتهي، سألقى الله بهذا العمل وسيحاسبني الله عليه ﴿لِيَجْزِيَ الَّذِينَ أَسَاءُوا بِمَا عَمِلُوا وَيَجْزِيَ الَّذِينَ

أَحْسِنُوا بِالْحُسْنَى ﴿[التَّحْم: ٣١]﴾، فالمسيء يجزيه بأعماله، ويحاسبه على أعماله، ويعاقبه على أعماله، فإذا لقي الإنسان ربّه وهو يحمل من المظالم والتّعديّات والجنايات، فإنّه يكون أوبق نفسه وأهلك نفسه بهذه الأعمال. ولهذا قوله: ((وستلقون ربكم، فيسألكم عن أعمالكم)) أي انتبهوا، كلّ من تحدّثه نفسه أن يُقدّم على شيء من هذه الأمور في الدّماء أو الأموال أو الأعراض، يتذكّر أنّه سيلقى الله، وأنّ هذه ستدخل في عمله الذي يحاسبه الله عليه يوم يقف بين يديّ الله سبحانه وتعالى.

قال: ((ألا)) وهي أداة تنبيه وتحذير.

((ألا فلا ترجعوا بعدي كفّاراً؛ يضرب بعضكم رقاب بعض)) سمّي ضرب رقاب المسلمين بعضهم لبعض سمّي ذلك كفّراً، قال: ((لا ترجعوا بعدي كفّاراً)) ثمّ ذكر نوع هذا الكفر قال: ((يضرب بعضكم رقاب بعض)) فسمّي ذلك كفّراً، وهذا يدلّ على أنّ ضرب المسلمين بعضهم رقاب بعض أنّ هذا من كبائر الذنوب وعظائم الآثام، حيث إنّ النّبّي عليه الصّلاة والسّلام سمّاه كفّراً، مثل قوله في الحديث الآخر: ((سبابُ المسلم فسوق، وقتاله كفر)) . فسمّي ذلك عليه الصّلاة والسّلام كفّراً؛ لأنّ هذا العمل ليس من شعب الإيمان ولا من فروعه، هذا من شعب الكفر ومن خصال الكفر، الكافر هو الذي يقتل المسلم، هذا من أعمال الكفّار، الكافر هو الذي يقتل المسلم، ليس المسلم هو الذي يقتل المسلم. الإسلام يدعو المسلمين إلى الالتحام والتّعاقد والتّعاون وتحقيق معنى الأخوة، كما قال الله عزّ وجلّ: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلَحُوا بَيْنَ أَخَوِيكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ [الحجرات: ١٠]، هذا الذي يدعو إليه الإسلام، وهذا الذي أمر به الإسلام، أمّا أنّ المسلم يُقدّم على قتل أخيه المسلم ظلماً وعدواناً، هذا ليس من الإسلام، هذا من أعمال الكفّار ومن أعمال الكافرين، الكافر هو الذي يقتل المسلم لمعاداته له في دينه، أمّا المسلم لماذا يقتل أخاه المسلم؟! فالدّماء حرام، والأموال حرام، والأعراض حرام.

قال: ((ألا)) انظر كلام النّاصح صلوات الله وسلامه عليه: ((ألا فليبلغ الشاهد منكم الغائب)) الذين حضروا يبلّغوا الغائبين، الذين سمعوا يبلّغوا من لم يسمعوا ومن لم يحضروا، وهذا فيه أهميّة نشر هذا الدّين، وهذا أصل ينبغي أن ينتبه له طالب العلم. العلم تتعلّمه لغرضين:

✓ أولاً: لتصلح نفسك.

✓ وثانياً: لتنشر هذا العلم في الأمّة وتبلّغه للنّاس.

((ألا فليبلغ الشاهد منكم الغائب))؛ فالذي يتعلّم العلم يتعلّمه أولاً ليصلح نفسه بهذا العلم، ومن ثمّ ليصلح به الآخرين، مثل ما قال وفد عبد القيس للنّبّي عليه الصّلاة والسّلام قالوا: «مُرنا بقولٍ فصل؛ نخبر به من وراءنا، وندخل به الجنّة» أي: نحن أنفسنا نصلح به ونستقيم ونعبد الله على بصيرة فندخل الجنّة، وأيضاً نخبر به من وراءنا، ونبلّغهم هذا الخير ونوصل إليهم هذا الخير. وهذا هو صلاح النّبيّة في طلب العلم، «العلم لا يعدله شيء إذا

صُلِّحَتِ النَّيَّةُ»، وصلاحتها أن تنوي به رفع الجهل عن نفسك، وعن غيرك. رفع الجهل عن نفسك: بإصلاحها بالعلم. وعن غيرك: بدعوتهم إلى هذا العلم الذي وقَّعك الله سبحانه وتعالى لتعلمه.

((ألا فليبلغ الشاهد منكم الغائب، فلعلَّ بعض مَنْ يبلغه أن يكون أوعى مِّنْ سمعه)) وهذا حق، قد يحفظ بعض النَّاس الحديث لكن ما يكون عنده من التمكن والقدرة والإدراك للاستنباط، فينقله إلى غيره مِّنْ آتاه الله فهمًا وبصيرة فيفهم منه ما لم يكن يفهمه مَنْ نقله إليه، فلعلَّ بعض مَنْ يبلغه أن يكون أوعى مِّنْ سمعه. أحيانًا تحفظ بعض الأحاديث ثم تفتح أحد كتب أهل العلم وتجده يقول هذا الحديث فيه فوائد، ويسرد لك فوق الخمسين فائدة، وأنت وأنت تحفظه ربَّما لو جمعت نفسك في استخلاص الفوائد منه يمكن ما تصل إلى خمس فوائد تستخلصها من هذا الحديث، فما كلَّ مَنْ يحفظ الحديث يُحسن فهمه واستخلاص الفوائد واستنباط الفوائد منه، فاوت الله سبحانه وتعالى بين العباد في ذلك بما آتاهم الله عزَّ وجلَّ من فهم وعلم ودراسة.

ثم قال: ((ألا هل بلغت؟ ألا هل بلغت؟ قلنا: نعم. قال: اللهم اشهد. قالها ثلاث مرَّات. وجاء في حديث جابر في اليوم الذي قبل هذا اليوم أنَّه قال هذا الكلام، قال: ((ألا هل بلغت؟)) فيقول: نعم، فكان يرفع إصبعه إلى السَّماء، أمام جموع الحجاج وينكثها عليهم ويقول: اللهم اشهد! ، ثمَّ يرفع إصبعه إلى السَّماء ويقول: اللهم اشهد! ؛ وهذا إشارة إلى الله عزَّ وجلَّ بالعلوِّ، وأنه عليَّ جلَّ وعلا مستوٍ على عرشه، بائنٌ من خلقه، استواءٌ يليق بجلاله وكماله وعظمته جلَّ في علاه، هذا إيمان بعلوِّ الله العليِّ المتعال جلَّ وعلا. فالشَّاهد: أنَّ هذه موعظة عظيمة وبلغعة حدَّر فيها صلوات الله وسلامه عليه تحذيرًا بليغًا من الاعتداء على الدِّماء والأموال والأعراض، وبين حُرمة هذه وأنَّه لا يجوز الاعتداء عليها لا في قليل ولا كثير.

والشَّاهد من الحديث للترجمة: قوله ((وأعراضكم)) ؛ لأنَّ الغيبة فيها انتهاك للأعراض، ولهذا أيضًا جاء في بعض خطب النَّبيِّ عليه الصَّلَاة والسَّلَام في بعض مواعظه في حجة الوداع أنَّه كان سئل عن التَّقديم والتَّأخير، فكان يقول: ((لا حرج)) ، ثمَّ قال في أثناء ذلك عليه الصَّلَاة والسَّلَام: ((لا حرج إلَّا مَنْ اقترض مسلمًا، فهذا الذي حرج وهلك)) ، يعني: مَنْ اقترض عرض الأخ المسلم بأن نال من عرضه واعتدى على عرضه، قال: ((فهذا الذي حرج وهلك))، أي: أنَّ هذا فيه الحرج وفيه الإثم وفيه هلاك الإنسان، قال ذلك عليه الصَّلَاة والسَّلَام مُحذِّرًا من التَّعدِّي على الأعراض بغيبة أو غير ذلك.

قال رحمه الله تعالى :

١٥٨- ولهما عن ابن عمرو رضي الله عنهما مرفوعا أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: ((المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده، والمهاجر من هجر ما نهى الله عنه)).

قال: ولهما عن ابن عمرو أي عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما أنَّ رسول الله صَلَّى الله عليه وسلَّم قال: ((المسلمُ مَنْ سلِمَ المسلمون من لسانه ويده، والمهاجرُ مَنْ هجر ما نهى الله عنه)).

قوله: ((المسلم)) أي: كامل الإسلام ((مَنْ سلِمَ المسلمون من لسانه ويده)) ؛ وهذا يدلُّ على أنَّ مَنْ لم يسلم المسلمون من لسانه ويده فإسلامه ناقص؛ لأنَّ المسلم الكامل الذي كَمَلَ إسلامه يسلم المسلمون من لسانه ويده، فإذا وُجِدَ اعتداء من مسلم على أخيه باللسان أو باليد، فهذا من أمارات نقص الإسلام؛ لأنَّ الإسلام الكامل يمنع ويكفِّ المرء من الاعتداء على الآخرين لا باللسان ولا باليد، فإذا وُجِدَ اعتداء باللسان أو باليد، فهذا من نقص الإسلام.

قال: ((والمهاجر مَنْ هجر ما نهى الله عنه)) أي: هجر الخطايا والذنوب، وهذا أعظم ما يكون في الهجرة: هجرة الذنوب ومجانبتها، والابتعاد عن أهلها، والابتعاد عن الوسائل المفضية إليها، ومجاهدة النفس على البعد عنها. قال: ((والمهاجر مَنْ هجر ما نهى الله عنه)).

وجاء في بعض ما رُوي عن النبي صَلَّى الله عليه وسلَّم في خطبه في حَجَّة الوداع أنَّه قال صَلَّى الله عليه وسلَّم في بعض خطبه في حَجَّة الوداع: ((ألا أخبركم بالمؤمن؟ المؤمن مَنْ أَمَنَ النَّاسُ على دماءهم وأموالهم ، والمسلم مَنْ سلِمَ المسلمون من لسانه ويده، والمجاهد مَنْ جاهد نفسه في طاعة الله، والمهاجر مَنْ هجر ما نهى الله عنه)) ؛ فذكر عليه الصَّلَاة والسَّلَام أمورًا أربعة ذكر فيها: المؤمن وأَنَّهُ مَنْ أَمَنَ النَّاسُ على دماءهم وأموالهم، والمسلم مَنْ سلِمَ المسلمون من لسانه ويده ؛ وهذا فيه ذكر الفرق بين الإسلام والإيمان، وأنَّ الإيمان عندما يجتمع مع الإسلام يتعلَّق بالقلب، والإسلام يتعلَّق بالظاهر. ولهذا لما ذكر المؤمن قال: ((المؤمن مَنْ أَمَنَ)) والأمن أين مكانه؟ الأمن وضده الخوف مكانه القلب. قال: ((أمنه النَّاسُ على دماءهم وأموالهم)) ، ولما عرَّف المسلم قال: ((المسلم مَنْ سلِمَ المسلمون من لسانه ويده))، اللسان واليد هذا عمل ظاهر، فعرَّف الإسلام بالعمل الظاهر، وعرَّف الإيمان بالعمل الباطن الذي هو في القلب، فالإيمان والإسلام إذا اجتمعا فالإيمان ما يتعلَّق بالقلب، والإسلام ما يتعلَّق بالظاهر ، ولهذا قال: ((المؤمن مَنْ أَمَنَ النَّاسُ)).

أَيُّهُمَا أَرَفَع؟ شخصان: أحدهما أَمَنَ النَّاسُ، وآخر سلِمُوا من لسانه ويده؟ أَيُّهُمَا أَرَفَع الأول أو الثاني ؟ بلا رَيْب الأول، يعني: أن يصل إلى رتبة أنَّ القلوب تطمئنُّ إليه وتأمّن من جهته ، بخلاف الذي يسلم المسلمون من لسانه ويده ، قد يسلم النَّاس من لسان شخص ويده لكن لا يكون في قلوبهم أَمْن إلى جهته، ربّما لا يأتمنه الإنسان، لكنه هو سالم من أذاه، وربّما يكون سلامته من أذاه لها أيضًا أسباب أخرى ، لكن أن يصل الإنسان إلى درجة أنَّ النفوس تأمن وتطمئنّ من جهته، ((مَنْ أَمَنَ النَّاسُ على دماءهم وأموالهم)) فهذه لا شكَّ أنَّها رتبة عليّة جدًّا في الدِّين، وهذا يبيّن لنا الفرق بين الإيمان والإسلام وأنَّ رتبة الإيمان أعلى. ولهذا قال العلماء: «كلُّ مؤمنٍ مسلمٌ، وليس كلُّ مسلمٍ مؤمنًا»؛ لأنَّ رتبة الإيمان أعلى، ودرجة الإيمان أرفع، وهذا الحديث ممّا يوضّح ذلك ويدلُّ عليه.

ثمّ ذكر المجاهد والمهاجر ، ذكر الجهاد والهجرة ؛ فالعبد يحتاج حاجة ماسّة دائمة مستمرّة إلى جهاد وهجرة. جهاد للنفس لتفعل الطّاعات؛ لأنّ النفس لا تُقبل على الطّاعة إلّا بالمجاهدة، مثل ما قال الله سبحانه وتعالى: ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ﴾ [النكبت: ٦٩] ، فالعبادة والطّاعة تحتاج من العبد إلى مجاهدة، وترك الذّنوب يحتاج من العبد إلى هجرة، هجرة للذنوب يهاجر الذّنوب بيتعد عنها، يرحل بنفسه عنها، ولا يجالس أهلها، ولا يأتي الوسائل والأسباب التي تُفضي إليها، فأمر الله عزّ وجلّ بالطّاعات، ونهى عن المعاصي، وهي تحتاج من العبد إلى ماذا؟ إلى مجاهدة وإلى هجرة.

تأمّلوا هذا ، قلت: أنّ النّبّيّ صلّى الله عليه وسلّم قال في حَجّة الوداع: ((ألا أنبئكم بالمؤمن ثمّ المسلم، ثمّ المهاجر، ثمّ المجاهد))، هذا قاله في حَجّة الوداع . ذكرت قبل قليل أنّ ممّا قال في حَجّة الوداع : ((اعبدوا ربّكم، صلّوا خمسكم، صوموا شهركم، أدّوا زكاة أموالكم)) هذه أعمال، وممّا قال في حَجّة الوداع: ((ألا إنّما هنّ أربع: لا تشركوا بالله شيئاً، ولا تقتلوا النفس التي حرّم الله إلّا بالحقّ، ولا تزنوا، ولا تسرقوا)) وهذه نواهي. وهذه الأعمال وهذه النّواهي تحتاج من العبد ؛ الأعمال تحتاج من العبد إلى مجاهدة، والنّواهي تحتاج إلى هجرة وتُعد عنها، ولهذا من كمال نصحه في حَجّة الوداع في مواعظه قال: ((المجاهد من جاهد نفسه في طاعة الله، والمهاجر من هجر الخطايا والذنوب))، أي انتبه يا من دُعيت إلى هذه الأوامر أنّ فعلك لها لا بدّ من مجاهدة، ويا من تُهيت عن هذه النّواهي تركك لها لا بدّ فيه من هجرة، وهذا من كمال وعظيم نصح نبيّنا الكريم صلوات الله وسلامه وبركاته عليه.

الشّاهد من الحديث: السّلامة من اللّسان؛ لأنّ من يغتاب النّاس لم يسلم النّاس من لسانه، ويكون في الغيبة نقص في الإسلام، يعني وجود الغيبة في الإنسان غيبة الآخرين هذا من نقص إسلامه ؛ لأنّ المسلم كامل الإسلام من سلّم المسلمون من لسانه ويده.

سبحانك اللهم وبحمدك ، أشهد أن لا إله إلا أنت ، أستغفرك وأتوب إليك .

اللهم صلّ وسلّم على عبدك ورسولك نبينا محمد وآله وصحبه أجمعين.



شرح كتاب الكبائر

لشيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب رحمه الله

من الدرس ٢٣ إلى الدرس ٢٦

شرح الشيخ عبد الرزاق بن عبد المحسن البدر حفظهما الله تعالى

١٤٤١/٠١/١٩ هـ

الدرس الثالث والعشرون

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله ربّ العالمين، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمّد عبده ورسوله ؛ صَلَّى الله وسلّم عليه وعلى آله وأصحابه أجمعين. أمّا بعد:

قال شيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب رحمه الله تعالى في كتاب الكبائر :

١٥٩ - وعن أبي هريرة رضي الله عنه مرفوعاً: ((من أكل لحم أخيه في الدنيا قُرب إليه يوم القيامة فيقال له: كله ميتاً كما أكلته حياً فيأكله فيكّلح ويصبح)) رواه أبو يعلى بسند حسن.

أورد رحمه الله تعالى هذا الحديث، حديث أبي هريرة رضي الله عنه مرفوعاً: ((مَنْ أَكَلَ لَحْمَ أَخِيهِ فِي الدُّنْيَا قُرْبَ إِلَيْهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَيُقَالُ لَهُ: كُلْهُ مَيِّتًا كَمَا أَكَلْتَهُ حَيًّا، فَيَأْكُلُهُ فَيَكْلَحُ وَيَصْبِحُ)) رواه أبو يعلى بسند حسن. مرّ معنا قول الله عزّ وجلّ: ﴿وَلَا يَغْتَبِ بَعْضُكُم بَعْضًا أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَنْ يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ﴾ [الحجرات: ١٢] ، وأنّ الله سبحانه وتعالى ضرب مثلاً للغيبة بأكل المرء للحم أخيه ميتاً. وهذا الصنيع كلّ يكرهه ولا تقبله نفسه، من ذا الذي يقبل أو ترضى نفسه أن يأكل لحم أخيه ميتاً، فهذا مثلاً ضربه الله سبحانه وتعالى للمغتاب. ولهذا يقول قتادة رحمه الله تعالى: «كما أنت كارّة أن تأكل جيفة مدوّدة، فكذلك كن كارهاً لغيبة أخيك». ومن المعلوم أنّ نفس كلّ أحد لا تقبل ولا ترضى أن يأكل لحم أخيه ميتاً، فالله سبحانه وتعالى ضرب مثل المغتاب بالذي يأكل لحم أخيه ميتاً.

وهذا الحديث فيه: أنّ الله سبحانه وتعالى يعاقب المغتاب بذلك، وأنّ يؤتى له باللحم الميت ويؤمر بأكله؛ عقاباً له على غيبته لأخيه المسلم. يُعاقب بذلك يوم القيامة فيقال له: «كله ميتاً كما أكلته حياً»، والمراد بقوله: «كما أكلته حياً» أي: بالغيبة؛ لأنّه في حال حياته لا يأكله وإنّما أكله بالغيبة.

قال: ((فيأكله فيكّلح ويصبح)) ؛ يكّلح: أي أنّ نفسه تكون مبغضة وكارهة، ولكنّ ذلك نوع من العقوبة له؛ جزاء غيبته لأخيه المسلم.

قال رحمه الله تعالى :

١٦٠ - ولابن حبان وصححه عنه في قصة ماعز ؛ أن رجلاً قال لآخر : انظر إلى هذا الرجل الذي ستر الله عليه فلم يدع نفسه حتى رُجم رُجم الكلب، فقال لهما النبي صلى الله عليه وسلم: ((كلا من جيفة هذا الحمار الميِّت كما أكلتما عرض هذا الرجل، فإنَّ ما أكلتما أشد من أكل هذه الجيفة)).

هذا الحديث في قصَّة ماعز رضي الله عنه وهو الذي رُجم لارتكابه الزِّنا وهو مُحْصَن فكانت عقوبته الرَّجم ، فجاء في هذا الحديث -وأيضاً رواه البخاري رحمه الله في الأدب المفرد- أنَّ رجلين أحدهما قال للآخر: «انظر إلى هذا الرَّجل ستر الله عليه فلم يدع نفسه حتى رُجم رُجم الكلب»؛ أي أنَّ هذين الرجلين اشتركا في الكلام في ماعز بعد رجمه بعد أن دُفِن ، رُجم ودُفِن فبعد رجمه تكلمَّا فيه، ولهذا أورده البخاري رحمه الله في الأدب المفرد تحت باب: «غيبة الميِّت»، وهذا فيه أنَّ المسلم عرضه محترَم حيًّا وميِّتًا، لا يجوز أن يُعْتَاب وهو حيٌّ، ولا يجوز أن يُعْتَاب وهو ميِّت. وسبق أن مرَّ معنا عند المصنِّف رحمه الله تعالى قول النَّبيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ((لا تسبُّوا الأموات فإنَّهم أفضُّوا إلى ما قدَّموا)).

الشَّاهد: أنَّ الميِّت الواجب احترامه وصيانة عرضه، وعدم التَّعرُّض له بغيبة أو بسبِّ أو نحو ذلك. ولهذا أورده البخاري رحمه الله تعالى في كتابه الأدب المفرد تحت باب: «الغيبة للميِّت»؛ لأنَّ هذه الغيبة التي وقعت من هذين الرجلين غيبة لميِّت، الذي هو ماعز.

فجاء أنَّ النَّبيَّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لما تكلم تركهما وهم يمشون حتى مرَّ عليه الصلاة والسلام بجيفة حمار ، فقال لهذين الرجلين: ((كُلا من جيفة هذا الحمار الميِّت، كما أكلتما عرضَ هذا الرَّجل)) أي: ماعز ((فإنَّ ما أكلتما)) أي: نلثما من عرضه وكلامًا فيه ((أشدَّ من أكل هذه الجيفة)).

زاد البخاري رحمه الله تعالى في الأدب المفرد: ((والذي نفسُ محمَّدٍ بيده فإنَّه في نهرٍ من أنهار الجنَّة يتغمَّس)) ؛ ولهذا كم من أناسٍ قد يكون حطَّ رجله في الجنَّة ودخل في النَّعيم ؛ لأنَّ القبر إمَّا نعيمٌ أو عذاب؛ لأنَّ الآخرة ومنازل الآخرة تبدأ من الموت ، القبر أول منازل الآخرة ، ولهذا القبر إمَّا أن يكون لصاحبه نعيمًا أو أن يكون عذابًا ؛ بحسب أعماله. فقد يكون بعض النَّاس مات ودُفِن وحطَّ قدمه في النَّعيم، وعلى وجه الأرض أناسٌ ينالونه بألسنتهم طعناً ووقية، وهو حطَّ رجله في النَّعيم وبدأ يذوق النَّعيم، وفي الأرض أناسٌ لا يزالون يغتابونه وينالون من عرضه. ثمَّ هذا الاغتياب لمن كان هذا شأنه لا يضرُّه شيئًا بل يضرُّ المغتاب، بل أيضًا هو رفعة له عند الله سبحانه وتعالى ، انقطع عنه العمل فبقي هذا باب من أبواب الثَّواب والأجر عندما يُنال من عرضه ويقع النَّاس في غيبته، فهم -أي من يغتابونه- باءوا بالعقوبة، وأيضاً قدَّموا له من حسناتهم بحسب نيلهم منه.

وإسناد هذا الحديث فيه عبد الرحمن الدؤسي مقبول، والمقبول لا يُحتج بحديثه إلا إذا وُجد له متابع . وأمّا من حيث المعنى وأنّ أكل لحم الأخ أو الغيبة له كأكل لحمه ميتًا فهذا جاء تشبيهه بذلك في كتاب الله سبحانه وتعالى في الآية الكريمة التي صدر بها المصنّف هذه الترجمة.

قال رحمه الله تعالى :

١٦١ - ولهما عن ابن عباس رضي الله عنهما أن النبي صلى الله عليه وسلم مرّ بقبرين فقال: ((إنهما ليعذبان، وما يعذبان في كبير ، بلى إنه كبير؛ أما أحدهما فكان لا يستبرئ من البول، وأما الآخر فكان يمشي بالنميمة)).

١٦٢ - وأخرج البخاري في الأدب المفرد نحوه من حديث جابر وفيه : ((أما أحدهما فكان يغتاب الناس)).

١٦٣ - ولأحمد بسند صحيح معناه من حديث أبي بكر رضي الله عنه ، ولأبي داود الطيالسي عن ابن عباس رضي الله عنهما مثله بسند جيد.

قال رحمه الله تعالى: ولهما عن ابن عباس رضي الله عنهما أنّ النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم مرّ بقبرين فقال: ((إنّهما ليُعذّبان، وما يُعذّبان في كبير، بلى إنّهُ كبير)) ؛ أثبت عليه الصّلاة والسّلام أنّه كبير، ونفى أيضًا قبل ذلك أنّه كبير؛ قال: ((وما يُعذّبان في كبير))، ثمّ قال: ((بلى إنّهُ كبير)) ، والقاعدة: «أنّ الشّيء إذا أثبت ونُفي، فالمُثبت غير المنفي» يعني: الكبّر الذي أثبتته غير الكبّر الذي نفاه. في أول الأمر قال ((وما يُعذّبان في كبير)) نفى أنه كبير، ثم أثبت قال((بلى إنّهُ كبير)) ؛ فالكبّر المنفي غير الكبّر المثبت ، الكبّر المنفي: أي في أعين النّاس، النّاس ما يقع في أعينهم موقعًا أنّه شيء كبير وأنّه أمر عظيم، والكبّر المُثبت: أي حُكم ذلك في الشّرع أنّه كبير، أنّه من الكبائر ، ليس من صغائر الذّنوب بل هو من كبائر الذّنوب ، قال: ((بلى إنّهُ كبير)) ؛ وهذا فيه دليل في جملة أدلّة كثيرة جاء بها الكتاب والسّنّة أنّ الذّنوب منقسمة إلى كبائر وصغائر، ﴿إِنْ تَجْتَنِبُوا مَا تُهَوِّنُ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ﴾ [النساء: ٣١] ، قال تعالى: ﴿وَكُلُّ كَبِيرٍ وَصَغِيرٍ مُّسْتَوٍ﴾ [القمر: ٥٣] ، فالذّنوب منقسمة إلى كبير وصغير، فقولهُ: ((بلى إنّهُ كبير)) أي: من الذّنوب الكبيرة، وليس من صغائر الذّنوب.

((أمّا أحدهما فكان لا يستبرئ من البول)) ومعنى «لا يستبرئ»: أي لا يستنزه من البول؛ أي لا يحرص على وقاية نفسه من رشاش البول، فيقع على شيء من بدنه أو شيء من ملابسه ويصليّ وفيه شيء من البول الذي لم يستبرئ ولم يستنزه منه، ويُعذّب في قبره لذلك.

وهذا يفيد أنه مُصَلِّي ويتوضَّأ ويصَلِّي لكنَّه لا يستنزه من البول، فكيف بالَّذي أصلاً لا يتوضَّأ ولا يصَلِّي ويمرُّ أوقات الصَّلوات ويفوته الكثير منها؟! إذا كان هذا الَّذي يصَلِّي ويتوضَّأ ولكن لا يستبرئ من البول يُعَذَّب في قبره، فكيف بذاك الَّذي يأتي وقت الصَّلاة ولا يقوم أصلاً يتوضَّأ ولا يقوم أيضاً للصَّلاة، وإنَّما هو منشغل بديناه!! وإذا كان النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال أيضاً في الحديث الآخر: ((ويلٌ للأعقاب من النَّار))، هؤلاء أناس يصلُّون ويتوضَّؤون، لكنَّه يفرِّط في إتمام الوضوء فيبقى شيء في عقبه لا يمسه الماء، قال: ((ويلٌ للأعقاب من النَّار)) وهذا وعيد بالنَّار، والوعيد بالنَّار لا يكون في صغائر، فإذا كان جاء هذا الوعيد في حقِّ هؤلاء وهم يتوضَّؤون ويصلُّون، يحافظون على الصَّلوات لكن فيهم هذا التَّقصير فكيف بمن يفرِّط في الصَّلاة أصلاً ويفرِّط في الوضوء، وربما مرَّ عليه أوقات وأوقات وهو متهاون في الصَّلاة؟!!

قال: ((وَأَمَّا الْآخِرُ فَكَانَ يَمْشِي بِالنَّمِيمَةِ)) والنَّمِيمَةُ: هي القالة، نقل الكلام من شخص إلى آخر أو من أشخاص لآخرين على وجه الإفساد بينهم، فهذه يُقال لها «نَمِيمَةٌ». والنَّمِيمَةُ فساد للمجتمعات وقطع لذات البين ونشر للعداوات والشُّرور، قد قال يحيى بن كثير اليمامي: «يفسد النَّمام في ساعة ما لا يفسده السَّاحر في شهر»، أي: أنَّ الفساد الَّذي يقع على يد النَّمام أشرُّ من الفساد الَّذي يقع على يد السَّاحر، وفي القرآن يقول الله عن السَّاحر: ﴿يَعْلَمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِ بَيْنَ الْمَرْءِ وَزَوْجِهِ﴾ [البقرة: ١٠٢] ؛ بالسَّحر تكون التَّفَرُّقة بين المتحابِّين، وبالنَّمِيمَةِ أيضاً تكون التَّفَرُّقة بين المتحابِّين تفرقةً أشدَّ من الشَّيء الَّذي يكون على يد السَّاحر. قال: أخرج البخاري في الأدب المفرد نحوه من حديث جابر وفيه: ((أَمَّا أَحَدُهُمَا فَكَانَ يَغْتَابُ النَّاسَ)) : أي يتناولهم بلسانه غيبةً ووقيعَةً، فكانت له هذه العقوبة أنَّه يُعَذَّب في قبره.

قال رحمه الله تعالى :

١٦٤ - وللتِّرْمِذِي وصححه عن عائشة رضي الله عنها قالت للنبي صلى الله عليه وسلم: «حسبك من صفة كذا وكذا»، قال بعض الرواة: تعني أنها قصيرة، قال: ((لقد قلت كلمة لو مُزجت بماء البحر لمزجته)). قالت: وحكيْتُ له إنساناً فقال: ((ما أحبُّ أن تحكي لي إنساناً وأن لي كذا وكذا)).

قال: وللتِّرْمِذِي وصحَّحه أنَّ عائشة رضي الله عنها قالت للنبي صلى الله عليه وسلم: «حسبك من صفة كذا وكذا» قال بعض الرواة: تعني أنها قصيرة؛ ونحن عرفنا في تعريف الغيبة: أنَّها ذكرك لأخيك بما يكره، وإذا كان الَّذي ذُكر فيه هو يكره أن يُذكر وصفًا له فهذه غيبة، وإن لم يكن وصفًا له فهذه بهتان، ((إن كان فيه فقد اغتبتَه، وإن لم يكن فيه فقد بهتَه))، فملتكلم في أخيه لا يخرج من هذين، إن كان فيه الوصف الَّذي ذكره فهذه غيبة، وإن لم يكن فيه فهذا بهتان.

وعائشة رضي الله عنها تكلمت عن ضررتها صفية رضي الله عنهما قالت: «حسبك» أي: يكفيك من صفية؛ تقليلاً من مكانتها قالت: «يكفيك من صفية كذا وكذا» ؛ أشارت بذلك إلى أنها قصيرة، وأرادت بذلك التقليل من مكانة صفية ومنزلتها.

فقال النبي عليه الصلاة والسلام: ((لقد قلت كلمة لو مزجت بماء البحر لمزجته)) ؛ «لو مزجت»: أي خلطت هذه الكلمة «بماء البحر» ماء البحر المتسع مترامي الأطراف «لمزجته» ؛ أي: قلت كلمة خطيرة كلمة عظيمة من خطورتها أنها لو مزجت بماء البحر لمزجته. وهي رضي الله عنها إنما قالت قصيرة ؛ فقط هذه الكلمة، تقليلاً من مكانتها عند النبي عليه الصلاة والسلام، فكيف بمن ينطلق في لسانه كلاماً في الآخرين، ليس بالكلمة ولا بالكلمتين بل بالكلمات، وليس في المجلس ولا في المجلسين بل بمئات المجالس!! ولسانه يفري في أعراض الناس ويطعن في الآخرين!! إذا كانت كلمة قالتها عائشة رضي الله عنها أم المؤمنين «قصيرة» قال النبي عليه الصلاة والسلام عنها أنها ((لو مزجت بماء البحر لمزجته)) فكيف بمن يأتي على لسانه الكلمات الكثيرة وفي المجالس العديدة؛ نيلاً للأعراض ووقيةً وطعناً؟!.

قالت: «وَحَكَيْتُ لَهُ إِنْسَانًا» ؛ ومعنى "حكيتُ له إنساناً" : أي قلّدتُ إنساناً. التقليد أحياناً يكون في طريقة مشيته، أو حركة يده، أو مثلاً طريقة كلامه وتحديثه، أو صفة أسلوبه في الحديث، يسمّى تقليد، ويسمّى أيضاً في زماننا هذا التمثيل، التمثيل: عبارة عن تقمّص لشخصية الآخر بحيث يتكلّم على لسانه ويقلّده في كلامه وفي أسلوبه وفي حديثه وفي طريقة تكلمه ؛ هذه تسمّى محاكاة وتسمّى تقليد وتسمّى تمثيل؛ وهذا لا يجوز، محاكاة الآخرين وتقليد الآخرين هذا لا يجوز. مثل ما أنّ الإنسان لا يرضى لنفسه أن يحاكي في بعض المجالس حتى تكون هذه المحاكاة تنذراً وضحكاً؛ لأنّ بعض الناس يحاكي بعض الناس في حديثهم محاكاةً تجعل الحاضرين يضحكون من طريقة محاكاته للآخرين ، إمّا في مشيتهم أو في مثلاً أسلوب حديثهم أو في غير ذلك.

تقول: «حكيتُ له إنساناً» أي: قلّدتُ إنساناً ، فقال: ((ما أحبّ أن تحكي لي إنساناً)) وجاء في بعض الروايات: ((أن أحكي إنساناً وأنّ لي كذا وكذا)) أي: مُبَيَّنّاً عليه الصلاة والسلام عظم هذا الجرم وكبر هذا الذنب الذي هو تقليد الآخرين ومحاكاة الآخرين بقوله: ((ما أحبّ أني حاكيتُ إنساناً وأنّ لي كذا وكذا)) أي: أنّ هذا ذنب وجرم، ولا يجوز للإنسان أن يحاكي الآخرين.

قال رحمه الله تعالى :

باب ما جاء في إضلال الأعمى عن الطريق

١٦٥ - عن أبي هريرة رضي الله عنه «أن النبي صلى الله عليه وسلم لعن من أضلّ الأعمى عن الطريق».

قال: «بَابُ ما جاء في إضلال الأعمى عن الطريق» ؛ الأعمى هو مَنْ لا يُبصر . وإضلاله عن الطريق: بأن يقول له الطريق من هنا يشير له إلى جهة، والطريق في جهةٍ أخرى. وإذا كان هذا الصنيع في حقِّ كلِّ أحد يُعدُّ جنايةً، فإنَّه في حقِّ الأعمى أعظمُ جُرمًا ؛ لأنَّ هذا الأعمى فاقد للبصر ، وحاجته إلى مَنْ يساعده في الدلالة على الطريق أشدَّ من حاجة المبصرين . فإذا كان الإنسان بلغ في السُّوء والشَّرِّ إلى هذا الحدِّ أن يُضِلَّ الأعمى عن الطريق، يقول له: الطريق من هنا ويجعله يذهب في طريق بعيد عن الطريق الذي يريده، فلا شكَّ أنَّ هذه جناية عظيمة، وإن كانت في حقِّ كلِّ إنسان تُعدُّ جنايةً فإنَّها في حقِّ الأعمى أعظمُ جُرمًا وأكبر ذنبًا؛ لأنَّه لا يُبصر.

أورد حديث أبي هريرة «أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لَعَنَ مَنْ أَضَلَّ الْأَعْمَى عَنِ الطَّرِيقِ» ؛ واللَّعن: طرد وإبعاد من الرَّحمة، ولا يأتي في التَّصوص ذكرُ اللَّعن إلَّا فيما هو كبير.

قال رحمه الله تعالى :

١٦٦ - ولأبي داود عن معاذ رضي الله عنه مرفوعًا: ((من حمى مؤمنًا من منافق آذاه بعث الله له يوم القيامة ملكًا يحمي لحمه من نار جهنم، ومن رمى مسلمًا بشيء يريد شينه حبسه الله على جسر جهنم حتى يخرج مما قال)).

هذا الحديث حديث معاذ رضي الله عنه لا تعلُّق له بهذه التَّرجمة «بَابُ ما جاء في إضلال الأعمى عن الطريق»، وأقرب ما يكون تعلُّقه بالتَّرجمة التي قبله، وهي الغيبة. وهذا الحديث يتعلُّق برَدِّ الغيبة عن المسلم والدَّبِّ عن عرضه، عندما يقع فيه الآخرون فيُدبُّ عنه ويدافع عنه، وهذا فيه ثواب عظيم . فتعلُّق هذا الحديث أقرب ما يكون للتَّرجمة التي قبل هذه التَّرجمة وهي: «ما جاء في الغيبة». وقد أورد الإمام أبو داود رحمه الله تعالى هذا الحديث في «باب مَنْ رَدَّ عن مسلم غيبة».

قال عليه الصَّلَاةُ والسَّلَام: ((مَنْ حمى مؤمنًا من منافقٍ آذاه - في بعض الروايات يغتابه - بعث الله له يوم القيامة ملكًا يحمي لحمه من نار جهنم)) ؛ ((مَنْ حمى مؤمنًا)) أي: دَبَّ عنه ودافع عنه .

((من منافقٍ يغتابه)) ذكرُ المنافق: لأنَّ المنافق من شأنه إذا جالس النَّاسَ أظهر لهم محبةً وخيرًا، وإذا كان في منأى عنهم نال من أعراضهم وطعن فيهم؛ فهذا من شأنه يظهر للنَّاسَ بوجهه وإذا كان من وراء ظهرهم يكون له وجه آخر، أمامهم يمدح ويثني، ومن وراء ظهرهم يطعن ويقع ويتهمهم.

فقال: ((مَنْ حمى مؤمنًا من منافقٍ آذاه)) ؛ آذاه: أي اغتابه ونال من عرضه ((بعث الله له يوم القيامة ملكًا يحمي لحمه من نار جهنم)) وهذا فيه: أنَّ الجزء من جنس العمل، كما أنَّه حمى عرض أخيه من الوقعة، يحميه الله سبحانه وتعالى بذلك من النَّار ، ويكون دفاعه عن أخيه وقايةً له يوم القيامة من النَّار.

قال: ((وَمَنْ رَمَى مُسْلِمًا بِشَيْءٍ)) ؛ رماه بشيء: أي اتهمه باطلاً بما ليس فيه اختلاقاً وافتراءً، ورغبه من الأعمال أو من الأمور ما لم يعمل.

((يريد شينه)) يعني: يقصد برميّه بذلك شينه؛ أي انتقاصه واحتقاره، والتقليل من مكانته ومنزلته عند الناس.
((حبسه الله على جسر جهنم حتى يخرج ممّا قال)) ؛ ما معنى «حتى يخرج ممّا قال»؟ هل بالإمكان على جسر جهنم أن يقول في تلك الساعة أنا تائب وأنا مخطئ؟! يخرج ممّا قال بإعلان أنه مخطئ وأنه تائب؟! يوم القيامة ينقطع العمل، فقلوه: ((حتى يخرج ممّا قال)) أي: حتى ينال العقوبة على ذلك ، فيخرج ممّا قال بتحصيل العقوبة على هذا التّجّي والتّعدّي والرّمي للمسلم بقصد أن يشينه وأن يحقرّه وأن يقلّل من مكانته ومنزلته عند الآخرين.
والإسناد فيه رجل مجهول يُقال له: إسماعيل بن يحيى؛ فالسند ضعيف.

قال رحمه الله تعالى :

باب تشييع الفاحشة في المؤمنين

وقول الله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَنْ تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ فِي الَّذِينَ آمَنُوا لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ﴾ [النور: ١٩] .

قال: «باب تشييع الفاحشة في المؤمنين» ؛ تشييع الفاحشة: أي نشر ما تهيج به الفاحشة وتشيع بين المؤمنين، والعمل على تهيجها في أوساط المؤمنين. والفاحشة: كلّ عمل قبيح وديء وشنيع ، فمن يحبّ إشاعة هذه الأعمال الدنيئة الحقيرة الشنيعة في المؤمنين ويعمل على نشرها وتهيجها وإشاعة ذكرها بين الناس له العقوبة عند الله سبحانه وتعالى كما في الآية التي ساق المصنّف.

قال: وقول الله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَنْ تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ فِي الَّذِينَ آمَنُوا لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ﴾ [النور: ١٩] أي لهم عذاب أليم في الدنيا مُعَجَّل ، ولهم عذاب أليماً أيضاً في الآخرة مُؤَجَّل . لهم عذاب أليم في الدنيا يصيب قلوبهم وأبدانهم، ولهم عذاب أليم يوم يلقون الله سبحانه وتعالى يوم القيامة؛ وذلك أنّ إشاعة الفاحشة من أخطر ما يكون جنايةً على المجتمعات المسلمة ؛ لأنّ في ذلك تهيجاً للباطل ، وإثارةً للشرّ ، وتحريكاً له بين الناس ، وتقليلاً من الخير ؛ وهذا من أعظم الجنايات والتّعدّيات على المجتمعات المسلمة التي فيها الإقبال على الطّاعة والبعد عن الحرام ، فإذا بدأ الإنسان يشيع الفاحشة ويهيج لها وينشرها كم في هذا من الجناية

والتَّعَدِّيَّ عَلَى الْمُسْلِمِينَ؟! قَالَ: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُجْبُونَ أَنْ تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ فِي الَّذِينَ آمَنُوا لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ﴾ .

سبحانك اللهم وبحمدك ، أشهد أن لا إله إلا أنت ، أستغفرك وأتوب إليك .
اللهم صلّ وسلّم على عبدك ورسولك نبينا محمد وآله وصحبه أجمعين .

الدرس الرابع والعشرون

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله ربّ العالمين، وأشهد أنّ لا إله إلاّ الله وحده لا شريك له، وأشهد أنّ محمّداً عبده ورسوله ؛ صلّى الله وسلّم عليه وعلى آله وأصحابه أجمعين. أمّا بعد:

قال شيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب رحمه الله تعالى في كتاب الكبائر :

باب الرّشوة

وقول الله تعالى: ﴿وَلَا تَشْتَرُوا بِآيَاتِي ثَمَنًا قَلِيلًا﴾ الآية: [البقرة: ٤١].

قال رحمه الله تعالى: «باب الرّشوة» ؛ الرّشوة هذه كلمة مأخوذة من الرّشاء، وهو الحبل الذي يُنزل في البئر ويُتوصّل من خلاله إلى سحب الماء الذي يُحتاج إليه من البئر . وأمّا حقيقة هذه اللفظة في الشرع فالمراد بالرّشوة: ما يُقدّم من مالٍ أو مصلحةٍ أو منفعةٍ لأجل أن يُتوصّل من خلالها هذا المدفوع إلى إحقاق باطلٍ أو إبطال حقّ. والرّشوة آفةٌ من الآفات وكبيرةٌ من الكبائر، وضررها على المجتمعات عظيم؛ لأنّ الرّشوة إذا وُجدت أذهبت المروءة، وأوجدت الفجور، وأكثرت من الظلم، وترتّب عليها كذلك ضياع الحقوق، وكثرة التّعديّات على النّاس، فأضرارها على المجتمعات عظيمة جدّاً؛ لأنّ الرّشوة إذا وُجدت في مجتمع لم يستقم فيه حقّ، ولم يأمن الإنسان على مصلحةٍ من مصالحه أو حقٍّ من حقوقه؛ لأنّ هذه الرّشوة إذا وُجدت قلبت الموازين ، وأخلّت بالأحكام، وأهدرت مع وجودها الحقوق، وكثّرت المظالم والتّعديّات، فشأن الرّشوة خطيرٌ جدّاً، ومضرّتها عظيمةٌ للغاية؛ ولهذا جاءت الشريعة بتجريمها وتحريمها وعدّها كبيرةً من كبائر الذّنوب ، بل جاء فيها اللّعن والطرد والإبعاد من رحمة الله، كما

في الأحاديث التي ساق المصنّف رحمه الله تعالى. واللّعن: هو الطرد والإبعاد من رحمة الله، ولا يكون إلا في الأمور الكبيرة العظيمة.

قال: «باب الرّشوة» ؛ والرّشوة محرّمة سواءً بأن يدفعها المرء أو أن يتقبّلها، فالرشوة محرمة ممن يدفعها وممن أيضاً يقبل الرشوة، ولهذا جاء الحديث - كما سيأتي - بلعن الرّاشي ولعن المرتشي.

قال: وقول الله تعالى ﴿وَلَا تَشْتَرُوا بِآيَاتِي ثَمَنًا قَلِيلًا﴾ [البقرة: ٢١] وهذه الآية في عمومها تدلّ على تحريم الرّشوة؛ لأنّ من يدفع الرّشوة وكذلك من يتقبّلها، فإنّه اغترّ بالمال القليل والثمن القليل وضيّع آيات الله وأحكام الله سبحانه وتعالى وشرع الله عزّ وجلّ وحدوده، ولم يُقِم لها وزناً لقاءً قليل من المال أو مصلحة من المصالح.

والرّشوة أكلٌ للسُّحت، وممّا وصف الله تبارك وتعالى به اليهود ﴿وَأَكَلُوا السُّحْتَ﴾ [المائدة: ٦٢] ، قد قال غير واحد من أهل التفسير: أنّ السُّحت الذي هو وصف اليهود أكل الرّشوة. وهذا تفسيرٌ للفظ بشيء من أفراده أو ببعض أفرادها؛ وهذا يفيد أنّ اليهود اشتبهوا بالرّشوة والرّاشي ، وأنّ هذا من أوصاف اليهود، ومن تعاطى الرّشوة من هذه الأمة ففيه شبهة في هذه الخصلة من اليهود وفيه تشبُّه بهم. قد قال عليه الصّلاة والسّلام محذّراً ومنذراً: ((لَتَبْعَنَّ سَنَنْ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ شَبْرًا شَبْرًا)) ، والرّشوة كانت شائعةً وفاشيةً ومشهورةً في اليهود وكانت صفةً لهم. فمن فعل الرّشوة من هذه الأمة ففيه شبهة من اليهود في هذه الخصلة الذميمة البغيضة الخطيرة.

قال رحمه الله تعالى :

١٦٧ - عن ابن عمرو رضي الله عنهما مرفوعاً قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ((لعن الله الرّاشي والمرتشي)) صححه الترمذي.

قال: عن ابن عمرو -أي: عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما- مرفوعاً: قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ((لعن الله الرّاشي والمرتشي)) ؛ الرّاشي: هو من يدفع الرّشوة، ويقدمها للغير. والمرتشي: هو الذي يقبل الرّشوة. وأخذ الرّشوة هو أخذٌ من أجل تغيير مجريات الأمور ، تغيير لمجريات الأحكام. ولهذا كم من المظالم والجنايات وضياع الحقوق وإهدارها وتفويت المصالح تترتب على وجود الرّشوة. ولهذا المجتمع الذي تكون الرّشوة فيه فاشية تضيع الحقوق تماماً، ولا يتمكّن الإنسان أن ينال مصلحته إلاّ بدفع أموال، وأيضاً آخرون يدفعون هذه الرّشوة لأخذ ما ليس لهم به حقّ ؛ تعديّاً على الضّعفاء في حقوقهم وظلماً لهم في ذلك. فالشّاهد: أنّ الرّشوة أمرها خطيرٌ جدّاً، ولهذا جاء فيها اللّعن والتّهديد والوعيد لفاعل ذلك.

وقد جاء عن الحسن البصري رحمه الله تعالى أنه قال: «إذا دخلت الرِّشوة مع الباب خرجت الأمانة مع الكُوة»، أي: النافذة. بمعنى أنه إذا وُجِدَت الرِّشوة انتفت الأمانة، ووُجِدَت الخيانة ووُجِدَ الظُّلم ووُجِدَ البغي. ولهذا يقولون: "البراطيل تنصر الأباطيل"، و«البراطيل» اسم من أسماء الرِّشوة، «تنصر الأباطيل» أي تنصر الظُّلم. بمعنى أن الرِّشوة إذا وُجِدَت وُجِدَت لنصر الظُّلم، للتَّعَدِّي على الحقوق، للبغي على النَّاس لأخذ أموالهم بغير حقّ. فالرِّشوة أمرها من أخطر ما يكون على المجتمعات؛ تجد بعض الضُّعفاء وبعض المساكين له حقّ من الحقوق، ثم يأتي آخر ويدفع رشوة لمن بيده مثلاً هذا الحقّ أو إيصاله لصاحبه، فيغيّر مجريات الأمور ويجعل الحقّ لغير صاحبه، فكم يكون في هذه الرِّشاوي سواء كانت مالاّ يُدفع أو مصلحة تُقدّم أو نحو ذلك، كم فيها من الجناية والتَّعَدِّي والظُّلم للآخرين.

قال رحمه الله تعالى :

١٦٨ - ولأحمد عن ثوبان رضي الله عنه مرفوعاً: ((لعن رسول الله صلى الله عليه وسلم الراشي والمرتشي والرائش)) يعني الذي يمشي بينهما.

الرائش: هو الوسيط بين الراشي والمرتشي؛ يغري هذا بقبول الرِّشوة، ويغري ذاك بدفعها، ويعمل على تحديد مثلا المبلغ أو المصلحة التي تُقدّم من الراشي للمرتشي، فهذا وسيط بينهما، وهذا وسيط في الظُّلم وفي الحرام، ومتعاون على الإثم والعدوان، والله سبحانه وتعالى يقول: ﴿وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ﴾ [المائدة: ٢] .

قال رحمه الله تعالى :

باب هدايا الأمراء غلول

١٦٩ - عن أبي حميد قال: استعمل رسول الله صلى الله عليه وسلم رجلاً على الصدقة، فلما قدم قال: «هذا لكم وهذا أهدي إلي»، قال فقال النبي صلى الله عليه وسلم: ((ما بال الرجل نستعمله على العمالة مما ولّانا الله، فيقول: هذا لكم وهذا أهدي إلي! فهلاًّ جلس في بيت أبيه أو بيت أمه فينظر هل يهدي إليه شيء أم لا؟ والذي نفس محمد بيده، لا يأخذ أحد منكم شيئاً بغير حقه إلا لقي الله وهو يحمله يوم القيامة، إن كان بغيراً له رغاء، أو بقرة لها خوار، أو شاة تيعر. ثم رفع يديه حتى رأينا غفرة إبطيه، ثم قال: اللهم هل بلغت؟)) قالها ثلاثاً.

قال رحمه الله تعالى: «باب هدايا الأمراء غلول» ؛ ومعنى كونها غلول: أي أُنْخِذَ للمال بالباطل وبغير حق، ولا يحلّ لهم أخذ هذه الهدايا وقبولها؛ لأنهم قائمون على مصالح للأمة ، واسترْعَوْا على هذه الأمانة، وقاموا أيضاً على الحقوق ورعاية حقوق النَّاس ومصالح النَّاس ، فأخذ الهدايا غلولاً لأنَّ هذه الهدايا لها أثرها في النفوس، لها فَعْلَتها في القلوب، ولهذا مَنْ يَقْدِم الهدية وتكون الهدية مثلاً ثمينة، فيكون لها الأثر والوقع في نفس العامل أو الأمير أو المسؤول، فيكون له حظوة، ويكون لطلبه شأن ومكانة. ولهذا لما كان لهذه الهدايا أثرها ولها ضررها وخطرها جاءت الشريعة بمنع ذلك، وتحذير العمّال الذين هم الأمراء ومن يلون أمور النَّاس ومصالح النَّاس وحقوق النَّاس، جاءت الشريعة بتحذير هؤلاء من قبول الهدايا، وأنَّ الواحد من هؤلاء لو كان في بيته ليس قائماً على مصلحة من مصالح المسلمين لم يأت به شيء من الهدايا ، وإنَّما هذه الهدايا أشياء لها اعتبارٌ معيّن ولها مقصد معيّن، فجاءت الشريعة بحسم هذا الأمر قطعاً لدابر الشرّ وقطعاً لدابر ضياع الحقوق وإهدارها.

قال: عن أبي حميد قال: «استعمل رسول الله صلى الله عليه وسلم رجلاً على الصدقة» ؛ ومعنى استعمله على الصدقة: أي كلفه عليه الصلاة والسلام بأن يكون جانياً للصدقات.

«فلما قدم قال: هذا لكم وهذا أهدي إليّ» ؛ هذا لكم يعني: هذه الصدقات التي كُلفت بجمعها. أمّا هذا: فهذا شيء أهدي إليّ؛ أي: ليس لكم وإنَّما هو لي، أخذته هدية.

فقال النبي صلى الله عليه وسلم: ((ما بال الرجل نستعمله على العِمالة ممّا ولاّنا الله، فيقول: هذا لكم وهذا أهدي إليّ! فهلاًّ جلس في بيت أبيه أو بيت أمّه فينظر هل يُهدى إليه شيء أم لا؟)) أي: أنّ هذا الرجل لولا قيامه على هذه المصلحة وعلى هذه الحقوق من حقوق المسلمين لم تُقدّم له الهدايا، وهذه الهدايا التي تُقدّم للعمّال لها أثر على نفوسهم، خاصّةً كلّما ثُمّنت الهدية وعظُم شأن الهدية كان لها الوقع في نفسه، والنفوس ضعيفة وتتأثر، ولا سيّما إذا وافق أيضاً هذا الأمر حاجةً عند المرء فكم لها من الأثر على نفسه؟ ولهذا قال النبي صلى الله عليه وسلم: ((فهلاًّ جلس في بيت أبيه أو بيت أمّه فينظر هل يُهدى إليه شيء أم لا؟)) ؛ ولهذا بعض النَّاس يكون على مصلحة من المصالح المهمّة فتكثر له الهدايا، فإذا انتهى من المصلحة وأصبح متقاعدًا حتى السّلام ما يسلمون عليه، فضلاً عن أن يُقدّم له شيء من تلك الهدايا التي كانوا يقدّمونها له. فالهدية: أصبحت أمرًا مرتبطاً باعتبار معيّن وهو قيامه على هذه المصلحة، وإذا جلس في بيته ما يأت به شيء من هذه الهدايا؛ لأنّه ليس قائماً على هذه المصلحة. إذاً هذه هدية لها اعتبار أو تعلق بهذه المصلحة، فليست مقدّمة مثل ما يقول العوام من أجل سواد عيون هذا الشخص؛ أبداً، وإنَّما هي مقدّمة من أجل مصلحة هو قائم عليها، ولولا قيامه على هذه المصلحة لم تُقدّم له. وهذا معنى قول النبي صلى الله عليه وسلم: ((فهلاًّ جلس في بيت أبيه أو بيت أمّه فينظر هل يُهدى إليه شيء أم لا؟)).

((وَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ لَا يَأْخُذُ أَحَدٌ مِنْكُمْ شَيْئًا بِغَيْرِ حَقِّهِ)) أي ومن ذلكم هذه الهدايا هي أخذٌ للمال بغير حقٍّ ((إِلَّا لَقِيَ اللَّهَ وَهُوَ يَحْمِلُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ)) يحمله: أي على رقبته. والمظالم: يأتي الظلمة يوم القيامة يحملونها على رقابهم أيًا كانت ، سواءً كانت أموالاً، أو كانت أملاكاً، أو كانت رِقَاعاً، أو كانت بهيمةً، أيًا كانت يأتي يوم القيامة يحملها على رقبته؛ خزيًا له وفضيحة على رؤوس الأشهاد وبين العالمين، يأتي يوم القيامة يحمله. ((إِنْ كَانَ بَعِيرًا)) يعني الذي أخذه ظلمًا ؛ يأتي يحمل البعير على رقبته ((لَهُ رُغَاءٌ)) ؛ بعيرٌ على رقبته يأتي يوم القيامة والبعير له رُغَاءٌ؛ خزيًا له وفضيحة.

((وَأِنْ كَانَ بَقْرَةً لَهَا خَوَارٌ، أَوْ شَاةٌ تَبْعَرُ))؛ كلٌ هذه يأتي يحملها على رقبته.

«ثُمَّ رَفَعَ يَدَيْهِ حَتَّى رَأَيْنَا عُقْرَةَ -أَي: بِيَاضِ إِبْطِيهِ- ثُمَّ قَالَ: اللَّهُمَّ هَلْ بَلَغْتَ؟ قَالُوا ثَلَاثًا» .

وجاء في صحيح البخاري أنه عليه الصَّلَاةُ والسَّلَامُ ذكر الغلول يومًا وحذّر منه وقال صلوات الله وسلامه عليه: ((لَا يَأْتِيَنَّ أَحَدَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَعَلَى رَقَبَتِهِ بَعِيرٌ لَهُ رُغَاءٌ فَيَقُولُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ أَغْنَيْتَنِي فَأَقُولُ: لَا أَمْلِكُ لَكَ شَيْئًا قَدْ أَبْلَغْتُكَ)). انظر هنا في هذا الحديث قال: ((اللَّهُمَّ هَلْ بَلَغْتَ؟)) ورفع يديه حتى رأى الصَّحَابَةُ عُقْرَةَ إِبْطِيهِ صلوات الله وسلامه عليه. قال: ((لَا يَأْتِيَنَّ أَحَدَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَعَلَى رَقَبَتِهِ بَعِيرٌ لَهُ رُغَاءٌ فَيَقُولُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ أَغْنَيْتَنِي فَأَقُولُ: لَا أَمْلِكُ لَكَ شَيْئًا قَدْ أَبْلَغْتُكَ)). لا يَأْتِيَنَّ أَحَدَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَعَلَى رَقَبَتِهِ فَرَسٌ لَهُ حَمْحَمَةٌ فَيَقُولُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ أَغْنَيْتَنِي فَأَقُولُ: لَا أَمْلِكُ لَكَ شَيْئًا قَدْ أَبْلَغْتُكَ. لا يَأْتِيَنَّ أَحَدَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَعَلَى رَقَبَتِهِ بَقْرَةٌ لَهَا خَوَارٌ فَيَقُولُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ أَغْنَيْتَنِي فَأَقُولُ: لَا أَمْلِكُ لَكَ شَيْئًا قَدْ أَبْلَغْتُكَ. لا يَأْتِيَنَّ أَحَدَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَعَلَى رَقَبَتِهِ شَاةٌ لَهَا ثَغَاءٌ فَيَقُولُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ أَغْنَيْتَنِي فَأَقُولُ: لَا أَمْلِكُ لَكَ شَيْئًا قَدْ أَبْلَغْتُكَ. لا يَأْتِيَنَّ أَحَدَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَعَلَى رَقَبَتِهِ رِقَاعٌ تَخْفَقُ -أَي: فِيهَا مَظَالِمٌ وَتَعْدِيَّاتٌ- فَأَقُولُ: لَا أَمْلِكُ لَكَ شَيْئًا قَدْ أَبْلَغْتُكَ. لا يَأْتِيَنَّ أَحَدَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَعَلَى رَقَبَتِهِ صَامِتٌ -وَالْعَرَبُ تَقْسِمُ الْمَالَ إِلَى قَسْمَيْنِ: صَامِتٌ، وَنَاطِقٌ. الصَّامِتُ مِثْلُ: الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ لَيْسَ لَهُ صَوْتٌ. وَالنَّاطِقُ: مَا لَهُ صَوْتٌ، وَلِهَذَا مَرَّ مَعْنَى «لَهُ خَوَارٌ، لَهُ رُغَاءٌ، لَهُ ثَغَاءٌ، لَهُ حَمْحَمَةٌ» هَذِهِ أَمْوَالٌ نَاطِقَةٌ لَهَا صَوْتٌ- قَالَ: لَا يَأْتِيَنَّ أَحَدَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَعَلَى رَقَبَتِهِ صَامِتٌ -أَي: ذَهَبٌ وَفِضَّةٌ- فَيَقُولُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ أَغْنَيْتَنِي فَأَقُولُ: لَا أَمْلِكُ لَكَ شَيْئًا قَدْ أَبْلَغْتُكَ)).

فَالنَّبِيُّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ حَذَّرَ مِنَ الظُّلْمِ، حَذَّرَ مِنَ التَّعَدِّيَّاتِ، حَذَّرَ مِنَ الْغُلُولِ، حَذَّرَ مِنَ الرِّشَاوِي، حَذَّرَ مِنَ الرِّبَا، حَذَّرَ مِنْ أَنْوَاعِ هَذِهِ الْمَظَالِمِ وَالتَّعَدِّيَّاتِ، فَكُلٌّ مَنْ يَظْلِمُ يَأْتِي يَحْمِلُ هَذِهِ الْمَظَالِمَ عَلَى رَقَبَتِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَيًا كَانَتْ، وَلِهَذَا ذَكَرَ الْبَعِيرَ، وَذَكَرَ الْفَرَسَ، وَذَكَرَ الْبَقْرَ، وَذَكَرَ الشَّاةَ، وَذَكَرَ الرِّقَاعَ، وَذَكَرَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ، فَصَّلَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ مُحَذِّرًا لِلأُمَّةِ وَمَنْذِرًا مِنَ الظُّلْمِ وَالتَّعَدِّيِّ عَلَى حَقُوقِ الْآخَرِينَ.

وَالَّذِي يَضِيعُ مِنَ الْإِنْسَانِ فِي هَذِهِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا لَا يَضِيعُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، كَمَا قَالَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: ((لَتُؤَدَّنَ الْحَقُوقُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ)) ، وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ لَا يَكُونُ فِيهِ دَنَانِيرٌ وَلَا دَرَاهِمٌ ، الدَّنَانِيرُ وَالْدَّرَاهِمُ تَنْتَهِي فِي هَذِهِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا،

يوم القيامة لا يوجد دنائير ولا يوجد دراهم فكيف تُؤدَّى الحقوق؟ مَنْ أُخِذَ منه بقر، أو أُخِذَ منه غنم، أو أُخِذَ منه أراضي، أو أُخِذَ منه أموال ظلماً، كلّ هذه لا تكون موجودةً يوم القيامة، هذه الأموال كلّها تنتهي في الدنيا، فكيف تُؤدَّى؟

جاء في الحديث الصحيح حديث عبد الله بن أنيس قال عليه الصلّاة والسلام: ((يحشر الله النَّاسَ يوم القيامة عُراً خفاةً بُهْمًا)). قالوا: وما بُهْمًا يا رسول الله؟ أي: عراً معروفاً، خفاةً معروفاً، فما معنى بهما؟ قال: ((ليس معهم من الدنيا شيء)) كلّ الأموال التي كانت عندهم حتى مَنْ كان عنده مثل مال قارون لا يكون معه شيء منه يوم القيامة ولا درهم واحد. قال: ((ثمّ ينادي الله عزّ وجلّ بصوتٍ يسمعه مَنْ بَعْدَ كما يسمعه مَنْ قَرُبَ. يقول: أنا الملك أنا الدّيّان، ثمّ يقول سبحانه وتعالى: لا ينبغي لأحدٍ من أهل الجنة أن يدخل الجنة ولأحدٍ من أهل النار عليه مظلمة حتى أقتصّها منه، ولا ينبغي لأحدٍ من أهل النار أن يدخل النار ولأحدٍ من أهل الجنة عليه مظلمة حتى أقتصّها منه. قال: حتى اللّطمة)). قالوا: «يا رسول الله! وكيف ذاك وهم إنّما جاءوا بهمّا!» ، كيف يكون القصاص؟ مَنْ أخذ الأموال لا يأتي بالأموال مالكاً لها، وإنّما يأتي يحملها يوم القيامة خزيًا وفضيحةً على رؤوس الأشهاد، هذه المظالم، وإذا كثرت كثير ما يحمل على عاتقه، ((ومَنْ ظلم قيد شبرٍ طوّقه يوم القيامة من سبعة أراضين)) طوّقاً على عنقه. فهذه المظالم يأتي يحملها خزيًا وفضيحة، لكن القصاص بماذا يكون؟ قالوا: «كيف يا رسول الله، وهم إنّما جاءوا بهمّا؟!» قال: ((بالحسنات والسّيّئات)).

ما معنى «بالحسنات والسّيّئات»؟ يوضّحه حديث أبي هريرة في صحيح مسلم قال النّبى عليه الصلّاة والسلام: ((أَتَذَرُونَ مَا الْمُفْلِسُ؟)) قَالُوا «الْمُفْلِسُ فِينَا مَنْ لَا دِرْهَمَ لَهُ وَلَا مَتَاعَ». فَقَالَ ((إِنَّ الْمُفْلِسَ مِنْ أُمَّتِي يَأْتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ بِصَلَاةٍ وَصِيَامٍ وَزَكَاةٍ ، وَيَأْتِي قَدْ شَتَمَ هَذَا وَقَذَفَ هَذَا وَأَكَلَ مَالَ هَذَا وَسَفَكَ دَمَ هَذَا وَضَرَبَ هَذَا فَيُعْطَى هَذَا مِنْ حَسَنَاتِهِ وَهَذَا مِنْ حَسَنَاتِهِ ، فَإِنْ فَنِيَتْ حَسَنَاتُهُ قَبْلَ أَنْ يُقْضَى مَا عَلَيْهِ أُخِذَ مِنْ خَطَايَاهُمْ فَطُرِحَتْ عَلَيْهِ ثُمَّ طُرِحَ فِي النَّارِ)). فهذا معنى قوله في الحديث المتقدّم ((بالحسنات والسّيّئات)). فالمظالم تُؤدَّى يوم القيامة لأصحابها، وكلّ ظالم يأتي يحمل المظالم على رقبته خزيًا للعالمين وفضيحة على رؤوس الأشهاد، ثمّ ييؤ بعاقبة إثمه، ثمّ أيضًا تذهب حسناته للآخرين ، وإن فَنِيَتْ حسناته قبل أن يُقضى ما عليه أُخِذَ مِنْ سَيِّئَاتِهِمْ فَطُرِحَ فِي النَّارِ.

أروي لكم طريفةً مفيدة، قصة طريفة حصلت لي مرّة ؛ مرّةً في إحدى البلدان استأجرتُ غرفةً في فندق، وكان من طريقتهم دفعُ تأمين حتى لو حصل في الغرفة شيء من ... ودفعُ أجرة الغرفة، فدفعت الأجرة ودفعت التّأمين، وهي الغرفة الوحيدة التي بقيت في المكان، لما دخلت الغرفة وإذا الرّجل الذي كان ساكنًا قبلي في الغرفة مدخّن، وإذا الغرفة -والعياذ بالله- لا تُطاق، ولا يستطيع أن يرتاح الإنسان فيها، فرجعت إلى الشّخص قلت له: أنا ما أستطيع أن أسكن في هذه الغرفة، مليئة برائحة الدُّخان وما أستطيع، فأعد لي حقّي أبحث عن مكان آخر. قال: أمّا التّأمين أعطيك إيّاه، أمّا الأجرة لا؛ لأنّها دخلت في الحاسب وفي الجهاز وأشياء من هذا القبيل، أنا ما أعطيك

الأجرة. قلت: إذا أعطني التأمين. فأعطاني التأمين. ثم قلت له: الحق المتبقي عندك هو باقي لي وراجع لي لم يضع عليّ أبدًا، وما ضاع في الدنيا لا يضيع في الآخرة وباقي لي، هذا مقابل ماذا تأخذون هذا؟! السلام عليكم ومشيت. لما مشيت بحثت في أماكن حتى وجدت، فالرجل أخذ يلفّ يبحث عني ويسأل حتى وجدني في فندق آخر، وقال: هذا حقك.

أقصد من ذلك أنّ الإنسان لو وعى هذا الأمر أنّ الحق لا يضيع، حق الإنسان لا يضيع إن أخذ قهراً وظلماً وبغياً في الدنيا أُسْعيد يوم القيامة، والإنسان يوم القيامة أحوج إلى الحسنات أحوج منه إلى ريات هذه الدنيا، أحوج إلى الحسنات، وحاجته إلى الحسنات أكثر من حاجته إلى المال، المال يأتي ويذهب في الدنيا، ولكن حاجة الإنسان إلى الحسنات، ولهذا الشيء الذي يضيع في الدنيا ما يضيع، هو إن ضاع في الدنيا باقي للإنسان يوم القيامة، الحقوق كلها تُؤدّى يوم القيامة، ولو أنّ الإنسان عندما يريد أن يسيء إلى الآخرين أو يتعدّى على حقوق الآخرين يدرك أنّ هذا الحق الذي أخذه من الآخرين هو باقي لصاحبه، حتى وإن افتقده ظلماً في الدنيا هو باقي لصاحبه سيأخذه وافيًا يوم القيامة. يوم القيامة يُقتَصَرُ للشاة الجَلحاء من الشاة القراء، فكيف بالإنسان الذي له عقل؟! الآن الشاة التي تُقدّم وتنطح الأخرى بقرنها يُقتَصَرُ لهذه من هذه يوم القيامة، تُؤدّى الحقوق، مع أنّها شاة لا تعقل، فكيف بأناس عندهم عقل ويتعدّون على الأموال ويظلمون الناس ويستلبون أموالهم بغير حق!!.

قال رحمه الله تعالى :

باب الهدية على الشفاعة

١٧٠ - عن أبي أمامة رضي الله عنه مرفوعاً: ((من شفع لأخيه شفاعة فأهدى له هدية عليها فقبلها فقد أتى باباً من أبواب الربا)) رواه أبو داود. ورواه إبراهيم الحربي عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: ((السحت أن يطلب الرجل الحاجة فتتقاضى له، فيهدى إليه فيقبلها)). وله عن مسروق عنه: «من ردّ عن مسلم مظلمة فأعطاه عليها قليلاً أو كثيراً فهو سحت» قلنا: يا أبا عبد الرحمن ما كنا نرى السحت إلا الرشوة في الحكم! قال: ذلك كفر ﴿وَمَنْ لَمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ﴾ [المائدة: ٤٤].

قال رحمه الله تعالى: «باب الهدية على الشفاعة» ؛ الشفاعة: الأصل أنّها إحسان للآخرين في مساعدته للوصول إلى حق من حقوقه . أمّا إذا كانت شفاعة لأخذ ما ليس له لظلم الآخرين فهذه شفاعة جائرة ظالمة، وللشافع كِفل من العقوبة ونصيب من العقوبة في شفاعته في الظلم، وعمله هذا من التعاون على الإثم والعدوان. فالشفاعة الأصل أنّها إحسان للآخرين. وسميت شفاعة: من الشفع الذي هو ضدّ الوتر؛ لأنّ الشافع ضمّ صوته وكلمته إلى صوت صاحب الحقّ معونةً له في الوصول إلى الحقّ .

فيقول رحمه الله: «باب الهدية على الشفاعة» ؛ الشفاعة لا تخلو من حالتين:

١- إمّا شفاعة في حق؛ حقّ للإنسان يريد أن يحصل عليه أو أمر من الأمور التي هي حقّ يريد أن يحصل عليه، فطلب وجيهاً أو شخصاً له مكانة يشفع له في حصول هذا الحق ؛ فهذا العمل من الشافع باب من أبواب الإحسان، باب من أبواب التعاون على البرّ والتقوى ، له أجره عند الله، يقول عليه الصّلاة والسّلام: ((اشفعوا تؤجروا))، له الثواب على هذا العمل، فهو باب من أبواب الخير والعمل الصّالح.

٢- وإمّا أن تكون الشفاعة شفاعة في باطل؛ مثل: أن يُقدّم الرديء على الفاضل الخير في مثلاً عمل من الأعمال أو مهمّة من المهمّات، فيشفع له شافع في أن يُقدّم على من هو أحسن منه مثلاً ، فهذه الشفاعة ظلم. ■ فإذا أخذ الهدية على الشفاعة، إن كان أخذ الهدية على الشفاعة في ظلم فهذا حشفٌ وسوء كيلة، شفع في ظلم، وأدّت شفاعته إلى تعدي على الحقّ وتقديم -مثلاً- من ليس أهلاً ، أو حصول هذا المشفوع له ما ليس له فيه حقّ، فهي ظلم، فعلى ماذا يأخذ هذه الهدية؟ على معاونته على الظلم؟ على معاونته على الإثم والعدوان؟!

■ وأمّا إذا كانت شفاعته في أمرٍ حقّ، فعلى ماذا يأخذ الهدية؟! أخذٌ لها بغير مقابل؛ لأنّ هذا باب من أبواب الإحسان، ((اشفعوا تؤجروا))، أعطاك الله جاه أعطاك الله مكانة فشفعت له وأجرك على الله سبحانه وتعالى ، فإذا أخذت منه شيئاً مقابل شفاعتك أخذت منه مالاً بدون عوض، بدون مقابل؛ فيكون أخذ الإنسان لهذا المال أخذٌ بغير حقّ.

قال: عن أبي أمامة مرفوعاً: ((من شفع لأخيه شفاعة فأهدى له هدية عليها)) أي: على هذه الشفاعة، من أجل هذه الشفاعة، مثل أن يقول له: أنا حقيقة كان موضوعي متأخّر وكذا وأنت ساعدتني وخدمتني وكلّمت فلاناً، وهذه هدية لك بهذه المناسبة، ((فأهدى له هدية عليها)) أي: على هذه الشفاعة ((فقبلها فقد أتى باباً من أبواب الرّبا)) ، لماذا يكون أتى باباً من أبواب الرّبا؟ لأنّ كلّاً من المرابي وهذا أخذ مالاً بغير مقابل بغير حقّ؛ المرابي أخذ ممن تعامل معه بالرّبا مالاً بغير مقابل ، يقول له مثلاً : أقرضك ألف ريال تسددها لي ألف ومئتين، المئتين هذه بدون مقابل، لا حقّ له فيها. مثله هنا قال: ((أتى باباً من أبواب الرّبا))؛ لأنّه أخذ على شفاعته مالاً، وهذا المال الذي أخذه بدون مقابل، ليس له عوض، يقبل الثمن ولم يقدّم شيئاً لينال به هذا الثمن. فهذا وجه الشّبه بين من يقبل الهدية على الشفاعة ومن يراي ، أي أنّ كلّاً منهما أخذ مالاً بدون مقابل.

قال: رواه أبو داود، ورواه إبراهيم الحربي عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: ((السُّحت أن يطلب الرّجل الحاجة فتقضى له، فيهدى الهدية فيقبلها)) وهذا مثل الذي قبله، وسمّاه ابن مسعود «سحتاً». وفي الحديث يقول النّبيّ الكريم عليه الصّلاة والسّلام: ((كلّ جسدٍ قام على السُّحت فالنّار أولى به)).

قال: وله عن مسروقٍ عنه ((مَنْ رَدَّ عَنْ مُسْلِمٍ مَظْلَمَةً، فَأَعْطَاهُ عَلَيْهَا قَلِيلًا أَوْ كَثِيرًا فَهُوَ سَحْتٌ)) أي: عاون وساعد وشفع له حتى رُفِعَتْ عنه المظلمة، رَدَّ عَنْهُ مَظْلَمَةً قال: ((فَهُوَ سَحْتٌ)) أي: أَكَلْتُ لِلْأَمْوَالِ بِالْبَاطِلِ.

«قلنا: يا أبا عبد الرحمن ما كنّا نرى السُّحْتَ إِلَّا الرِّشْوَةَ» ؛ انظر إلى هذه المقولة «ما كنّا نرى السُّحْتَ إِلَّا الرِّشْوَةَ»؛ يعني: من الثُّقُولِ الكثيرة عن السَّلَفِ في تفسير السُّحْتِ في قوله ﴿وَأَكْلَهُمُ السُّحْتَ﴾ [المائدة: ٦٣]: الرِّشْوَةُ؛ لأنّها من أبرز وأشنع صور السُّحْتِ ، ولهذا فُسِّرَتِ الآية بها عند كثيرٍ من أئمة السَّلَفِ رحمهم الله تعالى. لكن لا يعني ذلك الحصر ، وهذا كثير في تفاسير السَّلَفِ يفسِّرون الشَّيْءَ ببعض أفرادهِ أو بأبرز أو أشهر أفرادهِ أو نحو ذلك.

قال: «قلنا يا أبا عبد الرحمن ما كنّا نرى السُّحْتَ إِلَّا الرِّشْوَةَ في الحكم. قال: ذلك كفرٌ ﴿وَمَنْ لَمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ﴾ [المائدة: ٤٤]» ؛ أي: هذا ضَرْبٌ من ضروب الكفر أن تُضَيِّعَ أحكامَ الله سبحانه وتعالى وحدوده بهذه الرِّشاوي التي يقبلها مَنْ هو قائمٌ على هذا الحدِّ من حدود الله سبحانه وتعالى . وقد جاء عن ابن عباسٍ رضي الله عنهما في قوله: ﴿وَمَنْ لَمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ﴾ قال: «كفرٌ دون كفرٍ» أي: كفرٌ دون الكفر الأكبر الناقل عن المِلَّةِ. ومثمة صور عديدة في هذا الحكم تكون كفرًا دون الكفر الأكبر، وهناك صور أيضًا يكون فيها الحكم بغير ما أنزل الله ناقلاً من المِلَّةِ.

قال رحمه الله تعالى :

بَابُ الْغُلُولِ

وقول الله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَغُلَّ وَمَنْ يَغُلْ يَأْتِ بِمَا غَلَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ الآية [آل عمران: ١٦١].

١٧١ - عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: لما فتح الله خير انطلقنا إلى الوادي ومع رسول الله صلى الله عليه وسلم عبدٌ له يقال له مدعم ، فلما نزلنا الوادي رُمي بسهم فمات، فقلنا هنيئًا له بالشهادة يا رسول الله، فقال: ((كلا والذي نفسي بيده، إن الشملة التي أخذها يوم خير لتلتهب عليه نارًا، أخذها من المغام لم تُصبها المقاسم. ففرع الناس فجاء رجل بشراك أو شراكين فقال: يا رسول الله أصبتُ يوم خير، فقال: شراكٌ أو شراكان من نار)) أخرجاه.

قال رحمه الله تعالى: «بَابُ الْغُلُولِ» ؛ والغلول هنا المراد به: الأخذ من الغنيمة قبل أن تُقَسَمَ . الأخذ من الغنيمة أي: يسرق منها أو يستلب شيئًا منها أو يُخْفِي شيئًا منها يخصُّ نفسه به قبل أن تُقَسَمَ الغنيمة.

قال: وقول الله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَغُلَّ﴾ أي: حاشاهم أنبياء الله ويمتنع في حقهم أن يكون فيهم من يغُلّ، هذا أمرٌ لا يكون ولا يقع، ويستحيل أن يقع من أنبياء الله الذين هم صفوة الله وخيار عباد الله ، فهذا تبرئة وتنزيه للأنبياء أنه لا يقع شيء من ذلك من نبي ، فهم صفوة الله وخيار عباد الله سبحانه وتعالى يمتنع ويستحيل أن يقع من واحدٍ منهم غلول ﴿وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَغُلَّ﴾ .

ثم ذكر الله عز وجل حكم الغلول وعقوبة من يقع في الغلول قال: ﴿وَمَنْ يَغْلُ﴾ أي: من الناس ويقع في الغلول ﴿يَأْتِ بِمَا غَلَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ ؛ أي: هذا عقوبته وهذا وعيد الله سبحانه وتعالى لمن غلَّ أنه يأتي بما غلَّ يوم القيامة. ومعنى ﴿يَأْتِ بِمَا غَلَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ كما تقدّم؛ يأتي يحمل الذي غلّه يوم القيامة، وأشرت إلى الحديث، حديث أبي هريرة لما ذكر النبي صلى الله عليه وسلم الغلول وعظم أمره قال: ((لا يأتين أحدكم يوم القيامة وعلى رقبته...)) وذكر أشياء مرّت، ﴿وَمَنْ يَغْلُ يَأْتِ بِمَا غَلَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ أي يأتي يوم القيامة يحمل هذا الذي غلّه على رقبته، ويعاقبه الله سبحانه وتعالى بكل شيء غلّه، قل ذلك أو أكثر.

قال: عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: ((لما فتح الله خير انطلقنا إلى الوادي، ومع رسول الله صلى الله عليه وسلم عبدٌ يقال له مدغم، فلما نزلنا الوادي رُمي بسهم فمات)) على إثر الفتح، بعد الفتح بقليل رُمي بسهم فمات.

«فقلنا: هنيئًا له بالشهادة يا رسول الله». فقال النبي صلى الله عليه وسلم ((كلا، والذي نفسي بيده، إنَّ الشَّمْلَةَ الَّتِي أَخَذَهَا يَوْمَ خَيْرٍ لَتَلْتَهَبَ عَلَيْهِ نَارًا أَخَذَهَا مِنَ الْمَغَافِمِ)) ؛ شَمْلَةٌ: الشَّمْلَةُ غطاءٌ يُلتحف به. ما أخذ أموالاً طائلة، أخذ شَمْلَةً! غطاء لحاف يتغطى الإنسان به، غلّها أخذها قبل أن تُقسم الغنيمة، أخفاها خص نفسه بها قبل أن تُقسم الغنيمة. قال: شَمْلَةٌ.

فقال النبي: ((والذي نفسي بيده إنَّ الشَّمْلَةَ الَّتِي أَخَذَهَا يَوْمَ خَيْرٍ لَتَلْتَهَبَ عَلَيْهِ نَارًا، أَخَذَهَا مِنَ الْمَغَافِمِ لَمْ تَصِبْهَا الْمَقَاسِمِ)) ؛ هذه الغزوة -أيضًا- غزوة خيبر حصل فيها قصّة رجل كما في الصحيح أبلَى في النِّكَاية في الكفّار بلاءً عظيمًا، وحصل على يديه شيء عظيم في النِّكَاية بالكفّار، فقال بعض الصّحابة: «هو من أهل الجنّة»، فقال النبي صلى الله عليه وسلم: ((هو من أهل النار))، تعجّب الصّحابة! رجل في مجاهدة للكفار وصمود في ملاقات الكفّار، وحصل منه أمر عظيم في الفتك بهم ، حتى إنَّ الصّحابة من شدّة إعجابهم ببلائه العظيم قالوا: «هو من أهل الجنّة»، قال النبي صلى الله عليه وسلم: ((هو من أهل النار)) ، وتعجّب الصّحابة من ذلك. فأحد الصّحابة أخذ يتتبع هذا الرّجل ويتابع، فأصيب بضربة في القتال فلم يحتمل ألمها فأخذ السيف -

سيف نفسه - ووضعه في نحره وقتل نفسه. فجاء هذا الصَّحابي وقال: «يا رسول الله أشهد أنك رسول الله» وذكر قصّة الرّجل وأنّه قتل نفسه.

فمثل هذا الحديث وأحاديث كثيرة أخذ منه العلماء رحمهم الله تعالى: أنّه لا يُقال لمن قُتل في المعركة، وملافاة الأعداء، لا يُقال شهيد هكذا جزماً ، والآن سهلة اللفظة عند كثير من النَّاس، يقولون استشهد فلان، أو الشَّهيد فلان... أو نحو ذلك، بل بعض الأشخاص لا يذكرونه إلّا بقلب الشَّهيد. وفي صحيح البخاري: «باب لا يُقال فلان شهيد»، وإذا كان هذا رجل، ومع النَّبيّ صَلَّى الله عليه وسلّم، وفي غزوة خيبر، وحصل منه نكايّة كبيرة بالكفّار حتى إنّ الصَّحابة قالوا: "هو من أهل الجنّة" قال النَّبيّ صَلَّى الله عليه وسلّم: ((هو من أهل النَّار)). والشَّهيد: هو مَنْ قاتل لتكون كلمة الله هي العُليا، أي: نيّته في نفسه وباطنه بينه وبين الله من أجل أن تكون كلمة الله هي العُليا، ومَنْ يدخلون السَّاحة - ساحة القتال - منهم مَنْ يُقاتل حميّة، منهم مَنْ يُقاتل عصبية، منهم مَنْ يُقاتل طمع في أمور دنيويّة، ليس كلّ مَنْ يدخل ساحة القتال صافية نيّته لله، هذا بينه وبين الله.

إذاً مَنْ يُقتل في ساحة المعركة لا يُجزم له بالشَّهادة جزماً، مثل أن يُقال: فلان شهيد أو استشهد، وإنّما يُقال: "نحسبه من الشُّهداء، نرجو أن يكون من الشُّهداء، إن شاء الله أنّه من الشُّهداء"، أمّا أن يأتي بها الإنسان جزماً وبقيناً "فلان شهيد" ولا يُنادى إلّا بهذا اللَّقب فهذا ليس صحيحاً. والنصوص دلّت على المنع من ذلك، وأنّه لا يُقال شهيد، لا يُجزم بها؛ لأنّ معنى جزم الإنسان بأنّه شهيد أي: أنّه في الجنّة مع الشُّهداء، ﴿مَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَٰئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَٰئِكَ رَفِيقًا﴾ [البقرة: ١٧٧] ، والله عزّ وجلّ قال: ﴿فَلَا تَزْكُوا أَنْفُسَكُمْ﴾ [النجم: ٣٢] لا يزكي بعضكم بعضاً. فالأصل ألا يُقال ذلك ، ومَنْ حصل منه إحسان في القتال ونحو ذلك يُقال: "نحسبه من الشُّهداء، نرجو الله أن يكون من الشُّهداء، إن شاء الله أنّه من الشُّهداء" أو نحو ذلك من العبارات الّتي لا يكون فيها جزم.

قال: ((إنَّ الشَّمْلَةَ الَّتِي أَخَذَهَا يَوْمَ خَيْبَرَ لَتَلْتَهَبَ عَلَيْهِ نَارًا، أَخَذَهَا مِنَ الْمَغَانِمِ لَمْ تَصِبْهَا الْمَقَاسِمِ)) لما قال النَّبيّ صَلَّى الله عليه وسلّم هذا الكلام، ورأوا أيضاً من حال الرّجل ما رأوا أدركوا أنّ الأمر خطير جدّاً.

«ففزع النَّاس» انظر الكلمة، «ففزع النَّاس» أي: حصل خوف في القلوب. وهذا أيضاً يُستفاد منه: أهميّة الدَّعوة والوعظ، تذكير النَّاس وتخويفهم، وذكر هذه النصوص نصوص الوعيد حتى يرتدع النَّاس ، ولهذا ذكرت أكثر من مرّة أن النَّاس يحتاجون هذه الكتب، الكتب الّتي تتكلّم عن الكبائر وتحذّر من الكبائر وتبيّن الوعيد على الكبائر؛ النَّاس تحتاج إليها حاجة ماسّة جدّاً؛ لأنّ الإنسان إذا سمع الوعيد حصل له فزع وحصل منه خوف وترك المخالفة. انظر الآن قال: «ففزع النَّاس، فجاء رجل بشراكٍ أو شراكين» الشِّراك: سير النّعل، ظهر النّعل، جاء بشراك:

يعني لم يأت حتى بنعل وإنما شراك للنعل. قال: «فجاء رجل بشراك أو شراكين، فقال يا رسول الله أصبت يوم خير» قال: ((شراك أو شراكان من نار))، وهذا فيه: أنَّ هذا الغلول حتى لو كان قليلاً أيضاً في النار. فمثل هذه النصوص تُحدث في القلب الفزع والخوف من هذه الذنوب، من هذه المظالم، من هذه التعديّات، تحدث للقلب خوف، وتجعل الإنسان ينتبه ويتيقظ. ولهذا هذا الرجل جاء بالشراك يريد أن يتخلص منه، قال: «أصبت يوم خير»؛ جاء يريد أن يتخلص؛ لأنَّ الناس فزعت وأدركوا أن الأمر جدُّ خطير. سبحانك اللهم وبحمدك، أشهد أن لا إله إلا أنت، أستغفرك وأتوب إليك. اللهم صلِّ وسلِّم على عبدك ورسولك نبينا محمد وآله وصحبه أجمعين.

الدرس الخامس والعشرون

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله ربِّ العالمين، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله، صلى الله وسلم عليه وعلى آله وأصحابه أجمعين. أمّا بعد:

قال شيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب رحمه الله تعالى في كتاب الكبائر :

باب طاعة الأمراء

وقول الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ﴾ الآية [النساء: ٥٩]، وقوله تعالى: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ﴾ [التغابن: ١٦] .

قال رحمه الله تعالى : «باب طاعة الأمراء» ؛ والأمراء : هم مَنْ وَلُوا أمر المسلمين ولايةً عامّةً أو ولايةً خاصّةً، وهؤلاء لهم الطّاعة في المعروف، وأمّا في معصية الله تبارك وتعالى ف((لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق)) كما صحَّ بذلك الحديث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم.

قال: وقول الله تعالى ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ﴾ [النساء: ٥٩] ؛ وهذا فيه أمرٌ بطاعة الله عزّ وجلّ وطاعة رسوله، وأمرٌ كذلك بطاعة ولاية الأمر، لكن لما كان طاعة ولاية الأمر ليست طاعةً

مطلقة لم يُكرَّر فعل الأمر ﴿وَأَطِيعُوا﴾؛ لأنَّ الطَّاعَةَ لهم في المعروف، ولا طاعة لمخلوقٍ في معصية الخالق سبحانه وتعالى.

قال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ﴾؛ والآية الكريمة أصل في وجوب طاعة ولاة الأمر؛ وذلك أنَّ طاعة ولاة الأمر أمرٌ لا تنتظم مصالح المسلمين عمومًا إلاَّ به، لأنَّ مصالح المسلمين الدِّنيَّة والدُّنيويَّة لا تصلح إلاَّ بجماعة، ولا جماعة إلاَّ بأمر، ولا أمر إلاَّ بسمع وطاعة، ولا يصلح أمرُ النَّاس هكذا فوضى بدون جماعة وبدون انضباط وبدون وليٍّ أمرٍ يقوم على شؤونهم وأمورهم، ولهذا يجب أن تُتخذ الإمارة والولاية دينًا، وتكون طاعة العبد لوليِّ الأمر قربة لله سبحانه وتعالى؛ لأنَّ الله أمره بذلك، ولأنَّ الرَّسول الكريم صلوات الله وسلامه وبركاته عليه أمره بذلك.

قال: وقول الله عزَّ وجلَّ: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ﴾ [البقرة: ١٧٦]؛ وهذه الآية الكريمة فيها الأمر بتقوى الله عزَّ وجلَّ في حدود استطاع العبد، ومن ذلكم ما أمر الله سبحانه وتعالى به في الآية المتقدمة من طاعة ولاة الأمر ﴿وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ﴾ [النساء: ٥٩]. والأوامر كلها جاءت معلَّقة بالاستطاعة، ((إذا أمرتكم بشيء فأتوا منه ما استطعتم، وما نهيتكم عنه فانتهوا))، النهي لم تُذكر فيه الاستطاعة لأنَّه ترك، والتَّرك مُستطاع، أمَّا الأوامر فإنَّ التكليف بها معلق باستطاعة العبد. قال: وقول الله تعالى ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ﴾.

قال رحمه الله تعالى :

١٧٢ - عن معاذ بن جبل رضي الله عنه مرفوعًا: ((الغزو غزوان، فأما من ابتغى به وجه الله، وأطاع الإمام، وأنفق الكريمة، وياسر الشريك، واجتنب الفساد؛ فإنَّ نومه ونَبْهته أجرٌ كله. وأما من غزا فخرًا ورياءً وسمعة، وعصى الإمام، وأفسد في الأرض؛ فإنه لن يرجع بالكفاف)) رواه أبو داود والنسائي.

قال: عن معاذ بن جبل رضي الله عنه مرفوعًا: ((الغزو غزوان))؛ والمراد بقوله: «الغزو غزوان» أي: باعتبار النية، نية الغازي ومقصده بالغزو.

قال: ((فَأَمَّا مَنْ ابْتَغَى بِهِ وَجْهَ اللَّهِ)) أي: دخل الغزو وشارك فيه؛ مبتغيًا به وجه الله متقرِّبًا بهذا العمل إلى الله سبحانه وتعالى؛ لأنَّ الجهاد من جملة الأعمال الصَّالحة التي لا تُقبل إلاَّ بالنية الصَّالحة، بأنَّ يبتغي به وجه الله سبحانه وتعالى، وقد سئل النَّبيُّ عليه الصَّلَاةُ والسَّلَام عن الرَّجل يقاتل حمية، والرَّجل يقاتل عصبية، والرَّجل يقاتل للمغنم، أيُّهم في سبيل الله؟ قال: ((مَنْ قَاتَلَ لَتَكُونَ كَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعِلْيَا، فَهُوَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ)).

((وأطاع الأمير)) أي: التزم بطاعة الأمير، وهذا موضع الشاهد من الحديث للترجمة.

((وأنفق الكريمة)) أي: بذل النفيس الجيد بنفسه سخية.

((وياسر الشريك)) من المياسرة وهي المساهلة والملاينة، وهذا فيه جمع بين حُسن البذل والسَّخاء، وحُسن المعاملة والملاطفة للرفيق والشريك.

((واجتنب الفساد)) أي: لم يقع منه فساد، أو تجنَّب أو ظلم.

((فإنَّ نومته ونَبهته أجرٌ كُلُّه)) أي: قومته وانتباهه له فيها أجر، حتى النومة.

وهذا الحديث يُستفاد منه فائدة عظيمة: أنَّ النَّبِيَّةَ الصَّالِحَةَ تَقْلِبُ العادة عبادة، حتى نوم المرء يكون عبادة بالنَّبِيَّةِ الصَّالِحَةِ وحسن العمل، وحتى أَيْضًا طعام المرء وشرابه وغير ذلك من أموره تكون عبادةً يُؤَجَّرُ عليها ويُثَابَ بِنَبِيَّتِهِ الصَّالِحَةِ؛ ولهذا قال: ((فإنَّ نومته ونَبهته)) أي: نومه وقيامه من النوم واستيقاظه منه أجرٌ كُلُّه، حتى نومه أجر.

قال: ((وَمَنْ غَزَا فَخْرًا وَرِيَاءً وَسُمْعَةً)) هذا فساد النَّبِيَّةِ، أي: دخوله في الغزو ليس لله ولا لطلبِ مرضاته سبحانه وتعالى، وإنما للمفاخرة وللرياء وللسمعة. للمفاخرة: حتى يأتي ويقول أنا الذي فعلت، وأنا الذي فعلت. وللرياء: أي للتظاهر بهذا العمل؛ يزيّن عمله من أجل أن يراه النَّاسُ فيقولون مجاهد أو يقولون شجاع أو مقدام أو نحو ذلك؛ ((فخرًا ورياءً وسُمْعَةً))

((وعصى الإمام)) أي: لم يلتزم بطاعة الإمام. وعرفنا أنَّ الأمور لا تنتظم إلا بالطَّاعة، لا تنتظم إلا بالجماعة، ولا جماعة إلا بإمام، ولا إمام إلا بسمعٍ وطاعة.

((وأفسد في الأرض)) أي: عثى فسادًا بالتَّعَدِّي والظُّلم، ومن ذلك: أن يقتل الوليد، وأن يقتل الشَّيخ، وأن يفسد في الأموال، وأن يعمل على إتلافها بغير حق؛ هذا كُلُّه من الفساد والبطر، ولم يأتِ الإسلام بهذا الفساد وإنما جاء لإصلاح النَّاسِ وإنقاذ البشريَّة من جهالة الشِّرك والكفر والضَّلال إلى نور الإيمان وسنا التَّوحيد وضيائه.

قال: ((فإنَّه لا يرجع بالكفاف)) ؛ الذي يرجع بالكفاف هو الذي لا له ولا عليه. لا له: أي الأجر، ولا عليه: الوزر. فمثل هؤلاء -الصَّنَفُ الثَّانِي- لا يرجعون بالكفاف الذي لا له ولا عليه. إذاً معنى ذلك أنَّه يرجع بالإثم والوزر.

قال رحمه الله تعالى :

١٧٣ - عن ابن عمر رضي الله عنهما مرفوعًا: ((على المرء المسلم السمع والطاعة فيما أحب وكره، إلا أن يؤمر بمعصية، فإذا أمر بمعصية فلا سمع ولا طاعة)) أخرجاه.

قال: وعن ابن عمر رضي الله عنهما مرفوعاً: ((على المرء المسلم السَّمْعُ والطَّاعَةُ)) ؛ وقوله: «على المرء» هذه الصيغة تفيد الوجوب؛ أي أنه واجب على المرء أن يقوم بذلك .

((على المرء المسلم السَّمْع والطَّاعَةُ))؛ السَّمْع والطَّاعَةُ: أي للأمر.

((فيما أحب)) أي: المرء ((وكره)) أي: ما يُكَلِّف به من عمل أو أمر، أو يُطَلَّب منه القيام به يقوم به سواء كان مُحِبًّا لهذا العمل أو كارهًا له، غير مبالٍ إليه نفسه .

((إلا أن يؤمر بمعصية)) أي: فإن أمره الوالي بمعصية لله سبحانه وتعالى فلا يجوز له أن يطيعه؛ إن أمره بالزنا، إن أمره بشرب الخمر، إن أمره بترك الصلاة، أو غير ذلك؛ فإنه لا يطيع؛ لأنه ((لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق)). قال: ((إلا أن يؤمر بمعصية، فإذا أمر بمعصية فلا سمع ولا طاعة))، لأنه ((لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق)).

قال رحمه الله تعالى :

باب الخروج عن الجماعة

وقول الله تعالى: ﴿وَمَنْ يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّى﴾ الآية [النساء: ١١٥] ، وقوله تعالى: ﴿وَاغْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا﴾ الآية [آل عمران: ١٠٣] .

قال: «باب الخروج عن الجماعة» والمراد بالجماعة: جماعة المسلمين و ((يد الله على الجماعة، ومن شذَّ شذَّ في النار)). . والواجب على المرء المسلم أن يلزم جماعة المسلمين وإمامهم، ولا يفرق الجماعة، ولا ينشق عن الجماعة ويشذَّ، بل يكون ملازمًا لجماعة المسلمين سامعًا ومطيعًا لإمام المسلمين.

قال: وقول الله تعالى ﴿وَمَنْ يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّى وَنُصْلِهِ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا﴾ [النساء: ١١٥]؛ والشَّاهد من الآية: قوله سبحانه وتعالى ﴿وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ ومن سبيل المؤمنين: أن يلزم جماعة المسلمين كما أمر بذلك في شرع الله، وفي الأحاديث الكثيرة عن رسول الله صلوات الله وسلامه وبركاته عليه.

قال: وقول الله تعالى ﴿وَاغْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا﴾ [آل عمران: ١٠٣] ، والشَّاهد من الآية قوله: ﴿وَلَا تَفَرَّقُوا﴾ ، وأنَّ الفُرقة شرٌّ لا خير فيها، والجماعة رحمة، ولا صلاح للمسلمين إلا بالاجتماع، ولا جماعة إلا بإمام، ولا إمام إلا بسمع وطاعة.

قال رحمه الله تعالى :

١٧٤ - عن ابن عباس رضي الله عنهما مرفوعاً: ((من كره من أميره شيئاً فليصبر؛ فإنه من خرج من السلطان قيد شبر مات ميتة جاهلية)) أخرجاه.

قال: عن ابن عباس رضي الله عنهما مرفوعاً أي: إلى النبي عليه الصلاة والسلام ((من كره من أميره شيئاً)) أي: شيئاً في تعامل الأمير ، أو هضمه لبعض الحقوق ، أو استثنائه بشيء من أمور الدنيا، أو نحو ذلك ؛ فليقابل ذلك بالصبر، إلى هذا أرشد صلوات الله وسلامه وبركاته عليه قال: ((فليصبر)) أي: لا يتخذ وجود هذا الخلل في الأمير أو النقص في الأمير أو وجود هذا الأمر الذي يكرهه في الأمير لا يجعله سبباً للخروج عليه، بل عليه أن يصبر حتى يستريح برّ أو يُستراح من فاجر، والأمر لله سبحانه وتعالى والمُلك بيد الله جلّ وعلا يُؤتيه من يشاء.

قال: ((فليصبر، فإنه من خرج من السلطان قيد شبر)) أي: ولو قدراً يسيراً بمقدار الشبر، والشبر قدر يسير جداً، ((فإنه من خرج من السلطان قيد شبر مات ميتة جاهلية)) لماذا؟ لأنّ هذا هو سنن أهل الجاهلية؛ أنهم لا يعترفون بسمع وطاعة، كلٌّ على رأسه.

والإمام شيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب رحمه الله صاحب هذا الكتاب لما ألف كتابه الذي بعنوان: «مسائل الجاهلية التي جاء الإسلام بمخالفتها» بدأها بثلاث مسائل، هي من أشهر المسائل التي عند الجاهلية، وهي: الشرك، وعدم الاجتماع فهم في تفرق دائم وشقاق مستمر ، وأيضاً عدم السمع والطاعة للأمير، بل يستنكف الواحد منهم ويستكبر أن يسمع ويطيع. والنبي عليه الصلاة والسلام جمع هذه الأمور الثلاثة في أكثر من حديث، منها قوله عليه الصلاة والسلام في خطبته في مسجد الخيف: ((ثلاث لا يغلّ عليهنّ قلب امرئ مسلم: إخلاص العمل لله، ولزوم جماعتهم، والنصيحة لؤلاة أمرهم)) ، فجمع هذه الأمور الثلاثة صلوات الله وسلامه عليه وأخبر أنّ قلب المؤمن لا يغلّ ، أي: لا يحمل غلاً ولا حقداً ولا غشاً في هذه الخصال إذا قامت فيه ؛ الإخلاص، ولزوم الجماعة، والنصيحة لؤلاة الأمر ، فإنّ قلباً هذا شأنه سليم من الغلّ والحقْد.

قال رحمه الله تعالى :

١٧٥ - ولمسلم عن حذيفة رضي الله عنه مرفوعاً: ((ستكون بعدي أئمة لا يهتدون بهديي ولا يستنون بسنتي، وسيقوم فيهم رجال قلوبهم قلوب الشياطين في جثمان إنس))، قال حذيفة: قلت يا رسول الله كيف أصنع إن أدركت ذلك؟ قال: ((تسمع وتطيع الأمير وإن ضرب ظهرك، وأخذ مالك فاسمع وأطع)).

قال: ولمسلم أي في صحيحه عن حذيفة أي ابن اليمان رضي الله عنه مرفوعاً ((ستكون بعدي أئمة)) ؛ انظر إلى صفتهم ((ستكون بعدي أئمة: لا يهتدون بهدي ولا يستنون بسنتي)) ؛ لا يهتدون بهدي في العمل ، ولا يستنون بسنتي في العلم. وهذا فيه وقوع نوعي الانحراف من هؤلاء ؛ انحراف في العلم، وانحراف في العمل. «لا يهتدون بهدي» أي: لا يقتدون به في أعمالهم، «ولا يستنون بسنتي» أي: لا يعولون على أحاديث الرسول صلى الله عليه وسلم في علومهم. فهذا فيه فساد العلم وفساد العمل. اجتمع فيهم نوعي الفساد.

قال: ((وسيقوم فيهم رجال قلوبهم قلوب الشياطين في جثمان إنس)) ؛ قوله «في جثمان» أي: في جسد وجثة. في جثمان إنس: يعني هو إنسي لكن قلبه قلب شيطان من الشر الذي امتلأ قلبه به، والخبث والمكر. ((رجال قلوبهم قلوب الشياطين في جثمان إنس)) أي: من عظم الشر الذي قام في قلوبهم.

قال رحمه الله تعالى : قال حذيفة: قلت يا رسول الله كيف أصنع إن أدركت ذلك؟ قال: ((تسمع وتطيع الأمير وإن ضرب ظهرك، وأخذ مالك فاسمع وأطع)) ؛ الآن عندما يستمع الإنسان إلى هذه الأوصاف لهؤلاء الأئمة الذين أخبر النبي صلى الله عليه وسلم أنهم سيوجدون، قال: ((ستكون بعدي أئمة)) ووصفهم بأنهم لا يهتدون بهديه ولا يستنون بسنته وسيقوم فيهم رجال قلوبهم قلوب الشياطين في جثمان إنس؛ وهذا فيه سوء البطانة التي حول هؤلاء الأئمة. ثم يقف عند هذا الحد من سماع الحديث ويتأمل: ما الذي يجب تجاه هؤلاء الأئمة؟ ما الذي ينبغي أن يُعامل به مثل هؤلاء الأئمة؟ تجد أن النفس في الغالب إن عُرِضَ عليها هذا الوصف لا ترضى إلا بالافتيات والخروج وعدم السمع والطاعة ، وكيف هؤلاء بهذا الوصف أنا أسمع وأنا أطيع!! هذا الذي تميل إليه النفس.

وهنا ينبغي على الإنسان أن يمحض الاتباع، وأن يتجرد من هوى نفسه، وأن يعلم علم يقين أن النبي عليه الصلاة والسلام لا يدلُّه إلا لكل خير في كل باب. إذا وقفت الآن عند هذا الحد قلت يقول عليه الصلاة والسلام: ((ستكون بعدي أئمة لا يهتدون بهدي ولا يستنون بسنتي فيهم رجال قلوبهم قلوب الشياطين في جثمان إنس)) ، كيف نتعامل معهم؟ تجد أكثر الناس ما تميل نفسه إلا للافتيات عليهم وعدم السمع والطاعة، ولا أسمع ولا أطيع وليكن ما يكون، ما دام هذه أوصافهم وهذه أعمالهم.

ولهذا أقول: ينبغي على الإنسان أن يطرح الهوى وميول النفس ويحكم السنة، فإن السنة لا تأتي إلا بخير، وجرب الناس في عددٍ من المجتمعات عبر أيضاً عدد من فترات التاريخ مخالفة هذه الأمور فلم يحصلوا إلا شراً، لم يحصلوا إلا إراقة الدماء، وانتهاك الأعراض، وانتهاك الأموال، وحصول القوضى، وأصبح الإنسان حتى دينه لا يأمن عليه، وحتى عبادته لا يستطيع أن يقوم بها.

قال حذيفة: «قلت: يا رسول الله كيف أصنع إن أدركت ذلك؟» انتبه هنا أيضاً إلى كلام حذيفة ؛ لما سمع هذه الأوصاف، التَّعامل مع هؤلاء ليس متروكاً لهوى الإنسان ورغبته، ولهذا سأل حذيفة قال: «كيف أصنع؟» ،

أَمَّا "كيف أصنع؟" لا ترجع إلى رغبتك وإلى هواك أو إلى الشيء الذي تميل إليه نفسك، ترجع إلى الشرع، الشرع هو المحكم. قال: «كيف أصنع إذا أدركت ذلك؟»

قال: ((تسمع وتطيع)) أي: لهؤلاء الأولاد الذين هذا وصفهم اسمع وأطع.

((وإن ضرب ظهرك وأخذ مالك اسمع وأطع)) فهذا الذي أرشد إليه النبي عليه الصلاة والسلام. ومن ركب الهوى لا يقبل ذلك، ولا يرضى بهذا الحديث، حتى إن بعض أهل الأهواء الباطل وأصحاب ركوب الأهواء إذا أرادوا أن يذموا من هم ملتزمون بهذه الأحاديث يقولون عنهم: "قوم اسمع وأطع وإن ضرب ظهرك وأكل مالك"، إلى هذا الحد! في الاستخفاف بأحاديث الرسول الكريم صلوات الله وسلامه عليه. يقول: "هؤلاء قوم اسمع وأطع وإن ضرب ظهرك وأكل مالك"، أي: أنهم ليسوا كذلك هم، وشأنهم مختلف تمامًا عن ذلك، إلى هذه الدرجة ووجد الاستخفاف بأحاديث الرسول الكريم صلوات الله وسلامه عليه، أين قول الله تعالى: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِيهِ أُنْفُسَهُمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾ [النساء: ٦٥]؟! قال رحمه الله تعالى :

١٧٦ - وله عن عرفجة الأشجعي رضي الله عنه مرفوعاً: ((من أتاكم وأمركم جميع على رجل واحد يريد أن يشق عصاكم ويفرق جماعتكم فاقتلوه)).

قال: وله عن عَرْفَجَةَ الأشجعي رضي الله عنه مرفوعاً: ((مَنْ أَتَاكُمْ وَأَمْرُكُمْ جَمِيعٌ عَلَى رَجُلٍ وَاحِدٍ)) أي: أمركم منتظم ومجتمعين على رجل واحد .

((يريد أن يشقَّ عصاكم ويفرقَّ جماعتكم)) أي: يريد أن يخرج على الإمام ويفتات على ولي الأمر، وأن يفرق الجماعة، وأن يبعثر هذا الاجتماع، وأن يوجد فُرقة بين الناس بحيث يكون بدل ما هم مجتمعين على إمام واحد، وليكن فيه من النقص، وأمورهم ماضية، ومصالحهم ماضية، وعبادتهم لله سبحانه وتعالى ماضية، والأمن على الأعراض والأموال، إلى غير ذلك، ثم يأتي ليفرق هذا الجمع بحيث تبدأ التفرقات والتحزبات والانقسامات، ممَّا يعود على المسلمين بالشَّرِّ، وإراقة الدِّماء، وانتشار الفوضى، وعدم الأمن على الأعراض، وعدم أمن السُّبل، وعدم تيسر القيام بالواجبات والعبادات الدِّينية، إلى غير ذلك، فإذا جاء أحدٌ والناس مجتمعين على إمام واحد يريد أن يشقَّ العصا ويفرق هذا الجمع؛ قال النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ((فاقتلوه))، لأنَّه مَنْ كَانَ كَذَلِكَ فَهُوَ شَرٌّ عَلَى النَّاسِ.

سبحانك اللهم وبحمدك ، أشهد أن لا إله إلا أنت ، أستغفرك وأتوب إليك .

اللهم صلِّ وسلِّم على عبدك ورسولك نبينا محمد وآله وصحبه أجمعين.

الدرس السادس والعشرون

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله ربّ العالمين، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله ؛ صلى الله وسلم عليه وعلى آله وأصحابه أجمعين. أمّا بعد:

قال شيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب رحمه الله تعالى في كتاب الكبائر :

باب ما جاء في الفتن

وقول الله تعالى: ﴿وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً﴾ الآية [الأنفال: ٢٥] ، وقوله: ﴿قُلْ هُوَ الْقَادِرُ عَلَى أَنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِنْ فَوْقِكُمْ أَوْ مِنْ تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيْعًا﴾ الآية [الأنعام: ٦٥].

قال المصنّف رحمه الله تعالى: «باب ما جاء في الفتن» ؛ هذه الترجمة عقدها رحمه الله تعالى في التحذير من الفتن وبيان سوء معبّتها لمن استشرّف لها، وأنها مهلكة للنّاس وخطرها عظيمٌ عليهم ، جنّبا والمسلمين أينما كانوا الفتن ما ظهر منها وما بطن، وأعادنا والمسلمين منها . وأنّ الواجب على المسلم اتّقاء الفتن لا الاستشراف لها، والاستعاذة بالله تبارك وتعالى منها؛ لأنّ خطرها على النّاس عظيم، وفيها هلاكٌ للنّاس؛ لأنّ الفتن إذا وقعت تعطلّت المصالح الدّينيّة والدّنيويّة، وحصلت التّعديّات، ووُجدَ الظلم، ولم يأمن النّاس لا على النّفس ولا على المال ولا على العِرض، إلى غير ذلك من الأخطار العظيمة. ولهذا ينبغي على المسلم دائماً أن يكون كثير الاستعاذة بالله تبارك وتعالى من الفتن. وشُرّع لنا دُبُر كلِّ صلاةٍ قبل أن نسلم أن نتعوّذ بالله سبحانه وتعالى من الفتن عامّة وخاصّة.

قال رحمه الله : وقول الله تعالى ﴿وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً﴾ [الأنفال: ٢٥] ؛ بدأ رحمه الله تعالى بهذه الآية الكرّمة لأنّ فيها تبيّناً لخطورة الفتن العظيمة، وأنّ الفتنة عندما تقع تكون مضرّةً على النّاس عظيمة، وشرّها ومضرّتها تتناول الظّالم وغيره، كما قال سبحانه وتعالى: ﴿لَا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً﴾ ، بل تصيب الظّالم وغيره فثراق دماء يُهْلِك أناس لكن يُعْثون على نبيّاتهم وعلى أعمالهم، أمّا الفتنة فإنّها تأكل - كما يُقال - الأخضر واليابس، الصّالح والطّالح، فخطرها على الأمّة خطرٌ عظيم.

قال: وقوله تعالى ﴿قُلْ هُوَ الْقَادِرُ عَلَى أَنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِنْ فَوْقِكُمْ أَوْ مِنْ تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيْعًا﴾ [الأنعام: ٦٥] ؛ وهذا موضع الشّاهد من إيراد هذه الآية ﴿أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيْعًا وَيُذِيقَ بَعْضَكُمْ بَأْسَ بَعْضٍ﴾ .

﴿يَلْبَسُكُمْ﴾ أي: يخلطكم ؛ اللبس: هو الخلط. ﴿شَيْعًا﴾ أي: فرقا. وهذه هي الفتن.

ثم يترتب على ذلك ما جاء بعده: ﴿وَيُذِيقُ بَعْضُكُمُ بَأْسَ بَعْضٍ﴾ أي: القتل، ورفع السيف، وإراقة الدماء، وأن يكون بأْس المسلمين بينهم. وهذا أمر يُعوذ بالله سبحانه وتعالى منه، لا يُتصدَّر له ويُستشرف له، بل المسلم يتعوذ بالله تبارك وتعالى من ذلك.

وكان نبينا عليه الصلاة والسلام لما نزلت هذه الآية يستعيز بالله ؛ لما قرأ: ﴿أَنْ يُبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِنْ فَوْقِكُمْ﴾ قال: ((أعوذ بوجه الله))، ﴿أَوْ مِنْ تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ﴾ قال: ((أعوذ بوجه الله))، فكان عليه الصلاة والسلام يستعيز بالله تبارك وتعالى. والفتن يُستعاذ منها؛ والنبى صلى الله عليه وسلم أمر بذلك قال: ((تعوذوا بالله من الفتن ما ظهر منها وما بطن)).

قال رحمه الله تعالى :

١٧٧ - عن ابن عمرو رضي الله عنهما قال: كنا مع النبي صلى الله عليه وسلم في سفر فنزلنا منزلاً، فمنا من يصلح خبائه، ومنا من ينتضل، ومنا من هو في جشره؛ إذ نادى منادي رسول الله صلى الله عليه وسلم: «الصلاة جامعة». فاجتمعنا إلى رسول الله فقال: ((إنه لم يكن نبي قبلي إلا كان حقاً عليه أن يدل أمته على خير ما يعلمه لهم، وينذرهم شر ما يعلمه لهم، وإن أمتكم هذه جعل عافيتها في أولها، وسيصيب آخرها بلاء وأمرٌ تنكرونها. وتجيء الفتنة فيرقق بعضها بعضاً وتجيء الفتنة فيقول المؤمن هذه مهلكتي، ثم تنكشف، وتجيء الفتنة فيقول المؤمن هذه هذه، فمن أحب أن يرحل عن النار ويدخل الجنة فلتأته منيته وهو يؤمن بالله واليوم الآخر، وليأت للناس الذي يحب أن يؤتى إليه. ومن بايع إماماً فأعطاه صفقة يده وثمرة قلبه فليطعه إن استطاع، فإن جاء آخر ينازعه فاضربوا عنق الآخر)) رواه مسلم .

ثم أورد رحمه الله تعالى حديث عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما وهو حديثٌ عظيم في بيان خطورة الفتن وبيان ما تُتقى به الفتن، فهو عظيم جداً في هذا الباب.

قال: «كنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم في سفر، فنزل منزلاً، فمنا من يصلح خبائه، ومنا من ينتضل، ومنا من هو في جشره» ؛ هذا الذي ذكره رضي الله عنه هو عادة الناس إذا نزلوا منزلاً، إذا نزلوا منزلاً عادتهم يتفرقون كل له نوع من المصالح يعمل لأجله.

«فمنهم من يصلح خبائه» أي: يصلح مكانه ويهيئه للنوم وللراحة.

«ومنهم من ينتضل» والانتضال من المناضلة والترامي بالسهم، وهذا نوع من التدريب والتمرن على القتال.

«ومنهم من هو في جشَرِه» أي: مع ماشيته يطلب لها المرعى المناسب الذي ترعى منه وتبيت فيه. وهذه عادة الناس إذا نزلوا منزلاً تجد كل واحد منهم في مصلحة معينة أو في عمل معين. مقصوده من ذلك أننا نزلنا وكل واحد منا تفرق أو ذهب إلى مصلحة ما ، كل اشتغل بمصلحة من المصالح.

«إذ نادى منادٍ» وهذا النداء احتيج إليه لهذا الأمر الذي ذكره، وهو أنهم تفرقوا كل في جهة وكل في مصلحة معينة.

«إذ نادى منادي رسول الله صلى الله عليه وسلم الصلاة جامعة» بنصب الصلاة على الإغراء والحث على المجيء والإقبال؛ «الصلاة جامعة».

((فاجتمعنا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: إنه لم يكن نبي قبلي إلا كان حقاً عليه أن يدل أمته على خير ما يعلمه لهم، وينذرهم شر ما يعلمه لهم)) ؛ وهذه قاعدة مهمة في الإيمان بالنبيين أجمعين ؛ أنه ما من نبي بعثه الله إلا وقد دل أمته إلى كل خير ، وحذّره من كل شرّ، ما من نبي بعثه الله إلا بلغ البلاغ المبين، ونصح أمته، وأدى الرسالة، وبلغ الأمانة، وأقام الحجة، فكل أنبياء الله عز وجل قاموا بهذه المهمة أتم قيام. ولهذا من العقيدة في الأنبياء -والعقيدة في الأنبياء أصل من أصول الإيمان وركن من أركانه- أن يعتقد أن جميع الأنبياء بلغوا دين الله أتم بلاغ، ما تركوا خيراً إلا دلّوا أممهم عليه، ولا شراً إلا حذّروهم منه، كما قال نبيُّنا عليه الصلاة والسلام هنا: ((إنه لم يكن نبي قبلي إلا كان حقاً عليه أن يدل أمته على خير ما يعلمه لهم، وينذرهم شر ما يعلمه لهم))، فالأنبياء بلغوا البلاغ المبين، ما تركوا خيراً إلا دلّوا أممهم عليه ولا شراً إلا حذّروهم منه.

قال: ((وإن أمتكم هذه)) أي: أمة محمد عليه الصلاة والسلام التي هي آخر الأمم أُمم النبيين.

((جعل عافيتها في أولها)) والمراد بالعافية: السلامة من الفتن. وهذا فيه أن السلامة من الفتن عافية، ومن سلمه الله من الفتن ووقاه فقد عافاه الله. ومن أعظم الدعاء: «اللهم إني أسألك العافية»، وتعرفون قصّة العباس لما جاء للنبي عليه الصلاة والسلام قال: «يا رسول الله علّمني دعاء أدعو الله به» قال: ((سل الله العافية)) ، كأنه تقالها؛ رجع إليه مرّة أخرى، وقال: «يا رسول الله علّمني دعاء أدعو الله به». قال: ((يا عباس، يا عم رسول الله، سل الله العافية في الدنيا والآخرة)). فمن أوتي العافية فقد سلم وغنم وربح.

يقول عليه الصلاة والسلام: ((وإن أمتكم هذه جعل عافيتها في أولها)) أي: أول الأمة في عافية؛ أي في سلامة من الفتن. والمراد بالفتن: أي الفتن التي تنشب بين المسلمين عندما يختلط أمرهم وينشب بينهم القتال والتطاحن والتدابير ويكون بأسهم بينهم، هذا المراد بالفتن وهو المراد بقوله ((جعل عافيتها في أولها)) أي السلامة من هذه الأمور.

((وإن أمتكم هذه جعل عافيتها في أولها)) ؛ والمراد بأولها تحديداً : أي زمن الخليفين الراشدين أبي بكر وعمر رضي الله عنهما، وأن قتل عمر - كما سيأتي معنا في حديث لاحق يسوقه المصنّف - كسر لباب الفتنة، وأن قتله

رضي الله عنه وأرضاه كسر لهذا الباب؛ الأمة في عافية إلى أن يُكسر الباب، والباب: قتل عمر رضي الله عنه. فالعافية كانت في أول هذه الأمة أمة محمد عليه الصلاة والسلام في زمن الخلفيتين الراشدين أبي بكر وعمر رضي الله عنهما.

قال: ((وسيصيب آخرها بلاء وأمر تنكرونها)) أي بعد ذلك تبدأ الفتن وتظهر بدورها ثم تتزايد، تتزايد تزايدًا عجيبًا جاء وصفه في هذا الحديث أن الفتنة عندما تقع في الناس تكون عظيمة جدًا، ثم يأتي بعدها ما هو أشد منها؛ فيرون تلك التي كانت عظيمة هيبة في مقابل هذه الفتنة الأشد والفتنة الأعظم.

يقول: ((وسيصيب آخرها بلاء وأمر تنكرونها وتجيء الفتنة فيرقق بعضها بعضًا)) أي: أن الفتنة العظيمة التي تعقب فتنة قبلها ترقق الفتنة التي قبلها؛ فيراها الناس أنها ليست بشيء أمام هذه الفتنة التي دهتهم. ((وتجيء الفتنة فيقول المؤمن: هذه مهلكتي)) أي: من شدتها.

((ثم تنكشف، وتجيء الفتنة، فيقول المؤمن: هذه هذه))؛ أي: هذه أشد، الأولى دونها. وهذا أيضًا فيه توضيح لمعنى: «يرقق بعضها بعضًا». وهذا فيه أن الفتن لا تزال يعقب بعضها بعضًا، ويتبع بعضها بعضًا، وأن المسلم مطلوب منه دائمًا اتقاء الفتن والحذر منها وعدم التصدر لها والاستشراف؛ لأن الفتن مهلكة للإنسان، ومضرتها على الأمة مضرّة عظيمة، أول ما تبدو للناس يظنون فيها خيرًا لهم، ويندفعون وراءها وينساقون معها؛ لأنها تأتي كما جاء وصفها في النصوص عمياء بكماء صمّاء، وما كان شأنه كذلك يكون ملتبس على الناس، بكماء عمياء صمّاء؛ ولهذا تجرف معها خلق من الناس ينساقون في الفتن ويركضون وراءها، ثم إذا انتهت أدركوا أنهم كانوا على خطأ، لكن في غمرة الفتن لا يشعرون، تهيج النفوس، ومن هيجان النفوس في الفتن أنه حتى العبادات يُعقل عنها من كثرة اشتغال النفوس بالفتن إذا هاجت. أعاذنا الله عز وجل والمسلمين أجمعين من الفتن ما ظهر منها وما بطن.

النبي عليه الصلاة والسلام ناصح لأُمتّه، ومن هديه عند الإخبار عليه الصلاة والسلام بالفتن بالشقاق الخلاف، بالأمور التي ستقع للأمة عند الإخبار بذلك يبين في الوقت نفسه العلاج. انظر على سبيل المثال لما قال: ((إنه من يعيش منكم فسيرى اختلافًا كثيرًا))، هذا الآن أمر مهلك وخطر على الأمة. ما الحل؟ ما المخرج؟ أجاب النبي عليه الصلاة والسلام دون أن يُسأل، وهذا من كمال نصحه، ((إنه من يعيش منكم فسيرى اختلافًا كثيرًا؛ فعليكم بسنتي)) هذا هو المخرج، ((وسنة الخلفاء الراشدين المهديين من بعدي، تمسكوا بها وعصوا عليها بالنواجد)).

وهنا لما ذكر صلوات الله وسلامه عليه الفتن وبين خطورتها وأنها مهلكة للناس، وأن بعضها يتبع بعض، وبعضها أشد من بعض قال في الإرشاد عليه الصلاة والسلام إلى الخلاص والسلامة من الفتن: ((فمن أحب أن يُخرج عن النار، ويدخل الجنة فلتأته منيته وهو يؤمن بالله واليوم الآخر، وليأت الناس الذي يحب أن يؤتى إليه. ومن بايع إمامًا فأعطاه صفقة يده وثمرة قلبه فليطعه إن استطاع، فإن جاء آخر ينازعه فاضربوا عنق

(الآخر))؛ هذا التوجيه الذي حُتِمَ به هذا الحديث مرتبط بما قبله؛ لأنَّ ما قبله ذِكْرُ للفتن، وهذا ذِكْرُ للمخرج من الفتن.

قال : ((فَمَنْ أَحَبَّ أَنْ يُرْزَحَ عَنِ النَّارِ وَيُدْخَلَ الْجَنَّةَ فَلْتَأْتِهِ مَنِيَّتُهُ وَهُوَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ)) وهذا توجيه إلى حفظ الإيمان ، لأنَّ من شأن الفتن أنَّها تَضَيِّعُ الإيمان، تَضَيِّعُ على الإنسان دينه، تشغله بالفتن وجذبها للنُّفوس، وما يترتَّب عليها من شرور ومهلكة للنَّاس.

فيقول: ((فَلْتَأْتِهِ مَنِيَّتُهُ)) أي: أجله ومفارقته لهذه الحياة ((وَهُوَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ)) أي: أنَّ الإيمان بالله المقصود المعبود الملتجأ إليه المخصوص بالذِّلِّ والعبادة، وكذلك الإيمان باليوم الآخر الذي هو دار الجزاء والحساب والعقاب والوقوف بين يدي الله ، وانقسام النَّاسِ إلى فريقين: فريقٌ في الجنَّة وفريقٌ في السَّعير، ليكن ذلك أصل ثابت عند المؤمن لا يَضَيِّعُهُ ولا يَفْرِطُ فيه، مهما حصل من أمور ومهما واجه من فتن يجب عليه أن يحفظ هذا الأصل العظيم والأساس المتين الذي لا نجاة له في الدُّنيا والآخرة إلَّا به.

وقوله: ((فَلْتَأْتِهِ مَنِيَّتُهُ وَهُوَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ)) هذا فيه حفظ الإيمان بالله واليوم الآخر وما يقتضيه هذا الإيمان من خضوع وذَلٍّ وطواعية لله عزَّ وجلَّ وانقياد لأمره جلَّ في علاه.

قال: ((وَلِيَأْتِ النَّاسَ الَّذِي يَحِبُّ أَنْ يُؤْتَى إِلَيْهِ)) ؛ وهذه قاعدة ذكر العلماء رحمهم الله تعالى أنَّها من أجمع القواعد في باب الأخلاق والتَّعامل مع النَّاسِ، بل لو أردتَ أن تعرِّف الخُلُقَ الجميل ما هو؟ لو قيل: ما هو الخُلُقُ الجميل؟ لوجدت أنَّ هذا الحديث يُعَدُّ من أجمع وأجمل ما يكون في تعريف الخُلُقِ الجميل، أن تأتي للنَّاسِ الذي تحب أن يُؤْتَى إليك؛ هذا هو الخُلُقُ الجميل، أن تعامل النَّاسَ بالمعاملة التي تحب أن تُعامل بها.

في ضوء هذا الحديث تفرَّع عليه تفرِّعات عظيمة جدًّا. يعني لو قال قائل مثلاً: ما هو برِّ الوالدين؟ في ضوء هذا الحديث: إذا أراد شخص أن يبرَّ والده يقدِّر نفسه هو الأب، ما الذي يحب أن يعامل به لو كان أبًا؟ في كلِّ موقف من المواقف ينظر ما الذي يحب أن يُعامل به لو كان هو الأب، فما يحبُّه لنفسه ليعامل به والده، هذا هو البرِّ. وهذا قُلٌّ مثله في كلِّ تعامل، مَنْ تريد أن تتعامل معه أيًّا كان قدِّر نفسك مكانه وانظر ما الذي تحب أن تُعامل به؟ هذه قاعدة جامعة وعظيمة جدًّا في باب الأخلاق. وَمَنْ وُفِّقَ لتطبيق هذا الحديث فقد أوتي الخُلُقَ بجماعه.

قال: ((وَلِيَأْتِ النَّاسَ الَّذِي يَحِبُّ أَنْ يُؤْتَى إِلَيْهِ)) ؛ وهذا المعنى ذكره النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ هنا في باب التَّحذير من الفتن والمخرج منها، وهذا أيضًا باب مهم النَّاسِ يحتاجون إليه، كم يقع النَّاسُ في الفتن في مخالفات ومخالفات لهذا الحديث ((وَلِيَأْتِ النَّاسَ الَّذِي يَحِبُّ أَنْ يُؤْتَى إِلَيْهِ)) ، وما يقع في الفتن من مظالم، من تعديَّات، من انتهاك للأعراض، من لغط بالكلام، وتهكُّم وسخرية واستهزاء، هل مَنْ يقوم بهذه الأعمال يحب أن تُؤْتَى إليه؟ هل يحب أن يُعامل بها؟ لا والله، فلو أنَّ هذا الحديث حضر في الأذهان، أو هذه القاعدة الجامعة في الخلق

حضرت في الأذهان عند الفتن لَسَلِمَ النَّاسُ، لكن منهم مَنْ ينطلق بلسانه، ومنهم مَنْ يُعْمِلُ يده، ومنهم مَنْ يفري في أعراض النَّاسِ، وهي أمورٌ لا يحبُّ أن يُعَامَلَ بها. قال: ((وَلَيَاتِ لِلنَّاسِ الَّذِي يَحِبُّ أَنْ يُؤْتَى إِلَيْهِ)).

ثمَّ ذكر عليه الصَّلَاة والسَّلَام ما يتعلَّق بالإمام القائم الذي له البيعة: ((وَمَنْ بَايَعَ إِمَامًا فَأَعْطَاهُ صَفَقَةً يَدَهُ)) ؛ صفقة اليد: هو ضربة اليد على الأخرى، وهذه البيعة ، بايعه فأعطاه صفقة يده وثمرة فؤاده. كلمة «بايعه» فيها هذا المعنى الذي هو صفقة اليد وثمرة الفؤاد، لكن هذا تفصيل للإجمال. مثل الآن لو قلت مثلاً: "فلان من النَّاسِ صَلَّى الظُّهْر، قام وركع وسجد وسَلَّمَ" ، قولك: ركع وسجد وسَلَّمَ، هذا تفصيل. ف ((بايع إِمَامًا فَأَعْطَاهُ صَفَقَةً يَدَهُ وثمرة قلبه)) والتَّنْصِيص على صفقة اليد وثمرة القلب تأكيد على أَنَّ البيعة وقعت، يعني بايعه.

((فليطعه إن استطاع)) وهذا فيه وجوب طاعة وُلاة الأمر ما لم يأمرُوا بمعصية الخالق، فيما هو مُستطاع للعبد أن يقوم به، تجب لهم الطَّاعة. ومَرَّ معنا قول الله سبحانه : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأَطِيعُوا أَمْرَ مِنْكُمْ﴾ [النِّسَاء: ٥٩] ، أمَّا إن أمر بمعصية فلا طاعة له؛ لأنَّه لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق.

((فإن جاء آخر ينازعه فاضربوا عنق الآخر))؛ لماذا؟ لأنَّ دخول الآخر للمنازعة معنى ذلك وجود الفتنة وحصول الهرج والمرج والقتال بين النَّاسِ واختلال الأمن، إلى غير ذلك من المفسدات العظيمة. الشاهد: أنَّ هذه الكلمات العظيمة ذكرها النبي عليه الصَّلَاة والسَّلَام تبييناً للمخرج من الفتن والسَّلَامة منها.

قال رحمه الله تعالى :

١٧٨ - وله عن أبي هريرة رضي الله عنه مرفوعاً: ((بادروا بالأعمال فتناً كقطع الليل المظلم، يصبح الرجل مؤمناً ويمسي كافراً، ويمسي مؤمناً ويصبح كافراً، يبيع دينه بعرضٍ من الدنيا)).

قال: وله أي: مسلم رحمه الله تعالى عن أبي هريرة رضي الله عنه مرفوعاً: ((بادروا بالأعمال فتناً كقطع الليل المظلم)) ؛ بادروا بالأعمال: أي سارعوا في الأعمال الصَّالحة بأنواعها، ما دام الإنسان يعيش في أمن، في رخاء، في عافية، في صحَّة، في سلامة من الفتن ليغنم هذه الفرصة في المبادرة للأعمال والمسارة إليها. إذا كنت في وقت الأمن تستطيع أن تأتي إلى المسجد بطمأنينة ولا تحشى في طريقك شيء ، تستطيع أن تحضر حلقة العلم وتستمع، وتجلس على الشيخ وتقرأ وتحفظ وتسمِّع، وتذهب إلى مَعْقِل العلم لتتعلَّم، تؤدِّي أمورك ومصالحك الدِّينية والدُّنيويَّة بارتياح هذه فرصة لك؛ لأنَّ الفتن إذا جاءت كثير من هذه الأمور لا يستطيع الإنسان أن يقوم بها ، وليعتبر الإنسان في الأماكن التي فيها الفتن أو وُجِدَتْ فيها الفتن، كيف أصبحت هذه المصالح غير متيسِّرة لكثير من

النَّاسُ القيام بها ، غير متهيئ له . فالإنسان يحمد الله على العافية، ويحرص على اغتنام الفرصة، ويبادر الأعمال ويستكثر من الأعمال.

((بادروا بالأعمال)) أي: سارعوا واستكثروا منها ((فتناً كقطع الليل المظلم)) أي: قبل أن تقع . فتن وصفها النبي صلى الله عليه وسلم كقطع الليل المظلم . سبحان الله! إذا كان الإنسان يمشي في قطعة من الليل مظلمة، هل يأمن العِثَار؟ هل يأمن أن يقع في حفرة؟ هل يأمن أن يصطدم بشجرة ذات شوك؟ هل يأمن سَبْعًا يهجم عليه؟ هل يأمن؟ قطع الليل مظلم يصبح الإنسان لا يأمن في مساره ولا يأمن في طريقه، إمَّا أن يسقط أو أن يصطدم أو يُهاجم أو غير ذلك من أمور، فوصف عليه الصَّلَاة والسَّلَام الفتنة أنَّها بهذه الصِّفَة ((كقطع الليل المظلم))، لا يغترَّ الإنسان بواقعه، الفتنة أمرها مختلف ؛ إذا وُجِدَت الفتنة فهي بهذه الصفة « كقطع الليل المظلم ».

انظر هذا الذي كقطع الليل المظلم كيف تتحوَّل فيه النفوس وتتقلَّب القلوب عيادًا بالله! ((يصبح الرَّجُل مُؤْمِنًا ويمسي كافرًا، ويمسي مؤمنًا ويصبح كافرًا، يبيع دينه بعرضٍ من الدنيا))، وهذا التَّقلُّب الذي يقع في كثيرٍ من النَّاس عند نشوب الفتن ووجودها بسبب أنَّ مَنْ استشرف للفتن، ودخل في غمارها أهلكته، وربما استرخص دينه وباعه بثمنٍ بخس من هذه الدنيا.

فالحديث فيه نصح من النبي عليه الصَّلَاة والسَّلَام لأُمَّته بالمبادرة إلى الأعمال الصَّالحة والطَّاعات الزَّاكية المقَرَّبة إلى الله عزَّ وجلَّ ؛ لتكون رِذْءًا للإنسان وحافظًا عند وقوع الفتن.

قال رحمه الله تعالى :

١٧٩ - وله عن معقل بن يسار رضي الله عنه مرفوعًا: ((العبادة في الهرج كهجرة إلي)).

قال: وله أي مسلم رحمه الله عن معقل بن يسار رضي الله عنه مرفوعًا أي إلى النبي صلى الله عليه وسلم: ((العبادة في الهرج كهجرة إلي)) ؛ الحديث الذي قبله -حديث أبي هريرة- العبادة قبل الهرج ، يعني قبل أن تقع الفتن بادر في العبادة وأقبل عليها واستكثر منها، ومن وُفِّق للعبادة وقت العافية، فإنَّ هذا سيكون له معونةً بإذن الله سبحانه وتعالى للمحافظة على العبادة وقت الفتنة، ومن كان مضيقًا للعبادة في عافيته كيف تُقبل عليها نفسه وقت الفتنة؛ وهو في عافيته مفرطًا ومضيقًا؟! فالحديث الأوَّل فيه الحثُّ على المبادرة للعبادة قبل أن تقع الفتن وأن يستكثر منها العبد حتى تتمرَّن عليها نفسه ويُقبل عليها قلبه وتكون معه حتى في أضيق الأمور . والنَّفْس إذا أَلْفَت العبادة واعتادت عليها حتى في الشَّدائد ما تتخلَّى عنها، ولهذا علي بن أبي طالب لما ذكر الدُّعاء الذي علَّمه النبي صلى الله عليه وسلم فاطمة أن تقوله، قال: ((خير لك من خادم: تسبِّح الله عند النَّوم ثلاثًا وثلاثين، وتحمدينه ثلاثًا وثلاثين، وتكبرينه ثلاثًا وثلاثين)) قال علي: «فما تركته ليلة منذ سمعته من النبي صلى الله عليه وسلم»،

فأحد الحاضرين قال له: ولا ليلة صقيين؟ قال: «ولا ليلة صقيين». فالشاهد: أنَّ المبادرة إلى الأعمال قبل وقوع الفتن معونة للإنسان للمحافظة عليها عند وقوع الفتن.

وحديث معقل فيه: الحثُّ على الإقبال على العبادة وقت الفتن، قال: ((العبادة في الهرج))؛ والهرج: هو الفتن، واختلاط أمر الناس وما يترتب على ذلك من وجود لإراقة الدماء أو نحو ذلك من التعدييات، فالهرج هو الفتن؛ اختلاط أمر الناس، وعادةً إذا اختلط أمر الناس ومرج تنصرف القلوب عن العبادة، ولهذا في الأماكن التي يجتمع الناس فيها على الفتن والعياذ بالله تجد حتى الصلوات الخمس يضيعونها ويفرطون فيها، ومن يصلي منهم الصلوات الخمس يصلي بقلب غافل، ليس مُقبل على الصلاة وإنما مشغول بالفتنة ومنهمك في الفتنة، تجده يصلي وقلبه مع الفتنة، ليس مع الله في صلاته، وليس مُقبلاً على الله في صلاته، وإنما يتحدث في الفتنة، وربما يصلي ولا يدري كم صلى ولا يعقل من صلاته شيء؛ لأنَّ القلب أصلاً منشغل في الفتنة.

فيقول: ((العبادة في الهرج كهجرة إلي))؛ كهجرة إلي: أي في الثواب، ما أعظم ثواب من أكرمه الله سبحانه وتعالى بالهجرة إلى النبي عليه الصلاة والسلام، وهذا الذي يوفق للعبادة في الهرج ثوابه عند الله سبحانه وتعالى في إقباله على العبادة في الهرج كثواب الهجرة إلى النبي الكريم صلوات الله وسلامه عليه؛ والموفق من وفقه الله سبحانه وتعالى.

ولهذا ينبغي على الإنسان أن يعرف قيمة العبادة، وأنَّ أحوج ما يحتاج إليه الإنسان في الفتنة هو عبادة الله، مع أنَّ أكثر ما يُضيع في الفتنة عبادة الله. وجاء في الصحيح أنَّ النبي صلى الله عليه وسلم قام ليلة قال: ((الله أكبر)) أو قال: ((سبحان الله! ماذا أنزل الله هذه الليلة من الفتن، وماذا أنزل الله هذه الليلة من الخزائن. من يوقظ صواحب الحجرات يصلين))؛ انظر ((من يوقظ صواحب الحجرات يصلين))؛ أي أنَّ الفتن لا بدَّ أن يُقابلها الإنسان بالعبادة، بالصلاة، بالإقبال على الله، بالالتجاء إليه، بالخضوع والضراعة بين يديه سبحانه وتعالى حتى تجلو ويذهبها الله سبحانه وتعالى وتنكشف، لا أن يبرز لها ويتصدَّر وينشغل بها عن عبادة الله سبحانه وتعالى.

سبحانك اللهم وبحمدك، أشهد أن لا إله إلا أنت، أستغفرك وأتوب إليك.

اللهم صلِّ وسلِّم على عبدك ورسولك نبينا محمد وآله وصحبه أجمعين.



شرح كتاب الكبائر

لشيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب رحمه الله

من الدرس ٢٧ إلى الدرس ٣٠

شرح الشيخ عبد الرزاق بن عبد المحسن البدر حفظهما الله تعالى

١٤٤١/٠١/٢٥ هـ

الدرس السابع والعشرون

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله ربّ العالمين، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله ؛ صَلَّى الله وسلّم عليه وعلى آله وأصحابه أجمعين. وبعد:

قال شيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب رحمه الله تعالى في كتاب الكبائر تحت قوله «باب ما جاء في الفتن» :
١٨٠ - ولهما عن حذيفة رضي الله عنه أن عمر رضي الله عنه قال: أيكم يحفظ قول النبي صلى الله عليه وسلم في الفتن؟ فقلت: أنا ، فقال: هات فإنك عليه لجريء ، فقلت سمعته يقول: ((فتنة الرجل في أهله وماله وولده وجاره تكفرها الصلاة والصيام والصدقة والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر))، فقال: ليس هذا أريد إنما أريد التي توج كموج البحر ، فقلت: ما لك ولها يا أمير المؤمنين؟ إن بينك وبينها باباً مغلقاً، فقال: يفتح الباب أم يُكسر؟ قلت: بل يكسر، قال: ذلك أجدر أن لا يغلق، فقلت لحذيفة: أكان عمر يعلم من الباب؟ قال: نعم، كما يُعلم أن دون غد الليلة، إني حدثته حديثاً ليس بالأغاليط فهبنا أن نسأله من الباب، قلنا لمسروق: اسأله، فسأله فقال: عمر .

فلا نزال في «باب ما جاء في الفتن» أعاذنا الله والمسلمين من الفتن ما ظهر منها وما بطن.
قال رحمه الله تعالى: ولهما عن حذيفة رضي الله عنه أن عمر رضي الله عنه قال: «أيكم يحفظ قول النبي صَلَّى الله عليه وسلّم في الفتن؟» ؛ هذا الطلب من عمر رضي الله عنه لمن حضر عنده من الصحابة «أيكم يحفظ قول النبي صَلَّى الله عليه وسلّم في الفتن؟» يفيد: أن المسلم مطلوب منه أن يقف على هذه الأحاديث التي جاءت عن الرسول عليه الصلاة والسلام في الفتن؛ لأن الوقوف عليها والمعرفة بمضامينها يعين المسلم على اتّقاءها والبعد عنها، وقد قيل: «كيف يتقي من لا يدري ما يتقي»، فإذا وقف المسلم على الفتن وتحذير النبي صَلَّى الله عليه وسلّم منها، وتبينه عليه الصلاة والسلام لخطورتها، ومعرفة الفتن من حيث عواقبها الوخيمة وأضرارها الشديدة على من تصدر للفتن واستشرف لها، وأيضاً بالمقابل السعادة لمن وقاه الله سبحانه وتعالى الفتن، كما قال عليه الصلاة والسلام: ((إن السعيد لمن جُنب الفتن)) ؛ فالوقوف على هذه الأحاديث نافعٌ نفعاً عظيماً للمسلم ؛ ولهذا تجد أن بعض أئمة السلف أفردوا هذا الموضوع بالتصانيف، وعددٌ منهم ضمّنوا ذلك كتب الأحاديث الجامعة كالصّحاح والسّنن ونحوها.

«فقلت: أنا ، فقال: هات فإنك عليه لجريء» ؛ وقول عمر لحذيفة: «إنك عليه لجريء» لما علمه ولما يعلمه من حاله رضي الله عنه من تتبّع لهذا الأمر وسؤال النبي صَلَّى الله عليه وسلّم عنه، وحذيفة هو القائل - كما في

الصَّحِيح - : « كان أصحاب رسول الله صَلَّى الله عليه وسلَّم يسألونه عن الخير، وكنت أسأله عن الشرِّ مخافة أن يُدرَكني»، ولهذا قال له عمر: «فإنَّك عليه لجرىء» أي: بما آتاك الله عزَّ وجلَّ فيه من علم، وبما تيسَّر لك من سؤالاتٍ في هذا الموضوع للنَّبِيِّ الكريم صلوات الله وسلامه عليه.

((فقلت سمعته يقول: فتنة الرجل في أهله وماله وولده وجاره تكفرها الصَّلَاة والصَّيَام والصَّدقة والأمر بالمعروف والنَّهي عن المنكر)) ؛ «فتنة الرجل في أهله وولده وماله وجاره» أي: ما يكون بسبب تعلُّق وارتباط المسلم بهذه الأمور أو هؤلاء ربَّما دعاه للتَّقصير في بعض الواجبات، أو الإخلال ببعضها، كأن يلحقه شُحٌّ في المال، أو بخل، أو التهاؤ بالأولاد وانشغال بهم، والله جلَّ وعلا قال: ﴿إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ﴾ [التغابن: ١٥] ، فلا شكَّ أنَّ المرء يحصل له من ذلك مع الأهل أو المال أو الولد أو الجار ، فهذه الفتنة لها ما يكفرها ، قال: ((تكفرها الصَّلَاة والصَّيَام والصَّدقة والأمر بالمعروف والنَّهي عن المنكر))، والله سبحانه وتعالى يقول: ﴿إِنْ أَحْسَنَاتٍ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ﴾ [هود: ١١٤] ، والنَّبِيُّ صَلَّى الله عليه وسلَّم يقول: ((وَاتَّبِعِ السَّيِّئَةَ الْحَسَنَةَ تَمْحُهَا)) ؛ فهذه الأعمال مكفِّرات ، الصلاة تكفر ، والصَّيَام يكفر ، والصدقة تكفر ، والأمر بالمعروف والنَّهي عن المنكر يكفر . وهذه فائدة عظيمة اشتمل عليها هذا الحديث: أنَّ الأمر بالمعروف والنَّهي عن المنكر الذي هو الاحتساب في أمر النَّاس بالخير ونهيهم عن الشرِّ باب من أبواب تكفير الذُّنوب، وكما أنَّه صدقة ((وأمرٌ بمعروفٍ صدقة، ونهيٌ عن منكرٍ صدقة)) فهو أيضًا مكفِّر للذُّنوب.

«قال: فليس هذا أريد، إِنَّمَا أريد الَّتِي تَمُوج كَمُوجِ الْبَحْرِ» ؛ يعني: الفتن الَّتِي يترتَّب عليها مروج أمر النَّاس ونشوب الخلاف بينهم، وربَّما أيضًا القتال وإراقة الدِّماء ؛ فقال: أسألك عن هذا، أسأل عن الفتن الَّتِي تَمُوج كَمُوجِ الْبَحْرِ.

في رواية مسلم رحمه الله تعالى لهذا الحديث زاد أنَّ حذيفة قال: ((تُعْرَضُ الْفِتْنُ عَلَى الْقُلُوبِ كَعَرْضِ الْحَصِيرِ)) والحصير: كما هو معلوم هو البساط الَّذِي يُصْنَعُ مِنَ الْخُوصِ، خوص جريد النَّخْلِ، وصُنِعَ هذا الحصير من خوص جريد النَّخْلِ هو بنظم هذا الخوص واحدة تلي الأخرى حتى يتكوَّن هذا الحصير . فذكر حذيفة عن النَّبِيِّ صَلَّى الله عليه وسلَّم أنَّه قال: ((تُعْرَضُ الْفِتْنُ عَلَى الْقُلُوبِ كَعَرْضِ الْحَصِيرِ)) أي: تُلصَقُ الْفِتْنُ بِالْقُلُوبِ فَتَنَةً تَلُو الْأُخْرَى مثل ما يُنْظَمُ الْخُوصُ وَاحِدَةً تَلُو الْأُخْرَى حتى يتكوَّن الحصير، فَتُعْرَضُ الْفِتْنُ عَلَى الْقُلُوبِ كَعَرْضِ الْحَصِيرِ عَوْدًا عَوْدًا، أي: فتنة فتنة. والقلوب كما سيأتي تجاه هذه الفتن على نوعين:

١ - فتنٌ تلتصق بالقلوب وتشرَّبها القلوب.

٢ - وفتنٌ يعافي الله سبحانه وتعالى القلوب منها ويسلِّمها منها.

قال: ((فأَيُّ قَلْبٍ أَشْرَبَهَا نُكِتَتْ فِيهِ نَكْتَةٌ سَوْدَاءٌ، وَأَيُّ قَلْبٍ أَنْكَرَهَا نُكِتَ فِيهِ نَكْتَةٌ بَيَاضٌ))، وهذا فيه تبيان لحال القلوب عند مجيء الفتن، وأنَّ القلوب تجاه الفتن على قلبين:

١- قَلْبٌ يُشْرَبُ الْفِتْنَ، ومعنى «يُشْرَبُهَا»: أي يمتصُّ الفتن، وتصبح في القلب مثل حال الإسفنجة إذا وضعتُها على الماء كيف أمَّا تشرب الماء ويكون الماء في كلِّ أجزائها، فكذلك القلب عندما يُشْرَبُ الْفِتْنَ، أي: تكون الفتنة في كلِّ القلب.

٢- والتَّوَعُّ الثَّانِي مِنَ الْقُلُوبِ: الْقَلْبُ الَّذِي يَنْكَرُ الْفِتْنَ؛ أي: يدفعها ولا يقبلها ويُعْرِضُ عنها، يُنْكِتُ فِيهِ نَكْتَةً بَيَاضًا.

((حَتَّى تَصِيرَ الْقُلُوبُ عَلَى قَلْبَيْنِ: عَلَى أَبْيَضٍ مِثْلِ الصَّفَا، فَلَا تَضُرُّهُ فِتْنَةٌ مَا دَامَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ)) وهذا القلب الذي مثل الصَّفَا، معلوم أنَّ الصَّفَا الملساء لا يلتصق فيها شيء، أَوَّلًا هِيَ رَاسِيَةٌ، وَالْإِيمَانُ لَهُ رَسَوٌّ وَرَسُوخٌ وَتَمَكُّنٌ فِي الْقَلْبِ، وَهِيَ صِفَاةٌ مِلْسَاءٌ لَا يَلْتَصِقُ فِيهَا شَيْءٌ، لَا يَلْعَلُ فِيهَا شَيْءٌ لِكُونِهَا مِلْسَاءً نَاعِمَةً. وَالْقَلْبُ الْآخَرُ قَالَ: ((وَالْآخِرُ أَسْوَدٌ مِزْبَادًا كَالْكُوزِ مَجْحِيًّا))؛ الْكُوزُ: أَيِ الْكُوبِ إِذَا كَانَ مَجْحِيًّا -أَيِ مَنْكُوسًا- هَلْ يُمْكِنُ أَنْ يَمْتَلِئَ مَاءً؟ لَا يُمْكِنُ، إِذَا كَانَ مَجْحِيًّا أَيِ مَنْكُوسًا لَا يُمْكِنُ أَنْ يَمْتَلِئَ. كَالْكُوزِ مَجْحِيًّا يَصْبَحُ الْقَلْبُ أَسْوَدًا، وَشَأْنُهُ كَالْكُوزِ مَجْحِيًّا: أَيِ أُمُورِ الْخَيْرِ وَأَبْوَابِ الْخَيْرِ لَا تَجِدُ مَكَانًا فِيهِ؛ لِأَنَّهُ مُجْحِيٌّ مَنْكُوسٌ فَلَا يَقْبَلُ خَيْرًا. قَالَ: ((كَالْكُوزِ مَجْحِيًّا لَا يَعْرِفُ مَعْرُوفًا وَلَا يَنْكَرُ مَنكَرًا إِلَّا مَا أَشْرَبَ -أَيِ الْقَلْبِ- مِنْ هَوَاهُ)).

وَمِنْ لَطِيفِ الْمَعَانِي: مَا ذَكَرَهُ ابْنُ الْقَيِّمِ رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى عَنْ شَيْخِهِ شَيْخِ الْإِسْلَامِ ابْنِ تَيْمِيَّةٍ: أَنَّهُ نَصَحَهُ نَصِيحَةً، وَذَكَرَ ابْنُ الْقَيِّمِ أَنَّ اللَّهَ نَفَعَ بِهَا نَفْعًا عَظِيمًا، وَلَعَلَّهَا مُسْتَفَادَةٌ مِنْ هَذَا الْحَدِيثِ، قَالَ لَهُ: «اجْعَلْ قَلْبَكَ لِلشُّبْهَةِ كَالْمَرَاةِ، وَلَا تَجْعَلْهُ كَالِإِسْفَنْجَةِ»؛ اجْعَلْ قَلْبَكَ لِلشُّبْهَةِ كَالْمَرَاةِ؛ إِذَا وَرَدَتْ الشُّبْهَةُ وَمِنْهَا مَا يَتَعَلَّقُ بِالْفِتَنِ وَدُّعَاةِ الْفِتَنِ، اجْعَلْ قَلْبَكَ كَالْمَرَاةِ، وَالْمَرَاةُ تَعَكِّسُ الشَّيْءَ وَلَا يَدْخُلُ فِيهَا، أَمَّا الْإِسْفَنْجَةُ فَإِنَّهَا تَمْتَصُّ الشَّيْءَ وَتَشْرِبُهُ تَمَامًا، بِمَعْنَى: أَنَّ الْقَلْبَ إِذَا تَلَقَّفَ الْفِتْنَ وَهَوِيَّهَا وَأَقْبَلَ عَلَى سَمَاعِهَا وَأَخَذَ يُمْكِنُ لِدُخُولِهَا فِي الْقَلْبِ فَإِنَّ الْقَلْبَ يُشْرَبُهَا، أَمَّا إِذَا رَدَّهَا مَبَاشَرَةً وَأَعْرَضَ عَنْهَا مَبَاشَرَةً، إِنْ كَانَ مِنْ ذَوِي الْعِلْمِ رَدَّهَا تَفْصِيلًا، وَإِنْ كَانَ لَيْسَ مِنْ ذَوِي الْعِلْمِ رَدَّهَا إِجْمَالًا لِمُخَالَفَتِهَا لِمَا يَعْلَمُهُ مِنْ دِينِ اللَّهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى مِنْ وَجُوبِ اجْتِنَابِ الْفِتَنِ وَالْبُعْدِ عَنْهَا، لَكِنْ لَا يُعْطِي الْفِتْنَةَ فُرْصَةً أَنْ تُشْرَبَ فِي الْقَلْبِ وَأَنْ تَتَمَكَّنَ. وَلِهَذَا تَجِدُ مِنَ الْمَصَائِبِ الْوَاقِعَةِ أَنَّ بَعْضَ النَّاسِ جَاهِلٌ بِدِينِ اللَّهِ تَمَامًا وَيَفْتَحُ أُذُنَيْهِ لِكُلِّ مُتَحَدِّثٍ بِمَا يَقُولُ، وَتَجِدُهُ عِبْرَ الْمَوَاقِعِ الْآنَ وَالْقَنُوتِ يَسْتَمِعُ لِكُلِّ أَحَدٍ، أَيُّ قَلْبٍ هَذَا سَيَكُونُ إِذَا كَانَتْ هَذِهِ حَالُهُ!! سَمَاعٌ لِلْفِتَنِ مُتَلَقِّفٌ لَهَا، لَمْ يَخْصُ سَمَاعَهُ فِي أُمُورِ الْعِلْمِ وَالِدِّينَ بِأَكَابِرِ أَهْلِ الْعِلْمِ النَّقَّاتِ أَهْلِ الْبَصِيرَةِ بِدِينِ اللَّهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى، فَكَمْ تُمَرِّضُ مِثْلَ هَذِهِ الْقُلُوبِ وَيَصِيبُهَا مَا يَصِيبُهَا مِنَ الْفِتَنِ.

هَذِهِ الزِّيَادَةُ جَاءَتْ فِي هَذَا الْحَدِيثِ حَدِيثٌ حَذِيفَةٌ، فِي صَحِيحِ مُسْلِمٍ.

قال عمر: «ليس هذا الذي أريد، إنما أريد التي تموج كموج البحر. فقلت: ما لك ولها يا أمير المؤمنين، إن بينك وبينها باباً مغلقاً» ؛ قد تقدّم معنا في الحديث قول النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ((وإنَّ أُمّتكم هذه جُعِلَ عافيتها في أوّلها، وسيصيب آخرها أمورٌ تنكرونها))، «جُعِلَ عافيتها في أوّلها» هذا المعنى ذكره حذيفة هنا بقوله: «ما لك ولها يا أمير المؤمنين» أي: أنت في عافية منها، أي: زمانك زمان عافية من الفتن، من أين جاء بذلك حذيفة؟ بما كان يسمعه من النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وبما كان أيضاً يتابع في سؤالات النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عن هذا الموضوع، ومَرَّ معنا كلمته: «كان أصحاب رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يسألونه عن الخير وكنت أسأله عن الشرّ؛ مخافة أن يدركني».

فقال: «ما لك ولها يا أمير المؤمنين، إن بينك وبينها باباً مغلقاً» ؛ يعني: زمنك زمن عافية من هذه الفتن التي تموج كموج البحر، هذه لا وجود لها في زمانك أنت في عافية منها، ما لك ولها؟!

لما ذكر الباب المغلق ، قال «باباً مغلقاً» سأل عمر بن الخطّاب رضي الله عنه هذا السؤال قال: «يُفْتَحُ الباب أم يُكْسَرُ؟» ؛ لأنّ بدء الفتن يزوال هذا الباب، انفتاح هذا الباب، هذا الباب المغلق إذا فُتِح بدأت الفتن، فسأل سؤالاً عجيباً رضي الله عنه وأرضاه قال: «يُفْتَحُ الباب أم يُكْسَرُ؟»
«قال: بل يُكْسَرُ» لا يُفْتَحُ فتحاً، وإنما يُكْسَرُ كسراً، قال: بل يُكْسَرُ.

قال عمر: «ذلك أجدر ألا يُغْلَقَ» ؛ لأنه لو كان يُفْتَحُ يمكن يأتي شخص ويغلقه، لكن إذا كُسِر الباب كسراً قال: «ذلك أجدر ألا يُغْلَقَ».

«فقلت لحذيفة - أي الراوي عنه-: أكان عمر يعلم من الباب؟ قال: نعم، كما يُعْلَمُ أَنَّ دُونَ غَدِ اللَّيْلَةِ»، وهذا أمر كلّ أحد يعلمه، يعني: أمر معلوم بالبدية.

«إِنِّي حَدَّثْتُهُ حَدِيثًا لَيْسَ بِالْأَغَالِيطِ» إِنِّي حَدَّثْتُهُ أَي: حَدَّثْتُ عمر حديث ليس بالأغاليط، وإنما حديث متنبّت منه أنقله عن الرَّسُولِ الْكَرِيمِ صَلَوَاتُ اللهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ لَيْسَ بِالْأَغَالِيطِ، والأغاليط: هي الأمور والأقوال التي يلقوها كثير من النَّاسِ جُزْأً هَكَذَا بلا مستند ولا برهان ولا حُجَّة من كلام الله ولا كلام رسوله عليه الصَّلَاة والسَّلَام، وإنما يلقوها جُزْأً أو تخميناً أو ظناً ، وما أكثر ذلك عند النَّاسِ.

وهذا ملحظ مهم: أَنَّ كَثِيرًا من أحاديث النَّاسِ في الفتن قائمة على الأغاليط، تخمينات وظنون وتوقّعات، وانبنى على دليل لا يكون عالماً بالدليل من حيث الصِّحَّة والضعف، وإن علمه من حيث الصِّحَّة لا يكون ضابطاً للحديث من حيث المعنى والمفهوم، أو من حيث أيضاً تنزيل أحاديث الفتن على وقائع معيّنة بالتكلف. فكثير من أحاديث النَّاسِ في الفتن قائمة على الأغاليط ، والنُّفوس تعشق وترغب في استكشاف المستقبل، ومن يحدّثهم بالتوقّعات، الأسبوع القادم كذا، النُّفوس تعشق ذلك، لكن هذه الرّغبة في معرفة الأمر المستقبل لا يجوز أن تجعل

الإنسان يدخل في الأغاليط والتكهنات والرجم بالغيب بالدعاوى الزائفة والتقولات بلا علم ؛ هذا كله من التجني، الرغبة شيء والأغاليط أيضاً شيء آخر خطير جداً.

هذا ملحظ حقيقة جميل من حذيفة؛ كثير من أحاديث الناس في الفتن قائمة على الأغاليط ، ولهذا يجب على الإنسان أن ينتبه لهذا الأمر ، أن يحذر من الأغاليط ؛ لا سماعاً لها، ولا ابتداءً بالتحدث بها، ولا أيضاً نقلاً لها في المجالس ؛ لأنّ بعض الناس ينقل الأغاليط في المجالس ويصبح شأنه مع الأغاليط كالمذيع، وعلي بن أبي طالب رضي الله عنه لما ذكر الفتن قال: «إنّ من ورائكم فتناً متطاولَةً رُدْحًا» يعني: فتناً ثقيلة «فلا تكونوا مذاييع بُذُرًا» بُذُرًا: أي: بذرة للفتن، مذاييع: أي نقلة لهذه الأغاليط التي تكون في الفتن. فما أكثرها! ما أكثر الأغاليط في الفتن! وزماننا هذا زمان انفتح على الناس من وسائل الاتصال ونقل المعلومة ما لم يكن في زمنٍ سابق ، تجد مسألة الأغاليط، يجلس أحد الأشخاص من وراء جهاز الحاسب عنده ويكتب ما شاء من التخمينات والتوقعات والأغاليط الكثيرات ثمّ يدخلها على الناس، من؟ أبو فلان، لا يُدرى من هو ولا صدقه ولا أمانته ولا ديانته، ويدخلها، ثمّ يبدأ الناس في تناقلها ، مذاييع وبذرة للفتن، لا يتحرّون ولا ينظرون هل هذه الأشياء صحيحة؟ هل هي حق؟ هل ينفع -إن كانت حق- نقلها للناس؟ ولهذا كم يحصل في الناس من فتن وبلاء وشرّ بسبب مثل هذه الأغاليط!

قال: «إني حدّثته حديثاً ليس بالأغاليط. فهبنا أن نسأله من الباب؟» أي: من كانوا عند حذيفة هابوا أن يسألوه رضي الله عنه من الباب؟

«فقلنا لمسروق أسأله. فسأله فقال: عمر» ؛ ومعنى ذلك: أنّ قتل عمر بن الخطّاب رضي الله عنه وأرضاه هو كسرٌ لهذا الباب، الباب مُعلّق دون الفتن، فإذا كسر هذا الباب بدأت الفتن.

وهذا أيضاً ممّا بيّن مكانة عمر رضي الله عنه ومنزلته العلية ، وأنّه بموته تبدأ الفتن . وموت عمر رضي الله عنه وأرضاه كان على يدٍ مجوسية؛ لأنّ قاتله رجلٌ مجوسي كان في المدينة يصنع الأرحاء، والأرحاء: جمع رحي معروفة، وكان غلاماً للمغيرة بن شعبة، فصنع لنفسه خنجرًا له جهتان، يضرب به من الجهتين، وسمّه، وأتى في صلاة الفجر ووقف خلف عمر بن الخطّاب رضي الله عنه في المسجد، وكان من عادة عمر رضي الله عنه أن يلتفت على الناس ويقول: أقيموا صفوفكم ثمّ إذا رأى الصُّفوف منتظمة كبر، فلمّا قال ذلك وكبر تكبيرة الإحرام تقدّم هذا المجوسي وطعن عمر رضي الله عنه طعنةً في كتفه، وأخرى في خاصرته بهذا الخنجر المسموم، وسقط عمر رضي الله عنه، واضطرب المسجد وتلاحق الناس للقبض على هذا الرجل، فطعن بخنجره ثلاثة عشرة من المصلّين، قد يكون منهم من ليس صحابي، فطعن ثلاثة عشر مات منهم سبعة، وألقى عليه رجل لحافاً حتى يُتّقى ما معه من خنجر، فلمّا تيقّن أنّهم سيقبضون عليه طعن نفسه بالخنجر وهلك في مكانه. انشغل الناس بنقل عمر رضي الله عنه حتى أسفر الصُّبح فأخذ ينادي عبد الرحمن بن عوف: «الصلاة الصلاة»، فاجتمع الناس وصلّى بهم عبد الرحمن بن

عوف صلاة الفجر بأقصر سورتين من القرآن ثم سَلَّمَ وانطلقوا لمتابعة أمر عمر رضي الله عنه. وجاء في بعض الروايات أنَّ عمر كان يُغَمِّي عليه ويفيق ويقول: «أصَلَّى النَّاسُ؟» فانظر في مثل هذه الحال حفاظ الصَّحابة رضي الله عنهم على الصَّلَاة وعنايتهم بها، ولم يخرج وقتها مع شدَّة الأمر الذي حصل والكرْب الذي وقع، كَرَب عَظِيم أمر ليس بالهَيِّن ومع ذلك الصَّلَاة أُدِّيَتْ في وقتها، وعمر رضي الله عنه وهو على تلك الحال كان يتابعهم في أمر الصَّلَاة ويقول كلِّما أفاق رضي الله عنه وأرضاه: «أصَلَّى النَّاسُ؟».

كان الصَّحابة يدخلون على عمر رضي الله عنه تباعاً، مجموعة تلو الأخرى يهنئونه، يدعون له، يذكرون من الشَّاء عليه ومكانته العظيمة، وينصرفون، وهكذا، يأتي قوم ويذهب آخرون، فكان رضي الله عنه يقول مع مكانته العليَّة وما آتاه الله عزَّ وجل من دين وإيمان ونصرة وصحبة رضي الله عنه وأرضاه كان يقول -لما يسمع هذا الشَّاء من النَّاس-: «وددت لو أنَّ الأمر كفافاً لا لي ولا عليّ»، وهذا هو شأن المؤمنين الكُمَّل، يَمَنُّ الله عليهم بالأعمال الجليلة العظيمة الكبيرة ويرى نفسه في غاية التقصير والخوف، والله يقول: ﴿وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوْا وَقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ

أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ﴾ [المؤمنون: ٦٠] أي: خائفة أن تُرَدَّ عليهم أعمالهم. يقول ذلك وهو مَن هو!! وهو المبشَّر بالجنة رضي الله عنه، بشَّره النَّبِيُّ عليه الصَّلَاة والسَّلَام بالجنة ويقول: «وددت لو أنَّ الأمر كفافاً لا لي ولا عليّ». وكان لابن عبَّاس رضي الله عنه مكانة عند عمر، فلَمَّا قال هذه الكلمة عمر رضي الله عنه: «وددت لو أنَّ الأمر كفافاً لا لي ولا عليّ» تكَلَّمَ عبد الله بن عبَّاس وكان عند رأس عمر بن الخطَّاب رضي الله عنه فقال: «لا والله، لا تخرج منها كفافاً، لقد صحبت رسول الله صَلَّى الله عليه وسلَّم، فصحبته وهو عنك راضٍ بخير ما صحبه صاحب، كنت له، وكنت له، وكنت له... -يعدِّد من مناقب عمر وأعماله الجليلة رضي الله عنه- حتى قُبِضَ رسول الله صَلَّى الله عليه وسلَّم وهو عنك راضٍ، ثمَّ صحبت خليفة رسول الله رضي الله عنه أبو بكر فكنت تنقِذ أمره، وكنت له وكنت له... -أي يعدِّد من مناقبه وأعماله الجليلة في خلافة أبي بكر- ثمَّ وليتها يا أمير المؤمنين أنت، فوليتها بخير ما وليها وال، وكنت تفعل وكنت تفعل»، يعدِّد من أعماله إِبَّانَ خلافته رضي الله عنه وأرضاه، فكان عمر يستريح إلى حديث ابن عبَّاس وله مكانة في قلبه، فقال عمر: «كَرَّرَ عليَّ حديثك»، فكَرَّرَ عليه الحديث أعاده عليه، فقال عمر: «أما والله على ما تقول» يعني: على هذا الكلام الذي سمعته منك «أما والله على ما تقول لو أنَّ لي طلاع الأرض» كلَّ ما طلع على الأرض «لو أنَّ لي طلاع الأرض ذهباً لافتديت به اليوم من هؤل المطلع».

فالشَّاهد: أنَّ هذا الكسر لهذا الباب الذي هو عمر رضي الله عنه وأرضاه هو بدء الفتنة، ومَرَّ معنا في الحديث المتقدِّم أنَّ النَّبِيَّ صَلَّى الله عليه وسلَّم أخبر أنَّ الأمور بعد ذلك تجيء الفتن، فتنٌ يَرَقُّ بعضها بعضاً بمعنى أنَّ الفتن تكبر وتَعْظُم وتزيد. هذا كلُّه علم المرء به يستوجب أن يكون في غاية الحذر من الفتن، وعدم الاستشراف لها، وأن

يكون بعيداً عنها؛ لأنَّ السَّعادة في البُعد عن الفتن، وأن يكون كثير الاستعاذة بالله، وقد جاء في الصَّحيح أنَّ النَّبيَّ صَلَّى الله عليه وسلَّم قال: ((تعوّذوا بالله من الفتن ما ظهر منها وما بطن))، والفتن شرٌّ عظيم على الأُمَّة، يضيع فيها أمن النَّاس، ولا تأمن سُبُلهم، ولا يأمنون على أعراضهم وأموالهم، فيها تُراق الدِّماء، فيها تحصل الشُّرور العظيمة؛ ولهذا يجب على المسلم أن يستعيذ بالله من الفتن ما ظهر منها وما بطن ، وأن لا يستشرف لها، وأن لا يشارك في شيء منها لا بكلام ولا بفعل ولا بغير ذلك من الأمور.

قال رحمه الله تعالى :

١٨١ - ولمسلم عن أبي بكرة رضي الله عنه مرفوعاً: ((إنها ستكون فتن ، ألا ثم تكون فتنة القاعد فيها خير من الماشي، والماشي فيها خير من الساعي إليها، ألا فإذا نزلت أو وقعت فمن كان له إبل فليلحق بإبله، ومن كان له غنم فليلحق بغنمه، ومن كانت له أرض فليلحق بأرضه)). فقال رجل: يا رَسُولَ اللَّهِ أَرَأَيْتَ مَنْ لَمْ يَكُنْ لَهُ إِبِلٌ وَلَا غَنَمٌ وَلَا أَرْضٌ؟ قَالَ: ((يَعْمَدُ إِلَى سَيْفِهِ فَيَدُقُّ عَلَى حَدِّهِ بِحَجَرٍ ثُمَّ لَيَنْجُ إِنْ اسْتَطَاعَ النَّجَاءَ، ثُمَّ قَالَ : اللَّهُمَّ هَلْ بَلَغْتُ؟ قالها ثلاث)). قَالَ: فَقَالَ رَجُلٌ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَرَأَيْتَ إِنْ أُكْرِهْتُ حَتَّى يُنْطَلَقَ بِي إِلَى أَحَدِ الصَّفَيْنِ أَوْ إِحْدَى الْفَتْنَيْنِ فَضَرَبَنِي رَجُلٌ بِسَيْفِهِ أَوْ يَجِيءُ سَهْمٌ فَيَقْتُلُنِي؟ قَالَ: ((يَبُوءُ بِأَمِّهِ وَإِثْمِكَ وَيَكُونُ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ)).

قال: ولمسلم عن أبي بكرة رضي الله عنه مرفوعاً: ((إنها ستكون فتن، ألا ثم تكون فتنة القاعد فيها خير من الماشي...)) إلخ ؛ هذا إخبار من النَّبيِّ صَلَّى الله عليه وسلَّم بأمرٍ كتبه الله وقدره ، أنَّ الفتن ستكون ستقع. فهذا إخبار عن أمر كوني قدري قضاءه الله سبحانه وتعالى وقدره في أُمَّةٍ مُحَمَّدٌ عليه الصَّلَاةُ والسَّلَامُ وأُتَمَّا ستقع، وهو يتضمَّن التحذير، إخبار عن أمر كوني قدري، وهذا الإخبار يتضمَّن التحذير ، وكثيراً ما يأتي مثل هذا في أحاديثه عليه الصَّلَاةُ والسَّلَامُ، مثل قوله: ((إنَّه مَنْ يَعِشْ مِنْكُمْ فَنَسِيَ اخْتِلافاً كَثِيراً)) أي: يحذِّرنا من أن نكون من أهل هذا الاختلاف والشِّقاق، مثل قوله: ((لَتَتَّبِعَنَّ سَنَنَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ شَبْرًا شَبْرًا ذِرَاعًا ذِرَاعًا)). هذا كلُّه إخبار عن أمور ستقع في الأُمَّة يخبر عليه الصَّلَاةُ والسَّلَامُ محذِّراً ، وأنَّ الواجب على المسلم أن يتَّقِيَ هذه الأمور ، وأن يجاهد نفسه على البُعد عنها.

((ألا ثم تكون فتنة القاعد فيها خيرٌ من الماشي، والماشي فيها خيرٌ من السَّاعي إليها)) بمعنى: أنَّ الواجب على المسلم إذا وقعت الفتنة أن يكون بعيداً عنها أكبر قدر يكون ؛ لأنَّ القاعد أبعد عن الفتنة من الماشي، والماشي أبعد عن الفتنة من السَّاعي يلهث وراء الفتن ويتَّبِعُها في زواياها وفي أمكنتها وفي جحورها، فكلما كان المرء بعيد عن الفتن كان ذلك أسلم لدينه وأخير له عند ربِّه سبحانه وتعالى.

((ألا ثم ستكون فتنة القاعد فيها خيرٌ من الماشي، والماشي فيها خيرٌ من الساعي، ألا فإذا نزلت أو وقعت))
«ألا»: أداة تحذير. ((إذا نزلت أو وقعت، فمن كان له إبل فليلحق بإبله، ومن كان له غنم فليلحق بغنمه))
يذهب إلى المرعى بإبله وغنمه ويشغل بها بعيد عن الفتن والدخول فيها.

((ومن كانت له أرض فليلحق بأرضه))؛ أرض: أي فيها زراعة نخل وزرع، يشغل بزراعته ولا يبحث عن هذه الفتن ولا ينظر فيها، وإنما يشغل بأعماله، أعمال الزراعة؛ من حفر، وبذر، وسقي... وغير ذلك.
«فقال رجل» وهذا من حرص الصحابة رضي الله عنهم على الخير، لما ذكر هذه المخارج للسلامة من الفتن، الذي عنده غنم، والذي عنده إبل، والذي عنده أرض، «قال رجل: أرأيت من لم يكن له إبل ولا غنم، ولا أرض؟» الذي له إبل يذهب إليها وينشغل بها، والذي له غنم يذهب إلى غنمه، والذي له أرض زراعية يذهب إليها، ومن لم يكن له شيء من هذا كيف يفعل يا رسول الله؟ هذا من حرص الصحابة رضي الله عنهم على السلامة والعافية.

قال: ((يعمد إلى سيفه، فيدق على حده بحجر)) لأنه طالما أن السيف باليد والفتنة قائمة، الشيطان مع الإنسان يثيره ويدفعه ويهيج، لكن قال: ((فيدق على حده بحجر، ثم لينج إن استطاع))؛ وهذا يدل أن الفتن أمرها ليس بالهين في جذب النفوس والقلوب، وجرت الناس إليها.

((ثم لينجو إن استطاع النجاء)) بمعنى: أن الأمر فعلاً خطير وجاذب للناس، ((لينج إن استطاع النجاة)).
((ثم قال: اللهم هل بلغت. قالها ثلاثاً)) صلوات الله وسلامه عليه. وهذا من عظيم نصحه لأئمة صلى الله عليه وسلم.

((فقال رجل: يا رسول الله، أرأيت إن أكرهت؟ حتى ينطلق بي إلى أحد الصّفين)) والصّفان في الفتن كلّها صفوف مسلمين، هذا مسلم وهذا مسلم، صفان من المسلمين يلتقون ثم يوجهون لبعضهم السيوف والقذائف... وهنا يُقتل من يُقتل من المسلمين، وهنا أيضاً يُقتل من يُقتل من المسلمين، وهذا فيه من الضعف في المسلمين ما فيه، وفيه أيضاً من فتح باب لتسلط الكفار على أهل الإسلام، ﴿وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ﴾ [الأنفال: ٤٦].

قال: ((حتى ينطلق بي إلى أحد الصّفين، فيضربني رجل بسيفه أو يجيء سهم فيقتلني)) يعني: لا رغبة لي وإنما أكرهت ووُضعت في الصّفين، وجاء سهم وضربني، أو شخص بسيفه وقتلني؟

قال: ((يبوء بإثمتك وإثمته فيكون من أصحاب النار)) المهم لا تشارك في الفتن، حتى لو جيء بك في ساحة القتال وأكرهت لا تشارك. وكما سيأتي معنا في الحديث الذي بعده ((كن عبد الله المقتول، ولا تكن عبد الله القاتل)).

قال رحمه الله تعالى :

١٨٢ - ولأبي داود عن سعد رضي الله عنه: قلت يا رسول الله أرأيت إن دخل علي بيتي وبسط إلي يده ليقتلني؟ فقال: ((كن كخير ابني آدم)) وتلا هذه الآية: ﴿لَنْ بَسَطَ إِلَيَّ يَدُكَ لَتَقْتُلَنِي مَا أَنَا بِبَاسِطِ يَدَيَّ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ﴾ [المائدة: ٢٨] .

قال: ولأبي داود -أي: في كتاب الفتن من سننه- عن سعد رضي الله عنه قلت: «يا رسول الله أرأيت إن دخل علي بيتي، وبسط إلي يده ليقتلني» ؛ والمراد في هذا الدُّخول: أي في وقت الفتنة، عندما يموج ويمرج أمر الناس.

فقال: ((كن كخير ابني آدم))، وتلا هذه الآية: ﴿لَنْ بَسَطَ إِلَيَّ يَدُكَ لَتَقْتُلَنِي مَا أَنَا بِبَاسِطِ يَدَيَّ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ﴾ [المائدة: ٢٨] ؛ وهذا فيه وجوب صبر الإنسان في الفتن، وأنَّ الإنسان ينبغي أن يصبر ، بخلاف قتال الكفار، لو كان الذي دخل كافر ومعتدي على الإنسان في دينه يجب عليه أن يُقاتله، لكن إذا كان قتال فتنة لا يجعل لنفسه يد في قتال الفتنة كما وجَّه إلى ذلك الرسول الكريم صلوات الله وسلامه عليه . قال: ((كن كخير ابني آدم))، وفي بعض الأحاديث قال: ((كن عبد الله المقتول ولا تكن عبد الله القاتل)). وسيأتي عند المؤلف رحمه الله تعالى بابٌ متّصل بهذا الباب ، لأنَّ الفتن إذا وُجِدَتْ ترتَّب عليها إراقة الدماء، والتَّعدّي على الأنفس، ولهذا عقد رحمه الله تعالى تلو هذا الباب بابًا عظيمًا جدًّا عنوانه: «بابٌ تعظيم قتل النَّفس الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ» وضمَّنه من النُّصوص والأدلة شيء عظيم نافع.

سبحانك اللهم وبحمدك ، أشهد أن لا إله إلا أنت ، أستغفرك وأتوب إليك .

اللهم صلِّ وسلِّم على عبدك ورسولك نبينا محمد وآله وصحبه أجمعين.

الدرس الثامن والعشرون

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله ربّ العالمين، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله ؛ صلى الله وسلم عليه وعلى آله وأصحابه أجمعين. أما بعد :

قال شيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب رحمه الله تعالى في كتاب الكبائر :

باب تعظيم قتل النفس التي حرم الله إلا بالحق

١٨٣ - عن سالم بن عبد الله بن عمر رضي الله عنه قال: يا أهل العراق ما أسألكم عن الصغيرة وأركبكم للكبيرة! سمعت أبي يقول: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: ((إن الفتنة تجيء من هاهنا -وأوماً بيده نحو المشرق من حيث يطلع قرن الشيطان- وأنتم يضرب بعضكم رقاب بعض ، وإنما قتل موسى الذي قتل من آل فرعون خطأ، فقال الله تعالى له: ﴿وَقَتَلْتَ نَفْسًا فَنَجَّيْنَاكَ مِنَ الْغَمِّ وَفَتَنَّاكَ فُتُونًا﴾ [طه: ٤٠]) رواه مسلم.

قال المؤلف رحمه الله تعالى: «باب تعظيم قتل النفس التي حرم الله إلا بالحق» ؛ هذه الترجمة عقدها رحمه الله لبيان حرمة الدماء وعظم وخطورة الاعتداء عليها، وأن الاعتداء عليها أمرٌ جاءت الشريعة بتحريمه، وبيان أنه جرم عظيم وذنبٌ كبير، لأن الأصل في الدماء أنها معصومة ومحرومة ولا يجوز الاعتداء عليها بأي نوع من الاعتداء، ومن وقع في شيء من ذلك فهو مخالفٌ لشرع الله، ومخالفٌ لدينه تبارك وتعالى، وواقعٌ في الظلم والشر والفساد، والشريعة جاءت بتحريم الدماء وتعظيم حرمتها، وأن الاعتداء عليها أمر ليس بالهين.

والمصنّف رحمه الله تعالى عقد ذلك عقب الترجمة السابقة المتعلقة بالفتن؛ وذلك لأن الفتن إذا وقعت رخصت الدماء واستهان كثير من الناس بها، وأصبح كثير من الناس في الفتن يريق ما يريق من الدماء ولا يبالي، وهذا من شؤم الفتن وعظم خطرهما على من استشرف لها؛ أنه يدخل في أنواع من الاعتداءات والظلم، سواءً بلسانه أو بيده، اعتداءً على الدماء المعصومة التي حرّم الله تبارك وتعالى، ولهذا عقد رحمه الله هذه الترجمة «باب تعظيم قتل النفس التي حرم الله إلا بالحق» عقب «باب ما جاء في الفتن» ؛ لأن هذا القتل للنفوس المحرمة يكثّر كثرةً فاحشة وشديدة عندما تنشب الفتن وتقع بين الناس.

أورد رحمه الله تعالى عن سالم بن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما قال: «يا أهل العراق ما أسألكم عن الصغيرة وأركبكم للكبيرة!» ؛ تُكثرون من السؤال عن أمور هي من الصغائر، ذنوب صغيرة، أو قد تكون ليست بذنوب، كأن يسأل سائل عن حكم قتل المحرم للبعوضة وهو يسفك الدماء المعصومة المحرمة! قال: «ما أسألكم

عن الصغيرة وأركبكم للكبيرة!» تسألون عن أمور هي من صغائر الذنوب، أو ربما عن أمور ليست ذنوبًا وتقعون في أمور هي من عظام الذنوب وكبائرها. «وأركبكم للكبيرة!» أي : ما أشد ارتكابكم للكبيرة ووقوعكم فيها. سمعت أبي -أي عبد الله- يقول: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: ((إن الفتنة تجيء من هاهنا - وأومأ بيده نحو المشرق- من حيث يطلع قرن الشيطان)) ، وفي بعض الأحاديث جاء التصريح بأنها نجد حيث يطلع قرن الشيطان، و«نجد» في اللغة: هو ما ارتفع من الأرض، والنبي صلى الله عليه وسلم في الحديث ((أومأ بيده)) أي أشار بيده إلى جهة المشرق، أي مطلع الشمس، قال: ((من حيث يطلع قرن الشيطان)). ومن كان في المدينة فإن نجده أي ما ارتفع والجهة العالية والمرتفعة عنه إلى جهة المشرق هي نجد العراق أو بادية العراق ونواحيها، وهي مشرق أهل المدينة. وقد جاء في المسند أن ابن عمر قال: «رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم يشير بيده يؤم العراق، ها إنَّ الفتنة هاهنا -ثلاث مرّات- من حيث يطلع قرن الشيطان»، والأحاديث يفسّر بعضها بعضًا.

وكثير من الفتن سواء الفتن التي ترتب عليها إراقة الدماء وقتل الأنفس ومروج أمر الناس ، أو كذلك من الفتن التي هي فتن الناس في دينهم بالعقائد الباطلة، عقائد أهل الضلال كثير منها جاءت من تلك الجهات، على أنه وجد أيضًا على مرّ التاريخ فيها من الأكابر من أهل العلم وأهل الفضل، وهذا لا يمنع أن تكون فيها الفتنة ويكون فيها أيضًا من أهل العلم والفضل والنبل قدرٌ ليس بالقليل.

قال: ((وأنتم يضرب بعضكم رقاب بعض)) وهذا من أعظم ما يكون في الفتنة أن يرفع المسلم السيف على أخيه، ويضرب المسلمون بعضهم رقاب بعض، وهذا من أعظم ما يكون وأشد ما يكون في الفتنة حيث تراق الدماء المحرمة المعصومة بغير حق، إلا أن الفتنة عندما تنشب وتقع بين الناس فإنها تجرّ إلى مثل ذلك.

ثم بيّن خطورة قتل النفس المعصومة بمثال انتقاه رحمه الله انتقاءً عجيباً، مبيناً من خلاله خطورة قتل النفس المعصومة، قال: ((وإنما قتل موسى الذي قتل من آل فرعون خطئاً، فقال الله تعالى له: ﴿وَقَتْلَ نَفْسًا فَجَيْتَاكَ

مِنَ الْغَمِّ وَقَتْلَاكَ قَتْلًا﴾)) ؛ ﴿قَتْلَ نَفْسًا﴾ موسى عليه السلام قتل رجلاً قبطياً كافراً من قوم هم أعداء له ولبنو إسرائيل، قتلوا الأطفال واستحيوا النساء وحصل منهم أذى عظيم جداً، ولما قتله موسى قتله بسبب أن الذي من شيعته استنصر به ليخلصه من أذى ذلك القبطي، وقد أتى الله سبحانه وتعالى نبيه موسى قوة، فوكزه موسى أي دفعه بجمع يده، قاصداً بهذه الدفعة أن يخلص الذي من شيعته من هذا القبطي، ما أراد قتله وإنما أراد أن يخلص هذا الذي من شيعته من هذا القبطي فدفعه بجمع يده ومات، فهذا الأمر الذي حصل من موسى ولم يكن قصداً لذلك ولم يكن متعمداً لذلك اعتبره ظلماً عليه السلام وطلب من ربّه تبارك وتعالى أن يغفر له وأن يتجاوز عنه، وفي هذا قال الله سبحانه: ﴿وَقَتْلَ نَفْسًا﴾.

فالشاهد أن هذه القصة قصة عجيبة في هذا الباب. وكنتُ قبل وقت كتبتُ حول هذه القصة كتابة في بيان خطورة هذا الأمر الذي هو قتل الدم المحرمة ولو كانت دمًا لشخص كافر، لأن الكافر لا يحل أن يُقتل هكذا في أي وقت وعلى أية حال، وأن الشريعة جاءت بتحريم ذلك، فكتبتُ في ذلك كتابة في أثناء كتاب لي كان بعنوان «القطوف الجياد من حكم وأحكام الجهاد» فنستمع إلى ذلك.

«إنَّ من الأمور المعلومة من الدين بالضرورة أن الله عزَّ وجلَّ قد عظم شأن الدماء وشدَّد في حرمتها، وجعل التهاون في ذلك وانتهاك حرمة ذنبًا كبيرًا وفسادًا عظيمًا، ورَتَّب عليه وعيدًا شديدًا وجزاءً أليمًا يوم القيامة. فكل قتل للنفس -مسلمة كانت أو كافرة- إذا لم يكن على وجه الحق الذي أذن به الله تعالى وقرَّرتَه الشريعة الإسلامية فإنه محرَّم شرعًا، بل هو في الإسلام معدودٌ من كبائر الذنوب ومن الموبقات، ومن سمَّى ذلك جهادًا في سبيل الله أو جعله عملاً مباحًا فهو ضالٌّ مضلٌّ خارجٌ عن إجماع المسلمين، بل وعمَّا أجمعت عليه الشرائع السماوية.

ولنتأمل ما قصَّ الله تعالى علينا من قصة نبيه موسى عليه السلام في قوله سبحانه: ﴿وَدَخَلَ الْمَدِينَةَ عَلَى حِينٍ غَفْلَةٍ مِنْ أَهْلِهَا فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلَانِ هَذَا مِنْ شِيعَةِ وَهَذَا مِنْ عَدُوِّهِ فَاسْتَغَاثَهُ الَّذِي مِنْ شِيعَتِهِ عَلَى الَّذِي مِنْ عَدُوِّهِ فَوَكَرَهُ مُوسَى فَقَضَى عَلَيْهِ قَالَ هَذَا مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ عَدُوٌّ مُضِلٌّ مُبِينٌ^(١٥) قَالَ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي فَغَفَرَ لَهُ إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ^(١٦) قَالَ رَبِّ بِمَا أَنْعَمْتَ عَلَيَّ فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيرًا لِلْمُجْرِمِينَ^(١٧) فَاصْبَحَ فِي الْمَدِينَةِ خَائِفًا يَتَرَقَّبُ فَإِذَا الَّذِي اسْتَنْصَرَهُ بِالْأَمْسِ يَسْتَصْرِخُهُ قَالَ لَهُ مُوسَى إِنَّكَ لَغَوِيٌّ مُبِينٌ^(١٨) فَلَمَّا أَنْ أَرَادَ أَنْ يُبَطِّشَ بِالَّذِي هُوَ عَدُوٌّ لَهُمَا قَالَ يَا مُوسَى أَتُرِيدُ أَنْ نَقْتُلَ نَفْسًا كَمَا قَتَلْتُمْ نَفْسًا بِالْأَمْسِ إِنْ تُرِيدُ إِلَّا أَنْ تَكُونَ جَبَّارًا فِي الْأَرْضِ وَمَا تُرِيدُ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْمُصْلِحِينَ^(١٩)﴾ [القصص: ١٥-١٩]. في هذه القصة نرى أنَّ هذا الذي استغاث بموسى شخص من شيعة، أي:

إسرائيلي مسلم، وأن الذي استغاثه عليه شخص من عدوِّه، أي: قبطي كافر. ويظهر من السياق أن هذا القبطي الكافر كان معتديًا على الإسرائيلي المسلم، فأراد موسى عليه السلام الدفاع عنه بالحق ولم يقصد قتل عدوِّه الكافر، ولكن لما كان موسى عليه السلام قد أوتي بسطة في الخلق وقوة في البدن أدَّت وكرته إلى قتل القبطي، قال تعالى: ﴿فَوَكَرَهُ مُوسَى فَقَضَى عَلَيْهِ﴾ أي: دفعه بجمع كفه على صدره فقتله، وهو لا يريد قتله. قال الحافظ ابن كثير: "وقد كان ذلك القبطي كافرًا مشرِّكًا بالله العظيم، ولم يُرد موسى قتله بالكلية، وإنما أراد زجره وردعه، ومع هذا قال موسى: ﴿هَذَا مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ عَدُوٌّ مُضِلٌّ مُبِينٌ﴾^(١٥) قَالَ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي فَغَفَرَ لَهُ إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ^(١٦) قَالَ رَبِّ بِمَا أَنْعَمْتَ عَلَيَّ﴾ أي: من العزِّ والجاه ﴿فَلَنْ

أَكُونُ ظَهِيرًا لِلْمُجْرِمِينَ ﴿١٤﴾ ، والمقصود أن موسى عليه السلام قد أبدى ندمه وتأسفه على ما أفضى إليه وكزه من قتل القبطي الكافر الذي كان ظالماً للإسرائيلي ، واعتبر موسى هذا القتل غير المتعمد من تزيين الشيطان، وأنه قد ظلم نفسه بهذا العمل، واستغفر ربه وتاب إليه. وعن الحسن البصري رحمه الله قال: "لم يكن يحلّ قتل الكافر يومئذ في تلك الحال؛ لأنها كانت حال كفيّ عن القتال".

فاشتملت هذه القصة على مواعظ وعبر عظيمة ينبغي تأملها والاعتبار بها، وهي:

- أن هذا القتل خطأ، ولم يكن قتلاً متعمداً مقصوداً.
- وأن هذا المقتول كان كافراً مشركاً بالله، وكان مع ذلك ظالماً معتدياً على الإسرائيلي.
- وأنه من قوم اشتدت عدواؤهم لبني إسرائيل، فقتلوا أبناءهم واستحيوا نساءهم وكان منهم بلاء عظيم.
- أن موسى عليه السلام عدّ قتله في هذه الحال من عمل الشيطان، أي: من تزيينه ووسوسته، لأن الشيطان عدو لابن آدم مضلّ له عن سبيل الهدى والرشاد، مبين في عداوته للإنسان.

■ أن موسى عليه السلام جعل ما وقع منه من القتل الخطأ للكافر ظلماً منه لنفسه، فقال: ﴿رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي﴾

- أنه عليه السلام رأى ذلك ذنباً ينبغي طلب المغفرة منه وخطأً يتاب منه إلى الله تعالى فقال: ﴿فَاغْفِرْ لِي﴾.
- أنه عليه السلام عاهد الله تعالى ألا يعين ولا يساعد أحداً على معصية ولا إجماع، وهو معنى قوله: ﴿رَبِّ بِمَا أَنْعَمْتَ عَلَيَّ فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيراً لِلْمُجْرِمِينَ﴾.

■ أنه كان من المتقرر أنّ قتل الأنفس المعصومة عمداً بغير حق من الإفساد في الأرض وليس من عمل المصلحين، ولهذا قال القبطي الآخر: ﴿أَتُرِيدُ أَنْ تُقَتِّلَنِي كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًا بِالْأَمْسِ إِنْ تُرِيدُ إِلَّا أَنْ تَكُونَ جَبَّارًا فِي الْأَرْضِ وَمَا تُرِيدُ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْمُصْلِحِينَ﴾، ظناً منه أنّ موسى عليه السلام كان يتعمد ذلك.

وفي هذه المواعظ والعبر بيان واضح وشافٍ لقبح الإقدام على قتل النفس البريئة التي لا تستحق القتل وإن كانت نفساً كافرة، وأنّ ذلك عملٌ منافٍ لشريعة الإسلام ولهدى المرسلين. وفي الخبر عن سالم بن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما أنه قال: "يا أهل العراق ما أسألكم عن الصغيرة وأركبكم للكبيرة! سمعت أبي عبد الله بن عمر يقول: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: ((إن الفتنة تجيء من هاهنا -وأوماً بيده نحو المشرق- من حيث يطلع قرنا الشيطان، وأنتم يضرب بعضكم رقاب بعض، وإنما قتل موسى الذي قتل من آل فرعون خطأ، فقال الله عز وجل له: ﴿وَقَتَلْتَ نَفْسًا فَنَجَّيْنَاكَ مِنَ الْغَمِّ وَفَتَنَّاكَ فُتُونًا﴾)) ، وذكر العلامة السعدي فوائد جلييلة متعلقة

بالآيات السابقة فقال في تفسيره: "ومنها: أن قتل الكافر الذي له عهد بعقد أو عرف لا يجوز، فإن موسى عليه السلام عدّ قتله القبطي الكافر ذنبًا واستغفر الله منه. ومنها: أن الذي يقتل النفوس بغير حق يُعدّ من الجبارين الذين يفسدون في الأرض. ومنها: أن من قتل النفوس بغير حق وزعم أنه يريد الإصلاح في الأرض وتهيب أهل المعاصي فإنه كاذب في ذلك وهو مفسد، كما حكى الله قول القبطي: ﴿إِنْ تُرِيدُ إِلَّا أَنْ تَكُونَ جَبَّارًا فِي الْأَرْضِ وَمَا تُرِيدُ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْمَصْلُحِينَ﴾ على وجه التقرير له لا الإنكار".

وقال أيضًا في خلاصة تفسير القرآن معدّدًا هذه الفوائد: "ومنها: أن قتل الكافر الذي له عهد بعقد أو عرف لا يجوز، فإن موسى ندم على قتله القبطي واستغفر الله منه وتاب إليه. ومنها: أن الذي يقتل النفوس بغير حق يُعدّ من الجبارين المفسدين في الأرض، ولو كان غرضه من ذلك الإرهاب، ولو زعم أنه مصلح حتى يردّ الشرع بما يبيح قتل النفس». اهـ

«وإن كان غرضه من ذلك الإرهاب» الشيخ رحمه الله تعالى كما يقال في كثير من كتاباته - كان يسبق وقته، كلمة «الإرهاب» هذه كلمة إنما صار لها انتشار في وقتنا هذا، ولم يكن لها في زمانه رحمه الله تعالى مثل هذا الانتشار والحديث الواسع عن هذه الكلمة، فمن يأتي بهذه المعاملات المحرّمة أو التعاملات المحرّمة والاعتداء على هذه الأنفس المعصومة وقصده الإرهاب، أن يهرب أعداء الله تبارك وتعالى أو يهرب العصاة وأهل الفسوق والجون والإجرام، فإن طريقته هذه إذا كانت بالاعتداء على الأنفس المعصومة يُعدّ من الإفساد في الأرض ومن الإجرام، لأن الإرهاب لا يكون بمخالفة الشرع، وإنما يكون بالطرق التي جاء الشرع بها وأباحها لعباده، أما أن يسلك طرائق محرّمة وسبل جاءت الشريعة بتحريمها وتجرّمها، وحثته في ذلك أنه يريد أن يهرب الكفار أو يريد أن يهرب الفجّار والفسقة والعصاة فهذا معدود في الإجرام وفي الإفساد في الأرض، وليس من عمل المصلحين في شيء.

قال رحمه الله تعالى :

١٨٤ - ولهما عن المقداد رضي الله عنه قلت: «يا رسول الله أرأيت إن التقيت أنا ورجل من الكفار فاقتلنا فضرّب إحدى يدي بالسيف فقطعها، ثم لاذ مني بشجرة فقال: أسلمت لله، أأقتله؟» قال: ((لا تقتله، فإنك إن قتلته فإنه بمنزلك قبل أن تقتله وأنت بمنزله قبل أن يقول كلمته التي قالها)).

وهذا الحديث حديث المقداد رضي الله عنه وهو في الصحيحين فيه دلالة واضحة على خطورة قتل النفس التي حرّم الله سبحانه وتعالى قتلها. قال: «قلت: يا رسول الله» وهذا تفقه من الصحابة رضي الله عنهم في هذا الباب الخطير العظيم.

«قلت: يا رسول الله أرأيت إن التقيت أنا ورجل من الكفار فاقتتلنا فضرب إحدى يدي بالسيف فقطعها»
انظر تصوير هذا الصحابي رضي الله عنه وأرضاه في هذا التفقه والمعرفة بدين الله سبحانه وتعالى.
قال: « فـضرب إحدى يدي بالسيف فقطعها ثم لاذ مني بشجرة» أي: اعتصم مني بشجرة.
«فقال أسلمت لله» أعلن إسلامه، أو نطق بالشهادتين قال: "أشهد أن لا إله إلا الله، وأشهد أن محمدًا رسول الله"

«أأقتله؟» يعني: والحالة هذه؛ قطع يدي، ولاذ مني بشجرة، ولما اقتربت منه وخشي أن أقتله قال: أسلمت لله.
قال: ((لا تقتله)) ؛ لماذا؟ لأنه ما دام أنه أعلن إسلامه، وليس لنا إلا الظاهر، والله تبارك وتعالى يتولى السرائر، ولا يستطيع أن يقول قائل: هذا أسلم تعوذًا، لأن الأمر راجع إلى باطن الإنسان ونحن ليس لنا إلا الظاهر، قد يكون قالها تعوذًا وقد يكون قالها فعلاً إسلامًا ودخولاً في هذا الدين ، وليس لنا إلا الظاهر، ولهذا سيأتي معنا أن النبي صلى الله عليه وسلم قال لأسامة لما قتل ذلك الرجل : ((أفلا شققت عن قلبه؟)) لما قال: «إنما قالها تعوذًا» أي خوفًا من القتل، قال: ((أفلا شققت عن قلبه؟!)) حتى تحكم عليه أنه إنما قالها تعوذًا ، فالمرء ليس له إلا الظاهر، فإذا قال: "أسلمت لله" لا يجوز قتله، صار دمه معصومًا بإعلان إسلامه.

قال: ((لا تقتله ؛ فإنك إن قتلتَه -أي بعد إعلانه للإسلام- فإنه بمنزلك قبل أن تقتله وأنت بمنزلة قبل أن يقول كلمته التي قالها)) ومعنى أنك بمنزلة قبل أن يقول كلمته التي قال : أي مباح الدم بالقصاص، وهو قبل ذلك كان مباح الدم بالكفر، لا أن المرء يكون بهذا الأمر كافرًا وبمنزلة الكافر وأنه مارق من الدين وخارج من ملة الإسلام. فهذا العمل وهذا الصنيع من كبائر الذنوب، ولهذا قال النبي صلى الله عليه وسلم: ((فإنك إن قتلتَه فإنه بمنزلك قبل أن تقتله ، وأنت بمنزلة قبل أن يقول كلمته التي قالها)).

قال رحمه الله تعالى :

١٨٥ - ولهما عن أسامة بن زيد رضي الله عنهما -حبّ النبي صلى الله عليه وسلم وابن حبه- قال: بعثنا رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى الحُرقات من جهينة فصَبَحنا القوم فهزمناهم، فلحقت أنا ورجل من الأنصار رجلا منهم فلما غشيناه قال: لا إله إلا الله، فكف عنه الأنصاري فطعننّه برمحٍ فقتلنّه، فلما قدمنا بلغ ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: ((يا أسامة أقتلته بعدما قال لا إله إلا الله؟!)) قلت: يا رسول الله إنما قالها متعوذًا، فقال: ((أقتلته بعدما قال لا إله إلا الله؟!)) فما زال يكررها حتى تمنيت أني لم أكن أسلمت قبل ذلك اليوم . وفي رواية أنه قال: ((أفلا شققت عن قلبه؟!)) .

١٨٦ - ولمسلم أنه قال يا رسول الله استغفر لي فقال: ((كيف تصنع بلا إله إلا الله إذا جاءت يوم القيامة؟!)).

وهذا الحديث أيضًا كالذي قبله في خطورة قتل النفس المعصومة التي حرم الله تبارك وتعالى قتلها، فهذا أسامة رضي الله عنه يذكر أن النبي صلى الله عليه وسلم بعثهم للحُرُقات، وهم قبائل من جهينة. ((فصبحنا القوم فهزمناهم، فلحقنا أنا ورجل من الأنصار رجلا منهم)) أي: رجل من جهينة. ((فلما غشيناه)) أي: تمكنا منه ((قال: لا إله إلا الله، فكف عنه الأنصاري)) أي: كف عن ضربه أو طعنه أو قتله .

((قطعته برمي فقتلته. فلما قدمنا بلغ ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال لي: يا أسامة أقتلته بعدما قال لا إله إلا الله؟!)) في الحديث: ((أَمَرْتُ أَنْ أَقَاتِلَ النَّاسَ حَتَّى يَشْهَدُوا أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ وَيُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ فَإِذَا فَعَلُوا ذَلِكَ عَصَمُوا مِنِّي دِمَاءَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ إِلَّا بِحَقِّ الْإِسْلَامِ وَحِسَابُهُمْ عَلَى اللَّهِ)). ((قلت: يا رسول الله إنما قالها متعوذاً)) أي من القتل ، لم يقلها عن اعتقاد وإيمان وإنما قالها متعوذاً من القتل. كيف يمكن للإنسان أن يعرف أن من قال هذه الكلمة إنما قالها متعوذاً من القتل؟ وأمر ذلك عائد إلى القلب إلى باطن الإنسان؟! كيف يحكم الإنسان أنه إنما قالها متعوذاً؟! ونحن في الشريعة ليس لنا إلا الظاهر، الباطن بين الإنسان وبين الله لا نخوض فيه، ليس لنا إلا الظاهر والله يتولى السرائر، ومن أظهر ظاهر خير قبل ظاهره وتوكل سريره إلى الله سبحانه وتعالى.

فقال النبي صلى الله عليه وسلم: ((أقتلته بعدما قال لا إله إلا الله؟!)) فما زال يكررها؛ وهذا التكرير المراد منه بيان خطورة هذا الأمر وعظم هذا الفعل الذي فعله أسامة رضي الله عنه.

«فما زال يكررها حتى قنيت أني لم أكن أسلمت قبل ذلك اليوم» ؛ مراده رضي الله عنه أنه تمنى أن لو كان إسلامه في هذا اليوم الذي كان يتحدث فيه مع النبي عليه الصلاة والسلام، باعتبار أن الإسلام يهدم ما كان قبله. أي ما أحب أن يكون هذا العمل من جملة الأعمال التي وقعت منه في إسلامه وحال إسلامه . أدرك رضي الله عنه خطورة هذا الأمر الذي وقع فيه وتمنى أن لم يكن أسلم قبل ذلك اليوم، بمعنى أن يكون إسلامه في ذلك اليوم الذي كان يتحدث مع النبي صلى الله عليه وسلم بهذا الحديث، بمعنى أن لا يدخل هذا العمل الذي وقع منه في حياته الإسلامية المباركة رضي الله عنه وأرضاه، إدراكاً منه لخطورة هذا الأمر.

وجاء في رواية أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: ((أفلا شققت عن قلبه؟!)) ؛ عندما قال «إنما قالها متعوذاً» قال: ((أفلا شققت عن قلبه؟!)) لأن من يقول ذلك متعوذاً ليس صادقاً أمر يرجع إلى القلب، ولا يُحكم على ما في قلب الإنسان؛ لأن الذي في قلبه بينه وبين الله عز وجل، الله يطلع على ما في الضمائر والسرائر، والناس ليس لهم إلا الظاهر، قال: ((أفلا شققت عن قلبه؟!)) يعني: حتى تقول: إنما قال ذلك متعوذاً؟! قال : ولمسلم أنه قال: «يا رسول الله استغفر لي» أي: ادعُ الله أن يغفر لي .

((فقال: كيف تصنع بلا إله إلا الله إذا جاءت يوم القيامة؟!)) وهذا فيه أيضاً فضل «لا إله إلا الله»، وأن هذه الكلمة تحتاج عن صاحبها، ولهذا النبي صلى الله عليه وسلم كما هو معروف قال لعمره: ((يا عم قل لا إله إلا الله، كلمة أحاج لك بها عند الله))، ف«لا إله إلا الله» شأنها عظيم، ومن كان من أهلها فدمه حرام دمه معصوم. فقال له النبي عليه الصلاة والسلام ويكررها عليه: ((كيف تصنع بلا إله إلا الله إذا جاءت يوم القيامة؟!)) أي إذا جاءت يوم القيامة تحتاج عن صاحبها. فالحديث فيه خطورة الدماء المعصومة التي حرم الله تبارك وتعالى قتلها، وأن قتل الدماء المعصومة أمر عظيم جاءت الشريعة بتعظيمه، وأنه ليس بالأمر الهين.

قال رحمه الله تعالى :

١٨٧ - وللبخاري عن ابن عمر رضي الله عنهما مرفوعاً: ((لا يزال العبد في فسحة من دينه ما لم يصب دمًا حرامًا)).

قال: وللبخاري عن ابن عمر رضي الله عنهما مرفوعاً -أي: إلى النبي عليه الصلاة والسلام- أنه قال: ((لا يزال العبد في فسحة)) ؛ والفسحة: هي السعة وعدم الضيق. ((لا يزال العبد في فسحة من دينه ما لم يصب دمًا حرامًا)) أما إذا أصاب الدم الحرام هذه ورطة عظيمة ليست بالهينة، إذا أصاب دمًا حرامًا، أما ما لم يصب دمًا حرامًا فهو في فسحة من دينه، والحسنات يذهبن السيئات، ((وأتبع السيئة الحسنة تمحها)) ، أما قتل الدم المعصومة هذا أمر يضيق عليه هذه السعة وهذه الفسحة من الدين. ومن المعلوم أن قتل الدم المعصومة يترتب عليه ثلاثة حقوق: حق الله سبحانه وتعالى ، وحق للمقتول ، وحق لأوليائه المقتول . والمقتول انتهت حياته على يد من قتله، لو كان أخذ منه مالاً عنده فسحة يرجع إليه ويعيد له المال ويطلب منه العفو ، لو كان اعتدى على عرضه بسب أو غير ذلك يطلب منه العفو والسماح ، غشه يطلب منه أن يعفو عنه ، إلى غير ذلك، لكن إذا قتله انتهى، ذهب الرجل وفارق الحياة مقتولاً، ويأتي يوم القيامة ورأسه في كفه وهو يشخب دمًا ويقول: هذا قتلي، فيم قتلي؟ يطلب حقه. فأمر الدم ليس بالهين بل هو من ورطات الأمور وعظيم ورطات الأمور ، يقول: ((لا يزال العبد في فسحة من دينه ما لم يصب دمًا حرامًا)).

ومن الصحابة من ذهب -ومنهم ابن عباس رضي الله عنهما- إلى أن قاتل الدم المعصومة تعمداً ليس له توبة، وقال: إن قول الله عز وجل: ﴿وَمَنْ يُقْتَلْ مُؤْمِنًا مَّعْتَدًا فِجْرًا لَّهُ جَهَنَّمُ خَالِدًا فِيهَا﴾ [النساء: ٩٣]، قال: لم ينسخ هذه الآية شيء. ولكن الصحيح وهو قول جمهور أهل العلم أن التوبة مقبولة من أي ذنب، ﴿إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ

جَمِيعًا ﴿[الزمر: ٥٣]، أي: لمن تاب ، قصة الرجل الذي قتل تسعة وتسعين نفسًا وكان يسأل: هل له من توبة؟ فلما سأل العالم قال: من يحول بينك وبينها؟! اذهب إلى مكان كذا، تجد فيه قومًا صالحين اعبد الله معهم. فالقتل وكذلك غيره من الذنوب إذا صدق العبد مع الله تبارك وتعالى في توبته تاب الله عليه.

وقوله: ﴿فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ﴾ ، أي: هذا جزاؤه إن جازاه، وهو داخل تحت المشيئة كما جاء في الآية التي قبل هذه الآية وبعدها أيضًا: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ﴾ [النساء: ٤٨] ، فكل ذنب دون الشرك فهو تحت المشيئة، إن شاء الله أن يعذب فاعله وإن شاء أن يعفو عنه، وإن عذبه فإنه لا يخلد في النار، لأنه لا يخلد في النار إلا المشرك.

الشاهد من الحديث: تعظيم قتل النفس المعصومة التي حرم الله تبارك وتعالى قتلها، وأن المرء لا يزال في فسحة من دينه ما لم يصب دمًا حرامًا. وأما إذا أصاب الدم الحرام فيكون وقع في ورطة عظيمة، ولم يكن في هذه الفسحة وهذه السعة التي كان عليها قبل أن يقتل الدم المعصومة.

ومن الكلمات الجميلة لراوي هذا الحديث عبد الله بن عمر رضي الله عنهما في هذا الباب: أن رجلاً كتب إليه يطلب منه -من ابن عمر- أن يكتب له بالعلم كله، قال: اكتب لي بالعلم كله ، فكتب إليه ابن عمر رضي الله عنهما: «إن العلم كثير، لكن إن استطعت أن تأتي يوم القيامة خميص البطن من أموال المسلمين، خفيف الظهر من دمائهم، كاف اللسان عن أعراضهم، لازمًا لجماعتهم فافعل» أي: أن هذه الأمور جمعت لك ، هو يريد العلم كله، لكن أعطاه هذه الخلاصة التي من وفق إليها فهو في عافية وفي غنيمة وسلامة.

سبحانك اللهم وبحمدك ، أشهد أن لا إله إلا أنت ، أستغفرك وأتوب إليك .

اللهم صلّ وسلّم على عبدك ورسولك نبينا محمد وآله وصحبه أجمعين.

الدرس التاسع والعشرون

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله ربّ العالمين، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأشهد أن محمداً عبده ورسوله، صلى الله وسلم عليه وعلى آله وأصحابه أجمعين. أمّا بعد:

قال شيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب رحمه الله تعالى في كتاب الكبائر :

باب تكثير السواد في الفتن

١٨٨ - عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: ((من حمل علينا السلاح فليس منا، ومن غشنا فليس منا)) رواه مسلم.

قال رحمه الله تعالى: «باب تكثير السواد في الفتن» ؛ المراد بالسّواد: أي النَّاس وتجمهرهم وتجمّعهم. في الفتن: أي عندما تنشب الفتن بين النَّاس ويكثر الهرج والمرج ، وربما أيضاً يحصل القتل ونحو ذلك والقتال ؛ فإنَّ الواجب على المسلم أن يتجنّب الفتن وألّا يُكثّر سواد أهل الفتن بالتّجمهر معهم والتّجّمع؛ ممّا يزيد الفتنة فتنةً، ويزيد الشرّ شرّاً، ولهذا جاء النّهي عن ذلك؛ أن يُكثّر سواد أهل الفتن بالحضور والاشتراك معهم، حتى ولو لم يكن من نيّته مثلاً أن يقاتل أو أن يعتدي أو أن يظلم، يقول: أقف معهم أو أشاركهم بتجمهر يسمّى مثلاً (سَلَمِي) بدون أن أعتدي على أحد وإمّا بالوقوف فقط معهم أو نحو ذلك. فهذه التّرجمة عقدها رحمه الله تعالى في النّهي عن ذلك والتّحذير منه. «تكثير السّواد في الفتن» أي التي تقع بين النَّاس.

أورد رحمه الله تعالى أولاً حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: ((مَنْ حَمَلَ عَلَيْنَا السِّلَاحَ فَلَيْسَ مِنَّا، وَمَنْ غَشَّنَا فَلَيْسَ مِنَّا)) ؛ قوله عليه الصّلاة والسّلام في هذا الحديث وكذلك في غيره من الأحاديث «ليس منا» أي: ليس منا معاشر أهل الإيمان المطلق الذين استحقّوا الثّواب بلا عقاب ، لأنّهم كَمَلُوا الإيمان الواجب فاستحقّوا ثواب الله تبارك وتعالى دون أن يكون لهم عقاب؛ لأنّهم كَمَلُوا الإيمان الواجب. فقوله: ((ليس منا)) هذا هو المراد به، ليس المراد به نفي أصل الإيمان كما هو فهم الخوارج الضّلال ، وليس المراد بقوله: ((ليس منا)) أي: ليس من خيارنا وأفاضلنا كما هو فهم أهل الإرجاء ، ولهذا الإمام أحمد رحمه الله وغيره أنكروا هذا التّفسير، «ليس منا» أي: ليس من خيارنا، قال: "هل لو تركوا ذلك يكونوا من الخيار بتركهم له؟ وبعضهم فسّر ((ليس منا)) أي: ليس مثلنا، وهل إذا ترك هذه الخصلة ولم يفعلها كان مثل النّبيّ صلى الله عليه وسلم ومثل الصّحابة؟ فمقام الإيمان أعظم من ذلك وأشمل، الإيمان المطلق يتناول الدّين كلّهُ.

فقلوه ((ليس منّا)) أي: أهل الإيمان المطلق الذين استحقُّوا الثَّواب بلا عقاب، ولا يكون هذا النَّفي «ليس منّا» إلَّا في الكبائر، مثل قوله في الأحاديث: لا يؤمن من فعل كذا، أو لا يؤمن من لم يفعل كذا، هذا لا يكون إلَّا في فعل محرَّم أو ترك واجب. نفي الإيمان لا يكون إلَّا في فعل محرَّم أو ترك واجب.

الشَّاهد: أنَّ قوله: ((ليس منّا)) هذا يدلُّ على أنَّ هذا الأمر الذي قيل في شأنه ذلك يُعدُّ الوقوع فيه والفعل له من الكبائر.

قال: ((من حمل علينا السِّلاح))؛ ومعنى حمَّله: أي أشهره ورفع السِّلاح. «علينا» أي: معاشر المؤمنين والمسلمين. فرفع السِّلاح على المسلمين هذا من جهة — وهذا وجه إيراده في التَّرجمة — فيه تكثيرٌ لسواد أهل الباطل الذين يريدون مثل هذه الأعمال، أعمال الإفساد والعدوان والظُّلم، وإشهار السِّيف على أهل الإيمان، هذا من الأمور الَّتِي يريد بها أهل الباطل. فهذا من جهة فيه تكثيرٌ لسوادهم، فيه معونة لهم، فيه تحقيق لأهدافهم ومقاصدهم. ولهذا أورده رحمه الله تعالى تحت هذه التَّرجمة «باب تكثير السَّواد في الفتن».

قال: ((من حمل علينا السِّلاح)) وفرقٌ بين حمل السِّلاح على المسلمين، وحمل السِّلاح للمسلمين؛ «حمَّله لهم» أي في مقاتلتهم للأعداء معونةً لهم على قتال الأعداء والكفار. أمَّا «حمل السِّلاح على المسلمين» فهو أن يُشهر السِّلاح وأن يرفعه على أهل الإسلام؛ فهذا فيه من المعاونة وفيه من الأذى والشرِّ على المسلمين ما يكون نوعًا من التَّكثير لسواد أهل الباطل بهذه المعاونة الَّتِي يقدِّمها لهم من أشهر السِّيف ورفعته على المسلمين.

قال رحمه الله تعالى :

١٨٩ - وفي البخاري عن محمد بن عبد الرحمن أبي الأسود قال: قُطِعَ على أهل المدينة بعث فاكتبتُ فيه؛ فلقيت عكرمة فأخبرته فنهاني أشدَّ النهي وقال: أخبرني عبد الله بن عباس أن أناسًا من المسلمين كانوا مع المشركين يكتِّرون سواد المشركين على رسول الله صلى الله عليه وسلم فيأتي السهم يُرمى به فيصيب أحدهم فيقتله، أو يُضرب فيقتل، فأنزل الله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ﴾ الآية [النساء: ٩٧].

١٩٠ - وقوله صلى الله عليه وسلم: ((وَلَكِنْ مَنْ رَضِيَ وَتَابَعَ)).

قال رحمه الله تعالى : وفي البخاري عن محمد بن عبد الرحمن أبي الأسود قال: ((قُطِعَ على أهل المدينة بعثُ فاكتبتُ فيه))؛ قُطِعَ على أهل المدينة: أي فُرِضَ عليهم وألزموا بذلك. و«بعثُ» أي: جيش، ألزم أهل المدينة — وهذا كان في خلافة عبد الله بن الزُّبير — ألزموا بأن يهيئوا جيش يخرج من المدينة لقتال أهل الشَّام في أيَّام وخلافة عبد الله بن الزُّبير.

وقوله « قُطِعَ عَلَى أَهْلِ الْمَدِينَةِ »: أَيُفْرَضَ عَلَيْهِمْ ذَلِكَ وَأُلْزِمُوا بِذَلِكَ .

وقوله «بُعْثْ» أَي: جيش يُبْعَث ويُرْسَل من المدينة تجاه الشام .

«فَاكْتُبْتُ فِيهِ» أَي: قَيَّدْتُ نَفْسِي مَعَ هَذَا الْبُعْثِ، سَجَّلْتُ اسْمِي مَعَهُمْ مُشَارِكًا فِي هَذَا الْبُعْثِ الَّذِي يُخْرَجُ مِنَ الْمَدِينَةِ فِي هَذَا الْجَيْشِ، قَيَّدْتُ اسْمِي إِلَى حِينَ الْخُرُوجِ بِحَيْثُ أَنَّنِي أَخْرَجْتُ مَعَهُمْ.

«فَلَقِيتُ عِكْرِمَةَ فَأَخْبَرْتَهُ»؛ وَعِكْرِمَةُ مِنْ أُمَّةِ الْمُسْلِمِينَ وَعِلْمَائِهِمْ . وَمِنْ الْخَيْرِ لِلْمَرْءِ فِي مِثْلِ هَذِهِ الْقَضَايَا الْعَظِيمَةِ الْكَبِيرَةِ وَغَيْرِهَا مِنَ الْقَضَايَا أَنْ يَرْجِعَ إِلَى أَهْلِ الْعِلْمِ ؛ مِنْ بَابِ الْاسْتِشَارَةِ وَالِاسْتِصْحَاحِ ، يَقُولُ: أَنَا سَجَّلْتُ اسْمِي فِي كَذَا، أَقْدَمْتُ عَلَى كَذَا، عِنْدِي نِيَّةٌ أَنْ أَذْهَبَ لِلْمَكَانِ الْفُلَانِيِّ لِلْقِتَالِ أَوْ لِلْمُشَارَكَةِ فِي كَذَا وَكَذَا، مَا الَّذِي تَنْصَحَنِي؟ مَا الَّذِي تَرَى فِي هَذَا الْأَمْرِ؟ قَالَ: «فَلَقِيتُ عِكْرِمَةَ، فَأَخْبَرْتَهُ» أَخْبَرْتَهُ بِأَنِّي اكْتُبْتُ مَعَ هَؤُلَاءِ، سَجَّلْتُ اسْمِي وَقَيَّدْتُهُ مَعَ هَؤُلَاءِ.

«فَنَهَانِي أَشَدَّ النَّهْيِ» أَيُ أَنَّ عِكْرِمَةَ رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى حَذَّرَهُ مِنَ الْخُرُوجِ مَعَ هَذَا الْجَيْشِ تَحْذِيرًا شَدِيدًا؛ لِأَنَّ هَذَا الْجَيْشَ الَّذِي سَيَقَعُ فِيهِ اقْتِتَالٌ بَيْنَ مُسْلِمِينَ وَمُسْلِمِينَ، دِمَاءُ مُسْلِمِينَ تُرَاقُ هُنَا، وَدِمَاءُ مُسْلِمِينَ تُرَاقُ أَيْضًا فِي الْجِهَةِ الْأُخْرَى، وَدِمَاءُ الْمُسْلِمِينَ أَمْرُهَا لَيْسَ بِالْهَيْئِ، وَلَوْ دَمَ مُسْلِمٍ وَاحِدٍ، فَكَيْفَ بِدِمَاءِ كَثِيرَةٍ تُرَاقُ وَتُرْهَقُ؟!

قال: «فَنَهَانِي أَشَدَّ النَّهْيِ وَقَالَ: أَخْبَرَنِي عَبْدُ اللَّهِ بْنُ عَبَّاسٍ أَنَّ أَنَاسًا مِنَ الْمُسْلِمِينَ كَانُوا مَعَ الْمُشْرِكِينَ يَكْثُرُونَ سَوَادَ الْمُشْرِكِينَ» ؛ أَيُ أَنَّ وَجُودَ الْإِنْسَانِ -هَذَا الْمُرَادُ مِنَ الْمَوْضُوعِ وَالْمَقْصِدُ مِنْ إِيرَادِ هَذَا الْخَبَرِ- أَنَّ وَجُودَ الْإِنْسَانِ مَعَ أَهْلِ الْفِتْنَةِ حَتَّى وَلَوْ كَانَ لَيْسَ بِغَرَضِ الْقِتَالِ وَإِرَاقَةِ الدِّمَاءِ وَالشَّعْبِ وَالْفَوْضَى وَإِنَّمَا يَقِفُ مَعَهُمْ، فَوْجُودُهُ مَعَهُمْ بِحَدِّ ذَاتِهِ يُعَدُّ تَكْثِيرًا لِسَوَادِهِمْ وَمَعَاوَنَةً لَهُمْ فِي الْفِتْنَةِ، وَأَهْلُ الْفِتْنَةِ يَزْدَادُ فِيهِمْ الشَّرُّ عِنْدَمَا يَرُونَ أَعْدَادَهُمْ كَثُرَتْ وَزَادَتْ، حَتَّى لَوْ كَانَ بَعْضُ أَوْ كَثِيرٌ مِنَ الَّذِينَ وُجِدُوا إِنَّمَا تَجْمَعُوا هَكَذَا وَتَجَمَّعُوا لَا لِلْغَرَضِ الَّذِي يَقْصِدُهُ هَؤُلَاءِ مِنْ قِتَالٍ أَوْ شَغَبٍ أَوْ حَمَلٍ لِلسَّيْفِ أَوْ نَحْوِ ذَلِكَ. عَلَى أَنَّهُ أحيانًا تَكُونُ تَجَمُّعَاتٌ وَتَجْمَعُراتٌ لَا يُقْصَدُ فِيهَا الْقِتَالُ، لَكِنْ سُرْعَانِ مَا يَنْشَبُ؛ لِأَنَّ مِثْلَ هَذَا التَّجَمُّعِ وَالتَّجْمَعُهرِ يَأْتِي مَنْ يُشْعِلُ فِيهِ فِتِيلَ وَنَارِ الْفِتْنَةِ ثُمَّ تُرَاقُ الدِّمَاءُ، أحيانًا يَأْتِي عَدُوٌّ لِلطَّرَفَيْنِ، فَيَدْخُلُ مَجْمُوعَةً مِنْهُمْ فِي طَرَفِ هَؤُلَاءِ وَمَجْمُوعَةً فِي طَرَفِ هَؤُلَاءِ، وَيَلْقُونَ الْحِجَارَةَ أَوْ يَلْقُونَ، كَأَنَّ الطَّرَفَيْنِ هُمَ مَنْ بَدَأَ، ثُمَّ يَقَعُ فِي الْقِتَالِ. فَوْجُودُ الْإِنْسَانِ فِي الْفِتْنَةِ بِحُضُورِهِ وَمُشَارَكَتِهِ حَتَّى وَلَوْ لَمْ يَقْصِدْ هَذَا أَمْرٌ مِنْهُيَّ عَنْهُ.

لا يَقُولُ الْإِنْسَانُ: "وَاللَّهِ أَنَا كَانَتْ نِيَّتِي طَيِّبَةً، وَمَجَرَّدَ فَقَطِ الْوُقُوفِ مِنْ أَجْلِ الْمَصْلُحَةِ الْفُلَانِيَّةِ، وَهَذِهِ نِيَّتِي، مَا كَانَ عِنْدِي نِيَّةٌ" أَنْتَ بِهَذَا كَثُرَتْ سَوَادُهُمْ حَتَّى وَلَوْ كَانَتْ نِيَّتُكَ طَيِّبَةً، وَنِيَّةُ الْإِنْسَانِ بَيْنَهُ وَبَيْنَ رَبِّهِ سَبْحَانَهُ وَتَعَالَى، لَكِنْ الْعَمَلُ هَذَا الَّذِي هُوَ تَكْثِيرُ السَّوَادِ هَذَا عَمَلٌ مِنْهُيَّ عَنْهُ. وَالْإِنْسَانُ يَنْبَغِي أَنْ يَحْسِبَ لِلْأُمُورِ حِسَابًا ، خَاصَّةً فِي بَابِ الْفِتَنِ؛ لِأَنَّ الْفِتْنَ فِيهَا وَتَنْطَوِي عَلَى أُمُورٍ مِنَ الشُّرُورِ قَدْ لَا تَلُوحُ لِلْإِنْسَانِ وَلَا تَظْهَرُ لَهُ فِي بَادئِ الْأَمْرِ، وَكَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ دَخَلُوا مِثْلَ هَذَا الدُّخُولِ، ثُمَّ نَدِمُوا نَدَامَةً شَدِيدَةً عَلَى مَا كَانَ مِنْهُمْ مِنْ حُضُورٍ أَوْ مُشَارَكَةٍ أَوْ نَحْوِ ذَلِكَ.

وأحد السلف لا أتذكر الآن من هو شارك في فتنة لكنه لم يُقاتل ولم يرفع سيفًا، فلقية أحد الناصحين بعد ذلك، فقال: أنا ما رفعت سيفًا ولا شاركت. قال: كيف يكون أمرك يوم القيامة إذا وقفت بين يدي الله وجاء أناس وقالوا: يا رب نحن لم نشارك إلا لكوننا رأينا العالم الفلاني أو الشيخ الفلاني واقفًا مع هؤلاء فتبعناه في ذلك؟! كم من الناس رأوك تمشي وتبعوك في ذلك؟! هذا كلاما هو معنى ما نُقل عن بعض السلف في هذا الباب.

فأحيانًا المشاركة وإن لم يقصد قتالًا، لم يقصد إراقة الدماء، لم يقصد شغبًا وعدوانًا يترتب عليه من الشر والفساد ما لم يحسب له المرء حسابًا ؛ ولهذا يُنهى عن تكثير السواد في الفتن.

قال: «أخبرني عبد الله بن عباس أن أناسًا من المسلمين كانوا مع المشركين يكثرُونَ سواد المشركين» قهؤلاء النفر من المسلمين هم أهل إسلام وليس لهم غرض بانتصار المشركين على الكفار، لكن قد يكون معهم مجاملة، خوفًا على مصالحه التي عندهم، خوفًا على بيته، على أملاكه، على أموره، فيقف معهم وقوفًا ليس من نيته أن يُقاتل وليس من نيته أن يعتدي وإنما غرضه من ذلك الإبقاء مثلاً على مصالحه التي عندهم، ويخشى أن يؤذوه، أو مثلاً يؤذوا أولاده، أو يأخذوا أملاكه، أو نحو ذلك، فيقف معهم وإن لم يكن له غرض في القتال. فهذا نوع من التكثر لسواد هؤلاء، مع أنه لم يكن له غرض في القتال، لكن عُدَّ بهذا العمل ظالماً.

قال: «أن أناسًا من المسلمين كانوا مع المشركين يكثرُونَ سواد المشركين على رسول الله صلى الله عليه وسلم» أي: إذا خرج جيش من جيوش المشركين لمقاتلة النبي صلى الله عليه وسلم يخرجون معهم حتى لا يقول عنهم المشركون أمراً أو قولاً يقتضي فيما بعد تصفيتهم في البلد، أو أخذ أملاكهم، أو الاعتداء مثلاً على حرَمهم، أو نحو ذلك، فكانوا يكثرُونَ بذلك سواد المشركين.

قال: «يأتي السهم يُرمى به فيصيب أحدهم فيقتله» ؛ لما يكون واقف مع هؤلاء يُرمى بالسهم فيصيبه فيقتله. «أو يُضرب -أي بالسيف- فيقتل» ويكون قتله يوم قُتل وهو في صف المشركين، قادمًا معهم، وهؤلاء قدِموا لقتال أهل الإسلام. وجوده في صف المشركين هو وعدد من الآخرين هذا فيه تكثير للسواد، وكثرة السواد لها أثرها في القتال؛ لأنَّ الكثرة تخيف وترعب، فإذا كان هو وآخرين كثروا سواد المشركين، هذا فيه معاونة لهم حتى وإن لم يكن له قصد وغرض في القتال نفسه.

قال: «فأنزل الله تبارك وتعالى قوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ﴾» أي: أن هؤلاء ظلموا أنفسهم بهذا المجيء وهذا التكثر للسواد للمشركين، ﴿قَالُوا فِيمَ كُنْتُمْ﴾ أي: الملائكة التي بعثها الله وأرسلها لقبض أرواح هؤلاء تسألهم على سبيل التفرع والتوبيخ لهم ﴿قَالُوا فِيمَ كُنْتُمْ﴾ أي: ما هذا العمل؟ ما هذا الأمر الذي صنعتموه؟ قمتم به وترتب عليه أن قُتل هؤلاء في هذا الموضع وفي هذا المكان؟ ﴿فِيمَ كُنْتُمْ﴾ وما الذي حملكم على ذلك؟ ﴿قَالُوا كُنَّا مُسْتَضْعِفِينَ فِي الْأَرْضِ﴾ أي: الذي كنّا فيه والموضع الذي كنّا فيه أننا مستضعفون في

الأرض، ولم يكونوا صادقين في ذلك ، لأنَّ الله عزَّ وجلَّ استثنى بعد قليل مَنْ هم المستضعفين حقًا ، أمَّا الرَّجُل القوي والقادر على الهجرة ويبقى بين المشركين! أين الاستضعاف؟ أين كونه مستضعفًا؟!

﴿قَالُوا أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُوا فِيهَا﴾ ما الذي أبقاكم معهم؟ لو كان الإنسان كبير سنَّ أو امرأة ضعيفة أو ولدًا طفلًا يكون مستضعف، أمَّا الرَّجُل القوي والقادر ويبقى معهم مُكثِّرًا لسوادهم ويقول: أنا كنت مستضعفًا!! هذا ليس بصحيح، ﴿قَالُوا كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الْأَرْضِ﴾

﴿قَالُوا﴾ أي: الملائكة ﴿أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُوا فِيهَا﴾ ثم ذكر مصير هؤلاء ﴿فَأُولَئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَسَاءَتْ مَصِيرًا﴾؛ وهذه العقوبة التي ذكرها الله سبحانه وتعالى في هؤلاء لأنَّهم بقوا مع المشركين ولم يهاجروا، وبقوا مكثِّرين لسواد المشركين، حتى أيضًا إذا خرجوا للقتال خرجوا معهم ولو بغير نيَّة القتال؛ وفي هذا تكثير لسواد المشركين.

قال: ﴿فَأُولَئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَسَاءَتْ مَصِيرًا﴾ (٩٧) **إِلَّا الْمُسْتَضْعَفِينَ** هؤلاء استثناهم الله، مَنْ هم؟ قال: ﴿إِلَّا الْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا﴾ ما له قدرة، وجسمه ضعيف، ولا يستطيع مثلاً أن يسافر، أو امرأة ضعيفة، أو أطفال صغار، هؤلاء معذورون، وفعلاً ينطبق عليهم وصف الاستضعاف وأَنَّهُ مُسْتَضْعَف.

﴿إِلَّا الْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا﴾ (٩٨) **فَأُولَئِكَ عَسَى اللَّهُ أَن يَغْفُرَ عَنْهُمْ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا** ؛ و«عسى» في القرآن واجبة؛ أي: أَنَّ الله يغفو عنهم؛ لأنَّه مستضعف ما له قدرة ولا حيلة ولا يهتدي سبيلاً كيف يهاجر وكيف يخرج؟ هذا معذور. أمَّا الرَّجُل القوي والقادر ويبقى مكثِّراً لسواد أهل الباطل ويقول أنا مستضعف! هذا ليس بصحيح. ثمَّ إذا خرج من بلد الكفَّار مهاجراً لا يخلو من حالتين:

إمَّا أن يصل إلى البلد الذي هاجر إليه، ويكون بذلك سلامته وتحصيله لثواب الهجرة والسلامة من البقاء مع الكفَّار وتكثير سوادهم. أو أن يموت في الطَّرِيق. وفي أي الحالتين هو سالم وغانم وأجره على الله سبحانه وتعالى؛ ولهذا قال في الآية التي بعدها: ﴿وَمَنْ يُهَاجِرْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يَجِدْ فِي الْأَرْضِ مُرَاعِمًا كَثِيرًا وَسَعَةً وَمَنْ يُخْرَجْ مِنْ بَيْتِهِ مُهَاجِرًا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ يُدْرِكْهُ الْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ﴾ [النساء: ١٠٠] أي أَنَّهُ على حالتين:

١ - إمَّا أن يخرج ويصل إلى البلد الذي هو مهاجر إليه البلد الإسلامي ، ويكون معهم.

٢ - أو أَنَّهُ يموت في الطَّرِيق.

فإن مات في الطريق فأجره على الله سبحانه وتعالى ويُكْتَب له ذلك ، وإن وصل إلى البلد تحققت له السلامة والعافية، أما أن يبقى في ديار الكفار مُكَيَّرًا لسوادهم ويقول أنا مستضعف وليس لي حيلة! مغالطاً ومخادعاً هذا لا ينفعه عند الله سبحانه وتعالى؛ ولهذا تقدّم قول الله عزّ وجلّ: ﴿فَأُولَٰئِكَ مَاوَأَهُم جَهَنَّمُ وَسَاءَتْ مَصِيرًا﴾ .

الشّاهد من هذه الآية: أنّ المسلم لا يجوز أن يكثر سواد أهل الباطل، حتى ولو لم يكن له غرض في مقاصد هؤلاء من قتال أو مثلاً إراقة دماء أو شغب أو نحو ذلك، وإنّما تكثر للسّواد فقط، فهذا يُنهي عنه لما يترتب عليه من الشّرور العظيمة. فالمؤمن يجب عليه أن يتجنّب ذلك، فلا يكون مكثراً لسواد أهل الباطل؛ لا من أهل الفتن، ولا من أهل البدع، ولا من أهل المعاصي، وكلّ تكثر للسّواد في هذا الباب يكون بحسبه، تكثر سواد أهل البدع، أو تكثر سواد أهل الفتن، أو تكثر سواد أهل المعاصي، كلّ ذلك يبوء فيه المرء من الإثم بحسب من كثر سوادهم. وغرض عكرمة من إirاده لما نقله عن ابن عبّاس في حال هؤلاء المسلمين الذين كانوا مع المشركين يكثر سوادهم، مع أنّهم لا يريدون -هؤلاء المسلمون- بتكثر سواد المشركين المشاركة في القتال، وليس لهم غرض في موافقتهم في مقاصدهم من القضاء على الإسلام والإجهاز على المسلمين ، هذه المعاني ما قامت في قلوب هؤلاء المسلمين. فعكرمة كأنّه بإيراده لهذا الأثر يقول لأبي الأسود: وأنت أيضاً لا تكثر سواد هؤلاء وهذا الجيش وإن كنت لا تريد موافقتهم فيما أرادوه من قتال، حتى وإن كنت لا تريد موافقتهم فيما أرادوه من قتال لا تكثر سوادهم، مجرد وجودك معهم ومشاركتك معهم هذه لا تجوز، مثل ما أنّ هؤلاء وإن كان لم يكن لهم غرض في مشاركة المشركين في القتال إلّا أنّ ذلك كان تكثر لسوادهم، ولهذا عبّر ابن عبّاس رضي الله عنه بذلك قال: «يكثر سواد المشركين».

قال رحمه الله تعالى: وقوله صَلَّى الله عليه وسلّم: ((ولكن من رضي وتابع)) ؛ هذا الحديث تقدّم بتمامه عند المصنّف رحمه الله تعالى في «باب ذكر الرضا بالمعصية» قال: وله -أي لمسلم- عن أمّ سلمة رضي الله عنها مرفوعاً: ((إنّه يُستعمل عليكم أمراء فتعرفون وتنكرون، فمن كره فقد برئ، ومن أنكر فقد سلّم، ولكن من رضي وتابع))؛ قال رحمه الله: «أي: من كره بقلبه وأنكر بقلبه».

((لكن من رضي وتابع)) جاء في بعض الروايات: ((فأولئك هم الهالكون)) ، أمّا الذي أنكر بقلبه وكره بقلبه فهذا سلّم، أمّا "من رضي وتابع" أي: تابع هؤلاء فإنّه يكون هالكا وبصبيه بذلك الهلاك؛ لأنّه كثر سوادهم بمتابعته لهم.

الخبر المتقدم الذي يرويه محمّد بن عبد الرّحمن أبي الأسود ولقيّه لعكرمة هذا أورده البخاري رحمه الله في صحيحه في «كتاب الفتن»، «باب من كره أن يكثر سواد الفتن والظلم»، والبخاري رحمه الله أورده وترجم له بهذه الترجمة

مستشهدًا به أنه لا يجوز تكثير سواد أهل الفتن وأهل الظُّلم، ولو لم يكن له غرض في مقاصد هؤلاء، وإنما تكثير السَّواد فقط؛ يُنهي عنه.

والكراهة المراد بها: التَّحريم. ((مَنْ كره)) المراد بالكراهة التَّحريم، ليس كراهة التَّنزيه وإنما هذا أمر محَرَّم لا يجوز . وفقه البخاري - كما يُقال - في تراجمه رحمه الله تعالى . والإمام محمَّد بن عبد الوهَّاب رحمه الله يشاركه في مثل هذا الفقه العظيم والاستنباطات العظيمة، ويُقال من أهل العلم والاطِّلاع: أنَّ في تراجم شيخ الإسلام محمَّد بن عبد الوهَّاب رحمه الله في كتبه شبه من نفس البخاري وغيره من الأئمَّة الأكابر، وقد سلك طريقهم في دقَّة فهمه للأحاديث، ثمَّ التَّرجمة في الباب بخلاصة هي زبدة عظيمة وخلاصة دقيقة تُسَنِّبُ ممَّا ساقه وأورده رحمه الله تعالى من أدلَّة في الباب.

سبحانك اللهم وبحمدك ، أشهد أن لا إله إلا أنت ، أستغفرك وأتوب إليك .
اللهم صلِّ وسلِّم على عبدك ورسولك نبينا محمد وآله وصحبه أجمعين.

الدرس الثلاثون

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله ربِّ العالمين، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأشهد أن محمَّدًا عبده ورسوله، صلَّى الله وسلَّم عليه وعلى آله وأصحابه أجمعين. أمَّا بعد:

قال شيخ الإسلام محمد بن عبد الوهَّاب رحمه الله تعالى في كتاب الكبائر :

باب ذكر العقوق

وقول الله تعالى: ﴿أَنِ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ إِلَيَّ الْمَصِيرُ﴾ [لقمان: ١٤].

قال رحمه الله تعالى: «بابُ ذكر العقوق» ؛ العقوق يراد به: عقوق الوالدين، وعقوق الوالدين من كبائر الذنوب وعظائم الآثام، بل إنَّ النبي صلى الله عليه وسلم قرن حقوقهما بالإشراك بالله في حديثه صلى الله عليه وسلم عندما قال: ((ألا أنبئكم بأكبر الكبائر)) قلنا: بلى يا رسول الله، قال: ((الإشراك بالله وعقوق الوالدين)) ، فقرن هذه الكبيرة التي هي عقوق الوالدين بأعظم الكبائر على الإطلاق وهو الإشراك بالله سبحانه وتعالى؛ مما يدل على عظم خطورة العقوق وشناعته.

والله سبحانه وتعالى قرن في القرآن الكريم حق الوالدين بحقه؛ لعظم حقهما في آيات كثيرة من كتابه عز وجل، قال تعالى: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾ [الإسراء: ٢٣] ، وقال تعالى: ﴿وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾ [النساء: ٣٦] ، وقال تعالى: ﴿قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾ [الأَنْعَام: ١٥١]، والآيات في هذا المعنى كثيرة.

ومن الآيات التي قرُن فيها حق الوالدين بحق الله هذه الآية التي ساقها المصنف رحمه الله تعالى مصدراً بها هذه الترجمة، وهي قول الله جل وعلا: ﴿أَنْبِ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ إِلَيَّ الْمَصِيرُ﴾ [لقمان: ١٤] ؛ ﴿أَنْبِ اشْكُرْ لِي﴾ أي: بالإخلاص والتوحيد والإفراد بالعبادة، والقيام بحقوق الله عز وجل التي خلق الخلق لأجلها وأوجدهم لتحقيقها، والبُعد عما يسخطه ويغضبه سبحانه وتعالى وأعظم ذلكم الإشراك به جلّ في علاه، وللوالدين ببرهما والإحسان إليهما والقيام بحقهما والحذر من العقوق لهما. وفي الآية قرُن هذا الحق العظيم حق الوالدين الذي هو الإحسان والبرّ بحق الله عز وجل الذي هو التوحيد والإخلاص؛ مما يدل كما تقدم على عظم حق الوالدين وكبر شأنه. وفي ختم هذه الآية بقوله ﴿إِلَيَّ الْمَصِيرُ﴾ فيها تذكيرٌ للمحسن مع والديه بأن المصير إلى الله فيجزي المحسن بإحسانه، وفيها تحذير للعاق لوالديه بأن المصير إلى الله سبحانه وتعالى ليعاقب المسيء بإساءته، ﴿لَيَجْزِيَ الَّذِينَ أَسَاءُوا بِمَا عَمِلُوا وَيَجْزِيَ الَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْحُسْنَى﴾ [النجم: ٣١] .

قال رحمه الله تعالى :

١٩١ - عن ابن عمرو رضي الله عنهما: أقبل رجل إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقال: «أبايعك على الهجرة والجهاد أبتغي الأجر من الله»، فقال: ((هل من والديك أحد حي؟)) قال: «نعم بل كلاهما» قال: ((فتبتغي الأجر من الله تعالى؟)) قال: «نعم» قال: ((فارجع إلى والديك فأحسن صحبتهما)) أخرجاه واللفظ لمسلم.

قال: عن عبدالله ابن عمرو رضي الله عنهما: ((أقبل رجل إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقال: أبايعك على الهجرة والجهاد)) ؛ على الهجرة: أي من بلده إلى بلد النبي صلى الله عليه وسلم، والإقامة عنده والبقاء معه عليه الصلاة والسلام. والجهاد: أي في سبيل الله.

«أبتغي الأجر من الله» فهذا الرجل الذي جاء جاء لغرض المبايعة، مبايعة النبي ، والمبايعة تعني إلزام النفس وعدم النكوص والنقض، وهي ميثاق عظيم يلتزمه العبد.

قال: «أبايعك على الهجرة والجهاد» وهما عملان صالحان عظيمان جدًّا، جاء يبايع النبي صلى الله عليه وسلم على القيام بهما والوفاء بهما.

وقوله: «أبتغي الأجر من الله» هذا فيه الإخلاص وصلاح النية وأنه لم يأت هذا الإتيان لعرضٍ من الدنيا أو لشهرة أو لرياء أو لسمعة أو لغير ذلك، وإنما جاء يبتغي وجه الله سبحانه وتعالى وثوابه جلّ وعلا وأجره، قال: «أبتغي الأجر من الله» .

فقال: ((هل من والديك أحدٌ حيٌّ؟)) الوالد أو الوالدة هل منهم أحد حيٌّ؟ وهذا السؤال له أهميته في هذا الباب، الرجل يسأل عن الجهاد، والنبي صلى الله عليه وسلم يسأله عن والديه، هذا يدل على أهمية هذه المسألة في الجهاد، وأن من أراد أن يجاهد قبل أن يجاهد ينظر في هذه المسألة ؛ وإلا ما فائدة هذا السؤال!! الرجل يقول: «أبايعك على الهجرة والجهاد، أبتغي الأجر من الله» أي مخلصًا، قال: ((هل من والديك أحدٌ حيٌّ؟)) فكون أحد الوالدين أو كلاهما حيًّا هذا يتعلق تعلقًا كبيرًا بهذه المسألة، لأن لهم حق في هذا الباب، حق عظيم لا يجوز أن يضيع أو أن يهدر.

قال: «نعم، بل كلاهما» ؛ الوالد والوالدة، كلاهما موجود.

قال: ((فتبتغي الأجر من الله تعالى؟ قال: نعم)) ؛ الرجل ما جاء ولا هاجر ولا ترك موطنه إلا ابتغاء الأجر من الله.

قال: ((فارجع إلى والديك فأحسن صحبتهما)) ؛ انظر هذا الرجل وهمته العالية ورغبته العظيمة وأيضًا نيته الصالحة التي أبدأها بقوله: «أبتغي الأجر من الله» ثم يعيده النبي صلى الله عليه وسلم إلى موطنه لمراعاة هذا الحق العظيم الذي قرنه الله سبحانه وتعالى بحقه جلّ في علاه، كما تقدم في الآية: ﴿أَنْ أَشْكُرَ لِي وَلَوْ أَلَيْكَ إِلَهٌ الْمَصِيرُ﴾ .

قال: ((فأحسن صحبتهما)) ليس مجرد رجوع وقرب من مكان الوالدين بل أمرٌ آخر؛ إحسان في الصحبة، بل كما سيأتي معنا في حديث قادم: إن الوالدين لهما من الصحبة النصيب الأوفر، وكل المعاني الجميلة التي تقال في الصحبة من اللطف والرفق واللين والابتسامه وحسن اللقاء إلى غير ذلك من المعاني فالوالدان أحق بهما من كل الناس وأولى بهما، كما سيأتي معنا: ((من أحق الناس بحسن صحابتي؟ قال أمك. قال ثم من؟ قال: أمك. قال ثم من؟ قال أمك. قال ثم من؟ قال: أبوك)) ؛ فالوالدان هما الأحق، ولهذا أمره عليه الصلاة والسلام بالرجوع إلى والديه والإحسان في صحبتهما.

وقوله: ((فأحسن)) مثل قول الله جل وعلا في غير ما آية: ﴿وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾ ، فأمر بالإحسان للوالدين والإحسان في صحبة الوالدين ولم يحدّد نوع معين في الإحسان؛ الإحسان القولي ، أو الإحسان العملي ، أو

بالكرم ،أو بالبذل أو بالطاعة، أو بغير ذلك لم يحدّد، أطلق ليشمل كلّ إحسان يستطيع أن يقوم به العبد، أطلق ولم يُقيد بشيء ليتناول ويشمل كلّ ما كان في مقدور العبد من إحسان أن يقدمه لوالديه يبذل ذلك ويجتهد في الوفاء بذلك.

جاء في بعض الروايات: أن النبي صلى الله عليه وسلم قال له: ((ففيهما -أي الوالدين- فجاهد)) ؛ وهذا اللفظ يفيد أن برّ الوالدين والإحسان إليهما ضرب من ضروب الجهاد، ولاسيما في مفهوم الجهاد العام، في مثل قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا﴾ [العنكبوت: ٦٩] ، في الحديث قال: ((والجهاد من جاهد نفسه في طاعة الله)) ، ومن أعظم الطاعة وأجلّ القرب البرّ بالوالدين والإحسان إليهما ، ولهذا قال هنا في هذا الحديث: ((ففيهما فجاهد)).

ومن فوائد هذا الحديث: أهمية السؤال والرجوع إلى أهل العلم، وأنه لا ينبغي للإنسان أن يركب رأسه ويذهب فيما اتجهت إليه نفسه أو رغبت فيه دون مراجعة لأهل العلم، لأن بمراجعة أهل العلم إما أن يتثبت من صحة ما أراد أن يفعله، أو يعلم أنه مخطئ وأنّ ثمة أمر آخر غفل عنه ينبهه عليه العالم، وهذا الرجل لولا أنّ الله سبحانه وتعالى منّ عليه بالإتيان للنبي صلى الله عليه وسلم وسؤاله هذا السؤال ما حصل له هذا العلم العظيم، بل من بركة سؤال هذا الرجل أن أصبح هذا العلم علماً للأمة كلها، من أراد أن يجاهد وله والدان فلهما حق في ذلك، ولهذا الحديث يدلّ على وجوب استئذان الوالدين ، فإن لم يأذن الوالدان كلاهما له بالجهاد لا يجوز له أن يجاهد، لأن النبي صلى الله عليه وسلم قال لهذا الرجل: ((ارجع إليهما فأحسن صحبتهما)) ، فما لم يأذن الوالدان لا يجوز له أن يجاهد، إلا إذا كان جهاد دفع، هجم العدو على البلد فكلّ يدافع بما استطاع ولا يتوقف الأمر على الاستئذان، أو استنفر الإمام، وإلا فالأصل أن من أراد أن يجاهد الأصل أن يستأذن والديه إن لم يأذنا لا يجوز له أن يجاهد ووالداه لم يأذنا له.

وكم من الأشخاص يخرج في جهاد أو في أمور يظن أنها جهاد أو تسمى جهاداً وليست جهاداً، بعضهم ربما خرج في أمور هي أقرب إلى الإفساد ويترك والداه ييكيان يتألمان يتوجعان على ذهابه وخروجه غير مبالي بمثل هذه النصوص والأصول العظيمة والقواعد الجليلة والضوابط التي جاءت بها شريعة الإسلام. ليت كثيراً من الشباب يعي قول النبي عليه الصلاة والسلام: ((فارجع إلى والديك فأحسن صحبتهما)) ، وفي رواية قال: ((ففيهما فجاهد)).

قال رحمه الله تعالى :

١٩٢ - وعن معاوية بن جاهمة رضي الله عنه أن جاهمة جاء إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقال: «يا رسول الله أردت أن أغزو وقد جئت أستشيرك» فقال: ((فهل لك من أم؟)) قلت: «نعم»، قال: ((فالزمها فإن الجنة تحت رجلها)) رواه أحمد وأحمد والنسائي.

قال رحمه الله تعالى: وعن معاوية بن جاهمة أن جاهمة جاء إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقال: «يا رسول الله أردت أن أغزو، وقد جئت أستشيرك» ؛ وهذا مثل الأول، جاء يستشير النبي عليه الصلاة والسلام، ولولا توفيق الله له في هذه الاستشارة لما حصل له هذا العلم وهذا البيان في هذا الأمر الذي سمعه من النبي عليه الصلاة والسلام.

قال: «وقد جئت أستشيرك» وهذا يستفاد منه أن الواجب استشارة أهل العلم، لا يستشار كل أحد، ولا يستشار طلبة العلم، وإنما يستشار الأكابر، خاصة الأمور العظيمة التي تتعلق بالدماء والقتال والأمن والخوف، الله جلّ وعلا يقول في القرآن: ﴿وَإِذَا جَاءَهُمْ أَمْرٌ مِنَ الْأَمْنِ أَوِ الْخَوْفِ أَذَاعُوا بِهِ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَى أُولِي الْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنْبِطُونَهُ مِنْهُمْ وَلَوْ لَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ لَاتَّبَعُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [النساء: ٨٣] ، قال: ﴿لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنْبِطُونَهُ مِنْهُمْ﴾ وهؤلاء هم العلماء الأكابر الذين رسخت أقدامهم في العلم وعظم تمكنهم فيه، وطال وقوي باعهم فيه تحصيلًا وتعليمًا ودعوة وإفتاءً، فهؤلاء هم الذين يرجع إليهم، مع أن كثيرًا من أهل الأهواء يخدّل عن إتيان العلماء الأكابر وربما نقرّ منهم بوصفهم بالأوصاف التي تجعل الشاب لا يقبل على العلماء الأكابر ثم يذهب يستفتي المتهورين ممن لا علم لهم ولا فقه لهم في دين الله تبارك وتعالى. قال: «قد جئت أستشيرك»

فقال: ((فهل لك من أم؟)) قلت: نعم، قال: ((فالزمها فإن الجنة تحت رجلها)) ؛ إذا كان مبتغاك الجنة والثواب والأجر، مثل ما قال النبي صلى الله عليه وسلم للأول: ((فتبتغي الأجر من الله؟)) إذا كانت مبتغى الإنسان الأجر والثواب من الله سبحانه وتعالى يلزم قدمي والديه فثمة الجنة.

قال: ((فالزمها فإن الجنة تحت رجلها)) وهذا فيه أن برّ الوالدين باب من أبواب دخول الجنة، وفيه الثواب العظيم والأجر الجزيل، كيف لا ! وهو حق عظيم قرنه الله سبحانه وتعالى بحقه في غير ما آية من القرآن الكريم.

قال رحمه الله تعالى :

١٩٣ - وعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رجلاً قال: «يا رسول الله من أحق الناس بحسن صحبتي؟» قال ((أملك)). قال ثم من؟ قال: ((أملك)). قال ثم من؟ قال: ((أملك)). قال: ((أبوك)) أخرجاه.

قال: وعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رجلاً قال: «يا رسول الله من أحق الناس بحسن صحبتي؟» أي من أولاهم باللطف وحسن المعاملة وطيب الملاقاة والأسلوب الجميل في الحديث والمعونة والمساعدة.

قال: ((أَمْك)) قال ثم من؟ قال: ((أَمْك)). قال ثم من؟ قال: ((أَمْك)) ، ((ثم أدناك أدناك)) كما جاء في بعض الروايات. قال: ((أَمْك)) كررها ثلاثاً؛ وهذا فيه أن حق الأم مضاعف وأعظم، وذلك أن الإحسان الذي نال هذا الابن من جهة الأم هو أعظم ما يكون ولا يقارن بإحسان أحد من الناس، ﴿حَمَلَتْهُ أُمُّهُ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا وَحَمَلُهُ وَفَصَالُهَا ثَلَاثُونَ شَهْرًا﴾ [الأحقاف: ١٥] . بعض العلماء يقولون: هذا التكرار ((أَمْك ثم أَمْك ثم أَمْك)) راجع إلى هذه الأمور الثلاثة ﴿حَمَلَتْهُ أُمُّهُ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا وَحَمَلُهُ وَفَصَالُهَا ثَلَاثُونَ شَهْرًا﴾ ، الحمل وشدته، والوضع شدته، والرضاعة وشدتها؛ هذه الأمور الثلاثة ما حصلت لك من أي أحد إلا من الأم، هذا الإحسان العظيم والجهد الجهد والتعب العظيم لم يحصل ، ثم بعد ذلك اشتركت مع الوالد في التربية وربما نصيبها من تربيتك ورعايتك أعظم من نصيب الوالد، لكن هذه الأمور الثلاثة الحمل والوضع والرضاعة هذه كلها تُلحق الأم من الشدة والتعب والجهد العظيم ما لا يعلمه إلا الله سبحانه وتعالى ، تسعة أشهر حملاً في بطنها وما يصحب الحمل من آلام وأوجاع وتعب وأمراض وقلة نوم إلى غير ذلك، ثم يأتي بعد ذلك شدة الوضع والولادة والطلق والمعاناة التي تجدها المرأة عند الولادة، ثم بعد ذلك الرضاع عامين كاملين، هذه الأمور الثلاثة لم تحصل من أحد ، وتجده الإنسان عندما يحسن إليه أحد الأشخاص إحساناً لا يقارن بإحسان الوالدين ماذا يقول؟ يقول: "والله فلان من الناس أسرني بإحسانه"، والأم ألم تأسرك بإحسانها؟! هذا الذي ذكره الله سبحانه وتعالى، يقول: أسرني بإحسانه، وتجده يتلطف معه ويكرمه ويتواصل معه يقول: أسرني بإحسانه؛ كان عندي أمر عظيم جداً ويسر الله لي هذا الشخص فساعدني في هذا الأمر أو خلصني من هذه المشكلة ، أسرني بإحسانه ، ألم تأسرك أَمْك بإحسانها؟! وهل يقارن إحسان أي أحد من الناس بإحسان الأم؟!

ولهذا قال: «من أحق الناس بحسن صحبتي؟» قال ((أَمْك)). قال ثم من؟ قال: ((أَمْك)) قال ثم من؟ قال ((أَمْك)) هذا التكرار له معنى ؛ لأن الأم قدّمت لك ما لم يقدمه أحد من الإحسان والرفق واللطف، وبذلت من المعاناة والجهد، أعطتك من صحتها، بل أعطتك من غذائها، الرضاعة التي تكون من الأم هي من جسم الأم ومن صحة الأم ومن غذاء الأم، فقدّمت الأم لولدها شيئاً عظيماً ولكن كثيراً من الأبناء إذا شب وقوي عوده تنكّر للإحسان ونسي الجميل وعامل أمّه بالمعاملة الغليظة الشديدة، نسأل الله العافية والسلامة! ولا يكون حظّ أمّه منه مثل حظ زملائه، حظها أعظم الحظوظ فلا يجعله مساوياً لحظ زملائه، بل لزملائه الحظ الأحسن والأكمل من حظ أمه! مؤثراً لهم عليها، وفيّاً معهم في حساب حقوقها وواجبه نحوها.

قال ((أَمْك)). قال ثم من؟ قال: ((أَمْك)) قال ثم من؟ قال: ((أَمْك)) ، وهذا الحديث من اللطائف الجميلة صدر به البخاري رحمه الله تعالى كتابه «الأدب المفرد»، وأول باب في كتاب «الأدب المفرد» برّ الوالدين ؛ وهذه لفظة جميلة، لأن الكتاب كتاب الأدب ويفصل فيه أنواع الآداب، وكأنه

يعطيك رسالة من أول ما تقرأ الكتاب أن جميع هذه الآداب التي ستقرأها في هذا الكتاب من أوله إلى آخره أحق الناس بها وأولاهم بها الوالدان، وللاّم من ذلك الدرجة الأعلى.

قال رحمه الله تعالى :

١٩٤ - وللبخاري عن ابن عمرو رضي الله عنهما مرفوعاً: ((الكبائر الإِشراك بالله، وعقوق الوالدين وقتل النفس، واليمين الغموس)).

قال: وللبخاري عن عبدالله بن عمرو رضي الله عنهما مرفوعاً أي إلى النبي عليه الصلاة والسلام: ((الكبائر الإِشراك بالله)) أي بتسوية غيره به في حقوقه سبحانه وتعالى ، فهذه أعظم الكبائر وأظلم الظلم، كما قال الله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ﴾ [النساء: ٤٨] ، وهو الذنب الذي لا يُغفر إن مات عليه صاحبه، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ﴾ .

((وعقوق الوالدين)) ؛ والعقوق : من العق وهو القطع. عقوق الوالدين: أي الإساءة إليهما والتضييع لحقوقهما. وعقوق الوالدين الذي هو ضد البرّ جاء قريباً في هذا الحديث للإِشراك بالله ؛ مما يدل على خطورة العقوق وأنه من أكبر الكبائر، ومعدود في أكبر الكبائر، مقروناً بالإِشراك بالله سبحانه وتعالى.

قال: ((وقتل النفس)) أي التي حرم الله إلا بالحق. النفس المعصومة ﴿وَلَا تَقْتُلُوا أَنْفُسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا

بِالْحَقِّ﴾ [الأنعام: ١٥١]

((واليمين الغموس)) واليمين الفاجرة اليمين الكاذبة ، ومرّر في هذه اليمين بابّ خاص عند المصنف رحمه الله تعالى.

قال رحمه الله تعالى :

باب ذكر القطيعة

وقول الله تعالى: ﴿وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلَّا الْفَاسِقِينَ﴾ (٢٦) الَّذِينَ يَتَّقُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ أُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ [البقرة: ٢٦-٢٧].

قال: «بابُ ذكر القطيعة» والمراد بالقطيعة: أي قطيعة الرحم ، والرحم: هم أقارب الإنسان، ومن يربطه بهم النسب، بدءًا بالأبوين وما علا ، والأبناء والأعمام والأخوال.

قال رحمه الله تعالى : وقول الله تعالى: ﴿وَمَا يُضِلُّ بِهِ﴾ الضمير عائد إلى المثل المضروب ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَسْتَحْيِي أَنْ يَضْرِبَ مَثَلًا﴾ [البقرة: ٢٦] .

قال ﴿وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلَّا الْفَاسِقِينَ﴾ ثم ذكر صفات الفاسقين. والفسق: هو الخروج عن الطاعة.

فذكر الله سبحانه وتعالى من صفات الفاسقين: ﴿الَّذِينَ يَتَّقُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ أُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ وصفهم بثلاث صفات، وختم ذلك ببيان خسراهم في الدنيا والآخرة، ومن هذه الثلاث الصفات ما يخص هذه الترجمة وهو قوله : ﴿وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ﴾ هذه من صفات الخاسرين في الدنيا والآخرة: قطع ما أمر الله سبحانه وتعالى به أن يوصل، ومن أعظم ذلكم الرحم.

قال رحمه الله تعالى :

١٩٥ - ولهما عن جبير بن مطعم رضي الله عنه مرفوعاً: ((لا يدخل الجنة قاطع رحم)).

قال: ولهما عن جبير بن مطعم رضي الله عنه مرفوعاً: ((لا يدخل الجنة قاطع رحم))؛ وهذا فيه دلالة ظاهرة أن قطيعة الرحم من الكبائر، لأن نفي دخول الجنة لا يكون إلا فيما هو كبير، قال: ((لا يدخل الجنة قاطع رحم)) ونفي دخول الجنة لا يكون في صغائر الذنوب وإنما يكون في الكبائر ، ومثله دخول النار أو اللعن أو السخط أو الغضب أو نفي الإيمان؛ كل هذه لا تكون إلا فيما هو كبير، فالحديث فيه دلالة ظاهرة على أن قطيعة الرحم من جملة الكبائر.

ونفي دخول الجنة هنا ليس نفي تأييد للدخول، لكن فيه بيان أن من كان قاطعاً للرحم ليس أهلاً لدخول الجنة مباشرة، بل عنده هذا الجرم العظيم الذي لا يؤهله لدخول الجنة مباشرة، بل هو عرضة لعقوبة الله سبحانه وتعالى.

قال رحمه الله تعالى :

١٩٦ - ولهما عن أبي هريرة رضي الله عنه مرفوعاً: ((إن الله تعالى خلق الخلق، حتى إذا فرغ منهم قامت الرحم فقالت: هذا مقام العائد بك من القطيعة، قال: نعم ، أما ترضين أن أصل من وصلك، وأقطع من

قطعك؟ قالت: بلى، قال: فذلك لك)) ، ثم قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: اقرأوا إن شئتم: ﴿فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ تَوَلَّيْتُمْ أَنْ تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَتَقَطَّعُوا أَرْحَامَكُمْ﴾ الآية [محمد: ٢٢] .

قال: ولهما أي البخاري ومسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه مرفوعاً: ((إن الله تعالى خلق الخلق، حتى إذا فرغ منهم)) أي أكمل خلق الخلق وتقدير المخلوقات.

((قامت الرحم فقالت: هذا مقام العائذ بك من القطيعة)) هذا: أي هذا القيام مقام العائذ بك: أي مقام الملتهج إليك والمعتصم بك، لأن الاستعاذة التجاء إلى الله عز وجل واعتصام به سبحانه وتعالى. ((قالت: هذا مقام العائذ بك)) أي المستعيز بك ((من القطيعة)) أي قطيعة الرحم. فالرحم استعاذت بالله سبحانه وتعالى من قطيعة الرحم.

((قال: نعم)) أي أعادها الله سبحانه وتعالى.

((أما ترضين أن أصل من وصلك وأقطع من قطعك؟ قالت: بلى)) أي رضيت بذلك. فاستعاذت به من القطيعة فأعادها سبحانه وتعالى، وأعطاهها هذا العطاء؛ أن يصل من وصلها وأن يقطع من قطعها. وهذا يستفاد فيه: فضل صلة الرحم، وأن الواصل لرحمه يصله الله سبحانه وتعالى، وصلة الله له تتضمن الإكرام والإنعام واللفظ والإحسان والمثوبة العظيمة، وأن قاطع الرحم يقطعه الله سبحانه وتعالى، وهذه القطيعة تتضمن عقوبة الله سبحانه وتعالى له على هذه القطيعة.

((قال: فذلك لك)) أي أعطى الله سبحانه وتعالى الرحم ذلك.

ثم قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: اقرأوا إن شئتم ﴿فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ تَوَلَّيْتُمْ أَنْ تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَتَقَطَّعُوا أَرْحَامَكُمْ﴾ (٢٢) أُولَئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعَمَّى أَبْصَارَهُمْ ﴿ [محمد: ٢٢-٢٣] .

سبحانك اللهم وبحمدك ، أشهد أن لا إله إلا أنت ، أستغفرك وأتوب إليك .

اللهم صلِّ وسلِّم على عبدك ورسولك نبينا محمد وآله وصحبه أجمعين.



شرح كتاب الكبائر

لشيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب رحمه الله

من الدرس ٣١ إلى الدرس ٣٤

شرح الشيخ عبد الرزاق بن عبد المحسن البدر حفظهما الله تعالى

١٤٤١/٠٢/٠١ هـ

الدرس الحادي والثلاثون

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله ربّ العالمين، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأشهد أن محمداً عبده ورسوله، صلى الله وسلم عليه وعلى آله وأصحابه أجمعين. أمّا بعد:

قال شيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب رحمه الله تعالى في كتابه الكبائر :

باب أذى الجار

وقول الله تعالى: ﴿وَالْجَارِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَالْجَارِ الْجُنُبِ وَالصَّاحِبِ بِالْجَنبِ﴾ الآية [النساء: ٣٦].

قال رحمه الله تعالى : «باب أذى الجار» أي أن ذلك من الكبائر ، وسيأتي في حديث النبي صلى الله عليه وسلم قسمه عليه الصلاة والسلام بالله أنه لا يؤمن من لا يأمن جاره بوائقه. والبوائق كما ذكر رحمه الله : الغوائل والشُرور. وهذا فيه أن من يؤذي جاره يكون بذلك ارتكب كبيرة من الكبائر ، لأن الإيمان لا يُنفى إلا فيما هو كبير . والقاعدة في هذا الباب أن نفي الإيمان إما أن يكون في ترك واجب أو فعل محرم .

والشريعة جاءت ببيان حق خاص للجار، وذلك أن الجار لجاره به صلة ورؤية متكررة، وكلُّ منهما يكاد يكون مطلع على كثير من أحوال جاره وأموره، ويتكرر منهم اللقاء، وربما أيضاً احتاج الجار إلى معونة جاره، ولا سيما في غيبة له أو في سفر أو حال مرض أو نحو ذلك، فجاءت الشريعة بالتأكيد على هذا الحق العظيم حق الجار، حتى إنّ الوصاية بالجار جاءت متكررة، وتكرر من جبريل الوصية للنبي صلى الله عليه وسلم بالجار، حتى قال عليه الصلاة والسلام: ((ما زال جبريل يوصيني بالجار حتى ظننت أنه سيورثه)) أي يجعل له حظ ونصيب من الميراث؛ من كثرة ما تكررت الوصية بالجار من جبريل للنبي الكريم صلوات الله وسلامه وبركاته عليه، وهذا يبين أن الجار له حق عظيم.

وحق الجار يتخلص في الجملة في أمرين:

● الأمر الأول: الإحسان إليه ما استطاع الإنسان، وباب الإحسان واسع؛ من حُسن لقاء، وإلقاء سلام، وطيب معاملة، ولطف في الحديث، وسؤال عن الحال، وعيادة له إذا مرض، إلى غير ذلك من أبواب الإحسان وهي كثيرة جداً.

● الأمر الثاني: كفّ الأذى وأن يأمن جاره بوائقه؛ لا يكون منه تجاه جاره أي اعتداء لا بقول ولا بفعل ، سواء منه مباشرة أو بأشياء تكون في بيته تؤذي جاره من أصوات عالية أو روائح كريهة أو غير ذلك من الأمور.

فالجار في الشريعة حقه عظيم جدًّا، والواجب على المسلم أن يتقي الله سبحانه وتعالى في جاره، وأن يقوم بأداء هذا الحق طاعةً لله سبحانه وتعالى.

قال: **وقول الله تعالى ﴿وَالْجَارِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَالْجَارِ الْجُنُبِ وَالصَّاحِبِ بِالْجَنبِ﴾** [النساء: ٣٦] ؛ هذا فيه أن الجار أو الجيرة لها أحوال : قد يكون انضاف إلى الجيرة قرابة ، وقد تكون جيرة ليس معها قرابة ، وقد تكون جيرة بإسلام أو بدون إسلام ، وأعظم الجار حقًا هو الجار المسلم القريب ، ثم يليه الجار المسلم ليس قريبًا للإنسان، ثم يليه الجار غير المسلم. ومما حفظته الشريعة في حق الجار حتى لو كان غير مسلم يحسن إليه الإنسان ويرى من معاملاته ما جاءت به هذه الشريعة؛ لعل هذه المعاملة تكون سببًا لهدايته ودخوله في هذا الدين، ومما جاء في «الأدب المفرد» للإمام البخاري أن ابن عمر ذبح شاة وطلب من غلامه أن يذهب بشيء منها لجار يهودي، فقيل له: اليهودي؟ يعني يتأكدون هل يقصد فلان؟ قال: نعم، سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: ((ما زال جبريل يوصيني بالجار حتى ظننت أنه سيورثه))، وهذا فقه من ابن عمر رضي الله عنهما أن الحديث يتناول حتى غير المسلم، وأن هذا الإحسان نوع من أنواع التأليف لقلبه لعل الله سبحانه وتعالى يجعل ذلك سببًا لهدايته للإسلام.

قال رحمه الله تعالى :

١٩٧ - عن أبي شريح رضي الله عنه مرفوعًا: ((من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم ضيفه، ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليحسن إلى جاره، ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيرًا أو ليصمت)) أخرجه.

قال: عن أبي شريح رضي الله عنه مرفوعًا ((من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم ضيفه، ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليحسن إلى جاره، ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيرًا أو ليصمت)) ؛ الشاهد منه الجملة الوسطى وهي قوله: ((ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليحسن إلى جاره)) ؛ وذكر الإيمان بالله واليوم الآخر باعتبار أن الله سبحانه وتعالى هو المقصود بالعبادة الملتجأ إليه المتقرب بهذه الأعمال إليه سبحانه رجاء ثوابه وخوف عقابه ، وذكر اليوم الآخر باعتبار أن اليوم الآخر يوم الجزاء والحساب والمعاقبة على الأعمال، ﴿لِيَجْزِيَ الَّذِينَ أَسَاءُوا بِمَا عَمِلُوا وَيَجْزِيَ الَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْحُسْنَى﴾ [النجم: ٣١] ، وهذا الإيمان بالله واليوم الآخر يقتضي من المؤمن أن يؤدي الأعمال الصالحة التي أمره الله سبحانه وتعالى بها، وأن يتجنب الأعمال المحرمة التي نهى الله سبحانه وتعالى عنها، فالإيمان يقتضي ذلك، ولهذا قال: ((ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر

فليحسن إلى جاره)) أي مما يقتضيه هذا الإيمان أن يحسن المرء إلى جاره. والإحسان إلى الجار كما قدمت يتناول جوانب المعاملة الكريمة من إلقاء السلام، وطلاقة الوجه، وحسن المعاملة ، وغير ذلك من أبواب الإحسان، ويتناول أيضًا كف الأذى عن الجار.

قال رحمه الله تعالى :

١٩٨ - ومسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه مرفوعًا: ((والله لا يؤمن، والله لا يؤمن، والله لا يؤمن))، قيل: من يا رسول الله ؟ قال: ((الذي لا يأمن جاره بوائقه)). البوائق: الغوائل والشرور.

قال رحمه الله تعالى: ومسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه مرفوعًا: ((والله لا يؤمن، والله لا يؤمن، والله لا يؤمن)) كررها هكذا مباشرة بدأ عليه الصلاة والسلام ثلاث مرات يقسم بالله على نفي الإيمان عمن فعل وصفًا معينًا أو عملاً معينًا، لكن لم يذكره.

قال ((والله لا يؤمن، والله لا يؤمن، والله لا يؤمن)) ، قال الصحابة «من يا رسول الله؟» من هذا الذي أقسمت هذه الأقسام الثلاثة بالله أنه لا يؤمن؟ والتكرار هذا للتأكيد وبيان عظم الأمر وخطورته، وهو من تمام نصح النبي الكريم صلوات الله وسلامه وبركاته عليه.

قال: ((الذي لا يأمن جاره بوائقه))، قال الشيخ : «البوائق: الغوائل والشرور» أي لا يأمن جاره أذاه، تعديه، لأن فيه غلظة، فيه سلاطة لسان، وفيه عنف وفيه شدة، وفيه اعتداء ظلم، وجاره يعيش بجواره وهو دائم خائف منه وخائف من عدوانه وظلمه له.

النبي صلى الله عليه وسلم قال فيمن كان كذلك: ((والله لا يؤمن)) ، ونفي الإيمان لا يكون في أمر صغير، نفي الإيمان لا يكون إلا فيما هو كبير. والقاعدة - كما أشرت - عند أهل العلم أن نفي الإيمان لا يكون إلا في ترك واجب أو فعل محرم، وهذا يدل على أن من يؤذي جاره ارتكب كبيرةً استحق بها أن يُنفي عنه الإيمان.

والإيمان المنفي هنا ليس أصل الإيمان، وليس أيضًا كماله المستحب، وإنما الإيمان المنفي هو الإيمان الواجب الذي من تركه عرّض نفسه للعقوبة ، فهو عرضة لعقوبة الله سبحانه وتعالى، يكون وقع في ظلم عرّض نفسه بوقوعه فيه للعقوبة، لأن الإيمان الواجب إذا كمل المرء يسلم من العقوبة، لأن العقوبة إنما تكون على ترك الواجب ، أما المستحب إذا ترك لا عقوبة فيه، يثاب إذا فعله ولا يعاقب على تركه، أما ترك الواجب فإنه يعاقب عليه. فمن لم يأمن جاره بوائقه أي غوائله وشروره فإنه يكون بذلك ارتكب أمرًا كبيرًا عرّض نفسه فيه للعقوبة، عقوبة الله جلّ وعلا، ولهذا استحق أن يُنفي عنه الإيمان.

قال رحمه الله تعالى :

١٩٩ - وللترمذي وحسنه عن ابن عمرو رضي الله عنهما مرفوعاً: ((خير الأصحاب عند الله خيرهم لصاحبه، وخير الجيران عند الله خيرهم لجاره)).

قال: وللترمذي وحسنه عن ابن عمرو عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما مرفوعاً: ((خير الأصحاب عند الله خيرهم لصاحبه، وخير الجيران عند الله خيرهم لجاره)) ؛ وهذا الحديث فيه شهادة من النبي صلى الله عليه وسلم بالخيرية لمن كان خيراً مع جيرانه، وكان خيراً مع أصحابه وأصدقائه.

يقول : ((خير الأصحاب عند الله خيرهم لصاحبه)) ؛ خيرهم لصاحبه: أي في لطفه معهم وحسن ملاقاته لهم وحسن تعامله معهم واتقائه الله سبحانه وتعالى فيهم، فمن كان كذلك فهو خير الأصحاب، وأيضاً إذا كان هذا تعامله مع جيرانه فهو خير الجيران. فهذه شهادة من النبي عليه الصلاة والسلام لمن كان خيراً مع جيرانه وخيراً مع أصحابه بأنه خير الأصحاب عند الله وخير الجيران عنده.

قال رحمه الله تعالى :

٢٠٠ - وفي المسند وصحيح الحاكم عن ابن عمر رضي الله عنهما مرفوعاً: ((أما أهل عَرَصَةٍ أصبح فيهم امرؤ جائع فقد برئت منه ذمة الله)).

٢٠١ - وفي صحيح الحاكم عن ابن عباس رضي الله عنهما مرفوعاً: ((ليس المؤمن الذي يشيع وجاره جائع)). وفي رواية: ((لا يؤمن من بات شعبان وجاره طاوياً)).

قال: وفي المسند وصحيح الحاكم عن ابن عمر مرفوعاً: ((أما أهل عَرَصَةٍ أصبح فيهم امرؤ جائع فقد برئت منه الذمة)) ومثله أيضاً في الحديث الذي بعده: ((ليس المؤمن الذي يشيع وجاره جائع)). وفي رواية: ((لا يؤمن من بات شعبان وجاره طاوياً)) ؛ وهذا فيه أن من حق الجار إن عليم من حال جاره مثل هذا الوصف الذي جاء في الحديث أنه طاوي -أي يبيت لا يجد طعاماً يتغذى به ويتغذى به أولاده، ثم يكون جاره إلى جنبه ييات شعبان وعنده فضل زاد، أمور زائدة عن حاجته ويعلم هذا من حال جاره ولا يبالي بذلك فهذا لا شك من نقص إيمانه وضعف دينه ، وإلا فإن الإيمان يحقق في أهله من معاني الأخوة والتكافل والتعاون ما لا يوجد في غير هذا الدين العظيم، وفي الحديث: ((مثل المؤمنين في توادهم وتراحمهم مثل الجسد الواحد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالحمى والسهر)) ، فكيف يكون شخص يكون جاره إلى جنبه جائعاً يبيت طاوياً لا يجد شيئاً يأكله، وهو قد شبع وعنده فضل زادٍ ليس محتاجاً إليه، ومع ذلك يترك جاره ولا يبالي بشدته وحاجته!! .

فجاء في هذا الحديث: ((برئت منه الذمة)) ، وفي الحديث الذي بعده قال: ((ليس المؤمن)) ، وفي الرواية الأخرى قال: ((لا يؤمن)) ؛ وهذا يدل على أن هذا حق من حقوق الجار إذا كان بهذه الشدة وبهذه الحاجة أن يتفقد جأزه حاله وأن يعطيه من فضل الزاد الذي عنده.

قال رحمه الله تعالى :

باب الاستخفاف بأهل الفضل

٢٠٢ - عن ابن عمرو رضي الله عنهما مرفوعاً: ((ليس منا من لم يرحم صغيرنا، ولم يعرف شرف كبيرنا)) صححه الترمذي.

قال: «باب الاستخفاف بأهل الفضل» أي أن هذا من الكبائر. والاستخفاف بهم: أي الانتقاص من قدرهم والاحتقار لهم والازداء والتقليل من شأنهم ومكانتهم.

قال: «باب الاستخفاف بأهل الفضل» والمراد بأهل الفضل: أي أهل الديانة والإيمان والعلم والعبادة والمحافظة على طاعة الله سبحانه وتعالى ، فهؤلاء لهم حق بما آتاهم الله عز وجل من فضل وما آتاهم الله من علم وما آتاهم الله من عبادة ووقفهم له من طاعة؛ لهم حق، وإذا كان الإنسان يستخف بمن كان هذا شأنه ويهزأ أو يحتقر أو ينتقص فهذا من رقة الدين، لأن الدين إذا استقام لا يمكن أن يستخف بأهل الفضل في دين الله تبارك وتعالى، لكن إذا رقق دين المرء حصل منه مثل هذه الأعمال.

قال: عن ابن عمرو رضي الله عنهما مرفوعاً: ((ليس منا من لم يرحم صغيرنا، ولم يعرف شرف كبيرنا)) صححه الترمذي. وقوله «ليس منا» سبق التنبيه غير مرة أن هذا لا يأتي إلا فيما هو من الكبائر. ((ليس منا من لم يرحم صغيرنا، ولم يعرف شرف كبيرنا)) أي لم يعرف للكبير حقه، ولهذا جاء في بعض الروايات: ((ولم يوقر كبيرنا)) ، وهو بمعنى قوله: ((ولم يعرف شرف كبيرنا)).

قال رحمه الله تعالى :

٢٠٣ - ولأبي داود عن أبي موسى مرفوعاً: ((إن من إجلال الله : إكرام ذي الشبهة المسلم، وحامل القرآن غير الغالي فيه والجافي عنه، وإكرام ذي السلطان المقسط)) حديث حسن.

قال: ولأبي داود عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه مرفوعاً أي إلى النبي عليه الصلاة والسلام قال: ((إن من إجلال الله)) أي من تعظيم الله سبحانه وتعالى ((إكرام ذي الشبهة المسلم، وحامل القرآن غير الغالي فيه،

والجافي عنه، وإكرام ذي السلطان المقسط)) ؛ فذكر عليه الصلاة والسلام في هذا الحديث أن من تعظيم الله سبحانه وتعالى إكرام هؤلاء الثلاثة الذين جاء ذكرهم في هذا الحديث .

ووجه كون إكرام هؤلاء هو من إجلال الله: لأن الله سبحانه وتعالى أمر بإكرامهم ودعا إلى إكرامهم، فإكرامهم يعد طاعة الله، وامتنالاً لأمره، وإكراماً لمن أمر الله سبحانه وتعالى بإكرامه. فمن إجلاله سبحانه وتعالى أن يُكرم هؤلاء. ■ وإكرامهم أولاً : يكون بمعرفة أقدارهم وشرفهم وفضلهم ومكانتهم .

■ ثم الإحسان إليهم بما تهيأ له من وجوه الإحسان.

■ ثم الأمر الثالث: البُعد عن الإساءة إليهم بأي نوع من الإساءة.

ولهذا أورده في هذه الترجمة «بابُ الاستخفاف بأهل الفضل» ؛ لأن هؤلاء حقهم الإكرام، فمن استخف بهم أين إجلال الله سبحانه وتعالى المأمور به أو المطلوب في هذا الحديث؟!

قال: ((إنَّ من إجلال الله إكرام ذي الشبهة المسلم)) ؛ ذي الشبهة المسلم: من شاب في الإسلام، هذا الذي شاب في الإسلام له حق، وشيئته هذه في الإسلام أمرٌ له توقيره ، له احترامه ، له شرفه ، له مكانته ، ينبغي ألا يُجهل وألا يستهان به، بل ينبغي أن يُعرف هذا الحق. ذو الشبهة المسلم من شاب في الإسلام حتى ولو لم يكن قريباً ولو لم يكن جاراً تراه ماراً في الطريق له حق عظيم ، فمن إكرامك له وإحسانك إليه ولطفك في التعامل معه والتقدير له هذا من إجلال الله سبحانه وتعالى، لأن النبي صلى الله عليه وسلم عدَّ إكرام ذي الشبهة المسلم من إجلال الله تبارك وتعالى.

الأمر الثاني الذي هو من إجلال الله : ((إكرام حامل القرآن غير الغالي فيه والجافي عنه)) ؛ وهذا الحديث فيه تفسير وبيان لمن هو حامل للقرآن حقيقة ، لأن ليس كل من حفظ القرآن يعد حاملاً له حقيقة ، فهذا الحديث جاء فيه بيان من الذي يُعد حاملاً للقرآن حقيقةً بقوله: ((غير الغالي فيه، ولا الجافي عنه))؛ أي أنَّ من الناس من يحمل القرآن أي حفظاً ويغلو، يكون عنده غلو، ومن ذلك ما ذكره النبي عليه الصلاة والسلام عن الخوارج قال: ((يقرؤون القرآن لا يجاوز حناجرهم)) عندهم غلو في الدين، وذكر عليه الصلاة والسلام أنهم يقرؤون القرآن ، حتى قال للصحابه: ((تحقرون صلاتكم مع صلاتهم، وقراءتكم مع قراءتهم)) ، فمن الناس من يحمل القرآن حفظاً ويكون غالي فيه. ومنهم من يحمل القرآن حفظاً ويكون جافي عنه ؛ الأول عنده غلو، والآخر عنده جفاء، تجده مثلاً حافظاً للقرآن عن ظهر قلب ومضيع للصلوات مفرط فيها، ينام عن الصلاة المكتوبة، والنبي عليه الصلاة والسلام ذكر في الحديث الصحيح وهو في البخاري في الذين رآهم عليه الصلاة والسلام يُعذبون، فذكر منهم : رجل يؤتى بالصخرة وتلقى على رأسه حتى يتهشم ثم يعود كما كان وتلقى عليه، قال: ((هؤلاء الذين ينامون عن الصلاة المكتوبة)) ، فيوجد من يحفظ القرآن وينام عن الصلاة المكتوبة ويفرط في الصلاة المكتوبة، وربما يرتكب أيضاً كبائر أو يترك أيضاً واجبات أخرى، هذا يُعدّ جافياً.

ولهذا أهل القرآن هم أهل وصفين: العلم والعمل. أهل القرآن هم العاملون به العاملون بما دلّ عليه ، ولهذا جاء في الحديث أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: ((يؤتى بالقرآن وأهله الذين يعملون به، تقدمه سورة البقرة وآل عمران)) فالشاهد قوله: ((الذين يعملون به)) قيده بهذا القيد، وهنا قيّده بالبعد عن الغلو والبعد عن الجفاء. وبهذا يعلم أن من كان من أهل القرآن، يحمل القرآن وفي صدره كتاب الله عزّ وجلّ ومعروف بديانته وعبادته ومحافظته على طاعة الله، وأعظم ما يكون في هذا الباب المحافظة على الصلوات الخمس في بيوت الله، لأن هذه الصلوات محك يُميز فيه الناس، فإذا عُرف بديانته وعبادته له حق عظيم على الناس ، حيث عدّ النبي صلى الله عليه وسلم إكرام من كان كذلك من إجلال الله سبحانه وتعالى، قال: ((وحامل القرآن غير الغالي فيه، والجاني عنه)).

والثالث قال: ((وإكرام ذي السلطان المقسط)) ومعنى المقسط: أي العدل في حكمه، فذي السلطان المقسم أي الحاكم العادل، فإكرامه أيضًا من إجلال الله.

فهؤلاء ثلاثة ذكر النبي عليه الصلاة والسلام أهمية إكرامهم والإحسان إليهم، وأن إكرامهم من إجلال الله سبحانه وتعالى، وكلهم يتناولهم قول المصنف في الترجمة «أهل الفضل» ، هؤلاء كلهم أهل فضل ؛ الذي هو ذو الشبهة المسلم، وحامل القرآن غير الغالي فيه والجاني عنه، والسلطان المقسط ، هؤلاء كلهم أهل فضلٍ ينبغي أن يُعرف فضلهم وأن يُعرف قدرهم، وأن يحرص الإنسان على إكرامهم ومعرفة أقدارهم ويتجنب الاستخفاف بهم أو الانتقاص من أقدارهم ومكانتهم.

قال رحمه الله تعالى :

٢٠٤ - ولأحمد بسند جيد: ((ليس منا من لا يجلُّ كبيرنا ولا يرحم صغيرنا ولا يعرف لعالمنا حقه)) انتهى.

قال: ولأحمد بسند جيد: ((ليس منا من لم يجلُّ كبيرنا ولا يرحم صغيرنا)) وهذا المعنى تقدم في حديث ابن عمر الذي ساقه في أول هذه الترجمة .

وفي هذا الحديث زيادة: ((ولا يعرف لعالمنا حقه)) وهذا فيه وجوب معرفة حق العلماء، الذين لهم قدم صدق في العلم، ورسوخ فيه، ونصح للأمة تفقيهاً وتعليمًا ودعوةً وتبصيرًا بدين الله تبارك وتعالى، هؤلاء لهم حق على الأمة وحق على المسلمين، أن تُعرف أقدارهم، تُعرف مكانتهم، يُعرف هؤلاء أهل الفضل فضلهم وقدرهم ومكانتهم، والنبي صلى الله عليه وسلم بيّن في هذا الحديث أنّ من لم يعرف للعالم حقه -أي قدره ومكانته ومنزلته- ليس منا، وعرفنا أن مثل هذا النفي لا يكون إلا فيما هو كبير. فأهل العلم الذين أكرمهم الله عزّ وجلّ بالعناية بالعلم والتضلع فيه ومن ثمّ تعليم الأمة وتفقيه الناس ودعوتهم للخير والنصح لهم وأداء هذه الأمانة وهذا الواجب هؤلاء

لهم حق على الأمة أن يُكرموا، وأن يُعرف قدرهم، وأن تُعرف مكانتهم، وأن يُعرف فضلهم، أن يُتجنب الإساءة إليهم بأي نوع من أنواع الإساءة، ولهذا أورده المصنف رحمه الله في هذه الترجمة التي هي «الاستخفاف بذوي الفضل» ؛ أي أن من كان كذلك حقه على الأمة أن يُكرم فكيف يستخف به؟! حقه على الأمة أن يُحسن إليه فكيف يُنتقص من مكانته وقدره؟! ولهذا عدّ النبي صلى الله عليه وسلم من لم يعرف قدر العلماء ولا مكانة العلماء بأنه ليس منا.

وفي خضم الفتن التي تعصف بالناس وتدخلهم في متاهات الأهواء التي ما أنزل الله سبحانه وتعالى بها من سلطان، ومعلوم أن الهوى إذا أصيب به المرء أعماه عن الحق، وقد جاء عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه أنه قال: «أخوف ما أخاف عليكم طول الأمل واتباع الهوى؛ أما طول الأمل فيشغل عن الآخرة، وأما اتباع الهوى فيُعمي عن الحق». ففي خضم الفتن والاستشراف لها واتباع الأهواء في مثل ذلك يُنتقص العلماء الذين يقولون قول الحق مما يخالف أهواء الناس في تلك الفتن، فيُنتقص العلماء ويُردى بهم ويُتهكم بعلمهم من أناس ليس لهم في العلم أي مكانة وليس لهم منه حظ، وينتقصون من علماء أكابر وأئمة أجلاء لا لشيء إلا لأن فتاواهم أو أقوالهم تخالف أهواء هؤلاء، ولهذا يبدؤون باللمز والطعن والتسفيه لهؤلاء العلماء والانتقاص من أقدارهم، فأين هؤلاء من قول النبي عليه الصلاة والسلام: ((ليس منا من لا يعرف لعالمنا حقه))!! العالم يجب أن يُعرف له مكانته وأن يُعرف له قدره، لكن من أصيب بشيء من الأهواء أخذ ينتقص من أهل العلم، ويتهكم بهم، ويقلل من مكانتهم وشأنهم، ويطعن فيهم، ويصرف الناس عن الاستفادة منهم، وهذا الاستخفاف والازدراء لأهل العلم وأهل الفضل -كما دل هذا الحديث- ليس بالأمر الهين؛ ولهذا قال عليه الصلاة والسلام: ((ليس منا من لم يعرف لعالمنا حقه)).

سبحانك اللهم وبحمدك ، أشهد أن لا إله إلا أنت ، أستغفرك وأتوب إليك .
اللهم صلّ وسلّم على عبدك ورسولك نبينا محمد وآله وصحبه أجمعين.

الدرس الثاني والثلاثون

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله ربّ العالمين، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأشهد أن محمّداً عبده ورسوله، صلّى الله وسلّم عليه وعلى آله وصحبه أجمعين. أمّا بعد:

قال شيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب رحمه الله تعالى في كتاب الكبائر :

بابُ إغضاب الزوج

وقول الله تعالى: ﴿ فَالصَّالِحَاتُ قَانِتَاتٌ حَافِظَاتٌ لِّلْغَيْبِ ﴾ [النساء: ٣٤]

قال رحمه الله: «بابُ إغضاب الزوج» ؛ الزوج له مكانة جاءت الشريعة ببيانها، وله منزلة جاءت الشريعة بوجوب حفظها، وأن له على زوجته حقًا عظيمًا وواجبًا كبيرًا، بل إن الأمر كما جاء في الحديث لا تؤدي المرأة حق ربها ما لم تؤدِّ حق زوجها؛ لعظم هذا الحق، بل ليس عليها حقٌ بعد حق الله عزَّ وجلَّ وحق رسوله صلى الله عليه وسلم أوجب من حق الزوج، فهو حقٌ عظيم ورب العالمين يسألها عنه يوم القيامة، وهو من أوجب الحقوق عليها بعد حق الله تبارك وتعالى وحق رسوله عليه الصلاة والسلام ، فكيف يصح منها أو يستقيم منها أن تُغضب زوجها وله هذا الحق!! وإنما الواجب عليها أن تعرف مكانته ومنزلته وقدره وأن تؤدي حقه طاعةً لله عزَّ وجلَّ ، فإن قيامها بحقه من جملة الثَّرب التي تكون سببًا لدخولها الجنة مثل صلاتها وصيامها، كما قال النبي عليه الصلاة والسلام: ((إذا صلَّت المرأة فرضها، وصامت شهرها، وأدت زكاة مالها، وأطاعت بعلها قيل لها ادخلي الجنة من أيِّ أبوابها شئت)) ، فذكر طاعة البعل مع هذه الطاعات العظيمة الموجبة لدخول الجنة ؛ مما يدل على عظم شأن هذا الحق، بل جاء في الحديث قال عليه الصلاة والسلام: ((إنما هو جنتك ونارك)) ؛ مما يدل على عظم هذا الحق وجسامته وأن الواجب على المرأة أن تتقي الله عزَّ وجلَّ في بعلها. وإغضاب الزوج ذنب ليس بالهين، بل جاء عليه الوعيد الشديد في نصوص عديدة ساق المصنف رحمه الله تعالى شيئًا منها، كما أنه رحمه الله تعالى ساق من النصوص ما يدل على عظم مكانة الزوج وعظم حقه على زوجته.

قال رحمه الله تعالى: وقول الله تعالى ﴿ فَالصَّالِحَاتُ قَانِتَاتٌ حَافِظَاتٌ لِّلْغَيْبِ بِمَا حَفِظَ اللَّهُ وَاللَّاتِي تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ فَعِظُوهُنَّ وَاهْجُرُوهُنَّ فِي الْمَضَاجِعِ وَاصْرَبُوهُنَّ ﴾ [النساء: ٣٤] ؛ وهذه الآية الكريمة ذكر الله سبحانه وتعالى فيها أن حال النساء مع الأزواج على قسمين:

- قسمٌ وصفهنَّ جلَّ وعلا بالصلاح والقنوت وكونهنَّ حافظات للغيب بما حفظ الله.
- والقسم الثاني وصف المرأة في ذلك بأنها ناشز، أي غير مطيعة وعاصية، وليست بمبالية بحق الزوج ولا مكترثة بذلك، وذكر العلاج لمن كانت كذلك؛ أنه أولاً يبدأ معها بالمناصحة والتذكير بالله والتخويف، اتقي الله، توعظ وتذكَّر وتُخَوِّف، وإذا لم ينفع فيها الوعظ تُهجر في المضجع، وإن لم ينفع فيها لا هذا ولا هذا يُنتقل إلى الضرب غير المبرح الذي لا يجرح البدن ولا يكسر العظم وإنما يكون الغرض منه التأديب لها.

وقوله جلَّ وعلا: ﴿ فَالصَّالِحَاتُ ﴾ ؛ الصلاح: يعني لزوم طاعة الله عز وجل بعبادته وامتنال أمره والاستقامة على شرعه ودينه سبحانه وتعالى إخلاصًا له واتباعًا لسنة نبيه الكريم صلوات الله وسلامه عليه.

﴿قَاتَاتُ﴾ ؛ قيل في معنى قانتات: أي مداومات على طاعة الله وعبادته، لأن القنوت: هو المداومة على الطاعة. وقيل في معنى قانتات -وهذا المعنى قد جاء عن ابن عباس وغير واحد من السلف-: أي مطيعات لأزواجهن، لأن من معنى القنوت الطاعة، المطيعات لأزواجهن: أي هن في طاعة دائمة للأزواج، بعيدات عن النشوز والعصيان وإغضاب الزوج.

وقوله: ﴿حَافِظَاتُ لِّلْغَيْبِ بِمَا حَفِظَ اللَّهُ﴾ أي أنها حافظة لزوجها بحيث إنها تصون فراشه، حافظة لفرجها، وحافظة لمال زوجها، وحافظة لبيته ولولده.

وقوله: ﴿بِمَا حَفِظَ اللَّهُ﴾ فيه أن هذا بتوفيق الله سبحانه وتعالى وتيسيره ومعاونته جلّ وعلا، وأن المرأة لا تكون في شيء من ذلك إلا إذا أعانها الله سبحانه وتعالى ووفقها وسدّدها.

قال رحمه الله تعالى :

٢٠٥ - عن أبي هريرة رضي الله عنه مرفوعاً: ((والذي نفسي بيده ما من رجل يدعو امرأته إلى فراشه فتأبى عليه إلا كان الذي في السماء ساخطاً عليها حتى يرضى عنها زوجها))، وفي رواية: ((إلا لعنتها الملائكة حتى تصبح)) أخرجاه.

قال: عن أبي هريرة رضي الله عنه مرفوعاً أي إلى النبي صلى الله عليه وسلم : ((والذي نفسي بيده)) يقسم صلوات الله وسلامه وبركاته عليه بالله ربّ العالمين.

((ما من رجل يدعو امرأته إلى فراشه)) أي لقضاء وطره وشهوته.

((فتأبى عليه إلا كان الذي في السماء ساخطاً عليها حتى يرضى عنها زوجها)) وجاء في بعض الروايات أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: ((وباتت وزوجها عليها غضبان)) ، وأما إذا عذرهما وسامحها ولم يبت غضباناً عليها فلعلها تخرج بهذه الرواية من هذه العقوبة وهذا الوعيد، أما إذا أغضبته وفي الغالب إذا جاء وهو يريد قضاء شهوته تحركت فيه الشهوة ثم أعرضت عنه وتأبّت وانشغلت وامتنعت فإن هذا يغضبه غضباً شديداً ويبيت وهو غضبان فتكون عرضةً لهذا الوعيد.

وذكر هنا «سخط الله» وذكر في الرواية الثانية «لعن الملائكة»، والسخط واللعن لا يكون إلا في الكبائر، أي أنها تبيت ليلتها تلك على كبيرة استحققت بها سخط الربّ سبحانه وتعالى، واستحققت بها اللعنة من الملائكة حتى تصبح، وهذا لا يكون إلا فيما هو كبير.

قال: ((إلا كان الذي في السماء ساخطاً عليها حتى يرضى عنها زوجها)) ولاحظ أيضاً هذا القيد «حتى يرضى عنها زوجها» إن كان الزوج سامح ورضي من أول الأمر وعفا عنها فلعل ذلك تسلم به من هذه العقوبة، وإن بات وهو غضبان فإن سخط الله عليها حتى يرضى الزوج ولعنة الملائكة - كما في الرواية - عليها حتى تصبح. وتقيد هذا بالليل باعتبار أن الحاجة إلى هذا الأمر في الغالب تكون في الليل، لكن لو قُدِّر أنه احتاج زوجته في النهار لهذا الأمر وامتنعت استحقت هذا السخط واستحقت هذا اللعن من الملائكة ما دام زوجها غضباناً عليها حتى يرضى عنها ، لكن ذكر الليل هنا باعتبار أنه الغالب أن هذا الأمر تكون الحاجة إليه أو الرغبة فيه في الليل غالباً.

وقوله: ((إلا كان الذي في السماء)) هذا فيه إثبات العلو لله سبحانه وتعالى على خلقه، كقوله تعالى: ﴿الَّذِينَ هُمْ عَنْ آلِهَتِهِمْ كَارِهُونَ﴾ [الأنعام: ٩٩] أي من العلو ؛ لأن السماء تارة تطلق ويراد بها المبنية السماوات السبع، ﴿وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ﴾ [الذاريات: ٤٧] ، وتارة تطلق ويراد بها مطلق العلو، ﴿أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً﴾ [الأنعام: ٩٩] أي من العلو ؛ لأن المطر ينزل من السحاب، والسحاب ليس في السماء المبنية وإنما في السماء الذي هو العلو. فإذا أريد بالسماء المبنية فإن «في» بمعنى «على» ، ﴿الَّذِينَ هُمْ عَنْ آلِهَتِهِمْ كَارِهُونَ﴾ وهذا ((إلا كان الذي في السماء)) أي الذي على السماء ، وإن أريد بالسماء مطلق العلو ف«في» على بابها. وكما قدمت ذكر سخط الرب سبحانه وتعالى وذكر لعنة الملائكة كما في الرواية الأخرى دليل على أن هذا الصنيع من المرأة إذا وجد معدود في كبائر الذنوب.

قال رحمه الله تعالى :

٢٠٦ - وعنه مرفوعاً: ((لو كنت امرأةً أحداً أن يسجد لأحدٍ لأمرت المرأة أن تسجد لزوجها)) صححه الترمذي .

قال: وعنه أي عن أبي هريرة رضي الله عنه مرفوعاً إلى النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : ((لو كنت امرأةً أحداً أن يسجد لأحدٍ لأمرت المرأة أن تسجد لزوجها)) ؛ وهذا فيه تبيان لعظم حق الزوج على زوجته، وقال ذلك عليه الصلاة والسلام على إثر مجيء أحد الصحابة وسجوده للنبي عليه الصلاة والسلام، لأنه رأى الناس في الشام يسجدون للأساقفة فجاء وسجد للنبي عليه الصلاة والسلام ، فنهاه عن ذلك وقال عليه الصلاة والسلام: ((لو كنت امرأةً أحداً أن يسجد لأحدٍ لأمرت المرأة أن تسجد لزوجها)) بياناً لحق الزوج ، ولكن نهي عن ذلك عليه

الصلاة والسلام وإن كان هذا سائغ عند من قبلنا وهو سجود تحية وليس سجود عبادة، ﴿وَخَرُّوا لَهُ سُجَّدًا﴾ [يوسف: ١٠٠] هذا السجود تحية وليس سجود عبادة ، تحية مثل مد اليد للمصافحة ومثل المعانقة هذا كله تحية، والسجود هنا في هذا الحديث: ((لو كنت أمرًا أحدًا أن يسجد لأحد)) السجود هنا تحية ليس سجود عبادة، ومن قال إن السجود هنا المراد به سجود العبادة أبعد تمامًا الفهم ، لا يمكن أن يقول النبي صلى الله عليه وسلم: ((لو كنت أمرًا أحدًا أن يسجد -أي عبادة- لأحد لأمرت المرأة أن تسجد لزوجها)) لا يمكن أن يقول ذلك، وإنما المراد بالسجود هنا سجود التحية، مثل المصافحة ومثل المعانقة، يسجد أي تحية لمن سجد له ، أما أن يكون المراد يسجد أي عبادة ما يمكن أبدًا أن يكون النبي صلى الله عليه وسلم يقول ذلك، وإنما المراد بالسجود هنا سجود التحية.

والنبي عليه الصلاة والسلام نهي ذلك: لأن شريعته من أقوى الشرائع المنزلة في سد الذرائع وحمى حمى التوحيد، وشريعة النبي صلى الله عليه وسلم جمعت بين أمرين: أنها سمحة في الأحكام ، وحنيفية في العقائد ؛ وكل أمر يكون ذريعة ويخشى أن يكون يخلل بالتوحيد أو يفضي إلى الشرك فإن النبي صلى الله عليه وسلم نهي عنه حماية لحمى التوحيد ، وإن لم يكن الأمر الذي نهي عنه في ذاته شرًا لكن نهي عنه لما يخشى أن يكون مفضيًا إليه من الإشراك بالله، فحمى حمى التوحيد وسد كل ذريعة تفضي إلى الإشراك بالله، صلوات الله وسلامه وبركاته عليه؛ فبين التوحيد أتم بيان وحمى حماه، وحذر من الشرك أشد التحذير ونهى عن كل أمر أو ذريعة تفضي بالناس إلى الشرك بالله ، ونهى عن هذا السجود -سجود التحية- هو نهي عن أمر في النهي عنه حماية لحمى التوحيد وسد لذريعة من الذرائع التي قد تفضي بالناس إلى الإشراك بالله سبحانه وتعالى.

والشاهد من هذا الحديث: عظم حق الزوج وعظم ما له من حق على زوجته، حتى إن النبي صلى الله عليه وسلم قال في بيان عظم هذا الحق: ((لو كنت أمرًا أحدًا أن يسجد لأحد لأمرت المرأة أن تسجد لزوجها)). قال رحمه الله تعالى :

باب أذى الصالحين

وقول الله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ بَغَيْرِ مَا اكْتَسَبُوا فَقَدْ احْتَمَلُوا بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُّبِينًا﴾ [الأحزاب: ٥٨]

قال: «باب أذى الصالحين» أي أن ذلك من الكبائر . والصالحون: هم من عُرفوا بين الناس باستقامتهم على طاعة الله؛ يحافظون على الصلوات الخمس، يحرصون على المكث في المساجد، ذكر الله، قراءة القرآن، الصيام، العبادة، لا يُعرف منهم دخول في الذنوب والكبائر والآثام، حافظًا لوقته، يعرفه الناس بذلك، والحكم إنما هو على

ظاهر الإنسان، باطنه بينه وبين الله سبحانه وتعالى، لكن من استقام ظاهره فهو من الصالحين ؛ من الصالحين : أي فيما يظهر للناس، وأما السرية هذه بينه وبين الله سبحانه وتعالى، ولنا الظاهر والله يتولى السرائر، لكن إذا عُرف الرجل باستقامته وعبادته ومحافظته على بيوت الله والصلاة فيها وعنايته بذكر الله وقراءة القرآن ونحو ذلك من المعاني ولا يُعرف عنه الدخول في الكبائر والذنوب والمعاصي، هذا حقه عظيم جدًا على الناس من الاحترام والتوقير والمعرفة بقدره ومكانته، فكيف يصل الأمر بأحد أن يؤذي الصالح!! إما استهزاءً أو ذمًا أو وقعةً أو تحكّمًا أو سخرية، ولا يكون الاستهزاء بالصالحين إلا من الفسقة، هم الذين يعبث الشيطان بعقولهم إلى أن يكونوا كذلك؛ يهزؤون بالصالحين ويسخرون منهم، ﴿إِنَّ الَّذِينَ أَجْرَمُوا كَانُوا مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا يَضْحَكُونَ﴾ (٢٩) وَإِذَا مَرُّوا بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ (٣٠) وَإِذَا انْقَلَبُوا إِلَىٰ أَهْلِهِمْ انْقَلَبُوا فَكِهِينَ ﴿[الطغافين: ٢٩-٣١] ، فلا يكون مثل ذلك إلا من الفسقة، وإلا فالصالح له مكانه وله احترام وله قدر ومنزلة في القلوب.

أورد رحمه الله تعالى قول الله عز وجل: ﴿وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ بَغَيْرِ مَا اكْتَسَبُوا﴾؛ يؤذونهم هذا يتناول كل نوع من الأذى ، سواء كان أذى قوليًا أو أذى فعليًا.

﴿الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ﴾ أي من عُرفوا بالصلاح والاستقامة والعناية بعبادة الله.

﴿بَغَيْرِ مَا اكْتَسَبُوا﴾ أي بغير جرم ارتكبه أو بغير ذنب اقترفوه.

﴿فَقَدْ احْتَمَلُوا بُهَاتَانًا وَإِثْمًا مُّبِينًا﴾ احتملوا: أي على ظهورهم ذنب عظيم وإثم كبير حملوه على ظهورهم بهذا البهتان الذي كان منهم بوقيعتهم وسخريتهم واستهزائهم وتحكمهم بالصالحين.

يقول الحافظ ابن كثير رحمه الله -له كلام جميل جدًا في تفسير هذه الآية الكريمة من سورة الأحزاب- يقول رحمه الله تعالى: «وقوله ﴿وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ بَغَيْرِ مَا اكْتَسَبُوا﴾ أي: ينسبون إليهم ما هم بُراء منه لم يعملوه ولم يفعلوه، ﴿فَقَدْ احْتَمَلُوا بُهَاتَانًا وَإِثْمًا مُّبِينًا﴾ وهذا البهت البين -أي حقيقته- أن يحكى أو ينقل عن المؤمنين والمؤمنات ما لم يفعلوه على سبيل العيب والتنقص لهم، ومن أكثر من يدخل في هذا الوعيد الكفر بالله ورسوله، ثم الرافضة الذين يتنقصون الصحابة ويعيبونهم بما قد برأهم الله منه ويصفونهم بنقيض ما أخبر الله عنهم؛ فإن الله عز وجل قد أخبر أنه قد رضي عن المهاجرين والأنصار ومدحهم، وهؤلاء الجهلاء الأغبياء يسبونهم ويتنقصونهم ويذكرون عنهم ما لم يكن ولا فعلوه أبدًا، فهم في الحقيقة منكوسو القلوب ، يذمون الممدوحين ويمدحون المذمومين» اهـ كلامه رحمه الله تعالى.

قال رحمه الله تعالى :

٢٠٧ - وعن أبي جبير رضي الله عنه: أن أبا سفيان أتى على سلمان وصهيب وبلال في نفر فقالوا: ما أخذت سيوف الله مأخذها من عنق عدو الله، فقال أبو بكر: أتقولون هذا لشيخ قريش وسيدهم؟ فأتى النبي صلى الله عليه وسلم فأخبره فقال: ((يا أبا بكر لعلك أغضبتهم، لئن كنت أغضبتهم فقد أغضبت ربك))، فقال: يا إخواناه لعلني أغضبتكم؟ فقالوا: لا، يغفر الله لك يا أخي . رواه مسلم.

قال رحمه الله تعالى: وعن أبي جبير رضي الله عنه: «أن أبا سفيان أتى على سلمان وصهيب وبلال في نفر» أي في نفر كانوا معه. أتى: أي مرّ، مرّ على هؤلاء سلمان وصهيب وبلال. وكان هذا الحجيء لأبي سفيان قبل إسلامه، وهو كافر في الهدنة التي كانت بعد صلح الحديبية، وهو إنما أسلم عام الفتح، ففي فترة الهدنة أتى أبو سفيان على سلمان وصهيب وبلال، وهؤلاء الثلاثة كلهم من الموالى؛ سلمان الفارسي، وصهيب الرومي، وبلال الحبشي، فأتى عليهم في نفر، أي في نفر كان معهم، ومعلوم أن هؤلاء كبار قريش كانوا شديدي الأذى للمسلمين وخاصة لضعفة المسلمين، ونالوا من هؤلاء أذى عظيمًا، فلما مرّ بهم أبو سفيان وقت كونه كافرًا قالوا هذه الكلمة .

قالوا: «ما أخذت سيوف الله مأخذها من عنق عدو الله» أي لم تستوفِ سيوف الله حقها ونصيبها من عنق عدو الله، أي من عُرف بالعداوة بأقواله وفعاله وشدته، ما أخذت سيوف الله حقها أي حظها ونصيبها لم تستوفِ، بمعنى بقيت رؤوس لكبار من أعداء الله تبارك وتعالى، ومثل هذا الكلام يقولونه كنوع من التنفيس والغضب، وقد مرّ بهم هذا الرأس من رؤوس الكفار، وكان ذلك كما قدّمت قبل إسلامه في فترة الهدنة.

فقال أبو بكر رضي الله عنه - قد سمعهم يقولون هذا- : «أتقولون هذا لشيخ قريش وسيدهم؟» يعني تقولون هذا لشخص هذه مكانته؟! ولعل أبا بكر رضي الله عنه وأرضاه قال هذه الكلمة تأليفاً لقلب أبي سفيان، واستدراجاً له لعله يُقبل على هذا الدين لما يسمع مثل هذه الكلمات التي قد تُدخل للقلب شيء من الراحة أو الرغبة، فلعله قال ذلك تأليفاً لقلبه، قال: «أتقولون هذا لشيخ قريش وسيدهم؟»

«فأتى النبي صلى الله عليه وسلم فأخبره» ؛ فأتى النبي : أي أبا بكر رضي الله عنه فأخبره أي بالذي حصل، قال إنهم قالوا وقال إنني قلتُ، ذكر له قول سلمان وصهيب وبلال في حق أبي سفيان، وذكر جوابه الذي قاله.

فقال: ((يا أبا بكر لعلك أغضبتهم، لئن كنت أغضبتهم -أي سلمان وصهيب وبلال- إن كنت أغضبتهم فقد أغضبت ربك)) هنا قف تأمل ملياً؛ الذي قال هذه الكلمة لو نظرت فيها مقارنة بكلمات كثيرة من التي تأتي على ألسن كثير من الناس في حق عدد من الصالحين ما تقارن بهذه الكلمة، ولعل أبا بكر قال هذه -مثل ما قدمت- تأليفاً لهذا الرجل، لعل الله سبحانه وتعالى يشرح صدره بسماع مثل هذه الكلام للإسلام، ومع ذلك قال النبي صلى الله عليه وسلم لأبي بكر: ((لعلك أغضبتهم، لئن كنت أغضبتهم فقد أغضبت ربك)).

وهذا موضع الشاهد من الحديث هنا في هذه الترجمة ((لئن كنت أغضبتهم فقد أغضبت ربك)) ؛ فأبي جناية تكون عندما يكون الإنسان يؤذي الصالحين !! إذا كان النبي صلى الله عليه وسلم قال في حق خير الأمة أبي بكر رضي الله عنه في مكانته العظيمة ومنزلته العلية عندما قال هذه الكلمة، وهو إنما قالها في الغالب تأليفاً لقلب أبي سفيان، ليس له غرض في إغضاب هؤلاء، وليس له غرض في أذى هؤلاء، وليس له تقصّد في أذى هؤلاء الصالحين سلمان وبلال وصهيب، وإنما قالها لما سمعهم يقولون هذه الكلمة تأليفاً لقلب ذلك الرجل ، ليس له غرض في أن يغضب هؤلاء أو أن يسيء إليهم، ومع ذلك قال النبي صلى الله عليه وسلم قال لأبي بكر هذه الكلمة مع ما ذكرت من أمور سبقت فكيف بمن يتقصّد أذى الصالحين!! وتكون كلماته صريحة في آذاهم والطعن فيهم وسبهم وشتيمهم والاستهزاء بهم؛ أي جُرم هذا؟! والنبي صلى الله عليه وسلم يقول: ((لئن كنت أغضبتهم فقد أغضبت ربك)).

ثم انظر مسارعة الصحابة في الخير وعظم خشيتهم من الله، ومجانبتهم لكل ما يغضب الله ويسخط الله سبحانه وتعالى، لما قال النبي صلى الله عليه وسلم لأبي بكر ما قال، رجع إليهم وقال: «يا إخوتاه» يناديهم بهذا اللطف وهذا الكلام الجميل «يا إخوتاه لعلّي أغضبتكم؟» يطلب السماح إن كان قد أغضبهم أو صدر منه كلام فيه إيذاء لهم. «لعلّي أغضبتكم؟» يقول ذلك معتذراً، إن كان القول الذي قاله آذاهم أو أغضبهم فهو يطلب منهم السماح والعفو عن ذلك.

فقالوا: «لا»، أي الكلام الذي قلته لم تغضبنا فيه، يعني لعلهم أدركوا أنه ما قصد بهذا الكلام أن يؤذيهم. وهذا أيضاً يبين المكانة التي كان عليها هؤلاء في حمل الكلام على أحسن محمل، أحياناً الإنسان يسمع الكلام فيحمله على أسوأ محمل، وإذا حمله على أحسن محمل والتمس له تراتح نفسه ولا يكون فيها الغضب. قالوا: «لا» يعني لم تغضبنا ولعله وقع في نفوسهم المعنى الذي أشرت إليه؛ أنه إنما قال ذلك يريد أن يتألف هذا الرجل لعل الله سبحانه وتعالى يهديه للإسلام.

«يغفر الله لك يا أُخَيَّ» ؛ بضم الهمزة وضبطت أيضاً في بعض المصادر بفتحها.

«يغفر الله لك يا أُخَيَّ» بالتصغير على وجه التحبب والتلطف والملاطفة والرفق . «لا يا أُخَيَّ»: يعني ما حصل منك ذلك، ودعوا له بهذا الدعوة «يغفر الله لك». ولو قرئت هذه الجملة بالوصل «لا يغفر الله لك» تكون صورتها نفى المغفرة، وليس الدعاء بالمغفرة، لكن إذا قال: «لا» يعني ما أغضبتنا، «لا ، يغفر الله لك» ما يصلها، لأن وصلها تكون فيه صورة الكلمة دعاءً بنفي المغفرة، لا بحصول المغفرة. فقالوا: «لا» جواب قوله: هل أغضبتكم؟ قالوا لا أي لم تغضبنا، ثم أتبعوا ذلك بالدعاء «يغفر الله لك»، ثم أتبعوا ذلك بالتلطف في الخطاب بقولهم: «يا أُخَيَّ».

ويُنقل عن أبي بكر رضي الله عنه أنه كان ينهى عن مثل هذا؛ يعني أن يكون بالدعاء مسبوق بأداة النفي ، مثل أن يقول الإنسان يسأله: هل فعلت الشيء الفلاني؟ يقول: "لا عافاك الله" ، هل أدت الأمر الفلاني؟ يقول: "لا رحمك الله"، هل كذا، يقول: "لا غفر الله لك" . صورة الكلمة أنه ينفي عنه أن يغفر الله له أو أن يرحمه أو أن يعافيه، فيُنقل عنه أنه قال: «قل: عافاك الله، لا تزد»، وبعض أهل العلم يقول: إذا كان ولا بد فيضيف الواو، مثلاً يقول: لا، ويغفر الله لك، " لا، ويرحمك الله" ، " لا، ويعافيك الله" ، لكن أيضاً قول هؤلاء الأجلة رضي الله عنهم يفيد أن المرء إن قال هذه الكلمة ولم يأت بها موصولة، "لا غفر الله لك" ، "لا رحمك الله" ، لم يأت بها موصولة هكذا، وإنما قال: "لا"، أجاب على السؤال، وأتبع الإجابة على السؤال بسكتة تفصل بين الإجابة على السؤال ثم الدعاء الذي بعده، كأن يقول مثل ما في هذه الجملة التي أمامنا «لا» أي لم تغضبنا «يغفر الله لك يا أخِي» نطقها بهذه الطريقة واضح الفصل بين النفي العائد لما سبق، والدعاء الذي أُتبع بعد هذا النفي.

الشاهد أن إغضاب الصالحين أمر ليس بالهين، ومن يتأمل في هذه القصة يجد فيها أعظم عبرة، ها هو صديق الأمة خيرها أفضلها بعد النبي عليه الصلاة والسلام، بل هو أفضل الناس بعد الأنبياء رضي الله عنه وأرضاه، ومع ذلك قال له النبي صلى الله عليه وسلم: ((لئن كنت أغضبتهم فقد أغضبت ربك)) ؛ فإغضاب الصالحين أمر ليس بالهين أبداً، والواجب على العبد أن يتقي الله عزّ وجلّ في عباد الله صالحين، لا يغضبهم بأي شيء من الإغضاب، ويحرص على إعفاف لسانه وصيائته من أي شيء يكون فيه إغضاب للصالحين والإيذاء لهم، يبتعد عن ذلك أشد البعد، ويتقي الله عزّ وجلّ في ذلك.

ثم إذا كان انضاف إلى صلاح الرجل حق آخر إضافةً إلى صلاحه ، مثل أن يكون الصالح أباً أو أمّاً أو جدّاً، يعني بعض الناس في البيوتات عندهم آباء عُبَاد لله ما يُعرفون إلا بالصلاح والدعاء والذكر، وأبنائهم ما يتقون الله فيهم، يغضبونهم دائماً، ويُسمعون آباءهم من الكلمات القاسية والكلمات المغضبة والكلمات المزعجة الشيء الكثير، ما يتقون الله سبحانه وتعالى في آبائهم، فإذا كان الإنسان إذا أغضب الصالح أيّاً كان حتى ولو لم يكن قريباً فقد أغضب الله ؛ فكيف بمن يغضب الصالح إذا كان أباه أو كانت أمه أو قريباً له من خال أو عم أو نحو ذلك؟! أو جار، هذا أيضاً له حق آخر مَرَّ معنا عند المصنف رحمه الله تعالى قريباً.

فالشاهد أن إيذاء الصالحين معدود في جملة الكبائر، وهو من جملة الأمور التي تغضب الله وتسخطه جلّ في علاه. قال رحمه الله تعالى :

٢٥٨ - وللترمذي وحسنه عن أبي بكر رضي الله عنه مرفوعاً: ((من أهان السلطان أهانه الله)).

قال: وللترمذي وحسنه عن أبي بكر رضي الله عنه مرفوعاً أي إلى النبي عليه الصلاة والسلام ((من أهان السلطان أهانه الله)) ؛ وإهانة السلطان يراد بها: إيذاء السلطان ، والوقعة فيه، والتقليل من مكانته في نفوس

الناس، والحرص على إسقاط منزلته في القلوب، وتحريض الناس على الافتيات عليه، والخروج وعدم السمع والطاعة، والتقليل من مكانته في القلوب؛ يعمل على ذلك بين الناس فله هذه العقوبة جزاء وفاقاً، ((أهان الله)) أي كانت عقوبته عند الله عز وجل أن يهينه، لأن السلطان الواجب أن يجمع الناس عليه، وأن يكون أمر الناس جماعةً واحدة مع إمامهم، والنقص إذا وُجد يعالج بالطرق الشرعية، أما أن يكون الإنسان هذه طريقته في التعامل مع السلطان؛ إهانة السلطان والحرص على انتقاصه، والتقليل من مكانته في القلوب، وملاً القلوب عليه حقاً وحنقاً وعدم معرفة بمكانته فإن هذا مما يوجب إهانة الله سبحانه وتعالى لمن كان كذلك، والله يقول: ﴿وَمَنْ يُهِنِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ مُكْرِمٍ﴾ [الحج: ١٨].

سبحانك اللهم وبحمدك ، أشهد أن لا إله إلا أنت ، أستغفرك وأتوب إليك .
اللهم صلّ وسلّم على عبدك ورسولك نبينا محمد وآله وصحبه أجمعين.

الدرس الثالث والثلاثون

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله ربّ العالمين، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأشهد أن محمداً عبده ورسوله، صلى الله وسلم عليه وعلى آله وأصحابه أجمعين. أمّا بعد:
قال شيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب رحمه الله تعالى في كتاب الكبائر :

باب ما جاء في الأمانة والخيانة فيها وتفسير الأمانة

وقول الله عز وجل: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا﴾ [النساء: ٥٨] ، وقوله: ﴿إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا﴾ الآية [الأحزاب: ٧٢] .

قال المصنف رحمه الله تعالى: «باب ما جاء في الأمانة والخيانة فيها وتفسير الأمانة» ؛ هذه الترجمة عقدها رحمه الله لبيان مكانة الأمانة في دين الله تبارك وتعالى، والتحذير من ضدها وهي الخيانة، والناس بين أمين وخائن . وفي هذه الترجمة أيضاً تفسير الأمانة وبيان شمولها لقيام العبد بحقوق الله سبحانه وتعالى على عباده، فالصلاة أمانة،

والصيام أمانة، والزكاة أمانة، وجميع الطاعات التي أمر الله سبحانه وتعالى عباده بها كلها أمانة، وكذلك فيما يتعلق بحقوق العباد، فكل ذلك داخل في الأمانة، والناس في ذلك كله بين أمين وخائن .

وأورد رحمه الله أوّل ما أورد قول الله جلّ وعلا: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا﴾ [النساء: ٥٨] ، وقول الله عز وجل: ﴿إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا﴾ [الأحزاب: ٧٢] ؛ وهاتان الآيتان فيهما عظم شأن الأمانة ووجوب أدائها والوفاء بها، وأن الأمانة تتناول الدين كله؛ حقوق الله سبحانه وتعالى على العباد وأن الواجب على العبد أن يؤديها وافية تامة كما ائتمنه الله سبحانه وتعالى على ذلك، وتتناول أيضاً حقوق العباد؛ من بر للوالدين وصلة للأرحام وحقوق للجار، وكذلك رعاية لحقوق الناس وحفظ لودائعهم، إلى غير ذلك من الأمور التي تتعلق بحقوق العباد، فكل ذلك داخل في الأمانة.

والناس في القيام بهذه الأمانة التي عرضها الله على السماوات والأرض والجبال ، وهو عرض تخيير وليس عرض تحميم، خيرها ولم يحتّم عليها، فأبين أن يحملنها، لأنّ وجدن الحِمْلَ عَظِيماً جَدّاً، وخيّرهن الله عزّ وجلّ فأبين أن يحملنها وحملها الإنسان، الجبال لم تحمل هذه الأمانة، والسماوات لم تحملها، والأرض لم تحملها، وحملها هذا الإنسان.

وانقسم الناس تجاه هذه الأمانة من حيث حملهم لها وعدم حملهم إلى أقسام ثلاثة:

- قسم : حملها في الظاهر؛ متظاهراً بحملها وأنه من أهلها وأنه من المحافظين عليها، ولكنه في الباطن خائن للأمانة، يُظهر ما لا يُبطن، يُظهر حمل الأمانة ويُبطن الخيانة وعدم حمل الأمانة.
- والقسم الثاني : من لم يحمل الأمانة لا ظاهراً ولا باطناً.
- والقسم الثالث: من حمل الأمانة في ظاهره وباطنه، وفي سره وعلمه .

والله سبحانه وتعالى ذكر هذه الأقسام الثلاثة في الآية التي تلي هذه الآية، قال: ﴿إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا﴾ (٧٢) لِيُعَذِّبَ اللَّهُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ وَيَتُوبَ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ﴿[الأحزاب: ٧٢ - ٧٣] .

هذه هي الأقسام الثلاثة في حمل الأمانة أو عدم حملها:

- القسم الأول : أهل النفاق ؛ وهو من أظهر وتظاهر بحمل الأمانة، لكنه في الباطن خائن يُظهر ما لا يبطن.
- والقسم الثاني من الناس : من ضيّع الأمانة ظاهراً وباطناً، وهم أهل الشرك .
- والقسم الثالث : من أكرمه الله سبحانه وتعالى بحفظ الأمانة والقيام بها والعناية بها ظاهراً وباطناً سرّاً وعلناً.

قال رحمه الله تعالى :

روى البيهقي عن ابن مسعود رضي الله عنه قال: «القتل في سبيل الله يكفر كل شيء إلا الأمانة والدين ؛ يؤتى بالبعد يوم القيامة وإن قُتل في سبيل الله فيقال له: أَدِّ أمانتك، فيقول: أي ربّ كيف وقد ذهبت الدنيا؟ فيقال: انطلقوا به إلى الهاوية ، فينطلقون به إليها فتُمثل له أمانته كهيأتها يوم دُفعت إليه فيراها ويعرفها، فيهوي في أثرها حتى يدركها فيحملها على منكبه، حتى إذا ظنّ أنه خارج زلّت عن منكبه فهو يهوي في أثرها أبد الآبدين. ثم قال: الصلاة أمانة ، والوضوء أمانة ، والوزن أمانة ، والكيل أمانة - وعدّد أشياء - وأشدّ ذلك الودائع»، قال: فأتيت البراء فقلت: ألا ترى إلى ما قال ابن مسعود؟ قال كذا وكذا. قال صدق ، أما سمعت الله تعالى يقول: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا﴾ [النساء: ٥٨] . قال زيد بن أسلم: «هي الصوم والغسل من الجنابة وما خفي من الشرائع».

ثم أورد رحمه الله تعالى هذا الأثر موقوفاً على عبد الله بن مسعود رضي الله عنه، وساقه الإمام رحمه الله تعالى لأن فيه تفسيراً للآية الكريمة ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا﴾ [النساء: ٥٨] وبياناً أن الأمانة لا تختص بحفظ الودائع التي أوّمن عليها الإنسان، بل إنها تتناول وتشمل الدين كله - كما سيأتي معنا في كلامه- الصلاة أمانة، والوضوء أمانة، وجميع الطاعات التي أمر الله سبحانه وتعالى عباده بها كلها أمانة ائتمن الله جلّ وعلا على القيام بها والوفاء بها وأدائها تامة وافية، إضافةً إلى حقوق العباد، فالآية الكريمة تدل على أن الأمانة تتناول وتشمل ذلك كله، وهذا الأثر -أثر ابن مسعود- مما يوضح هذا الأمر ويبيّنه، ولهذا قال رحمه الله تعالى في الترجمة: «وتفسير الأمانة»؛ فهذا الأثر فيه تفسير للأمانة وبيان لمدلولها وحقيقتها.

قال ابن مسعود رضي الله عنه: «القتل في سبيل الله يكفر كل شيء» أي يكفر ذنوب العبد «إلا الأمانة والدين» والأمانة والدين حقوق ، والحقوق إن لم يؤدّها الإنسان إلى أهلها في هذه الحياة الدنيا أدّيت يوم القيامة من حسناته، كما قال عليه الصلاة والسلام: ((لتؤدّن الحقوق يوم القيامة)) ، ويوم القيامة لا توجد دراهم ولا دنانير، وإنما يوجد حسنات وسيئات، فالحقوق تؤدى يوم القيامة، وكون المرء قاتل في سبيل الله ابتغاء وجه الله وقُتل في سبيل الله صابراً محتسباً عمله هذا يكفر ذنوبه لكن لا يكفر إذا كان عليه دين أو عنده أمانات ، هذه حقوق لا بد أن تؤدى للعباد، إن أدّيت في الدنيا وإلا اقتُص من حسنات المرء يوم القيامة، كما سيأتي توضيحه من كلام ابن مسعود رضي الله عنه.

قال: «يؤتى بالبعد يوم القيامة وإن قُتل في سبيل الله» هذا تأكيد للمعنى السابق.
«فيقال له: أَدِّ أمانتك» أي التي طُلب منك في الحياة الدنيا أو تؤديها وفرطت فيها.

«فيقول: أي رب، كيف وقد ذهبت الدنيا؟» وهذا يوضح أن يوم القيامة ما ثمت شيء من أمور الدنيا التي كان يمتلكها الإنسان من دراهم ودنانير وأموال وممتلكات كلها تنتهي في الدنيا، ولهذا جاء في حديث عبد الله بن أنيس وهو حديث صحيح أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: ((يُحْشَرُ النَّاسُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عُزْرَةً غُرْلًا بُهْمًا)) قَالُوا: وَمَا بُهْمًا؟ قَالَ: ((لَيْسَ مَعَهُمْ شَيْءٌ)) جميع الأموال والممتلكات كل أمور الدنيا لا يذهب معه شيء منها أو يدخل معه في قبره أو يكون معه في حشره ووقوفه بين يدي ربه يوم القيامة ، وفي الحديث: ((يتبع الميت ثلاثة، فيرجع اثنان ويبقى معه واحد؛ يرجع ماله وأهله ويبقى عمله)) ولهذا قال هنا: «أي رب، كيف وقد ذهبت الدنيا؟» كيف أؤدي هذه الأمانات والدنيا ذهبت؟!

«فيقال: انطلقوا به إلى الهاوية» ؛ و«الهاوية» اسم من أسماء النار ، انطلقوا به إلى الهاوية : أي إلى النار .
«فينطلقون به إليها، فتمثل له أمانته كهياتها يوم دُفعت إليه» ؛ إن كانت أموالاً أو كانت مثلاً ذهباً أو كانت غير ذلك من الأمور تمثل له كيوم دُفعت إليه فيراها ويعرفها ، يعرف أن هذه أمانة فلان، وهذه أمانة فلان، وهذه وديعة فلان.

«فيهوي في أثرها» أي في النار «حتى يدركها، فيحملها على منكبه» أي من أسفل النار ، لأنه يهوي .
«حتى إذا ظنَّ أنه خارج» أي خرج بهذه الأمانة ليعيدها لصاحبها «زَلَّتْ عن منكبه فهو يهوي في أثرها أبد الآبدين».

ثم قال: «الصلاة أمانة، والوضوء أمانة، والوزن أمانة، والكيل أمانة -وعدد أشياء- وأشد ذلك الودائع» ؛ فهنا ينبغي أن يلاحظ أن الأمانة كما تقدم بيانها وتعريفها تشمل الدين كله؛ ولهذا التوحيد وإخلاص الدين لله عز وجلّ والبراءة من الشرك أول ما يدخل في باب الأمانة وحفظها، كذلك صلاة العبد وصيامه وطاعته لله سبحانه وتعالى هذه كلها داخلية في الأمانة، ويدخل أيضاً حقوق العباد، وإذا جاء المرء مضيقاً للأمانة يوم القيامة فإن كان هذا التضيق للأمانة بلغ به حد الكفر ، مثل ما تقدم معنا في شرح الآية، كالكفار الذين لم يحملوها لا ظاهراً ولا باطناً، والمنافقين الذين تظاهروا بحملها وهم مضيقين لها في الباطن؛ فهؤلاء من أهل الخلود في النار أبد الآباد، أما إذا كان الأمر في إضاعة الأمانة دون الكفر بالله سبحانه وتعالى فإنه لا يُخلد فيها أبد الآباد، إذ لا يخلد في النار إلا المشرك كما يدل على ذلك آيات، منها قول الله سبحانه: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ

ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ﴾ [النساء: ٤٨] .

قوله: «الصلاة أمانة والوضوء أمانة والوزن أمانة والكيل أمانة» هذا واضح في تفسير الأمانة، وهو المقصود من سياق هذا الخبر هنا، فيه تفسير للأمانة وأن الأمانة تتناول حقوق الله مثل الصلاة والوضوء وغير ذلك من

العبادات، وتتناول حقوق العباد، مثل الوزن والكيل وغير ذلك من الأمور التي تتعلق بحقوق العباد. فالأمانة تتناول الدين كله.

قال: «فَأَتَيْتُ الْبِرَّ فَقُلْتُ: أَلَا تَرَى إِلَى مَا قَالَ ابْنُ مَسْعُودٍ!» يعني تعجب من الكلام الذي سمعه من ابن مسعود.

«قال: كذا وكذا» أي شرح له ما سمعه، وذكر له ما سمعه من ابن مسعود.

فقال -أي البراء- «صدق أما سمعت الله تعالى يقول: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا﴾؟»؛ مراد البراء: أن هذه الآية تدل على المعنى الذي بسطه ابن مسعود قبل قليل، وأن الأمانة تشمل هذا كله. ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا﴾؛ إن كانت الأمانات الصلاة والصيام وأنواع العبادات فالواجب أدائها لله سبحانه وتعالى مخلصاً دينه لله جلّ وعلا، وإن كانت حقوق للعباد فإن الواجب عليه أيضاً أن يؤديها وافية لا نقص فيها، لأن الله أمره بذلك.

بل قال العلماء رحمهم الله أخذاً من هذه الآية، عموم قوله ﴿إِلَىٰ أَهْلِهَا﴾ قالوا: إن وجوب أداء الأمانة وقول الله جلّ وعلا: ﴿أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا﴾ جاءت مبهمة، يعني ليست مخصصة بأمر معين، مبهمة أو مطلقة أو مرسلة؛ فتتناول بعمومها حتى الفاجر، حتى الكافر إذا كان له أمانة له حق يجب أن يؤديه العبد، وهو مؤتمن على ذلك. يقول ميمون بن مهران رحمه الله تعالى كما روى ذلك الخرائطي في كتابه «مكارم الأخلاق»: «ثَلَاثٌ تُوَدَّى إِلَى الْبِرِّ وَالْفَاجِرِ؛ الرَّحِمُ تَصْلُهَا بَرَّةٌ كَانَتْ أَوْ فَاجِرَةٌ، وَالْعَهْدُ تَفِي بِهِ لِلْبِرِّ وَالْفَاجِرِ، وَالْأَمَانَةُ تُوَدَّى إِلَى الْبِرِّ وَالْفَاجِرِ»، وهذا موضع الشاهد من كلامه قال: «والأمانة تؤدي إلى البرّ والفاجر»، وكلنا يذكر قصة النبي عليه الصلاة والسلام لما خرج من مكة عندما اشتد أذى المشركين عليه وهُمُّوا بقتله عليه الصلاة والسلام، خرج ليلاً من مكة وكان عنده ودائع لهؤلاء المشركين، لهؤلاء الذين آذوه، لهؤلاء الذين هُمُّوا بقتله، كان عنده ودائع لهم، مع هذا الأذى العظيم وكونهم هُمُّوا بقتله إلى غير ذلك لما أراد أن يخرج وكلّ عليّاً رضي الله عنه بتلك الودائع يردها واحداً واحداً لأصحابها، الناس في مثل هذا المقام في الغالب يقول: "هؤلاء ظلموني واعتدوا عليّ وفعلوا وفعلوا فلا أعيد لهم شيئاً من ذلك". فردّ جميع الودائع وكلّ عليّاً رضي الله عنه بإعادة جميع هذه الودائع لأهلها، فالأمانة حق لا بدّ أن يؤدي لصاحبه برّاً كان أو فاجرًا، مسلماً كان أو كافراً.

قال: «وقال زيد بن أسلم: هي الصوم والغسل من الجنابة وما خفي من الشرائع»؛ وهذا التفسير تفسيرٌ على طريقة معروفة عند أئمة السلف في التفسير، وهي تفسير النص ببعض أفرادهِ أو ببعض ما يدخل في معناه، بحيث يكون نص يشمل معاني كثيرة فيفسره ببعض أفرادهِ أو ببعض ما يدخل في معناه.

قال: «هي الصوم والغسل من الجنابة وما خَفِيَ من الشرائع» ، ولعل المراد بـ«ما خفي من الشرائع»: أي ما يقوم به العبد ولا يطلع عليه إلا الله سبحانه وتعالى من أعمال، فهذه أيضاً أمانة، يعني ليس قيام العبد بالواجبات الدينية إذا كان في العلن ، بل حتى ما خفي، والأعمال التي أوْتَمَنَ العبد على القيام بها بينه وبين الله يجب عليه أن يوفي هذه الأمانة كاملة غير منقوصة، حتى يكون ممن أدى الأمانة.

قال رحمه الله تعالى :

باب الولايات من الأمانة

٢٠٩ - عن أبي هريرة رضي الله عنه: أن أعرابياً سأل النبي صلى الله عليه وسلم متى الساعة؟ قال: ((إذا ضيَّعت الأمانة فانتظر الساعة))، قال: كيف إضاعتها؟ قال: ((إذا وُسِّدَ الأمر إلى غير أهله فانتظر الساعة)) أخرجه البخاري.

قال رحمه الله تعالى: «باب الولايات من الأمانة» ؛ عرفنا في الترجمة السابقة في تفسير الأمانة أنها تشمل الدين كله، فحقوق الله من صلاة وصيام وزكاة وغير ذلك هذا كله داخل في الأمانة، وأيضاً ما يتعلق بحقوق العباد . وفي هذه الترجمة يبين رحمه الله تعالى أن الولايات من الأمانة ، الولايات مثل: الإمرة مثل القضاء وغير ذلك من الولايات التي تتعلق بمصالح المسلمين وشؤونهم وأمور دينهم وإقامة عبوديتهم لله سبحانه وتعالى، هذه كلها داخلة في الأمانات، ومن قام على هذه المسؤوليات الجسيمة العظيمة فإنه مؤتمن على هذه المسؤولية ويسأله الله سبحانه وتعالى عن ذلك، وإذا كان عامة الناس كلُّ يُسأل عن نفسه، فإن أصحاب الولايات يوم القيامة يُسألون عن أنفسهم وعن رعيّتهم، ((كلكم راعٍ وكلكم مسؤول عن رعيّته)) فهذه أمانة ائتمنه الله سبحانه وتعالى عليها وسيسأله عنها يوم القيامة، ولهذا تسمى «مسؤولية» باعتبار أنه يسأل عنها يوم القيامة، ((كلكم مسؤول)) أي سيقف بين يدي الله ويسأله عما قام به في هذه الولاية التي تحملها وولَّيَها.

قال: عن أبي هريرة رضي الله عنه مرفوعاً: «أن أعرابياً سأل النبي صلى الله عليه وسلم متى الساعة؟» ؛ وهذا السؤال «متى الساعة» قد تكرر طرحه على النبي عليه الصلاة والسلام، وفي كل مرة يجيب بحسبه صلوات الله وسلامه عليه، جبريل قال له في الحديث المشهور: «أخبرني عن الساعة» أي متى الساعة؟ قال: ((ما المسؤول عنها بأعلم من السائل)) أي ليس عندي ولا عندك علم بها، علمها عند الله سبحانه وتعالى. ومرة سأل رجل السؤال نفسه قال «متى الساعة؟» فصرف النبي صلى الله عليه وسلم همه واهتمام هذا السائل إلى الاستعداد للساعة والتهيؤ قال: ((وماذا أعددت لها؟))؛ لا تشغل بالبحث متى وقتها ، ولكن انشغل بالشيء الذي أعددت له، هي آتية وإتيانها قريب لكن انظر في عملك أنت أيُّ شيء أعددت للساعة؟! أما أن يشغل الإنسان

بالتحري والسؤال وأيضًا التخمين «متى الساعة» ويبحث في ذلك وهو مضيق للعمل؛ أي شيء استفاد؟! ويوضح ذلك مثال: لو قيل لأناس إن العدو أقبل على بلدكم، فأخذ بعض الأشخاص يقول: متى يصل؟ كم باقي له من المسافة؟ ودخل في هذه الأسئلة وهو مترaxي عن العمل، والآخر هبّ مباشرة وأخذ يستعد ويتهيأ ويرتب نفسه لهذه الملاقاة، فالنبي عليه الصلاة والسلام صرف همه لما ينبغي أن يرعاه ويعتني به من تهيؤ واستعداد، والساعة آتية قادمة مقبلة، قال: ((ماذا أعددت لها؟)).

وهنا في هذا السؤال وهو السؤال نفسه ذكر النبي عليه الصلاة والسلام شيئًا من العلامات، وذكره عليه الصلاة والسلام في هذا الجواب لشيء من العلامات متضمن أيضًا لمعنى الاستعداد والتهيؤ، كأنه يحذر عليه الصلاة والسلام من أن يكون الإنسان على هذه الحال تأتية الساعة، سواء ساعته هو الخاصة أو تدركه الساعة العامة وهو مضيق للأمانة، فهذا إخبار ومتضمن في الوقت نفسه للتحذير من تضييع الأمانة.

قال: «أن أعرابيًا سأل النبي صلى الله عليه وسلم متى الساعة؟ قال: إذا ضيعت الأمانة فانتظر الساعة» أي إذا ضييع الناس الأمانة فهذه علامة على قرب قيامها، لأن هذا خراب في الكون، خراب في الناس، دمار في حياتهم، والآخرة تقوم على خراب الدنيا، إذا خربت وفسد الناس وضاعت الأمانة حينئذ تقوم الساعة، فهذه علامة من علامات دنو قيامها وقرب قيامها، فقال: ((إذا ضيعت الأمانة فانتظر الساعة)).

قال السائل: «كيف إضاعتها؟» يعني نريد علامة نعرف منها أن الأمانة ضيعت.

فقال عليه الصلاة والسلام: ((إذا وسد الأمر إلى غير أهله فانتظر الساعة))؛ وسد إلى غير أهله: أي جعل في غير أهله، أسند إلى غير أهله، إذا وُضع في المواطن العظيمة التي هي مواطن لا يوضع فيها إلا الأمين الوفي الناصح إذا وضع فيها الخائن، إذا وسد الأمر إلى غير أهله: أي جعل في غير أهله فهذه علامة من علامات قرب قيامها ودنو مجيئها.

قال: ((إذا وسد الأمر إلى غير أهله))؛ هنا أيضا «أهله» من هم؟ يعني أهل الديانة، أهل الأمانة، إن كان منصبًا يتعلق بالقضاء والعلم والإفتاء ونحو ذلك من الأمانات أيضًا أن يوسد له أهل العلم والبصيرة بدين الله وأهل الديانة والنصح لعباد الله تبارك وتعالى، ف«أهله»: أي أهل الديانة والأمانة والنصح والفهم والبصيرة.

قال: ((إذا وسد الأمر إلى غير أهله فانتظر الساعة))؛ وهذا مما استفاد منه أهمية الأمانة وعظم شأنها، وأنها من الأسس العظيمة التي يقوم عليها صلاح الكون وصلاح الناس واستقامة أمرهم، ومعنى ضياع الأمانة: قرب نهاية هذا العالم ودنو قيام الساعة.

قال رحمه الله تعالى :

باب النهي عن طلبها

٢١٠ - عن عبد الرحمن بن سمرة رضي الله عنه مرفوعاً: ((لا تسأل الإمارة ، فأنك إن أعطيتها من غير مسألة أعنت عليها، وإن أعطيتها عن مسألة وكلت إليها، وإذا حلفت على يمين فرأيت غيرها خيراً منها فأت الذي هو خير وكفر عن يمينك)) أخرجاه.

قال: «باب النهي عن طلبها» ؛ المراد بطلبها هنا : أي الأمانة التي هي الولاية، لأنه تقدم معنا في الترجمة السابقة: «باب الولايات من الأمانة»، فقلوه: «النهي عن طلبها» أي طلب الولايات التي هي أمانة، الولايات: مثل الإمرة مثل القضاء ، مثل الإفتاء ، إلى غير ذلك من المناصب العظيمة التي هي مسؤولية عظيمة يؤتمن عليها من تحمّل هذا الواجب واؤتمن عليه. فالنهي عن طلبها: وذلك لأن الطلب يدل على حرص، وهذا الحرص يُخشى على صاحبه مثل ما يأتي بيان ذلك في حديث النبي صلى الله عليه وسلم ، بخلاف غير الحرص ممن هو أهل وليس حريصاً، ويُلزم به إلزاماً، ويدفع إليها دفعاً، فهذا حري بأمثاله أن ينفع الله سبحانه وتعالى به النفع العظيم.

قال: عن عبد الرحمن بن سمرة رضي الله عنه مرفوعاً قال: ((لا تسأل الإمارة)) لا تطلبها .

((فإنك إن أعطيتها من غير مسألة أعنت عليها)) ؛ إذا كان حصلت الإمارة لك دون مسألة، وإنما أخترت لذلك والناس وأهل الحل والعقد اطمأنوا إليك وألزموك بذلك فإنك تُعان على ذلك؛ أي يعينك الله سبحانه وتعالى ويسدّدك.

((وإن أعطيتها عن مسألة وكلت إليها)) ؛ إذا كنت حصلت عليها عن مسألة ، أي حرص وطلب لها فإنك وكلت إليها أي صُرفت إليها وأصبحت قد وُكلت إلى نفسك ، فاتك معونة الله لك وتسديده سبحانه وتعالى، واعتبر في هذا الباب بما استجد في زماننا هذا مما لم يكن معروفاً في الزمان الأول من أمور تقام فيها الحرص الظاهر على الولاية، فتجد بعض الناس يرشح نفسه ويطلب الأصوات الكثيرة ويشجع المصوّتين والناخبين حتى يعينوه إلى أن يكون هو المسؤول أو الذي بيده الولاية ، فمثل هذا كما دل الحديث يوكل إلى هذا الشيء الذي حرص عليه وعمل على طلبه.

قال: ((وإن أعطيتها عن مسألة)) أي سألتها وطلبتها وحرصت عليها ((وكلت إليها)) ، وإذا وكل الإنسان إليها ضاع، فاته معونة الله سبحانه وتعالى.

ثم قال عليه الصلاة والسلام: ((وإذا حلفت على يمين فرأيت غيرها خيراً منها فأت الذي هو خير وكفر عن يمينك)) ؛ وهذا عام في كل ما يحلف عليه الإنسان أن يفعله أو أن لا يفعله ثم يتبين له أن الأمر خلاف ذلك، وأن من الخير أن يفعل هذا الأمر، فليكفر عن يمينه وليأت الذي هو خير. وهذا ذكره هنا بعد النهي عن سؤال

الولاية وأن من أُعطيها دون مسألة فإنه يعان ؛ قد يصل الحال في بعض الناس في عدم حرصه على الولاية أن يحلف ألا يلي ، من عدم حرصه وخوفه ، فإذا طُلب منه وقد حلف ألا يلي، طُلب منه وأُلح عليه ورأى أن فيه مصلحة للمسلمين فليُكفّر عن يمينه ، فإن اليمين التي كانت منه ليست بمانعٍ من أن يقوم بهذا الأمر الذي طُلب منه وعنده من الفهم والقدرة والدراية على القيام به ، فليُكفّر عن يمينه وليأت الذي هو خير .

قال رحمه الله تعالى :

٢١١ - ولمسلم عن أبي ذر رضي الله عنه «قلت: يا رسول الله ألا تستعلمني؟» فضرب بيده على منكبي، ثم قال: ((يا أبا ذر إني أراك ضعيفًا، وإنها أمانة، وإنها يوم القيامة خزي وندامة، إلا من أخذها بحقها وأدى الذي عليه فيها)).

قال: ولمسلم عن أبي ذر رضي الله عنه «قلت: يا رسول الله ألا تستعلمني؟» أي على شيء من هذه الولايات والأعمال.

((فضرب بيده على منكبي ثم قال: يا أبا ذر إني أراك ضعيفًا)) ؛ فأخبره النبي عليه الصلاة والسلام أن ما يراه فيه صلوات الله وسلامه عليه من ضعف يجعله الخير له والأولى به ألا يتحمل أمانةً مع هذا الضعف، لأن الأمانة تحتاج إلى قوة حتى يتمكن الإنسان من تحقيق هذه الأمانة أو الولاية التي تحمّلها واؤتمن عليها.

قال: ((إني أراك ضعيفًا، وإنها أمانة)) هذه المسؤوليات أمانة واؤتمن عليها العبد، والله جلّ وعلا يسأله عنها يوم القيامة، ولهذا قال: ((وإنها يوم القيامة خزي وندامة)) ؛ خزي وندامة على من ؟ على شخصين: ١. شخص ليس عنده علم ولا قدرة وقيل الأمانة، وهو ما عنده قدرة على القيام بها وقيلها، وهو لا علم ولا قدرة ولا فهم ولا دراية وتحمل الأمانة ولا قدرة له عليها؛ فهذا فيه تضييع لها، لأنه تحملها وليس هو من أهل القدرة عليها.

٢. والآخر الذي تكون عليه خزي وندامة : من كان عنده علم وقدرة لكنه استغل الأمانة بالظلم والخيانة وتضييع الحقوق وغير ذلك، فهي أيضًا تكون خزيًا عليه وندامة يوم القيامة.

قال: ((وإنها يوم القيامة خزي وندامة ؛ إلا)) هذا استثناء، لا يكون من كان كذلك من أهل الخزي والندامة ((إلا من أخذها بحقها وأدى الذي عليه فيها)) ؛ أخذها بحقها: أي كان أهل لها وعنده قدرة على القيام بها، فمن لم يكن أهلًا لها وأخذها يكون قد أخذها بغير حقها فتكون خزيًا وندامة عليه.

قال: ((وأدى الذي عليه فيها)) وهذا إن كان أخذها وهو أهل لها وقادر على القيام بها وقوي على ذلك وضيع فإنها تكون خزيًا عليه.

قال النووي رحمه الله في شرحه لهذا الحديث في «صحيح مسلم»: «هذا الحديث أصلٌ عظيم في اجتناب الولايات، لاسيما لمن كان فيه ضعف عن القيام بوظائف تلك الولايات ، وأما الخزي والندامة فهو في حق من لم يكن أهلاً لها ، أو كان أهلاً ولم يعدل فيها ؛ فيخزيه الله تعالى يوم القيامة ويفضحه ويندم على ما فرط، وأما من كان أهلاً للولاية وعدل فيها فله فضلٌ عظيم تظاهرت به الأحاديث الصحيحة، كحديث: ((سبعة يظلهم الله في ظله يوم لا ظلّ إلا ظله- وذكر عليه الصلاة والسلام من هؤلاء السبعة- إمام عادل))، والأحاديث في هذا المعنى الذي ذكره رحمه الله تعالى كثيرة.

ولهذا كان خلقٌ من السلف يمتنع عن هذه الولايات كله من باب الخوف والشفقة على نفسه من مثل هذا المعنى الذي ذكره النبي عليه الصلاة والسلام في هذا الحديث العظيم . أما من كان أهلاً وعنده علم وعنده قدرة وطُلب منه ذلك وأُلزم وفي قيامه بتلك الأمانة مصلحة للأمة فإن مثل هذا يتعين عليه أن يقوم بهذا الحق وأن يعمل على ما فيه مصلحة المسلمين، وفي هذا الثواب العظيم -مثل ما تقدم معنا- يكون من السبعة الذين يظلهم الله في ظله يوم لا ظلّ إلا ظله.

سبحانك اللهم وبحمدك ، أشهد أن لا إله إلا أنت ، أستغفرك وأتوب إليك .
اللهم صلّ وسلّم على عبدك ورسولك نبينا محمد وآله وصحبه أجمعين.

الدرس الرابع والثلاثون

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله ربّ العالمين، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله؛ صلى الله وسلم عليه وعلى آله وأصحابه أجمعين. أمّا بعد:

قال شيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب رحمه الله تعالى في كتاب الكبائر :

باب ما جاء في غش الرعية

٢١٢ - عن معقل بن يسار رضي الله عنه مرفوعاً: ((ما من عبد يسترعيه الله رعيةً يموت يوم يموت وهو غاش لرعيته إلا حرم الله عليه الجنة)) ، وفي رواية: ((فلم يحطها بنصيحته إلا لم يجد رائحة الجنة)) أخرجاه.

قال رحمه الله تعالى: «باب ما جاء في غش الرعية» ؛ غش الرعية أي من قبل الراعي ، والأصل في الراعي أن يقوم على رعيته بالنصح والعدل ورفع الظلم والإحسان إلى الرعية، قد قال العلماء رحمهم الله تعالى: الراعي هو الحافظ المؤمن الملتزم صلاح ما قام عليه وما هو تحت نظره . ولهذا فالأصل أن يكون الراعي لرعيته ناصحاً قائماً بالعدل بعيداً عن الغش لهم ، والغش يكون بظلمهم والاعتداء عليهم والإساءة في حقهم؛ وهذا كله من ضروب الغش الذي يتنافى مع الواجب الذي تحمّله الراعي مع رعيته، وفي الحديث: ((كلُّكم راعٍ وكلُّكم مسؤولٌ عن رعيته)).

أورد رحمه الله تعالى حديث معقل بن يسار رضي الله عنه مرفوعاً قال: ((ما من عبدٍ يسترعيه الله رعية يموت يوم يموت وهو غاشٍ لرعيته إلا حرم الله عليه الجنة)) ، وفي رواية: ((فلم يُحطها بنصيحته إلا لم يجد رائحة الجنة)) أخرجاه. وهذا فيه التهديد العظيم والوعيد للراعي إذا لم يحط الرعية بالنصيحة، ومعنى «يُحطها»: أي يكلؤها ويرعاها بالنصح، فإذا لم يحطها بالنصيحة ومات وهو غاشٍ للرعية - ويتناول الغش الظلم، أخذ الأموال، سفك الدماء، الانتهاك للأعراض، إلى غير ذلك من الأمور - فمن مات وقد ولي ولاية واسترعاها الله سبحانه وتعالى رعية ثم يموت يوم يموت وهو غاشٍ لهم إلا حرم الله عليه الجنة. ولا يأتي مثل هذا الوعيد إلا فيما هو كبير ، وجاء في بعض روايات هذا الحديث في صحيح مسلم: ((ما من أميرٍ يلي أمر المسلمين ثم لا يجهد لهم وينصح إلا لم يدخل معهم الجنة)). وهذا فيه أن الواجب على الراعي مع رعيته أن يجهد لهم فيما فيه الخير لهم والمصلحة وأن ينصح لهم، وأن يحذر أشد الحذر من غشهم ، وأن يحيطهم بالنصح وحسن الرعاية.

قال رحمه الله تعالى :

باب الشفقة على الرعية

وقول الله تعالى: ﴿وَخَفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الحجر: ٨٨] ، وقوله: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللَّهِ لَنْتَ لَهُمْ﴾ [آل عمران: ١٥٩].

قال رحمه الله تعالى: «باب الشفقة على الرعية» ؛ والشفقة على الرعية هو من تمام النصح لهم؛ أن يتعامل معهم بالرفق والشفقة ومحبة الخير لهم وبالحنو عليهم والعطف، والبعد عن الفظاظة والغلظة والعنف والشدة.

أورد قول الله عز وجل: ﴿وَخَفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الحجر: ٨٨] ؛ وخفض الجناح: هو لين الجانب ، واللفظ في المعاملة، والإحسان في الخلق. ﴿وَخَفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ : أي كن لين الجانب معهم، حسن التعامل، رفيقاً حليماً.

وقوله: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ﴾ [آل عمران: ١٥٩] أي : برحمة من الله عليك بها وتفضل لنت لهم، أي صرت ليناً بعيداً عن الفظاظة والغلظة والشدّة، وهذا من منّي الله سبحانه وتعالى عليك وعليهم أن جعلك بهذه الصفة.
قال: ﴿وَلَوْ كُنْتَ فَظًا غَلِظَ الْقَلْبُ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ﴾ ؛ وهذا فيه أن اللين والرفق وحسن التعامل يترتب عليه ائتلاف القلوب ومحبتها، وتحقق المصالح العظيمة والمنافع العديدة، بخلاف الغلظة فإنها تشتت ولا تجمع، وتفرق ولا تؤلف.

قال رحمه الله تعالى :

٢١٣ - ولمسلم عن عائشة رضي الله عنها مرفوعاً: ((اللهم من ولي من أمر أمتي شيئاً فشق عليهم فاشقق عليه، ومن ولي من أمر أمتي شيئاً فرفق بهم فرفق به)). .

وهذا الحديث حديث أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: ((اللهم من ولي من أمر أمتي شيئاً فشق عليهم فاشقق عليه، ومن ولي من أمر أمتي شيئاً فرفق بهم فرفق به)) فيه هذه الدعوة العظيمة من النبي الكريم عليه الصلاة والسلام، وهي تختص بالولاية، دعاء يختص بالولاية بقسميهم، لأن الولاية على قسمين:

١. قسم يشق على الرعية.

٢. وقسم يرفق بالرعية.

وهذه دعوة من النبي الكريم عليه الصلاة والسلام صائبة كل راعٍ في كل زمان وفي كل مكان ، دعا عليه الصلاة والسلام بهذه الدعوة ((اللهم من ولي من أمر أمتي شيئاً فشق عليهم فاشقق عليه)) ؛ وهذا فيه أن الجزاء من جنس العمل، إذا عامل الرعية بالعنف والغلظة والقسوة والبطش والشدّة عاقبه الله سبحانه وتعالى من جنس عمله فلقي من الغلظة والشدّة والعنف جزاءً وفاقاً لما كان عليه من تعامل مع الرعية بالغلظة والشدّة والإشفاق عليهم.
قال: ((ومن ولي من أمر أمتي شيئاً فرفق بهم فرفق به)) وهذا دعاء لمن عامل الرعية بالرفق واللفظ والإحسان؛ دعا له النبي صلى الله عليه وسلم أن يرفق الله سبحانه وتعالى به.

وهذا الحديث يعد من أبلغ الزواجر عن المشقة على الناس ، وفيه أيضاً أعظم حثٍ على الرفق بهم، وأن من شق على الناس شق الله عليه، ومن رفق بهم رفق الله سبحانه وتعالى به، والقاعدة في هذا الباب في النصوص معروفة «أن الجزاء من جنس العمل». وكما أن هذا الأمر في الولايات العامة كذلك أيضاً ولاية الإنسان الخاصة في بيته

مع أولاده وأهل بيته، ينبغي أن تكون قائمة على الرفق، الرحمة، العطف، الإحسان، المعاملة الكريمة، وأن تكون بعيدة عن الإشفاق عليهم والعنف والشدة والقسوة.

قال رحمه الله تعالى :

باب الاحتجاب دون الرعية

٢١٤ - عن أبي مريم الأزدي رضي الله عنه أنه قال لمعاوية سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: ((من ولاه الله شيئاً من أمور المسلمين فاحتجب دون حاجتهم وخلّتهم وفقرهم؛ احتجب الله دون حاجته وخلته وفقره يوم القيامة)) ، فجعل معاوية رجلاً على حوائج الناس. رواه أبو داود والترمذي.

٢١٥ - وللترمذي عن عمرو بن مَرْة الجهني نحوه. وصححه الحاكم.

قال: «باب الاحتجاب دون الرعية» ؛ الاحتجاب دونهم : أي يجعل بينه وبين الرعية حجاباً، وكل ما احتاج أحد من الرعية حاجة في شدة في ضائقة في ضرورة إلى شيء وجدوا بينهم وبين الراعي القائم على شؤونهم ومصالحهم الحجاب فلا يستطيعون الوصول إليه ولا يستطيعون ذكر حاجتهم إليه، وهذا خلاف النصح، لأن النصح للرعية يستوجب النظر في حاجاتهم والنظر في مصالحهم، سواء كان هذا النظر مباشراً من الراعي نفسه، أو أن يجعل أناساً يقومون على ذلك.

قال: عن أبي مريم الأزدي رضي الله عنه أنه قال لمعاوية رضي الله عنه: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: ((من ولاه الله شيئاً من أمور المسلمين فاحتجب دون حاجتهم وخلّتهم وفقرهم، احتجب الله دون حاجته وخلته وفقره يوم القيامة)) ؛ قوله: «فاحتجب دون حاجتهم وخلّتهم وفقرهم» هذه كلّها تُعدُّ في باب الاحتياج لكنها جاءت مرتبة بالأخف فالأشدّ فالأكثر شدة، قال: «احتجب دون حاجتهم» أي: ما يحتاجه الإنسان ولا يصل إلى درجة الضرورة. والخَلَّة : أشد من ذلك وهي دون الفقر. وهذا فيه أن حاجات الناس ومطالبهم متفاوتة، منها ما هو شديد جداً، ومنها ما هو متوسط، ومنها دون ذلك، والواجب ألا يُحتجب عن شيء منها، بل يُنظر فيها ويُعمل على المعاونة وسدّ الحاجة والخلة والفقر.

قال: ((فاحتجب دون حاجتهم وخلّتهم وفقرهم، احتجب الله دون حاجته وخلته وفقره يوم القيامة)) ؛ وإذا وقف بين يدي الله سبحانه وتعالى يوم القيامة كان أحوج ما يكون إلى معونة الله له وحفظه وتسديده، فإذا كان بهذه الصفة في الحياة الدنيا محتجباً عن شؤون الرعية عوقب بهذه العقوبة جزاء وفاقاً ، والجزاء من جنس العمل.

قال: ((احتجب الله دون حاجته وخلته وفقره يوم القيامة)) وإذا كان كذلك هلك.

قال: «فجعل معاوية رجلاً على حوائج الناس» ؛ وهذه فيه أهمية النصح للرعاة وولاية الأمر ، وأن هذه جادة السلف، بخلاف طريقة أهل الشغب والفوضى ؛ طريقة السلف قائمة على النصح للولاة ببيان الحق لهم، ذكر كلام الرسول عليه الصلاة والسلام، مخاطبتهم بما يليق بمقامهم، وأيضاً بالنصح المناسب بذكر الدليل وتنبيههم على الخطأ برفق، ومن كان كذلك أدى ذلك سرّاً بينه وبين ولي الأمر فقد أدى الذي عليه، كما جاء في الحديث: ((من كانت له حاجة لذي سلطان فلا يبده علانية ، وليأته وليأخذ بيده فإن قبل وإلا يكون أدى الذي عليه)) ، فكانت هذه هي الجادة ولها نفعها العظيم وأثرها البالغ، والتوفيق بيد الله سبحانه وتعالى وحده.

قال: «فجعل معاوية رجلاً على حوائج الناس» أي أن ذكر أبي مریم الأزدي رضي الله عنه لهذا الحديث وتذكيره لمعاوية به كان معونةً لمعاوية رضي الله عنه وأرضاه على مزيد الاهتمام والعناية بهذا الأمر العظيم ، الذي هو حوائج الرعية وعدم الاحتجاب عنهم.

قال رحمه الله تعالى :

بابُ المحابة في الولاية

٢١٦ - أخرج أحمد والحاكم وصححه عن يزيد بن أبي سفيان رضي الله عنه أن أبا بكر رضي الله عنه قال له: يا يزيد إن لك قرابة فهل عسيت أن تؤثرهم بالإمارة، وذلك أكثر ما أخاف عليك بعد ما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ((من ولي من أمر المسلمين شيئاً فآمر أحداً محابة فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين، لا يقبل الله منه صرفاً ولا عدلاً حتى يدخله جهنم)).

٢١٧ - وللحاكم وصححه عن ابن عباس رضي الله عنهما مرفوعاً: ((من استعمل رجلاً على عصابة وفيهم من هو أَرْضَى لله منه فقد خان الله ورسوله والمؤمنين)).

قال رحمه الله تعالى: «بابُ المحابة في الولاية» ؛ المحابة تكون من الوالي لقرابته، لأصدقائه، لمن بينه وبينهم صلة أو تواصل أو نحو ذلك بقطع النظر عن مصلحة الأمة ومصلحة الناس، فيجعل بحكم المحابة على الولايات من لا يحسن ، ويترك من يُعرف بالإحسان والنصح، فهذه تسمى محابة ، والمحابة إخلال بالمسؤولية العظيمة والواجب الكبير نحو الرعية ، ويكون الأمر قائماً على هذا النظر القاصر وفيه تعطيل للمصلحة العظيمة للأمة بجعل الأكفاء على الولايات العامة التي لا تتحقق المصالح ولا تُدرأ المفاسد إلا بوجود الأكفاء ، أما غير الكفو إذا جُعل على الولاية ضاع ما تحته. والمحابة في الولاية نوع من الغش ، وقد تقدم معنا في ترجمة خاصة عند المصنف: «باب ما جاء في غش الرعية» ، فهو نوع من الغش ويتنافى مع النصح الواجب للرعية.

وأورد رحمه الله تعالى تحت هذه الترجمة حديثين: أحدهما في المسند للإمام أحمد ومستدرك الحاكم، والآخر في مستدرك الحاكم ، لكن كلًّا من الإسنادين لا يثبت، في كلِّ من الحديثين رجلٌ متروك؛ فالحديثان غير ثابتين عن النبي صلى الله عليه وسلم. لكن من حيث المعنى ؛ فالمعنى حق ويدلُّ عليه ما سبق في الترجمة الماضية، قال: «باب ما جاء في غش الرعية» ، تلك الترجمة فيها شاهد بيِّن لهذه الترجمة.

الحديث الأول قال: عن يزيد بن أبي سفيان أن أبا بكر رضي الله عنه قال له: يا يزيد إن لك قرابة فهل عسيت أن تؤثرهم بالإمارة؟! وذلك أكثر ما أخاف عليك بعد ما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ((من ولي من أمر المسلمين شيئاً فأمّر أحداً محاباة فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين، لا يقبل الله منه صرفاً ولا عدلاً حتى يدخله جهنم)).

والحديث الثاني : حديث ابن عباس مرفوعاً: ((من استعمل رجلاً على عصابة وفيهم من هو أرضى لله منه)) أي حابى ذلك الرجل ((فقد خان الله ورسوله والمؤمنين)).

وعلى كلِّ فالمعنى الذي بوّب المصنف رحمه الله تعالى له وهو المحاباة في الولاية وأنها لا تجوز هذا معنى متقرر وثابت دلّ عليه كثير من النصوص، ومنها ما سبق أن أورده رحمه الله تعالى.

سبحانك اللهم وبحمدك ، أشهد أن لا إله إلا أنت ، أستغفرك وأتوب إليك .

اللهم صلِّ وسلِّم على عبدك ورسولك نبينا محمد وآله وصحبه أجمعين.



شرح كتاب الكبائر

لشيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب رحمه الله

من الدرس ٣٥ إلى الدرس ٣٨

شرح الشيخ عبد الرزاق بن عبد المحسن البدر حفظهما الله تعالى

١٤٤١/٠٢/٠٨ هـ

الدرس الخامس والثلاثون

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله ربّ العالمين، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله، صلى الله وسلم عليه وعلى آله وأصحابه أجمعين. أمّا بعد:

قال شيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب رحمه الله تعالى في كتاب الكبائر :

باب الجور والظلم وخطر الولاية

٢١٨ - أخرج الحاكم وصححه ((ما من أحدٍ يكون على شيء من أمور هذه الأمة فلم يعدل فيهم إلا كبه الله في النار)).

قال رحمه الله تعالى: «باب الجور والظلم وخطر الولاية» ؛ هذه الترجمة لها تعلق بما سبق من أبواب ، حيث بَوَّب رحمه الله تعالى الاحتجاج دون الرعية، والمحابة في الولاية، والغش للرعية، وهذا كله مما يتعلق بالولايات وما يترتب عليها من خطر إذا لم يقيم الوالي في ولايته بالعدل والحق ورفع الظلم فإن ولايته تكون وبالاً عليه يوم يلقي الله سبحانه وتعالى.

قال: «باب الجور والظلم» ؛ والجور: هو أن يحيف في الحكم ولا يعدل فيه، وينحرف عن الحق والهدى الذي جاء في كتاب الله وسنة نبيه صلى الله عليه وسلم. والظلم : ضدّ العدل، فمن كان في ولايته جائراً ظالماً فإن في ذلك الخطر العظيم البالغ عليه، ولهذا قال: «وخطر الولاية» ؛ أي أن الولاية فيها خطورة إذا لم يُلزم الوالي نفسه فيها بالعدل ولزوم الحق في ضوء ما جاء في كتاب الله عزّ وجلّ وسنة نبيه صلوات الله وسلامه وبركاته عليه.

قال: أخرج الحاكم وصححه ((ما من أحدٍ يكون على شيء من أمور هذه الأمة فلم يعدل فيهم إلا كبه الله في النار)) ؛ ودلالة هذا الحديث للترجمة ظاهرة من حيث أن الوالي إن لم يقيم في ولايته بالعدل «لم يعدل فيهم» أي في الرعية إلا كبه الله في النار. وهذا الوعيد والتهديد بدخول النار وأن يُكبَّ في النار دليل على أن الجور والحيف والظلم من كبائر الذنوب وعظائمها.

والحديث في سنده مقال ، لكن من حيث المعنى فالمعنى دلت عليه دلائل كثيرة، منها ما سيأتي من نصوص ساقها المصنف رحمه الله.

قال رحمه الله تعالى :

٢١٩ - ولهما عن معاذ رضي الله عنه مرفوعاً: ((اتق دعوة المظلوم فإنه ليس بينها وبين الله حجاب)).

قال: ولهما -أي البخاري ومسلم- عن معاذ بن جبل رضي الله عنه مرفوعاً إلى النبي عليه الصلاة والسلام ((**اتق دعوة المظلوم فإنه ليس بينها وبين الله حجاب**)) ؛ وهذا قاله النبي عليه الصلاة والسلام لما بعث معاذاً إلى اليمن والياً وحاكماً وقاضياً ، فأوصاه عليه الصلاة والسلام بهذه الوصية قال: ((**اتق دعوة المظلوم**)) ؛ واتقاء دعوة المظلوم إنما يكون باتقاء الظلم، لأن الظلم إذا وُجد حُشي على الإنسان أن يدعوه عليه المظلوم دعوةً تصيبه؛ لأنه ليس بين دعوة المظلوم وبين الله حجاب، ومعنى ذلك أنها مستجابة لا تُرد، هذا معنى قوله: ((**ليس بينها وبين الله حجاب**)) أي أن دعوة المظلوم مستجابة لا يردها الله تبارك وتعالى بل يستجيبها، فقال: ((**اتق دعوة المظلوم**)) أي اجتنب دعوة المظلوم واحذر من دعوة المظلوم باتقاء الظلم وتجنبه؛ إياك أن تظلم، لأن الإنسان إن ظلم أصبح عُرضة لدعوة من هذا الذي ظلمه، ودعوته مستجابة عند الله تبارك وتعالى ولا تُرد.

قال رحمه الله تعالى :

٢٢٠ - ولمسلم عن عدي بن عميرة رضي الله عنه مرفوعاً: ((**من استعملناه على عمل فكنتم منه مخيطاً فما فوقه كان غلولاً يأتي به يوم القيامة**)).

قال: ولمسلم عن عدي بن عميرة رضي الله عنه مرفوعاً: ((**من استعملناه على عمل**)) أي ولَّيناه ولايةً أو عملاً من الأعمال، ويقال لأمرء المناطق وأهل الولايات الخاصة في المناطق «عُمَّال»، وهذا الاسم قديم، ولا يزال الآن موجوداً في المغرب العربي، يطلق عليهم «العُمَّال» أي الأمراء، من حيث إنه أُستعمل على هذا العمل ووُلي هذه الولاية.

فيقول: ((**من استعملناه على عمل فكنتم منه مخيطاً**)) والمخيط: هو الإبرة الصغيرة، والمراد بقوله «مخيطاً» أي حتى الشيء التافه اليسير القليل الذي لا يؤبه به إن كتمه ((**فما فوقه**)) يعني الشيء القليل والشيء الكثير، أي شيء يكتمه ((**كان غلولاً يأتي به يوم القيامة**)) ، ومرّ معنا أن هدايا العُمَّال غلول، ومعنى كونها «غلول» أي أنه يأتي بها غلاً في عنقه يوم القيامة، يأتي يحمل ما غلّ يوم القيامة فوق عنقه، ومرّ معنا أيضاً الإشارة إلى الحديث وهو في صحيح البخاري أن النبي صلى الله عليه وسلم ذكر الغلول وعظّم أمره ثم قال: ((لا يأتين أحدكم يوم القيامة وعلى رقبته بعير له رغاء فيقول: يا رسول الله أغني، فأقول: لا أملك لك شيئاً قد أبلغتك)) إلى آخر الحديث، الشاهد منه: «فوق رقبته».

فالغلول : هو أخذٌ للمال بالظلم وبغير حق، ومن غلّ يأت بما غلّ يوم القيامة، يحمله على رقبته، يحمله على عنقه.

والمراد بقوله: ((فكتم منه)) أي ما يُعطاه على عمالته ، على إمرته، على ولايته، لأنه ليس له في الولاية أن يقبل شيئاً أو أن يأخذ شيئاً، ولهذا مرّ في الحديث: ((هدايا العمال غلول)).

قال: ((فكتم منه مَحْطاً فما فوقه)) أي ولو كان شيئاً قليلاً فإنه يكون غلواً يأتي به يوم القيامة.

قال رحمه الله تعالى :

٢٢١ - ولأحمد عن أبي هريرة مرفوعاً: ((ويل للأمرء، ويل للعرفاء، ويل للأمناء، ليتمنين أقوام يوم القيامة أن ذوائبهم كانت معلقة بالثريا، يتذبذبون بين السماء والأرض، ولم يكونوا عملوا على شيء)).

قال: ولأحمد عن أبي هريرة مرفوعاً: ((ويل للأمرء، ويل للعرفاء، ويل للأمناء، ليتمنين أقوام يوم القيامة أن ذوائبهم كانت معلقة بالثريا، يتذبذبون بين السماء والأرض، ولم يكونوا عملوا على شيء)) أي لما يحل بهم يوم القيامة من الخزي العظيم والعقوبة الأليمة، يتمنى أحدهم لو كان في الدنيا معلقاً في الثريا بين السماء والأرض بذؤابته، معلقاً يتدلّل بين السماء والأرض بهذه الصورة المخيفة والهيئة المفزعة المقلقة ، يتمنى لو كان كذلك ولم يأت بهذا الذي غلّه يوم القيامة أو لم يلي شيئاً من الأعمال، وهذا إنما هو في حق من ولي وأجحف، ولي وظلم.

وهذا الحديث ساقه للشق الأخير من الترجمة الذي هو «خطر الولاية» ، فالولاية خطر عظيم إلا من عمل فيها بالعدل والإنصاف والبعد عن الجور وتحقيق تقوى الله سبحانه وتعالى فيمن وُلي عليهم.

وقوله: ((ويل للأمرء، ويل للعرفاء))؛ العرفاء: جمع عريف، وهو من أقيم على قبيلة أو على قرية يعرف الأمرء بأحوالهم ونحو ذلك، وكذلك من هو دونه؛ من أوّتمن ولو على شيء قليل من الأعمال كل هؤلاء ويل لهم، أي إذا لم يقوموا بهذا الذي تولوه بالحق والعدل والإنصاف.

((ليتمنين أقوام يوم القيامة أن ذوائبهم كانت معلقة بالثريا يتذبذبون بين السماء والأرض، ولم يكونوا عملوا على شيء)) أي من هذه الولايات ؛ مما يدل على خطورتها وأنها خزي وندامة يوم القيامة لمن لم يقم فيها بالعدل والحق.

قال رحمه الله تعالى :

باب ولاية من لا يحسن العدل

٢٢٢ - عن أبي ذر رضي الله عنه مرفوعاً: ((يا أبا ذرّ إني أراك ضعيفاً، وإني أحبُّ لك ما أحبُّ لنفسي، لا تأمّرَنّ على اثنين، ولا تولِّين مال يتيم)) رواه مسلم.

قال: «باب ولاية من لا يحسن العدل» ؛ من لا يحسن العدل: أي ليس عنده أهلية ولا قدرة لضعفه وعدم تمكنه وعدم أهليته من أن يقيم العدل بين الناس ومن تولى أمرهم. فهذه الترجمة عقدها في ذلك، وأن من لا يحسن العدل أو ضعيفاً لا يتمكن من القيام بمهام الولاية فالخير له ألا يقبل وألا يتولى الولاية لأنها ستكون خطراً عليه، وهو يعلم من نفسه عدم القدرة على الوفاء بأمورها ومتطلباتها فإنها تكون خطراً عظيماً عليه.

أورد رحمه الله أولاً حديث أبي ذر رضي الله عنه مرفوعاً أي إلى النبي صلى الله عليه وسلم قال: ((يا أبا ذر إني أراك ضعيفاً، وإني أحبُّ لك ما أحبُّ لنفسي، لا تأمُرَنَّ على اثنين، ولا تولِّين مال يتيم)) رواه مسلم ؛ علل نهي عن التأمر والتولي بالضعف وقدم به عليه الصلاة والسلام ؛ قال: ((إني أراك ضعيفاً)) وهذه الولايات تحتاج إلى قوة وقدرة وتمكن ممن قام بهذه الولايات، فأراك ضعيفاً وهذا الضعف لا يكون مؤهلاً للشخص الضعيف لأن يقوم بهذه الولايات.

وتأمل لطف النبي عليه الصلاة والسلام وجميل نصحه في قوله: ((وإني أحبُّ لك ما أحبُّ لنفسي)) وهذه قاعدة عظيمة جداً في الشريعة في جميع أبوابها ؛ في التعاملات مع الناس أن تكون قائمة على هذا الأساس، قد قال عليه الصلاة والسلام: ((والذي نفسي بيده لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه وما يحب لنفسه)) أي من الخير.

وهذا الحديث سبق أن تقدم معنا عند المصنف رحمه الله تعالى في «باب النهي عن طلبها» ، ونقلت هناك عن النووي رحمه الله قوله في هذا الحديث ، قال: «هذا الحديث أصل عظيم في اجتناب الولايات، لاسيما لمن كان فيه ضعف عن القيام بوظائف تلك الولايات، وأما الحزبي والندامة فهو في حق من لم يكن أهلاً لها ، أو كان أهلاً ولم يعدل فيها ؛ فيخزيه الله تعالى يوم القيامة ويفضحه ويندم على ما فرط، وأما من كان أهلاً للولاية وعدل فيها فله فضل عظيم تظاهرت به الأحاديث الصحيحة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم».

قال رحمه الله تعالى :

٣٢٢ - ولأبي داود عن بريدة رضي الله عنه مرفوعاً: ((القضاة ثلاثة: واحد في الجنة، واثنان في النار، فأما الذي في الجنة فرجل عرف الحق فقضى به، ورجل عرف الحق فجار في الحكم فهو في النار، ورجل قضى للناس على جهل فهو في النار)).

قال رحمه الله تعالى: ولأبي داود عن بريدة رضي الله عنه مرفوعاً: ((القضاة ثلاثة)) أي ثلاثة أصناف وثلاثة أقسام. ((واحد في الجنة، واثنان في النار)) ثم بيّن ذلك عليه الصلاة والسلام.

قال : ((فأما الذي في الجنة فرجل عرف الحق فقضى به)) ؛ وهذا فيه أن النجاة في هذا الباب «باب القضاء» لا يكون إلا بهذين الأمرين: أن يكون عند القاضي علم بشرع الله ، ويضاف إلى ذلك أن يحكم بهذا العلم الذي

عنده بشرع الله سبحانه وتعالى . فإن حكم بغير علم - لم يكن عنده علم وحكم - كان من أهل النار، وإن كان عنده علم ولم يحكم بهذا العلم الذي عنده من شرع الله ومال عنه وعدل فهو أيضاً في النار. فلا ينجو من النار إلا من حكم بالعلم، بأن يكون عنده علم ويحكم به.

قال: ((ورجل عرف الحق فجار في الحكم فهو في النار)) ؛ جار في الحكم: أي مال وعدل، ومنه الجور -وقد تقدم- وهو: الميل والعدول عن الحق. «ورجل عرف الحق فجار في الحكم» أي مال عن الحق والهدى ممالة أو حيقاً من أجل صديق أو رفيق أو غير ذلك ، فجار في الحكم فهو في النار.

((ورجل قضى للناس على جهل فهو في النار)) أي تولى للقضاء وهو ليس من أهل العلم، وليس عنده بصيرة في دين الله فأخذ يحكم بلا علم، فهو في النار.

فالقاضيان اللذان في النار:

١. من تولى القضاء وهو جاهل بالشرع وبالفقه والأحكام.

٢. والآخر من ولي القضاء وعنده علم لكنه لم يحكم بهذا العلم الذي عنده، وأخذ يجور ويظلم وترك العلم الذي عنده فلم يحكم به.

قال رحمه الله تعالى :

٢٢٤ - وله عن أبي هريرة رضي الله عنه مرفوعاً: ((من أفتي فُتياً بغير علم كان إثم ذلك على الذي أفتاه)).

قال: وله أي داود رحمه الله تعالى عن أبي هريرة رضي الله عنه مرفوعاً: ((من أفتي فُتياً بغير علم كان إثم ذلك على الذي أفتاه)) أفتي فُتياً: أي أفتاه شخص وكان هذا الشخص الذي أفتاه لا علم له في هذه المسألة وحكم الله سبحانه وتعالى فيها.

قال: ((كان إثم ذلك على الذي أفتاه)) مثله قول النبي صلى الله عليه وسلم ((من أرشد إلى غير رشد فإثمه على من أرشده)). ولهذا يقول العلماء رحمهم الله: أن الذي يريد أن يفتي شخصاً لا يكن همهم أن يخلص السائل، وإنما ليكن همهم أن يخلص نفسه، لأنه سيتحمل هذا الأمر ويكون في ذمته، ويكون محاسباً ومعاقباً عليه، لأن إثمه على من أفتاه، يتحمل ذلك، فلهذا لا ينبغي أن يكون متجهاً إلى تخلص السائل. أحياناً بعض الناس في مثل هذا الباب يأتيه السائل في اضطرار في ضائقة ويُلح عليه ويكون فعلاً في ضائقة فيقول له: ما دام كذا لا حرج عليك، فيفتيه بغير علم، فيذهب الرجل وتكون التبعة على هذا الذي أفتاه.

وأذكر في هذا الباب قصةً فيها فائدة على حياة الشيخ عبد العزيز بن باز رحمه الله عليه وكان طلب مني بعض المشايخ أن أذكرها له، في إحدى اللقاءات به قال: نريد نسمع تعليقه على ذلك، وهي : أن شخصاً جاء إليَّ

يسأل يقول: إنه جاء من بلده واعتمر وحلق شعر رأسه تمامًا، وذهب إلى التنعيم — كما يفعل بعض الحجاج — ليأتي بعمرة أخرى، وكان يقول: الرأس أصلع حلقه بالموسى وجاء يعتمر، قال: لما وصلتُ إلى المروة أريد أن أتَّحلل وما في شعر إطلاقًا، فوجدت شخصًا في المروة وقلت له: ماذا أصنع؟ قال: فنظر إليَّ قال: احلق الشارب، يقول: حلقت الشارب، والرجل من الأصل حليق أيضًا للحية، وربما لو جاء بعمرة أخرى لقال له ذلك: احلق الحواجب. لأنه نظر في وجهه ما وجد إلا شعر الشارب قال له احلق الشارب، ولو كان ممن يحلقون الشارب أصلاً لأمره أن يحلق الحواجب. فبعض المشايخ قال لي: لو ذكرتَ هذا، فسبحان الله ظهر عليه الغضب الشديد كيف يتجرأ الناس على دين الله والفتيا بغير علم، وأن هذا أمر خطر على الإنسان، وإثمه على من أفتاه. فهذا الحديث يقول فيه عليه الصلاة والسلام: ((من أفتي فتيا بغير علم كان إثم ذلك على الذي أفتاه)).

هذه الترجمة في التحذير من ولي ولاية وهو لا يحسن، وذكر فيها ثلاثة أحاديث كلها تتعلق بهذا الباب، الأول: يتعلق بالإمرة، والثاني: يتعلق بالقضاء، والثالث: يتعلق بالفتيا، وأن هذه الثلاث من الولايات العظيمة التي يجب على الإنسان أن يحذر من أن يلي شيئًا منها إن كان لا يحسن ذلك؛ فإن الأمر خطير جدًا. سبحانك اللهم وبحمدك، أشهد أن لا إله إلا أنت، أستغفرك وأتوب إليك. اللهم صلِّ وسلِّم على عبدك ورسولك نبينا محمد وآله وصحبه أجمعين.

الدرس السادس والثلاثون

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله ربِّ العالمين، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله، صلَّى الله وسلَّم عليه وعلى آله وأصحابه أجمعين. أمَّا بعد:

قال شيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب رحمه الله تعالى في كتاب الكبائر:

بابُ الأمانة في البيع والشراء والكيل والوزن

وقول الله تعالى: ﴿فَلْيُؤَدِّ الَّذِي أُؤْتِمِنَ أَمَانَتَهُ﴾ [البقرة: ٢٨٣].

٢٢٥ - عن حذيفة رضي الله عنه قال: حدثنا رسول الله صلى الله عليه وسلم بحديثين رأيت أحدهما وأنا أنتظر الآخر؛ حدثنا ((أن الأمانة نزلت في جذر قلوب الرجال، ثم نزل القرآن، فعلموا من القرآن وعلموا من السنة)). ثم حدثنا عن رفع الأمانة فقال: ((ينام الرجل النومة فتقبض الأمانة من قلبه فيظل أثرها مثل أثر الوكت، ثم ينام النومة فتقبض الأمانة من قلبه فيظل أثرها مثل أثر المجل، كجمرٍ دحرجته على رجلك

فَنَقَطَ فتراه مُنتَبِراً وليس فيه شيء ، ثم أخذ حصاة فدحرجها على رجله. فيصبح الناس يتبايعون فلا يكاد أحدهم يؤدي الأمانة حتى يقال: إن في بني فلان رجلاً أميناً، وحتى يقال للرجل: ما أجلده ما أظرفه ما أعقله وما في قلبه مثقال حبة خردل من إيمان. ولقد أتى عليّ زمان وما أبالي أيكم بايعت، لكن كان مسلماً ليردّنه علي دينه، وإن كان نصرانياً أو يهودياً ليردّنه علي ساعيه. وأما اليوم فما كنت لأبايع منكم إلا فلاناً وفلاناً)).

الجزر: الأصل . والوكت: الأثر اليسير . والمجل: نَفَطَ يسير من أثر عمل. ومنتبراً: مرتفعاً. ساعيه: الوالي عليه.

قال المصنف الإمام شيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب رحمه الله تعالى: «باب الأمانة في البيع والشراء والكيل والوزن» ؛ والمراد بالأمانة في هذه الأشياء : أي البُعد عن الخيانة، وأن يفى الإنسان بما عليه إن كان كيلاً أو كان وزناً أو كان تبايعاً، ولا يخون من يتعامل معه لا في قليل ولا كثير، فالأمانة ضد الخيانة، وهي من الإيمان، كما قال عليه الصلاة والسلام: ((لا إيمان لمن لا أمانة له)) ، فالأمانة من الإيمان، والخيانة من النفاق، فإن من صفات أهل النفاق الخيانة، ((وإذا أوتمن خان)) ، وكون الخيانة ضرب من ضروب النفاق: من جهة أن الخائن يُظهر ما لا يبطن، يُظهر وفاءً ويبطن خيانةً، فكانت الخيانة نوع من أنواع النفاق بكون الخائن يُظهر أمانة وهو يبطن خيانة، فهي من النفاق العملي، والأمانة شعبة من شعب الإيمان وخصلة من خصاله العظيمة.

والأمانة تطلق ويراد بها الدين كله كما قال الله سبحانه وتعالى: ﴿إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا﴾ (٧٢) لِيُعَذِّبَ اللَّهُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ وَيَتُوبَ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ﴿ [الأحزاب: ٧٢-٧٣] ؛ وهذه أقسام الناس مع الأمانة التي هي الدين :

- فمنهم من أتى بها ظاهراً وأبطن ضدها ؛ وهم أهل النفاق.
- ومنهم من تركها في الظاهر والباطن؛ وهم أهل الإشراك.
- ومنهم من أتى بها ظاهراً وباطناً؛ وهم أهل الإيمان.

فهذه أقسامهم الثلاثة. فالأمانة تطلق ويراد بها الأمانة في التعامل من بيع أو شراء أو نحوه، وهو الذي يتحدث عنه رحمه الله تعالى في هذه الترجمة بقوله: «الأمانة في البيع والشراء والكيل والوزن».

وبداً بقول الله عز وجل: ﴿فَلْيُؤَدِّ الَّذِي أُؤْتِمِنَ أَمَانَتَهُ﴾ [البقرة: ٢٨٣] فهذا من هذا القبيل ، يعني في تعامل الناس في بيعهم في شرائهم في تعاطيهم وأخذهم ونحو ذلك؛ إذا أوتمن الإنسان على شيء من الودائع أو نحو ذلك فعليه أن

يؤدي الشيء الذي أوْتَمَنَ عليه وافيًا ؛ فإن أداءه شعبةٌ من شعب الإيمان - كما تقدم - وخصلة من خصاله العظام.

ثم أورد رحمه الله تعالى حديث حذيفة بن اليمان رضي الله عنه قال: «حدثنا رسول الله صلى الله عليه وسلم بحديثين» أي أن النبي عليه الصلاة والسلام أخبرهم بأمرين من الأمور التي تقع في المستقبل مما أعلمه الله سبحانه وتعالى وأطلع عليه ، وهذا علم من أعلام نبوته عليه الصلاة والسلام ، يخبر بأمر تكون في المستقبل فتقع طبقًا لما أخبر ووفقًا لما جاء عنه صلوات الله وسلامه عليه، وهذا من أعلام نبوته صلوات الله وسلامه عليه.

قال: «بحديثين رأيت أحدهما وأنا أنتظر الآخر؛ حدثنا أن الأمانة نزلت في جذر قلوب الرجال ثم نزل القرآن» المراد هنا بالأمانة: الإيمان، والمراد بنزولها في جذر قلوب الرجال: أي في أصل القلب وأصول القلوب ، قال «نزلت الأمانة في جذر قلوب الرجال» أي أول ما يكون دخول الإيمان وتمكنه من القلوب ثم نزل القرآن.

«فعلِمُوا من القرآن، وعَلِمُوا من السنة» وهذا فيه تنبيه إلى أمر عظيم ربما غُفِلَ عنه في التعليم: أن أول ما يُعْنَى به في النشء تعليمًا هو غرس الإيمان في القلوب، والحرص على تمتينه في النفوس، وتقوية العقيدة والصلة بالله تبارك وتعالى، يُرَبَّى على ذلك، ولهذا جاء في سنن ابن ماجه عن جندب بن عبد الله رضي الله عنه قال: «كنا مع النبي صلى الله عليه وسلم ونحن فتيان حزاورة -أولاد صغار- فتعلمنا الإيمان قبل أن نتعلم القرآن، ثم تعلمنا القرآن فازددا إيمانًا» ، سبحانه الله! إذا تعلم المرء الإيمان قبل القرآن ينتفع بالقرآن ويرتفع ، لأنه كلما قرأ من القرآن ازداد بما يقرؤه إيمانًا، وأما إذا لم يتعلم الإيمان قبل القرآن ربما يقرأ القرآن ويقوم منه بنقصان وليس بزيادة، كما قال بعض السلف: «ما جلس أحد لهذا القرآن إلا قام منه إما بزيادة أو بنقصان» ، والله جلّ وعلا يقول: ﴿وَإِذَا مَا أَنْزَلْتُ سُورَةً مِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ أَكُنْمْ زَادَتْهُ هَذِهِ إِيْمَانًا﴾ [التوبة: ١٢٤] يعني ليس كل أحد تزيده التلاوة إيمانًا ، ﴿أَكُنْمْ زَادَتْهُ هَذِهِ إِيْمَانًا فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فزَادَتْهُمْ إِيْمَانًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ﴾ (١٢٤) وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَى رِجْسِهِمْ وَمَاتُوا وَهُمْ كَافِرُونَ ﴿ [التوبة: ١٢٤-١٢٥] .

ولهذا من الناس من عنده الإيمان وليس عنده حظ من القرآن حفظًا وقراءة، وإيمانه هذا ينفعه عند الله، ومن الناس من عنده القرآن ولكن ليس عنده الإيمان؛ فلا ينفعه القرآن عند الله سبحانه وتعالى، وهذا واضح في الحديث الذي قال فيه النبي صلى الله عليه وسلم ، ذكر مثل الأمة مع الإيمان والقرآن، فذكر مثل المؤمن الذي لا يقرأ القرآن كمثل التمرة، وذكر المنافق الذي يقرأ القرآن كمثل الريحانة رائحتها جميلة لكنها مرة الطعم ، فهذا يفيد أن من الناس من عنده قرآن بلا إيمان، وهذا لا ينفعه عند الله، ومن الناس من عنده إيمان وليس عنده قرآن، ليس عنده حظ ونصيب من القرآن لكن إيمانه ينفعه عند الله سبحانه وتعالى. وكانت جادة السلف وطريقتهم البدء أولاً بتعلم الإيمان والحرص على تقويته، انظر قصة الأعراب الذين أتوا النبي صلى الله عليه وسلم وذكر الله خبرهم في القرآن:

﴿قَالَتِ الْأَعْرَابُ آمَنَّا قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ﴾ [الحجرات: ١٤] أي يتمكن الإيمان في قلوبكم ويكون راسخًا.

فالأصل في ذلك: هو زرع الإيمان وغرسه في القلوب، وهذا مما يستفاد من هذا الحديث، قال: ((أن الأمانة نزلت في جذر قلوب الرجال)) أي نزلت في أصل القلب . وهذا هو الأساس الذي يُبنى عليه دين الله، لأن دين الله مثله مثل الشجرة لها أصل، أصلها هو هذا «نزلت الأمانة في جذر قلوب الرجال» هذا هو الأصل الذي يقوم عليه الدين كله، فكلما قوي الأصل عظم الفرع وعظمت فائدته، والله يقول: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً

كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ تُؤْتِي أَكْلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا﴾ [إبراهيم: ٢٤ - ٢٥].

قال: «ثم نزل القرآن، فعلموا من القرآن، وعلموا من السنة» أي يتعلمون من القرآن ويتعلمون من السنة ما يزدادون به إيمانًا مع إيمانهم.

«ثم حدثنا عن رفع الأمانة فقال: ينام الرجل النومة فتقبض الأمانة من قلبه» وهذا فيه أن الأمانة محلها القلب، ومنبعها القلب.

«فتقبض الأمانة من قلبه فيظل أثرها مثل أثر الوكت» والوكت: هو الأثر اليسير، أي تُقبض من قلبه لكن يبقى لها أثر يسير.

((ثم ينام النومة فتقبض الأمانة من قلبه فيظل أثرها مثل أثر المجل)) وهو نبط يسير من أثر عمل . أحيانًا إذا عمل الإنسان بيده أعمالاً شاقة، كأن يحمل فأسًا ويضرب به كثيرًا يجد أن في يده بثور وأورام خفيفة، يعني انتفاخات أو تورمات وبداخلها هواء أو يكون بداخلها ماء، فتكون انتفاخات بثور في يده من آثار عمل.

((فيظل أثرها مثل المجل كجمرٍ دحرجته على رجلك فنَفَطَ ، فتراه مُنتَبِرًا وليس فيه شيء)) يعني لو أن إنسانًا أخذ جمرة، والجمرة معروفة حارة ملتبهة، ودحرجها على رجله، ما الذي سيكون؟ المواضع التي لمست الجمرة فيها الرجل، لأنها الدحرجة تتحرك الجمرة في مواضع متفاوتة تصيب القدم، فيكون في مواضعها بثور من أثر لمس الجمر لبدنه.

قال: ((ثم أخذ حصاة عليه الصلاة والسلام فدحرجها على رجله)) للتوضيح.

قال: ((فيصبح الناس يتبايعون فلا يكاد أحدهم يؤدي الأمانة)) وهذا الآن انتقل الحديث من الأمانة بمعناها الشامل للدين كله إلى الأمانة في البيع والشراء، وهو باب من أبواب الأمانة ونوع من أنواعها .

قال: ((فيصبح الناس يتبايعون فلا يكاد أحدهم يؤدي الأمانة حتى يقال إن في بني فلان رجلاً أميناً)) يعني يصبح نادرًا وجود الأمين. «إن في بني فلان رجلاً أميناً» بمعنى أن الرجل الأمين شخص نادر، بحيث إنه يشار إليه بالبنان، في بيت فلان يوجد رجل أمين.

((وحتى يقال للرجل: ما أجلده ما أظرفه ما أعقله! وما في قلبه مثقال حبة خردل من إيمان)) أي مظهر بلا مخبر، المظهر يقول عنه الناس: ما أجلده ما أظرفه ما أعقله! لكن المخبر: خرابٌ تباب، ما فيه مثقال حبة خردل من إيمان.

((ولقد أتى عليّ زمان وما أبالي أيكم بايعت)) يعني من المسلمين ، من اليهود ، من النصارى، ما أبالي. ((لئن كان مسلماً ليردّنه عليّ دينه)) إذا كان مسلم ووقع في شيء من الخطأ في تعامله معي فدينه يرده، دينه يحجزه. لكن إذا ارتفع الإيمان ما بقي في القلب مثقال ذرة من إيمان فالشأن يكون مختلفاً. والمراد بقوله «بايعت» أي تعاملت بيعاً وشراءً، ليس المراد المبايعة على إمرة أو على خلافة، وإنما المراد بالمبايعة هنا: البيع والشراء. ((وما أبالي أيكم بايعت)) أي بعت معه واشتريت ((لئن كان مسلماً ليردّنه عليّ دينه)). ((وإن كان نصرانياً أو يهودياً)) أي تعاملت معه في البيع والشراء ((ليردّنه عليّ ساعيه)) أي واليه، لو كان منه خطأ أو نحو ذلك، واليه القائم على أمره ليردن عليّ أي حقي الذي خاني مثلاً فيه. ((وأما اليوم فما كنت أباع منكم إلا فلاناً وفلاناً)).

قال رحمه الله تعالى :

٢٢٦ - ولمسلم في حديث الشفاعة: ((وترسل الأمانة والرحم فيقومان بجنبتي الصراط يميناً وشمالاً)).

قال: ولمسلم في حديث الشفاعة: ((وترسل الأمانة والرحم فيقومان بجنبتي الصراط يميناً وشمالاً)) ؛ معنى قيام الأمانة والرحم على جنبتي الصراط، والصراط هو المعبر إلى الجنة، ولهذا في تنمة الحديث: ((فيمر الناس على قدر أعمالهم، منهم من يمر كالبرق، ومنهم من يمر كالريح، ومنهم من يمر كأجاويد الخيل، ومنهم من يمر كركاب الإبل، ومنهم من يمر مشياً، ومنهم من يمر زحفاً)) ، والأمانة تُرسل أي تُجعل وتأتي على جنبتي الصراط ، ومعنى ذلك أنه -كما بيّن أهل العلم- لا يجوز الصراط ولا يعبره خائن ولا قاطع، هذا معنى قيام الأمانة على جنبتي الصراط؛ ترسل الأمانة والرحم فلا يجوز خائن: أي لا يعبر، ولا قاطع: أي قاطع رحم. ويختلف مرور الناس على الصراط بحسب حالهم من الإيمان وحظهم منه ، ولهذا يتفاوتون في ذلك تفاوتاً عظيماً.

قال رحمه الله تعالى :

باب قوله كلكم راع وكلكم مسئول عن رعيته

وقول الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنْفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا﴾ الآية [التحريم: ٦].

قال: «بَابُ قَوْلِهِ كُلُّكُمْ رَاعٍ وَكُلُّكُمْ مَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ» ؛ الراعي: المراد به الحافظ المؤمن، من وُكِّل له القيام بشؤون وبأمر قلَّت أو كثرت يسمى «راعي»؛ وهو الحافظ المؤمن. والرعية: من كانوا تحت نظره، من كُلف برعايتهم ، بالقيام بشؤونهم. وقوله «مسؤول»: أي يسأل الله سبحانه وتعالى عن هذه الرعية، كما سيأتي في الحديث الذي ساقه المصنف.

قال: وقول الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنْفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا﴾ ؛ ﴿قُوا أَنْفُسَكُمْ﴾ أي باعدوا أنفسكم عن النار وعما يسخط الله سبحانه وتعالى ، ﴿وَأَهْلِيكُمْ نَارًا﴾ وهذا موضع الشاهد للترجمة، أن من وُلَّاه الله سبحانه وتعالى رعية فإنه مسؤول عنهم وعن نفسه، مطالب برعايتهم بوقايتهم بتجنيبهم الأمور التي تُسخط الله سبحانه وتعالى، لأنه مؤتمن على ذلك وحافظ لذلك، وهذا معنى كونه راعياً.

قال رحمه الله تعالى :

٢٢٧ - عن ابن عمر رضي الله عنهما قال: قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: "كُلُّكُمْ رَاعٍ وَكُلُّكُمْ مَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ. فالإمام راعٍ ومسئول عن رعيته، والرجل راعٍ في أهل بيته ومسئول عن رعيته، والمرأة راعية على بيت زوجها وولده ومسئولة عن رعيتها، والولد راعٍ في مال أبيه ومسئول عن رعيته، والخادم راعٍ في مال سيده ومسئول عن رعيته. فكلكم راع وكلكم مسئول عن رعيته" متفق عليه.

قال: عن ابن عمر رضي الله عنهما قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ((كُلُّكُمْ رَاعٍ، وَكُلُّكُمْ مَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ)) ؛ قوله «كلكم راع»: أي كلكم حافظ مؤتمن، ما من إنسان إلا وعنده حظ ونصيب من الرعاية لبعض الأمور قلَّ أو كثر، ولو لم يكن إلا رعاية الإنسان لأهله وولده ، فهو راعٍ ومسئول يوم القيامة عن هؤلاء، تقدم معنا قوله: ﴿قُوا أَنْفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا﴾ .

((وَكُلُّكُمْ مَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ)) أي يسأله الله، سيقف بين يدي الله ويسأله عما استرعاه. والمراد بالرعية : من شملهم حفظ الراعي الذي وُكِّل بهم وتولى رعايتهم. ثم فصل ذلك، وأن الرعاية تبدأ من الإمامة الكبرى وما دونها من الولايات، انتهاءً بالأب في بيته، والمرأة في بيت زوجها، والخادم في مال الرجل .

قال: ((فالإمام راعٍ ومسئول عن رعيته)) وهذه الإمامة الكبرى، ((فالإمام راعٍ ومسئول عن رعيته)) أي مسؤول عن أفراد الرعية، إذا وقف بين يدي الله سبحانه وتعالى سأله عن نفسه وعن رعيته.

((والرجل راع في أهل بيته ومسئول عن رعيته)) يُسأل يوم القيامة عن زوجه عن ولده عن أهله عن قيامه بالواجب الذي أوجبه الله سبحانه وتعالى عليه تجاه هؤلاء.

((والمرأة راعية على بيت زوجها وولده ومسئولة عن رعيته)) وهذا فيه أن المرأة تحملت مسؤولية عظيمة يسألها الله سبحانه وتعالى عنها يوم القيامة إذا وقفت بين يدي الله. ومسؤوليتها تتلخص في أمرين: البيت والأولاد ؛ حفظ البيت، تحفظ زوجها في نفسها في بيته في ماله، تصون بيته، ترعى البيت ، تقوم بشؤون البيت، وأيضًا تعتني بالأولاد وحاجاتهم وأمورهم وتنشئتهم وتأديبهم، فهي مسئولة أمام الله سبحانه وتعالى عن هذا الواجب العظيم والمسؤولية الجسيمة. ((والمرأة راعية على بيت زوجها وولده ومسئولة عن رعيته)) أي إذا وقفت بين يدي الله سُئلت عن البيت وسُئلت عن الولد، وماذا قامت تجاه هذه المسؤولية وهذا الأمر الذي أوثقت عليه؟ .

قال: ((والولد راع في مال أبيه ومسئول عن رعيته)) يعني مسئول عن مال أبيه، إذا ولاه والده أمور البيت والصرف على البيت والنفقة، هذا المال مسئول عنه أمام الله تبارك وتعالى، فهذا شيء أصبح راعيًا فيه، أي حافظًا مؤتمنًا، والله سبحانه وتعالى يسأله عن ذلك يوم القيامة.

((والخادم راع في مال سيده ومسئول عن رعيته)) .

حاصل ذلك أن الرعاية كلٌّ له نصيب منها، كما يفيد العوم في أول الحديث وفي آخر الحديث؛ ((فكلكم راع وكلكم مسئول عن رعيته)) ، لا يظن الظان أن الراعي هو الأمير أو الرئيس أو الخليفة أو الوالي، ((كلكم راع، وكلكم مسئول عن رعيته)) ، كلٌّ له حظ ونصيب من الرعاية. وبدأ الحديث بالتعميم ((كلكم راع)) ، وختم الحديث أيضًا بالتعميم ((كلكم راع وكلكم مسئول عن رعيته)) تأكيد على هذا المقام العظيم، وأن الجميع حافظٌ مؤتمن، مسئول يوم القيامة عما استرعاه الله سبحانه وتعالى.

قال رحمه الله تعالى :

باب الرفق بالمملوك

٢٢٨ - عن أبي مسعود رضي الله عنه أنه ضرب عبدًا له فقال النبي صلى الله عليه وسلم: ((اعلم أبا مسعود أن الله أقدرُ عليك منك على هذا الغلام)) قلت: هو حرٌّ لوجه الله تعالى. فقال: ((أما إنك لو لم تفعل للفتحك النار - أو لمستك النار)).

قال رحمه الله تعالى: «باب الرفق بالمملوك» والمراد بالمملوك: ما تحت الإنسان من عبيد وإماء، فإن الواجب أن يرفق بهم، لا يستغل كون له سلطة وله ولاية عليهم أن يبطش بهم ضربًا وإهانة وقسوة وشدة ، بل الواجب عليه أن يرفق بهم، أن يتعامل معهم بالرفق والمعاملة الكريمة الطيبة.

قال: عن أبي مسعود رضي الله عنه أنه ضرب عبداً له ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم: ((اعلم أبا مسعود أن الله أقدر عليك منك على هذا الغلام)) ؛ كان بيده سوط رضي الله عنه، وكان يضرب هذا الغلام، فجاء النبي صلى الله عليه وسلم وقال: ((أبا مسعود)) فعلم أن الذي جاء هو النبي صلى الله عليه وسلم. جاء في بعض الروايات في صحيح مسلم قال: «فسقط من يدي السوط من هيئته» ناداه النبي صلى الله عليه وسلم ((أبا مسعود)) ، فسقط السوط من يده؛ من هيئة النبي عليه الصلاة والسلام .

فقال عليه الصلاة والسلام: ((اعلم أبا مسعود أن الله أقدر عليك منك على هذا الغلام))؛ أي إذا كنت ترى في نفسك قوة وقدرة على هذا البطش به والضرب له، فاعلم أن الله أقدر عليك، ولا يجوز أن يُضرب على الخطأ مثل هذا الضرب بالسوط ويُجلد بهذا الجلد وبهذه الصفة. ((اعلم أن الله أقدر عليك منك على هذا الغلام)). فأدرك وتدارك رضي الله عنه؛ «قلت: هو حرٌّ لوجه الله»؛ في نفس اللحظة، وهذا نراه كثيراً في الأحاديث في مواقف الصحابة النبيلة في سرعة استجابتهم للنبي الكريم صلوات الله وسلامه عليه. في نفس اللحظة قال: «هو حرٌّ لوجه الله» ، وأيضاً جاء في بعض الروايات أنه قال: «لا أضرب مملوكاً بعده أبداً»؛ هذا المملوك حرٌّ، وغيره من المماليك لن أضرب مملوكاً بعده أبداً.

انظر سرعة الاستجابة وقوة الاستجابة في أصحاب النبي الكريم صلوات الله وسلامه عليه الذين قال عنهم نبينا عليه الصلاة والسلام: ((خير الناس قربي)) ، فهذه طريقتهم عند سماعهم الحديث عن الرسول الكريم صلوات الله وسلامه عليه، خلاف كثير من الناس في مثل هذا الزمان، يُعرض عليه الحديث فيجعله قيد الدراسة والنظر، ويتأمل فيه أياماً، هل يعمل أو لا يعمل، ويعرضه على عقله، ويعرضه على رغبته، ويعرضه على... هل يعمل به أو لا يعمل ، الصحابة من حين ما يسمع التوجيه من النبي عليه الصلاة والسلام يبادر المبادرة السريعة من لحظته ومن ساعته كما هو واضح في هذا المثال، وأمثلة كثيرة جداً فيها سرعة استجابة الصحابة للنبي الكريم عليه الصلاة والسلام.

قال: ((اعلم أبا مسعود أن الله أقدر عليك منك على هذا الغلام)) قلت هو حرٌّ لوجه الله تعالى. فقال: ((أما إنك لو لم تفعل للفحتك النار - أو لمستك النار)) ؛ وهذا يبين أن مثل هذا الوعيد «لفحتك النار» أو «لمستك النار» لا تكون إلا في الأمور الكبيرة، أو فيما هو كبير من الذنوب. فاستغلال الإنسان قوّته فيمن تحته من خدم يبطش بهم ويقسو عليهم ويضربهم الضرب الشديد ونحو ذلك جاء فيه مثل هذا الوعيد الذي صح عن نبينا صلوات الله وسلامه وبركاته عليه في هذا الحديث.

ومما يستفاد من هذا الحديث: أهمية الوعظ وحاجة الناس إليه ، وتخويفهم بالله سبحانه وتعالى، وتذكيرهم بقدرة الله وعظمته، وأن الله عزّ وجلّ أقدر على العباد، وأنه على كل شيء قدير؛ فمثل هذا التذكير يحيي القلوب وينفع الناس ويزيل عنها الغفلة، والناس بحاجة إلى الوعظ وبخاصة إلى التذكير ، يوعظون في أنفسهم، يخوفون بالله،

يَخْوَفُونَ بِسَخَطِ اللَّهِ بِغَضَبِهِ، النَّاسَ يَحْتَاجُونَ إِلَى ذَلِكَ، وَإِذَا وُقِّقُوا لِمَنْ يَعْظُهُمْ وَيُحَسِّنُ مَوْعِظَتَهُمْ وَتَذَكِيرَهُمْ بِاللَّهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى يَحْصُلُ بِإِذْنِ اللَّهِ الْإِنْتِفَاعُ لِمَنْ شَاءَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ أَنْ يَنْتَفِعَ .

سبحانك اللهم وبحمدك ، أشهد أن لا إله إلا أنت ، أستغفرك وأتوب إليك .

اللهم صلِّ وسلِّم على عبدك ورسولك نبينا محمد وآله وصحبه أجمعين.

الدرس السابع والثلاثون

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله ربِّ العالمين، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأشهد أنَّ مُحَمَّدًا عبده ورسوله؛ صَلَّى اللهُ وَسَلَّمَ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَأَصْحَابِهِ أَجْمَعِينَ. أمَّا بعد:

قال شيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب رحمه الله تعالى في كتاب الكبائر :

بابُ الرفق بالبهائم

٢٢٩ - عن ابن عباس رضي الله عنهما «أن رسول الله صلى الله عليه وسلم رأى حمارًا قد وُسم في وجهه فأنكر ذلك». وفي رواية : «لعن الله الذي وسمه» وفي رواية: «نهى عن الضرب في الوجه وعن الوسم في الوجه» رواه مسلم.

قال رحمه الله تعالى: «بابُ الرفق بالبهائم» ؛ الرفق بالبهائم يُراد به: الإحسان إلى هذا الحيوان البهيم في التعامل معه، وفي إطعامه، وتقديم الشراب له، وعدم الإضرار به، وعدم التعامل معه بما لا يحتمل ولا يطيق؛ فهذا كله من الرفق.

ودين الإسلام دين رحمة ودين لطف وإحسان، ورحمة الإسلام شملت حتى بهيمة الأنعام؛ لهذا جاءت هذه الشريعة المباركة بالحث على الرفق بالحيوان ، بل إنه كما سيأتي معنا ترتب على عدم الرفق به والإضرار به الوعيد الشديد، حتى إنه دخلت النار امرأة في هرة حبستها، وجاء في هذا المعنى أحاديث، جاء اللعن فيمن آذى بعض الحيوان بوسمه في وجهه مثل ما سيأتي معنا، كل ذلك من باب الرفق بهذا الحيوان البهيم.

وأيضًا بالمقابل الإكرام لهذا الحيوان والإحسان إليه باب من أبواب الأجر والرفعة عند الله سبحانه وتعالى، حتى إن أحد الصحابة قال للنبي عليه الصلاة والسلام: «يا رسول الله إني أذبح الشاة وأرحمها»، قال: ((والشاة إذا رحمتها

يرحمك الله)) ، وقصة المرأة البغي من بني إسرائيل التي غفر الله سبحانه وتعالى لها بسقيها للكلب، والأحاديث التي في هذا المعنى كثيرة جدًا.

وإذا تُحَدِّث عن الرفق بالحيوان وحسن التعامل معه لا يوجد إطلاقًا غير الإسلام من أتى بأحسن التعامل وأرفق التعامل مع هذا الحيوان، وحذر أشد التحذير من الإضرار به والإساءة إليه. وعندما يرفعون شعارات الرفق بالحيوانات وتُنسب إلى بعض الجمعيات الغربية أو بعض المؤسسات لا يوجد أصلًا غير الإسلام من جاء بالقواعد العظيمة والأصول العظيمة والأسس في التعامل مع هذا الحيوان البهيم والرفق به والإحسان إليه . ويتميز الإسلام بميزة في هذا الباب لا توجد في غيره؛ أن الدعوة إلى الإحسان إلى هذا الحيوان وعدم الإساءة إليه باب من أبواب الأجر والثواب الذي يتنافس عليه المسلمون ويحرصون عليه ، ولهذا أهل الفضل وأهل الخير تجد فيهم من اللطف والاهتمام بهذا الأمر -ولا سيما كبار السن ممن ألقى الله سبحانه وتعالى في قلبهم الرحمة العظيمة التي شملت حتى البهائم- تجد فيهم من اللطف والإحسان إليها أمور قد لا تخطر في بال بعض الناس .

وَحَدَّثْتُ قبل أيام عن رجل من الصالحين -نحسبه والله حسيبه- توفي من وقت ليس ببعيد، حدثني أحد جيرانه يقول: منذ عرفته وهو كل يوم يجمع بنفسه -حتى في مرضه- فضلَ الطعام ، والرز يجعله في براح من الأرض للطير، واللحم يفرزه في مكان، يقول: بشكل يومي منتظم، يجعل الأرز في براح من الأرض للطير، ويجعل اللحم في ناحية للقطط، وأعجب من ذلك وأعجب يقول يأخذ بشكل يومي شيئًا من الخبز اليابس ويفته في جانب سواري البيت، قلت: هذا لمن؟ قال: هذا للنمل، يقول: هذا بشكل يومي منذ أن عرفته إلى أن توفي وهو على هذه الحال.

هذا الآن مثل هذا الرجل وله أمثال وله نظائر إنما يقوم بذلك يرجو شيئًا عند الله سبحانه وتعالى، يرجو ثواب الله، هذه المعاني ما توجد عند الكفار، عندما يرفق بحيوان أو يتعامل مع حيوان لا يرجو شيئًا على ذلك يوم القيامة، وإنما هذه أمور تتعلق بشؤون ومصالح وأشياء دنيوية، أما الآخرة ليس لهم فيها اهتمام، ولهذا لا ينفعهم ذلك عند الله، وفي صحيح مسلم عائشة رضي الله عنها سألت النبي صلى الله عليه وسلم عن عبد الله بن جُدعان قالت: «إنه يكرم الضيف ويفك العاني ويفعل ويفعل، هل ينفعه عند الله؟» قال: ((لا، لا ينفعه عند الله، لأنه ما قال يوم قط: رب اغفر لي خطيئتي يوم الدين)). فالمسلم يمتاز في قيامه بهذه الأعمال بأنه يقوم بها من باب التقرب إلى الله سبحانه وتعالى ورجاء ثوابه جلّ وعلا.

قال: عن ابن عباس رضي الله عنهما «أن رسول الله صلى الله عليه وسلم رأى حمارًا قد وُسم في وجهه فأنكر ذلك»؛ الوسم : هو الكي بالنار بحيث تكون علامة، لأن الوسم هو العلامة، يتميز بها أن هذا لفلان، والوسم أيضًا في الإبل مثلاً إبل الصدقة حتى تميز أن هذه إبل للصدقة. والوسم جائز إذا احتيج إليه للتمييز، مثل تمييز إبل الصدقة أو نحو ذلك ؛ فإنه جائز في غير الوجه، أما الوسم في الوجه فإنه حرام ، وجاء فيه الوعيد كما سيأتي.

قال : وفي رواية «لعن الله الذي وسمه» ؛ واللعن لا يكون إلا فيما هو كبير، وهذا يدل على أن وسم الحمار أو الدابة في الوجه هذا محدود في الكبائر، لأن اللعنة لا تكون إلا فيما هو كبير.

قال: وفي رواية «نهي عن الضرب في الوجه وعن الوسم في الوجه»؛ وحتى البهيمة لا تُضرب في وجهها، إن احتاج إلى أن يؤدبها فإنه يضربها في غير الوجه، أما الضرب في الوجه لا يجوز حتى للبهيمة . والإنسان أيضًا جاء فيه أحاديث خاصة: ((إذا ضرب أحدكم فليجتنب الوجه)) ، والوجه فيه الحواس ، فيه سمع الإنسان وفيه بصره ، فيه مجمع الحواس أو جُلّ الحواس في وجهه، والضرب على الوجه إضافةً إلى ما فيه من إهانة أيضًا فيه يُخشى منه المضرة التي لا تُحمد ، عندما تقع الضربة على الوجه ؛ إما في إتلاف العين أو إتلاف السمع أو إتلاف الشم أو غير ذلك من حواس الإنسان.

قال رحمه الله تعالى :

٢٣٠ - ولهما عن أبي هريرة رضي الله عنه مرفوعًا: ((دخلت امرأة النار في هرة ربطتها فلا هي أطعمتها ولا هي أرسلتها تأكل من خشاش الأرض حتى ماتت)).

قال: ولهما -أي البخاري ومسلم- عن أبي هريرة رضي الله عنه مرفوعًا أي إلى النبي صلى الله عليه وسلم ((دخلت امرأة النار في هرة ربطتها)) أي حبستها في طرف من البيت .

((فلا هي أطعمتها ولا هي أرسلتها تأكل من خشاش الأرض حتى ماتت)) ماتت صبرًا ، أي محبوسة لم تُمكن من الانطلاق هنا وهناك حتى تأكل من خشاش الأرض ، وعندما ربطتها في طرفٍ من البيت لم تقدّم لها طعامًا يسد حاجتها، فدخلت النار في هذه الهرة .

وهنا انتبه لقوله: «دخلت امرأة النار في هرة» أي أن الدخول للنار كان بسبب هذه الهرة عندما حبستها وتركها لا تطعمها ولم تُطلقها حتى تأكل من خشاش الأرض؛ استحققت بذلك دخول النار. ولهذا الشريعة الإسلامية رتبت على الإضرار بهذا الحيوان البهيم عقوبات شديدة؛ اللعن، دخول النار، سخط الله سبحانه وتعالى، عدم الرحمة، ((من لا يرحم لا يُرحم)) فجاء فيها وعيد على ذلك.

قال: ((دخلت امرأة النار في هرة ربطتها فلا هي أطعمتها ولا هي أرسلتها تأكل من خشاش الأرض حتى ماتت))، وجاء في حديث الكسوف لما صلى بالناس عليه الصلاة والسلام، وذكر أنه رأى النار، وأخبرهم ماذا رأى في النار، مما رآه في النار هذه المرأة، رآها النبي صلى الله عليه وسلم في النار تُعذب في هرة حبستها لا هي أطعمتها ولا هي أيضا تركتها تأكل من خشاش الأرض. يفيد ذلك لو أن الإنسان استبقى عنده في البيت قطًا أو مثلاً طيرًا ولكنه يكرمه ويطعمه ويعطيه حاجته لا حرج عليه في ذلك، ولا يعرضه للأذى لا حرج عليه في ذلك،

لكن إن حبس طيراً أو حبس قطعة أو نحو ذلك ومنعها من الطعام حتى تموت ففيه هذا الوعيد. قال: ((دخلت امرأة النار في هرة)).

قال رحمه الله تعالى :

٢٣١ - ولمسلم عن ابن عمرو رضي الله عنهما مرفوعاً: ((كفى بالمرء إثماً أن يحبس عمن يملك قوته))، ولأبي داود: ((أن يضيّع من يقوت)).

قال: ولمسلم عن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما مرفوعاً: ((كفى بالمرء إثماً أن يحبس عمن يملك قوته)) ؛ والقوت: هو غذاؤه وطعامه. ومعنى «عَمَّن يملك» : عمن تحت يده ممن يجب عليه أن يقدّم لهم القوت والطعام. فكفى بالمرء إثماً أن يحبس عمن يملك قوته .

قال: ولأبي داود ((أن يضيّع من يقوت)) أي : من يلزمه قوته يضيّعه.

والعلماء رحمهم الله قالوا: تضييع من يقوت يشمل البخل، بخل الإنسان على مثلاً أهله وولده ومن يجب عليه أن ينفق عليهم . يشمل أيضاً كما ذكر العلماء رحمهم الله تعالى أن يبقى الإنسان عاطلاً عنده قوة وعنده نشاط وعنده قدرة على العمل ويبقى عاطلاً عن العمل فيضيّع من يقوت، لا يتسبب في اكتساب الرزق لأهله وأولاده ويبقى عاطلاً فأيضاً يشمل قوله: ((كفى بالمرء إثماً)) ، مادام أن الله أعطاه قوة وأعطاه نشاط وأعطاه صحة وأعطاه عافية، يتحرك ﴿فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِنْ رِزْقِهِ﴾ [التك: ١٥] يبذل السبب، ((احرص على ما ينفعك)). قالوا: إذا بقي عاطلاً لا يتحرك في العمل وبذل السبب ولا يجتهد، نعم إن اجتهد ولم يتيسر له لا حرج، لكن إن بقي عاطلاً عن العمل فإنه عرضة لمثل هذا الوعيد الذي جاء في هذا الحديث ، ويدخل في عمومها ما ترجم له المصنف الذي هو الرفق بالحيوان ، إذا كان عنده حيوان من طير أو قط أو غير ذلك فإنه يجب عليه أن يعطيه قوته ، وإلا يتركه ينطلق في الأرض يأكل مما يهيئ الله سبحانه وتعالى له ويسر.

قال رحمه الله تعالى :

٢٣٢ - ولهما عن الحسن رحمه الله أنه قال لصاحب الجمل الذي لم يعلفه: ((أما إنه ليحاجك يوم القيامة)).

قال: «ولهما» أي البخاري ومسلم ؛ عن الحسن «أنه» أي النبي عليه الصلاة والسلام «قال لصاحب الجمل الذي لم يعلفه: أما إنه ليحاجك يوم القيامة» ؛ هذا الحديث ليس في الصحيحين ، ولعل ما ورد هنا «ولهما»

تكون من النُساخ أو شيء من هذا القبيل، لكن الحديث ليس في الصحيحين، وهو بهذا اللفظ عند هناد في كتابه «الزهد» قال: عن الحسن «مرّ رسول الله ببعير معقول في صدر النهار» ، ومعنى معقول: أي لا يستطيع أن يتحرك ليبحث عن أكل، مقيد في مكانه، «فمضى النبي صلى الله عليه وسلم في حاجته ثم رجع إليه والبعير على حالته» معقول لم يمكن أن ينطلق يبحث عن طعام، ولم يؤت بالطعام عنده وهو معقول، «فقال النبي صلى الله عليه وسلم لصاحبه: أما علّفتَ هذا شيئاً اليوم؟» يعني هذه المدة الطويلة وقد عقلته، «قال: لا، قال: أما إنه ليحاجّك يوم القيامة» في تضييعك لقوته.

فهذا اللفظ الذي أشار إليه رحمه الله هو في «الزهد» لهناد، وجاء في سنن أبي داود بمعنى مقارب قال: «دخل النبي صلى الله عليه وسلم حائطاً لرجل من الأنصار فإذا جمل، فلما رأى النبي عليه الصلاة والسلام حنّ -أي الجمل- وذرفت عيناه، فأتاه النبي صلى الله عليه وسلم فمسح ذفره فسكت، فقال: من ربّ هذا الجمل؟ -لمن هذا الجمل؟- فجاء فتى من الأنصار فقال: لي يا رسول الله، فقال: أفلا تتقي الله في هذه البهيمة التي ملكك الله إياها، فإنه شكى إليّ أنك تُجيعه وتدئبه»، تجيعه : لا تقدم له الطعام الذي يكفيه ويسد حاجته. وتدئبه: تتعبه في العمل الشديد والعمل الكثير، فكان يشتكي من ذلك.

فإذاً بمثل هذه النصوص ولها نظائر كثيرة في سنة النبي الكريم عليه الصلاة والسلام نجد أن الإسلام هو الذي جاء بهذا المعنى الذي هو الرفق بالحيوان والإحسان إليه واللطف به، وأما ما عند الغرب مما يسمى رفق بالحيوان كثيرٌ منه تشبّه بالحيوان ، وكثير منه انحطاط بالمستوى الإنساني ، مما يُعد رفقاً بالحيوان بعض النساء تملك كلباً ويبيت معها في سريرها ، ويحصل في بعض بيوتاتهن خصومات بين الزوج وبين الكلب ، الزوج يريد أن يكون هو الذي معها على السرير، وهي تقول: لا، الكلب، ويعُدّون مثل ذلك من باب ال.... ، وصور مثل هذه كثيرة جداً في العالم الذي يحسن أن يسمى «المحتضر» وليس «المتحضر»، لأن هذا احتضار هذا هلاك، أمور كثيرة هي في الحقيقة من الهلاك والدمار، أما المعاني الجميلة والمعاني الصحيحة فهي في الإسلام في أجمل ما يكون من صورة، وأيضاً من حيث أنها في الإسلام باب من أبواب القرب، أما أولئك هذه الأمور الجيدة من الأمور التي يقوم بها بموته ينتهي، لم يقدّمها لشيء يرجوه يوم يلقى الله سبحانه وتعالى.

قال رحمه الله تعالى :

بابُ إباق العبد

٢٣٣ - عن جرير بن عبد الله رضي الله عنه مرفوعاً: ((أما عبدٌ أبق فقد برئت منه الذمة)).

قال: «بابُ إباق العبد»: أي فراره وهروبه من سيده ومولاه . وهذا جاء فيه وعيد شديد، كما أورد المصنف رحمه الله تعالى عن جرير بن عبد الله رضي الله عنه مرفوعاً إلى النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : ((أَيُّمَا عَبْدٍ أَبَقَ)) أي فرّ وهرب من سيده ((فقد برئت منه الذمة)) لأنه لا ذمة له .

وجاء في رواية أخرى في صحيح مسلم قال: ((أَيُّمَا عَبْدٍ أَبَقَ فَقَدْ كَفَرَ حَتَّى يَرْجِعَ إِلَيْهِ)) ، ومعنى «كفر»:

- قيل : كَفَرَ النعمة.
- وقيل: إن ذلك من أعمال الكفار وطرائقهم.
- وقيل: إن ذلك قد يفضي به إلى الكفر.
- وقيل: هو كفر بالله سبحانه وتعالى إن كان استحلالاً منه لما حرمه الله سبحانه وتعالى.

قال رحمه الله تعالى :

بابُ ظلم الأجير

٢٣٤ - عن أبي هريرة رضي الله عنه مرفوعاً: ((قال الله تعالى: ثلاثة أنا خصمهم يوم القيامة ، ومن كنتُ خصمه خصمته ؛ رجلٌ أعطى بي ثم غدر، ورجلٌ باع حرّاً فأكل ثمنه، ورجلٌ استأجر أجيراً فاستوفى منه ولم يؤته أجره)) رواه البخاري.

قال: «بابُ ظلم الأجير» الأجير : هو من يُستأجر لعملٍ ما بمقابل، فإذا قام بالعمل الذي طُلب منه فيجب أن يعطى أجره وافياً غير منقوص، فمن ظلمه: عدم إعطائه أجره ، أو بخسه حقه، أو تكليفه بأزود من العمل المتفق عليه وتعليق الأجرة المتفق عليها بذلك. فكل نوع من أنواع الظلم للأجير يحرم ولا يجوز وجاء فيه الوعيد في شريعة الإسلام، من ذلك ما جاء في هذا الحديث وهو في صحيح البخاري .

عن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: ((قال الله تعالى)) فهذا حديث قدسي، والحديث القدسي: هو ما كان لفظه ومعناه من الله سبحانه وتعالى، والنبي صلى الله عليه وسلم يرويه عن ربه، لأنه في الحديث القدسي يقول: ((قال الله تعالى)) ، فالحديث القدسي لفظه ومعناه من الله عزّ وجلّ إلا أنه ليس متعبداً بتلاوته، أما القرآن فإنه متعبداً بتلاوته.

قال : ((قال الله تعالى: ثلاثة أنا خصمهم يوم القيامة، ومن كنتُ خصمه خصمته)) ؛ ينبغي أن يُعلم أن الله خصم لكل ظالم يوم القيامة وكل معتدٍ، لكن تخصيص هؤلاء بالذكر في هذا السياق وتعيين هؤلاء الثلاثة وتحديدهم بقوله جلّ وعلا: ((ثلاثة أنا خصمهم)) مع أنه جلّ وعلا خصمٌ لكل ظالم وكل معتدي يوم القيامة؛ يدل على غلظ عمل هؤلاء وشناعته.

الأول : قال ((رجل أعطى بي ثم غدر)) ؛ أعطى بي : أي حلف بالله عز وجل الأيمان المغلظة ثم نقض العهد. "والله لأفعلن كذا، أو لأعطين كذا، أو والله لأقومن بكذا" ثم غدر نقض العهد، وهو أعطى يمين بالله عز وجل على هذا الأمر . ففيه عدم تعظيم اليمين، تعظيم الله سبحانه وتعالى، وفيه الغدر الذي هو من أوصاف المنافقين. قال: ((ورجل باع حرًا فأكل ثمنه)) ؛ وهذا باب من أبواب الظلم والعدوان ؛ يأخذ حرًا ويدّعي أنه مملوك له ثم يبيعه من أجل أن يأخذ ثمنًا ، ويبقى ذلك الرجل الحر عبدًا اشتروه من هذا الشخص الذي ادّعى أنه مملوك له!! ففيه هذا الوعيد وأن الله سبحانه وتعالى خصمه يوم القيامة.

الثالث وهو موضع الشاهد للترجمة : ((ورجل استأجر أجيرًا فاستوفى منه)) أي العمل المطلوب من حفر أو بناء أو غير ذلك من الأمور ((ولم يؤته أجرته)) .

قال رحمه الله تعالى :

باب سؤال المرأة الطلاق

٢٣٥ - أخرج الترمذي وابن حبان في صحيحه عن ثوبان رضي الله عنه مرفوعًا: ((أما امرأة سألت زوجها الطلاق من غير ما بأس فحرام عليها رائحة الجنة)).

قال: «باب سؤال المرأة الطلاق» أي تطلب من زوجها الطلاق من غير بأس ، من غير أمر يحوجها إلى ذلك أو يضطرها إلى ذلك فهذا من كبائر الذنوب إذا لم يكن هناك بأس، أما إذا كان هناك بأس أمر يضطرها إلى أن تطلب أو تطلب الخلع أو نحو ذلك لا حرج عليها ، لكن إذا كان ما هناك بأس أو أمر يحوجها ويضطرها إلى ذلك فهذا من كبائر الذنوب.

وفيه هذا الحديث أخرجه الترمذي وابن حبان في صحيحه عن ثوبان عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : ((أما امرأة سألت زوجها الطلاق من غير ما بأس)) ومعنى : «من غير ما بأس» : أي من غير ضرورة، من غير حاجة، من غير أمر يضطرها إلى أن تطلب منه الطلاق .

((فحرام عليها رائحة الجنة)) ولا يأتي مثل هذا الوعيد إلا في الكبائر، ((حرام عليها رائحة الجنة)) فهذا وعيد لمن كان كذلك وهذه عقوبتها عند الله سبحانه وتعالى. ومثل هذه الأحاديث أحاديث الوعيد تبقى على هيئتها وقوّتها في الزجر والنهي عن هذه الكبائر وعن هذه العظائم ، والواجب على المرأة أن تتقي الله سبحانه وتعالى ، وأن تحذر من موجبات غضبه، وسؤال المرأة من زوجها أن يطلّقها من غير بأس هو من عظام الذنوب ويستوجب هذه العقوبة.

سبحانك اللهم وبحمدك ، أشهد أن لا إله إلا أنت ، أستغفرك وأتوب إليك .

اللهم صلّ وسلّم على عبدك ورسولك نبينا محمد وآله وصحبه أجمعين.

الدرس الثامن والثلاثون

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله ربّ العالمين، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله؛ صلى الله وسلم عليه وعلى آله وأصحابه أجمعين . أمّا بعد:

قال شيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب رحمه الله تعالى في كتاب الكبائر :

باب ما جاء في الديوث

٢٣٦ - عن ابن عمر رضي الله عنهما مرفوعاً: ((ثلاثة لا يدخلون الجنة: العاق لوالديه، والديوث، ورجلة النساء)). رواه في المستدرک والطبرانی بسند قال المنذري لا أعلم فيه مجروحاً قريباً منه ، وفيه: «فما الديوث؟» قال: ((الذي لا يبالي بمن دخل على أهله)) ، قيل: «فما الرجل؟» قال: ((التي تتشبه بالرجال)).

قال رحمه الله تعالى: «باب ما جاء في الديوث»؛ هذه الترجمة عقدها رحمه الله تعالى لبيان كبيرة من عظام الكبائر وشنيعة من عظام الذنوب؛ ألا وهي الديّانة، وهي أن يرضى المرء -والعياذ بالله- المرء الخبث والسوء والفاحشة لأهله، وهذا إنما يصل إليه الإنسان إذا تنهى في الخبث والشرّ والفساد، وأظلم قلبه واشتد مرضه في المعصية وإيغاله فيها يصل إلى هذه الدرجة أن يرضى الخبث لأهله.

ومن خاصة الإيمان أن المؤمن ملئ قلبه غيرَةً على حُرْمه وعلى أهله، والمؤمن يغار غيرة عظيمة ومستعد أن يضحي بكل ما يملك حفظاً لشرفه وبقاءً لعفته، أما من يصل به الحال إلى أن يرضى الخبث لأهله فهذه حال إنما يصل إليها المرء إذا تنهى في الخبث والفساد . ووصول المرء إلى الديانة لا بد أن يكون قبله أشياء توصله إليها وتفضي به إليها، ومن أعظم ما دُكر في الإفضاء بالإنسان إلى الديانة تعاطي المخدرات، فإن هذه تلغي غيرة الإنسان، وتُتلف حميته ونخوته، وتجعله في هذا الحضيض، ومما يُذكر أنه أيضاً يجلب للإنسان هذه الخصلة الذميمة أكل لحم الخنزير، وعموماً المعصية يجرّ بعضها إلى بعض ويفضي بعضها إلى بعض، والله يقول: ﴿لَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ

الشَّيْطَانِ﴾ [النور: ٢١].

أورد رحمه الله تعالى حديث عبد الله بن عمر رضي الله عنهما مرفوعاً قال: ((ثلاثة لا يدخلون الجنة)) ؛ وهذا وعيد شديد بالحرمان من دخول الجنة في خصال ثلاثة.

((العاق لوالديه)) ؛ ومّر معنا ترجمة خاصة في العقوق، وأن العقوق جاء قرين الإشراف بالله في قول النبي صلى الله عليه وسلم: ((ألا أنبئكم بأكبر الكبائر؟ قلنا: بلى يا رسول الله، قال: الإشراف بالله، وعقوق الوالدين)).

والأمر الثاني قال: ((والديوث)) وجاء تفسيره في بعض الأحاديث الصحيحة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم: ((الذي يقَرّ الخَبَث في أهله))، جاء هذا في المسند وغيره. ومعنى «يقَرّ»: أي يعلم به ويكون مطلعاً عليه فيقرّ ذلك، وهذا شنيعٌ، وأشنع منه من يجلب الخَبَث إليهم، وبعض من يتعاطى المخدرات يصل إلى هذه المرحلة، يضحى بشرفه في سبيل الحصول على المخدّر.

قال: ((وَرَجَلَةُ النساء)) ؛ والمراد بالرجلة من النساء: أي المتشبهة بالرجال في خصالهم وخصائصهم وأوصافهم في غير العلم والإيمان، أما التشبه بالصالحين في العلم والإيمان، بطلب العلم والإقبال على العبادة، فهذا من الخصال العظيمة، لكن المراد التشبه بهم في خصائص الرجال، إما في لباسه أو في هيئته أو في نطقه وحديثه.

قال: ((رواه في المستدرک والطبرانی بسند قال المنذري لا أعلم فيه مجروحاً قريباً منه وفيه: "فما الديوث؟ قال: الذي لا يبالي بمن دخل على أهله)) بمعنى أنه يُقرّ الخَبَث في أهله، كما جاء ذلك في بعض الأحاديث. ((قيل: فما الرجلة؟ قال: التي تتشبه بالرجال)).

فيما يتعلق بالديوث -موضوع الترجمة- ذكر ابن القيم رحمه الله تعالى في كتابه «الجواب الكافي» قال بعد كلام سبق: «وهذا يدلُّك على أنّ أصل الدين الغيرة، ومن لا غيرة له لا دين له، فالغيرة تحمي القلب فتحمي له الجوارح، فترفع السوء والفواحش، وعدمها -أي عدم الغيرة- يمت القلب، فتموت الجوارح فلا يبقى عندها دفع البتة، والغيرة في القلب مثل القوة التي تدفع المرض وتقاومه، فإذا ذهبت القوة وجد الداء مكاناً قابلاً، ولم يجد دافعاً فتمكّن؛ فكان الهلاك» انتهى كلامه رحمه الله.

قال رحمه الله تعالى :

بابُ ظلم المرأة

٢٣٧ - أخرج الطبراني بسند رجاله ثقات أنه صلى الله عليه وسلم قال: ((أيا رجل تزوج امرأة على ما قلّ من المهر أو كثر وليس في نفسه أن يؤدي إليها حقها، خدعها فمات ولم يؤدّ إليها حقها لقي الله يوم القيامة وهو زان)).

قال: «بابُ ظلم المرأة» ؛ ظلم المرأة : أي أن يظلمها من نكحها مستغلاً قوته وضعفها وقلة حيلتها؛ فهذا فيه العقوبة الشديدة عند الله سبحانه وتعالى. ومن الظلم للمرأة أن يعقد عليها على صداقٍ ما ومن نيته وعزمه أن لا يفي بإعطائهم ذلك الصداق، لأن بعض الناس مثلاً يكون عليه صداق ويدفع المتيسر ويبقى في ذمته يقول: "أوفي

به فيما بعد"، ويوجد الآن ما يسمّى بالمؤخّر يتعاملون به في بعض الأماكن ويكون من نيته عدم دفعه، عازم ألا يدفع ذلك وعاقده العزم ألا يدفع ذلك؛ فهذا ظلم عظيم للمرأة، ومن فعل ذلك يكون اجتمع فيه جملة من الذنوب العظيمة؛ منها الغدر، ومنها الظلم والجور والتعدي والإجحاف في حق المرأة، ومنها تحصيل المنافع من هذه المرأة ولا يكون على ذلك عوض. الشاهد أنه اجتمع فيه في فعلته هذه جملة من الذنوب العظيمة.

وأورد رحمه الله تعالى هذا الحديث قال: أخرج الطبراني بسند رجاله ثقات أنه صلى الله عليه وسلم قال: ((أيا رجل تزوج امرأة على ما قلّ من المهر أو كثر وليس في نفسه أن يؤدي إليها حقها؛ خدعها)) ؛ «ليس في نفسه» أي قلبه، بمعنى أنه عازم من الأصل ألا يعطيها الصداق، فيخرج من كان عازمًا على إعطائها الصداق لكنه أعسر، ضاقت عليه الأمور ولم يتمكن، فهذا له عذره، تزوج وكان من نيته أن يعطيها الصداق أو المتبقي لها لكنه حصل له خسائر مثلاً، أو أعسر، أو كان عمل أعمالاً لم يحصل مثلاً منها شيء فهذا له عذره، لكن من دخل أصلاً ومن نيته ألا يعطيها حقها مكرًا وخداعًا وغدرًا فهذا الذي جاء فيه هذا الوعيد.

قال: ((فمات)) وهو على هذه الحال ((ولم يؤد إليها حقها لقي الله يوم القيامة وهو زان)) والمراد: أن إثمه بهذه الشناعة، من جهة أنه استباح هذه المرأة وحقها مضيع، صداقها ومهرها ضيّع، واستباح فرجها واستمتع بها وحقها مضيع، فيلقى الله سبحانه وتعالى وهو زان؛ أي لعظم وغلظ وشناعة معصيته وذنبه.

قال رحمه الله تعالى :

باب الإشارة بالسلاح على وجه اللعب

٢٣٨ - عن أبي هريرة رضي الله عنه مرفوعاً: ((لا يشير أحدكم إلى أخيه بالسلاح ، فإنه لا يدري لعل الشيطان ينزغ في يده فيقع في حفرة من النار)) أخرجاه.

قال رحمه الله تعالى: «باب الإشارة بالسلاح على وجه اللعب» ؛ السلاح : من مثلاً سيف أو خنجر أو بندقية أو غير ذلك من أنواع السلاح ، يشير بها أي إلى أخيه، على وجه اللعب والمزاح والمداعبة؛ فيرفع السيف أو يرفع الخنجر أو يرفع البندقية يصوّبها إلى جهته من باب المزاح معه، ليس جاداً وإنما مازحاً؛ فهذا العمل من الكبائر، وجاءت فيه أحاديث واضحة أن مثل هذا الصنيع من كبائر الذنوب، ولا يجوز لمسلم أن يرفع حديدة أو سكيناً أو سيفاً أو غير ذلك في وجه أخيه.

قال: عن أبي هريرة رضي الله عنه مرفوعاً: ((لا يشير أحدكم إلى أخيه بالسلاح، فإنه لا يدري لعل الشيطان ينزغ في يده فيقع في حفرة من النار)) ؛ هذا الرفع من الحكيم في النهي عنه : أن الشيطان قد ينزغ في نفس من

رفع هذا السلاح مازحًا، ينزغ في يده فيضرب بها أخيه ضربة تكون قاتلةً له، فيقع في حفرة من النار؛ لأنه قتل أخاه، فيكون استحق هذه العقوبة أن يكون يوم القيامة في حفرة من حفر النار.

وقوله «ينزغ» أي كما قال الله سبحانه وتعالى: ﴿وَقُلْ لِعِبَادِي يَقُولُوا الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ الشَّيْطَانَ يَنْزَغُ بَيْنَهُمْ﴾ [الإسراء: ٥٣] ؛ فالشيطان ينزغ، يرفع يده بالسلاح ثم مثلاً الشيطان يأتي إلى من رُفع في وجهه السلاح ويوهمه أن هذا صادق، فيهجم عليه ليدافع وينزغ بينهم الشيطان حتى يقع ما لا يُحمد. وهذا من كمال هذه الشريعة ، وحفظها للدماء، وإبعادها للناس عن إغواء الشيطان؛ فهذا من كمال هذه الشريعة وعظمتها وحُسن دفعها للشرور عن الناس، فجاءت بالمنع عن مثل ذلك ولو كان على وجه المزاح واللعب.

قال رحمه الله تعالى :

٢٣٩ - ولمسلم: ((من أشار إلى أخيه بحديدة فإن الملائكة تلعنه حتى يردّها، وإن كان أخاه من أبيه وأمه)).

قال: ولمسلم ((من أشار إلى أخيه بحديدة)) أي رفع الحديد في وجهه، سواء كانت سكينًا أو خنجرًا أو سيفًا أو غير ذلك.

((فإن الملائكة تلعنه حتى يردّها)) وهذا فيه أن هذا الصنيع من كبائر الذنوب، لأن اللعن لا يكون إلا في الكبائر.

قال : ((وإن كان أخاه من أبيه وأمه)) يعني لو كان أخ في البيت يمزح مع أخيه وأخذ سكينًا ورفعها لعنته الملائكة، أخذ سكينًا أو أخذ بندقية هذا يحصل في البيوت أوفي الرحلات مع اخوانه ومعه بندقية فيصوبها إلى أخيه ويضحك يداعبه، يقول: ((لعنته الملائكة)) ؛ فيه لعن ، واللعن لا يكون إلا في الكبائر. وكم من مرة يحصل لاسيما في البندقية، بعضهم يصوبها من باب المزاح وبظنها خالية ليس فيها شيء، ثم يحرك الإصبع فتنتطق الرصاصة القاتلة لمن أمامه، ولم يكن من نيته أن يقتله، لكن هذا هو نزغ الشيطان الذي أخبر عنه النبي الكريم عليه الصلاة والسلام.

وإنما أُوخذ اللاعب بهذه الطريقة وجاء في حقه هذا الوعيد «اللعن»: لما أدخله في قلب أخيه من الروعة، ولا يحل لمسلم أن يروّع مسلمًا، فيقع في قلبه روعة وخوف عندما يُرفع أو يُشهر السلاح في وجهه أو البندقية تصوّب إليه، فإن هذا ولا شك يُدخل في قلبه شيء من الروعة، هذا من جهة ، ومن جهة أخرى أن الشيطان ينزغ فرما أوقعه في المحذور وتردى في حفرة من النار كما في الحديث الذي قبله.

قال رحمه الله تعالى :

٢٤٠ - وللترمذي وحسنه عن جابر رضي الله عنه: «نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن تعاطي السيف مسلولا».

٢٤١ - وفي المسند عن أبي بكر رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم مرّ على قوم يتعاطون السيف مسلولا فقال: ((لعن الله من فعل هذا، أوليس قد نهيته عنه؟)) ثم قال: ((إذا سلّ أحدكم سيفه فنظر إليه ثم أراد أن يناوله أخاه فليغمده ثم يناوله إياه)).

قال: وللترمذي وحسنه عن جابر رضي الله عنه: «نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن تعاطي السيف مسلولا» أي يكون قد أُخرج من غمده ويمده إلى صاحبه والسيف مسلول؛ وهذا لاشك أنه خطر على من مُدّ إليه السلاح، ونبيينا عليه الصلاة والسلام نهي عن ذلك حفظاً للناس ودمائهم من أن يتعرضوا لشيء من الخطر، حتى إنه جاء عنه عليه الصلاة والسلام «أن من مرّ بالسوق ومعه نصال فليضع يده على حافتها حتى لا يصيب بها أحد»، كل ذلك تحنيئاً للناس وإبعاداً لهم عن الخطر والمضرة.

ولما نهى عن تعاطي السيف مسلولا مرّ مرة عليه الصلاة والسلام - كما في الحديث الذي بعده - يقوم فوجدهم يتعاطون السيف مسلولا وكان نهى عن ذلك فقال: ((لعن الله من فعل هذا)) نهاهم لما فيه من خطر، ثم وجدهم يتعاطون السيف مسلولا فقال: ((لعن الله من فعل هذا! أوليس قد نهيته عنه؟)) والقاعدة أن النبي عليه الصلاة والسلام لا ينهى إلا عما فيه شر ومضرة على الناس، لا ينهى عن أمر فيه خير لهم. قال: ((أوليس قد نهيته عنه؟))

ثم قال: ((إذا سلّ أحدكم سيفه فنظر إليه ثم أراد أن يناوله أخاه فليغمده ثم يناوله إياه)) ؛ ومما هو قريب من هذا الباب مدّ السكين الحادة ، بعضهم عندما يُطلب منه السكين يكون ممسكاً لها بالمقبض ويمدها إلى من طلبها بالجهة الحادة ، وهذا خطر على من تُمدُّ له السكين بهذه الطريقة.

وعندما نقرأ مثل هذه الأحاديث والله ندرك جمال هذه الشريعة وعظمتها وحُسنها، وكيف أنها مع المسلم في كل باب تدرأ الشر وتبعد الناس عن الفتن وكل ما يجر إليهم الخطر وتمنع من ذلك. وإذا كان مجرد التعاطي للسيف مسلولا فيه اللعن، فكيف بمن يرفع السيف ويشهره على المسلمين!! وأيضاً يشهر البندقية ويرمي القذائف ويقتل في الناس ولا يبالي بالدماء؟! إذا كان من سلّ السيف مسلولا وناوله صاحبه يعطيه إياه فيه هذا اللعن فكيف بمن يجرؤ على سلّ السيف وإشهاره وقتل المسلمين به؟! والعياذ بالله.

قال رحمه الله تعالى :

بَابُ الْعَصِيَّةِ

٢٤٢ - عن جندب بن عبد الله رضي الله عنه مرفوعاً: ((من قُتِلَ تحت راية عُُمَيَّة يدعو عَصِيَّةً أو ينصر عَصِيَّةً فقتلته جاهلية)) رواه مسلم.

قال: «بَابُ الْعَصِيَّةِ»؛ العَصِيَّة: التعصّب للقوم، أو التعصّب للهوى، والانتصار للقوم حتى وإن كانوا بغاة ظلمة معتدين؛ هذه عَصِيَّة باطلة ما أنزل الله بها من سلطان، وهذه الحمية الجاهلية التي ما أنزل الله تبارك وتعالى بها من سلطان.

قال: عن جندب بن عبد الله رضي الله عنه مرفوعاً: ((من قُتِلَ تحت راية عُُمَيَّة يدعو عَصِيَّةً أو ينصر عَصِيَّةً فقتلته جاهلية)) أي يموت يوم يموت وهو على هذه الحال على خصلة من خصال الجاهلية وصفة من صفاتهم، لأن هذا من أعمال الجاهلية؛ التعصبات للعرق أو للقوم أو للهوى أو نحو ذلك من التعصبات التي ما أنزل الله تبارك وتعالى بها من سلطان.

قال رحمه الله تعالى :

٢٤٣ - ولأبي داود بسند جيد عن ابن مسعود رضي الله عنه مرفوعاً وموقوفاً: ((فمن نصر قومه على غير الحق فهو كالبعير الذي رُدِّي في بئر فهو يُنزع بذنبه)).

قال: ولأبي داود بسند جيد عن ابن مسعود رضي الله عنه مرفوعاً وموقوفاً: ((فمن نصر قومه على غير الحق)) أي كما تقدم؛ عَصِيَّة للعرق أو للعشيرة ولو كانوا على غير حق ولو كانوا على باطل، فهذا الانتصار نوع من الجاهلية وخصلة من خصلاتهم، ولهذا تقدم في الحديث الذي قبله: ((فقتلته جاهلية)).

وهنا مثّل لهذا النوع من الانتصار بهذا المثل فقال : ((فهو كالبعير الذي ردي في بئر فهو ينزع بذنبه)) يعني هذا المنتصر كحال البعير الذي رُدِّي في بئر، معنى ذلك أن مقدمة البعير نزلت في البئر ومؤخرته بارزة للناس، فهو يُنزع بذنبه.

وهنا تنبيه على معنى مهم في هذه القضية: عندما يتردى البعير في البئر وتنشب مقدمته ويكون البارز ذنبه، ذنب البعير الناشب في البئر لا يَمَكِّن من يريد أن يخرج هذا البعير بهذا الثقل من البئر، فهو يُنزع بذنبه، لكن هل نزع ذنبه يَمَكِّن من خروج هذا الجسم الثقيل الكبير بنزعه بالذنب؟! وهذا يبين أن -والعياذ بالله- من يدخل في هذه العَصِيَّة الجاهلية ينشب فيها ويتوشط فيها مثل حال هذا البعير، ويسلك المسالك الشديدة الشنيعة، ويتوغل في هذا الأمر ويتورط فيه مثل حال هذا البعير الذي دخلت مقدمته في بئر ولم يبق إلا ذنبه، ويُنزع من ذنبه لكن هذا

لا يُمْكِن من إخراجِه، يعني المقصود بهذا المثل -والله تعالى أعلم- أن من يدخل في هذه العصبية ليس من السهل أن يخرج منها إلا إن عافاه الله سبحانه وتعالى وسلّمه.

قال رحمه الله تعالى :

باب من آوى محدثاً

٢٤٤ - عن علي رضي الله عنه قال: حدثني رسول الله صلى الله عليه وسلم بأربع كلمات: ((لعن الله من ذبح لغير الله، لعن الله من لعن والديه، لعن الله من آوى محدثاً، لعن الله من غير منار الأرض)) رواه مسلم.

قال: «باب من آوى محدثاً» وتُضبط أيضاً «محدثاً» ؛ وإيواء المحدث : بمعنى نصر البدعة والانتصار لها والحماية لها والمعاونة في نشرها. وإيواء المحدث : أي الجاني، له جناية له تعدّي، فيؤيه أي يحميه وينصره. وهذا فيه وعيد شديد يدلّ على أن هذا الصنيع من كبائر الذنوب كما في هذا الحديث الذي ساقه المصنف حديث علي بن أبي طالب رضي الله عنه ؛ قال: حدثني رسول الله صلى الله عليه وسلم بأربع كلمات: ((لعن الله من ذبح لغير الله، لعن الله من لعن والديه، لعن الله من آوى محدثاً، لعن الله من غير منار الأرض)).

أولى هذه الخصال، أشدها ولهذا قدمت وهي: ((الذبح لغير الله))، وهو من الشرك الأكبر الناقل من الملة، قال الله تعالى: ﴿قُلْ إِنْ صَلَّاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٦٢) لَا شَرِيكَ لَهُ﴾ [الأعام: ١٦٢- ١٦٣]، والنسك: الذبح، فالذبح لغير الله شركٌ، وصاحبه مستحق للعنة لارتكابه هذه الكبيرة التي هي من عظام الذنوب وكبيرها.

الأمر الثاني: ((لعن الله من لعن والديه))، وهذا فيه شاهد لما سبق أن عقوق الوالدين جاء في النصوص قريناً للشرك، كما في الحديث: ((ألا أنبئكم بأكبر الكبائر؟ قلنا: بلى يا رسول الله، قال: الإشراك بالله، وعقوق الوالدين))، فجاء عقوق الوالدين قريناً للشرك، وهنا أيضاً جاء عقوق الوالدين قريناً للشرك، لأن لعن الوالدين - سواء كان اللعن تسبباً أو ابتداءً- من كبائر الذنوب ومن أعظم العقوق للوالدين، ولعن الوالدين على طريقتين:

١. إما ابتداءً بأن يوجّه -والعياذ بالله- اللعن لوالديه مباشرة .

٢. أو بالتسبب، وهذا وضّحه النبي صلى الله عليه وسلم في الحديث عندما قيل له: «وهل يسبّ الرجل والديه؟» قال: ((يسبّ أبا الرجل فيسبّ أباه، ويسبّ أمّه فيسبّ أمّه)) فيكون تسبب بلعن والديه عندما يلعن أبا أحدٍ فيحرك فيه غيظاً فيلعن والديه فيسبّ أباه ويسبّ أمه.

فإذا لعن الوالدين على طريقتين: إما ابتداءً أو تسبباً ، وفي كلٍّ منهما هذا الوعيد، ((لعن الله من لعن والديه))، واللعن الذي هو ابتداءً أشد، وكلّ منهما مستوجب للعنة.

الأمر الثالث: ((لعن الله من آوى محدثاً))؛ وهذا موضع الشاهد من هذا الحديث للترجمة ، وإيواء الحديث الجاني: بحمايته ونصرته والذب عنه وعدم تمكين أصحاب الحق والجناية من أخذ حقهم، فهذا فيه هذا اللعن وفيه هذا الوعيد، وهو موضع الشاهد من هذا الحديث للترجمة.

قال في الأمر الرابع: ((لعن الله من غيّر منار الأرض)) ؛ ومنار الأرض المراد به : العلامات التي تُميز بها الحدود، فيكون بين مُلك فلان ومُلك فلان علامات تميّز حد فلان وحد فلان، إذا غُيِّرَت هذه العلامات وأدخل هذه العلامات في أرض جاره اتسعت أرضه وضاعت أرض جاره ، وأقتطع فيها جزء من أرض جاره ظلماً ، فهذا من التغيير في منارات الأرض. أيضاً من التغيير تغيير العلامات التي يُهتدى بها؛ بحيث يضيّع الناس عن الجادة وعن الطريق، فهذا أيضاً مما يتناوله هذا الحديث بقوله: ((لعن الله من غيّر منار الأرض)) .

سبحانك اللهم وبحمدك ، أشهد أن لا إله إلا أنت ، أستغفرك وأتوب إليك .
اللهم صلّ وسلّم على عبدك ورسولك نبينا محمد وآله وصحبه أجمعين.



شرح كتاب الكبائر

لشيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب رحمه الله

من الدرس ٣٩ إلى الدرس ٤١

شرح الشيخ عبد الرزاق بن عبد المحسن البدر حفظهما الله تعالى

١٥/٠٢/١٤٤١ هـ

الدرس التاسع والثلاثون

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله ربّ العالمين، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله ؛ صَلَّى الله وسلّم عليه وعلى آله وأصحابه أجمعين. أمّا بعد:

قال شيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب رحمه الله تعالى في كتاب الكبائر :

كتابُ المظالم

بابُ ظلم اليتيم

وقول الله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَىٰ ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا وَسَيَصْلَوْنَ

سَعِيرًا﴾ [النساء: ١٠] .

قال رحمه الله تعالى: «كتابُ المظالم» ؛ المظالم: جمع مظلومة، والمظلومة يُراد بها : ما يقع من الإنسان من تعدي وتجني على الآخرين، سواءً في الأنفس أو في الأموال أو في الأعراض. والظلم ظلمات يوم القيامة، والحقوق تُؤدّى يوم القيامة كما صحّ في الحديث عن نبينا صَلَّى الله عليه وسلّم أنه قال: ((لَتُؤَدَّنَ الحقوق يوم القيامة)). . وجاء في الحديث عن نبينا عليه الصّلاة والسّلام أن الله جلّ وعلا يقول يوم القيامة: ((لا ينبغي لأحدٍ من أهل الجنّة أن يدخل الجنّة ولأحدٍ من أهل النّار عليه مظلمة حتى اقتصّها منه، ولا ينبغي لأحدٍ من أهل النّار أن يدخل النّار، ولأحدٍ من أهل الجنة عليه مظلمة حتى اقتصّها منه، حتى اللّطمة)). فالظلم ظلمات يوم القيامة، والظالمون يُطوّقون ما ظلموا يوم القيامة، أي: يأتون به طَوْقًا على أعناقهم خزيًا لهم بين العالمين وعلى رؤوسِ الأشهاد يوم القيامة.

وأورد رحمه الله تعالى قول الله عزّ وجلّ: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَىٰ ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا﴾ [النساء: ١٠] ؛ وهذه الآية فيها نوع من أنواع الظلم، وهو أكل مال اليتيم. والمراد بأكله: أي بغير حقّ. هذا هو المراد.

قال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَىٰ ظُلْمًا﴾ فالمراد بذلك أكله بغير حقّ. أمّا إذا كان القائم على مال اليتيم فقيرًا فله أن يأكل بالمعروف، ﴿وَمَنْ كَانَ فَقِيرًا فَلْيَأْكُلْ بِالْمَعْرُوفِ﴾ [النساء: ٦] ، فهذا أكلٌ بحقّ؛ لأنّه قائم على مال يتيّم ويرعى شؤون المال ويعمل على تنميته، وهو فقير فله أن يأكل بالمعروف. وأمّا من أكل مال اليتيم بغير حقّ أكله ظلمًا فهذه كبيرة من الكبائر وعظيمة من عظام الذنوب؛ ولهذا قال: ﴿إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي

بُطُونُهُمْ نَارًا وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا ﴿٢٤٥﴾ أي أَنَّ هذا المال الذي أكلوه يكون في بطونهم يوم القيامة نَارًا، ويصليهم الله عز وجل سَعِيرًا، أي: نَارًا شديدة مُحْرِقَةً لمن دخلها.

وتخصيص الأكل: لأنَّه أعم وجوه الانتفاع، حتى وإن أخذ مال اليتيم ولم يأكل، وإِنَّمَا أخذه واشترى به بيتًا، أو أخذه واشترى به مركوبًا أو ملابس أو نحو ذلك، فهذا كُلُّه من أكل مال اليتيم، لكن حُصَّ الأكل بالذكر لأنَّه أعم وجوه الانتفاع.

قال رحمه الله تعالى :

٢٤٥ - ولهما عن أبي هريرة رضي الله عنه مرفوعًا: ((اجتنبوا السبع الموبقات)) قالوا : وما هن يا رسول الله؟ قال: ((الشرك بالله ، والسحر ، وقتل النفس التي حرم الله إلا بالحق ، وأكل الربا ، وأكل مال اليتيم ، والتولي يوم الزحف ، وقذف المحصنات الغافلات المؤمنات)).

قال: ولهما -أي: البخاري ومسلم- عن أبي هريرة رضي الله عنه مرفوعًا أي: إلى النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُ قَالَ: ((اجْتَنِبُوا السَّبْعَ الْمَوْبِقَاتِ)) ؛ وقوله: «اجتنبوا» هذا أبلغ في النَّهي والزَّجر عن هذه الموبقات من قول: (اتركوا السبع الموبقات) أو (دعوا السبع الموبقات)؛ لأنَّ قوله «اجتنبوا» فيه أمرٌ بالترُّك وفيه أمرٌ بالمباعدة عن هذه السَّبْع، بحيث يكون المرء في جانب بعيد عنها، «اجتنبوا»: أي كونوا في جانبٍ بعيدٍ عن هذه السَّبْع، ومن ذلكم دعوة إبراهيم الخليل عليه السَّلام قال: ﴿وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَنْ نَعْبُدَ الْأَصْنَامَ﴾ [إبراهيم: ٣٥] أي: اجعلني في جانبٍ بعيدٍ عن عبادة الأصنام فلا أقربها ولا أكون أيضًا في مكان قريبٍ منها بل في جانبٍ بعيدٍ عنها.

قال: ((اجتنبوا السَّبْع))؛ وذكر العدد عليه الصَّلَاةُ والسَّلام لأنَّ هذا أبلغ في التَّعليم وأمكن في ضبط العلم، لا أنَّ الموبقات محصورة في هذه السَّبْع، الموبقات ليست محصورة في هذا العدد بل جاءت نصوص أخرى كثيرة فيها التَّنصيص على موبقات وكبائر غير ما ذُكر في هذا الحديث، بل جاء عن ابن عَبَّاسٍ رضي الله عنهما أَنَّهُ قَالَ: «هي إلى السَّبعين أقرب»، ولهذا كتب عددٌ من أهل العلم في الكبائر وأوصلوها إلى السبعين وزيادة، منهم الذَّهبي رحمه الله تعالى في كتابه الكبائر، ومنهم المصنِّف رحمه الله في هذا الكتاب، وغيرهم من أهل العلم؛ فالكبائر ليست محصورة في هذا العدد.

وهذا الحديث جمع فيه النَّبِيُّ الكريم عليه الصَّلَاةُ والسَّلام سبْعًا من الموبقات هي من أخطرها وأضرِّها ، وبدأها بالشرك، قال: ((الشرك بالله))، وهذا فيه أَنَّ الشرك أكبر الكبائر وأعظم الموبقات، وفي نصوص الشرع في باب الأوامر يُبَدَأُ بأعظمها الذي هو التوحيد ، وفي باب النَّواهي يُبَدَأُ بأخطرها وهو الشرك بالله، كقوله تعالى:

﴿وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ﴾ [الفرقان: ٦٨] فبدأ بالشرك، كذلك قوله تعالى في سورة الإسراء: ﴿لَا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَتَقْعُدَ مَذْمُومًا مَخْذُولًا﴾ [الإسراء: ٢٢] ثم ذكر بعد ذلك النهي عن الزنا، والنهي عن القتل، والنهي عن أكل مال اليتيم، وأمور من النواهي عددها عَقَبَ هذه الآية؛ فبدأ أول ما بدأ بالنهي عن الإشراك بالله سبحانه وتعالى . ولهذا نظائر كثيرة في الكتاب والسنة. فالبَدْءُ بالشرك يدلُّ على أَنَّ الشرك بالله هو أكبر الكبائر وأعظم الموبقات.

والشرك: هو تسوية غير الله بالله في شيءٍ من حقوق الله؛ لأنَّ الشرك هو التَّسْوِية، ولهذا إذا دخل المشركون النار يوم القيامة يقولون كما ذكر الله: ﴿تَاللَّهِ إِنَّا كُنَّا لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾ (٩٧) إِذْ نُسَوِّكُمْ بِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿[الشعراء: ٩٧]- [٩٨] ، فالشرك بالله : هو تسوية غيره به في حقٍّ من حقوقه جلَّ وعلا. وحقُّ الله على العباد: أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئاً، فَمَنْ جعل مع الله شريكاً أو مُساوياً في شيءٍ من العبادة فقد أشرك الشرك الأكبر الناقل من المِلَّةِ المحِطِ للعملِ كُلِّهِ.

ثم قال: ((وَالسِّحْرُ)) ، والسِّحْرُ أيضاً من الموبقات العظيمة وكبائر الإثم الشَّنيعة؛ وهو: عزائم ورقى ونفث وعقد تكون من السَّاحِر ونفسه الخبيثة المتَّصلة بالشَّياطين المستعينة بهم المتقرِّبة إليهم فيما يدعون السَّاحِرَ إليه من كفر بالله سبحانه وتعالى ونبذ لكتابه وامتهاناً لكلامه جلَّ وعلا ؛ فيحصل بسبب هذا السِّحْرِ أضرار عظيمة، فمنه ما يقتل، ومنه ما يفرِّق بين المرء وزوجه، ومنه ما يُمَرِّض، ولا يكون شيءٌ من ذلك إلَّا بإذن الله، ﴿وَمَا هُمْ بِضَارِينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ [البقرة: ١٠٢] . والله سبحانه وتعالى ابتلى النَّاسَ بوجود هذا الصِّنف الذين هم السَّحرة ليُعْظُمَ التَّجاء أهل الإيمان إلى الله، وتَحْصُنَهُمُ بِالْأَذْكَارِ الَّتِي شرعها الله سبحانه وتعالى ولجؤهم إليه جلَّ وعلا واعتصامهم به سبحانه وتعالى. فالسحر من الموبقات العظيمة، ولا يكون السَّاحِر ساحراً إلَّا بالكفر بالله جلَّ وعلا؛ لأنَّ السِّحْرَ الَّذِي هو عبارة عن عزائم ورقى ونفث وعقد فتضرر، لا يكون إلَّا بِاتِّصَالِ الشَّيَاطِينِ وَاتِّبَاعِ مَا تَتْلُو، ونبذ لكتاب الله، ﴿بَذَ الَّذِينَ أَوْتُوا الْكِتَابَ كِتَابَ اللَّهِ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ كَانَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ (١٠١) وَاتَّبَعُوا مَا تَتْلُو الشَّيَاطِينُ عَلَى مُلْكٍ سُلَيْمَانَ ﴿[البقرة: ١٠١-١٠٢] . فلا يكون السِّحْرُ إلَّا بهذا: نبذ القرآن، واتِّبَاعِ الشَّيَاطِينِ، وهذا كفرٌ بالله تبارك وتعالى.

قال عليه الصَّلَاةُ والسَّلَام: ((وَقَتْلُ النَّفْسِ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ)) ؛ وقَتْلُ النَّفْسِ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ يُرَادُّ بِهَا: النَّفْسُ المسلمة المعصومة، وأيضاً نفس الكافر المعاهد أيضاً يتناولها الحديث ؛ لقول النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ((مَنْ قَتَلَ مُعَاهِداً لَمْ يَرْحَ رَائِحَةَ الْجَنَّةِ)) ، وقوله: «لَمْ يَرْحَ رَائِحَةَ الْجَنَّةِ» هذا يدلُّ على أَنَّهُ كبيرة من الكبائر، فقتل نفس المسلم المعصومة هذا من الكبائر، ويدخل أيضاً في الحديث قتل المعاهد، فقتل المعاهد من كبائر الذُّنُوبِ وعظائم الآثام .

قال: ((وَأَكُلُ الرَّبَا)) ؛ وَالرَّبَا مِنْ عِظَائِمِ الذُّنُوبِ وَكِبَائِرِ الْآثَامِ، وَمَنْ يَأْكُلُ الرَّبَا لَا يَأْكُلُ يَوْمَ يَقِفُ بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ جَلًّا وَعِلًّا فِي بَطْنِهِ إِلَّا نَارًا ، وَيُصَلِّيهِ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى سَعِيرًا، يَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَأْكُلُوا الرِّبَا أَضْعَافًا مُضَاعَفَةً وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ (١٣٠) وَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ ﴿[آل عمران: ١٣٠-١٣١] ، فَتَوَعَّدَ اللَّهُ سَبْحَانَهُ وَتَعَالَى وَتَهَدَّدَ الْمَرَايِينَ بِدُخُولِ النَّارِ، وَفِي الْحَدِيثِ: ((لَعَنَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ آكِلَ الرَّبَا وَمُوكِلَهُ وَكَاتِبَهُ وَشَاهِدِيهِ))، وَهَذَا كُلُّهُ مِمَّا يَدُلُّ عَلَى أَنَّ الرَّبَا مِنْ أَكْبَرِ الْكِبَائِرِ وَمِنْ عِظَائِمِ الذُّنُوبِ. وَتَخْصِيصُ الْأَكْلِ بِاعْتِبَارِ أَنَّهُ أَعْمُ وَجْهِ الْإِنْتِفَاعِ، وَإِلَّا لَوْ تَعَامَلُ بِالرَّبَا وَلَمْ يَأْكُلْ وَإِنَّمَا بَاعَ وَاشْتَرَى وَاسْتَعْمَلَهُ فِي أَنْوَاعِ الْمَصَالِحِ الْمُخْتَلِفَةِ فَإِنَّهُ يَتَنَاوَلُهُ مَا جَاءَ فِي النُّصُوصِ مِنْ وَعِيدٍ ، وَلَكِنْ تَخْصِيصُ الْأَكْلِ بِالذِّكْرِ بِاعْتِبَارِ أَنَّ ذَلِكَ أَعْمُ وَجْهِ الْإِنْتِفَاعِ.

((وَأَكُلُ مَالِ الْيَتِيمِ)) وَهَذَا تَقَدَّمَ مَعْنَا فِي آيَاتٍ كَثِيرَةٍ، وَهُوَ مِنْ كِبَائِرِ الذُّنُوبِ وَعِظَائِمِ الْآثَامِ.

قال: ((وَالْتَوَلَّى يَوْمَ الرَّحْفِ)) ؛ وَالْمُرَادُ بِيَوْمِ الرَّحْفِ: أَيِ يَوْمِ التَّقَاءِ الصِّقِّينَ جَيْشِ الْمُسْلِمِينَ بِالْكَفَّارِ . فَالْتَوَلَّى يَوْمَ الرَّحْفِ -أَيِ الْفِرَارِ- هَذَا مِنْ كِبَائِرِ الذُّنُوبِ إِذَا التَقَى الصِّقَّانِ. هَذَا مِنْ كِبَائِرِ الذُّنُوبِ أَنْ يَتَوَلَّى يَوْمَ يَلْتَقِي الصِّقَّانِ صَفَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْكَفَّارِ، إِلَّا فِيمَا اسْتِثْنَاهُ اللَّهُ فِي قَوْلِهِ جَلًّا وَعِلًّا: ﴿وَمَنْ يُؤْلَمْ يَوْمَئِذٍ دُبْرَهُ إِلَّا مُتَحَرِّفًا لِقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّرًا إِلَىٰ فِتْنَةٍ﴾ [الأفـال: ١٦] ، قال: ((وَالْتَوَلَّى يَوْمَ الرَّحْفِ)).

((وَقَدْفِ الْمَحْصَنَاتِ الْغَافِلَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ)) الْمَحْصَنَاتُ الْمُرَادُ بِهِ: الْحَرَائِرُ الْعَفِيفَاتُ؛ لِأَنَّ «الْمَحْصَنَاتِ» هَذَا اللَّفْظُ لَهُ فِي النُّصُوصِ إِطْلَاقَانُ:

١- يُطْلَقُ وَيُرَادُ بِهِ الْحَرَائِرُ الْعَفِيفَاتُ، سِوَاءَ كَانَتْ بِكَرًّا أَوْ كَانَتْ ثِيْبًا يُقَالُ لَهَا: مُحْصَنَةٌ، بِمَعْنَى أَنَّهَا عَفِيفَةٌ بَرِيئَةٌ مِنَ الْفَوَاحِشِ وَالرِّذَائِلِ، أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا، أَعَفَّتْ نَفْسَهَا.

٢- وَيُطْلَقُ «الْمَحْصَنَةُ» فِي نِصُوصِ الشَّرْعِ وَيُرَادُ بِهَا: الثِّيْبُ.

وَالْمُرَادُ هُنَا بِالْمَحْصَنَاتِ: الْحَرَائِرُ الْعَفِيفَاتُ سِوَاءَ كُنَّ أَبْكَارًا أَوْ كُنَّ ثِيْبَاتٍ فَإِنَّهُ يُقَالُ: مُحْصَنَاتٌ، فَمَنْ رَمَى مُحْصَنَةً - أَيْ: عَفِيفَةً بَرِيئَةً - بِالْفَاحِشَةِ فَقَدْ ارْتَكَبَ ذَنْبًا مِنْ عِظَائِمِ الذُّنُوبِ وَكَبِيرَةً مِنْ كِبَائِرِ الْإِثْمِ.

قال: ((الْغَافِلَاتِ)) أَيِ عَنْ هَذَا الَّذِي رُمِيَ بِهِ، رُمِيَ بِالْفَاحِشَةِ وَهِيَ غَافِلَاتٌ عَنْ ذَلِكَ، وَبَعِيدَاتٌ كُلُّ الْبُعْدِ عَنْ اقْتِرَافِ ذَلِكَ.

((الْمُؤْمِنَاتِ)) أَيِ: بِاللَّهِ، الْمَحَافِظَاتُ عَلَى طَاعَةِ اللَّهِ سَبْحَانَهُ وَتَعَالَى. فَمَنْ رَمَى مُحْصَنَةً عَفِيفَةً بَرِيئَةً غَافِلَةً مُؤْمِنَةً بِالْفَاحِشَةِ فَقَدْ ارْتَكَبَ عَظِيمَةً مِنْ عِظَائِمِ الذُّنُوبِ.

قال رحمه الله تعالى :

بَابُ غَضَبِ الْأَرْضِ

٢٤٦- عن سعيد بن زيد رضي الله عنه مرفوعاً: ((من اقتطع شبراً من الأرض ظلماً طوّقه الله إياه يوم القيامة من سبع أراضين)) أخرجاه .

قال: «بابُ غصب الأرض» ؛ غصب الأرض: أخذها عنوة وقوة وظلم من صاحبها.

قال: «بابُ غصب الأرض» ؛ والغصب كما أنّه يكون في المنقولات من مثلاً دوابّ أو ذهب أو غير ذلك، أيضاً يكون في العقارات الثابتة على خلاف قول من قال: إنّ الغصب لا يكون إلاّ في المنقولات. الغصب يكون في المنقولات ويكون أيضاً في الشيء الثابت؛ وغصبه: التّعدي فيه، بأن يأخذه أو يأخذ جزءاً منه؛ وهو ظلم، و((الظلم ظلمات يوم القيامة)).

وأورد رحمه الله تعالى حديث سعيد بن زيد رضي الله عنه مرفوعاً، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ((من اقتطع شبراً من الأرض ظلماً طوّقه الله إياه يوم القيامة من سبع أراضين)) ؛ «من اقتطع»: أي اغتصب وأخذ بغير حقّ.

«شبراً من الأرض» إشارة إلى أنّ المقتطع ولو كان قدراً يسيراً. إذا كان من اقتطع شبراً من أرض طوّقه من سبع أراضين، فكيف بمن اقتطع متراً أو أمتاراً؟! ولهذا يقول العلماء: هذا الحديث ينبغي على كلّ من كان مشغولاً بالعقار، بالزراعة، بهذه الأعمال أن ينتبه لهذا الحديث؛ لأنّ شبراً واحداً إن اقتطعه بغير حقّ يُطوّق هذا الشبر من سبع أراضين يوم القيامة، فكيف بمن يقتطع متراً أو أمتاراً، فكيف بمن يأخذ أراضٍ كاملة لغيره بغير حقّ؟! مصيبته يوم القيامة عظيمة جداً، والظلم ظلمات يوم القيامة.

ومعنى «طوّقه»: أي يأتي يحمل هذا من سبعة أراضين طوّقاً على عنقه؛ خزيّاً له أمام الأَشهاد، وفضيحةً له أمام العالمين. وسبحان الله! بعض الناس قد يقتطع ظلماً أرضاً بغير حقّ، ثمّ بعد أن يقتطعها بيوم واحد تأتبه منيته ويموت، وهذا يحصل، تجده مثلاً يقتطع أرضاً بغير حقّ ويؤبلي بلاءً في الحصول عليها ثمّ يحصل عليها ومن الغدّ يموت، هب أنه لم يمت من الغد، مات بعد وقت، ماذا تغني عنه؟! حتى إنّ بعضهم يقتطع أرضاً بغير حقّ ولا يستفيد منها أبداً، ربما ما ينظر إليها ولا يقف عليها، ثمّ يأتي يوم القيامة -والعياذ بالله- يُطوّق هذه الأرض من سبعة أراضين خزيّاً له على رؤوس الأَشهاد وفضيحةً له بين الناس. ولهذا يجب على الإنسان أن ينتبه، ولا يقول في مثل الأراضي الزراعيّة أو الأراضي الواسعة عندما يضع الحدود أو المراسيم أو غير ذلك يقول: هذا الشيء قليل، وهذا لا يضرّ، وهذا لا يُؤثّر، قال: ((من اقتطع شبراً بغير حقّ)) ، ومثل ما أنّ الإنسان لا يرضى أن يدخل أحد على أرضه ويأخذ منها لا قليل ولا كثير بغير حقّ أيضاً فليفعل ذلك مع الناس، وليحبّ للناس ما يحبّ لنفسه.

وقوله في هذا الحديث «طَوَّقَهُ اللَّهُ إِيَّاهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ» أي: جعله عليه طَوْقٌ في عنقه. والطَّوْقُ: هو ما يكون في العنق مستديرًا على العنق، فيأتي يحمل ذلك من سبعة أراضي، ليست الأرض التي هو عليها، بل من سبعة أراضي يحمل ذلك طَوَّقًا في عنقه.

وقوله: ((من سبع أراضي)) هذا الحديث جاء فيه التنصيص على أنَّ الأراضي سبع مثل السماوات. والآية الكريمة الَّتِي حُتِمَتْ بِهَا سُورَةُ الطَّلَاقِ فِيهَا أَيْضًا الدَّلَالَةُ عَلَى ذَلِكَ؛ قول الله عزَّ وجلَّ: ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ﴾ [الطَّلَاق: ١٢] ، مثلهنَّ في ماذا؟ هل المراد مثلهنَّ في الارتفاع؟ مثلهنَّ في اللَّوْن؟ مثلهنَّ في الكِبَر والحجم؟ لا، مثلهنَّ في العدد ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ﴾ أي: سبع، لكن الحجم مختلف، ليست السماء مثل الأرض في الحجم، بل الأرض شيء يسير جدًا مقارنة بحجم السماوات، والسَّماوات محيطة بالأرض من كلِّ جانب، وبين السماء والأرض خمسمائة عام، فما تعني شيئًا الأرض من حيث حجمها بالنسبة للسماوات، وليس المراد اللَّوْن والشكل، وإنما المراد بالعدد ، ﴿مِثْلَهُنَّ﴾ أي: مثلهنَّ في العدد، أي عدد الأراضي مثل عدد السماوات.

ورأوي الحديث الصحابي الجليل سعيد بن زيد -وهو أحد العشرة المبشرين بالجنة- حصل له قصَّة تتعلق بالحديث وفيها عبرة؛ وهي: أَنَّ امرأة -والحديث في صحيح مسلم- جارةً له يُقال لها «أروى» ادَّعت على سعيد أَنَّهُ اغتصب من أرض دارها، ادَّعت عليه في بعض داره أَنَّهُ من أرضها، فقيل له ذلك، فقال: كيف أفعل ذلك، وأنا سمعت النَّبِيَّ عليه الصَّلَاة والسَّلَام يقول: ((مَنْ اقتطع شبرًا من أرض طَوَّقَهُ سَبْعَ أَرْضِينَ))؟! وهذا يفيدنا عِظَم انتفاع الصَّحابة رضي الله عنهم بأحاديث الرَّسُول صلوات الله وسلامه عليه، وعِظَم موقع أحاديثه عليه الصَّلَاة والسَّلَام في قلوبهم. قال: كيف وأنا سمعت الرَّسُول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقول: ((مَنْ اقتطع شبرًا من الأرض)) كيف أفعل ذلك؟ ثمَّ دعا عليها دعوةً مظلوم ، دعا عليها أَنْ يُعْمِيَ اللهُ بصرها، وأن يقتلها في دارها، فكُفَّ بصرها، وكانت تقول: أصابني دعوة سعيد بن زيد، وكانت تمشي في دارها فسقطت في بئر في دارها، وكانت هي ميتتها. فالشاهد من ذلك: أَنَّ الصَّحابة رضي الله عنهم كانوا من أعظم النَّاس انتفاعًا بكلام الرَّسُول، وكانوا أسرع النَّاس استجابةً لأوامره، وأسرع النَّاس بُعْدًا عَمَّا ينهى عنه، ولهذا قال الله تعالى: ﴿وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ﴾ [التوبة: ١٠٠] .

وهذا الحديث فيه تحريم غصب الأراضي واقتطاع شيء منها ولو كان قليلًا، وأَنَّهُ ظلم، والظُّلم يوم القيامة ظلمات على أهله.

سبحانك اللهم وبحمدك ، أشهد أن لا إله إلا أنت ، أستغفرك وأتوب إليك .

اللهم صلّ وسلّم على عبدك ورسولك نبينا محمد وآله وصحبه أجمعين.

الدرس الأربعون

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله ربّ العالمين، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله، صلى الله وسلم عليه وعلى آله وأصحابه أجمعين. أمّا بعد:

قال شيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب رحمه الله تعالى في كتاب الكبائر :

بابُ الظلم في الأبدان

٢٤٧ - عن ابن عمرو رضي الله عنهما مرفوعاً: ((ثلاثة لا يقبل الله منهم صلاة: من أمّ قومًا وهم له كارهون، ورجل أتى الصلاة دبارًا -والدّبار أن يأتيها بعد أن تفوته- ورجل اعتبد محرراً)) رواه أبو داود والطبراني بسند جيد.

قال رحمه الله تعالى : «بابُ الظُّلم في الأبدان» ؛ وهذا ممّا يتعلّق بحقوق العباد، والظُّلم الذي يتعلّق بحقوق العباد إمّا أن يكون في الأبدان، أو الأموال، أو الأعراض. وقد قال عليه الصَّلَاة والسَّلَام: ((إنّ دماءكم وأموالكم وأعراضكم حرامٌ عليكم)) ، وفي الحديث الآخر قال: ((كلُّ المسلم على المسلم حرام؛ دمه وماله وعرضه)). وهذا النوع من الظُّلم لا يتركه الله سبحانه وتعالى حتى يقتصرَ للمظلوم من ظلمه. كما في الحديث: ((لَتُؤَدَّنَ الحقوق يوم القيامة)).

وأورد رحمه الله تعالى تحت هذه التّرجمة حديثَ عبدِ الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما مرفوعاً: ((ثلاثة لا يقبلُ الله منهم صلاة)) ؛ وهذا وعيدٌ في حقِّ هؤلاء قال: «لا يقبل الله منهم صلاة» ومعنى ذلك: أنّ صلاتهم لا يُثابون عليها، وإن كانت قد أسقطت عنهم الفرض وما أوجبه الله سبحانه وتعالى لكنّهم يُعاقبون بالحرمان من الثّواب على الصَّلَاة ، فهي لا تُقبَل أي: لا يُثاب فاعلها عليها، وإنّما تكون مُسْقِطَةً عنه الفرض الذي أوجبه الله سبحانه وتعالى ، ولهذا لا يُؤمَر بإعادتها.

قال: ((مَنْ أمّ قومًا وهم له كارهون)) تقدّم للإمامة مع علمه بكراهة مَنْ وراءه لإمامته. وهذا كما نبّه العلماء رحمهم الله تعالى إنّما الاعتبار فيه ما كان لأجل الدّين ، إذا كانت الكراهة ترجع إلى أمر ديني ؛ كبذعته مثلاً، أو فسوقه وفجوره أو نحو ذلك. أمّا إذا كان بين بعض المصلّين وبينه سوء تفاهم أو في أمور دنيويّة فهذا لا علاقة له

في هذا الأمر، أو أيضًا لو كانت الكراهة مختصة ببعض المصلين أو قلة منهم واحد أو اثنين فهذا يحصل ولا يؤثر، لكن الكلام إذا كان جماعة المسجد أو جلهم كارهون لإمامته لما يعلمون عنه مثلاً من فسق أو يعلمون عنه من بدعة أو ضلالة أو غير ذلك ويصير على الإمامة بهم ، فله هذا الوعيد الذي جاء في هذا الحديث.

والثاني قال: ((ورجل أتى الصلاة دباراً)) قال: «والدبار: أن يأتيها بعد أن تفوته»، بمعنى: أن تكون هذه عادة له أن يأتي الصلاة دباراً أي: بعد فواتها بعد أن يصلي الناس يتلاحق ويأتي ويصلي في المسجد وحده، أو ربما يصلي أيضاً في بيته، وتكون هذه من عادته. أمّا مَنْ غلب مرة أو مرتين أو نحو ذلك فلا يتناوله الحديث، لكن من كانت هذه عادته لا يأتي الصلاة إلا دباراً أي بعد الفوات، فوات الجماعة، أو دباراً في آخر وقت الصلاة، فله هذا الوعيد.

والثالث: ((رجل اعتبد حرّاً)) ومعنى «اعتبد حرّاً»: أي اتخذ حرّاً عبداً له. وهذا كما قال العلماء له صور:

- مثلاً: يُعتقه ويُبقي استعباده في خدمته وإلزامه بالأعمال التي عنده كما لو كان عبداً عنده. فهذه من الصور.
- أو يُعتقه ثم يكتم عتقه، ويبقيه على العبودية ويكتم عتقه أو يحدد عتقه ويقول: أنا لم أعتقه. فهذا أيضاً من الصور التي تدخل في هذا الحديث.
- وأيضاً يدخل فيه فيما لو لقي شخصاً حرّاً وأخذه قهراً وعنوةً اتخذ عبداً له، سواءً استخدمه أو باعه. أيضاً يدخل في هذا الوعيد.

وهذا الحديث في إسناده عبد الرحمن بن زياد الأفريقي وهو ضعيف، فسند الحديث ضعيف، لكن هذه الأشياء التي ذكرت في الحديث أو الأمور الثلاثة لاشك أنها كلها مذمومة، وجاء في النصوص ما يدل على ذمها والتحذير منها.

قال رحمه الله تعالى :

٢٤٨ - وعن أبي أمامة رضي الله عنه مرفوعاً: ((من جرّد ظهر مسلم بغير حقٍ لقي الله وهو عليه غضبان)).

قال: وعن أبي أمامة رضي الله عنه مرفوعاً ((مَنْ جرّد ظهر مسلم بغير حقٍ لقي الله وهو عليه غضبان))؛ وهذا الحديث أيضاً ممّا يتعلّق بظلم الأبدان، ومعنى قوله: ((مَنْ جرّد ظهر مسلم)) أي: عراه من ملابسه، وهذا التجريد يحتمل لهتك عورته، ويحتمل أيضاً لضربه وإيذائه في بدنه. ولهذا أورده رحمه الله تعالى تحت هذه الترجمة. وإسناد هذا الحديث أيضاً فيه ضعف. قال الحافظ ابن حجر رحمه الله تعالى في كتابه «فتح الباري»: في سنده مقال.

قال رحمه الله تعالى :

باب الظلم في الأموال

٢٤٩ - في الصحيح: ((ولا ينتهب نُهبةً يرفع الناس إليه فيها أبصارهم حين ينتهبها وهو مؤمن)).

قال: «باب الظلم في الأموال» وهذا أحد أنواع الظلم الثلاثة التي تتعلق بحقوق العباد، ((إنَّ دماءكم وأموالكم وأعراضكم)).

قال: في الصحيح ((ولا ينتهب نُهبةً يرفع الناس إليه فيها أبصارهم حين ينتهبها وهو مؤمن)) ؛ هذا ذكره عليه الصلوة والسلام في حديث أبي هريرة المعروف، حيث قال عليه الصلوة والسلام : ((لا يزي الزاني حين يزني وهو مؤمن، ولا يسرق السارق حين يسرق وهو مؤمن، ولا يشرب الخمر حين يشربها وهو مؤمن، ولا ينتهب نُهبةً يرفع الناس إليه فيها أبصارهم حين ينتهبها وهو مؤمن)). وهذه الخصال الأربعة التي ذُكرت في الحديث ليست على وجه الحصر، وإنما على وجه التمثيل لأُمورٍ تؤثر في الإيمان الواجب، بحيث يُنفى عمَّن فعلها الإيمان. ونفي الإيمان هنا لا يُراد به نفي أصل الإيمان، بمعنى أنَّ مَنْ وقع في هذا يكون كافرًا منتقلًا من المِلَّة، وإنما المراد نفي الإيمان الواجب الذي بنفيه يستحقُّ المرء أو يكون عرضةً لعقوبة الله سبحانه وتعالى. والقاعدة عند أهل العلم: أنَّ الإيمان لا يُنفى إلا في ترك واجب، أو فعل محرَّم. وهذا من النوع الثاني؛ نفي الإيمان لفعل محرَّم، جاءت الشريعة بتحريمه. وأحد هذه الخصال الأربعة: قوله ((ولا ينتهب نُهبةً)) ؛ ومعنى «لا ينتهب» أي: لا يأخذ حقَّ الغير من مالٍ أو نحوه قهراً وعَنوةً وظلماً.

((ولا ينتهب نُهبةً يرفع الناس إليه)) الضمير هنا يعود على الناهب ؛ ((يرفع الناس إليه فيها أبصارهم)) أي: ينظر إليه هؤلاء الضُعفاء الذين انتهب منهم هذا المال مستغلاً سطوته وقوّته وتمكُّنه، فيرفعون أبصارهم مثلاً استعطافاً أو رغبةً في أن يعود حقَّهم ولا يبالى بذلك.

((يرفع الناس إليه فيها أبصارهم حين ينتهبها وهو مؤمن)) أي: أنَّ هذا يتنافى مع الإيمان الواجب. وهذا النَّفي للإيمان يدلُّ على أنَّ هذا الصَّنيع من الكبائر؛ لأنَّ الإيمان لا يُنفى إلا فيما هو كبيرٌ.

قال رحمه الله تعالى :

باب خذلان المظلوم

٢٥٠ - عن سهل بن حنيف رضي الله عنه مرفوعاً: ((من أذلَّ عنده مسلم فلم ينصره وهو يقدر أن ينصره أذلَّه الله على رؤوس الخلائق يوم القيامة)) رواه أحمد.

قال: «بابُ خذلان المظلوم» ؛ والمراد بخذلانه: أي عدم معاونته ونصره عندما يُظلم مع القدرة على المعاونة والنَّصر، فإنَّ هذا لا يجوز؛ لأنَّ معاونته ونصره واجب ، وخذلانه محرَّم ، فإذا خذله مع قدرته على معاونته ونصرته فإنَّه يَأْثِمُ بذلك ويكون ارتكب أمرًا محرَّمًا.

ومعاونة المظلوم من فروض الكفاية؛ إذا قام بها البعض سقط الإثم عن الباقيين. وإنَّما يكون المرء آثمًا إذا كان عنده قدرة على معاونة المظلوم ثمَّ تخلَّى عنه ، وقد مرَّ معنا قول النَّبيِّ عليه الصَّلَاة والسَّلَام: ((المسلم أخو المسلم لا يظلمه ولا يُسْلِمُه))، ومعنى «لا يُسْلِمُه»: أي لا يخذله حين يكون محتاجًا إلى النَّصرة والمعونة.

وأورد حديث سهل بن حُنَيْث رضي الله عنه مرفوعًا: ((مَنْ أَذِلَّ عِنْدَهُ مُسْلِمٌ)) أي: أَسْيءُ إِلَيْهِ واعتَدِيَّ عليه.

((فلم ينصره وهو يقدر)) أي: بهذا القيْد. أمَّا إذا كان لا يقدر فإنَّ الله لا يكلِّفُ نفسًا إلَّا وُسْعَهَا.

قال: ((وهو يقدر أن ينصره أذَّله الله على رؤوسِ الخلائقِ يوم القيامة)) ؛ وهذا فيه أنَّ الجزء من جنس العمل ، وهو يدلُّ على وجوب نصرة المظلوم مع القدرة على ذلك ، وتحريم خذلانه وعدم معاونته ونصره عندما يراه يُذَلَّل ويُظَلَّم ويُعْتَدَى عليه.

والحديث في إسناد عبد الله بن هُيَّعة، فالحديث في سنده مقال، لكن المعنى الذي في الحديث متقرَّر ودلَّت عليه نصوص، منها ما ثبت في البخاري عن النَّبيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُ قَالَ: ((انصر أخاك ظالمًا أو مظلومًا)). وسيأتي هذا الحديث عند المصنِّف في خاتمة هذا الكتاب.

قال رحمه الله تعالى :

٢٥١ - ولأبي داود عن جابر وأبي طلحة رضي الله عنهما مرفوعًا: ((ما من امرئ مسلم يخذل امرأ مسلمًا في موضع تُنتَهَك فيه حرمة ويُنْتَقَص فيه من عرضه إلَّا خذله الله تعالى في موطن يحب فيه نصرته، وما من امرئ مسلم ينصر امرأ مسلمًا في موضع يُنْتَقَص فيه من عرضه وينتهك فيه من حرمة إلَّا نصره الله في موطن يحب فيه نصرته)).

قال: ولأبي داود عن جابر وأبي طلحة رضي الله عنهما مرفوعًا أي: إلى النبي عليه الصَّلَاة والسَّلَام ((ما من امرئ مسلم يخذل امرأ مسلمًا في موضع تُنتَهَك فيه حرمة ويُنْتَقَص فيه من عرضه إلَّا خذله الله تعالى في موطن يحب فيه نصرته)) أي: يحبُّ أن ينصره الله سبحانه وتعالى وأن يؤيِّده وأن يعينه. وهذا فيه أنَّ الجزء من جنس العمل. وأنَّ الواجب على المسلم إذا وجد أنَّ عِرْضَ أَخِيهِ يُنْتَهَك أو يُظَلَّم أو يُعْتَدَى عليه أن يحرص على معاونته بما يستطيع إذا كان يقدر على ذلك. وكما أنه يحبُّ أن يُنْتَصَرَ له عندما يُظَلَّم فلينتصر لغيره إذا ظلم إن كان قادرًا

على ذلك؛ لقول النَّبِيِّ عليه الصَّلَاةُ والسَّلَام: ((لا يؤمن أحدكم حتى يحبَّ لأخيه ما يحبُّ لنفسه))، ولقوله: ((وأن تأتِيَ للنَّاس الذي تحبُّ أن يُؤتَى إليك)).

والقسم الآخر من الحديث قال: ((وما من امرئٍ ينصر نصرَةً في موضعٍ يُنتَقَصُ فيه من عرضه ويُنتَهَكُ فيه من حرمة إلا نصره الله في موطنٍ يحبُّ فيه نصرته)) أي: يحبُّ أن ينصره الله سبحانه وتعالى فيه. وهنا يدلُّ على أنَّ النُّصرة تتعلَّق بالاعتداء سواءً كان على الإنسان في بدنه، أو الاعتداء عليه في عرضه بغيبة، أو نيمة أو سخرية، أو استهزاء، أو نحو ذلك.

وهذا الحديث في إسناده إسماعيل بن بشير وهو مجهول كما في «التقريب» للحافظ ابن حجر. فسند الحديث ضعيف، لكن من حيث المعنى؛ المعنى صحيح، ودلَّت عليه شواهد ودلائل. ونصرة المظلوم ومعاونته جاء - كما تقدَّم معنا- في الحديث الذي في صحيح البخاري: ((انصر أخاك ظالماً أو مظلوماً)).

سبحانك اللهم وبحمدك ، أشهد أن لا إله إلا أنت ، أستغفرك وأتوب إليك .

اللهم صلِّ وسلِّم على عبدك ورسولك نبينا محمد وآله وصحبه أجمعين.

الدرس الحادي والأربعون

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله رب العالمين، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله ؛ صلى الله عليه وسلم وعلى آله وأصحابه أجمعين. أما بعد:

قال شيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب رحمه الله تعالى في كتاب الكبائر :

باب ما جاء في أخوة الإسلام وحق المسلم على المسلم

وقول الله تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلَحُوا بَيْنَ أَخَوِيكُمْ﴾ [الحجرات: ١٠]. وقوله تعالى: ﴿أَذِلَّةٌ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٌ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ الآية [المائدة: ٥٤] .

هذا الباب «باب ما جاء في أخوة الإسلام وحق المسلم على المسلم» جعله المصنف رحمه الله تعالى خاتمةً لهذا الكتاب المخصص في بيان الكبائر ، ولعل الختم بهذا الباب «باب ما جاء في أخوة الاسلام وحق المسلم على المسلم» لعل ختم هذا الكتاب به له مقصدان:

■ الأول: والله تعالى أعلم ؛ أن من حقوق المسلم على أخيه المسلم أن لا يعتدي عليه بأي نوع من الاعتداء، فكل المسلم على المسلم حرام دمه وماله وعرضه ، وقد أورد رحمه الله تعالى نصوصاً في هذا المعنى.

■ والمقصد الآخر: أن من مقتضيات هذه الأخوة أن يُعْمَلَ على استصلاح من وقع في شيء من هذه الكبائر ، وقد يستفاد ذلك مما ختم به رحمه الله تعالى أحاديث هذا الباب: ((أنصر أخاك ظالماً أو مظلوماً)) ، فنصرة المظلوم بتخليصه من وباء الظلم وبلاء الاعتداء ، ومحاولة معالجة ما عنده من خطأ أو ظلم أو ارتكابٍ للكبائر. وأخوة الإسلام هي أعظم أخوة؛ لأنها رابطة وثيقة عظيمة ليس في الروابط إطلاقاً مثلها، وهي رابطة تجمع بين أهل الاسلام في الدنيا والآخرة على محبة الله وطاعته سبحانه وتعالى ونيل رضاه. وهذه الأخوة -أخوة الإسلام- لها حقوق، ولهذا صدر الباب بالأخوة وحقوق الأخوة، قال: «وحق المسلم على المسلم» أي : الحقوق التي تقتضيها أخوة الإسلام، وسيأتي جملة منها في هذه الترجمة.

وبدأ رحمه الله بقول الله عزّ وجلّ: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلَحُوا بَيْنَ أَخَوِيكُمْ﴾ [الحجرات: ١٠] ؛ وهذا عقد عظيم عقده الله سبحانه وتعالى بين المؤمنين، بين أهل الإيمان، ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾ عقدٌ بينهم بأن المؤمن أينما وجد وفي أي مكان حلّ فهو أخٌ لك تجمعك به أخوة الدين ويربطك به رابطة الإسلام. وهذه الأخوة والرابطة لها حقوقها ومقتضياتها كما قال جلّ وعلا في الآية الكريمة: ﴿فَأَصْلَحُوا بَيْنَ أَخَوِيكُمْ﴾ وهذا واحد من هذه الحقوق ، ثم بعد ذلك أتبع هذه الآية بآيات فيها ذكر لمقتضيات هذه الأخوة، كقوله في الآية التي تليها: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا يَسْخَرُوا قَوْمٍ مِّنْ قَوْمٍ﴾ إلى تمامها، وقوله في الآية التي تليها: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِّنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ﴾ إلى تمامها ؛ هذه كلها مقتضيات لهذه الأخوة العظيمة والرابطة الوثيقة.

وأورد قول الله عزّ وجلّ: ﴿أَذَلَّةٌ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٌ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ [التوبة: ٥٤] ؛ وهذا فيه أيضاً بيان لما تقتضيه هذه الأخوة بين أهل الإيمان؛ أن بعضهم مع بعض أذلة، أي: يتعامل بعضهم مع بعض بالمحبة والرحمة والإيثار والتعاون على البرّ والتقوى.

﴿أَعِزَّةٌ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ أي: المعادين لدين الله تبارك وتعالى، المبغضين لشرع الله عزّ وجلّ فإنهم أعزة على من كان كذلك ، بخلاف المؤمن فإنهم أذلة على المؤمنين فيهم الرحمة والشفقة والتوادّ والتعاطف، كما سيأتي في الأحاديث التي ساقها المصنف رحمه الله تعالى.

قال رحمه الله تعالى :

٢٥٢ - وفي الصحيح: ((لو كنت متخذاً من أمتي خليلاً لاتخذت أبا بكر خليلاً، ولكن أخوة الإسلام أفضل)).

قال: وفي الصحيح ((لو كنت متخذاً من أمتي خليلاً لاتخذت أبا بكر خليلاً، ولكن أخوة الإسلام أفضل)). والشاهد من هذا الحديث للترجمة: قوله عليه الصلاة والسلام: ((ولكن أخوة الإسلام أفضل)). . ومعنى «أخوة الإسلام أفضل»: أي الاكتفاء بأخوة الإسلام أفضل من اتخاذ خليل غير الله سبحانه وتعالى.

قال: ((ولكن أخوة الإسلام أفضل)) وهذا فيه عظم شأن هذه الأخوة وعظم مكانتها وأيضاً عظم فضلها. وقوله: ((لو كنت متخذاً من أمتي خليلاً لاتخذت أبا بكر خليلاً)) فيه شرف أبي بكر رضي الله عنه وعظيم مكانته، وهذه فضيلة حُصِّ بها من بين سائر الأمة ومن بين سائر أصحاب النبي الكريم صلوات الله وسلامه عليه. وقوله ((لو كنت متخذاً من أمتي خليلاً)) لا يعارضه ما يأتي في بعض الأحاديث حيث يقول بعض الصحابة: «أوصاني خليلي»؛ لأن الممتنع أن يتخذ هو عليه الصلاة والسلام من أمته خليلاً، أما أن يُتخذ هو صلوات الله وسلامه عليه خليلاً فهذا جاء في عدد من الأحاديث، مثل قول أبي هريرة رضي الله عنه وغيره من الصحابة: «أوصاني خليلي رسول الله صلى الله عليه وسلم» بكذا.

قال رحمه الله تعالى :

٢٥٣ - وعن أبي موسى رضي الله عنه مرفوعاً: ((المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضاً)).

وهذا الحديث حديث أبي موسى رضي الله عنه مرفوعاً: ((المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضاً)) صريح في تعظيم حقوق المسلمين بعضهم مع بعض، وأن مثلهم مثل البنيان يشد بعضه بعضاً، وكون البنيان يشد بعضه بعضاً هذا أمر ظاهر للناس، والنبي عليه الصلاة والسلام جعل البنيان الذي يشد بعضه بعضاً مثلاً للمؤمن مع أخيه المؤمن، ((يشد بعضه بعضاً))، وهكذا ينبغي أن تكون العلاقة بين المؤمنين مبنية على التآزر والتعاون والتآخي والتعاضد والتكافل والتراحم، إلى غير ذلك من معاني الأخوة الإيمانية ومقتضياتها.

قال رحمه الله تعالى :

٢٥٤ - ولهما عن النعمان بن بشير رضي الله عنه مرفوعاً: ((مثل المؤمنين في توادهم وتراحمهم وتعاطفهم كمثل الجسد الواحد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى)).

وهذا فيه الحث والتحريض على التعاون والتآخي والتحاب، وأن مثل المؤمنين في هذا التواد والتراحم والتعاطف مثل الجسد الواحد إذا اشتكى منه عضوٌ تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى؛ لأن الجسد الواحد إذا اشتكى بعضه، إذا اشتكى منه الإصبع أو القدم أو طرف من الأطراف تألم الجسد كاملاً، وأحسن الجسد بالألم كاملاً، وهذا مثل للمؤمنين في توادهم وتعاطفهم وتراحمهم؛ فآمالهم واحدة، وأفراحهم واحدة، وآلامهم واحدة، وهموهم مشتركة، وهذا هو الذي تقتضيه هذه الأخوة والرابطة التي جعلها الله سبحانه وتعالى بينهم.

قال رحمه الله تعالى :

٢٥٥ - وعن أبي هريرة رضي الله عنه مرفوعاً: ((لا تحاسدوا ولا تباغضوا ولا تناجشوا ولا تدابروا، ولا يبيع بعضكم على بيع بعض، وكونوا عباد الله إخواناً، المسلم أخو المسلم لا يظلمه ولا يخذله ولا يحقره. التقوى هاهنا - وأشار إلى صدره ثلاث مرات - بحسب امرئ من الشر أن يحقر أخاه المسلم، كل المسلم على المسلم حرام دمه وماله وعرضه)) رواه مسلم.

قال: وعن أبي هريرة رضي الله عنه مرفوعاً ((لا تحاسدوا)) أي: لا يقع في قلوبكم كراهية للنعم التي يمن الله سبحانه وتعالى بها على العباد، ولا يقع في قلوبكم تمني لزوال تلك النعم، ولا أيضاً تعملوا على إزالة هذه النعم، وهذه درجات التحاسد الثلاثة: بدءاً بكراهية النعمة، ثم أشد منه التمني للزوال، ثم أشد منه العمل على زوال النعمة عن الغير. والحاسد عدو نعمة الله سبحانه وتعالى، وأول ما يبدأ حسده بالكراهية للنعمة التي يمن الله سبحانه وتعالى بها على عبده.

وقوله ((ولا تباغضوا)) أي: لا تفعلوا ما يترتب عليه وجود التباغض بينكم، ولهذا قال بعض العلماء في شرح هذا الحديث: فيه نهي عن البدعة؛ لأن وجودها يوجد البغضة بين المسلمين، فقوله ((ولا تباغضوا)) أي: تجنبوا وابتعدوا عن كل أمر يفضي بكم إلى التباغض.

((ولا تناجشوا)) والنجش هو: أن يزيد في السلعة للإضرار بأخيه لا لرغبة في شرائها، أو يزيد في السلعة لينقح أحد أصدقائه لاعتن رغبة في شرائها.

((ولا تدابروا)) أي: لا يولي كلٌ منكم أخاه دبره معرضاً عنه.

((ولا يبيع بعضكم على بيع بعض)) وهذا أيضاً من حقوق الأخوة الإيمانية، أن لا يبيع المسلم على بيع أخيه، وأيضاً لا يخطب على خطبة أخيه، فإذا سبقه إلى بيع أو إلى شراء أو إلى خطبة فهو أحق بذلك، وليس له أن يبيع على بيعه.

((وكونوا عباد الله إخواناً)) أي: اعملوا على تحقيق هذه الأخوة وتمتينها وتقويتها.

((المسلم أخو المسلم)) أي يجمعه به أخوة الإسلام وأخوة الدين، كما تقدم في الآية الكريمة: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾ .

((لا يظلمه)) أي: لا يقع منه ظلم لأخيه المسلم بالاعتداء عليه؛ لا في نفسه، ولا في عرضه، ولا في ماله.

((ولا يخذله)) من الخذلان؛ وهو عدم النصرة عند احتياجه إلى ذلك.

((ولا يحقره)) أي لا يعامله بالانتقاص والاحتقار والازدراء .

((التقوى هاهنا وأشار إلى صدره ثلاث مرات)) وهذه الإشارة المتكررة ثلاث مرات فيها تأكيد إلى أن منبع التقوى وأصلها هو القلب.

((بحسب امرئٍ من الشرّ أن يحقر أخاه المسلم)) أي يكفي المسلم شرّاً أن يكون متصفاً بهذه الصفة؛ أن يحقر أخاه المسلم.

وتنبه هنا إلى لطيفة: قوله ((ولا يحقره)) ثم قوله ((بحسب امرئٍ من الشرّ أن يحقر أخاه)) ؛ وسَط بينهما ((التقوى هاهنا)) ، لم يقل "ولا يحقره بحسب امرئٍ من الشرّ أن يحقر أخاه المسلم"، وإنما وسَط بين النهي عن احتقار المسلم وبين بيان عظم شرّ من احتقر أخاه المسلم ، وسَط بين هاتين الكلمتين بقوله: ((التقوى هاهنا)) مشيراً إلى صدره، ومكرراً الإشارة ثلاث مرات . وهذا فيه التنبيه إلى أنّ العبرة إنما هي بما يقوم بالقلب ، وقد يحقر أخاه المسلم ويكون هذا الذي يحقره أتقى لله منه، وأعلى منزلة عند الله منه، وله المكانة العلية عند ربّ العالمين ويحقره.

فليحذر المسلم من أن يحقر أخاه المسلم، قد تحقر شخصاً وتنتقصه وهو خير عند الله منك، ﴿إِنْ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ﴾ [الحجرات: ١٣]، فقد تحتقره وهو خير منك وأفضل منك وأعلى مكانة منك عند الله سبحانه وتعالى، فلا تغتر بما ميزك الله عليه مثلاً بمال، وما ميزك عليه مثلاً بصحة أو بعافية أو بجاه أو بمكانة، لا تغتر بذلك كله، قد يكون هذا الذي تحتقره خير من مئات مثلك أو آلاف مثلك. ف ((بحسب امرئٍ من الشرّ أن يحقر أخاه المسلم)) كيف يحقر أخاه المسلم والتقوى هاهنا مشيراً إلى صدره ثلاث مرات؟! هل اطلعت على قلبه ورأيت قلبه حتى يقع منك هذا الاحتقار له؟ قد يكون قلبه أعمر إيماناً وأكثر تقوى وأكثر طاعة لله سبحانه وتعالى وأعظم تقرب وأعظم خوف وأعظم خشية من الله عزّ وجلّ ثم تحقره!! . فقوله عليه الصلاة والسلام: ((التقوى هاهنا)) موسطاً لها بين قوله: ((لا يحقره)) وبين قوله: ((بحسب امرئٍ من الشرّ)) فيه تنبيه لهذا المعنى، وأن العبرة إنما هي بما يقوم في القلوب؛ إذ هي الأساس الذي يُبنى عليه العمل ويقوم عليه الدين.

قال: ((كلّ المسلم على المسلم حرام؛ دمه وماله وعرضه)) وهذا نظيره قوله صلى الله عليه وسلم في خطبة الوداع: ((إن دماءكم وأموالكم وأعراضكم حرام عليكم ؛ كحرمة يومكم هذا، في بلدكم هذا، في شهركم هذا)).

قال رحمه الله تعالى :

٢٥٦ - ولهما عن ابن عمر رضي الله عنهما مرفوعاً: ((المسلم أخو المسلم لا يظلمه ولا يُسلمه، ومن كان في حاجة أخيه كان الله في حاجته ، ومن فرّج عن مسلم كربة من كرب الدنيا فرّج الله عنه كربة من كرب يوم القيامة، ومن ستر مسلماً ستره الله يوم القيامة)).

قال: ولهما عن ابن عمر رضي الله عنهما مرفوعاً إلى النبي صلى الله عليه وسلم ((المسلم أخو المسلم)) أي: يجمعه به أخوة الإسلام. ثم ذكر مقتضيات هذه الأخوة ، قال: ((لا يظلمه)) أي لا يقع منه ظلم على أخيه المسلم. ((ولا يسلمه)) أي لا يلقيه إلى الهلكة ويخْلِي بينه وبين الهلكة، بل يحرص على تجنبه وإبعاده عن الهلاك وأسباب الهلاك.

((ومن كان في حاجة أخيه كان الله في حاجته)) أي: من عمل على قضاء حاجة أخيه واهتم لحاجة أخيه كان الله في حاجته.

((ومن فرّج عن مسلم كربة من كرب الدنيا فرّج الله عنه كربة من كرب يوم القيامة))؛ وهذا فيه أن الجزء من جنس العمل، من عمل على تفريج كربات إخوانه وتنفيس شوائدهم جازاه الله سبحانه وتعالى من جنس عمله، ففرّج عنه كربةً أي شدة من شوائد يوم القيامة.

((ومن ستر مسلماً)) أي في معصية ارتكبها واطَّلَع عليها هذا الإنسان وستره وعمل على مناصحته والأخذ بيده بالبعد عن هذه المعاصي، ولم يعمل على فضحه بين الناس، وعمل على معالجة هذا الخطأ الذي لاحظته عليه ؛ ستره الله سبحانه وتعالى يوم القيامة . وهذا أيضاً فيه أن الجزء من جنس العمل.

قال رحمه الله تعالى :

٢٥٧ - ولهما عن أنس رضي الله عنه مرفوعاً: ((لا يؤمن أحدكم حتى يحبَّ لأخيه ما يحبُّ لنفسه)).

قال: ولهما عن أنس رضي الله عنه مرفوعاً: ((لا يؤمن أحدكم حتى يحبَّ لأخيه ما يحبُّ لنفسه)) وهذا الحديث أصل جامع في باب الأخوة الإيمانية ، وإليه ترجع جميع المعاني المطلوبة من حقوق الأخوة الإيمانية ومقتضياتها. يقول عليه الصلاة والسلام: ((لا يؤمن أحدكم حتى يحبَّ لأخيه ما يحبُّ لنفسه)) أي لا يكون حقُّ الإيمان الواجب الذي يسلم به من عقوبة الله إلا إذا أحبَّ لأخيه ما يحبُّ لنفسه ، ومعنى ذلك: أن يكون القلب تجاه إخوانك المسلمين نقياً صافياً سليماً ليس فيه غل ولا حقد ولا حسد ولا ضغائن ، وإنما فيه محبة الخير لهم مثل ما

تحب لنفسك . وإذا كان القلب كذلك تصلح الجوارح تبعًا له، وتصلح التعاملات مع إخوانه المسلمين تبعًا لصالح قلبه، ولهذا تجد بعض الناس عندما يرون تعامل شخص معهم باللطف واللين والمعاملة الكريمة يقولون : فلان طيب قلبه، هكذا نحسبه والله حسيبه ، لأن طيب القلب وصلاحه بمحبة الخير لإخوانه المسلمين هو الذي يولد هذه الأعمال الصالحة وتنبعث منه هذه الأعمال الصالحة، كما قال عليه الصلاة والسلام: ((ألا إن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله، وإذا فسدت فسد الجسد كله؛ ألا وهي القلب)).

وهذا الحديث من الأحاديث التي ترجع إليها أحاديث الأخلاق ، وهو من الأحاديث الجامعة في هذا الباب، وهو من جوامع الكلم في باب الأخلاق والتعامل بين المؤمنين.

قال رحمه الله تعالى :

٢٥٨ - وللبخاري عنه رضي الله عنه مرفوعًا: ((انصر أخاك ظالمًا أو مظلومًا))، فقال رجل: «يا رسول الله إن كان ظالمًا كيف أنصره؟» قال: ((تحجزه وتمنعه من الظلم ؛ فذلك نصرك إياه)). والله تعالى أعلم.

قال: وللبخاري عنه -أي أنس - مرفوعًا إلى النبي عليه الصلاة والسلام ((انصر أخاك ظالمًا أو مظلومًا)) ؛ والنصر: الإعانة، انصره: أي أعنه، ولهذا جاء في بعض الروايات لهذا الحديث: ((أعِن أخاك ظالمًا أو مظلومًا)) ، فالنصر هو الإعانة. والبخاري رحمه الله تعالى في كتابه الصحيح عندما أورد هذا الحديث بؤب له «باب أعِن أخاك ظالمًا أو مظلومًا» ثم أورد هذا الحديث مشيرًا إلى أن النصر هو الإعانة، وأنه جاء في بعض روايات الحديث ذلك: ((أعِن أخاك ظالمًا أو مظلومًا)) .

وإعانتته مظلومًا هذا أمر واضح، ولهذا قال الصحابة رضي الله عنهم: «يا رسول الله إن كان ظالمًا كيف ننصره؟» بمعنى أن نصره مظلومًا هذا أمر واضح ظاهر ، لكن كيف ننصره وهو ظالم؟ كيف نعينه وهو ظالم؟ فبيّن ذلك عليه الصلاة والسلام: ((تحجزه وتمنعه عن الظلم فذلك نصرك إياه)) .

ولعل -والله تعالى أعلم- ختم المصنف رحمه الله تعالى بهذا الحديث فيه لفتٌ إلى معنى لطيف جدًا يتعلق بفائدة وثمرة من دراسة هذا الكتاب «كتاب الكبائر» ؛ وكأنه يقول: يا من أكرمك الله وعرفتَ هذا الكتاب وعرفتَ هذه الكبائر ووقفتَ على هذه الأدلة انصر أخاك ، أعنه، أعِن أخاك الظالم الذي وقع في الظلم وقع في هذه الكبائر، أعنه بحجزه عنها ومنعه منها ؛ وحجزك له عنها بأن تدله على هذا العلم ، لأن أكبر رادع وحاجز للإنسان عن الظلم والوقوع في الكبائر أن يقف على النصوص وأن يقف على الأدلة ، وها أنت وقفت عليها وعرفتَ وفهمتَها فدلّ غيرك إليها ، هذا الخير الذي هداك الله عزّ وجلّ إليه ووفّقك لتعلّمه والعمل به بعون من الله سبحانه وتعالى ومدّ أوصله للآخرين ودلّ الآخرين عليه .

ولهذا الناس في هذا الزمان بحاجة شديدة جدًا الى أن يقرؤوا مثل هذه الكتب؛ هذا الكتاب، وكتاب «الكبائر» للإمام للذهبي رحمه الله تعالى؛ لأن أهل الشرّ تسلطوا على أهل الإسلام بنشر الأمور والوسائل والأسباب التي تهيج للشرّ وتحركه في قلوب الناس، وفي الوقت نفسه قلّت القراءة عند الناس والاطلاع على مثل هذه المعاني العظيمة، والتوجيهات المباركة والأحاديث النافعة في التحذير من الكبائر وبيان خطورتها. ولهذا قراءة مثل هذا الكتاب أو كتاب «الكبائر» للإمام الذهبي رحمه الله تعالى، والحث على نشره، ونشره بين الناس في البيوت وبين الشباب هذا من الأمور التي حقيقة يُحتاج إليها حاجه ماسّة في زماننا هذا.

وختم المصنّف رحمه الله تعالى كتابه «الكبائر» بقوله: «والله تعالى أعلم، تمت بحمد الله ومنّته، وصلى الله على سيدنا محمد، وسلّم تسليمًا كثيرًا».

ونسأل الله عزّ وجلّ أن يجزي هذا الإمام شيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب رحمه الله تعالى خير الجزاء، وأن يجزي جميع علماء المسلمين، وأن ينفعنا أجمعين بما علّمنا، وأن يزيدنا علمًا، وأن يصلح لنا شأننا كله، وألا يكلنا إلى أنفسنا طرفة عين، وأن يغفر لنا ولوالدينا وللمسلمين والمسلمات والمؤمنين والمؤمنات الأحياء منهم والأموات. وصلى الله وسلّم على عبده ورسوله نبينا محمد وآله وصحبه أجمعين.